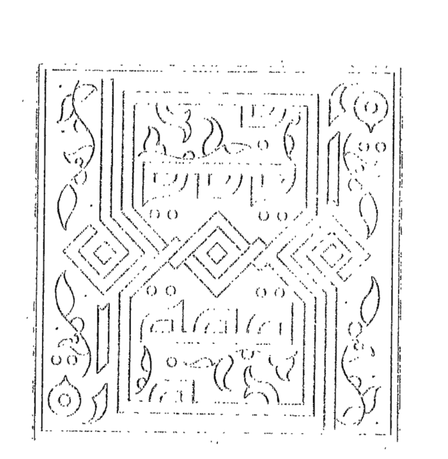
ول وايريل ديورانت

قصة الحضارة





قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

روسو والثورة

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد العاشر





بيروت



تونس

قصة الحضارة — الجزء العاشر

روســـو والثورة

تاريخ الحضارة في فرنسا ، وانجلترة ، وألمانيا

من ١٧٥٦ وفي بقية أوربا من ١٧١٥ إلى ١٧٨٩

بقـــــلم

ول وإيريل ديورانت

إلى ابنتنا الحبيبة

إثيل بنفنسوتا

التى كانت خلال هذه المجلدات كلها

عونا وإلهاما لنـا

أيها القارىء العزيز

هذا هو المجلد الأخير فى قصة الحضارة التى كرسنا لهـا نفسينا عام ١٩٢٩ ، والتى كانت شغلنا اليومى الشاغل وسلوى حياتينا منذ ذلك التاريخ .

لقد كان هدفنا أن نؤلف « تاريخاً متكاملا » أى أن نكتشف ونسجل ألوان النشاط الاقتصادى ، والسياسى ، والروحى ، والخلقى ، والثقافى ، لكل حضارة ، فى كل عصر ، بوصف هذه الألوان عناصر وثيقة الترابط فى كل واحد يسمى الحياة ، ثم نضفى على القصة صبغة إنسانية بدراسات للأبطال فى كل فصل من فصول هذه المسرحية المتصلة الحلقات ومع أننا نسلم بأهمية الحكم والسياسة ، فقد سقنا التاريخ السياسى لكل حقبة ودولة كما تساق خلفية رويت من قبل غير مرة ، دون أن يكون لب القصة أو روحها ، وتركز جل اهتمامنا على تاريخ العقل . ومن ثم كان أكثر اعتمادنا فى شئون الإقتصاد والسياسة على المصادر الثانوية ، بعكس ما انتهجناه فى تناولنا للدين ، والفلسفة ، والعلم ، والأدب ، والموسيقى ، والفن ، فقد حاولنا الرجوع فيها إلى الأصول والمنابع : حاولنا أن نرى كل دين وهو يعمل فى منبته ، وأن ندرس أخطر الفلسفات فى مؤلفاتها الكبرى ، وأن نزور الفن فى موقعه الأصلى أو الجديد ، وأن نتذوق روائع الأدب العالمى ، فى لغاتها الأصلية فى كثير من الأحيان ، وأن نستمع إلى الألحان الموسيقية العظمى مراراً وتكراراً ، ولو باقتطاعها من جوها المعجز . وتحقيقاً لهذه الأهداف طفنا بالعالم مرتين ، وبأوربا مرات لاتحصى من ١٩١٢ إلى ١٩٦٦ .وسيدرك القارىء العطوف أنه يستحيل علينا فى الأجل الواحد الذى كتب لنا أن نرجع بالمثل إلى المصادر الأصلية فى الإقتصاد والسياسة ،خلال قرون التاريخ الستين ، وحضاراته العشرين

ولم نجد منذ وحة عن الرضى بالحدود والقيود ، والتسليم بما فينا من عجز وقصور.

ويؤسفنا أننا سمحنا لإفتتاننا بكل جزء فى ملحمة الإنسان بأن يوقفنا فى رضى كثير ، حتى ألفينا نفسينا فى خاتمة المطاف منهوكى القوى حين بلغنا الثورة الفرنسية . ونحن نعلم أن هذا الحدث لم ينه التاريخ ، ولكنه نهينا . وما من شك فى أن طريقتنا المتكاملة الشاملة أفضت بنا إلى إثقال معظم هذه المجلدات بالطول المفرط . ولو أننا كتبنا تاريخاً ممزقاً — كقصة أمة ؛ أوفترة أوموضوع واحد — فلربما وفرنا على القارىء وقته وعتاده . غير أن تصوير جميع الجوانب فى قصة واحدة ، عن عدة أمم ، فى فترة معينة ، تطلب حيزاً للتفاصيل التى لم يكن منها بد لنفخ الحياة فى الأحداث والشخصيات. وسيشعر كل قارىء من جانبه بأن الكتاب مسرف فى الطول ، وأن تناوله لأمته أو لتخصصه مسرف فى القصر.

فقد يرغب قراء الإنجليزية أو الفرنسية فى أن يقصروا قراءتهم الأولى لهذا المجلد على الفصول ١ — ٨ ، ١٣ — ١٥ — و٢٠ — ٣٨ ، ويرجئوا الباقى إلى حين ، وقد يختار قراء لغات أخرى فصولهم على هذه الشاكلة . غير أننا نأمل أن يسير بعض الأبطال الشوط كله معنا ، فيحاولوا أن يروا أوربا بوصفها كلا فى تلك السنين الثلاث والثلاثين المفعمة بالأحداث ، والممتدة من حرب السنين السبع إلى الثورة الفرنسية ، على أننا لن نقترف هذا الأسباب مرة أخرى ، ولكن لو استطعنا أن نفلت من حاصد الأرواح سنة أخرى أو سنتين ، فإننا نرجو أن نقدم للقارىء مقالا ملخصاً فى « عظات التاريخ » .

لوس أنجيليس — ول وإيريل ديورانت

أول مايو ١٩٦٧

الكتاب الأول

مقدمة

الفصل الأول

روسو جواب الآفاق

١٧١٢ – ٥٦

١ – الاعترافات

كيف حدث أن رجلا ولد فقيراً ، وفقد أمه عند مولده ، ثم هجره أبوه بعد قليل وابتلى بمرض أليم مذل ، وترك يضرب فى الآفاق إثنى عشر عاماً بين مدن غريبة ومذاهب دينية متناحرة ، مرفوضاً من المجتمع والحضارة ، رافضاً فولتير ، وديدرو ، والموسوعة ، وعصر العقل ، رجلا طورد من مكان إلى آخر باعتباره ثائراً خطراً ، واتهم بالإجرام والجنون ، وشهد فى شهور حياته الأخيرة تأليه خصمه الألد – نقول كيف حدث أن رجلا كهذا ، بعد موته ، انتصر على فولتير ، وأحيا الدين ، وقلب التعليم رأساً على عقب ، ورفع أخلاقيات فرنسا ، وألهم الحركة الرومانية ، والثورة الفرنسية ، وأثر فى فلفسة كانط وشوبنهاور ، وتمثيليات شيلر ، وروايات جوته ، وشعر وردزورث وبيرون وشلى ، واشتراكية ماركس ، وأخلاق تولستوى ، وأتيح له – على الجملة – من التأثير على الأجيال التالية ما فاق تأثير أى كاتب أو مفكر آخر فى ذلك القرن الثامن عشر ، القرن الذى فاق فيه تأثير الكتاب تأثيرهم فى أى عهد سبقه ؟ هنا تواجهنا هذه

المشكلة أن كان لها أن تواجهنا فى أى موضع : ما الدور الذى لعبته العبقرية فى التاريخ ، مادور الإنسان إزاء المجتمع والدولة ؟

كانت أوربا آنئذ مهيأة لأنجيل يبوىء الوجدان مكاناً فوق الفكر فلقد سئمت قيود التقاليد والأعراف ، والآداب ، والقوانين . وسمعت ما يكفى عن العقل ، والجدل العقلى ، والفلسفة ، وبدا أن كل هذه الفوضى ، فوضى العقول التى أطلق حبلها على غاربها ، قد جردت الدنيا من المعنى ، وعطلت النفوس من الخيال والرجاء ، وكان الرجال والنساء بينهم وبين أنفسهن تواقين للعودة إلى حظيرة الإيمان . لقد ملت باريس ، ملت الضجيج والعجلة ، وسجن حياة المدينة وتزاحمها المجنون ، وهفت الآن إلى حلم حياة الريف الأكثر هوناً ، الحياة التى قد يجلب نظامها الرتيب البسيط للبدن صحة وللعقل سلاما ، والتى يرى فيها الإنسان من جديد نساء تزينهن الحشمة والخفر ، والتى تلتقى فيها القرية كلها فى كنيسة الأبرشية فى هادنة أسبوعية . ثم مابال هذا « التقدم » الذى يزهون به ، و « تحرير العقل » هذا الذى يفاخرون به — هل أحلا شيئا محل مادمراه ؟ هل أعطيا الإنسان صورة للعالم ومصير الإنسان أكثر وضوحاً للأفهام أو إلهاما للنفوس ؟ هل حسناحظوظ الفقراء ، أو أتيا بالعزاء والسلوى للمحزونين على فقد الأعزاء أو للمتألمين المكروبين ؟ سأل روسو هذه الأسئلة ، وأضفى الشكل والإحساس على هذه الشكوك ، فأصغت إليه أوربا بأسرها بعد أن أخمد صوته . وبينما كان فولتير يعيد على المسرح فى الأكاديمية (١٧٧٨) ، وبينما كان روسو الموبخ المزدرى يختبىء فى ظلام حجرة من حجرات باريس ، بدأ عصر روسو .

ولقد ألف أشهر ترجمة ذاتية فى أخريات أيامه ، وهى كتابه «الاعترافات» . ذلك أنه — وهو الرجل الحساس لكل نقد الظنون الذى خال جريم ، وديدرو ، وغيرهما يأتمرون به ليشوهوا سمعته فى صالونات باريس وفى « مذكرات » مدام دينيه — هذا الرجل بدأ عام ١٧٦٢ ، بإلحاح من أحد الناشرين ، كتابة قصته هو ليروى سيرته وخلقه . وكل التراجم الذاتية بالطبع غرور فى غرور ، غير أن روسو — الذى أدانته الكنيسة ، وحرمته من حماية

القانون ثلاث دول ، وهجره أخلص أصدقائه — كان له الحق فى الدفاع عن نفسه، بل فى الدفاع المستفيض: وحين قرأ فقرات من هذا الدفاع على بعض المحافل فى باريس حصل خصومه على أمر من الحكومة يحظر أى قراءة علنية أخرى لمخطوطته . فلما فت فى عضده ، تركها عند موته مشفوعة برجاء للأجيال التالية قال فيه :

« إليكم هذه اللوحة الإنسانية الوحيدة — المنقولة بالضبط عن الطبيعة بكل صــدق — الموجودة الآن أو التى ستوجد إطلاقاً فى أغلب الظن . وأيا كنتم ، يامن نصبكم قدرى وثقتى حكماً على هذا السجل ، فإنى استحلفكم بحق ماأصابنى من خطوب ومحن وبحق ماتشعرون به من أخوة البشر، وباسم الإنسانية جمعاء ، ألا تدمروا عملا نافعاً فريداً فى بابه ، قد يصلح بحثاً مقارناً من الدرجة الأولى لدراسة الإنسان . وألا تنتزعوا من شرف ذكراى هذا الأثر الصادق الوحيد لخلقى ، الأثر الذى لم ينــل من خصومى مسخاً وتشويهاً [1] .

والكتاب ، بمحاسنه ومآخذه ، نتاج لما فطر عليه مؤلفه من شدة الحساسية ، وقوة الذاتية ، ورهافة العاطفة . يقول روسو «إن قلبى الحساس كان أس بلائى كله .[2] ولكن هذا القلب أضفى ألفة حارة على أسلوبه ، وحنانا على ذكرياته ، وفى كثير من الأحيان سماحة على أحكامه ، وكلها تذيب نفورنا ونحن نمضى فى قراءة الكتاب . ففيه يغدو كل تجريد واقعاً شخصياً مجسداً ، وكل سطر شعوراً نابضاً بالحياة فهذا الكتاب أشبه بالنبع الذى تدفق منه نهر الاعترافات المستبطنة ، النبع الذى روى أدب القرن التاسع عشر ، لا لأنه لم يكن له ضريب سابق من كتب الاعترافات ، ولكن حتى القديس أوغسطين لم يستطع أن يضارع كل هذه التعرية للذات ، أو يدعى دعواها فى الأمانة والصدق . والكتاب يستهل بدفقة من البلاغة التى تتحدى المقلدين :

« إننى مقبل على مغامرة لم يسبق لها نظير ، ولن يكون لتنفيذها مقلد، أريد أن أظهر إخوانى فى الإنسانيه على إنسان فى كل صدق الطبيعة ، وهذا

الإنسان هو أنا نفسى . أنا مجرداً عن كل شىء . أننى أعرف قلبى ، وأنا عليم بالناس . ولم أخلق كأى حى من الأحياء . وإذا لم أكن خيراً منهم ، فإننى على الأقل مختلف عنهم . أما أن الطبيعة أحسنت أو أساءت بتحطيم القالب الذى صبيت فيه ، فذلك شىء لا يستطيع الحكم عليه إنسان إلا بعد أن يقرأنى .

« وأياً كان موعد الساعة التى سينفخ فيها فى صور يوم الحشر ، فسوف آتى وكتابى هذا فى يمينى لأمثل أمام الديان الأعظم وسوف أقول بصوت عال : كذلك سلكت ، وكذلك فكرت ، وكذلك كنت ، لقد تحدثت إلى الأبرار والأشرار بنفس الصراحة ، وما أخفيت شيئاً فيه سوء ، ولا أضفت شيئاً فيه خير . وقد أظهرت نفسى كما أنا : حقيراً خسيساً حين كنت كذلك ، وخيراً سمحاً نبيلا حين كنت كذلك ، لقد أمطت اللثام عن أعمق أعماق نفسى [٣] .

وتتردد دعواه فى توخى الصدق الكامل فى الكتاب مراراً وتكراراً . ولكن روسو يسلم بأن تذكره لأشياء انقضى عليها خمسون عاماً كثيراً مايكون تذكراً مبتوراً لا يمكن الركون إليه ، وللجزء الأول فى جملته جو من الصراحة يشيع الطمأنينة فى القارىء . أما الجزء الثانى فتشوهه الشكاوى المملة من الاضطهاد والتآمر . وأياً كان الكتاب ، فهو من أعظم مانعرف من الدراسات السيكولوجية كشفاً عن النفس ، وهو قصة روح حساسة شاعرة خاضت صراعاً أليماً مع قرن واقعى قاس . وعلى أية حال ، فإن كتاب الاعترافات ، لو لم يكن ترجمة ذاتية ، لكان من إحدى الروايات العظيمة فى العالم »[٤] .[*]

(*) مازال الجدل حول صدق « الاعترافات » حارا . وأهم مايدور عليه هو اتهام روسو لجريم وديدرو بأنهما تآمرا على تزييف رواية علاقاته بمدام ديبينيه ، ومدام دوديتو ، وبشخصيهما . وكانت كفة الرأى الناقد راجحة ضد روسو قبل ١٩٠٠ . فى ١٨٥٠ قرر سانت بيف ، بفظاظة غير معهودة فيه ، أن روسو لا يتردد فى الكذب أقل تردد أينما تعرضت كرامته وغروره المريض للخطر ، وقد خلصت إلى أنه كذب فيما يتصل بجريم ووافقه على هذا ، رأى قطب مؤرخى الأدب الفرنسيين ، جوستاف لانسون (١٨٩٤) ، فقال « إننا نفاجىء روسو فى كل صفحة متلبسا بأكاذيب مفضوحة — كذب ، لا مجرد —

. . . .

— خطأ ، ومع ذلك فالكتاب فى جملته يتقد إخلاصا وصدقا — لا صـــدق الوقائع بل صدق المشاعر(٦). وقدسبق هذان الحكمان نشر كتاب السيدة فردريكا مكدونلد «جان جاك — روسو» Jean - Jacques Rousseau - دراسة جديدة فى النقد — (لندن ١٩٠٦) . A New Sfudy in Critịcism ، الذى يثبت صواب اعتبار « المذكرات التى ألفتها مدام دبينيه متأثرة بموقف جريم وديدرو المنطوى على الحقد ، إن لم تكن مملاة فعلا من هـــذا الموقف . ودراستها للوثائق تغير ولا ريب كثيراً من المزاعم التى زعمها النقاد من قبل(٧) . قارن كتاب ماسون Mason ديانة روسو (I, 184) La Religion de Rousseau « سنرى أن علينا أن نكون شديدى الحذر فى الاعتماد على هذه الروايات التى أجرى فيها ديدرو قلمه بالكثير من التعديل والتبديل » . وقد وصـــل إلى أحكام مماثلة فى صف روسو ، ماثيو جوزفسن (Jean - Jáquues Rousseau 434 - 35, 531) واميل فاجيه (حياة روسو (Vie de Rousseau, 189 ، وجول لوميتر (Jean - Jacque Rousseau, 9 - 10) وفون C. E. Vaughn (كتابات روسو السياسية (Political Writings of Rousseau II, 295, 547 - 552 f.)

٣ — الفتى الشريد : ١٧١٢ — ٣١

« ولدت بجنيف فى ١٧١٢ ، ابنا لإسحاق روسو وسوزان برنار ، المواطنين » . والكلمة الاخيرة كانت تعنى الكثير ، لأن ألفا وستمائة فقط من بين سكان جنيف العشرين ألفـــا كانوا يملكون اسم المواطن وحقوقه ، وسيشارك هذا العامل فى تاريخ جان — جاك . وكانت أسرته فرنسية الأصل ، ولكنها وطنت فى جنيف منذ ١٥٢٩ . وكان جده قسيسا كلفنيا ، وقد ظـــل الحفيد فى صميمه كلفنيا طوال تطويفه الدينى كله ؛ أما أبوه فكان من إقطاب صناعة الساعات ، رجـــلا خصب الخيال لا يستقر له قرار ، أتاه زواجه (١٧٠٤) بصداق قدره ستة عشر ألف فلورين . وبعد أن أنجب غلاما ترك زوجته (١٧٠٥) ورحل إلى الآستانة حيث مكث ست سنوات ثم عاد لاسباب مجهولة ، « وكنت الثمرة الحزينة لهذه العودة : (٨) وماتت الأم بحمى النفاس بعد أسبوع من مولد جان — جاك « جئت إلى العالم أحمل أمارات قليلة جداً على الحياة ، بحيث لم يكن هناك كبير أمل فى الابقاء على ». وكفلته خالة له وأنقذته ، وهو عمل « أغتفره لك دون تحفظ » على حد قوله . وكانت الخالة تجيد الغناء والترتيل ، ولعلها بثت فيه ذلك الشغف بالموسيقى الذى لازمه طيلة حياته . وكان طفلا عبقريا ، تعلم القراءة فى زمن وجيز ، ولمـــا كان أبوه إسحاق مولعا بالقصص الرومانسية ، فقد راح الوالد والولد يقرءان معا الروايات المتخلفة فى مكتبة أمه الصغيرة . ونشىء جان — جاك على مزيج من القصص الغرامية الفرنسية ، وتراجم بلوتارخ ، والفضائل الكلفينية ، وجعله هذا المزيج قلقا مهزوزا . وقد وصف نفسه وصفا دقيقا بأنه « أبى هش فى وقت معاً ، فى خلق أنوثه وهو مع ذلك خلق عات لا يقهر ، دأب على وضعى فى موضع التناقض مع نفسى لأنه متذبذب بين الضعف والشجاعة ، وبين الترف والعفة(٩) .

وفى ١٧٢٢ تشاجر أبوه مع رجل يدعى الكابتن جوتييه ، فأسال الدم

من أنفه ، فاستدعاه القاضى المحلى ، ولكنه هرب من المدينة أتقاء السجن، واتخذ مقره مدينة نيون على ثلاثة عشر ميلامن جنيف . وبعد سنوات تزوج ثانية . وكفل فرانسوا وجان ــ جاك خالهما جابريل برنار . وألحق فرانسوا بصانع ساعات ، فهرب ، وأختفى من التاريخ . وأما جان ــ جاك وابن خاله أبراهام برنار فقد أرسلا إلى مدرسة داخلية يديرها القس لا مبرسييه فى قرية بوسيه القريبة . « هنا كان علينا أن نتعلم اللاتينية ، وكل اللغو التافه الذى أطلق عليه اسم التعليم . (١٠) وكان التعليم المسيحى الكلفنى جزءا من صميم المنهج ؟

وأحب معلميه ، لا سيما أخت القسيس ، الآنسه لا مبرسييه ، وكانت فى الثلاثين ، وجان ــ جاك فى الحادية عشرة ، فوقع فى غرامها على طريقته العجيبة . كان إذا ساطته عقابا على سوء الأدب ، أبهجه أن يتعذب على يديها ، « فإن شيئا من الشهوانية أختلط بالألم والخزى ، مما خلف فى الرغبة فى تكرار العقوبة أكثر من الخوف منه » .(١١) فلما عاد إلى الذنب وضح التذاذه بالعقاب وضوحا صممت معه على ألا تعود إلى ضربه بالسوط ؛ وقد ظل عنصر مازوكى يلازم تكوينه العشق إلى النهاية .

« وهكذا قضيت سن المراهقة ، ببنية متقدة ، دون أن أعرف أو حتى أشتهى أى أشباع آخر لرغباتى المشبوبة غير ما أوحت به إلى الآنسة لا مبرسييه فى براءة ، وحين بلغت مبلغ الرجال لم يختف هـــذا الميل الصبيانى بل إتحد مع الميل الأخر . ولقد ظلت هذه الحماقة وما صاحبها من شدة حياء فطرى تحول دائماً بينى وبين الاجتراء مع النساء ، وهكذا كنت إقضى أيامى أتحرق فى صمت شوقاً لمن أهيم بهن دون أن أجروء على البوح برغباتى . .

« وهاأنذا قـــد خطوت أول خطوة وأشقها فى تيه اعترافاتى الحالك الإليم . ذلك أننا لا نستشعر فى البوح بذنب ينطوى على الإجرام فعلا ذلك النفور الشديد الذى نستشعره فى البوح بذنب لا يثير غير السخرية» (١٢) .

ويجوز أن روسو ، فى حياته اللاحقة ، وجد عنصر لذة فى شعوره بالمقاومة والصد من العالم ، ومن اعدائه ، ومن أصدقائه .

وبعد اللذة التى وجدها فى عقوبات الآنسة لا مبرسييه وجد متعة فى المنظر الطبيعى الرائع الذى أحاط به ، «كان فى الريف من الفتنة . . . ما حبب إلى الحياة الريفية حباً لم يستطع الزمن أن يطفئه » .(١٣) ولعل هذين العامين اللذين أنفقهما فى بوسيه كانا أسعد سنى عمره رغم ما تكشف له من ظلم فى هذه الدنيا . فقد عوقب مرة على ذنب لم يجنه ، فاستجاب بسخط لم يفارقه قط ، وبعدها « تعلم أن يرائى ، ويتمرد ، ويكذب ، وبدأت كل الرذائل المألوفة فى حياتنا تفسد براءتنا السعيدة » .(١٤)

ولم يجاوز قط هذه المرحلة من التعليم المدرسى أو الكلاسيكى وربما كان افتقاره إلى التوازن ، وصواب الحكم ، وضبط النفس ، واخضاعه العقل للوجدان — ربما كان هذا كله راجعاً لأنهاء تعليمه المدرسى فى فترة مبكرة . ففى ١٧٢٤ ، حين بلغ الثانية عشرة ، أعيد هو وابن خالته إلى بيت أسرة برنار . وزار أباه فى نيون ، وهناك هام بفتاة تدعى فولسون ، فصدته عنها ، ثم بأخرى تدعى جوتون « أبت أن تسمح لى بشىء من التجاوز معها ، فى حين أباحت لنفسها أشد الحريات معى . (١٥) وبعد عام من التردد والتذبذب ألحق صبيا لحفار فى جنيف . وكان يحب الرسم ، وقد تعلم الحفر على ظروف الساعات ، ولكن معلمه كان يضربه بقسوة على ذنوب صغيرة . « فدفعنى إلى رذائل كنت أحتقرها بفطرتى ، كالكذب ، والكسل ، والسرقة » . وانقلب الصبى الذى كان من قبل سعيدا إلى غلام منطو مكتئب كاره لعشرة الناس .

ووجد السلوى فى الأدمان على قراءة الكتب التى استعارها من مكتبة قريبة ، وفى الرحلات الريفية يقوم بها فى الآحاد . وحدث مرتين أنه تباطأ فى الحقول حتى وجد أبواب المدينة مغلقة إذ حاول العودة ، فانفق الليل فى العراء ، ومضى إلى عمله نصف مشدوه ، وكان جزاؤه علقه ساخنة .

وفى رحلة ثالثة من هذه الرحلات حملته ذكرى هذا الضرب على أن يقرر إلا يعود إطلاقا فمضى قدما إلى كونفنيون فى سافوى الكاثوليكية ، على ستة أميال من بلدته ، وهو لم يبلغ بعد السادسة عشره (١٥ مارس ١٧٢٨) لا نقود معه ولا ثياب سوى ما يحمله على ظهره .

هناك طرق باب قسيس القرية الكاثوليكى الأب بنوا ديونفير ، ولعله سمع أن هـذا الكاهن الشيخ تواق لهداية الجنيفيين الشريدين ، فهو يقدم لهم الطعام الطيب عملا بالنظرية القائلة أن المعدة الممتلئة تعين على التفكير المستقيم . وقد قدم لجان — جاك غذاء طيباً ، وقال له « إذهب إلى آنسى ، حيث تجد سيدة صالحة خيرة يتيح لهـا كرم الملك أن تحول النفوس عن تلك الخطايا التى إقلعت عنها لحسن الحظ »[١٦]. ويضيف روسو أن هذه السيدة هى « مدام دفاران ، التى اهتدت إلى الكثلكة مؤخرا ، والتى رتب القساوسة أن يبعثوا إليها بأولئك التعساء المستعدين لبيع عقيدتهم ، وكانت إلى حد ما مضطرة إلى أن تشارك هؤلاء معاشا قدره ألفا فرنك أنعم بها عليها ملك سردانيا » . ورأى الفتى الشريد أنشطراً من ذلك المعاش قد يستأهل تغيير العقيدة . وبعد ثلاثة أيام ، فى آنسى ، مثل أمام مدام فرانسوا — لويز دلاتور ، بارونة فاران .

كانت فى التاسعة والعشرين ، امرأة حلوة ، كيسة ، دمثة ، سمحة جذابة الملبس ، « ما رأيت وجها أجل ولا جيدا أبدع ، ولا ذراعين مليحتين أروع تكوينا »[١٧] . وكانت فى مجموعها أبلغ حجة تناصر الكاثوليكية رآهـا روسو على الاطلاق . ولدت يفيفى لأسرة طيبة ، وتزوجت وهى صغير جداً من المسيو (البارون فيما بعد) دفاران اللوزانى وبعد سنوات من التنافر الأليم تركته ، وعبرت البحيرة إلى سافوى ، ونالت حماية الملك فكتور أمادو ، وكان يومها فى إفيان . وبعد أن نزلت آنسى ، قبلت اعتناق الكاثوليكية ، معتقدة أنها لو ادت شعائرها الدينية على الوجه الصحيح لغفر الله لها غرامياتها التى تقع فيها بين الحين والحين ،

ثم إنها لم تستطع أن تصدق أن يسوع الرقيق القلب سيقذف بالرجال — فما بالك بامرأة جميلة — فى النار الابدية[١٨] .

وكان يطيب لجان — جاك أن يمكث معها لولا إنها كانت مشغولة ؛ فنفحته ببعض المال ، وأمرته بأن يمضى إلى تورين ويتلقى التعليم فى « نزل الروح المقدس » وقد استقبل هناك فى ١٢ أبريل ١٧٢٨ ، وفى ٢١ أبريل عمد فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وحين استعاد ذكرى هذه الواقعة بعد أربعة وثلاثين عاماً — وقبل عودته إلى البروتستينية بثمانى سنوات — كتب يصف فى رعب تجربته فى النزل ، بما فى ذلك محولة للاعتداء على عفته من زميل مغربى حديث الاهتداء ؛ وقد خيل إليه أن موقفه من اعتناق الكاثوليكية كان موقف النفور ، والخزى ، والتسويف الطويل . ولكن الظاهر أنه تكيف مع الظروف التى وجدها فى النزل لأنه مكث هناك دون إكراه أكثر من شهرين بعد أن قبل فى كنيسة روما[١٩] .

ثم ترك النزل فى يوليو ، مسلحا بستة وعشرين فرنكا . وبعد أن أنفق أياما فى مشاهدة معالم المدينة وجد عملا فى متجر جذبه إليه جمال السيدة الواقفة خلف منضدته . ووقع فى غرامها للتو والساعة ، وما لبث أن جثا أمامها وبذل لها عهدا بالوفاء مدى الحياة . وابتسمت مدام بازيل ، ولكنه لم تسمح له بأن يتجاوز يدها ، ثم أن زوجها كان وشيك الوصول فى أية لحظة . يقول روسو « إن عدم توفيقى مع النساء نشأ دائماً عن أفراطى فى حبهن »[٢٠] ولكن كان فى فطرته أن يجد فى التأمل لذة أعظم مما يجد فى الإشباع وقد فرج عن ضيقه بتلك « التكملة الخطرة التى تخدع الطبيعة وتنقذ الفتيان ، الذين على شاكلتى مزاجا ، من اضطرابات كثيرة ، ولكن على حساب صحتهم ، وقوتهم ، واحيانا حياتهم[٢١] .

ولعل هذه العادة ، التى تفاقمت حماها نتيجة النواهى المرهبة ، لعبت دورا خفيا فى زيادة نزقه ، وأحلامه الرومانسية ، وشعوره بالقلق فى المجتمع ، وحبه للوحدة . وهنا نجد « الاعترافات » تتوخى صراحة لم يسبق لها نظير .

« كانت أفكارى فى شغل شاغل بالفتيات والنساء ولكن بطريقى الخاصة . وقد أبقت هذه الأفكار حواسى فى نشاط دائم مؤذ ... وبلغ بى التهيج مبلغا جعلنى ألهب رغباتى بأشد المناورات إسرافا بعد أن عجزت عن اشباعها . فكنت التمس الأزقة المظلمة والأركان المنزويه ، حيث استطيع أن أتعرى عن بعد أمام اشخاص من الجنس اللطيف فى الوضع الذى إشتهيت أن أكون عليه بقربهن . ولم يكن ما رأيته منى هو عورتى — فذلك ما لم يخطر لى ببال ، إنما كان العضو المثير للضحك (الأرداف) : ولا يمكننى وصف اللذة الحمقاء التى استشعرتها فى تعريتها أمام أعينهن . ولم تكن بين هذا وبين المعاملة المشتهاه (وهى الجلد) غير خطوة واحدة ؛ ولست أشك أن امرأة حازمة كانت إذ مرورها مانحتى هذه المتعة لو إننى جرؤت على التمادى فى فعلى .

« وذات يوم ذهبت لاقف فى مؤخرة حوش به بئر تستقى منها فتيات البيت . . . وعرضت عليهن مشهداً يثير الضحك أكثر مما يثير الغواية » أما أحكمهن فتظاهرن بأنهن لا يرين شيئاً ؛ وبدأ بعضهن يضحكن ، وأحس غيرهن بالأهانة فصحن مستغيثات » .

ولكن واحدة منهن لم تتقدم للأسف لتجلده — وبدلا من ذلك حضر حارس يحمل سيفا ثقيلا وله شارب رهيب ، ومن خلفه أربع عجائز أو خمس مسلحات بالمكانس . أما روسو فنجا بأن قال فى تعليل مسلكه أنه « شاب غريب من أسرة كريمة التاث عقله » ولكن ماله قد يمكنه فى المستقبل من مكافأتهم على غفرانهم فعلته ، « وتاثر الرجل المرعب » وخلى سبيله ، الأمر الذى اسخط العجائز غاية السخط[٢٢] .

وكان خلال ذلك قد وجد وظيفة تابع يرتدى زى الخدم فى بيت مدام دفرسللى ، وهى سيدة تورينية لها نصيب من الثقافة . هناك اقترف جريمة أثقلت ضميره طوال عمره . ذلك أنه سرق شريطا من أشرطة المدام الزاهية الألوان ، فلما أتهم بهذه السرقة ادعى أن خادمة أخرى أعطته

الشريط . وبختته الخادمة — ماريون — البريئة تماماً من السرقة توبيخا أنطوى على نبؤة ، فقالت له « إيه ياروسو ، ظننتك ذا طبيعة خيرة . أنك تجعلنى غاية فى التعاسة ، ولكننى لا ارضى أن أكون فى موقفك[٢٣] » . وطرد كلاهما ، ويضيف روسو فى إعترافاته :

لست إدرى ما أصاب ضحية إفترائى هـــذا ، ولكن كان الاحتمال ضعيفاً جدا فى أن تجد لها وظيفة حسنة بعد ذلك ، لأنها عانت من تهمة مؤذية لسمعتها من جميع الوجوه . . . ولقد ظلت الذكرى الإثمة لهـــذا العمل . . تثقل ضميرى إلى اليوم ، وفى وسعى أن أقول صادقا أن رغبتى فى التخفيف من ألم هذه الذكرى شاركت كثيراً فى تصميمى على كتابة إعترافاتى[٢٤] .

وقد تركت تلك الشهور الستة التى عمل فيها خادما بصمتها على خلقه ، فهو لم يصل قط إلى احترام نفسه رغم كل وعيه بعبقريته : وشجعه قسيس شاب لقيه وهو يخدم مدام دفرسللى على الاعقتاد بان فى أستطاعته التغلب على اخطائه إذا حاول مخلصا القرب من اخلاقيات المسيح . وقال السيد جيم هذا إن أى دين صالح ما دام يشيع السلوك المسيحى ؛ ومن ثم فقد أومأ إلى أن جان — جاك يكون آمناً بالا إن هـــو عاد إلى مسقط رأسه ومذهبه الأصلى . وقد استقرت هذه الآراء « لرجل من أفضل من عرفت من الرجال » طويلا فى ذاكرة روسو ، وأوحت إليه بصفحات مشهورة فى كتابه « إميل » . وبعد عام التقى فى مدرسة سان — لازار اللاهوتية ، بقس آخر هو إذ الأبيه جاتييه ، رجل له « قلب يفيض رقة وحنانا » فاته الترقى لأنه كان سببا فى حمل عذراء فى أبرشيته . يقول روسو معقبا « لقد كانت هذه الفعلة فضيحة رهيبة فى أسقفية شديدة التزمت ، لا يصح فيها أبدا للقساوسة (الخاضعين لتنظيم حسن) أن يكون لهم أبناء — إلا من نساء متزوجات[٢٥] » . ومن « هذين القسيسين الفاضلين ألفت شخصية قسيس سافوا » .

وفى مطلع صيف عام ١٧٢٩ ، عاود روسو — الذى بلغ الآن السابعة عشرة — الحنين إلى حياة الترحل ، ثم أنه علل نفسه بأنه قد يجد بمعونة مدام دفاران وظيفة أقل إذلالا لكبريائه . فانطلق بصحبة غلام جنيفى مرح يدعى باكل سيراً من تورين ، واخترقا ممر جبل سنيس فى الألب إلى شامبرى وآنسى . وقد صور قلمه الرومانسى تلك الإنفعالات التى جاشت بها نفسه وهو يدنو من مسكن مدام دفاران تصويرا رائعا « فقد ارتعشت ساقاى من تحتى وغامت عيناى ، فلم أبصر ولم أسمع ولم أذكر احدا ، واضطررت مرارا إلى الوقوف لألتقط أنفاسى وأملك أحاسيسى المشدوهة [٢٦] » . ولا شك فى أنه كان غير واثق من أنها سترحب بمقدمه . فكيف يستطيع أن يفسر لها كل ما طرأ على حياته من صروف وتقلبات منذ تركها ؟ على أن « نظرتها الأولى بددت جميع مخاوفى . ووثب قلبى لسماع صوتها . وألقيت نفسى عند قدميها ، وفى نشوة من الفرح العارم ضغطت شفتاى على يدها [٢٧] » : ولم يسؤها هيامه بها ، فخصصت له حجرة فى بيتها ، وحين بدأ البعض يتقولون كان جوابها « فليقولوا ما شاءوا ، ولكنى ما دامت العناية قد ردته إلى ، فأنى عازمة على إلا اتخلى عنه » .

* * *

٣ — ماما : ١٧٢٩ — ٤٠

وتعلق بها تعلقاً شديداً ، كأى فتى يتعلق بامرأة الثلاثين كان يلثم سرأ الفراش الذى تنام عليه ، والكرسى الذى تجلس عليه « بل الأرض ذاتها حين يخطر إلى أنها مشت عليها[٢٨] » .

(هنا يخيل الينا أن المبالغة طغت على التاريخ)

وكان شديد الغيرة من كل من ينافسونه على الاستئثار بوقتها . وتركته يخرخر كالهر السعيد ، وكانت تدعوه تارة بالقط الصغير ، وتارة بالطفل ، وشيئاً فشيئاً أرتضى أن يدعوها « ماما » واستخدمته فى كتابة رسائلها وإمساك حساباتها ، وجمع الأعشاب لهـــا ، ومعاونتها فى تجاربها الكيميائية . وأعطته كتبا ليقرأ — الاسبكتاتور ، ويوفندرف ، وسانت افرمون ، وملحمة فولتير الهنرياده . وكانت هى نفسها تحب أن تتصفح « قاموس بويل التاريخى النقدى » وكانت لا تسمح للاهوتها بأن يضايقها ، ولعل استمتاعها بصحبة الأب جرو ، ناظر مدرسة اللاهوت المحلية ، مرجعه أنه كان يساعدها على إحكام عقد مشدها « وبينما كان مشغولا بهذا كانت تجرى فى أرجاء الغرفة ، هنا أو هناك كما تدعو الدواعى . وكان الأب ، ناظر المدرسة ، يتبعها متذمرا تجره الأربطة من خلفها ، وهـــو لا يفتأ يردد « أرجوك أن تقفى ساكنة ياسيدتى » . وكان هـــذا كله مشهدا مسليا حقاً[٢٩] » .

وربما كان هذا القسيس المرح هـــو الذى أشار بأن جان — جاك قد يستوعب من التعليم قدرا يؤهله لأن يكون قسيس قرية ، وذلك على الرغم من كل أمارات الغباوة البادية عليه . ووافقت مدام دفاران وهى مغتبطة بالعثور له على مهنة يرتزق منها . وعليه فنى خريف ١٧٢٩ دخل

روسو مدرسة سان — لازار اللاهوتية ليحضر للقسوسية . وكان قد ألف الكاثوليكية الآن بل شغف بها[٣٠] ؛ احب فيها طقوسها المهيبة ، ومواكبها ، وموسيقاها ، وبخورها ، واجراسها التى خالها تعلن على الملأ كل يوم أن الله فى سمائه ، وأن العالم بخير أو سوف يكون بخير ، أضف إلى ذلك أن مذهبا يستهوى مدام دفاران ويغفر لها خطاياها لا يمكن أن يكون سيئاً . غير أن التعليم المدرسى الذى حصله من قبل كان من الضآلة بحيث اقتضى الأمر أن يفرض عليه منهج مركز فى اللاتينية . ولكنه لم يستطع صبرا على تصاريف أسمائها وصفاتها وأفعالها ، وبعد خمسة أشهر من الجهد والعرق رده معلموه إلى مدام دفاران بتقرير يقول أنه « غلام لا بأس بتقواه » ولكنه لا يصلح كاهنا .

وحاولت مساعدته من جديد . ودعاها ما لا حظته من ميله للموسيقى إلى تقديمه إلى نيكولوز لوميتر ، عازف الأرغن فى كتدرائية آنسى وذهب جان — جاك ليعيش معه طوال شتاء ١٧٢٩ — ٣٠ ، وعزاؤه أنه لا يبعد عن ماما سوى عشرين خطوة . وراح يرتل فى فرقة الترتيل ويعزف على الفلوت ، وأحب الترانيم الكاثوليكية ، ووجد الغذاء الطيب ، وكان سعيداً . ولم يعكر عليه صفو العيش مع المسيو لوميتر غير إسراف هذا العازف فى الشراب . وذات يوم تشاجر رئيس فرقة الترتيل الصغير مع رؤسائه ، فجمع كراسات موسيقاه فى صندوق ، ورحل عن آنسى . وامرت مدام دفاران روسو أن يصحبه حتى ليون . هناك سقط لوميتر على الطريق مغشيا عليه بفعل (البطاح) أى هذيان الحمى الذى يصيب مدمنى الخمر . واستغاث جان — جاك بالمارة وقد أصابه الرعب ، وأعطاهم العنوان الذى كان مدرس الموسيقى يبحث عنه ، ثم فر راجعاً إلى آنسى وماماً . « أن تعلقى بها بكل ما فيه من حساسية وصدق اقتلع من قلبى كل مخطط يمكن تصوره وكل حماقات الطموح . فلم أر سعادة فى غير العيش بقربها ، وما كنت لأخطو خطوة دون أن أشعر أن المسافة بيننا قد بعدت[٣١] » . ولكن علينا أن نذكر أنه لم يتجاوز يومها الثامنة عشرة .

فلما وصل إلى آنسى وجد أن المدام قد رحلت إلى باريس ولا أحد يعرف متى تعود . وأحس أنه وحيد مهجور ، فراح ينفق اليوم تلو اليوم هائماً على وجهه فى الريف ، يتأسى بالنظر إلى ألوان الربيع المشرقة وسماع زقزقة الطيور اللطيفة — هذه الطيور العاشقة بلا ريب . وكان أحب الأشياء إليه أن يستيقظ مبكراً ويرقب الشمس تطلع ظافرة فوق الأفق . ورأى فى إحدى جولاته تلك آنستين راكبتين ، تحثان جواديهما المترددين على خوض غدير أمامهما . وفى نوبة من نوبات البطولة أمسك بعنان أحد الجوادين وعبره الماء والآخر يتبعه . وكان على وشك المضى إلى حال سبيله لولا أن الفتاتين أصرتا على أن يصحبهما إلى كوخ يجفف فيه حذاءه وجواربه ، فوثب على ظهر أحد الجوادين خلف الآنسة ج . تلبية لدعوتها « فلما اضطررت إلى الإمساك بها لأستقر فى مكانى راح قلبى يدق وكانت دقاته من العنف بحيث أحست بها » (٣٢) فى تلك اللحظة بدأ يكبر على هيامه بمدام دفاران . وأنفق الشباب الثلاثة يومهم فى رحلة خلوية معاً ، وتجرأ روسو فقبل يد إحدى الفتاتين ثم تركتاه ، فقفل إلى آنسى منتشياً لا يكاد يعبأ بغياب ماما عنها . وقد حاول العثور على الآنستين ثانية ، ولكن دون جدوى .

وما لبث أن عاد يضرب فى الأرض من جديد ، واصطحب هذه المرة خادمة مدام دفاران إلى فريبورج . وإذا اخترق جنيف « ألفيتنى متأثراً بالغ التأثر حتى لم أكد أقوى على المضى فى طريقى . . . فقد رفعت صورة الحرية (الجمهورية) روحى إلى الذرى » (٣٣) . ومن فريبورج مشى إلى لوزان . ولم يعرف التاريخ كاتباً شديد الولع بالمشى مثله . فمن جنيف إلى تورين إلى أنسى إلى لوزان إلى نوشاتل إلى برن إلى شامبيرى إلى ليون عرف الطريق واستمتع شاكراً بالمناظر والروائح والأصوات .

« يطيب لى أن أمشى على سجيتى ، وأن أقف حيث اشتهى ، فحياة المشى ضرورية لى . والسفر على الأقدام ، فى ريف جميل ، وجو بديع ،

وبهدف لطيف أختم به رحلتى — هذا أنسب ما يروقنى من ضروب العيش » (٣٤) .

ذلك أنه لعدم شعوره بالإطمئنان فى حضرة الرجال الذين أصابوا حظاً من التعليم ، وبالخجل والعى فى حضرة النساء الجميلات ، كان يسعد إذا انفرد بالغابات والحقول ، والماء ، والسماء ، فجعل من الطبيعة مستودع سره ونجواه وأفضى إليها بغرامياته وأحلامه فى حديث صامت . وخيل إليه أن حالات الطبيعة المتقلبة تمتزج أحياناً فى تناغم صوفى مع حالته النفسية . ولم يكن أول من أشعر الناس بجمال الطبيعة ، إلا أنه كان أشد رسلها تحمساً لها وتأثيراً فيهم فنصف شعر الطبيعة منذ روسو هو جزء من تراثه ، لقد شعر هالر من قبل بجلال جبال الآلب ووصفه ، ولكن روسو جعل من سفوح سويسرة على طول الساحل الشمالى لبحيرة جنيف ملكه الخاص ، وأورث الأجيال عبير كرومها المدرجة . فلما أراد اختيار موقع لبيت يسكنه شخصيتى جولى وفولمار أسكنهما هنا ، فى كلارنس بين فيفيه ومونترو ، فى فردوس أرضى امتزجت فيه الجبال والخضرة والماء والشمس والثلوج .

وانتقل إلى نوشاتل حين لم يصب نجاحا فى لوزان « هنا . . . : بفضل تدريسى للموسيقى اكتسبت بعض الإلمام بها دون وعى منى . » (٣٥)

وفى بلدة قريبة تدعى بودرى التقى بحبر يونانى يلتمس بعض المال لترميم كنيسة القبر المقدس فى أورشليم ، فرافقه روسو مترجماً له ، ولكنه تركه فى سوليو ومشى خارجاً من سويسرة داخلا فرنسا . وفى أثناء سيره دخل كوخا وسأل صاحبه أيستطيع شراء طعام ، فقدم له الفلاح خبز الشعير واللبن ، وقال إن هذا كل ما يملك ، ولكنه حين رأى أن جان — جاك ليس جابى ضرائب فتح باباً مسحوراً نزل منه ثم عاد بخبز قمح ، وبيض ، ونبيذ . وعرض روسو أن يدفع ثمن طعامه ، ولكن الفلاح أبى أن يقبله ، وعلل سلوكه بأنه مضطر إلى إخفاء خير الطعام مخافة أن يفرض عليه المزيد من الضرائب . » إن ما قاله لى .. خلف فى ذهنى أثراً لا يمحى ،

ويذر بذور تلك الكراهية التي لاتطفأ والتي نمت منذ ذلك الحين في قلبي ، الكراهية لما يقاسيه هؤلاء التعساء من عنت ، والسخط الشديد على ظالميهم . (٣٦)

وفى ليون أنفق أياماً بغير مأوى ، يفترش المقاعد فى الحدائق العامة أوينام على الأرض ، واستخدم حيناً فى نسخ الموسيقى . فلما سمع أن مدام دفاران .

تسكن شامبرى (على أربعة وخمسين ميلا إلى الشرق) ، انطلق لينضم إليها من جديد . ووجدت له وظيفة سكرتير للاحظ الأقاليم(١٧٣٢-٣٤) وكان خلال ذلك يعيش تحت سقفها ، لاينقص من سعادته بعض الشيء غير ماكشف من أن مدير أعمالها كلود آنية هو أيضاً يعشقها . ويتضح ما طرأ على غرامه من فتور من هذه الفقرة الفريدة فى اعترافاته :

« لم أستطع أن أعلم ، دون ألم ، أنها تعيش فى مودة أوثق مع شخص غيرى . . ومع ذلك فبدلا من أن أشعر بأى كراهية للشخص الذى تفوق على على هذا النحو وجدت الود الذى أكنه لها يمتد فعلا إليه ، فلقد تمنيت لها السعادة فوق كل شيء وإذ كان معنياً بخطتها التى توسلت بها للسعادة ، فقد رضيت له السعادة هو أيضاً واعتنق خلال ذلك أفكار خليلته تماماً وشعر بصداقة مخلصة لى . . وهكذا عشنا فى وحدة أسعدتنا جميعاً ، وحدة لايقوى على فصم عراها غير الموت . ومما يدل على سمو خلق هذه المرأة الودود أن كل الذين أحبوها أحبوا بعضهم بعضاً ، فحتى الغيرة والتنافس أذعنا للعاطفة الأقوى التى ألهمتهم أياها وما رأيت قط واحداً ممن أحاطوا بها يضمر أقل حقد للآخرين . فليتوقف القارىء هنيه عند هذا المديح ، وإذا استطاع أن يتذكر أى أمرأة أخرى تستحقه فليرتبط بها أن أراد لنفسه السعادة (٣٧) .

أما الخطوة التالية فى هذه الرواية الغرامية المتعدده الأطراف فكانت هى

أيضاً نقيضاً لكل قواعد الزنا . ذلك أن مدام دفاران حين أدركت أن جارة لها تدعى المدام دمانتون تتطلع إلى أن تكون أول من يعلم جان — جاك فنون الغرام ، عرضت نفسها عليه خليلة دون أن يكون فى هذا الوضع إضرار بخدماتها المماثلة لآنية ، إما لأنها أبت أن تسلم بالتفوق لجارتها وإما لأنها أرادت أن تحمى الفتى من ذراعين أقل حنانا من ذراعيها وأنفق جان — جاك ثمانية أيام يدير الأمر فى رأسه ، فقد كان من أثر طول ألفته بها أن أفكاره عنها كانت بنوية أكثر منها شهوانية . يقول « لقد أحببتها حبا منعنى من أن اشتهيها[٣٨] » وكان آنئذ يعانى من الأمراض التى قدر لها أن تطارده حتى النهاية ، وهى التهاب المثانة وضيق مجرى البول. وأخيرا ، وبكل الحياء المنتظر منه ، ارتضى العمل باقتراحها . يقول :

« واخيرا جاء اليوم الذى كنت أخشاه أكثر مما أتوق إليه . . . . فلقد كان قلبى يحبذ غراميات دون أن يشتهى الجائزه . ولكنى حصلت عليها رغم ذلك . ورأيتنى لأول مرة بين ذراعى امرأة ، وامرأة أعبدها . أكنت سعيدا ؟ لا لقد ذقت اللذة ، ولكنى لا أدرى أى حزن طاغ سمم هذه التعويذه فلقد شعرت كأنى أقترف سفاح المحارم . وبينما كنت أضمها بين ذراعى فى نشوة الفرح اغرقت صدرها مرتين أو ثلاثا بدموعى . أما هى فلم تكن بالحزينة ولا بالفرحة ، بل كانت هادئة وهى تعانقنى وتقبلنى ولم تستشعر أى إنتشاء ، ولا أحست بالندم قط ، لأنها لم تكن شهوانية على الأطلاق ، ولم تكن تبحث عن اللذة بتاتا[٣٩] .

وقد عزا روسو إلى سم الفلسفة مناورات هذه السيدة وهــو يستحضر ذكرى هذا الحدث البارز فيما بعد . قال :

« أكرر أن كل مشاعرها كانت نتيجة خطئها لا نتيجة شهواتها . فلقد كانت كريمة المولد ، نقية القلب ، نبيلة السلوك ، وكانت رغباتها سوية فاضلة ، وذوقها رقيقا مرهفا . وبدا أنها خلقت لذلك الطهر الرائع — طهر الآداب — الذى أحبته على الدوام ولكنها لم تمارسه قط ، لأنها بدلا من أن تصغى إلى أوامر قلبها اتبعت أوامر عقلها الذى ضللها . . . . ومن

سوء حظها أنها كانت تعتز بالفلسفة ، وكان من أثر المبادىء الخلقية التى استخلصتها من هذه الفلسفة إفساد الفضيلة التى أشار بها قلبها[٤٠] .

ومات آنيه فى ١٧٣٤ . واستقال روسو من وظيفته فى خدمة ملاحظ الإقليم ، وتولى إدارة أعمال المدام وقد وجدها فى حال خطرة من الخلل تشرف على الأفلاس فحصل على بعض المال بتدريس الموسيقى ، وفى ١٧٣٧ آلت إليه ثلاثة آلاف فرنك إستحقت له من ميراث أمه . فأنفق بعضها على الكتب ، وأعطى الباق لمدام دفاران . ثم لزم الفراش ، فرضته ماماً بحنان . ولما لم يكن لبيتها حديقة فقد استأجرت (١٧٣٦) كوخا فى ضاحية يسمى الشارميت هناك « سارت حياتى سيراً هادئا غاية الهدوء » ومع أنه « لم يكن يحب قط أن يصلى فى قاعة » فإن الخلاء خارج الكوخ حفزه لشكر الله على جمال الطبيعة وعلى مدام دفاران ، ولطلب البركة الألهية على رباطهما . وكان يومها شديد التعلق باللاهوت الكاثوليكى مع شائبة حزينة من الجانسنية « فكثيرا ما عذبنى خوف الجحيم[٤١] » .

وكان يقلقه أكتئاب هو ضرب من الوهم كان رائجا فى ذلك العهد . وقد خيل إليه أن هناك ورما فى غشاء قريب من قلبه ، فقصد مونبلييه فى مركبة البريد : وفى الطريق هدأ من أكتئابه بما زعم أنه تحقيق لوصال بمدام دلارناج (١٧٣٨) وكانت أما لفتاه فى الخامسة عشرة . فلما عاد إلى شامبرى وجد أن مدام دفاران تجرب علاجا مماثلا ، وأنها اتخذت عشيقا جديداً لها من صانع باروكات شاب يدعى جان فنتسنريد . واحتج روسو؛ فقالت له إنه يسلك كالأطفال ، وأكدت له أن فى حبها متسعا لاثنين باسم جان . ولكنه أبى أن « يحط من كرامتها على هذا النحو » ، فاقترح عليها أن يعود إلى وضعه القديم ، فزعمت أنها موافقة ، ولكن أستياءها من تخليه عنها بهذه السرعة أصاب محبتها له بالفتور . وأعتكف فى شارميت وأقبل على دراسة الفلسفة .

ولأول مرة (حوالى ١٧٣٨) وعى بنسائم « التنوير » الهابة من باريس وسيريه . فقرأ بعض أعمال نيوتن ، وليبنتز ، وبوب ، وقلب فى متاهات

قاموس بيل . ثم عاد إلى درس اللاتينية ، وأحرز فى ذلك بجهده وحده تقدما أكثر مما أحرز من قبل على يد معلميه ووفق إلى أن يقرأ شذرات من فرجل ، وهوراس ، وتاسيتوس ، وترجمة لاتينية لمحاورات افلاطون . وطلع عليه لابرويير ، وبسكال ، وفنيلون ، وبريفوست ، وفولتير ، وكأنهم رؤيا أدارت رأسه « لم يفتنا شيء مما كتبه فولتير » ؛ والواقع أن كتب فولتير هى التى « أوحت إلى بالرغبة فى أن أتأنق فى الكتابه ، وحملتنى على محاولة تقليد تلوينات ذلك الكاتب الذى فتنت به أى فتنة[٤٢] » وعلى غير وعى منه فقد اللاهوت القديم الذى كان من قبل إطار إفكاره ، شكله وصرامته ، فوجد نفسه يفكر دون رعب فى عشرات الهرطقات التى كانت تبدو له فى شبابه فاضحة شائنه . وحل محل إله الكتاب المقدس إيمان جار يوشك أن يكون مشبوبا هو الإيمان بوحدة الوجود . هناك إله ، نعم ، والحياة بدونه لا معنى لها ولا يطيقها الإنسان ، ولكنه ليس ذلك الإله الخارجى ، المنتقم ، الذى تصوره الناس القساة الجبناء ؛ إنما هو روح الطبيعة ، والطبيعة فى صميمها جميلة ، والطبيعة البشرية فى أساسها خيره . وعلى هذا الإيمان ، وعلى بسكال ، سيقيم روسو فلسفته .

وفى ١٧٤٠ وجدت له مدام دفاران وظيفة معلم خاص لولدى المسيو بونو دمابليه ، رئيس بلدية ليون وافترق عنها دون لوم ولا عتاب من أحد الطرفين ، وأعدت له ثياب الرحلة ، وخاطت لها بعض الملابس بيديها اللتين كانتا فتنة له يوما ما .

* * *

٤ — ليون والبندقية وباريس : ١٧٤٠ — ٤٩

كانت أسرة مابليه حافزا فكريا جديداً لروسو . وكان رئيس البلدية أكبر إخوة ثلاثة نابهين ، أحدهم جابرييل بونو دمابليه الذى اقترب من الشيوعية ، والآخر هو الأبيه إتيين بونو دكونديلاك ، الذى أوشك أن يكون ماديا . وقد التقى روسو بثلاثتهم . وبالطبع وقع فى غرام مدام دمابليه ، ولكنها كانت من السماحة بحيث لم تعر الأمر أهمية . واضطر جان — جاك أن ينصرف إلى مهمته ، وهى تعليم ولديها . فأعد للسيد دمابليه بيانا بأفكاره التربوية ، وكانت فى بعضها تتفق والمبادىء التحررية التى ستعرض عرضا رومانسيا ممتازا فى كتابه « إميل » بعد اثنين وعشرين عاماً ، وفى بعضها تناقض رفضه اللاحق لـ « الحضارة » ، لأنها اعترفت بقيمة الفنون والعلوم فى تطوير النوع الإنسانى . وكان يلتقى مراراً برجال كالأستاذ بورد عضو أكاديمية ليون (وكان صديقاً لفولتير) ، فتشرب قدرا أكبر من «التنوير» ، وتعلم أن يهزأ بالجهل والخرافة الشائعين بين الجماهير . ولكنه ظل طوال حياته مراهقا . فذات يوم رأى شابة عارية تماماً إذ اختلس النظر إليها وهى تستحم فى الحمامات العامة ، وتوقف قلبه عن النبض ، فلما خلا إلى نفسه فى حجرته وجه إليها خطابا جريئا غفلا من التوقيع قال فيه :

« لا أكاد أجرؤ على الاعتراف لك يا آنسة بالظروف التى أدين لها بسعادة رؤيتى أياك وعذاب حبى لك . فقد فتننى فيك ما هــو أكثر من ذلك الجسد النحيل اللطيف الذى لا ينتقص العرى من جماله ، وذلك القوام الأنيق ، وتلك الخطوط الرشيقه . . . ما هــو أكثر من نضارة الزئبق المنثور على شخصك بهذا السخاء الكثير . . . أنها حمرة الخجل الناعمة التى رأيتها تكسو جبينك حين أسفرت عن وجودى لعينيك بعد أن جردتك بخبث شديد — بغناء بيتين من الشعر[٤٣] .

وكان الآن قد شب إلى السن التى تغريه بعشق الصبايا ، فكادت كل

فتاة حسنة الطلعة تثير أشواقه وأحلامه ، ولكنه تعلق على الأخص بسوزان سير . « مرة — وأأسفاه ، مرة واحدة فقط فى حياتى ؟ لمس فمى فمها . إيه أيتها الذكرى ؟ هل أفقدك فى القبر ؟ » وبدأ يفكر فى الزواج منها ، ولكنه اعترف لها قائلا « ليس لدى ما أقدمه لك سوى قلبى [٤٤] » ولما لم يكن قلبه عملة قانونية ، فإن سوزان قبلت يد غيره ، وانكفأ روسو إلى إحلامه من جديد .

إنه لم يخلق ليكون عاشقا ناجحا ولا معلما كفئا .

« كان لدى من المعرفه القدر اللازم تقريبا لمدرس خاص . . . وبدا أن رقة طبعى الفطرية تهيئنى لهذا العمل ، لولا أن تعجل الأمور اختلط بهذا الطبع فإذا سارت الأمور رخاء ورأيت أن الجهود التى لم أضن بها أثمرت كنت ملاكا ، إما إذا اخفقت فقد كنت أنقلب شيطانا . فإذا لم يفهمنى تلميذاى تعجلت الشرح ، وإذا أظهرا أى أمارات على الطبع المشاكس كان ذلك يستفزنى استفزازا يكاد يحملنى على قتلهما . . . . وصممت على تركهما بعد أن اقتنعت بأننى لن انجح إبدا فى تعليمهما التعليم الصحيح : وتبين المسيو دمابليه هذا بالوضوح الذى تبينته به وأن كنت ميالا إلى الاعتقاد بأنه ما كان ليطردنى قط لولا أننى أعفيته من هذا العناء » .

وهكذا أستقل مركبة البريد قافلا إلى شامبرى بعد أن أستقال وهو حزين ، أو طرد طرداً كريما . والتمس العزاء من جديد بين ذراعى ماماً : فاستقبلته هى فى تلطف وأفسحت له مكاناً على ما ثدتها مع عشيقها : ولكنه لم يكن سعيدا فى هذا الموقف ، فاغرق نفسه فى الكتب والموسيقى ، وابتكر طريقة للتدوين الموسيقى تستخدم الأرقام بدلا من الرموز . ولما عزم على الذهاب إلى باريس وعرض اختراعة على أكاديمية العلوم أثنى الجميع على قراره . وفى يوليو ١٧٤٢ عاد إلى ليون ملتمسا خطابات تقديم إلى الأعيان فى العاصمه . وأعطاه آل مابليه خطابات إلى فونتنيل

والكونت دكايلوس "وقدمه بورد إلى الدوق درشليو . ومن ليون أستقل المركبة العامة إلى باريس تداعب رأسه أحلام المجد

وكانت فرنسا آنذاك مشتبكة فى حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠—٤٨) ولكن الحرب كانت تدور رحاها على أرض أجنبيه ، وعليه فقد سارت باريس سيرتها الأولى وواصلت حياة المرح البهى والاضطراب الفكرى ، حياة المسارح الناطقة بمسرحيات راسين ، والصالونات المتألقه بالهرطقات والسخريات ، والأساقفة الذين يقرءون فولتير ، والشحاذين الذين ينافسون البغايا ، والباعة الجوالين الذين ينادون على بضائعهم ، والصناع الذين يبذلون العرق فى سبيل لقمة العيش إلى هذه الدوامة أقبل جان - جاك روسو ، وهو فى الثلاثين من عمره ، فى أغسطس ١٧٤٢ ، وفى كيسه من المال خمسة عشر جنيها . واستأجر حجرة فى فندق سان - كنتان بشارع الكوردلييه بقرب السوربون — « شارع حقير وفندق تعس ، وحجرة بائسه [٤٦] » وفى ٢٢ أغسطس قدم إلى الأكاديمية « مشروعا عن علامات جديدة للتدوين الموسيقى » . ورفض العلماء مشروعه فى مجاملة لطيفة . وشرح له رامو رأيهم قائلا « أن علاماتك حسنه جدا . . . ولكن عليها إعتراضا ، هو أنها تحتاج إلى إعمال الذهن ، وهو أمر لايمكن دائما أن يرافق سرعة التنفيذ . أما موضع علاماتنا فيصور للعين دون تزامن مع هذه العملية » واعترف روسو بأن الأعتراض لا يمكن التغلب عليه[٤٧] .

وأتاحت له خطابات التقديم التى إتخذها معه خـــلال ذلك الاتصال بفونتنيل الذى كان وهو فى عامه الخامس والثمانين أحرص على طاقته من أن يأخذ روسو مأخذ الجد ، والاتصال بماريفو الذى قرأ مخطوطة مسرحية روسو الهزلية « نارسيس » واقترح أن يدخل عليها تحسينات ، وذلك رغم إنشغاله بنجاحه روائيا وكاتبا مسرحيا وقابل الوافد الجديد ديدرو ، الذى لم يكن بعد قد نشر أى مؤلف يؤبه به ، وكان يومها يصغر جان — جاك بعام واحد .

« كان ولوعا بالموسيقى ، يعرفها نظريا . . . وقد حدثنى بعض

مشروعاته الأدبية . . . وسرعان ما وثق هذا بيننا صلة دامت خمسة عشر عاماً ، وأغلب ظني أنها كانت ستدوم إلى اليوم لولا أننا لسوء الحظ... أبناء حرفة واحدة » (٤٨) .

وكان يصاحب ديدرو إلى المسرح أويلاعبه الشطرنج ، والتقى روسو فى تلك اللعبة بفيليدرو وغيره من مهرة لاعبيها ، و« لم يكن عندى شك فى أننى فى النهاية سأتفوق عليهم جميعاً» .(٤٩) ووجد سبيله إلى بيت مدام دوبان وصالونها ، وكانت ابنة المصرفى صموئيل برنار ، وعقد صداقة مع ابن زوجها كلود دوبان دفرانكوى وخلال ذلك أوشكت نقوده على النضوب .

وبدأ يبحث من حوله عن عمل يستكمل به جهود أصدقائه فى إطعامه . فعرضت عليه بنفوذ مدام بزنفال وظيفة سكرتير للسفارة الفرنسية فى البندقية . وبعد أن قطع رحلة طويلة محفوفة بالخطر بسبب الحرب ، وصل إليها فى ربيع ١٧٤٣ وقدم نفسه إلى السفير الكونت دمونتاجو . ويؤكد لنا روسو أن هذا الكونت كان أمياً تقريباً ، وكان على السكرتير أن يفك شفرة الوثائق وأن يحررها ، وكان يقدم رسائل الحكومة الفرنسية إلى مجلس شيوخ البندقية بشخصه لأنه لم ينس الإيطالية التى كان قد تعلمها فى تورين وكان فخوراً بمنصبه الجديد ، وشكا من أن مركباً تجارياً زاره لم يطلق المدافع تحية له مع أن هذه « التحية نالها من هم أقل شأناً » . (٥٠) وتشاجر الرئيس والمرؤوس على أيهما يظفر بالرسوم التى تدفع نظير استخراج السكرتير لجوازات السفر إلى فرنسا . وقد صلحت حال روسو بفضل نصيبه من هذه الرسوم ، فتناول الطعام الطيب على غير العادة ، واختلف إلى المسرح والأوبرا ، ووقع فى غرام الموسيقى الإيطالية والفتيات الإيطاليات .

وذات يوم زار مومساً تسمى لابدوانا « لكيلا أبدو شديد البلاهة أمام رفاقى » وطلب إليها أن تغنى فغنت ، فنقدها دوكاتيه وهم بالإنصراف ، ولكنها رفضت أن تأخذ قطعة النقود دون أن تكون قد بذلت فى نيلها

جهداً . فأرضاها ، وعاد إلى مسكنه « مقتنعا كل الاقتناع بأننى سأتجرع عواقب هذه الفعله ، فكان أول شيء فعلته أنني استدعيت جراح الملك لألتمس منه الدواء « ولكن الطبيب » أقنعنى بأن فى خلقتى ما يجعلنى لاأقبل العدوى بسهولة » (٥١) وبعد فترة أقام له أصدقاؤه حفلة يثاب فيها بجائزة هى الغانية الجميلة زوليتا فدعته إلى حجرتها وخلعت ثيابها . « وفجأة ، بدلا من أن اضطرم بنار الشهوة أحسست ببرودة قاتله تسرى فى عروقى ، وباشمئزاز ينفذ إلى أعماقى ، فجلست وانخرطت فى البكاء كالأطفال » . وقد علل عجزه هذا فيما بعد بأن أحد ثديى المرأة كان مشوها . أما زوليتا فقد انقلبت عليه هازئة وقالت له « دع النساء وشأنهن . وانصرف إلى درس الرياضة » (٥٢).

وأوقف المسيو دمونتاجو صرف راتب روسو لأن راتبه هو كان متأخراً . فعادا إلى الشجار ، ورفت السكرتير (١٧٤٤) وشكا روسو إلى أصحابه فى باريس وأرسل استفسار إلى السفير فأجاب « يجب أن أبلغكم كم كنا مخدوعين فى السيد روسو . ذلك أن حدة طبعه ووقاحته الناجمين عن شدة اعتداده بنفسه . وعن جنونه . هما اللذان أفضيا به إلى الحال الذى وجدناه عليه . لذلك طردته كما يطرد خادم سيء » (٥٣) وقفل جان — جاك إلى باريس (١١ أكتوبر) وطرح على الموظفين المختصين فى الحكومة وجهة نظره فى النزاع فلم ينصفوه . فلجأ إلى مدام دبزنفال . ولكنها رفضت أن تستقبله . فأرسل إليها خطابا عنيفاً نستطيع أن نحس فيه لفحات الثورة الفرنسية البعيدة :

« كنت مخطئاً يا سيدتى ، فقد ظننتك منصفة فإذا بك « نبيلة » فقط ، وكان يجب على أن أذكر هذا وأن أدرك أنه لا يليق بى — وأنا رجل غريب أنتمى إلى طبقة العامة — أن أشكر أحد السادة . ولو أن قدرى رمانى ثانية فى قبضة سفير بهذا الخلق لكابدت آلامى دون شكوى . فإذا كان مفتقراً إلى الإحساس بالكرامة ، ينقصه سمو النفس ، فذلك لأن النبالة فى غنى عن هذا كله ، وإذا اقترن بكل ما هو حقير دنيء فى بلد من أشد بلاد الله

فسادا ، فذلك لأن أجداده خلقوا له من الشرف ما يكفيه ؛ وإذا عاشر الأوغاد ، أو كان هو نفسه وغدا ، وإذا أكل على خادم أجره ، إذن. ياسيدتى فلن أخلص إلا إلى هذا الرأى ، وهو أن من حسن حظ المرء إلا يكون وليد افعاله هو . فهولاء الاجداد — من كانوا ؟ أشخاص لا شهرة لهم ، ولا مال ، نظرائى ، كان لهم موهبة من نوع ما ، وبنوا لأنفسهم سمعة ، ولكن الطبيعة التى تبذر بذرة الخير والشر ، اعطتهم نسلا حقيرا[٥٤] » .

ثم إضاف روسو فى « الإعترافات » :

« لقد خلفت عدالة شكاواى وعدم جدواها فى ذهنى بذور السخط على نظمنا الاجتماعية الحمقاء التى تضحى فيها دائماً رفاهية الشعب والعدل الحقيقى فى سبيل مظهر للنظام ما أنزل الله به من سلطان ، لا ثمرة له إلا أنه يضيف موافقة السلطة العامة إلى ظلم الضعفاء وبغى الأقوياء[٥٥] .

ولما عاد مونتاجو إلى باريس أرسل إلى روسو « بعض المال تسوية لحسابى . . . وتسلمت ما أعطانى وسددت كل ديونى ، وعدت يا مولاى كما خلقتنى . » واستقر ثانية فى فندق سان — كنتان وارتزق بنسخ مدونات الموسيقى . ولما سمع النبيل الذى كان يحمل آنئذ لقب دوق أوليان بفقره أعطاه كراسات موسيقى لينسخها مشفوعة بخمسين جنيها ذهبيا ، فاحتجز روسو منها خمسة ورد الباقى لأنه يزيد على حقه .[٥٦]

وكان ما يكسبه أقل كثيراً مما يتيح له أن يعول زوجة ، ولكنه رأى أن فى استطاعته أن يعول خليلة إذا أحكم التدبير وكان من بين من يؤاكلونه فى فندق سان — كنتان صاحبة الفندق ، وبعض الآباء الدينيين المفلسين ، وشابة تخدم الفندق غسالة أو خياطة . وكان فى هذه المرأة ، وإسمها تريز لقاسير ، ما فى جان — جاك من إحجام وتردد ، ووعى بالفقر وأن لم تكن فخوره بفقرها مثله . وكان يدافع عنها إذا عاكسها الآباء . وانتهى بها الأمر إلى أن ترى فيه حاميها ، وسرعان ما وجد الواحد منهما سبيله إلى حضن صاحبه (١٧٤٦) وبدأت إصارحها بأنى لن أتخلى عنها ولن أتزوجها[٥٧]» . وإعترفت بأنها ليست عذراء ، ولكنها أكدت له أنها لم تأثم غير مرة واحدة ،

وكان ذلك منذ أمد بعيد . فصفح عنها صفحاً جميلا ،مؤكداً لها أن عذراء العشرين مخلوق نادر الوجود فى باريس على أى حال .

وكانت مخلوقة بسيطة لا سحر فيها ولا دلال ، لا تستطيع الكلام فى الفلسفه أو السياسة كنساء الصالونات ، ولكنها تعرف كيف تطهو ، وتدبر شئون البيت وتحتمل فى صبر نزواته وعاداته الغريبة . وكان يتكلم عنها عادة باعتبارها « مدبرة البيت » أما هى فتقول عنه « رجلى » وندر أن اصطحبها فى زياراته لا صدقائه ، لأنها ظلت على الدوام مراهقة ذهنيا ، كما ظل هو على الدوام مراهقا خلقيا .

« حاولت أول الأمر أن أصلح عقلها ، ولكن جهودى ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن عقلها بقى على ما فطرته الطبيعة ، فهو لا يقبل التثقيف . ولا يخجلنى أن أعترف أنها لم تعرف قط كيف تقرأ جيداً ، وإن كانت تكتب كتابة لا بأس بها . . ولم تستطع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب ، أو تميز بين عدد وآخر رغم ما بذلت من عناء فى محاولة تعليمها . وهى لا تعرف كيف تعد النقود ، ولا تحسب ثمن أى شىء فإذا تكلمت كانت الكلمة التى تخطر لها هى فى احيان كثيرة عكس الكلمة التى تقصدها . وقد صنفت فيما مضى قاموسا بعباراتها لأروح به عن المسيو دلكمسبورج ، وكثيراً ما ذاع أمر اغلاطها بين اخص اصحابى[٨٥] » .

فلما حملت « أرتبك أشد إرتباك » فماذا هو صانع بالأطفال ؟ وأكد له بعض اصحابه أنه من المألوف إرسال الأطفال غير المرغوب فيهم إلى ملجأ للقطاء . فلما ولد الطفل فعل هذا رغم احتجاجات تريز ، ولكن بتعاون أمها (١٧٤٧) وخلال الاعوام الثانية التالية ولد له أربعة أطفال تصرف فيهم على هذا النحو . وقد ألمع بعض الشكاك إلى أن روسو لم يرزق اطفالا ، وأنه اخترع هذه القصة ليخفى عجزه الجنسى ، ولكن كثرة دفاعه عن تنصله هذا من المسئولية تجعل هذه النظرية بعيدة الاحتمال . وقد اعترف سراً بتصرفه فى هذا الأمر لديدرو ، وجريم ، ومدام دبينيه[٥٩] ؛ واعترف به ضمنا فى كتابه « إميل » ؛ واستشاط غضبا على فولتير لأنه أذاع خبره ، ثم أقر به صراحة فى كتابه « الاعترافات » واعرب عن ندمه . إنه لم يخلق للحياة العائلية ، لأنه كان حزمة مرهفة من

الأعصاب ، وجواباً شريداً فى الجسد والروح . وكان يعوزه ذلك الأهتمام بالأطفال الذى يجعل الأب صاحبا رزينا ، ولم تكتمل رجولته قط .

فى نحو هذه الفترة اسعده الحظ بأن يجد وظيفة مريحة . فقد أشتغل سكرتيراً لمدام دوبان ، ثم لأبن أخيها . وحين أصبح دوبان دفرانكوى أمينا عاما للصندوق رقى روسو صرافا براتب ألف فرنك فى السنة . واتخذ الآن الضفيرة الذهبية ، والجوارب البيض ، والباروكة ، والسيف ، وكلها شارات حاكى بها الأدباء ثياب الطبقة الارستقراطية ليجدوا طريقهم إلى بيوت النبلاء[٦٠] . وفى وسعنا أن نتصور ضيقه بشخصيته المنقسمه على ذاتها . وقد أستقبل فى عدة صالونات وصنع أصدقاء جدد ، منهم رينال ، وما رمونيتل ، ودوكلو ، ومدام دينيه ، ثم فريدرش ملشيور جريم ، الذى ارتبط به ارتباطاً حميما جداً ومؤذيا جداً . واختلف إلى حفلات العشاء المثيرة فى بيت البارون دولباخ حيث كان ديدرو يقتل الآلهة بسلاح سماه خصومه فلك خمار . فى وكر الملحدين ذاك ذاب وتلاشى جل كتلكة جان — جاك .

وألف الموسيقى خلال ذلك . وكان قد بدأ فى ١٧٤٣ مزيجا من الأوبرا والباليه سماه « ربات الفنون الرشيقات » يحيى به غراميات أنا كربون ، وأوفيد ، وتاسو ، وأخرجت الاوبرا فى ١٧٤٥ محدثة بعض الضجة فى بيت جابى الضرائب لابولفيير ، وقد سخر منها رامو وزعم إنها محاكاة لانتحالات من الملحنين الإيطاليين ، ولكن الدوق رشليو أعجب بها وعهد إلى روسو بتنقيح أوبرا وباليه تسمى « أعياد رامير » أعدها رامو وفولتير على سبيل التجربة . وفى ١١ ديسمبر ١٧٤٥ كتب روسو أول رساله لأمير أدباء فرنسا :

« لقد ظللت خمسة عشر عاماً أكد وأكدح لأجعل نفسى جديرا باحترامك وبالعطف الذى تحبو به شباب الإدباء الذين تكتشف فيهم الموهبة . ولكى بفضل كتابتى موسيقى أحدى الأوبرات أجدنى قد انقلبت موسيقيا . وأيا كان النجاح الذى تحققه جهودى الضعيفة فإنها ستكون فى نظرى جهودا

رائعه لوكسبت لى شرف معرفتك أياى ، والأعراب عن الأعجاب والاحترام العميق اللذين يشرفنى أن يكنهما لك خادمك المتواضع المطيع جداً[٦١] » .

وأجاب فولتير : « سيدى ، إنك تجمع فى شخصك موهبتين وجدتا على الدوام منفصلتين حتى الآن ، فهذا مبرران طيبان يحملانى على تقديرك ومحبتك » .

وبهذين الخطابين من خطابات الحب بدأت خصومتهما الشهيرة .

٥ — هل الحضارة مرض ؟

فى عام ١٧٤٩ سجن ديدرو فى فانسين عقابا له على فقرات مهينة فى كتابه « رسائل عن المكفوفين » وكتب روسو إلى مدام دبومبادور يلتمس الأفراج عن صديقه أو الإذن له بأن يشاركه سجنه . وخلال ذلك الصيف قام غير مرة برحلة دائرية طولها عشرة أميال بين باريس وفانسين ليزور ديدرو . وفى واحدة منها أخذ نسخة من مجلة المركير دفرانس ليقرأ اثناء سيره . وهكذا وقع على الإعلان عن جائزة تقدمها أكاديمية ديجون لأفضل مقال يجيب عن هذا السؤال « هل أعان إحياء العلوم والآداب والفنون على إفساد الإخلاق أم على تطهيرها ؟ » وأغراه الإعلان بدخول المسابقة . فهو الآن فى السابعة والثلاثين . وقد آن الأوان ليحقق لنفسه الشهرة . ولكن هل بلغ من الإحاطة بالعلم أو الفن أو التاريخ مبلغا يكفى لمناقشة مثل هـــذه الموضوعات دون أن يفضح ما فى تعليمه من قصور ؟ وقد وصف فى خطاب كتبه إلى مالزيرب فى ١٢ مايو ١٧٦٢ بحماسته العاطفية المتميزة تلك الرؤيا التى تراءت له أثناء هذه المسيرة . قال :

« وفجأة أحسست أن مئات الأضواء المتلالئة تخطف بصرى . وتزاحمت حشود من الخواطر النابضة بالحياة فى ذهنى بقوة وأختلاط جعلانى أضطرب أضطراباً لا يوصف واحسست برأسى يدوّم فى دوار كأننى مخمور : وضاق

صدرى بخفقان عنيف . فلما عجزت عن السير لصعوبة التنفس أرتميت تحت شجرة على الطريق وقضيت نصف ساعة فى حال من الأنفعال الشديد حتى أننى حين قمت وجدت مقدمة صدريتى كلها مبللة بالدموع . . أواه ، لو أتيح لى أن أكتب ولو ربع ما رأيت وأحسست تحت تلك الشجرة ، فبأى وضوح كنت أميط اللثام عن كل تناقضات نظامنا الاجتماعى ! بأى بساطة كنت أبين أن الإنسان بفطرته خير ، وأن نظمنا هى التى جعلته شريراً[٦٢] » .

وهذه العبارة الأخيره ستكون نشيد حياته المتردد ، وتلك الدموع التى تدفقت على صدريته كانت منبعاً من المنابع العليا التى أنبثقت منها الحركة الرومانسية فى فرنسا وألمانيا . لقد كان فى وسعه الآن أن يسكب قلبه فى هجوم على كل تكلف باريس وتصنعها ، وفساد أخلاقها ، وزيف سلوكها المصقول ، وأباحية أدبها ، وشهوانية فنها ، وتعالى طبقيتها ، وسفه أغنيائها الغليظ الذى تموله أبتزازاتهم من الفقراء ، وجفاف الروح لحلول العلم محل الدين ، والمنطق محل الوجدان . إنه بإعلانه الحرب على هذا الانحلال يستطيع أن يبرر بساطة ثقافته ، وعاداته الريفية ، وقلقه وضيقه فى المجتمع ، ونفوره من حيث القيل والقال ، ومن الفكاهة التى تجردت من الاحترام ، ويبرر احتفاظه المتحدى بايمانه الدينى وسط إلحاد أصحابه . لقد عاد فى أعماق نفسه كلفنيا كما كان ، وذكر بشىء من الحنين تلك العفة التى لقنها فى صباه . إنه بدخوله مسابقة ديجون سيرفع وطنه جنيف فوق باريس ، وسيشرح لنفسه ولغيره لم كان سعيداً فى ليشارميت ، وشقياً غاية الشقاء فى صالونات باريس ؟

فلما وصل إلى فانسين كاشف ديدرو بنيته فى دخول المسابقة . فهلل ديدرو للفكرة ، وأشار عليه بأن يهاجم حضارة جيلهما بكل ما وسعه من قوة . فلن يجرؤ متسابق آخر على اتخاذ هذا الموقف ، وسيكون موقف روسو فريداً فى بابه(*) وعاد جان — جاك إلى مسكنه وهو يتحرق شوقا

(*) هناك جدل صغير يبهم القصة فى هذه النقطة . فقد روى ديدرو فى ١٧٨١ زيارة -

لهدم الآداب والعلوم التى كان ديدرو يستعد للإشاده بها فى « الموسوعة أو القاموس العقلانى للعلوم والأداب والحرف : (١٧٥١ وما يليها) وكتبت « المقال » بطريقة فريدة جدا . . . فكرست له ساعات الليل التى جفانى فيها النوم ، وكنت أتأمل فى فراشى وجفناى مغمضتان ، وأدير فى ذهنى المرة بعد المرة عباراتى بعناية واهتمام لا يصدقان . . . وحالما فرغت من المقال دفعته لديدرو فرضى عنه ، وأشار ببعض تصويبات تجب فى رأية إجراؤها . . . وأرسلت المقال دون أن أخبر بأمره أحدا غيره ، اللهم إلا جريم فيما إذكر[٦٥] .

أما أكاديمية ديجون فقد توجت مقاله بالجائزه الأولى (٢٣ أغسطس ١٧٤٠) — وهى مداليه ذهبية وثلاثمائة فرنك ، وإتخذ ديدرو الإجراءات بها عهد فيه من حماسة ، لنشر المقال الذى سمى « مقالا فى الآداب والفنون والعلوم » وسرعان ماكتب إلى المؤلف يبلغه النبأ إن مقالك ساحر إلى حد فاق كل تصور ، فلم يكن لهذا النجاح ضريب على الأطلاق[٦٦]. وكأنى بباريس وقد أدركت أنه هاهنا ، فى قلب حركة التنوير تماماً ، قام رجل يتحدى عصر العقل ، ويتحداه بصوت سيصغى إليه العالم .

أما المقال فقد بدا فى استهلاله مشيدا بانتصارات عصره :

« أنه لمشهد جليل جميل أن نرى الإنسان يرفع نفسه — إن جاز هذا التعبير — من العدم بجهوده هو ؛ فيبدد بنور العقل كل السحب الكثيفة التى أكتنفته بالطبعة فسما فوق نفسه ، وحلق بالفكر إلى أجواز الفضاء ،

= روسو له بطريقة يمكن التوفيق بينها وبين رواية روسو . قال : حين جاءنى روسو يستشيرنى فى الموقف الذى يلبغى أن يتخذه قلت له : أن موقفك هو الذى سيرفضه الآخرون ، فقال إنك على حق (٦٣) » وحوالى عام ١٧٩٣ روى مارمونتيل عن ديدرو إنه ثنى روسو عن إتخاذ موقف الموافقة ، فقال له روسو سأعمل بنصيحتك (٦٤) » .

وأشتمل بخطى عملاقة آفاق الكون الشاسعه كأنه الشمس ؛ وأجل من ذلك وأعجب أنه انكفأ إلى نفسه ليدرس الإنسان ويصل إلى معرفة فطرته وواجباته وهدفه . . كل هـــذه المعجزات رأيناها تجدد خلال الأجيال القليلة الأخيره[٦٧] » .

ولابد أن فولتير جاد بابتسامة الرضى عن فرحة هذا الأستهلال ، فهاهنا تلميذ جديد لجماعة « الفلاسفة » ؛ وللرفاق الطيبين الذين سيقضون على الخرافة « والعار » ؛ ثم ألم يكن لوشنقار الفتى هــذا مساهما فى الموسوعة فعلا ؟ ولكن ما إن جاءت الصفحة التالية حتى إتخذت المناقشة وجهة مؤسفة . فقال روسو أن تقدم المعرفة هذا كله جعل الحكومات أعظم سطوة ، فسحقت حرية الفرد وإستبدلت بالفضائل البسيطه والكلام الصريح لعهد أكثر خشونه وبدائية ، نفاق اللباقة الاجتماعية .

« لقد أقصيت من بين الناس الصداقة المخلصة ، والاحترام الحقيقى ، والثقة الكاملةوتسترت الغيرة والريبة، والخوف ، وبرودة العاطفة،والتحفظ والكراهية، والغش ، دائماً وراء ذلك القناع الواحد الخدّاع ، قناع التأدب، والصراحة والكياسة اللتين يتباهى بها الناس ، ذلك القناع الذى ندين به لنور عصرنا وقيادته . . فلتطالب الآداب والفنون والعلوم بنصيبها الذى أسهمت به فى هذا العمل المفيد »[٦٨].

ويكاد فساد الفضائل والأخلاق نتيجة لتقدم المعرفة والفن أن يكون قانونا من قوانين التاريخ « لقدغدت مصرأم الفلسفة والفنون الجميلة،وسرعان ماغزاها الغزاة ». [٦٩] أما اليونان التى كان يسكنها الأبطال يوما ما فقد قهرت آسيا مرتين ، وكانت « الآداب» يومها فى المهد ، ولم تكن فضائل اسبرطة قد حلت محلها — مثلا إغريقياً أعلى — تلك الثقافة الأثينية المهذبة،وسفسطة السفطائيين ، وتماثل براكستيلبس الشهوانية ؛ فلما بلغت تلك « الحضارة » أوجها ، أطاح بها فليب المقدونى بضربةواحدة،ثم قبلتنير روما فىاستكانة. أما روما فقد غزت عالم البحر المتوسط كله يوم كانت أمــة من الفلاحين

والجند ، متمرسة بنظام صارم ، فلما أسلمت نفسها للذات الأبيقورية ، وأشادت ببذاءات أوفيد وكاتللوس ، ومارتيال ، باتت مرتعاً للرذيلة « وهزؤا بين الأمم ، وهدفاً لاحتقار الشعوب حتى الهمج منها [٧٠]. وحين عادت روما إلى الحياة فى حركة النهضة الأوربية ، عادت الفنون والآداب تنخر فى عافية المحكومين والحاكمين ، وخلفت إيطاليا أوهى من أن تثبت للهجوم . فأخضع شارل الثامن ملك فرنسا توسكانيا ونابلى دون أن يمتشق حساما تقريباً ،وعزت حاشيته كلها هذا النجاح غير المتوقع إلى انصراف أمراء إيطاليا ونبلائها باهتمام أعظم إلى تثقيف عقولهم دون الاهتمامات النشيطة والأعمال العسكرية [٧١] » .

والأدب ذاته عنصر من عناصر الفناء :

« يحكى أن الخليفة عمر حين سئل فى أمر مكتبة الاسكندرية وما يفعله بها أجاب : «وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » وقد ساق أدباؤنا هذا الأسلوب فى التفكير على أنه بلغ غاية السخف ،ولكن لو أن البابا جريجورى الأكبر كان فى مكان عمر ،والإنجيل فى مكان القرآن ، لأحرقت المكتبة رغم ذلك،ولربما عد هذا أروع عمل قام به فى حياته »[٧٢].

أنظر إلى تأثير الفلسفة الممزق فبعض « محبى الحكمة » هؤلاء يخبروننا بأنه ليس هناك شىء اسمه المادة ، وغيرهم يؤكدون لنا أنه لا وجود لشىء إلا للمادة وليس إله آخر غير الكون ذاته ، وفريق ثالث يعلن أن الفضيلة والرذيله ليستا سوى اسمين ، وأنه لا اعتبار لشىء إلا للقوة والمهارة فهؤلاء الفلاسفة « يقوضون أسس إيماننا ويحطمون الفضيلة . إنهم يسخرون من الكلمات القديمة التى نستعملها مثل « الوطنية» و «الدين » ويكرسون مواهبهم لهدم وتشوية كل مانقدسه غاية التقديس [٧٣] . ومثل هذا المراء ما كان ليعمر فى العصور القديمة بعد موت صاحبه ، أما الآن فبفضل الطباعة « ستبقى إلى الأبد . تأملات هوبز وسبينوزا المؤذية . إذن فاختراع الطباعة كان من أفدح

الكوارث فى تاريخ الإنسانية ، ومن السهل أن نرى أن الملوك فى المستقبل سيحرصون على اقصاء هذا الفن الرهيب عن ممالكهم حرصهم من قبل على تشجيعه » (٧٤).

ولنلاحظ ماأوتيت الشعوب التى لم تعرف قط الفلسفة أو العلم أو الأدب من قوة وتفوق؛ الفرس فى عصر كورشن أو الألمان كما وصفهم تاسيتوس ، أو « فى زماننا هذا الأمة البسيطة (سويسرة) التى لم تقو حتى الشدائد والكوارث على قهر بسالتها المشهورة ، والتى لم يستطع أى مثال أن يفسد أمانتها » وأضاف الجنيفى الفخور إلى هذه الشعوب « تلك الأمم السعيدة التى لم تعرف حتى أسماء الكثير من الرزائل التى يصعب القضاء عليها ، متوحشى أمريكا الذين لم يتردد مونتينى فى تفضيل طريقة حكمهم البسيطة الفطرية ، لا على قوانين أفلاطون فحسب ، بل على أكمل الرؤى التى تستطيع الفلسفة أن تستشرفها »(٧٥).

إذن فأى نتيجة ينبغى أن نخلص إليها ؟ هى أن « الترف والإسراف ، والرق ، كانت فى جميـــع الأجيال سوط عذاب سلط على جهود كبريائنا للخروج من حالة الجهالة السعيدة تلك التى وضعتنا فيها حكمة العناية الإلهية . فليتعلم البشر ولو مرة أن الطبيعة كانت تحميهم من العلم ، تماماً كما تخطف الأم سلاحاً خطراً من يدى ولدها » (٧٦) .

والجواب عن سؤال الأكاديمية العالمة هو أن العلم إذا تجرد من الفضيلة كان فخاً ، وإن التقدم الحقيقى الوحيد هو التقدم الخلقى ، وإن رقى العلم قد أفسد أخلاق البشر أكثر مما طهرها ، وإن الحضارة ليست ارتقاء الإنسان إلى وضع أسمى ، بل سقوطه من بساطة ريفية كانت فردوس البراءة والسعادة.

وقبيل ختام المقال كبح روسو جماح قلمه وألقى ببصره فى شىء من الخوف على أشلاء العلم ، والفن ، والأدب ، والفلسفة ، التى خلفها فى إثره وتذكر أن صديقه ديدرو يعد موسوعة كرسها لتقدم العلم . فاكتشف فجأة أن بعض الفلاسفة — كبيكن وديكارت — كانوا « معلمين عظاما » ورأى أن النماذج الحية من هذه السلالة ينبغى أن يرحب بهم حكام الدول مشيرين لهم . ألم يعين

شيشيرون قنصلا لروما ، وأعظم الفلاسفة المحدثين قاضياً لقضاة انجلتره[٧٧]؟ ولعل ديدرو حشر تلك السطور فى المقال ، ولكن جان جاك كان صاحب الكلمة الأخيرة :

« أما نحن البشر العاديين الذين لم تشأ السماء أن تحبونا مواهب عظيمة فلنظل فى جهالتنا . ولنترك لغيرنا مهمة تعليم الناس واجباتهم ، ولننصرف إلى القيام بواجباتنا . أيتها الفضيلة أيتها المعرفة السامية للعقول البسيطة أليست مبادئك منقوشة على كل قلب ؟ وهل نحن فى حاجة ، لكى نتعلم نواميسك إلى أكثر من . . الإصغاء لصوت الضمير ؟ هذه هى الفلسفة الصادقة التى يجب أن نتعلم القناعة بها[٧٨] » .

ولم تدر باريس أتأخذ هذا المقال مأخذ الجد ، أم تفسره على أنه محاولة ماكرة فى المبالغة والمفارقة كتبها المؤلف بخبث . وقال بعضهم (فيما روى روسو)[٧٩] أنه لم يصدق كلمة واحدة مما كتب . أما ديدرو الذى آمن بالعلم وضاق بقيود العرف والأخلاق فيبدو أنه استحسن مبالغات روسو باعتبارها عقاباً افتقر إليه المجتمع الباريسى . وأما حاشية الملك فقد حبذت المقال باعتباره توبيخاً للفلاسفة السفهاء الهدامين كانوا يستحقونه منذ أمد بعيد.[٨٠] ولابد أن نفوساً حساسة كثيرة ضاقت كهذا الكاتب البليغ بما فى باريس من ثرثرة حمقاء وبريق كاذب . وقد عبر روسو عن مشكلة تظهر فى كل مجتمع متقدم ، فهل ثمرات التكنولوجيا تستأهل مافى الحياة المصنعة من عجلة ، وتوترات ، ومناظر ، وضجيج ، وروائح ؟ وهل التوتر يقوض الأخلاق؟ وهل من الحكمة أن نمضى وراء العلم إلى خراب شامل ، ووراء الفلسفة إلى اليأس من كل رجاء مشدد للعزائم ؟ .

وانبرى العديد من النقاد بالدفاع عن الحضارة منهم بورد عضو أكاديمية ليون ، ولا ا عضر أكاديمية روان ، وفورميه عضو أكاديمية برلين ، ولا .س ستانسلاس لسكفنسكى ، الطيب القلب ملك بولندة السابق ودوق اللورين اللاحق . وأشار الأدباء إلى أن هذا الهجاء لم يزد على أن توسع

فى الشكوك التى أعرب عنها مونتينى فى مقاله « عن أكلة لحوم البشر » . وسمع غيرهم فيه صوت بسكال يرتد من العلم إلى الدين ، وبالطبع كان مئات من « اللاهوتيين والقديسين » قد أدانوا الحضارة منذ زمن بعيد باعتبارها مرضاً أو خطيئة . وكان فى وسع اللاهوتيين أن يزعموا أن « براءة » الحالة الطبيعية وسعادتها التى قال بها روسو ، والتى سقط منها الإنسان ، ليست إلا قصة جنة عدن معادة ، فحلت «الحضارة» محل «الخطيئة الأصلية» علة فى سقوط الإنسان ، وفى كلتا الحالتين قضت الرغبة فى المعرفة على سعادة الإنسان . أما المفكرون المعتزون بعلمهم مثل فولتير فقد عجبو لرحل فى السابعة والثلاثين يكتب هذه المرثية الصبيانية ليهاجم منجزات العــلم ، ونعمة السلوك المهذب ، وإلهامات الفن . وإما الفنانون أمثال بوشيه فلعلهم كانوا يتلوون ألما تحت سوط روسو ، ولكن فنانين آخرين مثل شاردان ولا توركان فى وسعهم أن يرموه بالتعميم العشوائى ، وأما الجنود فقد سخروا من إشادة هــذا الموسيقار الرقيق بالصفات العسكرية وبالتأهب الدائم للحرب .

واعترض جريم ، صديق روسو ، على أى رجوع إلى « الطبقية » فقال متعجبا «يا له من هراء شيطانى ! : ثم سأل سؤالا شائكاً ، ما الطبقية[٨١]؟ فلقد لاحظ بيل أنه لا تكاد توجد كلمة تستعمل استعمالا أكثر غموضاً من كلمة ... الطبيعة . . . وليس من المؤكد « أنه لأن شيئاً ما مصدره الطبيعة فهو إذن خير وصواب : فنحن نرى فى النوع البشرى أشياء سيئة جداً مع أنه لا يتطرق إلينــا شك فى انها من عمل الطبيعة ».[٨٢] ولا ريب أن مفهوم روسو عن الطبيعة البدائية كان تصويراً رومانسيا للطبيعة فى حالتها المثالية ، فالطبيعة (أى الحيــاة دون تنظيم وحماية اجتماعين) « حمراء فى الناب والمخلب » وناموسها الأساسى هو : اقتل وإلا قتلت . والطبيعة التى أحبها جان ــ جاك ؛ كما يتجلى حبه فى قيقيه أو كلارنس كان ضربا متحضرا من الطبيعة ، روضها وهذبها الإنسان . والحق أنه لم يرد أن يرتد إلى الأحوال البدائية بكل ما انطوت عليه من قذارة ، وخطر ، وعنف بدنى ، إنما أراد أن يعود إلى الأسرة الأبوية التى تفلح الأرض وتعيش على ثمارها ، وهفت

نفسه إلى التحرر من قواعد المجتمع المهذب وقيوده — ومن الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب الاعتدال والعقل . وقد أبغض باريس وحن إلى شارميت وقبيل ختام حياته ، فى كتابه « أحلام جوال وحيد » صور هذه الفكرة القاصرة تصويرا مثاليا فقال :

ولدت أكثر الناس ثقة بالناس ، ولم تخذل هذه الثقة ولو مرة واحدة طــوال أربعين سنة . فلما وقعت فجأة بين صنف آخر من الأشخاص والأشياء انزلقت إلى مئات الفخاخ ..واقتنعت أنه ليس فى مظهر الابتسامات المتكلفة التى أغدقت على غير الغش والكذب ، فانتقلت بسرعة من النقيض إلى النقيض . . .. وأصبحت أشمئز من الناس ... وأنا لم أعتد قط اعتيادا حقيقيا على المجتمع الحضرى الذى كل ما فيه هم وإكراه والتزام ، والذى يجعلنى استقلالى الفطرى عاجزاً فيه على الدوام عن ألوان الخضوع التى لا مندوحة عنها لكل من يريد العيش بين الناس [٨٣] .

وفى « الاعترافات » سلم فى شجاعة بأن هذا « المقال » الأول (كان مفتقرا الافتقار كله إلى المنطق والنظام وإن زخر بالقوة والحرارة ؛ فهو أضعف ماكتبت إطلاقاً من حيث الحجه ، وأخلاه من الإيقاع والانسجام» [٨٤]

ومع ذلك فقـــد رد على نقاده بقوة ، وأكد مفارقاته من جديد . ومجاملة لستانسلاس استثنى شيئاً واحدا : فقال أنه بعد الروية قرر إلا تحرق المكتبات أو تغلق الجامعات والأكاديميات . «لأننا لن نجنى من وراء هذا الإغراق أوربا مرة أخرى فى دياجير الهمجية[٨٥] ؛و «حين يفسد البشر فإن من الخير لهم أن يكونوا متعلمين عن أن يكونوا جهلة» [٨٦] . ولكنه لم يعدل عن أى فقرة من اتهـــامه للمجتمع الباريسى . ودليلا على انسحابه منه أقلع عن لبس السيف والضفيرة الذهبية والجوارب البيضاء ، وارتدى ما يرتديه رجال الطبقة الوسطى من رداء بسيط وباروكة أصغر . قال مارمونتيل « وهكذا منــذ تلك اللحظة اختار الدور الذى سيلعبه ، والقناع الذى سيلبسه .» فإن كان هذا قناعا فإنه أحسن لبسه ، وأصر عليه إصراراً شديداً ، حتى لقد أصبح جزءاً من صميم الرجل وغير وجه التاريخ .

٦ – باريس وجنيف ١٧٥٠ ــ ٥٤

فى ديسمبر ١٧٥٠ اشتد على روسو مرض المثانة حتى ألزمه الفراش ستة أسابيع وزادته هــذه المحنة نزوعا إلى الاكتئاب والعزلة ، وأرسل إليه معارفه الأغنيــاء اطباءهم ليعودوه ، ولكن تطبيب ذلك الزمان لم يؤهلهم لمساعدته « فكلما امتثلت لأوامرهم ازددت شحوبا ونحولا وهزالا . ولم يوح لى خيالى ... على هذا الجانب من القبر ، بغير الآلام المتصلة كابدتها من الرمل والحصاة وحصر البول ، وكان كل ما يخفف من آلام غيرى من المرضى كتقبيع الشعير ، والحمامات والفصد — يضاعف من عذابى»(٨٨).

وفى مطلع عام ١٧٥١ انجبت له تريز طفلا ثالثاً تبع أخويه إلى ملجأ اللقطاء . وقد علل هذا فى فترة لاحقة بأنه كان أفقر من أن يربى أطفالا ، وأنه لو وكلهم إلى آل لقاسير لكان فى ذلك بوارهم ، وأنهم كانوا سيعبثون عبثا منكرا بعمله كاتبا وموسيقيا وأكرهه المرض على الاستقالة من وظيفته صرافاً لدويان دفرانكوى رالتخلى عن دخله منها ، وراح منذ الآن يكسب معظم قوته بنسخ كراسات الموسيقى بواقع عشرة سنوات للصفحة . ولم يتلق روسو أى دخل من بيع « المقال » سواء كان السبب اهمال ديدرو أوشح الناشرين وتبين أن موسيقاه اكسب له من فلسفته .

وفى ١٨ اكتربر ١٧٥٢ ، وبفضل نفوذ دوكلو ، مثلت أوبريت روسو « عراف القرية » أمام الملك والبلاط فى فونتنبلو ، ولقيت من النجاح ما أتاح لها عرضا ثانيا بعد أسبوع وظفرت حفلة للجمهور فى باريس (أول مارس ١٧٥٣) باستحسان أشمل ، ووجد المؤلف المعتكف نفسه مرة أخرى رجلا يشار اليه بالبنان . وكان هذا « الفاصل » الصغير ، الذى ألف روسو كلماته وموسيقاه ، أشبه باللحن المصاحب « المقال » : فالراعية كوليت ، التى احزنتها مغازلات كولان لفتيات المدينة ، يرشدها عراف القرية إلى استمالته ثانية بمغازلة غيره من الرجال ، فيغار عليها كولان ويعود

اليها ، ثم ينشدان معا أغانى راقصة تشيد بحياة الريف وتذم حياة المدينة . وحضر روسو الحفلة الافتتاحية وكاد يرضى عن المجتمع بعد خصام .

« غير مسموح بالتصفيق أمام الملك . وعليه فقد كان كل شيء مسموعا ، وهذا يخدم المؤلف والتمثيلية . وسمعت من حولى همس النساء اللاتى يبدون فى حسن الملائكة . وكانت الواحدة تقول للأخرى فى صوت خافت : « هذا رائع ، هذا خلاب ، ليس هناك لحن واحد لاينفذ الى الفؤاد » وقد أثار دموعى سرورى بأننى أشعرت هذا العدد الكبير من الأشخاص اللطفاء بهذه العاطفة ، ولم استطع أن أمسكها فى اللحن الثانى الأول حين لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى يبكى ». (٨٩)

فى ذلك المساء بعث اليه الدوق دومون كلمة يطلب اليه الحضور الى القصر فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد ليقدم الى الملك ، وأضاف الرسول أن من المتوقع أن ينفح الملك المؤلف معاشا . ولكن مثانة روسو أفسدت الخطة . يقول :

« أيصدق أحد أن ليلة هذا النهار الرائع كانت لى ليلة عذاب وحيرة ؟ فقد كان أول خاطر لى إننى بعد أن أقدم للملك سأضطر إلى الانسحاب غير مرة وكانت هذه الضرورة قد سببت لى معاناه شديدة فى المسرح : وقد تعذبنى فى الغد وأنا فى البهو أو فى حجرة الملك ، بين جميع العظماء ، منتظرا خروج جلالته . لقد كانت علتى هى السبب الأهم فى الحيلولة بينى وبين الاختلاط بالجماعات الراقية والاستمتاع بحديث الحسان ... ولا يستطيع غير من خبر هذا الموقف أن يحكم بالفزع الذى يوحى به التعرض لخطره (٩٠)

وعليه فقد أرسل كلمة يعتذر من الحضور . وبعد يومين وبخه ديدرو على تضييعه فرصة كهذه تتيح رزقا أنسب له ولتريز » وتحدث عن المعاش بحرارة أكثر مما كنت أتوقع فى موضوع كهذا من فيلسوف .... ومع أننى شكرت له تمنياته الطيبة ، فإننى لم استطع أن أسيغ مبادئه ، الأمر الذى أثار بيننا نقاشا حاميا هو أول ما وقع بيننا من نزاع » (٩١) على أنه لم يحرم كل

وبح من وراء تمثيليته . فقد أعجبت بها مدام ديومبادور إعجابا حملها على أن تمثل هي نفسها دور كوليت في عرضها الثاني في البلاط ، وأرسلت له خمسين جنيها ذهبياً ، وأرسل له لويس مائة.[91] وراح الملك نفسه ، « بأنكر صوت في مملكته يتغنى بلحن كوليت الحزين « لقد فقدت خادمي » — وكان هذا إرهاصا بظهور جلوك .

وكان روسو خلال ذلك يعد مقالات عن الموسيقى للموسوعة « وقد كتبتها في عجلة شديدة ، وكتابة سيئة لهذا السبب ، في الشهور الثلاثة التي أتاحها لي ديدرو : وقسا رامو في نقد هذه المقالات في كتيب سماه « أخطاء حول الموسيقى في الموسوعة » (١٧٥٥) وعدل روسو في المقالات ، وجعلها أساسا لـ « قاموس للموسيقى » (١٧٦٧) واعتبره معاصروه ، باستثناء رامو ، موسيقيا من أعلى طراز [93] وينبغي أن نعده الآن مؤلفاً مجيدا في فرع صغير من فروع الموسيقى ، ولكنه كان ولاشك أكثر من كتب عن الموسيقى طرافة وامتاعا في ذلك الجيل .

ولما غزت فرقة من مغني الأوبرا الإيطالية باريس في ١٧٥٢ تفجر الجدل حول مزايا كل من الموسيقى الفرنسية والإيطالية . وقفز روسو إلى المعركة بـ « رسالة في الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) يقول جريم إنه « يثبت فيها إستحالة تلحين الموسيقى في الفاظ فرنسية ، وأن اللغة الفرنسية لا تصلح إطلاقا للموسيقى ، وإنه لم يكن قط للفرنسيين ولن يكون لهم أبدا موسيقى[94] » . وكان روسو بكليته في صف إتساق الألحان (الميلوديا) . كتب في روايته « أحلام جوال وحيد » « يقول « غنينا أغنية قديمة كانت أفضل كثيراً من النشاز الحديث[95] » وأي جيل لم يسمع تلك الشكوى ؟ وفي مقاله « الأوبرا » الذي تضمنه قاموسه الموسيقى أعطانا إلماعا لفاجنر ، فعرف الأوبرا بأنها « مشهد درامي غنائي يحاول الجمع من جديد بين جميع مفاتن الفنون الجميلة في تمثيل حركة عاطفية مشبوبة . . . ومقومات الأوبرا هي القصيدة الشعرية ، والموسيقى ، والزخرفة : فالشعر يتحدث إلى الروح ،

والموسيقى إلى الأذن ، والصورة إلى العين . . . والدرامات اليونانية كان يمكن أن تسمى أوبرات [٩٦] » .

وحوالى تلك الفتره (١٧٥٢) رسم موريس كنتان دلاتور صورة لروسو بالباستل [٩٧] ، التقط فيها ملامح جان — جاك مبتسما : وسيما ، أنيقا ، وقد أنكر ديدرو الصورة لأنها لا تتفق والحقيقه [٩٨] . ووصف ما رمونتيل روسو كما رآه فى تلك السنوات فى حفلات عشاء دولباخ فقال « كان قد ربح لتوه الجائزة . . فى ديجون . . . فيه تأدب يشوبه الإحجام ، قد . . . يبلغ من التواضع مبلغا يقرب من التذلل . ترى عدم الثقه واضحة من خلال تحفظة المشوب بالخوف . وكانت عيناه المطرقتان ترقبان كل شيء بنظرة ملؤها الإرتياب الحزين . وقل أن شارك فى حديث ، وندر أن كشف لنا عن دخيلة نفسة [٩٩] » .

وغدا مركز روسو بعد تنديده بالعلم والفلسفه بهذا العنف حرجا بين جماعة الفلاسفة الذين سيطروا على الصالونات . وكان مقاله قد ألزمه بالدفاع عن الدين . وتروى مدام دينيه أنه فى عشاء دعت إليه مدام كينو ، وجدت المضيفة أن الحديث عن الدين أصبح نابياً ، فرجت ضيوفها « أن يحترموا على الأقل الدين الطبيعى » وبادر بالرد المركيز دسان — لامبير ، الذى كان مؤخراً مزاحما لفولتير على حب مدام دوشاتايه ، وسيكون عما قليل مزاحما لروسو على حب مدام دوديتو فقال « أنه لا يستحق من الاحترام أكثر من أى دين آخر . » وتواصل مدام دينيه كلامها فتقول.« : فلما سمع روسو هذا الرد غضب وتمتم بكلام أضحك الجماعة عليه . قال « إذا كان من الجبن أن يسمح الإنسان لآخر أن يغتاب صديقاً فإن من الاجرام أن يسمح لأحد بأن يتحدث بسوء عن إله الذى هــو حاضر ، وأنا أومن بالله ياساده . . . وإتجهت إلى سان لامبير وقامت له « أنك ياسيدى وأنت شاعر ، ستوافقنى على أن وجود كائن خالد ، كلى السلطان ، عظيم الذكاء ، هو البذرة لأروع ضروب الحماسة » . فأجاب « اعترف بأنه جميل أن نرى هذا الإله يوجه وجهه إلى الأرض ، . . . ولكنها بذرة

الحماقات »، وقاطعه روسو قائلا « سيدى ، سأبرح الحجرة أن زدت كلمة واحدة » . والواقع أنه كان قد قام عن كرسيه وكان يفكر جدياً فى الهروب لولا أن أعلن عن قدوم الأمير(١٠٠) » .

ونسى الجميع موضوع الجدل . وفى رواية وردت فى مذكرات مدام دينيه، أن روسو قال لها أن هؤلاء الكفره يستحقون النار الابدية(١٠١) .

وجدد رسو الحرب على الحضارة فى مقدمة مسرحيته الهــزلية « نارسيس » ، التى مثلتها فرقة الكوميدى فرانسيز فى ١٨ ديسمبر ١٧٥٢ « أن الميل إلى الآداب يكون دائماً إيذانا فى الشعب ببداية فساد سرعان ما يعجل به هذا الميل . ولا ينبعث هذا الميل فى أمة إلا من منبعين خبيثين . . . التبطل ، وشهوة الامتياز (١٠٢)» . ومع ذلك استمر حتى عام ١٧٥٤ يختلف إلى « مجمع » دولباخ المؤلف من أحرار الفكر . هناك استمع مارمونتل ، وجريم ، وسان — لامبير ، وغيرهم إلى الابيه بتى يقرأ مأساة من تأليفه ، فوجدوها عملا تافها يدعو للرثاء ، ولكنهم أطروها اطراء جميلا ، وكان الابيه قد ثمل بالخمر إلى حد أعماه عن إدراك ما فى ثنائهم من تهكم ، فأنتفخت أوداجه رضى وغبطة ، أما روسو الذى غاظه نفاق أصحابه فقد انقض على الأب بتقريع لا هوادة فيه ، فقال له « أن تمثيليتك لا قيمة لها . . . وكل هؤلاء السادة يسخرون منك ، فانصرف وعد لتكون قسيساً فى قريتك(١٠٣) » . ووبخ دولباخ روسو على نظاظته ، فانصرف غاضباً وانقطع عن الجماعة عاماً .

لقد دمر رفاقه كثلكته ، ولكنهم لم يدمروا إيمانه بمقومات المسيحية. وعادت بروتستنتية صباه تطفو فى الوقت الذى تغوص فيه كثلكته . فتصور جنيف صباه كاملة مبرأة من العيوب ، وخيل إليه أنه سيكون فيها أكثر راحة واطمئناناً منه فى بلد أضنى روحه كباريس . ولو عاد إلى جنيف لاكتسب من جديد لقبا يبعث على الفخر ، هو لقب المواطن ، ومعه الامتيازات الخاصه التى ينطوى عليها هــذا اللقب . وعليه ففى يونيو سنة ١٧٥٤ استقل مركبة البريد إلى شامبرى وهناك وجد مدام دفاران

فقيرة تعسة ، ففتح لها كيس نقوده ، ثم وأصل رحلته إلى جنيف ، هناك رحب به القوم أبنا ضالا قد ثاب إلى رشده : ويبدو أنه وقع إقراراً يؤكد فيه من جديد عقيدته الكلفنية(١٠٤) ؛ واغتبط رجال الدين الجنيفيون باستعادتهم « موسوعيا » إلى حظيرة إيمانهم الانجيلي ورد إليه اعتباره مواطنا ، وراح بعدها يوقــع فى فخر « جان .. جاك روسو ، المواطن » : قال :

« تأثرت تأثرا بالغاً بما لقيت من عطف . . . المجلس (المدنى) والمجمع (الكنسى) وعظيم احترام القضاة ، والوزراء ، والمواطنين ، وحفاوتهم بى . . . . حتى إننى اقلعت عن فكرة العودة إلى باريس إلا لفض إدارة البيت ، والعثور على عمل للسيد لفاسير وزوجته ، أو تدبير أمر معاشهما ، ثم العودة مع تريز إلى جينيف لأستقر فيها ما بقى لى من عمر(١٠٥) » .

واستطاع الآن أن يتذوق جمال البحيرة وشواطئها تذوقا أكمل مما فعل فى صباه « لقد احتفظت بذكرى حية . . . لطرف البحيرة الأبعد ، وكتبت له وصفا بعد سنوات فى هلويز الجديدة » : ودخل الفلاحون السويسريون فى حلم الفردوس الريفى الذى سيصفه فى تلك الرواية : فهم ملاك لمزارعهم لا يخضعون لضريبة رؤس أو سخرة ، يشغلون أنفسهم بالحرف المنزلية فى الشتاء ، ويقفون فى قناعة بمنأى عن ضجيج العالم وصراعه . وكانت ذكرى دويلات المدن السويسريه عالقة بذهنه وهــو يصف مثله السياسى الأعلى فى كتاب « العقد الاجتماعى » .

وفى أكتوبر ١٧٥٤ قصد باريس على وعد بالعودة منها سريعاً . ووصل فولتير إلى جينيف بعد رحيل روسو عنها بشهرين ، واستقر به المقام فى فيلا ديليس . واستأنف جان — جاك فى باريس صداقته لديدرو وجريم ، دون أن تبلغ من الثقة ما بلغته من قبل . ولما نمى إليه نبأ موت مدام دولباخ كتب إلى البارون خطاب تعزية رقيقا ؛ وتصالح الرجلان ، وعاد روسو يؤاكل الزنادقة ، وظــل ثلاثة أعوام أخر يبدو من جميع

الوجوه واحداً من جماعة الفلاسفة . ولم يبحث كثيراً فى عقيدته الكلفنيه الجديدة . واستغرقه الآن الإشراف على طبع « مقاله » الثانى الذى قدر له أن يهز الدنيا أكثر مما هزها سابقه .

٧ — جرائم الحضارة

فى نوفمبر ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى ، أما السؤال الجديد فكان « ما الأصل فى عدم المساواة بين البشر ، وهل يقره قانون الطبيعة » ؟ يقول روسو « استرعى أنتباهى هذا السؤال الخطير ، وأدهشنى أن الأكاديمية اجترأت على طرحه للنقاش ، ولكن مادامت قد أظهرت شجاعتها . . . فقد عكفت فورا على مناقشته[١٠٦] » . واختار لبحثه هذا العنوان « مقال فى أصل وأسس عدم المساواة بين البشر » . وفى شامبرى فى ١٢ يونيو ١٧٥٤ أهدى هذا المقال الثانى « إلى جمهورية جنيف » وإضاف خطاباً موجهاً إلى « سادتها الحاكمين » الرفيعى الشرف والمجد ، « يعرب عن بعض الاراء الفذه فى السياسة :

« فى بحوثى عن خير القواعد التى يمكن أن يرسيها الإدراك السليم عن تكوين الحكومة أدهشنى أن أجدها كلها تحققت فعلا فى حكومتكم ، بحيث أننى لو لم أولد بين أسوار مدينتكم لرأيته لزاما على أن أقدم هذه الصورة عن المجتمع الإنسانى إلى ذلك الشعب الذى يبدو أنه انفرد دون سائر الشعوب بحيازته لاعظم مزاياها ، ووفر لنفسه أفضل وقاية من مساوئها[١٠٧] » .

ثم هنأ جنيف بعبارات تصدق تماماً على سويسرة اليوم :

« بلد انصرف عن شهوة الغزو الهمجيه لا فتقاره السعيد للقوة ، وأمن بفضل موقعه الأسعد حظا من خوف الوقوع غنيمة فى يد غيره من الدول : مدينة حرة تتوسط عدة أمم ، لا مصلحة لواحدة منها فى العدوان عليها ، ومصلحة كل منها فى منع غيرها من هذا العدوان[١٠٨] » .

وبارك معبود الثورة الفرنسية المستقبل تلك القيود المفروضة على الديمقراطية فى جينف ، حيث لا حق فى التصويت إلا لثمانية فى المائه من السكان :

« لكى نتقى خدمة المصالح الخاصه والمشروعات الطائشة وجميع البدع الخطرة التى إنتهت بالقضاء على الأثنيين ، ينبغى إلا تطلق الحرية لكل رجل فى اقتراح القوانين الجديدة على هواه ، بل يقصر هذا الحق على القضاة دون غيرهم . . . فقدم القوانين هو أهم عامل فى إضفاء القدسية والاحترام عليها ، والناس سرعان ما يتعلمون الاستهانة بالقوانين التى يرونها تبدل وتغير كل يوم ، ولو اعتادت الدول أن تهمل تقاليدها القديمة بحجة التحسين والإصلاح ، لجلبت من الشرور فى الغالب ما هو اسوأ مما تحاول أن تقضى عليه[١٠٩] » .

أكان هذا مجرد ذريعة يلتمس بها العودة إلى المواطنة الجنيفية ؟

أما وقد تحقق لروسو هذا الهدف فإنه قدم مقاله لأكاديمية ديجون . ولم يمنح الجائزة ، ولكن حين نشر المقال فى يونيو ١٧٥٥ ، سره أن يصبح من جديد الحديث المثير لصالونات باريس . ذلك أنه لم يترك مفارقة إلا تناولها ليثير الجدل حولها . فهو لم ينكر عدم المساواة « الطبيعى » أو الالزامى ، وسلم بأن هناك افرادا هم بحكم مولدهم أصح أو أقوى من غيرهم فى البدن أو الخلق أو الذهن . ولكنه زعم أن كل ضروب عدم المساواه الأخرى — الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، غير طبيعية ، نشأت حين ترك البشر « الحالة الطبيعية » . وأقاموا الملكية الخاصة وأسسوا دولا تحمى الثروه والامتياز .

« فالإنسان بطبيعته طيب[١١٠] » ، وأكثر ما يجعله شريرا تلك النظم الاجتماعية التى تقيد أو تفسد ميوله للسلوك الطبيعى . وقد صور روسو حالة فطرية مثالية كان معظم الناس فيها أقوياء الأطراف ، خفاف الأقدام ،

حديدى البصر(•) ، يعيشون حياة الحركة والعمل ، حياة كان الفكر فيها دائماً أداة للعمل وتابعا له ، لا بديلا مضعفا عنه . ثم قارن بين هذه الصحة الفطرية وبين الأمراض المتكاثرة التى تنجم فى الحضارة عن الثروة والأعمال التى تتطلب القعود الكثير :

« أن أغلب عللنا من صنعنا ، وكان يسيراً علينا أن نتجنبها ، كلها تقريبا ، بالتزام أسلوب الحياة البسيط ، المتماثل ، المنعزل ، الذى قررته الطبيعة . فإذا كانت الطبيعة. قد قضت بأن يكون الإنسان سليما صحيحاً ، فأنى أجرؤ على الزعم بأن حالة التفكير والتأمل حالة تناقض الطبيعة ، وأن (l'homme qui médite est un aminal déprar é.)

وحين نفكر فى بنية المتوحشين القوية — على الأقل أولئك الذين لم ندمرهم بمشروباتنا الروحية — وفى أنهم لايكادون يعانون من أى علل غير الجروح والشيخوخة ، يغرينا هذا بالأعتقاد بأننا فى تتبعنا لتاريخ المجتمع المدنى ؛ إنما نحن نروى تاريخ أمراض البشر[١١٢] » .

ويسلم روسو بأن هذه الحالة المثالية « الحالة الطبيعية .. .. ربما لم توجد قط ؛ وأغلب الظن أنها لن توجد أبدا[١١٣] » . فهو لا يعرضها بوصفها حقيقة واقعة من حقائق التاريخ بل مقياسا للمقارنة . وهــذا ماعناه بهذا الاقتراح المفزع « فلنبدأ إذن بتنحية الحقائق جانبا لأنها لاتمس السؤال . والتحقيقات التى يصح أن نخوض فيها . . . . يجب ألا تعالج على أنها حقائق تاريخية ، بل حجج مشروطة وفرضية[١١٤] » : على أننا قد نكون فكرة عن حياة الإنسان قبل قيام النظام الاجتماعى ، بملاحظة حال الدول الحديثة وسلوكها ، لأن « الدول اليوم مازلت فى حالة طبيعية[١١٥] » . فكل منها ذات سيادة فردية ، لا تعرف فعلا أى قانون إلا قوانين المكر والقوة ، ويجوز أن نفرض أن الإنسان الذى سبق تكوين المجتمعات كان يحيا فى حالة مشابهة من السيادة الفردية ، وعدم الأمان ، والفوضى

(•) « مالست أباه ، فإنه عندى الله والفضيلة » نيتشه[١١١] الإنسان الذى يتأمل هو حيوان فاسد :

الجماعية ، والعنف بين الحين والحين . ولم يكن مثل روسو الأعلى هو هذه الحياة المتخيلة التي سبقت المجتمعات [لأن المجتمع قد يكون قديما قدم الإنسان] ، بل مرحلة لاحقة من التطور عاش فيها الناس في أسر أبوية النظام وجماعات قبلية ، ولم ينشئوا بعد نظام الملكية الخاصة « إن أقدم المجتمعات قاطبة ، والمجتمع الطبيعي الوحيد ، هو الأسرة(١١٦) » .

ذلك كان العصر الذي بلغت فيه سعادة البشر أقصاها . حقاً أنه لم يخل من عيوب ، وآلام ، وعقوبات . ولكنه خلا من القوانين . اللهم إلا السلطة الأبوية والنظام الأسرى ؛ « لقدكانت هـــذه الحالة في جملتها أفضل حالة يستطيع الإنسان ممارستها ، فلم يكن ليعدل عنها لولا أن اصابه خطب فادح(١١٧) . وهذا الخطب هو إقامة الملكية الفردية ، وما نجم عن ذلك من تفرقة اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية ، ومعظم شرور الحياة الحديثة .

« أن أول رجل سور قطعة من الأرض ثم خطر له أن يقول « هذه ملكي » ووجد الناس من البساطة بحيث يصدقونه ؛ هذا الرجل كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المتمدن . ليت شعرى كم من الجرائم ، والحروب ، والاغتيالات ، كم من الفظائع والكوارث ، لم يكن في إستطاعة أى إنسان أن ينقذ البشرية منها باقتلاع الأوتاد المحددة للأرض أو ردم القناة المحيطة بها والصياح بإخوانه أن احذروا الاستماع إلى هذا النصاب ، إنكم إن نسيتم أن ثمرات الأرض ملك لنا جميعاً ، وأن الأرض ذاتها ليست ملكا « لأحد ، كان في ذلك هلاككم(١١٨) » .

ومن هذا الأغتصاب الذى سمح به الناس انبعثت لعنات الحضارة : كالأنقسامات الطبيعية ، والعبودية ، ورق الأرض ، والحسد ، والسرقة ، والحرب ، والظلم القانوني ، والفساد السياسي ، والغش التجارى ، والأختراعات ، والعلم والأدب ، والفن ، و« التقدم » ... وبكلمة واحدة ، الانحطاط . فلحماية الملكية الخاصة نظمت القوة ثم أصبحت هي الدولة ، ولتيسير الحكم طور القانون لتعويد الضعفاء الإذعان للاقوياء

بأقل قدر من الإكراه والتكلفة[١١٩] . وهكذا نشأ هذا الوضع الذى نرى فيه « القلة المميزة تكتظ بالكماليات ، على حين تفتقر الجماهير الجائعة إلى أبسط ضروريات الحياة[١٢٠] ». يضاف إلى هذه المظا لم الأساسية طائفة أخرى متفرعة عنها «كالوسائل المخزية التى يمارسها الناس احياناً لمنع ولادة البشر ، والأجهاض ، وقتل الأطفال ، وخصى الذكور ، والأنحرافات الجنسية ، وترك الكثيرين من الأطفال الذين يقعون فريسة لإملاق أبويهم فى العراء أو قتلهم[١٢١] » . هـــذه الكوارث كلها مفسدة مضعفة ، والحيوانات لا تعرفها ؛ وهى تجعل « الحضارة » سرطانا ينهش جسد البشرية . وعلى نقيض هذا الفساد والإنحراف المتعدد الأشكال ، نجد حياة المتوحشين صحيحة ، سليمة ، رحيمة . أينبغى أن نعود إذن إلى الهمجية ؟ « إيجب أن تلغى المجتمعات إطـــلاقا ؟ وتبطل عبارة « ملكى » و « ملـــكك » ، ونعود إلى الغابة لنحيا بين السباع ؟ » لم يعد هذا فى وسعنا ، فسم الحضارة يسرى فى دمائنا ، ولن ننتزعه بالهروب إلى الغابات ، والقضاء على الملكية الخاصة ، والحكومة ؛ والقانون ، معناه الزج بالناس فى فوضى هى شر من الحضارة . « لن يستطيع الإنسان العودة أبدا إلى زمان البراءة والمساواة متى تركه[١٢٢] » . وقد تبرر الثورة ،لأن القوة قد تطيح عدلا بما إقامته القوة وساندته[١٢٣] ، ولكن الثورة ليست مستحبة الآن . وخير ما نستطيعه هـــو أن ندرس الأناجيل من جديد ، ونحاول تطهير دوافعنا الشريرة بممارسة أخلاق المسيحية[١٢٤] . وفى إستطاعتنا أن نجعل من العطف الفطرى على أخواننا البشر أساساً للأخلاق والنظام الاجتماعى . ونستطيع العزم على أن نحيا حياة أقل تعقيداً ، نقنع فيها بالضروريات ، ونحتقر أسباب البذخ والترف ، ونجتنب سباق « التقدم » وحماه . نستطيع أن ننبذ ما فى الحضارة من ضروب الزيف ، والنفاق ، والفساد ، واحداً بعد الآخر ، ونعيد تشكيل أنفسنا على الأمانة والطبيعية ، والاخلاص . نستطيع أن نترك ضوضاء مدننا وصخبها ، وأحقادها ، وفسقها ، وجرائمها ، ونذهب لنعيش فى بساطة الريف ومسئوليات

الأسرة وقناعتها . نستطيع أن نطلق دعاوى الفلسفة ومسالكها المسدودة ، ونعود إلى إيمان ديني يشد أزرنا حين نواجه الألم والموت » .

ونحن نحس اليوم شيئاً من التكلف فى هذا السخط البار بعد أن سمعنا هذا كله مائة مرة . فلسنا على ثقه من أن الشرور التى وصفها روسو تنجم عن الأنظمة الفاسدة أكثر مما تنجم عن طبيعة البشر ، وعلى أية حال فالطبيعة البشرية هى التى صنعت الأنظمة . ويوم كتب جان . جاك «مقاله» الثانى كانت الأشادة بذلك « الهمجى اللطيف المعشر . المتدفق العاطفة » قد بلغت ذروتها . ففى ١٦٤٠ كان ولتر هاموند قد نشر كتيبا « يثبت أن أهل مدغشقر أسعد شعوب الأرض[١٢٥] » . وبدا أن القصص التى رواها اليسوعيون عن هنود هورون وإيروكوا مصداق للصورة التى رسمها الروائى ديفو لخادم روبنصن كروزو اللطيف « فرايداى » . أما فولتير فكان يسخر عموماً من أسطورة الهمجى الشريف ، ولكنه إستخدمها بمرح فى قصته « الساذج » وداعبها ديدرو فى قصته « تذييل لرحلة بوجانفيل » ولكن هلفينيوس هزأ باشادة روسو بالهمجى مثلا أعلى[١٢٦] ، وزعم دوكلو . رغم أنه كان صديقاً وفيا لجان — جاك — أن « الهمج هم الذين تستشرى بينهم الجريمة ، وطفولة أمة ما ليست عصر براءتها[١٢٧] » . ويمكن القول على الجملة أن المناخ الفكرى كان مواتياً لنظرية روسو .

أما ضحايا مطاعن روسو فقد هدأوا ضمائرهم بالزعم بأن هذا المقال الثانى متكلف كسابقه . ووصفته مدام دودفان صراحة بأنه دجال[١٢٨] . وسخر الشكاك من إدعاءاته بسلامة عقيدته المسيحية . وبتفسيره الحرفى لسفر التكوين[١٢٩] وبدأ جماعة الفلاسفة يرتابون فيه لأنه يقلب خططهم الرامية إلى إستمالة الحكومة إلى أفكارهم فى الأصلاح الاجتماعى ، ولم يحبذوا إستثارة كراهيات الفقراء . وسلموا بحقيقة الاستغلال ، ولكنهم لم يروا أى مبدأ بناء فى أحلال الغوغاء محل القضاة . أما الحكومة فلم تحتج على إتهامات روسو ، والراجح أن القصر لم ير فى المقال إلا تدريبا على الخطابة . وكان روسو فخور ببلاغته ، فأرسل نسخة من المقال إلى فولتير ، وترقب

فى شوق كلمة ثناء منه . وجواب فولتير درة من درر الأدب والحكمة وآداب السلوك الفرنسية . قال :

« تلقيت ياسيدى كتابك الجديد الذى يهاجم النوع الإنسانى . وأنى أشكرك عليه . وأنك لتسر الناس الذين تخبرهم بحقائق تهمهم ، ولكنك لن تقوم بذلك أعوجاجهم . إنك ترسم بألوان صادقة جداً فظائع المجتمع الإنسانى ، . . . وأن احدا لم يبذل قط مثل هذا الذكاء الكثير ليقنع الناس بأن يكونوا وحوشا . والمرء حين يقرأ كتابك تتملكه الرغبة فى أن يمشى على أربع [marcher à quatre pattes] ولكن بما أننى فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عاماً ، فأنى لسوء الحظ أشعر أنه يستحيل على استئنافها . . .

« وإنى متفق معك على أن الآداب والعلوم كانت أحيانا علة الكثير من الشرور . . . [ولكنى] إقرر أنه لا شيشرون ، ولا قارو ، ولا لوكريتيوس ، ولا فرجيل ، ولا هوراس ، كان لهم أقل نصيب فى تحريمات ومصادرات ماريوس ، وصلا ، وانطونيوس ، وليبدوس ، وأوكتافيوس . . . وعليك أن تعترف بأن بتراوك وبوكاشيو لم يكونا السبب فيما عانته إيطاليا من متاعب داخلية ، وأن مزاح مارو لم يكن السبب فى مذبحة القديس برتولومى ، وأن مسرحية كورنيى « السيد » لم تثر حروب الفروند . إن الجرائم الكبرى قد إقترفها رجال مشهورون ولكنهم جهلة . والذى جعل هذه الدنيا ، وسوف يجعلها على الدوام ، واديا للدموع هو جشع الناس الذى لا يشبع وغرورهم الذى لا يفتر .. أن الأدب يغذى الروح ، ويقومها ، ويعزيها . أنه يخلق مجدك فى ذات الوقت الذى تهاجمه فيه . . .

« لقد انبأنى السد شابوى أن صحتك سيئة للغاية . فعليك أن تحضر وتستردها فى جو وطنك ، وتستمتع بالحرية ، وتشرب معى لبن أبقارنا ، وتعيش على أعشابنا . وأنى ياسيدى بكل ، الفلسفة وكل التقدير المشرب بالمحبة ، خادمك المتواضع جداً ، المطيع جداً[١٣٠] .

ورد روسو التحية بمثلها ، ووعد بأن يزور فيلا المباهج عند عودته إلى سويسرة[١٣١] . ولكن حز فى نفسه كثيراً ذلك الاستقبال الذى استقبل به مقاله فى جنيف التى أهداها أياه بمثل هذا المديح السار . والظاهر أن الاوليجاركيه الصغيرة المحكمة التى تسلطت على الجمهورية أوجعتها بعض تعليقات ذلك المقال اللاذعة . ولم تسغ تنديد روسو الشامل بالملكية ، والحكومة ، والقانون « لم أحس أن جنيفياً واحدا سر بما حواه المقال من حماسة قلبية[١٣٢] . وعليه فقد قرر أن الوقت لم يحن بعد لعودته إلى جنيف .

٨ — المحـــافظ

شهد عام ١٧٥٥ ، الذى نشر فيه المقال الثانى ، ظهور مقال طويل بقلم روسو فى المجلد الخامس من الموسوعة عنوانه ، مقال فى الاقتصاد السياسى . وهو جدير بالملاحظة لأنه خالف المقالين السابقين عليه فى بعض تفاصيله الهامة . ففى هذا المقال نرى الكاتب يجل المجتمع ، والحكومة ، والقانون ، باعتبارها نتائج طبيعية لفطرة الإنسان وحاجاته ، ويصف الملـــكية الخاصة بأنها عطية اجتماعية وحق أساسى . « من المؤكد أن حق الملكية أقدس حقوق المواطنة ، بل أنه من بعض الوجوة أهم من الحرية ذاتها . فالملكية هى الأساس الصحيح للمجتمع المدنى ، والضمان الحقيقى لتعهدات المواطنين[١٣٣] بمعنى أن الناس لن يعملوا فوق ما تتطلب أبسط حاجاتهم مالم يحتفظوا بالناتج الفائض لأنفسهم ، ليستهلكوه أو ينقلوه لغيرهم كما يشاءون . ويوافق روسو الآن على أن يورث الآباء ثروتهم لأبنائهم . ويقبل فى اغتباط ما يتمخض عنه هذا من انقسامات طبقية . « مامن شىء أضر بالفضيلة وبالجمهورية من انتقال المراتب والثروات باستمرار بين المواطنين : ومثل هذه التغيرات هى الدليل على وجود مئات من ضروب الخلل والاضطراب ، وهى مصدرها فى الوقت نفسه ، ومن شأنها أن تقلب كل شىء رأساً على عقب وتفسده[١٣٤] .

ولكنه يواصل التنديد بالظلم الاجتماعى وبما فى القانون من محاباة طبقية . فكما أن من واجب الدولة أن تحمى الملكية الخاصة ووراثتها القانونية ، كذلك

ينبغى أن يسهم أعضاء المجتمع ببعض ثروتهم لإعالة الدولة . وينبغى أن تفرض ضريبة صارمة على جميع الأشخاص بنسبة تصاعدية مع ثروتهم و « فائض ممتلكاتهم »[١٣٥]، وألا تفرض ضريبة على الضروريات ، وأن تفرض ضريبة مرتفعة على الكماليات ، وينبغى أن تمول الدولة نظاماً قومياً للتعليم . « أن الأطفال إذا نشئوا معاً (فى مدارس قومية) فى حضن المساواة وإذا أشربوا قوانين الدولة ومبادىء الإدارة العامة . . فلن نشك فى أنهم سيحبون بعضهم بعضاً كما يفعل الإخوة . ليصبحوا فى الوقت المناسب مدافعين وآباء الوطن الذى كانوا أبناؤه[١٣٦] . والوطنية خير من العالمية أو التظاهر المزيل بالعطف العالمى[١٣٧] . »

وكما طغت النزعة الفردية على المقالين الأولين ، طغت النزعة الاجتماعية على مقال الاقتصاد السياسى . وهنا يصرح روسو لأول مرة بعقيدته الغريبة وهى أن فى كل مجتمع « إرادة عامة » فوق المجموع العـــددى لما يحبه الأفراد الذين يؤلفونه ومايكرهون . فالمجتمع ، فى فلسفة روسو المقطورة ، كائن اجتماعى له روحه الخاصة ؟

« أن الدولة هى أيضاً كائن معنوى ، يملك الإرادة ، وهذه الإرادة العامة التى تنحو دائماً إلى صيانة ورفاهية الدولة كلها وكل جزء فيها ، هى مصدر القوانين ، وهى التى تشكل لجميع أعضاء الدولة ، فى علاقاتهم بعضهم ببعض القاعدة التى تفرق بين العدل والظلم[١٣٨] .

وحول هذا المفهوم يقيم روسو الأخلاق والسياسة التى ستغلب منذ الآن على آرائه فى الشئون العامة . فنرى الثائر الذى اعتبر الفضيلة تعبير الإنسان الحر الطبيعى يعرفها الآن بأنها « ليست سوى مطابقة الإرادات الفردية للإرادة العامة »[١٣٩] . ونرى الرجل الذى كان ينظر إلى القانون مؤخراً جداً على أنه إثم من آثام الحضارة ، وأنه أداة مريحة لفرض النظام الطيع على الجماهير المستغلة ، يصرح الآن بأن القانون وحده هو الذى يدين له الناس بالعدل والحرية ، وهذا الجهاز النافع من أجهزة الإرادة الجماعية هو الذى يرسى ،

فى الحق المدنى ، المساواة الطبيعية بين البشر ، أنه الصوت السماوى الذى يملى على كل مواطن مبادىء العقل العام »[١٤٠] .

ولعل محررى الموسوعة المطاردين كانوا قد نبهوا روسو إلى التخفيف فى هذا المقال من هجومه على الحضارة . وسنجده بعد سبع سنوات ، فى كتابه « العقد الاجتماعى » يدافع عن الجماعة ضد الفرد ، ويقيم فلسفته السياسة على فكرة الإرادة العامة المقدسة السامية . على أنه لم يزل خلال ذلك فردياً وثائراً يبغض باريس ، ويؤكد ذاته ضد أصدقائه ، ويصنع كل يوم أعداء جدداً .

٩ — الهروب من باريس ١٧٥٦

كان أصدقاؤه الحميمون الآن هم جريم ، وديدرو ، ومدام دينيه . أما جريم فقد ولد فى راتزبون عام ١٧٢٣ ، فكان بذلك يصغر روسو بأحد عشر عاماً . وقد تعلم فى ليبزج فى العقد الأخير من حياة باخ ، وتلقى عن يوهان أوجست إرنشتى أساساً مكيناً فى لغتى اليونان والرومان وآدابهما . فلما وفد على باريس فى ١٧٤٩ تعلم الفرنسية بما عرف عن الألمان من اتقان ودقة ، وما لبث أن وافى مجلة المركيز بمقالاته . وفى ١٧٥٠ أصبح السكرتير الخاص للكونت فون فريزن . وأغراه حبه للموسيقى بالتعلق بروسو ، كما رماه جوع أكثر عمقاً تحت قدمى الآنسة فل المغنية بالأوبرا ، فلما آثرت عليه المسيو كاهوزاك ، يقول روسو أن جريم :

«حز هذا فى نفسه حتى أصبحت أمارات خطبه مأساوية — فكان ينفق الأيام والليالى فى تراخ وتبلد . ويرقد وعيناه مفتوحتان . . لا يتكلم ، ولا يأكل ، ولا يتحرك . . وكنت والا بيه رينال نرعاه ، فالابيه — وكان أشد منى وأصح — يسهر عليه ليلا ، وأنا أرعاه نهاراً ، فلا نغيب عنه معاً فى وقت واحد »[١٤١].

واستدعى فون فريزن طبيباً يعوده ، فأبى أن يصف له دواء غير الزمن . وأخيراً ذات صباح ، قام جريم ، وارتدى ثيابه ، واستأنف نظام حياته العادى ، دون أن يذكر يومها أو بعدها . . هذا التبلد الشاذ[١٤٢] .

وقدم روسو جريم إلى ديدرو ، وراح ثلاثتهم يحلمون بالذهاب معاً إلى إيطاليا . واستوعب جريم فى نهم سيل الأفكار المتدفق من معين عقل ديدرو، وتعلم لغة « الفلاسفة » الخالية من التوقير ، وألف كتابا لا أدريا « فى التعليم الدينى للأطفال » وأشار على فون فريزن بأن يتخذ ثلاث خليلات فى وقت واحد « تذكاراً للثالوث الأقدس » (١٤٣) وأقلقت روسو تلك الألفة النامية بين جريم ، الذى سيصفه سانت بوف بأنه « أكثر الألمان فرنسية » ، وبين ديدرو « أكثر الفرنسيين ألمانية » (١٤٤) وقال روسو شاكياً « إنك تهملنى ياجريم ، وأنا أغفر لك هذا » وأخذه جريم عند كلمته . فقال لى إننى مصيب . . . ثم حطم كل قيـــد ، فلم أعد أراه إلا فى صحبة أصدقائنا المشتركين (١٤٥) .

وفى سنة ١٧٤٧ كان الابيه رينال قد بدأ يرسل للمكتتبين الفرنسيين والأجانب خطاب أنباء نصف شهرى سماه « الأنباء الأدبية » يورد فيه الوقائع فى دنيا الأدب والعلوم والفلسفة والفنون الفرنسية — وفى ١٧٥٣ عهد بالمشروع إلى جريم الذى — واصله بمعونة من ديدرو وآخرين حتى ١٧٩٠ . وأثناء اضطلاع جريم بالمجلة كان من بين من وافوها بمقالاتهم إفراد بارزون . كملكة السويد لويزا أوريلكا وملك بولندة السابق ستانسلاس لسكيزنسكى ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا ، وأميرة ساكس — جوتا ، وأمير وأميرة هيسى — دارمشتات ، ودوقة ساكس — كوبورج ودوق تسكانيا الكبير ، والدوق كارل أوجست أمير ساكس — فيمار . أما فردريك الأكبر فقد احجم حينا عن المشاركة فيها لكثرة عدد من يبادلهم الرسائل فى فرنسا وأخيراً وافق على أن يتسلم المجلة ، ولكنه لم يدفع لها مالا قط . وقد أذاع جريم العدد الأول من المجلة عقب إضطلاعه بأصدارها (مايو ١٧٥٣) :

فى الصفحات المطلوبة منا لن نضيع وقتا على النشرات التى تغرق باريس كل يوم ، . . . بل سنحاول أن نعطى تقريراً دقيقا ، وتحليلا منطقيا (critique raisonnée) للكتب التى تستحق أن يهتم بها الجمهور ،

وستكون الدراما جزءا هاماً من تقريرنا لأنها فرع رائع من فروع الأدب الفرنسى وعلى العموم لن نغفل شيئاً جديراً بفضول غيرنا من الشعوب[١٤٦].

وهذه الرسائل الأدبية المشهورة هى الآن سجل رئيسى نفيس لتاريخ فرنسا الفكرى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وقد استطاع جريم أن يكون صريحاً فى مقالاته النقدية ، لأنها لم تكن معروفة للجمهور الفرنسى أو للمؤلف الذى تتناوله . وكان يتوخى الإنصاف عادة ، إلا مع روسو فى فترة لاحقة . وقد أصدر الكثير من الأحكام الصائبة ، ولكنه أساء الحكم على « كانديد » فزعم أنها لا تثبت — للنقد الجاد ، على أن هـذا الرأى لم يدفق إليه تحامل على فولتير ، فقد وصفه بأنه : « أعظم الرجال فى أوربا جاذبية وأكثرهم لطفا ، وأبعدهم صيتاً[١٤٧]. »

ورد فولتير التحية بطريقته الشيطانية فقال : « ما الذى يتراوى لهذا البوهيمى أن يبزنا ذكاء وفطنة ؟ » [١٤٨] ورسائل جريم هذه هى التى أذاعت فى أرجاء أوربا أفكار التنوير الفرنسى أكثر من أى كتابات أخرى باستثناء مؤلفات فولتير . ومع ذلك خامرته الشكوك فى جماعة الفلاسفة وفى ايمانهم بالتقدم ، فقال : « إنما العالم مركب من : شرور لا يحاول إصلاحها غير إنسان معتوه » [١٤٩] وفى ١٧٥٧ كتب يقول :

« يبدو أن القرن الثامن عشر فاق كل القرون فى المدائح التى كالها لنفسه .... ولو تمادى فى هذا قليلا لأقنع خيرة المفكرين أنفسهم بأن دولة الفلسفة ، الهادئة المسالمة ، أوشكت أن تسود بعد عواصف الجنون الطويلة ، وأن ترسى إلى الأبد سلام البشر وهدؤهم وسعادتهم . . . ولكن الفيلسوف الصادق ، لسوء الحظ ، لديه أفكار أقل تعزية ولكنها أصح وأدق .... وهيهات أن أصدق أننا مقتربون من عصر العقل ، وأكاد اعتقد أن أوربا تتهددها ثورة مدمرة » [١٥٠] .

ونلمح هنا أثراً من الكبرياء والغرور اللذين كانا يغيظان إصدقاء جريم أحيانا . فلقد كان هذا المتفرنس أكثر من الفرنسيين ، ينفق الساعات فى

التزين ، وذر المساحيق على وجه وشعره ، والأسراف فى التعطر إسرافا لقب من أجله بدب المسك[١٥١] . وهو يبدو فى رسائله ينثر التحيات يمنة ويسرة بيد تتوقع الرد عليها . وقد اشترط فردريك للأشتراك فى الرسائل أن « يعفينى جريم من تحياته[١٥٢] . ومثل هذا التملق كان بالطبع جزءا من أسلوب الرسائل فى ظل « النظام القديم » .

واسترعى جريم أنتباه باريس ، وهو الوجل البارد المتزن عادة ، باشرافه على الموت هياما بالآنسة فل ، وبدخوله فى مبارزة من أجل مدام دبيينيه . وكانت هذه الأخيرة — لويز — فلورانس تارديوديسكلاڤيل — أبنه بارون من ڤالنسين مات فى خدمة الملك عام ١٧٣٧ . وبعد ثمانية أعوام حين بلغت لويز العشرين ، تزوجت من دنيس — جوزف لاليف ديبنيه وكان ابن جاب غنى . وذهبا للعيش فى قصر ريفى جميل يدعى الشاتو دلاشيفريت ، على تسعة أميال من باريس ، بقرب غابة مونمورنسى . وفاضت حياتها سعادة ، فتساءلت « أيستطيع قلبى أن يحتمل هذه السعادة؟ وكتبت إلى» أبنة عم لها تقول » كان يعزف على البيان القيثارى ، وأنا جالسة على مسند كرسيه ويسراى على كتفه ، ويمناى تقلب الأوراق ، فلم يفته قط أن يقبلها فى كل مرة تمر أمام شفتيه[١٥٣] .

ولم تكن جميلة ، بل صغيرة الجسم أنيقة على نحو ساحر ، بديعة التكوين trés bien faite (كما تنبئنا)[١٥٤] ؛ وستفتن عيناها السودا وان النجلاوان فولتير بعد حين . ولكن « الأحساس دائماً بنفس الشىء يصبح بعد قليل « تماماً كالأحساس بلا شىء »[١٥٥] ، فلم يمض غير عام حتى كف ديبنيه عن ملاحظة هاتين العينين . لقد كان قبل الزواج فاسقا عربيدا فعاد الآن كما كان ، يسرف فى الشراب ، ويسرف فى القمار ، وينفق المال الطائل على الأختين فربير ، اللتين أسكنهما كوخا على مقربة من لاشيفريت وولدت له زوجته خلال ذلك طفلين . وفى ١٧٤٨ عاد من رحلة فى الإقاليم ، وضاجع امرأته ، فنقل إليها عدوى الزهرى . وحصلت على انفصال شرعى عن زوجها بعد أن أعتلت صحتها وتحطمت

روحها . ووافق على تسوية سخية ؛ وورثت هي ثروة عمها ، فاحتفظت بلاشيفريت ؛ وحاولت أن تنسى تعاستها فى الحدب على طفلها ورعاية صديقاتها . فلما أصيبت احداهن — وهى مدام دجوللى — بالجدرى إصابة مميتة ذهبت لويز لتمرضها ، ومكثت معها إلى النهاية ، معرضة نفسها لعدوى قد تودى بها أو تشوهها مدى الحياة .

وأجمعت صديقاتها على أنه يحسن بها أن تتخذ عشيقا . وجاء عشيق (١٧٤٦) وهو دوبان دفرانكوى ، الرجل الذى وظف روسو عنده . وقد بدأ بالموسيقى ، وإنتهى بالزهرى ، ولم يلبث أن شفى من هذا الداء فى حين ظلت هى تعانى منه[١٥٦] . وإنضم إلى زوجها فى إقتسام الآنستين دفيريير . وقال لهـا دوكلو فى صراحة جافية « أن فرانكوى وزوجك يقتسمان الأختين فيما بينهما[١٥٧] » . فأصيبت بحمى وهذيان داما ثلاثين ساعة . وحاول دوكلو الحلول محل دوبان ، ولكنها طردته . ثم كانت مأساة أخرى حين أعطتها مدام دجوللى وهى على فراش الموت حزمة أوراق تفضح غرامياتها وألحت عليها فى أن تحرقها ، ففعلت . واتهمها المسيو دجوللى بأنها أحرقت عن عمد شهادات مديونيتها هى له . وأنكرت التهمة ولكن القرائن كانت ضدها ، إذ كان معروفا أنها كانت تعين زوجها بالمال رغم انفصالها عنه .

فى هذه الأزمة دخل جريم الدراما ، وكان روسو قد قدمه إلى لويز فى ١٧٥١ ، وكثيراً ما إشترك ثلاثتهم فى عزف الموسيقى أو الغناء معا . وذات مساء فى حفلة أقامها الكونت فون فريزن أعرب أحد الضيوف عن اعتقاده بأن مدام دبينيه مذنبة . . ودافع عنها جريم ؛ واحتد النقاش إلى حد المساس بالشرف ، وتبارز صاحب الأتهام والمدافع ، فجرح جريم جرحا طفيفا . وبعد حين وجدت الوثائق المفقودة ؛ وبرئت ساحة السيدة ، فشكرت جريم باعتباره « فارسها الهمام » ونما تقدير الواحد منهما لصاحبه فاكتمل حباً من أبقى وأثبت ما شهده ذلك العصر القلب : وحين أتلف الحزن صحة البارون دولباخ لموت زوجته ، وسافر جريم

العناية به فى الريف ، سألته لويز « ولكن من سيكون فارسى ياسيدى إن هاجمنى أحد فى غيابك » ؟ فأجاب جريم « هو ما كان من قبل — حياتك الماضية[١٥٨] » . ولم يكن الجواب قاطعاً مانعا ، ولكنه فاق حدود الثناء .

وكان روسو قد التقى بمدام ديبينيه فى ١٧٤٨ فى بيت مدام دوبان . ودعته إلى لاشيفريت . وفى « مذكراتها » وصف له :

« أنه يقدم التحيات والمجاملات ، ولكنه ليس مؤدبا ، أو على الأقل يعوزه مظهر التأدب . والظاهر أنه جاهل بعادات المجتمع ، ولكن من الواضح أنه مفرط الذكاء . وله بشرة سمراء ، وعينان بيضاوان تتوهجان وتضفيان الحيوية على قسماته . . . . . ويقال إنه عليل ، ويتجلد لعذاب يحرص على كتمانه . . . . وهذا فى ظنى هو الذى يضفى عليه أحياناً .... ، مظهر الاكتئاب[١٥٩] » .

أما الصورة التى رسمها لها فلم تكن شديدة التأنق :

« لم يكن حديثها الخاص ممتعاً ، وأن لم يعوزه اللطف فى حضرة الجنسين . . . وأسعدنى أن أبدى لها بعض المجاملات ، وقبلتها قبلات أخوية صغيرة ، لم تبد أكثر شهوانية منها هى . . . . لقد كانت غاية فى النحول ، والشحوب ، ولها صدر كظاهر يدها. وكان هذا العيب وحده كافيا للتخفيف من أحر رغباتى[١٦٠] » .

وظل سبع سنوات يلقى الترحيب فى بيت مدام ديبنيه . فلما رأت مبلغ ضيقه فى باريس فكرت فى سبل تقديم المعونة له ، ولكنها كانت تعلم أنه سيرفض المال . وبينما كانا ذات يوم يسيران فى حديقتها خلف لاشيفريت ، أرته كوخا يسمى « الارميتاج (الصومعة) » كان من قبل ملكاً لزوجها . وكان مهجوراً متهدماً ، ولكن موقعه على حافة غابة مونمورنسى حمل روسو على أن يقول فى انفعال : « يا له من مسكن مبهج يا سيدتى ! كأن هذا الملجأ أعد لى خصيصاً »[١٦١] . ولم تجب السيدة ، ولكن حين عاودا السير إلى الكوخ فى سبتمبر ١٧٥٥ ، أدهش روسو أن يجده قد رمم ، وأثثت

حجراته الست ، ونظفت الأرض المحيطة به ورتبت : وينقل عنها أنها قالت « يا عزيزى ، إليك ملجأك ، فأنت الذى اخترته ، أن الصداقة تقدمه لك . وأرجو أن يزيل هذا فكرتك القاسية ، فكرة الانفصال عنى » وكانت تعلم أنه فكر من قبل فى أن يقيم فى سويسرة ، ولعلها لم تعرف ما طرأ من فتور على تحمسه لجنيف . و « فاضت دموعى على اليد الكريمة » يد صديقته ، ولكنه تردد فى قبول عرضها . فأغرت تريز ومدام لفاسير بقبول خطتها ، و « أخيراً تغلبت على جميع قراراتى » .

وفى أحد القيامة ، ١٧٥٦ ، ولكى تجمل الهدية باللياقة ، جاءت باريس فى مركبتها ، وأخذت « دبها » كما كانت تدعوه ، هو وخليلته وحماته ، إلى الارميتاج . ولم يلذ تريز فراقها لباريس ، أما روسو ، فما إن استنشق هواء الخلاء حتى شعر بأنه أسعد منه فى أى وقت منذ أيام فردوسه الريفى مع مدام دفاران . « فى ٩ إبريل ١٧٥٦ بدأت أحيا » (١٦٢) ، ولكن جريم أفسد الفرحة بتحذير لمدام دبينيه :

« إنك تضرين روسو ضررا بليغاً بإعطائه الارميتاج ، ولكنك تضرين نفسك ضرراً أبلغ . فستكمل العزلة مهمة تسويد خياله ، وسيبدو كل أصدقائه فى عينيه ظلمة جاحدين . وأنت أولهم ، إن رفضت ولو مرة واحدة أن تمتثلى لأوامره » (١٦٣) .

وانطلق بعد ذلك جريم ، الذى أصبح الآن سكرتيراً للمرشال دستريه ، ليلعب دوره فى الحرب التى سترسم خريطة العالم من جديد .

* * *

الفصل الثانى

حرب السنين السبع

١٧٥٦ — ١٧٦٣

١ — كيف تشعل نار الحرب

حين وافت سنة ١٧٥٦ كانت أوربا قد عرفت ثمانية أعوام من السلم . غير أن حرب الوراثة النمساوية لم تحسم شيئا . فقد تركت النمسا قلقة فى بوهيميا وإيطاليا ، وبروسيا قلقة فى سيليزيا ، وبريطانيا قلقة فى هانوفر ، وفرنسا قلقة فى الهند ، وأمريكا ، وعلى الرين . ولم تحقق معاهدة إكس لا شابل (١٧٤٨) تسوية للأراضى يمكن أن تقارن فى ثباتها بالتسوية التى حققتها معاهدة وستفاليا قبل قرن من الزمان . وتزعزع توازن القوى القديم نتيجة لنمو الجيش البروسى والبحرية البريطانية ؛ فقد ينطلق ذلك الجيش ليلتهم أقاليم جديدة ، ولا تحتاج تلك البحرية إلا إلى الوقت لتقتنص مستعمرات فرنسا : وهولندة ، وأسبانيا . وتغذت الروح القومية الصاعدة فى إنجلترة على أرباح التجارة وفرصها ، وفى بروسيا على الحرب الظافرة ، وفى فرنسا على تفوق ثقافى يشعر شعورا غير مريح بالاضمحلال العسكرى . وكان الصراع بين الكاثوليكية والبروتستنتية قد انتهى إلى مأزق ، فترقب الطرفان تحولا فى الحظ ليجددا حرب الثلاثين . طمعا فى الاستيلاء على الروح الأوربيـــة .

وكانت النمسا بادئة بالاستعداد لرمية جديدة للفرد البشرى . ذلك أن ماريا تريزا ، التى لم تزل رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الجميل رغم بلوغها التاسعة والثلاثين ، اجتمع لها كل كبرياء أجدادها الهابسبروج ، وكل غضب المرأة المهانة ؛ فكيف تحيا بعد أن بترت سيليزيا من ملكها الموروث، الملك الذى كفلت كل دول أوربا العظمى وحدة أراضيه ؟ كيف وهى المرأة التى سيثنى بعد حين ، حتى فردريك هذا الذى أذلها من قبل ، على

« بسالتها وكفايتها » ويمتدح الطريقة التى « فطنت بها هذه الحاكمة الأصغر سنا إلى سر الحكم وعدت الروح المسيطرة على مجلسها ... حين بدا أن الأحداث تأتمر بها لتدمرها. »[1] لقد جعلت من الصلح هدنة فقط بعد أن هزمت وسلمت سيليزيا ثمنا للسلام . ثم كرست نفسها للنهوض بالحكم : واصلاح جيوشها المحطمة ، واكتساب حلفاء أقوياء . فترددت على المعسكرات التى يتدرب فيها جيشها ؛ ولهذا الغرض سافرت إلى براغ فى بوهيميا ، وإلى أولمتز فى مورافيا ، وشجعت جنودها بالمكافآت والأوسمة ، وأكثر من ذلك بحضرتها ، حضرة الملكة والمرأة معا . ولم يكن هناك داع لأن يقسم قوادها يمين الولاء لها ، فالولاء فى دمهم وفروسيتهم ؛ وآية ذلك أن أمير ليشتنشتين أنفق ٢٠٠٠,٠٠٠ ايكو (١,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) من ماله الخاص ليجند ويجهز لها سلاح المدفعية كاملا. وأنشأت قرب فيينا كلية حربية لصغار النبلاء ، وجلبت لها خيرة معلمى الهندسة . والجغرافيا ، والتحصين والتاريخ . يقول فردريك « فى عهدها بلغت العسكرية النمساوية درجة من الكمال لم يعرفها أسلافها قط ، وقامت امرأة بتنفيذ خطط جديرة برجل عظيم . »[2]

وكانت الدبلوماسية هى الوجه الآخر لخطتها . فأرسلت مبعوثيها إلى كل بلد لتكتسب أصدقاء للنمسا وتثير العداء لفردريك . لاحظت قوة روسيا الصاعدة ، بعد أن نظمها بطرس الأكبر واطلعت بشئونها الآن القيصرة اليزافيتا بتروفنا ؛ فعملت على أن تصل تعليقات فردريك الساخرة على غراميات القيصرة إلى أذنها . وكانت ماريا تريزا تتمنى لو جددت تحالفها مع انجلترة ، ولكن ذلك التحالف كدره الصلح المنفصل الذى أبرمته انجلترة مع بروسيا (١٧٤٥) والذى اكره النمسا على التخلى عن سيليزيا . وكانت سياسة انجلترا الخارجية تتجه الآن إلى حماية تجارتها فى البحر البلطى من سطوة روسيا ، وإحكام قبضتها على هانوفر لتقيها أى خطر يتهددها من بروسيا أو فرنسا . وقد اعتمدت على روسيا فى تزويدها بما يلزم بحريتها من أخشاب ، واعتمدت على بحريتها فى احراز النصر فى الحرب . ومن ثم وقعت انجلترة فى ٣٠ سبتمبر ١٧٥٥ معاهدة تعهدت فيها روسيا ،

نظير معونات مالية من انجلترة ، بأن تحتفظ بجيش من ٥٥٫٠٠٠ مقاتل فى ليفونيا ، وعلل الانجليز أنفسهم بأن هذا الجيش سيعوق فردريك عن أى مغامرات توسعية صوب الغرب .

ولكن كيف تتصرف انجلترة مع فرنسا ؟ لقد ظلت فرنسا عدوا لها مئات السنين ، وما أكثر ما أثارت فرنسا أو مولت الأعمال العدائية التى قامت بها اسكتلندة ضد انجلترة ؛ وكم من مرة تأهبت لغزو الجزر البريطانية أو هددت بهذا الغزو . وقد أصبحت فرنسا الآن الدولة الوحيدة التى تتحدى بريطانيا فى البحار أو المستعمرات ؛ فلو أن بريطانيا ألحقت بفرنسا هزيمة فاصلة لظفرت بمستعمراتها فى أمريكا والهند ، ودمرت بحريتها أو شلت حركتها ، وعندها لن تكون الإمبراطورية البريطانية آمنه من الخطر فحسب ، بل سيدا غير منازع . كذلك كان وليم بت الأب يجادل البرلمان يوما بعد يوم ، بأبلغ ما سمع ذلك المحفل طوال عمره من خطب الخطباء ولكن أيمكن أن تهزم فرنسا ؟ وقال بت ، أجل ، وذلك بحلف بين بروسيا وانجلترة . وأليس خطراً كبيرا أن يسمح لبروسيا بأن تزداد قوة على قوة ؟ وأجاب بت : لا ، فإن لبروسيا جيشا عظيما سيساعد انجلترة ، بناء على هذه الخطة ، على حماية هانوفر ، ولكن ليس لها بحرية ، ومن ثم لن تقوى على منافسة بريطانيا فى البحر ، وبدا أن من الأحكم أن يسمح لبروسيا البروستنتية بالحلول محل فرنسا الكاثوليكية ، أو النمسا الكاثوليكية ، قوة « غالبة فى القارة ، أن كان فى هذا تمكينا لبريطانيا من « أن تسود البحـــار » وتستولى على المستعمرات . وأى انتصارات يحرزها فردريك فى أوربا من شأنها أن تدعم قوة إنجلترة وراء البحار ، ومن هنا تفاخر بت بأنه سيكسب أمريكا والهند على ساحات القتال فى القارة . فستقدم إنجلترة المال ، ويخوض فردريك معارك اليابس ، وتكسب انجلترة نصف العالم . ووافق البرلمان ، وعرضت بريطانيا على بروسيا ميثاقا للدفاع المشترك .

واضطر فردريك لقبول هذه الخطة ، لأن تطور الأحداث حجب

بهاء انتصاراته . كان يعلم أن فرنسا تحاول التقرب من النمسا ، فلو أن فرنسا والنمسا ومعهما روسيا أيضاً ؛ وهو وضع أسوأ — اتحدت ضده لما إستطاع أن يقاومها كلها ، وفى مأزق كهذا لن يقوى على نجدته غير انجلترة . ولو أبرم الميثاق الذى عرضته عليه انجلترا لاستطاع أن يطالبها بمنع روسيا من مهاجمته ولو كفت روسيا لجاز ثنى النمسا عن الحرب . وهكذا وقع فردريك فى ١٦ يناير ١٧٥٦ معاهدة وستمنستر ، التى تعهدت فيها انجلترة وبروسيا بمعارضة دخول الجيوش الأجنبية إلى المانيا ، وكان الحليفان يأملان أن تحمى هذه المادة الوحيدة بروسيا من روسيا ، وهانوفر من فرنسا .

وشعرت فرنسا ، والنمسا ، وروسيا جميعا أن هذه المعاهدة خيانة من حليفتيهم . صحيح إنه لم يحدث إنهاء رسمى للحلفين اللذين ربطا إنجلترة بالنمسا ، وفرنسا ببروسيا ، فى حرب الوراثة النمساوية . وصعقت ماريا تريزا — كما قالت للسفير البريطانى — حين علمت أن أصدقاءها الانجليز أبرموا ميثاقا مع « الخصم اللدود المقيم لشخصى ولأسرتى[٣] » . وشكا لويس الخامس عشر من أن فردريك خدعه . ورد فردريك بأن المعاهدة دفاعية بحتة وينبغى ألا تسىء إلى أى قوة لا تنوى الإساءة . أما مدام دبومبادور ، التى كانت تختار الوزراء الفرنسيين وتهيمن عليهم ، فقد تذكرت أن فردريك كان قد اتهمها بإيداع المبالغ الطائلة فى المصارف البريطانية ، وسماها « الآنسة سمكة la demoiselle Poisson و Cotillon IV (الجونلة الرابعة — أى رابعة خليلات لويس الخامس عشر) . وأما لويس فقد تذكر أن فردريك سخر من أخلاق ملك فرنسا السوقية . ووقع هذا الخذلان لفرنسا على رأسها فى وقت كانت فيه جيوشها مرهقة ، وخزائنها خاوية ، وبحريتها بادئة فقط بالإفاقة من الإهمال الذى لقيته فى وزارة الكردينال فلورى المسالمة . فنى ١٧٥٦ كان لفرنسا خمس وأربعون بارجة ، وانجلترة مائة وثلاثون بارجة[٤] ، وكان تموين البحرية تعوقه الرشوة والسرقة ، ونظامها تفسده ترقية غير الأكفاء من ذوى الألقاب ترقية مثيرة للسخط كما يفسده

تعدد الهزائم . فالى من تتجه فرنسا الآن حليفا لها » ؟ إلى روسيا ؟ ولكن إنجلترة سبقتها إليها . إلى النمسا ؟ — ولكن فى الحرب الأخيرة خرقت فرنسا تعهداتها بضمان ميراث ماريا تريزا ، وإنضمت إلى بروسيا فى مهاجمتها ، وواصلت الهجوم عليها حتى بعد أن عقد فردريك الصلح معها . لقد كانت النمسا تحت حكم الهابسبروج ، وفرنسا تحت حكم البوربون ، عدوين قرونا عدة ، فكيف يمكن أن تصبحا صديقين هما وشعباهما بعد طول ما ألفا من كراهية متبادلة ؟

ومع ذلك كان هذا بالضبط « قلب الاحلاف » الذى إقترحته حكومة النمسا الآن على فرنسا . وقد ولدت هذه الخطة أول ما ولدت — على قدر ما تستطيع الآن تتبع تاريخها — فى ذهن الكونت فنتزل أنطون فون كاونتز ، أقدر من أنجبته القارة الأوربية فى القرن الثامن عشر من الدبلوماسيين وأثقبهم بصيرة وأشدهم إصرارا . وقد قدر لحرب السنين السبع أن تكون صراعاً فى السلاح بين فردريك الأكبر والمارشال داون ، وصراعا فى الذكاء بين كاونتز . بت . يقول فردريك « إن للأمير كاونتز أحكم رأس فى أوربا[٥] » .

كانت أسرة كاونتز قد طلبت إليه أن يعد نفسه للقسوسية لأنه الأبن الثانى ، أما هو فأصبح فى دخيلة نفسه تلميذا لفولتير[٦] . ولما كان أبوه سفيراً لدى الفاتيكان وحاكما لمورافيا ، فقد ورث أبنه الدبلوماسية فى دمه. وهكذا أصبح وهو فى الحادية والثلاثين مبعوث النمسا فى تورين . وكانت أول رسالة منه إلى حكومته مبنية منطقيا على ملاحظة للحقائق السياسية بلغت من الدقة مبلغا حمل الكونت فون أولفلد على أن يقول لماريا تريزا وهو يعرضها : « هاك وزيرك الأول[٧] » . وفى عامه السابع والثلاثين كان المفوض النمساوى فى مؤتمر أكس لا شابل . وهناك دافع عن مصالح ماريا تريزا بأصرار وبراعة جعلا الإمبراطورة حتى فى هزيمتها تشكر له خدماته واخلاصه . ولما فاتحها فى تاريخ مبكر (١٧٤٩) بخطة التحالف مع فرنسا ، تقبلت بذهن مفتوح فكرة معانقة العدو التقليدى لبيتها . لقد كانت

مصممة على هزيمة فردريك واستعادة سيليزيا ، ولكن كاونتز بين لهـا أن هذا محال بالتحالف مع انجلترة التى ركزت قوتها فى البحار ، إنما هو يتطلب التحالف مع فرنسا وروسيا اللتين تركزان قوتيهما فى اليابس . وبين شقى الرحى هذين — فرنسا وروسيا من ناحية ، والنمسا من ناحية — يمكن أن يسحق فردريك . وأمرت الإمبراطورة كاونتز بأن يسعى لتحقيق هذا الهدف المنشود .

وفى ١٧٥١ بعث سفيراً إلى باريس . وأدهش جماعة النبلاء ببهاء مقدمه الرسمى على المدينة ، وأبهج عامة الشعب باحساناته ، ورفه عن الصالونات بثيابه الفاخرة ، وتنوع عطوره وأسباب تجمله ، وخصل شعره المبدرة بعناية[٨] . قال عنه كارليل « رجل شديد الخيلاء ، غريب الأطوار ، وقح بعض الشىء[٩] » . ولكنه وقع فى نفس الملك ، وخليلته ، ووزرائهما ؛ موقعا طيباً بفضل اطلاعه على بواطن الأمور وحسن تقديره لشئون السياسة. وراح يعد أذهانهم بالتدريج للتحالف مع النمسا . فصور لهم إمكان اقناع روسيا ، وبولندة ، وسكسونيا ، بالإسهام فى تأديب فردريك . وتساءل ما الذى جنته فرنسا من وراء تحالفها مع بروسيا — اللهم إلا تضخيم قوة دولة برية تتحدى زعامة فرنسا على القارة ، ثم ألم يحنث فردريك المرة بعد المرة بعهده حين وجد الحنث فى صالحه ؟

وكان كاونتز يحرز تقدما طيباً حين استدعته ماريا تريزا إلى فيينا ليكون مستشاراً لهـا ، وخولت له كامل السلطة فى الشئون الداخلية والخارجية (١٧٥٣) وعارض النبلاء الشيوخ فى بلاط فيينا خطته طويلا ، فشرحها ودافع عنها فى صبر ، وأيدته الإمبراطورة ؛ وفى ٢١ أغسطس ١٧٥٥ نال اقتراح التحالف مع فرنسا الموافقة الرسمية للوزارة الإمبراطورية . وصدرت التعليمات للكونت جيورج فون شتارهمبرج ، الذى خلف كاونتز سفيرا فى باريس ، بأن يروج للخطة الكبرى فى كل فرصة تتاح له لدى لويس الخامس عشر ومدام ديومبادور . وأرسل كاونتز خطابا كلـه إطراء إلى « الخليلة الرسمية » (٣٠ أغسطس ١٧٥٥) أرفق به مذكرة رجاها أن

تسلمها للمث سراً . ففعلت . وكانت المذكرة من ماريا تيزيزا ، وهذا نصها .

« إننى بصفتى إمبراطورة وملكة ، أعد بألا يذاع شىء على الإطلاق من كل ما سيعرضه الكونت شتارهمبرج باسمى على الملك المسيحى جداً ، وبأن يحتفظ دائماً بأعمق السرية فى هذا الأمر ؛ سواء نجحت المفاوضات أو فشلت . ومن المفهوم بالطبع أن الملك سيعطى إقراراً ووعدا مماثلين .

فيينا ، ٢١ يونيو ١٧٥٥[١٠] .

وعين لويس الأبيه دبرنيس والمركيزة دبومبادور . للاجتماع سرا بشتارهمبرج فى جناحها « بابيول » . هناك إقترح السفير باسم الإمبراطورة أن تتخلى فرنسا عن تحالفها مع بروسيا ، وأن تتعهد بأن تقدم للنمسا على الأقل معونة مالية فى حالة نشوب الحرب . وقال إن فردريك حليف عديم الفائدة ، لا يركن إليه . ولمح بأن فردريك ، حتى فى تلك اللحظة ، مشغول باتصالات سرية مع الوزراة البريطانية . وتعد النمسا من جانبها بأن تمتنع عن أى عمل عدائى ضد فرنسا إذا دخلت فرنسا فى حرب مع انجلترة ، وفى حالة نشوب هـــذه الحرب تسمح النمسا لفرنسا باحتلال أوستند ونيوبورت ، وقد تسمح نهائيا بأن تكون الأراضى المنخفضة النمساوية من نصيب فرنسا .

ولاحظ لويس أن هذا الميثاق سيورطه فى حرب نمساوية ضد بروسيا ، ولكنه لايلزم النمسا بأن تعين فرنسا على انجلترة . وكان له عذر فى أن يخشى جيش فردريك أكثر من الجيش النمساوى — الذى طالما هزم ، والذى كانت قيادته فى الحرب الأخيرة غاية فى السوء . فأمر لويس أن يرد بأن فرنسا لن تغير تحالفها مع بروسيا مالم تقدم لهـــا البراهين على اتصالات فردريك بانجلترة . ولم يستطع كاونتز حتى ذلك التاريخ أن يقدم هذه البراهين ، فتوقف سير خطته مؤقتا . ولكن حين تلقى لويس اعتراف فردريك بمعاهدة وستمنستر الانجليزية البروسية ، رأى أن تحالفه مع بروسيا مات فى الحقيقة والواقع . وربما خطر له ، وهو غارق فى آثامه ، أنه قد

يسترضى الله بتوحيد الدول الكاثوليكية — فرنسا ، والنمسا ، وبولندة ، واسبانيا — فى مخطط يهيمن به على مصائر أوربا[١١] . وعليه فنى أول مايو ١٧٥٦ أتمت معاهدة فرساى قلب الاحلاف رأسا على عقب . وأعلنت ديباجة المعاهدة أن هدفها الوحيد هو المحافظة على سلام أوربا وتوازن القوى . فإذا تعرض أحد الطرفين المتعاقدين لتهديد فى ممتلكاته الأوربية من أى دولة غير انجلترا ، خف الطرف الأخر لنجدته بالوساطة الدبلوماسية ، وبالمعونات المالية أو الجيوش إذا اقتضى الأمر . ولا تعد النمسا بمساعدة فرنسا ضد انجلترا ، ولا تعين فرنسا النمسا على بروسيا مالم تكن بروسيا هى المعتدية على نحو واضح . وإذلم ير لويس أى احتمال لأن تعرض بروسيا مكاسبها للخطر بعودتها إلى مهاجمة النمسا ، فقد استطاع هـو وخليلته أن يوهما نفسيهما بأن الحلف الجديد يعين على السلام فى القارة .

لم يحقق كاونتز إلى الآن كل هدفه فى الحصول على المعونة الفرنسية ضد بروسيا . ولكنه تزرع بالصبر ، فلعله يستطيع إثارة فردريك ليهاجم النمسا ولم يجد أثناء ذلك صعوبة تذكر فى إقناع القيصرة بالأنضمام إلى الحلف الجديد ، فقد كانت اليزافينا تتوق إلى إزالة العقبة البروسية من طريق توسع روسيا غربا . وعرضت أن تهاجم بروسيا قبل نهاية عام ١٧٥٦ إن وعدت النمسا بأن تهاجمها هى أيضاً ، ووعدت بأنها فى هذه الحالة لن تعقد صلحا مع بروسيا إلا إذا ردت سيليزيا كاملة إلى النمسا . وأبهجها أن تعلم بأن فرنسا أبرمت معاهدة فرساى . واضطر كاونتز إلى كبح حماستها ، فهـو يعلم أن جيوشها لن تكون مهيأة لخوض حملة كبرى قبل ١٧٥٧ . فتريث حتى ٣١ ديسمبر ١٧٥٦ ، ثم وقع الاتفاقية التى أنضمت روسيا بمقتضاها إلى الحلف الفرنسى النمساوى .

وخلال ذلك كانت انجلترة ، الواثقة من أن تحالفها مع فردريك سيشل حركة النمسا ، قد بدأت فعلا عملياتها البحرية ضد فرنسا دون أى إعلان للحرب . وراحت السفن الحربية الانجليزية من يونيو ١٧٥٥ تستولى على السفن الفرنسية كلما إستطاعت . وردت فرنسا بالأستعداد لغزو انجلترة ،

وبتجريد أسطول من خمس عشرة سفينة تحت إمرة الدوق دريشليو ليهاجم جزيرة مينورقة التى كان البريطانيون قد أستولوا عليها فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٩) . وتعزيزا للحامية البريطانية الصغيرة فى الجزيرة أرسلت بريطانيا عشر سفن يقودها الأميرال جون بينج ، وأنضمت إليها ثلاث سفن إضافية فى جبـــل طارق . وفى ٢٠ مايو ١٧٥٦ أشتبك الأسطولان العدوان قرب مينورقة . فهزم الفرنسيون ، ولكن الأسطول الانجليزى أصيب بأضرار حملت بينج على العودة به إلى جبل طارق دون محاولة لانزال تعزيزات على بر مينورقة . وسلمت الحامية العاجزة ، وأصبح لفرنسا الآن موقع استراتيجى فى البحر المتوسط . وأشاد القوم بريشليو بطلا فى باريس وفرساى ، وإعدم بينج على سطح سفينته فى ميناء بورتسموث (١٤ مارس ١٧٥٧) بتهمة عدم بذله قصارى جهده للأنتصار . وعبثا تشفع له فولتير وريشليو ، وقال فولتير إن هـــذا هو الأسلوب الذى تتبعه انجلترة فى « تشجيع الآخرين » الذين يتولون القيادات البريطانية . وفى ١٧ مايو ١٧٥٦ أعلنت انجلترة الحرب على فرنسا ، ولكن البداية الرسمية لحرب السنين السبع تركت لفردريك .

وكان عليما بأن فتحه لسيليزيا عرضه لمحاولة أسترددادها فى أى وقت تجد فيه ماريا تريزا موارد وحلفاء جددا . وكانت موارده هـــو محدودة بشكل خطر ، ومملكته اخلاطا من الأوصال المقطعة ؛ فبروسيا الشرقية تفصلها بولندة عن بروسيا ، والإقاليم البروسية فى وستفاليا وفرزيا الشرقية تفصلها الدويلات الإلمانية المستقلة عن براندنبورج . وكان سكان بروسيا بما فيها هذه الاجزاء المتناثرة وسيليزيا يبلغون نحو أربعة ملايين نسمة عام ١٧٥٦ ، وسكان انجلترة ثمانية ملايين ، وسكان فرنسا عشرين مليونا . وكان شطر كبير من سكان بروسيا فى سيليزيا ، التى ظل نصفها كاثوليكيا متعاطفا مـــع النمسا . وعلى سبعة أميال فقط من برلين كانت حدود سكسونيا المعادية ، التى كان أميرها : الناخب ، أوغسطس الثالث ملك

بولندة الكاثوليكى ، ينظر إلى فردريك نظره إلى زنديق وقح جشع ؟ فكيف السبيل إلى البقاء وسط هذا المرجل الذى يغلى بالعداء له ؟

ليس إلا بالعقل الراجح ، والاقتصاد ، والجيش القوى ، والقواد الأكفاء ، أما عقله فقريع فى حدة ذكائه لأى عقل آخر ؛ وهو أفضل حكام عصره تعليما ، وقد أثبت جدارته فى رسائله وأحاديثه ، وجدله مع فولتير . ولكن لسانه كان أحد من أن يسمح العقل باطلاقه على الناس ، ولعل أموره كانت تجرى بأيسر مما جرت لو أنه لم يصف البزافيتا بتروفنا ، وماريا تريزا ، ومدام دبومباهور ، بأنهن « ثلاثة من كبار عاهرات أوربا[١٢] » ؛ ومن بواعث العزاء لنا أن نرى أنه حتى عظماء الرجال قد يسلكون مسلك الحمق بين الحين والحين . أما عن اقتصاد بروسيا ، فأن فردريك أخضعه لسيطرة الدولة ولما رآه ضرورات لا غنى عنها لحرب ممكنة . فى هذه الظروف لم يجرؤ على تغيير الهيكل الإقطاعى للحياة البروسية مخافة أن يختل التنظيم الإقطاعى لجيشه . فلقد كان الجيش خلاصه ودينه . أنفق على صيانته تسعين فى المائة من موارده[١٣] وسماه « أطلس » الذى حملت كتفاه القويتان الدولة[١٤] . وزاده من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل خلفهم له أبوه حتى بلغ به ١٥٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ . ودربه بالعقوبات الصارمة على الطاعة الفورية الصارمة ؛ وعلى السير فى ثبات صوب الخط المواجه له دون أن يطلق طلقة حتى يصدر إليه الأمر ، وعلى تغيير إتجاهه ، والمناورة بكتلته كلها ، وهو تحت نيران العدو . وكان على رأس الجيش فى بداية الحرب خيرة القواد فى أوربا بعد فردريك نفسه — شفيرين ، وسيدلتز ، وجيمس كيث .

ولم يكن أقل من قواده أهمية أولئك الجواسيس الذين بثهم بين أعدائه ولم يترك له جواسيسه شكا فى أن ماريا تريزا تؤلف حوله نطاقا من القوى المعادية . وفى ١٧٥٣ — ١٧٥٥ حصل جواسيسه فى درسدن ووارسو على نسخ من رسائل سرية تبادلتها الوزارتان السكسونية والنمساوية ، أقنعته بأن هذين البلاطين يأتمران للهجوم على بروسيا وتقطيع أوصالها أن حالفهما الحظ ،

وأن فرنسا تتستر على المؤامرة[١٥]. وفى ٢٣ يونيو ١٧٥٦ أصدر أمره للقائد البروسى فى كونجزبرج بأن يستعد لمقابلة هجوم عليه من روسيا . وأبلغ الحكومة البريطانية بأن « لدى بلاط فيينا ثلاث خطط تشير إليها خطاه الحالية : أن يوطد حكمه الاستبدادى فى الإمبراطورية ، وأن يقضى على البروتستنتية ، وأن يعيد فتح سيليزيا[١٦] » . وعلم أن سكسونيا تدبر زيادة جيشها من سبعة عشر ألف مقاتل إلى أربعين ألفا خلال الشتاء[١٧] . وخمن أن الحلفاء يترقبون ربيع ١٧٥٧ ليزحفوا عليه من ثلاث جهات ، فصمم على أن يضرب ضربته قبل أن تكتمل تعبئة قواتهم .

وقد شعر أن فرصته الوحيدة للنجاة من الخطر الذى يتهدده هى شل حركة عدو واحد على الأقل من إعدائه قبل أن يستطيعوا توحيد صفوفهم فى مقاتلته . ووافقه شقرين ، ولكن أحد وزرائه المسمى الكونت فون بوديفيلس رجاه إلا يعطى اعداءه ذريعة لأتهامه بأنه المعتدى . ولقبه فردريك « السيد صاحب السياسة الجبانة[١٨] » وكان قبل ذلك بزمن طويل ، فى « ميثاق سياسى » سرى (١٧٥٢) قد نصح خليفته بأن يفتح سكسونيا فيتيح بفتحها لبروسيا الوحدة الجغرافية ، والموارد الاقتصادية ، والقوة السياسية التى لاغنى عنها لمن يريد البقاء[١٩]. ولكنه نحى الفكرة جانبا باعتبارها فكرة لا يقوى على تحقيقها . أما الآن فقد رآها ضرورة حربية فلا بد له من حماية حدوده الغربية بتجريد سكسونيا من السلاح .

وكان حتى فى كتابه القريب من المثالية . « المعارض لمكيافللى » (١٧٤٠) قد وافق على الحرب الهجومية إذا أريد بها الحيلولة دون هجوم داهم من العدو[٢٠] . وأخبره متشل ، الوزير البروسى فى إنجلتره ، أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية القوية فى الحفاظ على السلام فى القارة ، فهى تدرك الضرورة القاهرة التى يواجها فردريك ولن تعتبره « ملوما » على الإطلاق إذا هو حاول أن يسبق أعداءه بالهجوم بدلا من الإنتظار حتى ينفذوا فيه نياتهم العدائية[٢١] .

وفى يوليو ١٧٥٦ أوفد مبعوثاً إلى ماريا تريزا يطلب تأكيدا بأن النمسا

لا تنوى القيام بأى هجوم على بروسيا لا فى تلك السنة ولا فى السنة التالية. ورأى عضو فى الوزارة النمساوية أن الواجب إعطاء هذا التأكيد ؛ ولكن كاونتز رفض إرساله ؛ فكل ما تود ماريا تريزا أن تقول هـو أنه « فى الأزمة الراهنة أراه ضروريا أن أتخذ تدابير لتأمين نفسى وحلفائى ، وليس من شأن هذه التدابير الإضرار بأحد[٢٢] » . وأرسل فردريك رسالة ثانية للامبراطورة يسألها جواباً صريحاً على طلب التأكيد ؛ فأجابت بأنها « لم تبرم حلفا هجوميا ، ومع أن موقف أوربا الدقيق يضطرها إلى التسلح ، فإنها لا تنوى خرق معاهدة درسدن (التى تعهدت فيها بمسالمة فردريك) ، ولكنها لن تربط نفسها بأى وعـد يمنعها من التصرف وفقا لمقتضيات الظروف[٢٣] » . وكان فردريك يتوقع هـذا الجواب ، وقبل أن يصله قاد جيشه إلى سكسونيا (٢٩ أغسطس ١٧٥٦) . وهكذا بدأت حرب السنين السبع .

٢ — طـريد القـانون

١٧٥٦ — ١٧٥٧

وبذل فردريك محاولة فاترة ليجند ناخب سكسونيا حليفا له ، فعرض عليه بوهيميا رشوة . . وكانت ملكا لماريا تريزا . ولكن أغسطس احتقر هذا التصدق بمال الغير ، وأمر قواده بوقف زحف فردريك ، ثم فر إلى وارسو . وكانت القوة السكسونية أصغر من أن تقاوم أعظم جيش فى أوربا ، فانسحبت إلى القلعة فى بيرنا ، ودخل فردريك درسدن دون مقاومة (٩ سبتمبر ١٧٥٦) وأمر عملاءه للفور بأن يفتحوا المحفوظات السكسونية ويأتوه بأصول تلك الوثائق التى كشفت من قبل عن اشتراك سكسونيا فى الخطة المرسومة لتأديب بروسيا وربما لتقطيع أوصالها . ووقفت الملكة الناخبة العجوز بشخصها لتحول دون الوصول إلى المحفوظات ، وطالبت فردريك بأن يحترم حقها فى عدم العدوان عليها . أما هو فأمر بإزالتها من الطريق ، ففرت ، ووضع يده على الوثائق ؛

وأرسلت ماريا تريزا جيشا من بوهيميا لازاحة الغازى من مكانه ، فالتقى به فردريك وهزمه فى لوبوزيتس ، على الطريق من براغ إلى درسدن (أول أكتوبر) وعاد ليحاصر بيرنا ، فسلمت له (١٥ أكتوبر) ، وحشد الأربعة عشر ألف جندى من أسرى السكسونيين فى فرقه ، وحجته أن هذا أرخص له من اطعامهم وهم أسرى حرب ، فلقد كان شره الألمان للطعام أمرا مشهورا ولا فخر . وأعلن أنه فتح سكسونيا ، واستخدم مواردها لتلبية حاجاته . ونشر على الملأ خلال الشتاء الوثائق السكسونية . فزعمت ماريا تريزا أنها مزيفة ، واستنجدت بفرنسا وروسيا وكل المسيحيين الذين يخافون الله واستعدتهم على ذلك الرجل الذى زج بعدوانه الصارخ أوربا فى خضم الحرب من جديد .

واتفقت أوربا عموما على ادانة فردريك.وأعلنت الأمارات الألمانية الحرب على بروسيا (١٧ يناير ١٧٥٧) مخافة أن يحيق بها ما حاق بسكسونيا إذا انتصر فردريك ، وجمعت جيشا امبراطوريا لقتال ملك بروسيا . ولم يضيع كاونتز وقتا فى تذكير لويس الخامس عشر أن فرنسا قد وعدت النمسا بالمعونة إذا تعرضت للخطر . وألحت الدوقينة ، ابنة ناخب سكسونيا ، على حميها فى أن ينقذ أباها . أما مدام دبومبادور ، التى عللت نفسها من قبل بأمل الاستمتاع بملكها فى سلام ، فقد مالت الآن إلى الحرب . وتقديرا لمعوناتها أهدتها ماريا تريزا صورة ملكية رصعت بالجواهر وقدرت بمبلغ ٧٧,٢٧٨ جنيها ، [١٤] وانقلبت دبومبادور امرأة حربية . أما لويس الذى كان عادة بطىء الحسم ، فقد اتخذ قراره بعزيمة لاتنثنى. والتزمت فرنسا الآن بمقتضى معاهدة فرساى الثانية (أول مايو ١٧٥٧) بتحالف دفاعى هجومى مع النمسا ، وتعهدت لها بمعونة سنوية قدرها اثنى عشر مليون فلورين ، ووافقت على تجهيز جيشين ألمانيين ، وعرضت تخصيص قوة فرنسية قوامها ١٠٥,٠٠٠ مقاتل لتدمير بروسيا تدميرا تاما . » ووعدت بألا تعقد صلحا على الاطلاق مع بروسيا حتى ترد سيليزيا إلى النمسا . فإذا ردت حصلت فرنسا على خمس مدن حدود فى الأراضى الواطئة

النمساوية ، ونقلت ملكية هذه الأراضى الواطئة الجنوبية إلى ولية عهد أسبانيا البوربونية لقاء دوقيات أسبانية فى إيطاليا . ولعل فرنسا كانت تتخلى على وعى منها عن مستعمراتها للفتح البريطانى بتكريس مواردها كلها تقريبا لالتهام « بلجيكا » . واستطاع كاونتز أن يحس بأنه أحرز نصرا دبلوماسيا عزيزا .

ولم يجد الآن مشقة فى أن يستميل روسيا إلى مد يد العون النشيط إلى النمسا . وتعهدت روسيا والنمسا بمقتضى اتفاقية سانت بطرسبورج (٢ فبراير ١٧٥٧) بأن تضع كل منها ثمانين ألف جندى فى الميدان ، وأن تخوض الحرب إلى أن توحد سليزيا مع النمسا من جديد وتختزل بروسيا إلى دولة صغيرة . ثم اتجه كاونتز إلى السويد فأدخلها الحلف بأن كفل لها فى حالة الانتصار كل الشطر البومرانى الذى سلم لها فى معاهدة وستفاليا . وفرض على السويد أن تقدم ٢٥,٠٠٠ مقاتل ، وعلى النمسا وفرنسا أن تمولا هذا الجيش . وتعهدت بولندة التى كان يحكمها الملك اللاجئ أوغسطس الثالث بتقديم مواردها المتواضعة إلى الحلف الفرنسى النمساوى ، وهكذا تكتلت ضد فردريك كل أوربا باستثناء إنجلترا ، وهانوفر ، والدنمرك ، وهولندة ، وسويسرة ، وتركيا ، وهسى — كاسل .

ووجدت إنجلترة من الأسباب ما يغريها بترك فردريك لمصيره . ذلك أن جورج الثانى رأى فى فزع أن موطنه المحبوب هانوفر الإمارة الناخبة التى قدم منها أبوه ليحكم بريطانيا ، وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها فى طريق جيش عرمرم ، بينما كان فردريك أعجز من أن يقدم لها عونا ذا بال وبينه وبينها هذه الشقة والأعداء يشددون عليه النكير . وأصبح هذا الاغراء أمرا لا يكاد يقاوم حين عرض كاونتز عدم المساس بهانوفر إذا ظلت انجلترة بمعزل عن الحرب القاربة ؛ فى تلك اللحظة كان مصير فردريك فى خطر . وكان بت ، الذى عين وزيرا للخارجية فى ١٩ نوفمبر ١٧٥٦ ميالا أول الأمر لترك بروسيا وهانوفر تذودان عن نفسيهما دون عون من الخارج ، بينما تركز انجلترة كل مواردها الحربية على

الصراع على المستعمرات ، لا عجب إذن أن يبغض جورج الثانى المتعلق بهانوفر وزيره بت ولكن بت لم يلبث أن غـير رأيه . وصرح أن فرنسا المنتصرة على فردريك ستغدو سيدة على أوربا ، وعلى انجلترة أيضاً بعد قليل ، فعلى البرلمان إذن أن يوافق على إرسال المال لفردريك والجنود لهانوفر ، ولابد من أكراه فرنسا على استنزاف قوتها فى أوربا ، بينما تنتزع إنجلترة المستعمرات والاسواق من البحار التى تفتحها .

وعليه فنى يناير ١٧٥٧ ، أبرمت بريطانيا حلفاً ثانياً مـع بروسيا ، تعهدت فيه بالعون المالى لفردريك ، وبالجنود لهانوفر . ولكن حدث أن أقيل بت فجأة (٥ أبريل) وأربكت أهـواء السياسة حكمتها ، وتعطل إرسال العون لفردريك ، وظل عاماً تقريباً يقف وحيدا ، ومعه ١٤٥,٠٠٠ مقاتل، أمام جيوش تحدق به من كل صوب ، فنى الغرب ١٠٥,٠٠٠ مقاتل من فرنسا ، ٢٠,٠٠٠ من الدويلات الألمانية ، وفى الجنوب ١٣٣,٠٠٠ من النمسا ، وفى الشرق ٦٠,٠٠٠ من روسيا ، وفى الشمال ١٦,٠٠٠ من السويد . فى ذلك اليوم الذى شهد سـقوط بت ، وسم الإمبراطور فرانسيس الأول — زوج ماريا تريزا ، اللطيف الوديع عادة — فردريك رسميا بأنه خارج على القانون ، ودعا كل الرجال الصالحين إلى تعقبه وتصيده لأنه عدو للنوع الإنسانى عاص فاجر .

من براغ إلى روسباخ (١٧٥٧)

فى ١٠ يناير أرسل فردريك إلى وزرائه فى برلين تعليمات سرية : « يجب أن تجرى الأمور مجراها دون أدنى تغيير إن قتلت ، وإن تعثر حظى فأسرت ، فإنى أمنع أقل اعتبار لشخصى ، أو أدنى التفات لأى شىء قد أكتبه وأنا فى الأسر . »[٢٥]

وكانت لفتة عديمة الجدوى ، لأن بروسيا كانت ضائعة لا محالة بدون عبقريته الحربية . وكان أمله الوحيد فى ملاقاة أعدائه كل على حدة قبل أن يستطيعوا التجمع عليه . ولم يكن الفرنسيون مستعدين للمعركة ، وربما

استطاعت الفرق التى ترسلها انجلترا لهانوفر اعاقتهم برهة . أما النمساويون فيحشدون فى بوهيميا ومورافيا القريبتين مخازن هائلة من الأسلحة والمؤن لتجهيز جيوشهما لغزو سليزيا . وقرر فردريك أن يبدأ بالاستيلاء على هذه المخازن الثمينة ، ومقاتلة النمساويين ، ثم العودة لملاقاة الفرنسيين . فقاد قوته من سكسونيا ، وأمر دوق برنزويك — بيفرن من المانيا الشرقية ، والمرشال شيفرين من سيليزيا ، بالزحف فى بوهيميا وملاقاته فى التلال المشرفة على براغ من الغرب . وقد تم هذا ، واستولى فردريك على المخازن ، وفى ٦ مايو على مقربة من براغ ، التقى ٦٤٫٠٠٠ بروسى بجيش نمساوى عدته ٦١٫٠٠٠ مقاتل تحت إمرة شارل أمير اللورين ، فى فاتحة المعارك الكبرى فى هذه الحرب .

ولم يكن الفاصل فى المعركة هو الكثرة ، ولا الاستراتيجية ، بل الشجاعة . ذلك أن فرق شيفرين زحفت تحت نيران النمساويين مخترقة المستنقعات والماء يغطى خصور الجند ثم اكتافهم . وأدركهم اليأس حيناً وهموا بالفرار ، فجمع شملهم شيفرين البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاما ولف العلم حول بدنه ، وركب رأسا فى مواجهة العدو ، فضرب بخمس رصاصات فى وقت واحد ، وخر صريعاً ، أما رجاله الذين كاد حبهم له يفوق خوفهم من الموت ، فقد حملوا على العدو فى غضبة مضرية ، وحولوا الهزيمة نصرا . وكان التقتيل فى الجانبين رهيباً ، وشملت خسائر فردريك أربعمائة ضابط وخير قائد عنده ، فى هذه الحرب لم يكن القواد يموتون حتف أنوفهم . وتقهقر من بقى من النمساويون وعددهم ٤٦٫٠٠٠ إلى القلعة فى براغ ، وتهيأوا لمقاومة الحصار .

ولكن فردريك وجد الحصار عسيرا ، لأن المرشال ليوبولد فون داون ، أكفأ القواد النمساويين ، كان قادماً من مورافيا على رأس ٦٤٫٠٠٠ مقاتل آخرين . فسار فردريك شرقا يقود ٣٢٫٠٠٠ مقاتل بعد أن ترك جزءا من جيشه ليحاصر القلعة ، والتقى بالجحافل الزاحفة

عند كولن (١٦ يونيو) ، وكانت ميزة العدو عليه كبيرة جدا وبراعة داون الحربية فى هذه الحالة تفوق براعته . وعصى اثنان من قواد فردريك أوامره فأحدثوا خللا فى الجيش ، وفقد فردريك أعصابه وصاح بفرسانه المتقهقرين « هل أنتم مخلدون ؟ » [٢٦] . أما المشاه فرفضوا الزحف وقد هالهم التقتيل . وانسحب فردريك من ساحة القتال جزعا ، بعد أن ترك عليها ١٤٫٠٠٠ بروسى ما بين قتيل وجريح وأسير . وعاد بالأحياء وعددهم ١٨٫٠٠٠ إلى براغ ؛ وأقلع عن الحصار ورجع بما بقى له من جيشه صوب سكسونيا .

وفى لايتميريتس أراح جيشه ثلاثة أسابيع . وفى ٢ يوليو تلقى هناك نبأ موت أمه صوفيا دوروتيا . وانهار رجل الحرب الفولاذى ، وبكى ، واعتزل الناس يوما ، ولعله ساءل نفسه الآن ألم يكن هجومه على سيليزيا قبل سبعة عشر عاما إغراء أحمق زينته له ربة الانتقام . وشاطرته الحزن شقيقته فلهلمينى ، أميرة بايرويت ، التى أحبها أكثر من أى مخلوق آخر ، ففى ٧ يوليو أرسل إليها نداء يائساً بعد أن أوشكت كبرياؤه على النضوب :

ما دمت يا شقيقتى العزيزة تصرين على الاضطلاع بمهمة السلام العظمى فأرجوك أن تتفضلى بالكتابة الى المسيو دميرابو . . . ليعرض على السيدة المقربة (مدام دبومبادور سابقا كوتيون الرابعة) مبلغا يصل إلى ٥٠٠٫٠٠٠ كراون ثمنا للصلح . . . إنى أترك الأمر كله لك . . . أنت التى أعبدها ، والتى هى ذاتى الثانية ، وأن كنت أكثر منى كياسة بما لا يقاس [٢٧] .

ولكن المحاولة لم تأت بنتيجة . فجربت فلهلمينى طريقة أخرى : كتبت إلى فولتير الذى كان يقيم فى سويسرا ورجته أن يستعمل نفوذه . ونقل فولتير اقتراحها الى الكردينال دتانسان ، الذى كان قد عارض فى الحلف

الفرنسي — النمساوى ، وحاول تانسان ولكنه أخفق[٢٨] ، فقد كان الحلفاء يشمون ريح النصر وراحت ماريا تريزا تتحدث عن تمزق أوصال ملك فردريك إربا ، فلا يكفى أن ترد لها سيليزيا وجلاتز ، بل يجب أن تعطى مجدبورج وهالبرشتات إلى أوغسطس الثالث وتعود بومرانيا إلى السويد ويكافأ ناخب البالاتين بكليفز ورافنسبورج .

وقد بدت آمالها معقولة . ذلك أن « جيش الدوفينة » الفرنسي كان قد دخل ألمانيا ، وكان شطر منه بقيادة أمير سوبيز ، القائد الأثير لدى بومبادور ، فى الطريق للانضمام إلى الجيش الأمبراطورى عند إوفورت ، وزحف شطر آخر بقيادة المرشال دستربه ليلتقى بقوة هانوفرية يقودها الدوق كمبرلاند ، وهو ابن جورج الثانى . وعلى مقربة من قرية هاشتنبيك هزم الفرنسيون هذه القوة هزيمة منكرة (٢٦ يوليو) أكرهت الدوق على أن يبرم فى كلوستر — تسيفين (٨ سبتمبر) « اتفاقاً » تعهد بمقتضاه أن يمنع جنوده الهانوفريين من أى اشتباك مع فرنسا .

وربما بلغ فردريك نبأ هذا التسليم المذل تقريباً فى نفس الوقت الذى بلغته فيه الأنباء بأن جيشاً سويدياً نزل أرض بومرانيا ، وجيشاً روسيا عدته ١٠٠،٠٠٠ مقاتل بقيادة المرشال ستيبان أبراكسين غزا بروسيا الشرقية وسحق قوة من ٣٠،٠٠٠ بروسى عند جروس — ييجرزدورف (٣٠ يوليو) وكادت هذه الهزائم بالإضافة إلى الكارثة التى أصابته فى بوهيميا تقضى على أمل فردريك فى قهر أعداء بهذه الكثرة وهذا التعزيز باحتياطيات من العتاد والرجال . أما وقد كفر بفضائل المسيحية كما كفر بلا هوتها ، فإنه لجأ إلى أخلاقيات الرواقيين وفكر فى الانتحار . وظل إلى نهاية الحرب يحمل معه قنينة سم اذ عقد النية على ألا يضع أعداؤه أيديهم عليه إلا جثة هامدة . وفى ٢٤ أغسطس أرسل الى فهلمينى خطابا يسبح فيه بحمد الموت فيما يشبه الهستيريا :

« والآن يا مروجي الأكاذيب المقدسة ، امضوا فى سحب الجبناء من أنوفهم . . . أما أنا فقد انتهى فى نظرى سحر الحياة واختفت تعويذتها . ولست أرى فى الخلق جميعاً غير ألعوبة فى يد القدر ، فإن كان هناك حقاً كائن عابس لا يرحم ، يسمح لقطيع محتقر من المخلوقات بأن يتكاثر هنا ، فهو لا يرى لهم وزناً ، وهو ينظر من عليائه إلى مخلوق مثل فالاريس متوجاً ، أو مثل سقراط مكبلا بالأغلال ، إلى فضائلنا ورذائلنا ، إلى أهوال الحرب والأوبئة الرهيبة التى تدمر الأرض ، وكأنها أشياء لا تهمه. لذلك كان ملجأى الوحيد وملاذى الذى لا ملاذ غيره يا شقيقتى العزيزة ، إنما هو فى حضن الموت » . (٢٩)

وردت على خطابه (١٥ سبتمبر) بأن أقسمت أن تنتحر مثله :

يا شقيقى العزيز ، لقد كاد يقتلنى خطابك ، والخطاب الذى بعثت به إلى فولتير . يا إلهى القدير ، أى قرارات رهيبة ! أواه يا أخى العزيز ، تقول إنك تحبنى ، ومع ذلك فأنت تغمد خنجراً فى قلبى . إن خطابك جعلنى أذرف أنهاراً من الدموع . وأنا الآن خجلة من هذا الضعف . . . ومصيرك سيكون مصيرى . فلن أعيش بعد عثرات حظك وحظ البيت الذى أنتمى إليه . ولك أن تعتبر هذا قرارى الذى لن أحيد عنه .

« ولكن بعد هذا العهد دعنى أتوسل إليك أن تعود بفكرك إلى ما كان عليه العدو من حال سيئة وأنت مرابط أمام براغ . إنها دورة الحظ الفجائية تصيب الفريقين . لقد كان قيصر مرة عبداً للقراصنة ، ثم أصبح سيداً على العالم . وإن عبقرية هائلة كعبقريتك لتجد لها المنافذ حتى حين يبدو أن كل شىء ضاع . إننى أقاسى أكثر ألف مرة مما أستطيع ذكره لك ، ومع ذلك لا يفارقنى الأمل . . . على أن أختم الآن ، ولكنى سأظل دائماً ، مع أعمق الاحترام ، أختك فلهلمينى » . (٣٠)

ولجأت إلى فولتير ليعزز رجاءها ، فأمن على حججها فى مطلع أكتوبر فى أول خطاب كتبه لفردريك منذ ١٧٥٣ . وقال :

« ان المقاتلين من أمثال كاتو وأوتو ، الذين ترى جلالتكم أن موتهم كان شرفاً لهم ، ما كان فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً آخر غير القتـــال أو الموت . » . يجب أن تذكركم من بلاط يرى فى غزوك لسكسونيا انتهاكا للقانون الدولى . . . وأن أخلاقنا ومركزك فى غير حاجه اطلاقا لهذه الفعلة (الانتحار) وحياتك ضرورية وأنت تعلم كم هى غالية فى نظر أسرة كثيرة العدد . . . وأحوال أوربا لاتستقر طويلا على أساس واحد ، والواجب على رجل مثلك أن يتماسك استعدادا للأحداث . . . ولو أن بسالتك أفضت بك إلى ذلك التطرف البطولى لما استحسنها الناس فانصارك سيدينونها ، وخصومك سينتصرون (٣١) » .

وأجاب فردريك نثرا وشعراً وقال :

« أما أنا المهدد بالغرق ، فعلى وأنا أتصدى للعاصفة أن أفكر ، وأحيا وأموت ملكا (٣٢) » .

وبين قصائد الشعر (التى نظمها دائما بالفرنسية) راح يبحث عن الجيش الفرنسى ، وتاقت نفسه الآن إلى معركة تحسم له مشكلة الحياة أو الموت. وحين كان فى ايبزج ، فى ١٥ اكتوبر أرسل فى طلب يوهان كرستوف جوتشيد (الذى كان يقرض الشعر بالألمانية) وحاول اقناعه بأن الشعر الألمانى ضرب من المحال . ففيه فرقعات كثيرة جداً — وحتى فى اسم الأستاذ هناك خمسة فى صف واحد ، فكيف تحدث اتساقا فى الأصوات من لغة كهذه ؟ واحتج جوتشيد . وكان على فردريك أن يعد لزحف جديد ؛ ولكن بعد عشرة أيام ، حين عاد إلى ليبزج ، استقبل الشاعر الشيخ ثانية ، ووجد متسعاً من وقته ليستمع إلى قصيدة غنائية بالألمانية من نظم جوتشيد ، وأهداه علبة نشوق ذهبية عربون الرضى وهو يودعه .

وخلال ذلك الفاصل الأدبى جاءته أنباء أسوأ : مفرزة من الكروات يقودها الكونت هاديك تزحف على برلين ، والشائعات ترجف بأن الكتائب السويدية والفرنسية تزحف لتطبق على العاصمة البروسيه . وكان

فردريك قد ترك فيها حامية ولكنها أصغر كثيرا من أن تصد هذا السيل العارم : ولو سقطت برلين لوقع فى يد العدو أهم مصدر لامداداته من السلاح ، والبارود ، والملابس ، وهرع بجيشه لينقذ المدينة وأسرته . وخلال زحفه أنبىء بأن ليس هناك قوات فرنسية ولا سويدية تزحف على برلين ، وأن هاديك توقف فى ضواحى العاصمة واقتضى فدية قدرها ٢٧٫٠٠٠ جنيه من برلين ، ثم رحل بجنده الكروات راضيا (١٦ اكتوبر) . وجاءه نبأ آخر سرى عنه ، هو أن الروس بقيادة أبراكسين انسحبوا من بروسيا الشرقيه إلى بولندا بعد أن نال منهم المرض والجوع .

وأتته رسائل لم تشرح صدره ، تقول إن الجيش الفرنسى بقيادة سوبيز دخل سكسونيا ، ونهب المدن الغربية ، وانضم إلى الجيش الأمبراطورى الذى يقوده دوق ساكس — هيلدبورجهاوزن . وعاد الملك المرهق ادراجه ، وقاد جنسده إلى قرب روسباخ ، على نحو ثلاثين ميــلا غربى ليبزج .

هناك التقى جيشه المتعب الذى تقلص إلى ٢١٫٠٠٠ مقاتل فى خاتمة المطاف وجها لوجه بجيوش فرنسا والرايش وعدتها ٤١٫٠٠٠ مقاتل . ورغم هذا أشار سوبيز بعدم المجازفة بخوض المعركة ، وقال أنه خير منها المضى فى تجنب الإلتحام بفردريك وارهاقه بمسيرات عقيمة حتى يكرهه تفوق الحلفاء عددا وعدة على التسليم . وكان سوبيز عليما بانهيار النظام فى صفوف جيشه ، وافتقار جنود الرايش ومعظمهم من البروتستنت إلى الحماسة فى مقاتلة فردريك (٣٣) . غير أن هيلبورجهاوزن الح فى طلب القتال ، فأذعن سوبيز . وقاد القائد الألمانى جيشه على منعطف طويل ليهاجم البروسيين على ميسرتهم . فما كان من فردريك وهو يرقب العدو من سطح بيت فى روسباخ إلا أن أمر فرسانه بقيادة سيدلتز أن يقوموا بحركة مضادة على ميمنة العدو . وحمل الفرسان البروسيون ، وعدتهم ٣٫٨٠٠ مقاتل ، تحجبهم التلال وهم يسيرون بسرعة مدربة ، على وجود الحلفاء من تحتهم وهزموهم قبل أن يستطيعوا اعادة تشكيل صفوفهم .

وأقبل الفرنسيون بعد الأوان ، فمزقتهم المدفعية البروسية أشد تمزق ، وما مضت تسعون دقيقة حتى انتهت معركة روسباخ الفاصلة (٥ نوفمبر ١٧٥٧) . وتقهقر الحلفاء فى فوضى تاركين ٧٫٧٠٠ قتيل فى ساحة القتال ، أما البروسيون فلم يفقدوا غير ٥٥٠ رجلا . وأمر فردريك بالرفق بالأسرى : ودعا الضباط المأسورين إلى مائدته : وفى كياسه وظرف فرنسيين اعتذر عن قلة الطعام قائلا :

Mais, messieurs, Je ne vous attendais pas si tot, en si grdànd nombre.

« ولكنى أيها السادة لم أتوقع مجيئكم بهذه السرعة ، وبهذه الكثرة[٣٤]

وتعجب العسكريون من جميع الأطراف من ذلك البون الشاسع فى الخسائر ، ومن براعة القيادة التى أتاحت هذه النتيجة : وحتى فرنسا اعترفت باعجابها ، ولم يستطيع الشعب الفرنسى الذى كان حليفا لبروسيا حتى الأمس القريب أن ينظر بعد إلى فردريك نظرته إلى عدو لهم : ألم يكن يجيد الحديث والكتابة بالفرنسية ؟ دهشت جماعة الفلاسفة لإنتصاراته وأشادوا به مكافحا عن حرية الفكر أمام الظلامية الدينية التى يحاربونها فى وطنهم [٣٥] واستجاب فردريك لعواطف الفرنسيين النبيلة فقال : (لم أعتبر الفرنسيين أعداء لى) [٣٦] ولكنه كتب سرا — بالفرنسية — قصيدة أعرب فيها عن اغتباطه بأن ركل الفرنسيون فى (إستهم) وهى كلمة ترفق كارليل فترجمها (مقعدة الشرف)[٣٧] .

واغتبطت انجلترة معه ، وجددت ايمانها بحليفها . واحتفلت لندن بعيد ميلاده بالصواريخ فى شوارعها ، وأشاد المثوديون الأتقياء بهذا الزنديق منقذا للمذهب الحق الوحيد . وكان بت قد أعيد لبرأس الحكومة (٢٩ يوليو ١٧٥٧) ، فغدا منذ الآن النصير الثابت الوفى للملك البروسى . وقال فردريك (لقد أنفقت انجلترة وقتا طويلا لتنجب رجلا عظيما كفئا لهذا الصراع ، ولكن هاهو قد جاء فى النهاية [٣٨]) ، وندد بت باتفاقية كلوستر — تسيفين لأنها ليست إلا جبنا وخيانة — وذلك رغم

أن ابن الملك وقعها ، ثم أقنع البرلمان بأن يرسل جيشا أفضل لحماية هانوفر ومعاونة فردريك (اكتوبر) ، وبينما كان المبلغ الذى أقره البرلمان من قبل لجيش كمبرلاند (جيش المراقبة) لايزيد عن ١٦٤٫٠٠٠ جنيه ، وافق الآن على ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنية لتمويل (جيش عمليات) ؛ واتفق بت وفردريك على أن يختار لقيادة هذه القوة الجديدة صهر فردريك وتلميذه الحربى ، الدوق فرديناند البرنزويكى ، البالغ من العمر ستة وثلاثين عاما ، الرجل الوسيم ، المثقف ، الشجاع ، الذى قال عنه بيرنى أنه يجيد العزف على الكمان إجادة كان يمكن أن يجمع من ورائها ثروة طائلة (٣٩) . هاهنا أداة صالحة صلاحية رفيعة لمصاحبة ناى فردريك .

٤ — الثعلب يكره على الدفاع

١٧٥٧ — ١٧٦٠

لم يتح لفردريك متسع من الوقت للابتهاج ، فما زال جيش فرنسى بقيادة ريشليو واضعاً يده على جزء كبير من هانوفر . وفى اليوم الذى وقعت فيه معركة روسباخ ضرب ٤٣٫٠٠٠ نمساوى الحصار على شفايدنتز ، أهم معقل ومستودع للبروسيين فى سيليزيا . وكان فردريك قد ترك بها ٤١٫٠٠٠ رجل ولكن عددهم تناقص إلى ٢٨٫٠٠٠ نتيجة الهروب أو الموت ، وكان على رأسهم قائد غير كفء هو دوق برنزويك — بيفرن ، الذى تجاهل أمر الملك بمهاجمة المحاصرين ، وفى ١١ نوفمبر سلم الحصن ، وسلم للنمساويين ٧٫٠٠٠ أسير ، و ٣٣٠٫٠٠٠ طالر ، ومؤوناً تكفى لإعاشة ٨٨٫٠٠٠ رجل مدى شهرين . وواصل المنتصرون السير إلى برزلاو ، بعد أن زاد ، عددهم إلى ٨٣٫٠٠٠ بفضل انضمامهم إلى قوات يقودها الأمير شارل والمارشال داون ؛ وفى ٢٢ نوفمبر قهروا قوة صغيرة من البروسيين ، وسقطت برزلاو ورد معظم سيليزيا الآن إلى ماريا تريزا الظافرة . وحق لفردريك أن يشعر أن انتصاره فى روسباخ قد بطل مفعوله .

ولكن ذلك الانتصار كان قد جدد شجاعته ، فلم يعد يتحدث عن الانتحار . كذلك كان جيشه قد أفاق من مسراته ومعاركه ، وبدا ساخطاً على الغارات التى دنس بها الجنودالفرنسيون الكنائس الكاثوليكية فى سكسونيا وناشد فردريك رجاله أن يعينوه على استرداد سيليزيا . فساروا ١٧٠ ميلا فى إثنى عشر يوماً قارسة البرد ، مخترقين أرضاً وعرة. وانضم إليهم فى الطريق فلول القوات البروسية التى هزمت فى شفايدنتز وبرزلاو . وفى ٣ ديسمبر لمح فردريك ومعه ٤٣ ألف مقاتل نمساوياً من ٧٢,٠٠٠ مقاتل يعسكر قرب لويتن على الطريق إلى برزلاو . فى ذلك المساء خطب فردريك فى كبار ضباطه سبق به خطب نابليون الحربية الرنانة ، قال :

« أيها السادة ، أنكم لاتجهلون أى نكبات حلت بنا هنا بينما كنا مشتبكين مع الجيوش الفرنسية والامبراطورية . فلقد ضاعت شفايدنتز . .. وضاعت برزلاو ومعها كل مستوعادتنا الحربية ، وضاع أكثر سيليزيا . ولولا ثقتى التى لاحد لها بشجاعتكم وولائكم وحبكم لوطنكم ، لما أفقت من عوامل ضيقى وارتباكى .. فليس بينكم رجل لم يبرز بعمل ممتاز من أعمال البطولة لذلك أعالل نفسى بأنكم فى الفرصة القادمة لن تضنوا بأى تضحية يطالبكم بها الوطن .

والفرصة سانحة الآن . وإننى لأشعر أننى لم أحقق شيئاً او تركت سليزيا فى قبضة النمسا . فدعونى إذن أخبركم إننى أنوى مهاجمة جيش الأمير شارل — وهو ثلاثة أضعاف جيشنا — أينما لقيته ، متحدياً فى ذلك جميع قواعد فن الحرب . فليست العبرة بكثرة جنده أو قوة موقعه ، فأنا آمل — بفضل بسالة جنودنا ، وتنفيذ خططنا بعناية — أن أذلل هــذا كله . ولا مندوحة لى عن اتخاذ هذه الخطوة ، وإلا دفنا تحت مدافعه . كذلك أرى الموقف ، وكذلك سأتصرف .

فأبلغوا تصميمى إلى جميع ضباط الجيش ، وأعدوا الجنود للعمل الذى لابد آت ، وأخبروهم أنى أشعر بأن لدى من الأسباب مايبرر مطالبتى إياهم بتنفيذ الأوامر بكل دقة . أما أنتم ، فهل يخطر ببالى — وأنا أذكر

أنكم بروسيون — أنكم ستتصرفون تصرفاً غير نبيل ، ولكن إذا كان بينكم رجل يخاف أن يشاطرنى جميع المخاطر (وهنا تفرس فردريك فى كل وجه بدوره) فنى استطاعته أن يسرح هذا المساء ، دون أدنى لوم منى . . . .

كنت عليما بأن أحداً منكم لن يتركنى . وعليه فأنا معتمد كل الاعتماد على معونتكم الصادقة ، وعلى النصر الأكيد . فإن مت قبل أن أجزيكم على إخلاصكم فلا بد أن الوطن فاعل . عودوا الآن إلى معسكركم وانقلوا إلى جنودكم ماسمعتموه منى .

وسأجرد فرقة الفرسان التى لاتلقى بنفسها فور سماع الأمر على العدو بمجرد انتهاء المعركة ، وأحيلها إلى فرقة حامية . أما كتيبة المشاة ، حتى أن بدأت تتردد ، أياً كان الخطر الذى تواجهه ، فإنها ستفقد رايتها ، وسيوفها ، والنوط الذهبى من ستراتها .

« الآن طابت ليلتكم أيها السادة . عما قليل سنكون قد هزمنا العدو ، وإلا فلن يرى بعضنا البعض بعد اليوم »[٤٠] .

وكان النمساويون إلى الآن يتحاشون الالتحام فى معركة مع فردريك متبعين فى ذلك سياسة فابيوس الرومانى ، وترددوا فى وضع جنودهم وقوادهم أمام انضباط الجيش البروسى وعقبرية فردريك التكتيكية ، أما الآن بعد أن شجعهم كثرة جيوشهم وانتصاراتهم الأخيرة ، فقد قرروا مواجهة الملك فى المعركة مخالفين فى ذلك نصيحة المرشال داون . وعليه . فنى ٥ ديسمبر ١٧٥٧ زحفت هذه البيادق فى لعبة المنافسة بين الأسر المالكة — ٤٣,٠٠٠ مقابل ٧٣,٠٠٠ — على سيوف بعضهم بعض ومدافعهم فى أعظم معارك هذه الحرب . يقول نابليون : « كانت تلك المعركة آية من الآيات وهى وحدها تبوىء فردريك مكاناً فى الطليعة بين القواد »[٤١] وقد استهلها بمحاولة الوصول إلى التلال تمكيناً لمدفعيته من إطلاق نيرانها فوق رؤس مشاته لتصيب صفوف العدو . ووزع جنوده بنظام منحرف استعمله قديماً ابامينونداس الطيبى ، بحيث تتحرك طوابير منفصلة بزاوية ٤٥ درجة تقريباً

لتضرب العدو من الجنب فتشيع الخلل فى خط دفاعه . وتظاهر فردريك بأنه يوجه أقوى ضغوطه إلى الميمنة النمساوية ، فأضعف الأمير شارل ميسرته تعزيزا للميمنة ، وهنا صب فردريك خيرة رجاله فوق الميسرة التى تناقصت ، فدمرها ، ثم انقلب ليهاجم الجناح الأيمن فى جيشه، بينما هبط الفرسان البروسيون على الجناح ذاته من مخبئهم فى التلال . وانتصر النظام على الفوضى ، فسلم النمساويون أو لاذوا بالفرار ، وأسر منهم ٢٠٫٠٠٠ — وهو صيد لم يسبق له نظير فى تاريخ الحرب [٤٢]) ، وترك ٣٫٠٠٠ آخرون قتلى ، ووقعت ١١٦ قطعة من قطع المدفعية فى أيدى البروسيين . كذلك كانت خسائر البروسيين كبيرة — ١٫١٤١ قتلى ، و٥٫١١٨ جرحى، و٨٥ أسرى . فلما انتهت المذبحة شكر فردريك قواده قائلا : (هذا اليوم سيذيع أسمكم واسم أمتكم إلى آخر الدهر[٤٣]) .

وواصل المنتصر انتصاره فى عزيمة صادقة ليسترد سيليزيا : فلم يمضى يوم على المعركة حتى حاصر جيشه الحامية النمساوية فى برزلاو . وأقام قائدها شبريشر اللافتات فى أرجاء المدينة ينذر فيها بالموت الناجز كل من يهمس بكلمة تسليم ، ولكن لم ينقض اثنا عشر يوما حتى سلم (١٨ ديسمبر) واستولى فردريك هناك على ١٧٫٠٠٠ أسيرا وعلى مخازن حربية ثمينة . وما لبثت سيليزيا كلها أن عادت إلى قبضة البروسيين باستثناء شفايدنتز ذات الحامية الكبيرة والحصون المنيعة . واعتكف الأمير شارل فى ضيعته بالنمسا بعد أن وجد نفسه ذليلا أمام لوم داون الصامت، ونصح برنيس وغيره من الزعماء الفرنسين لويس الخامس عشر بعقد الصلح ولكن دبومباور [تغلبت عليهم ، وأحلت الدوق دشوازيل وزيرا للشئون الخارجية محل برنيس (١٧٥٨) ، بيد أن فرنسا فقدت حماستها للحرب إذ خامرها الشعور بأنها تحارب دفاعاً عن النمسا بينما تضحى بمستعمراتها . أما ريشليو فلم يبد حماسة تذكر ، ولا رغبة صادقة فى مواصلة الافادة من ميزته فى هانوفر ، بحيث استدعى من قيادته للجيش (فبراير١٧٥٨) وعين بدلا منه الكونت دكليرمون ، وهو رئيس دير صرح له البابا بأن

يحتفظ بدخل منصبه الديني وهو يلعب دور القائد [٤٤] : وأخلى الفرنسيون هانوفر أمام خطى الزحف المصممة التي تقدم بها الدوق فرديناند البرنزويكي، فسلموا له ميندن في مارس ، وما لبثت وستفاليا كلها أن حررت من قبضة الفرنسيين الذين بغضوا الشعب فيهم هنا أيضاً بأعمال النهب والتدمير[٤٥]. وزحف فرديناند غربا وهزم قوة كليرمون الرئيسية بقوة لا تزيد على نصف رجال العدو في كريفيلد على الرين (٢٣ يونيو) ، وسلم كليرمون موقعه للدوق دكونتا ، وانضم سوبيز إلى الجيش المهزوم بامداد فرنسية جديدة وفلول من مقاتلي معركة روسباخ ، وأمام هذه القوة المتحدة تقهقر فرديناند إلى مونستر وبادربورن .

وتشجعت انجلترة بموسم الانتصارات هذا ، فأبرمت (١١ أبريل) معاهدة ثالثة مع فردريك ، ووعدته فيها بمعونة قدرها ٦٧٠٫٠٠٠ جنيه قبيل أكتوبر ، وتعهدت بعدم إبرام صلح منفرد [٤٦] . وفرض فردريك أثناء ذلك ضرائب على سكسونيا وغيرها من الأقاليم التي فتحها ، مسويا في ذلك بينهما وبين بروسيا التي أرهقت بالضرائب : وأصدر عملات مغشوشة ، واستأجر (كفولتير) الماليين اليهود ليعقدوا له صفقات رابحة بالعملة الأجنبية[٤٧]، فلما حل ربيع ١٧٥٨ حتى كان قد أعاد بناء جيشه فأبلغه ١٤٥٫٠٠٠ مقاتل . وفي أبريل هاجم شفايدنتز واستردها ، وتحرك صوب الجنوب على رأس ٧٠٫٠٠٠ مقاتل إلى أولموتز في موافيا متحاشيا الإلتقاء بالجيش النمساوي الرئيسي (الذي نظم من جديد تحت قيادة داون) وعلل نفسه بالزحف على فيينا ذاتها إذا استطاع الإستيلاء على هـذا الحصن النمساوي .

ولكن في نحو هذا الوقت ذاته اكتسح ٥٠٫٠٠٠ روسي يقودهم كونت فيرمور بروسيا الشرقية وهاجموا كوسترين ، التي لاتبعد عن برلين شرقا سوى خمسين ميلا ، وترك فردريك حصارا أولموتز وهرع الى الشمال على رأس ١٥٫٠٠٠ مقاتل . وفي الطريق نمى إليه نبأ مرضى

فلهلميني الذى بلغ مرحلة التأزم ، فتوقف فى جروساو ليرسل لها رسالة قلقة قال فيها « ياأعز أهلى ، ياأقرب إلى قلبى فى هذه الدنيا — لأجل كل ماهو غال عزيز لديك ، احتفظى بحياتك ، ودعينى اتعزى بزرف الدموع على صدرك »[٤٨] .

وبعد أن واصل السير أياماً وليالى انضم إلى قوة بروسية يقودها الكونت تسودوڤا قرب كوسترين . وفى ٢٥ أغسطس ١٧٥٨ ،وبقوة قوامها ٣٦,٠٠٠ رجل التقى بجيش فيرمور وعدته ٤٢,٠٠٠ روسى عند تسورندورف . واستحال عليه هنا استعمال تكتيكه المفضل ، وهو الهجوم على الجناح ، بسبب الأرض المليئة بالمنافع ، وتبين أن فيرمور لايقل عن فردريك براعة فى القيادة وقاتل الروس ببسالة وإصرار ندر أن عرفها البروسيون فى النمساويين أو الفرنسيين وكسب سيدلتز وفرسانه ما أمكن أن يقع لهم من أمجاد يوم تنافس فيه العدوان فى التقتيل .وتقهقر الروس فى نظام حسن تاركين ٢١,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير ؛ وخسر البروسيون ١٢,٥٠٠ بين قتيل وحريح و ١,٠٠٠ أسير.

ولكن منذا الذى يستطيع مواصلة القتال على كل هذه الجبهات فى وقت واحد ؟ بينما كان فردريك فى الشمال قاد داون جيشه إلى نقطة اتصل فيها بالفرق الإمبراطورية ، وشرع الآن فى حصار درسدن التى كان فردريك قد ترك فيها حامية بقيادة الأمير هنرى . وزحفت قوة من ١٦,٠٠ سويدى مخترقة بومرانيا ، وانضمت إلى الروس فى تدمير شطر كبير من إمارة برندنبورج ، وربما استطاعت معهم تهديد برلين ثانية . ودخل جيش جديد من ٣٠,٠٠٠ نمساوى ومجرى ، يقودهم الجنرال هارش ، سيليزيا واتجه إلى برزلاو . فأى هذه العواصم الثلاث يجب الدفاع عنها أولا ؟ وزحف فردريك بجيشه بسرعة اثنين وعشرين ميلا فى اليوم مخترقاً بروسيا إلى سكسونيا ، بعد أن أعاد تنظيم جنوده الذين ثبطت همتهم وأخذوا الآن يتمردون ، فوصل إلى صهره المحاصر فى الوقت المناسب لثنى داون عن الهجوم وبعد أن أراح رجاله أسبوعين ، انطلق ليطرد هارش من سيليزيا وعند هوخكيرش بسيليزيا سد عليه داون الطريق . فضرب فردريك خيامه قرب العدو ، وانتظر

أربعة أيام وصول المؤن من درسدن . وفجأة ، فى الخامسة من صباح ١٤ أكتوبر ١٧٥٨ ، هاجم داون جناح البروسيين الأيمن ، وكان فردريك قد اطمأن إلى أنه سيتجنب المبادأة . وتخفت حركة النمساويين وراء ضباب كثيف ، وأخذ البروسيون على غرة وهم نيام فعلا ، فلم يتسع الوقت لتكوين الخطوط التكتيكية التى رسمها فردريك . وعرض فردريك نفسه للخطر فى تهور وهو يحاول استعادة النظام ، فوفق فى ذلك ، ولكن بعد أن فات أوان إصلاح الموقف . وبعد خمس ساعات من قتال اشتبك فيه ٣٧,٠٠٠ بيدق مع ٩٠,٠٠٠ ، أعطى الإشارة للتقهقر ، تاركا ٩,٤٥٠ رجلا على ساحة المعركة مقابل ٧,٥٩٠ خسرهم النمساويون .

وعاد يفكر فى الانتحار . فأمام قائد كفء كداون يقود النمساويين ، وأمام قائد كفء كسالتيوكوف يحشد جيشاً روسياً جديداً ، وأمام قواته المضمحلة عدداً ، ونوعاً ونظاماً ، فى الوقت الذى يستطيع فيه أعداؤه تعويض أى خسارة ، أمام هذا كله وضح أن لا أمل فى انتصار البروسيين إلا بمعجزة ، وفردريك لا يؤمن بالمعجزات ، فى غداة هوخكيرش اطلع قارئه ديكات على « دفاع عن الانتحار » كان قد كتبه ، وقال له « فى استطاعتى أن أختم المأساة حين أشاء »[49] . فى ذلك اليوم (١٥ أكتوبر ١٧٥٨) ماتت فلهلمينى تاركة تعليمات بأن توضع خطابات أخيها على صدرها فى قبرها[50] . وناشد فردريك فولتير أن يكتب شيئاً فى ذكراها ، فاستجاب فولتير ، ولكن قصيدته « للنفس الباسلة النقية »[51] لم تستطع أن ترقى إلى مستوى الحرارة والبساطة اللتين نجدهما فى رثاء الملك الذى ضمنه « تاريخ حرب السنين السبع » قال :

« إن طيبة قلبها ، وأريحتها وسماحتها ، ونبل روحها وسموها ، وحلاوة طبعها ، جمعت فيها مواهب العقل اللامعة مع أساس من الفضيلة المكينة . وكان يربط الملك (وقد استعمل فردريك لفظ الغائب) بهذه الشقيقة الفاضلة أرق صداقة وأثبتها وقد تكونت هذه الروابط فى بواكير صباهما ، ثم وثق بينهما اشتراكهما فى تربية واحدة وعواطف واحدة ، وأصبحت هذه الروابط لا تقبل الانفصام بفضل وفائهما المتبادل فى كل امتحان يبتليان به »[52] .

وأتى الربيع بمزيد من الجيوش الفرنسية فى ساحة القتال. فى ١٣ أبريل ١٧٥٩ فى بيرجن (قرب فرانكفوت على المين) أذاقت قوة يقودها دبرولى بكفاية فرديناند البرنزويكى طعم الهزيمة . ولكن فرديناند كفر عن هزيمته فى مندن ؛ فهناك (أول أغسطس) بجيش قوامه ٤٣,٠٠٠ ألمانى، وإنجليزى، واسكتلندى هزم ٦٠,٠٠٠ فرنسى يقودهم برولى وكونتار هزيمة منكرة ؛ وبخسارة قليلة جداً نسبياً ، بحيث استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندى إلى فردريك ليعوض عما حل بجيش الملك من ضعف إثر حملة مشئومة فى الشرق .

ذلك أنه فى ٢٣ يوليو قهر جيش سالتيكوف المؤلف من ٤٠,٠٠٠ روسى وكرواتى وقوازق ، عند تسوليشاو ، جيشاً بروسيا قوامه ٢٦,٠٠٠ مقاتل كان فردريك قد تركهم لحراسة مداخل البلاد من بولندة إلى برلين ، ولم يقف الآن شىء فى طريق سيل روسى عرم قد يتدفق على العاصمة البروسية . ولم يكن أمام الملك من سبيل إلا الاعتماد على صهره ليدافع عن درسدن أمام داون ، بينما سار هو بنفسه للقاء الروس ، ووصلته التعزيزات فى الطريق ، فاستطاع أن يحشد ٤٨,٠٠٠ مقاتل ، ولكن ١٨,٠٠٠ نمساوى يقودهم الجنرال لاودون كانو أثناء ذلك قد انضموا إلى الروس ، فبلغ مجموع جيش سالتيكوف ٦٨,٠٠٠ . وفى ١٢ أغسطس ١٧٥٩ التحم هذان الجيشان — اللذان كانا أضخم كتلتين من اللحم البشرى القابل للاستهلاك منذ المذابح التى تبارى فيها الأعداء فى حرب الوراثة الاسبانية — وخاضا عند كونرزدوف (على ستين ميلا شرق برلين) أقسى معارك هذه الحرب — وأفجعها على فردريك . فبعد قتال دام اثنتى عشرة ساعة لاح أن الحظ فى جانبه ، وهنا هجم رجال لاودون الاحتياطيون — وعددهم ١٨,٠٠٠ — على البروسيين المنهوكى القوى وطاردوهم فى هزيمة نكراء . واقتحم فردريك كل خطر ليلم شعث جنوده ، وقادهم بشخصه ثلاث مرات فى الهجوم ، وضربت بالنار ثلاثة جياد من تحته ، وأوقفت علبة ذهبية صغيرة فى جيبه رصاصة كان يمكن أن تودى بحياته . ولم يكن سعيداً بفكرة الهروب ، فصاح « هلا أصابتنى طلقة لعينة ؟ » [٥٣] وتوسل إليه جنوده أن ينجو بنفسه ،

ولم يلبثوا أن ضربوا له المثل بأنفسهم فناشدهم قائلا : « ياأبنائى لا تتركونى الآن ، أنا ملككم ، وأبوكم ! » ولكن مامن حض كان قادراً على اقناعهم بالتقدم مرة أخرى . فلقد حارب الكثيرون منهم ست ساعات تحت شمس محرقة ، دون وقت أو فرصة يتناولون فيها قدحاً من الماء . فلاذوا بالفرار وأخيراً لحق هو بهم ، مخلفاً وراءه ٢٠,٠٠٠ مابين أسير ، وجريح ،وقتيل مقابل خسارة للأعداء قدرها ١٥,٧٠٠ . وبين الذين جرحوا جروحاً مميتة إيفالد فون كلايست ، أعظم شعراء العصر الألمانى .

وحالما وجد فردريك مكاناً يستريح فيه أرسل إلى الأمير هنرى رسالة يقول فيها « لم يبق لى فى هذه اللحظة سوى ٣,٠٠٠ من جيش بلغ ٤٨,٠٠٠ مقاتل، ولم أعد السيد المسيطر على قواتى .. أنها لكارثة فادحة ، ولن أعيش بعدها » . وأبلغ قواده أنه يوصى بالقيادة للأمير هنرى . ثم أرتمى على بعض القش واستغرق فى النوم .

وفى الغد وجد أن ٢٣,٠٠٠ من الهاربين من المعركة عادوا إلى فرقهم خجلين من هروبهم ، مستعدين للعودة إلى خدمته إن لم يكن لشىء فلأنهم يتوقون إلى الطعام . ونسى فردريك أن يقتل نفسه ، وبدلا من هذا أعادتنظيم هؤلاء وغيرهم من الجنود المساكين فى جيش جديد بلغ رجاله ٣٢,٠٠٠ ، واتخذ له موقعاً على الطريق من كونرزدورف إلى برلين ، متوقعاً أن يبذل آخر محاولة لحماية عاصمته . ولكن سالتيكوف لم يأت . فرجاله أيضاً يجب أن يطعموا ،لأنهم كانوا فى أرض العدو ووجدوا الحصول على الطعام محفوفاً بالخطر ، وخط المواصلات مع بولندة طويل وغير مأمون . ورأى سالتيكوف أن قد آن الأوان ليأخذ النمساويون دورهم فى قتال فردريك .ومن ثم أصدر أمره بالتقهقر .

ووافق داون على أن الخطوة التالية يجب أن تكون خطوته وأحس بأن هذا هو وقت الاستيلاء على درسدن . وكان الأمير هنرى قد سحب قوة من المدينة لتنجد فردريك ، ولم يترك سوى ٣٠,٠٠٠ مقاتل لحراسة القلعة ، ولكن التحصينات القوية كانت قد أقيمت لصد الهجوم . وكان القائد الجديد

فى درسدن ، وهوكورت فون شمتاو ، خادماً وفياً للملك ، ولكنه حين تلقى كلمة من فردريك ذاته ، بعد كونرزدورف ، بأن كل شيء قد ضاع ، يئس من المقاومة المجدية . وكان جيش امبراطورى عدته ١٥,٠٠٠ مقاتل قادماً على درسدن من الغرب ، وداون ماض بهمة فى قذف المدينة بالمدافع من الشرق. وعليه ففى ٤ سبتمبر سلم شمتاو ، وفى ٥ سبتمبر جاءته رسالة من فردريك تأمره بالمقاومة لأن المدد فى الطريق إليه .. وأحال داون ، ومعه ٧٢,٠٠٠ مقاتل ، درسدن مقراً شتوياً لجيشه الآن . ووصل فردريك إلى فرايبورج القريبة منها وعسكر فى الشتاء بنصف هذا العدد .

وكان شتاء ١٧٥٩ — ١٧٦٠ قارس البرد جداً . فظل الثلج يكسوا الأرض إلى الركب أسابيع عديدة . ولم يجد غير الضباط مأوى فى البيوت ؛ أما عامة جنود فردريك فسكنوا أكشاكاً مؤقتة ، وراحوا يحتضنون النيران ليتدفأوا ، ويكدون فى قطع الخشب وجلبه وقوداً لها ، ولا يكادون يصيبون من الطعام غير الخبز وكانوا ينامون متلاصقين طلباً للدفء ، واقتضى المرض المعسكرين من الأرواح ما كاد يعدل ما اقتضته المعركة من قبل ، ففى ستة عشر يوماً فقد جيش داون على هذا النحو أربعة آلاف رجل(٥٤). وفى ١٩ نوفمبر كتب فردريك إلى فولتير يقول : « لو طالت هذه الحرب لارتدت أوربا إلى دياجير الجهل ، ولأصبح معاصرونا أشبه بالوحوش الضارية »(٥٥).

وأشرفت فرنسا على الإفلاس على عظم ثرائها عن بروسيا فى المال والرجال ومع ذلك جهز شوازيل أسطولا ليغزو انجلترة ، ولكن الإنجليز دمروه فى خليج كويبيرون (٢٠ نوفمبر ١٧٥٩) وضوعفت الضرائب بكل ما أوتيت الحكومات ورجال المال من براعة . وفى ٤ مارس ١٧٥٩ كانت المركيزة دمبادور قد وفقت فى تعيين إتيين دسلوويت مراقباً عاماً للمالية . فاقترح اختزال المعاشات ، وفرض الضرائب على ضياع النبلاء ، وتحويل فضياتهم نقوداً ، وحتى فرض ضريبة على الملتزمين العاملين بجمع الضرائب . وشكا الأغنياء من أنهم يحالون إلى مجرد « ظل » لما كانوا عليه من قبل ، ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة Silhouette دليلا على شكل اختزل إلى أبسط صوره.

وفى ٦ أكتوبر أوقفت الحكومة الفرنسية دفع التزاماتها . وفى ٥ نوفمبر صهر لويس الخامس عشر أطباقه القضية ليكون الأسوة الحسنه لشعبه ، ولكن حين اقترح سلوويت أن يستغنى الملك عن المبالغ التى تخصص عادة لقماره وألعابه ، وافق لويس ولكن فى ألم واضح جداً ، مما حمل شوازيل على الاعتراض على الفكرة . وفى ٢١ نوفمبر أقيل سيلوويت .

وأحس الملك كما أحس الفرنسيون جميعاً أنه شبع حربا ، وكان على استعداد للاستماع إلى مقترحات للصلح . وكان فولتير قد جس نبض فردريك فى أمر الصلح فى يونيو ، فأجاب فردريك (٢ يوليو) : « أنى أحب الصلح بقدر ما تتمنى ، ولكن أريده حسنا ، متينا ، شريفا » ، وفى ٢٢ سبتمبر أضاف فى رسالة أخرى لفوليتر هناك شرطان للصلح لن أحيد عنهما أبدا : أولا : أن يبرم مشاركة مع حلفائى الأوفياء . . . ثانياً : أن يكون صلحاً شريفاً مجيدا [٥٦] . ونقل فولتير هذه الردود الأبية (التى كتب احدها بعد هزيمة كونرزدورف الساحقة) إلى شوازيل الذى لم يجد فيها ما يعين على المفاوضة . ثم هناك الحليف الوفى بت ، المشغول بالتهام المستعمرات الفرنسية فكيف يبرم الصلح قبل أن يبنى الامبراطورية البريطانية ؟

٥ — بناء الامبراطورية البريطانية

أن أهم طور من أطوار حرب السنين السبع لم يقاتل فيه الخصوم فى أوروبا ، ففى أوروبا لم يحدث غير تغييرات صغيرة فى خريطة القوة . ولكنهم اقتتلوا على الأطلنطى ، وفى أمريكا الشمالية ، وفى الهند . فى تلك المناطق كانت نتائج الحرب هائلة طويلة البقاء .

كانت أول خطوة تكوين الأمبراطورية البريطانية قد اتخذت فى القرن السابع عشر ، وذلك بانتقال التفوق البحرى من أيدى الهولنديين إلى أيدى الانجليز . أما الثانية فحددتها معاهدة أوترخت (١٧١٣) التى منحت انجلترة احتكار توريد العبيد الأفارقة للمستعمرات الأسبانية والانجليزية

فى أمريكا . وكان العبيد ينتجون الأرز والتبغ والسكر ، وكان جزء من السكر يحول إلى شراب الروم ، وشاركت تجارة الروم فى إثراء تجار انجلترة (القديمة والجديدة) ومولت أرباح التجارة التوسع فى الأسطول البريطانى. فما حلت سنة ٥٨ [٥٧] حتى كان للانجليز ١٥٦ سفينة حربية ، ولم يكن لفرنسا غير ٥٧٧٧ ومن ثم كانت الخطوة الثالثة فى بناء الأمبراطورية هى اضعاف القوة الفرنسية فى البحار . وقطع هذه العملية انتصار ريشيليو فى مينورقة ، ولكنها استؤنفت بتدمير أسطول فرنسى أمام لاجوس ، بالبرتغال (١٣ ابريل ١٧٥٩) ، وأسطول آخر فى خليج كويبرون . ونتيجة لذلك هبطت تجارة فرنسا مع مستعمراتها من ثلاثين مليونا من الجنيهات فى ١٧٥٥ إلى أربعة ملايين فى ١٧٦٠ .

أما وقد تمت السيادة على الأطلنطى ، فقد انفتح الطريق أمام البريطانيين ليفتحوا أمريكا الفرنسية ، ولم تقتصر هذه على حوض نهر سانت لورنس واقليم البحيرات العظمى ، بل شملت حوض المسيسبى من البحيرات إلى خليج المكسيك ، لا بل أن وادى نهر أوهايو كان فى قبضة الفرنسيين . وسيطرت القلاع الفرنسية على شيكاغو ، وديترويت ، وبتسبرج — التى كان تغيير اسمها من فوردوكين رمزا لنتائج الحرب . وكانت الممتلكات الفرنسية تقف عقبة أمام توسع المستعمرات الانجليزية فى أمريكا نحو الغرب. ولولم تنتصر انجلترة فى حرب السنين السبع لإنقسمت أمريكا الشمالية إلى انجلترا جديدة فى الشرق ، وفرنسا جديدة فى الوسط ، وأسبانيا جديدة فى الغرب ، ولتكررت نسخة من انقسامات أوربا وصراعاتها فى أمريكا . وقد حذر بنيامين فرانكلين المسالم المستعمرين الانجليز من أنهم لن يكونوا آمنين فى ممتلكاتهم ، ولا أحرارا فى نموهم ، مالم يوقف الفرنسيين فى توسعهم الأمريكى ، وقد دخل جورج واشنطن التاريخ بمحاولته الاستيلاء على فور دوكين .

كانت كندا ولويزيانا مدخلى أمريكا الفرنسية ، وأقربهما إلى انجلترة

وفرنسا هى كندا فعن طريق السنت لورنس كانت تصل المؤن والجنود إلى « المستوطنين » ؛ وكانت تحرس ذلك الباب قلعة لوبيورج الفرنسية على رأس جزيرة بريتون عند مصب النهر العظيم . وفى ٢ يونيو١٧٥٨ حاصر لوبيورج اسطول انجليزى صغير من اثنين وأربعين سفينة تحمل ١٨٫٠٠٠ جندى يقودهم الأميرال إدورد بوسكاون . ودافع عن الحصن عشر سفن و٦٫٢٠٠ مقاتل ، واعترض الأسطول البريطانى التعزيزات المرسلة من فرنسا . وقاتلت الحامية ببسالة ، ولكن سرعان ما حطمت المواقع البريطانية وسائل دفاعها . وكان تسليم الحصن (٢٦ يوليو١٧٥٨) بداية الفتح البريطانى لكندا .

ولم تفلح استراتيجية المركيز دمونكالم وبطولته فى تعطيل سير العملية إلا قليلا . فبعد أن أوفدته فرنسا (١٧٥٦) ليقود الجنود النظاميين فى كندا، ظفر بالنجاح تلو النجاح إلى أن احبطه ما تفشى فى الإدارة الفرنسية — الكندية من فساد وخلل ، وما تبين من عجز فرنسا عن موافاته بالمدد : وفى ١٧٥٧ حاصر قلعةوليم هنرى واستولى عليها؛وهى تقع على رأس بحيرة جورج . وفى ١٧٥٨ هزم ١٥٫٠٠٠ من جنود بريطانيا والمستعمرات عند تيكوندروجا بقوة قوامها ٣٫٨٠٠ مقاتل . ولكنه التقى بقريعه حين دافع عن كويبك بقوة قوامها ١٥٫٠٠٠ رجل ضد القائد الانجليزى جيمس وولف الذى لم يكن تحت قيادته أكثر من ٩٠٠٠ جندى . وتقدم وولف بنفسه جنوده فى تسلق المرتفعات إلى سهول ابراهام . وجرح مونكالم جرحا مميتا وهو يدير الدفاع ، وجرح وولف جرحا مميتا على ساحة النصر(١٢ — ١٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وفى ٨ سبتمبر ١٧٦٠ سلم فودربى — كافانيال ،حاكم كندا الفرنسى ، وبسطت بريطانيا سلطانها على هذا الاقليم الكبير .

وبعد أن وجه الانجليز مراكبهم صوب الجنوب هاجموا الجزر الفرنسية فى البحر الكاريبى . فاستولوا على جودلوب فى ١٧٥٩ ، وعلى المارتنيك فى ١٧٦٢ ، ووقعت كل الممتلكات الفرنسية فى جزر الهند الغربية —

باستثناء سان — دومنج — فى قبضة بريطانيا . وطلبا للمزيد من مكاسب النصر أرسل بت الأساطيل إلى افريقا للاستيلاء على محطات النخاسة الفرنسية على الساحل الغربى ، فاستولت عليها ، وانهارت تجارة الرقيق الفرنسية ، واضمحل ثغرها الرئيسى فى فرنسا وهو نانت . وارتفع ثمن العبيد فى جزر الهند الغربية ، وحقق تجار الرقيق البريطانيون ثروات جديدة بتلبية الطلب على العبيد (٥٨). وينبغى أن نضيف هنا أن الانجليز لم يكونوا أكثر قسوة فى هذه العملية الأمبريالية من الأسبان أو الفرنسيين ، إنما كانوا أكفأ منهم وفى انجلترة بدأت حركة مقاومه الرق تتخذ شكلا فعالا .

وفى غضون ذلك كانت روح المغامرة البريطانية — الحربية والبحرية ، والتجارية — مشغولة بالتهام الهند — فقد أقامت شركة الهند الشرقية الانجليزية معاقل لها فى مدراس (١٦٣٩) ، وبمباى (١٦٦٨) وبوندتشيرى ، جنوبى مدراس (١٦٨٣) ، وفى شندرناجور شمال كلكتا . كل مراكز القوة هذه اتسعت فى الوقت الذى اضمحل فيه حكم المغول فى الهند ، واستعمل كل فريق الرشوة والقوة العسكرية لمد منطقة نفوذه وكانت فرنسا وانجلترة قد اشتبكتا معاً فى الهند ابان حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ٤٨) ولم يفعل صلح إكس لا شابل أكثر من قطع الصراع فترة ، والآن جددته حرب السنين السبع . ففى مارس ١٧٥٧ استطاع أسطول إنجليزى يقوده الأميرال تشارلز وطسن ، ويعاونه جنود شركة الهند الشرقية بقيادة غلام من شرويشبريدعى روبرت كلايف أن ينتزع شندرناجور من الفرنسيين ، وفى ٢٣ يونيو ، وبقوة لاتزيد على ٣٫٢٠٠ جندى ، هزم كلايف ٥٠٫٠٠٠ هندوكى وفرنسى عند بلاسى (على ثمانين ميلا شمال كلكتا) فى معركة أكدت السيادة البريطانية على شمال شرق الهند . وفى أغسطس ١٧٥٨ طرد أسطول انجليزى بقيادة الأميرال جورج بوكوك من المياه الهندية الأسطول الفرنسى الذى كان يحمى الممتلكات الفرنسية على طول الساحل . بعد ذلك بفضل ما امتاز به البريطانيون على الفرنسيين من القدرة

على جلب الرجال والمؤن ، لم يكن انتصار انجلترة إلا مسألة شهور. فنى ١٧٥٩ أحبط وصول المؤن والامداد البريطانية بحرا الحصار الفرنسى الذى فرضه على مدراس الكونت دلاللى . وهزم الفرنسيون هزيمة فاصلة فى وانديووش فى ٢٢ يناير ١٧٦٠ ، وسلمت بوندتشيرى للبريطانيين فى ١٦ يناير ١٧٦١ وقد ردت هذه المحطة الأمامية ، وهى آخر المحطات الفرنسية إلى فرنسا ١٧٦٣ ولكن كان مفهوما للجميع أن بقاء السيادة للفرنسية رهن برضاء بريطانيا .

وظلت الهند وكندا حتى عصرنا هذا معقلين ، فى الشرق والغرب ، لامبراطورية بنيت بالمال والشجاعة ، والقسوة والذكاء ، فى توافق تام مع أخلاقيات القرن الثامن عشر الدولية . ونحن ندرك الآن فى استعراضنا للماضى بعد هذه الفترة الطويلة أن تلك الأمبراطورية كانت نتاجا طبيعيا للطبيعة البشرية والأحوال المادية . وأن البديل لها لم يكن استقلال الشعوب العاجزة بل امبراطوية نظيرها تؤسسها فرنسا . ويمكن القول إنه فى المدى الطويل ، برغم رجال من أمثال كلايف وهيستنجز وكبانج ، فان حكم نصف العالم بواسطة البحرية البريطانية — أى الحفاظ على النظام حفاظا انسانيا وحسما نسبيا وسط الفوضى المهددة أبداً — كان نعمة لا نقمة على البشر .

٦ — الأعياء : ١٧٦٠ — ٦٢

ترى ماذا كان الثعلب البروسى المطارد يفعل فى شتاء ١٧٥٩—٦٠ القارس؟ كان يجمع المال ويزيف العملة ، يجند الرجال ويدربهم ، ويقرض الشعر ويذيعه على الناس . ففى يناير أصدر ناشر باريسى لص « أعمال فيلسوف صان—سوسى » وطبع فى اغتباط تلك القصائد المستهترة التى كان فولتير قد حملها معه من بوتسدام عام ١٧٥٣ والتى بسببها أوقفت رحلته بأمر فردريك وحبس فى فرانكفورت — على المين. وقدر الناشر أن تلك القصائد ستضحك الرؤوس غير المتوجة ، ولكنها ستجعل الباروكات الملكية ترتعد غضباً ، بما فيها باروكات جورج الثانى حليف فردريك .وأكد فردريك أن المطبوع المسروق

شوهته إضافات مدسوسة خبيثة ، وأمر صديقه المركيز دارجانس (مدير الفنون الجميلة فى أكاديمية برلين) بأن يصدر للفور « طبعة صحيحة » منقاة بعناية . فما لبثت الطبعة أن صدرت فى مارس ، واستطاع فردريك أن يفرغ للحرب من جديد . وفى ٢٤ فبراير كتب إلى فولتير يقول :

لقد نشر الحديد والموت بيننا الخراب الرهيب والحزن أننا لم نبلغ بعد نهاية المأساة . ومن السهل أن تتصور أثر هذه الصدمات القاسية فى نفسى . وأنا ألوذ بالرواقية ما استطعت . لقد غدوت عجوزاً ، محطماً ، أشيب الشعر مجعد البشرة ، وأنا أفقد أسنانى ومرحى [٥٩].

وكانت الحشود الهائلة من الجند تساق للفصل فى أى الحكام سيضنى أكثر الرجال . كان سالتيكوف عائداً من روسيا فى إبريل على رأس ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وكان للأودون ٥٠,٠٠٠ نمساوى فى سليزيا مقابل ٣٤,٠٠٠ يقودهم الأمير هنرى ، وكان داون فى درسدن بمقاتليه المائة ألف يأمل أن يشق له طريقا وسط رجال فردريك البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ والمعسكرين الآن قرب مايسن ، وكان الفرنسيون وعدتهم ١٢٥,٠٠٠ ينتظرون للزحف على ٧٠,٠٠٠ يقودهم فرديناند ، وبلغت جملة المقاتلين الموجهين إلى برلين ٣٧٥,٠٠٠ رجل . وفى ٢١ مارس ١٧٦٠ جددت النمسا وروسيا تحالفهما وأضافتا مادة سرية تعطى بروسيا لروسيا بمجرد رد سيليزيا إلى النمسا [٦٠].

وكان لاودون البادىء بإراقة دماء عام ١٧٦٠ ، إذ سحق ١٣,٠٠٠ بروسى عند لانديشوت (٢٣ يوليو) . وفى ١٠ يوليو شرع فردريك فى حصار درسدن بمدفعية ثقيلة ، فدمر الجزء الأكبر من أجمل مدينة فى ألمانيا ، ولكن القصف لم يجده شيئاً ، فلما نمى إليه أن لاودون يقترب من برزلاو أقلع عن الحصار ، وسير رجاله مائة ميل فى خمسة أيام والتقى بجيش لاودون فى ليجنتز (١٥ أغسطس ١٧٦٠) وكبده خسارة ١٠,٠٠٠ رجل ، ثم دخل برزلاو . ولكن فى ٩ أكتوبر أستولى جيش قوازقى يقوده فرمور على برلين ، ونهب مستودعاتها الحربية ، وفرض عليها فدية مقدارها مليوناً طالر — وهذا يساوى نصف المعونة المالية التى كان فردريك يتلقاها سنوياً من بريطانيا . وخف لنجدة عاصمته ، ففر

الروس حال سماعهم بقدومه ، وقفل فردريك إلى سكسونيا ، وفى طريقه كتب إلى فولتير (٣٠ أكتوبر) يقول « إنك محظوظ باتباعك نصيحة كانديد والاكتفاء بزرع حديقتك وما كل إنسان يتاح له أن يفعل ماتفعل . فعلى الثور أن يحرث الأرض ، وعلى البلبل أن يغنى ، وعلى الدرفيل أن يسبح ، وعلىّ أن أقاتل» (٦١).

وعند تورجاو على نهر الألب (٣ نوفمبر) التقى رجاله وعددهم ٤٤,٠٠٠ بجيش نمساوى قوامه ٥٠,٠٠٠ ؛ وأرسل فردريك نصف جيشه بقيادة يوهان تسيتن ليطوق العدو ويهاجمه فى المؤخرة ؛ ولكن المناورة أخفقت لأن فصيلة للعدو عطلت تسيتن فى الطريق . وقاد فردريك كتائبه بشخصه إلى وطيس المعركة ؛ هنا أيضاً أطلقت النار على ثلاثة جياد من تحته وأصابته قذيفة فى صدره ، ولكنها كانت قد فقدت مفعولها ، وصرع على الأرض فاقداالوعى ولكنه سرعان ماأفاق فقال : « حادث تافه» ثم عاد إلى المعركة . وكان انتصاره غالى الثمن ، فقد ارتد النمساويون بعد أن فقدوا ١١,٢٦٠ رجلا ولكن فردريك ترك ١٣,١٢٠ بروسيا على أرض المعركة ، وانسحب إلى برزلاو التى أصبحت الآن أهم مركز لامداداته . وكان داون لا يزال محتفظاً بدرسدن منتظراً فى صبر موت فردريك . ثم منح الشتاء الأحياء مهلة ثانية .

وكانت سنة ١٧٦١ سنة دبلوماسية أكثر منها سنة حرب . ففى انجلترا كان موت جورج الثانى (٥٥ أكتوبر ١٧٦٠) الذى كان عميق الاهتمام بهانوفر ، وارتقاء جورج الثالث العرش ، وكان اهتمامه بها الأقل بكثير ، بمثابة تصديق ملكى على كراهية الشعب لحرب تكلف المالية الإنجليزية عبئاً باهظاً . وجرب شوازيل أن تجس فرنسا نبض انجلترة لعقد صلح منفرد ، ولكن بت رفض ، وظل على وفائه المطلق لفردريك ، ولكن القوة البريطانية فى هانوفر خفض عددها ، واضطر فرديناند إلى التخلى برنزويك وفولفنبوتل للفرنسيين . واتجه شوازيل إلى أسبانيا ، وعقد معها « ميثاقاً عائلياً » بين الملكين البوربونيين ؛ أغراها فيه بالإنضمام إلى الحلف المعادى لبروسيا ، وتضافرت التطورات الحربيه مع هذه النكسات الدبلوماسية لدفع فرديك مرة

أخرى إلى شفا الهزيمة النكراء . فقد استطاع لاودون بجيش من ٧٢,٠٠٠ مقاتل أن ينضم إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل روسى ، فعزلوا فردريك عن بروسيا عزلا تاماً ، ووضعوا الخطط للاستيلاء على برلين والاحتفاظ بها . وفى أول سبتمبر ١٧٦١ عاد النمساويون للاستيلاء على شفايدنتز ومستودعاتهـــا . وفى ٥ أكتوبر استقال بت ، مؤثراً الاستقالة على خيانة فردريك بعد أن غلبته على أمره مطالبة الشعب بالصلح . ورأى خلفه إيرل بيوت أن قضية فردريك ميئوس منها ، وأن المفاوضة للصلح وسيلة لدعم مركز جورج الثالث ضد البرلمان . فألح على فردريك فى أن يسلم بالهزيمة ولو إلى حد التنازل عن جزء من سليزيا للنمسا . وتردد فردريك ، وقبض عنه بيوت المزيد من العون المالى ودعت أوربا كلها تقريباً ، بما فيها الكثير من البروسيين ، فردريك إلى بذل التنازلات . وكان جنوده قد فقدوا كل أمل فى النصر ، وأنذروا ضباطهم بأنهم لن يهاجموا العدو مرة أخرى ، وأنهم يستسلمون إذا هوجموا [٦٢] وما اختتم عام ١٧٦١ حتى وجد فردريك نفسه يقف وحيداً أمام أكثر من عشرة أعداء . واعترف بأن لا خلاص إلا بمعجزة .

وقد أنقذته معجزة . ففى ٥ يناير ١٧٦٢ ،[٦٣] ماتت القيصرة اليزافيتا التى تمقت فرديك ، وخلفها بطرس الثالث الذى كان يعجب به مثلا أعلى للفاتح والملك . فلما سمع فردريك النبأ أمر أن يكسى جميع الأسرى الروس ويعطوا نعالا ويطعموا ويطلق سراحهم . وفى ٢٣ فبراير أعلن بطرس نهاية الحرب مع بروسيا . وفى ٥ مايو وقع معاهدة صلح وضعها فردريك بنفسه بناء على طلبه . وفى ٢٢ مايو حذت السويد حذو روسيا . وفى يونيو دخل بطرس الحرب من جديد ، ولكن حليفاً لبروسيا ، وارتدى حـــلة عسكرية بروسية وتطوع للخدمة « تحت قيادة مولاى الملك » . فكان هـــذا من أعجب الانقلابات فى التاريخ .

ولقد أدفأ صدر فردريك ، ورفع روح جيشه ، ولكنه وافق أعداءه بعض الشىء على أن بطرس رجل مختل العقل ، وأفزعه أن يسمع برغبة بطرس فى مهاجمة الدنمرك ليستعيد هولشتين . فبذل فردريك قصارى

جهده ليثنيه ، ولكن بطرس أصر ، وأخيرا — فى رواية فردريك — « اضطررت لإلتزام الصمت ، وترك هذا الملك المسكين إلى هذا الاعتداد بالنفس الذى دمره »(٦٤) .

أما بيوت ، الذى انقلب الآن عدوا نشيطاً لفردريك ، فقد طلب إلى بطرس أن يترك العشرين ألف روسى الموجودين فى الجيش النمساوى حيث هم . وأرسل بطرس نسخة من الخطاب إلى فردريك ، وأصدر أمره للجنود الروسية بالانضمام إلى فردريك والخدمة فى صفوفه ، وعرض بيوت على النمسا صلحا منفردا ، واعدا اياها بتأييد التخلى لها عن أقاليم بروسية ، ولكن اونتز رفض ،وندد فردريك ببيوت لأنه وغد(٦٥) .وسره أن يسمع بأن فرنسا أنهت معونتها المالية للنمسا ، وأن الترك يهاجمون النمساويين فى المجر (مايو ١٧٦٢) .

وفى ٢٨ يونيو عزل بطرس بانقلاب أجلس على العرش كاترين الثانية « امبراطورة للاقاليم الروسية كلها » ، وفى ٦ يوليو اعتقل بطرس ، وأصدرت كاترين الأمر لكزرنيكيف ، الذى تولى قيادة الروس تحت فردريك ، بأن يعود بهم إلى أرض الوطن فورا . وكان فردريك يتجهز لهجوم على داون . فطلب إلى كزرنيكيف أن يخفى نبأ تعليمات القيصرة ثلاثة أيام . وهزم فردريك داون فى بوركرزدورف(٢١ يوليو) دون أن يستخدم هؤلاء الروس الاحتياطيين . وسحب كزرنيكيف الآن جنوده ، ولم تعد روسيا تشارك بأى دور فى الحرب . أما وقد خف الخطر عن الملك فى الشمال ، فأنه ساق النمساويين أمامه ، واستولى من جديد على شفايدنتز وفى ٢٩ اكتوبر هزم الأمير هنرى ، بجيش من ٢٤٫٠٠٠ مقاتل ، ٣٩٫٠٠٠ نمساوى وجندى امبراطورى عند فرايبورج بسكسونيا . وكانت هذه هى العملية الحربية الكبرى الوحيدة للتى انتصر فيها البروسيون دون أن يكونوا تحت قيادة فردريك . وكانت أيضا آخر المعارك الهامة فى حرب السنين السبع .

٧ — الصلح

لقد أدرك الأعياء غرب أوربا كلها ، وأولها بروسيا ، التى جند فيها الصبية ذوو الأربعة عشر ربيعا ، ودمرت المزارع ، وأفلس التجار من جراء خنق التجارة ، أما النمسا فكانت تملك من الرجال أكثر ممـا تملك من المال ، وقد فقدت المعونة الروسية القيمة . وأما أسبانيا ففقدت هافانا ، ومانيلا لاستيلاء الانجليز عليهما ، فضلا عن تدمير بحريتها كلها تقريبا . وأما فرنسا فقد أفلست ، وضاعت مستعمراتهـا ، وأوشكت تجارتها أن تختفى من البحار . وأما انجلترة فقد احتاجت إلى السلام لتدعم مغانمها .

وفى ٥ سبتمبر ١٧٦٢ أوفد بيوت دوق بدفورد إلى باريس ليفاوض شوازيل فى تسوية للصراع . فاذا نزلت فرنسا عن كندا والهند فان انجلترة سترد جواديلوب والمارتنيك ، ولفرنسا أن تحتفظ ، بموافقة بريطانيا ، باقليمى فردريك الغربيين ، وهما فيزل وجلدرلاند[٦٦] . وندد بت بهذه المقترحات ببلاغة ملتهبة ، ولكن الرأى العام أيد بيوت ، وفى ٥ نوفمبر وقعت انجلترة والبرتغال مع فرنسا وأسبانيا صلح فونتنبلو . ونزلت فرنسا عن كندا ، والهند ، ومينورقة ، وردت انجلترة لفرنسا وأسبانيا فتوحها فى البحر الكاريبى . ووعدت فرنسا بأن تلتزم الحياد من بروسيا والنمسا ، وأن تسحب جيوشها من الأراضى البروسية فى غرب ألمانيا . وأكد هذه الترتيبات صلح آخر يسمى صلح باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣) ، ولكنه ترك لفرنسا حقوق صيدها قرب نيوفوندلند ، وبعض المحطات التجارية فى الهند ، ونزلت أسبانيا عن فلوريدا لانجلترة ، ولكنها أخذت لويزيانا من فرنسا . وكانت هذه الترتيبات ، من الناحية القانونية انتهاكا لتعهد بريطانيا بألا تبرم صلحا منفردا ، ولكنها من الناحية العملية كانت نعمة لفردريك . لأنها أعفته من جميع خصومه إلا اثنين ، النمسا والرايش ، وكان على ثقة الآن بأن فى استطاعته أن يثبت لهذين العدوين اللذين ثبطت همتهما .

وراضت ماريا تريزا نفسها على الصلح مع أبغض أعدائها إلى قلبها. فقد تخلى عنها جميع حلفائها الكبار، وكان ١٠٠٫٠٠٠ تركى يزحفون على المجر، فأوفدت مبعوثا لفردريك يعرض عليه الهدنة، فقبلها، وفى هوبرتوزبرج (قرب ليبزج)، فى ٥ — ١٥ فبراير ١٧٦٣، وقعت بروسيا، والنمسا، وسكسونيا، والأمراء الألمان، المعاهدة التى أنهت حرب السنين السبع. وبعد كل ما أريق من دماء ودوقاتيات، وروبلات، وطالرات وكرونات، وفرنكات، وجنيهات، أعيد «الوضع السابق للحرب» فى القارة. واحتفظ فردريك بسيليزيا، وجلاتز، وفيزل، وجلدرلاند، وأخلى سكسونيا، ووعد بأن يؤيد ترشيح جوزيف ابن ماريا تريزا ملكا على الرومان، وإذن امبراطورا مستقبلا. وعند التوقيع النهائى هنأ فردريك مساعدوه على «أسعد أيام حياتك»، فأجاب بأن أسعد أيام حياته سيكون آخرها (٦٧).

ماذا كانت نتائج الحرب؟ على النمسا فقد سيليزيا نهائيا مع دين حرب قدره ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ إيكو. وقضى على هيبة الحكام النمساويين باعتبارهم الأصحاب التقليديين للقب الأمبراطورى، وقد عامل فردريك ماريا تريزا معاملته لحاكمة لامبراطورية نمساوية — مجرية، لا رومانية مقدسة، وترك أمراء الأمبراطورية الألمان الآن وشأنهم، وسرعان ما سيخضعون لزعامة بروسيا فى الرايش، لقد اضمحل سلطان آل هابسبورج وصعد سلطان آل هوهنتسولرن، وأصبح الطريق ممهدا لبسمارك. وبدأت النزعتان الوطنية والقومية تفكران تفكير ألمانيا الموحدة بدلا من تفكير الدولة المعتزة باستقلالها عن غيرها من الدويلات. وحفز الأدب الألمانى فأنجب شتورم ودرانج، ثم صعد إلى جوته وشيلر.

أما السويد ففقدت ٢٥,٠٠٠ رجل، ولم تغنم غير الديون. وأما الروسيا ففقدت ١٢٠,٠٠٠ رجل بين المعارك، والشدائد، والأمراض، ولكنها ستعوضهم عما قليل، ولقد فتحت عهدا جديداً فى تاريخها الحديث بزحف جيوشها فى الغرب، وأصبح تقسيم بولندة الآن أمرا لا مناص منه، وأما فرنسا فلم تجن غير الخسائر الفادحة فى مستعمراتها وتجارتها، وحالة

قريبة من الافلاس دفعتها خطوة أخرى إلى الأنهيار . وأما انجلترة فكانت النتائج بالنسبة لها أعظم حتى مما قدر زعماؤها ، السيطرة على البحار ، والسيطرة على عالم المستعمرات ، وتأسيس امبراطورية عظيمة ، وبداية ١٨٢ سنة من السيادة فى العالم . وأما بروسيا فخسرت خراب أراضيها وتدمير ثلاثة عشر ألف منزل فيها ، وإحراق مائة مدينة وقرية سويت بالتراب ، واقتلاع آلاف الأسر من مواطنها ، ومات ١٨,٠٠٠ بروسى (حسب تقدير فردريك) [٦٨] فى المعارك أو المعسكرات أو الأسر ، ومات حتى أكثر من هؤلاء لنقص الدواء أو الطعام ، وفى بعض المناطق لم يبق غير النساء والشيوخ ليزرعوا الحقول ، وهبط السكان من ٤,٥٠٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ ، إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ فى ١٧٦٣ .

وغدا فردريك الآن بطل ألمانيا بأسرها (عدا سكسونيا !) فدخل برلين دخول الظافر بعد غياب ستة أعوام . وتوهجت المدينة بالأضواء ترحيبا به ، وأشادت به منقذا لها ، وذلك رغم عوزها وفجيعة كل أسرة فيها . ولانت روح هذا المحارب القديم التى قدت من فولاذ فهتف « عاش شعبى العزيز طويلا ! عاش أبنائى طويلا . » [٦٩] لقد كان فى قدرته أن يتواضع ؛ وفى الساعة التى تملقه فيها الجميع لم ينس الأخطاء الكثيرة التى ارتكبها قائداً — مع أنه أعظم القواد الذين أنجبهم العصر الحديث باستثناء نابليون . ولم يغب عن بصره آلاف الشبان البروسيين الذين بذلوا دماءهم ثمناً لسيليزيا . ولقد بذل هو أيضاً الثمن ، فشاخ قبل أوانه وهو بعد فى الحادية والخمسين ، واحدودب ظهره ، وهزل وجهه وجسمه ، وسقطت أسنانه ، وشاب أحد مفرقيه ، واضطربت أحشاؤه بالمغص ، والإسهال ، والبواسير [٧٠] وقال معقبا « إن أصلح مكان له الآن هو ملجأ للعجائز ذوى العلل المزمنة : وقد عمر ثلاثة وعشرين عاما أخر ، وحاول أن يكفر عن آثامه بحكم يتسم بالسلام والنظام .

أما أهم نتائج حرب السنين السبع من الناحية السياسية فهى ظهور الامبراطورية البريطانية ، وانبعاث بروسيا دولة من الطراز الأول ، أما من الناحية الاقتصادية فهى التقدم صوب الرأسمالية الصناعية : فقد كانت

تلك الجيوش العملاقة أسواقاً رائعة للاستهلاك الجماعى للسلع المنتجة بمقادير كبيرة ، فأى زبون أفضل من ذاك الذى يعد بتدمير السلع المشتراه فى أقرب فرصة وطلب غيرها ؟ وأما من الناحية الخلقية فأن الحرب أعانت على التشاؤم ، والكلبية ، والفوضى الخلقية ، فالحياة رخصت ، والموت قريب ، والعذاب هو القاعدة ، والنهب مباح ، واللذة تقتنص حيثما وجدت ولو لحظة . قال جريم فى وستفاليا عام ١٧٥٧ « لولا هذه الحملة لما أدركت قط إلى أى مدى بعيد يمكن أن تبلغ أهوال الفقر وظلم الإنسان ، »[٧٢] ولم تكن الحرب إلا فى بدايتها . وقد أعان العذاب الدين كما عوقه . فإذا كانت قلة من الناس تحولت إلى الكفر لواقعية الشر الصارخة ، فأن الكثرة دفعت إلى التقوى لحاجتها إلى الإيمان بانتصار الخير فى النهاية . وعما قليل ستكون عودة إلى الدين فى فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا وقد أنقذت البروتستنتية فى انجلترة من الدمار ، ولو أن فردريك خسر الحرب لحل ببروسيا فى أغلب الظن ما حل ببوهيميا بعد عام ١٦٢٠ ، فأكرهت على العودة إلى المذهب والقوة الكاثوليكيين ؛ أن انتصار الخيال على الواقع ثروة من نزوات التاريخ .

الكتاب الثانى

فرنسا قبـــل الطوفان

١٧٥٧ – ١٧٧٤

الفصل الثالث

حيـــاة الدولة

١ – رحيـــل الخليلة

كانت مدام دبومبادور إحدى ضحايا الحرب . فقد ظل سحر شخصيتها حينا يسترق لب الملك بينما الأمة تنوح ، ولكن بعد أن حاول داميان إغتياله (٥ يناير ١٧٥٧) أرسل إليها لويس الخامس عشر كلمة يأمرها فيها بالرحيل فوراً ، وكأنه شعر فجأة بوجود الله . ولكنه أرتكب غلطة إنسانية حين أتى ليودعها ، ووجدها تحزم حقائبها هادئة حزينة ، فغلبه بعض ما بقى له من رقة وحنان ، وطلب إليها أن تبقى[1] . وسرعان ما ردت إليها كل امتيازاتها وسلطاتها السابقة ، فكانت تفاوض الدبلوماسين والسفراء ، وترفع الوزراء والقواد وتخفضهم . وكان مارك بيير دفوابيه ، كونت دارجنسون ، قد قاومها فى كل خطوة ، وحاولت أن تسترضيه قصدها ، فأفلحت الآن فى أن تحـــل الابيه دبرنيس محله وزيرا للشئون الخارجية ، ثم شوازيل (١٧٥٨) . واحتفظت بحنانها لأقربائها وللملك فقط ، وواجهت غير هؤلاء بقلب من حديد فى هيكل مريض ، وزجت ببعض خصومها فى الباستيل وتركتهم فيه سنوات[2] . وفى غضون ذلك راحت تدخر لغدها ، وزينت قصورها ، وأمرت بتشيد ضريح فخم لها تحت ميدان فاندوم .

وقد حملت فى نظر الشعب ، وفى البرلمان ، وفى القصر ، أكثر التبعة على هزائم فرنسا فى الحرب ، ولكنها لم تنل أى ثناء على إنتصاراتها ؛ فاعتبرت مسئولة عن الحلف البغيض مع النمسا ، وأن لم تكن سوى عامل صغير من عوامل ذلك التزاوج ، وأدينت بسبب الكارثة التى حاقت بالجيش فى روسباخ حيث قاد الفرنسيين رجلها سوبيز ، ولم يعرف نقادها — أو رأوه غير ذى صلة بالموضوع — أن سوبيز أشار بعدم خوض المعركة وأنه أكره عليها بتهور القائد الإلمانى . ولو أن الأمر كان بيد سوبيز ، ولو اتبعت خطته التى أشار بها — وهى تدويخ فردريك بالمسيرات وبهروب الجند من جيشه — ، ولو أن القيصرة اليزافيتا لم تمت فى هذا الظرف غير المواتى ولم تترك روسيا لفتى من عباد فردريك — لو أن هذا حدث فربما أنهارت مقاومة بروسيا ، ونالت فرنسا الأراضى الواطئة النمساوية ، وحملت بومبادور فوق بحر من الدماء لتهتف لها الأمة . ولكنها أخفقت فى استرضاء إله الصدفة العظيم .

وأبغضها البرلمــان لأنها شجعت الملك على أن يتجاهله ، وأبغضها الأكليروس لأنها صديقة لفولتير ولكتاب الموسوعة ، وقال كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، أنه « يتمنى أن يراها تحرق بالنار[٣] » . وحين عانت الجماهير الباريسية من غلاء الخبز صاحت « أن تلك البغى التى تحكم المملكة تجر عليها الخراب » . وارتفع صوت من الغوغاء فى اليون دلا تورنل يقول « لو وقعت فى أيدينا هنا لما تخلف منها ما يكفى لاحالتها إلى رفات[٤] » . ولم تجرؤ على الظهور فى شوارع باريس ، وكان الأعداء يحيطون بها فى فرساى . وكتبت للمركيزة دفونتناى تقول « أننى وحيدة تماما فى وسط هــذا الحشد من صغار النبلاء ، الذين يبغضوننى والذين احتقرهم . أما أكثر النساء فحديثهن يصيبنى بصداع أليم . فغرورهن ، وخيلاؤهن ، وسفالتهن ، وخياناتهن ، تجعلنى لا أطيقهن[٥] » .

فلما استطالت الحرب ، ورأت فرنسا كندا والهند تختطفان منها ، وضيق فرديناند البرنزويكى الخناق على الجيش الفرنسى ، وظهر الجنود العائدون ،

جرحى أو مشوهين ، فى شوارع باريس ، وضح للملك أنه ارتكب خطأ محزنا بالأصغاء لكاونتز وبومبادور ، وفى ١٧٦١ التمس العزاء فى أحضان خليلة جديدة هى الآنسة رومان ، التى ولدت له الولد الذى سيصبح الآبيه دبوربون . وأرجفت الشائعات أن بومبادور ثأرت لنفسها بقبول شوازيل عشيقا لها[٦] ، ولكنها كانت أضعف ، وشوازيل كان أذكى ، من أن يسمحا بهذا الغرام ؛ لقد أسامت لشوازيل قوتها لا حبها ، ولعلها فاهت الآن بهذه النبوءة اليائسة « بعدى الطوفان[٧] » .

كانت على الدوام واهنة الجسد ، بصقت الدم حتى فى شبابها ، ومع أننا لسنا واثقين من أنها كانت تشكو السل ، فأننا نعلم أن سعالهـا ازداد ازديادا مؤلما وهى تقترب من الأربعين ، واستحال الصوت المرنم الذى كان يوما ما يأسر قلب الملك وحاشيته صوتا مبحوحا متوترا . وأفزع هزالها إصدقائها . وفى فبراير ١٧٦٤ لزمت فراشها بحمى مرتفعة والتهاب دموى فى الرئتين . وفى إبريل ساءت حالتها حتى أنها إستدعت موثقاً لتكتب وصيتها الأخيرة . فتركت فيها هبات لأقربائها ، وأصدقائها ، وخدمها ، وأضافت « أن كنت قد نسيت أيا من أقربائى فى هـذه الوصية فأنى أرجو أخى أن يدبر معاشهم » . وأوصت للويس الخامس عشر بقصرها الباريسى ، الذى يشغله الآن رئيس جمهورية فرنسا باسم قصر الإليزيه . وكان الملك ينفق الساعات الكثيرة بجوار فراشها ، وندر أن ترك حجرتها فى أيامها الأخيرة ، وكتب الدوفين (ولى العهد) الذى كان عدوها دائماً إلى أسقف فردان يقول « إنها تموت بشجاعة يندر أن توجد بين الرجال أو النساء ورئتاها مملوءتان ماء أو صديدا ، وقلبها محتقن أو متضخم . إنه موت قاس مؤلم إلى حد لا يصدق[٨] » . وكانت — حتى لهذه المعركة الأخيرة ، ترتدى الثياب الفاخرة وتحمر خديها ابخافين . وظلت تملك حتى النهاية تقريباً . وأحاط أفراد الحاشية بأريكتها ، وراحت توزع الأنعامات ، وتعين الأشخاص فى المناصب الكبرى ، وكان الملك ينفذ الكثير من توصياتها .

وأخيرا سلمت بالهزيمة . فنى ١٤ أبريل تلقت شاكرة القربان الأخير

الذى حاول التخفيف من الموت بالرجاء . وحاولت الآن ، وهى التى ظلت طويلا صديقة للفلاسفة ، أن تستعيد أيمان طفولتها . فصلت كما يصلى الطفل :

« أستودع الله روحى ، متوسلة إليه أن يرحمها ، وأن يغفر لى آثامى ، وأن يمنحنى نعمة الندم عليها والموت جديرة بمراحمه ، راجية أن أرضى عدله ببهاء الدم الثمين ، دم يسوع المسيح مخلصى ، وبشفاعة العذراء مريم وجميع القديسين فى الفردويس[٩] » .

وهمست فى إذن القسيس الذى كان يبرح الحجرة وهى تعالج سكرات الموت : « إنتظر لحظة» سنبرح البيت معاً[١٠] . وماتت فى ١٥ أبريل ١٧٦٤ مختنقة باحتقان فى رئتيها ، وكانت فى عامها الثانى والأربعين .

وليس صحيحا أن لويس تقبل موتها فى غير مبالاة ، فهو أنما أخفى حزنه فقط[١١] قال الدوفين : « أن الملك فى كرب شديد وإن تمالك نفسه أمامنا وأمام جميع الناس[١٢] » . فى ١٧ أبريل ، حين حمل جثمان المرأة التى ظلت نصف حياته طوال عشرين عاماً ، من قصر فرساى فى يوم قارس البرد شديد المطر ، خرج إلى الشرفة ليطل عليها وهى تبرح القصر وقال لتابعه شامبلوست « ستلقى المركيزة جواً رديئاً جداً » ولم تكن هذه ملاحظة عابثة ، فقد روى شامبلوست أن فى عينى الملك دموعا تترقرق ، وأن لويس إضاف قائلا فى حزن « هذه هى التعزية الوحيدة التى أستطيع تقديمها لها[١٣] » . ودفنت بناء على رغبتها جنبا إلى جنب مـــع طفلتها الكسندرين ، وفى كنيسة الكبوشيين التى اختفت الآن — فى ميدان فاندوم .

واغتبط البلاط لتحرره من سلطانها ، أما الشعب الذى لم يحس بسحرها فقد لعن إسرافها الشديد ، ولم يلبث أن نسيها ؛ وأما الفنانون والكتاب الذين ساعدتهم فقد حزنوا لفقد صديقة منعمة متفهمة . على أن ديدرو كان قاسيا فى حديثه عنها إذ قال : « إذن ماذا بقى من هذه المرأة التى كلفتنا هذا الثمن الغالى فى المال والرجال ، وتركتنا دون شرف ولا همة ، وقلبت نظام أوربا السياسى بأسره ؟ حفنة من تراب » وأما فولتير فقد كتب من فرنيه يقول :

« يحزننى جداً موت مدام دبومبادور . كنت مدينا لها بالفضل ، وأنا ابكيها عرفانا بصنيعها . ويبدو من السخف أنه فى الوقت الذى يظل فيه على قيد الحياة كاتب عجوز لا يكاد يقوى على المشى ، تموت امرأة حسناء فى عنفوان مجدها وهى بعد فى الأربعين . ولو أنها استطاعت أن تعيش كما أعيش فى هدوء ، فربما كانت اليوم حية . . . لقد أوتيت إنصافا فى عقلها وقلبها . . . إنها نهاية حلم . . .»[١٤]

٢ — انتعاش فرنسا

لم تفق فرنسا عن حرب السنين السبع إفاقة كاملة حتى جاء نابليون . ذلك أن الضرائب الثقيلة كانت قد ثبطت الزراعة أيام لويس الرابع عشر ، وظلت تثبطها أيام لويس الخامس عشر ، فتركت آلاف الأفدنة التى كانت تزرع فى القرن السابع عشر بورا فى ١٧٦٠ وأخذت تتحول إلى برارى قاحلة .[١٥] واستنزفت الماشية والأغنام ، وشحت المخصبات ، وجفت التربة . وتشبث الفلاحون بطرق الفلاحة القديمة الرديئة ، لأن الضرائب كانت تزاد مع كل تحسين يزيد من ثروتهم . وافتقر كثير من الفلاحون إلى الدفء فى بيوتهم فى الشتاء إلا أن يلتمسوه من الماشية التى تسكن معهم . وأتلفت نوبات شاذة من الصقيع فى ١٧٦٠ و ١٧٦٧ المحاصيل والكروم خلال نموها . وكان محصول سيىء واحد كفيلا بأن يقرب قرية من المجاعة ، ومن الخوف من الذئاب الجائعة الرابضة حولها .

ومع ذلك بدأ الانتعاش الاقتصادى بمجرد توقيع الصلح . كانت الحكومة عاجزة فاسدة ، لكن إجراءات كثيرة اتخذت لاعانة الفلاحين . فوزع نظار الزراعة الملكيون البذار وشقوا الطرق ، ونشرت الجمعيات الزراعية المعلومات الزراعية ، وأقامت المسابقات ، ومنحت الجوائز[١٦] . واستجاب الكثير من السادة الاقطاعيين لحفز جماعة الفزيوقراطيين فاهتموا بتحسين وسائل الزراعة ومنتجاتها . وازداد عدد الملاك من الفلاحين . ففى عام ١٧٧٤ كان هناك ٦ ٪ فقط من السكان الفرنسيين يرزحون تحت نير القنية .[١٧] ولكن كل زيادة فى الانتاج كانت تجلب معها زيادة فى

السكان ، فالأرض غنية ، ولكن متوسط ملكية الفلاح صغير ، وهكذا ظل الفقر جاثما على الصدور .

ومن أصلاب الفلاحين جاء الفائض البشرى الذى زود الصناعات فى المدن النامية بالرجال . وكانت الصناعة باستثناءات قليلة لا تزال فى المرحلة البيتية واليدوية . وسيطرت منظمات رأسمالية واسعة النطاق على صناعة المعادن ، والتعدين ، وصناعة الصابون ، والمنسوجات . وكان بمرسيليا عام ١٧٦٠ خمسة وثلاثون مصنعا للصابون تستخدم ألف عامل . [١٨] وكانت ليون معتمدة فى رخائها على السوق المتنقلة لناتج أنوالها . وقد أدخلت آلات التمشيط الانجليزية حوالى عام ١٧٥٠ ، وحوالى عام ١٧٧٠ بدأ دولاب الغزل الذى يدير ثمانية وأربعون مغزلا فى وقت واحد يحل محل عجلة الغزل فى فرنسا . وكان الفرنسيون أسرع فى الاختراع منهم فى التطبيق ؛ فقد أعوزهم رأس المال الذى استطاعت انجلترة بفضل ثرائها من التجارة أن تستخدمه فى تمويل التحسينات الميكانيكية فى الصناعة . وكانت الآلة البخارية قد عرفت فى فرنسا منذ ١٦٨١ . [١٩] واستعملها جوزف كونيو عام ١٧٦٩ لتشغيل أول سيارة معروفة ؛ وبعد عام استعملت هذه السيارة لنقل الاحمال الثقيلة بسرعة أربعة أميال فى الساعة ، ولكن الآلة أفلتت زمامها فهدمت جدارا ، وكان يجب وقفها كل خمس عشرة دقيقة لتزويدها بالماء[٢٠] .

وكانت وسيلة النقل ، غير هذه الاستثناءات الغريبة ، هى الحصان ، أو عربة الجر ، أو عربة الركوب ، أو المركب ، وكانت الطرق والترع تفضل نظائرها فى انجلترة كثيرا ، ولكن الفنادق كانت أسوأ . وقد أسست خدمة بريدية منظمة عام ١٧٦٠ ؛ ولم تكن سرية تماما ، فقد أمر لويس الخامس عشر مديرى البريد بأن يفتحوا الخطابات ويبلغوا الحكومة بأى محتوى مريب فيها[٢١] . وتعطلت التجارة الداخلية من جراء المكوس ، والتجارة الخارجية نتيجة الحرب وضياع المستعمرات . وأفلست شركة الهند وحلت (١٧٧٠) . ولكن التجارة مع الدول الأوروبية زادت زيادة كبيرة

خلال القرن ، فارتفعت من ١٧٦ر٦٠٠ر٠٠٠ جنيه في ١٧١٦ إلى ٨٠٤ر٣٠٠ر٠٠٠ جنيه في ١٧٨٧ ، غير أن بعض هذه الزيادة لم يكن إلا انعكاسا للتضخم ، وازدهرت التجارة مع جزر الهند الغربية الفرنسية في السكر والعبيد .

وكان للتضخم التدريجي ، الراجع بعضه إلى تزييف العملة ، وبعضه إلى إنتاج العالم المتزايد من الذهب والفضة، أثر مشجع للمغامرة الصناعية والتجارية فكان رجل الأعمال يستطع عادة أن يتوقع بيع ناتجه بسعر أعلى مما أشترى به عرق العمال ومواد الصناعة . وهكذا تضخمت ثروات الطبقة الوسطى ، في حين بذلت الطبقات الدنيا ماوسعها من جهد لتقرب بين دخولها وبين الأسعار . على أن هذا التضخم الذي مكن الحكومة من غش دائنيها هبط بقيمة دخلها ، فارتفعت الضرائب بنزول قيمة الجنيه ، وأصبح الملك معتمداً على كبار الصيارفة أمثال إخوان باري ، لاسيما باري — دوفرنيه ، الذي أبهج بومبادور كثيراً بشعوذته المالية حتى استطاع خلال الحرب أن يرفع الوزراء والقواد ويخفضهم .

وكان أهم تطور اقتصادي في فرنسة القرن الثامن عشر انتقال معظم الثروة من ملاك الأرض إلى المسيطرين على الصناعة ، أو التجارة ، أو المال ، ولاحظ فولتير في ١٧٥٥ « نظراً إلى مغانم التجارة المتزايدة . . نقصت ثروة كبار القوم عن ذي قبل ، وزادت الثروة في الطبقة الوسطى . وأسفر هذا عن تقريب الفجوة بين الطبقات »[٢٢] واستطاع رجال أعمال مثل لا بوبلنيير أن يشيدوا قصوراً يحسدهم عليها الأشراف ، وأن يزينوا موائدهم بأعظم الشعراء والفلاسفة في المملكة ، وغدت البرجوازية راعية الآداب والفنون . وعزت الاستقراطية نفسها بالتشبث بامتيازاتها والظهور بمظهرها الرفيع . وأصرت على نبل المولد شرطاً للانخراط في وظائف ضباط الجيش أو الأساقفة ، وتباهت بشعارات نبالتها وأنسابها المتكاثرة ؛ وكافحت — عبثا في كثير من الأحيان — لتقصى أفراد الطبقة العامة الأكفاء أو النابهين عن الوظائف الإدارية العليا وعن البلاط . وطالب البورجوازي الغني بأن يفتح مجال الترقي للموهبة أياً كان نسب صاحبها ، فلما أغفل مطلبه راودته فكرة الثورة .

وإذا استثنينا من حرب الطبقات جانب الفلاحين ، فإن جميع الجوانب المشاركة فيها اتخذت لهـا شكلا مرئياً فى ضجيج باريس وفخامتها . فنصف ثروة فرنسا انسابت إلى عاصمتها ، ونصف فقر فرنسا تقيح فيها ،وقال روسو إن باريس« ربما كانت المدينة الوحيدة فى العالم التى تعظم فيها فوارق الثروات ، والتى يسكن فيها الثراء الصارخ والفقر المدقع جنباً إلى جنب » [٢٣] . وكان ستون من الفقراء المعانين جزءا من الحرس الرسمى المرافق لجثمان ابن الدوفين البكر فى ١٧٦١ [٢٤] . وحوالى عام ١٧٧٠ كانت باريس تحوى ٦٠٠,٠٠٠ نفس من بين سكان فرنسا البالغين ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ [٢٥] . وتؤوى أكثر أهل أوربا نشاطا ، وأوسعهم إطلاعاً ، وأشدهم فجوراً . وفيها أفضل الشوارع رصفاً ، وأفخم الطرق المشجرة والمتنزهات ، وأزحم حركات المرور ، وأجمل الحوانيت ، وأفخر القصور ، وأظلم الأكواخ ، وطائفة من أبدع الكنائس فى العالم . وقد تعجب منها جولدونى الذى وفد عليها من البندقية فى ١٧٦٢ فقال فى وصفها :

« يالها من حشود ! وأى تجمع للناس من جميع الأوصاف ! .. وأى منظر مدهش استرعى حواسى وذهنى وأنا أدنو من التويلرى ! رأيت اتساع رقعة تلك الحديقة الهائلة ، التى لا نظير لها فى الدنيا ، والتى لم تستطع عيناى أن تقيسا طولها . . ثم نهراً جليلا ، وكبارى عديدة مريحة ، وأرصفة شاسعة ، وحشوداً من العربات ، وزحاماً من الناس لا آخر له » [٢٦] .

وكانت مئات المتاجر تغرى الأغنياء والمفلسين ، ومئات الباعة يسرحون ببضائعهم فى الشوارع ، ومئات المطاعم (وقد ظهرت الكلمة **restaurants** أول ماظهرت فى ١٧٦٥) تعد بتعويض الجياع restore عن جوعهم ، ومئات التجار يجمعون التحف القديمة أو يزيفونها أو يبيعونها ، ومئات الحلاقين يقصون ويبدرون الشعور أو الباروكات حتى لطبقة الحرفيين . وفى الأزقة الضيقة كان الفنانون والحرفيون ينتجون الصور ، والأثاث ، والثياب ، والحلى المبهرجة لأثرياء القوم . وهنا كانت عشرات المطابع تطبع الكتب ، متعرضة أحياناً لخطر شديد ، وفى ١٧٧٤ قدرت تجارة الكتب فى باريس بمبلغ

٤٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو أربعة أمثال تجارة لندن فيها .[٢٧] قال جاريك : « إن لندن تصلح للإنجليز ، أما باريس فتصلح لكل إنسان »[٢٨] وقال فولتير : فى ١٧٦٨ « لدينا أكثر من ثلاثين ألف شخص فى باريس يهتمون بالفن » .[٢٩] هناك كانت عاصمة العالم الثقافية دون منازع .

٣ — الفزيوقراطيون

فى شقة بفرساى تحت مسكن مدام دبومبادور وعينها الراعية ، تكونت تلك النظرية الاقتصادية التى قدر لها أن تحرك الثورة وتصوغها ، وتشكل رأسمالية القرن التاسع عشر .

وكان الاقتصاد الفرنسى يكافح منذ زمن طويل ليشب عن الطرق برغم ما قيد به من أقمطة اللوائح والنظم — التى وضعتها طوائف الحرفيين وكولبير ، ومن خرافة كخرافة الملك ميداس ، خرافة « المركنتلية » التى خالت الذهب هو الثروة . فسعيا إلى زيادة الصادرات ، والتقليل من الواردات وأخذ « الفرق الذى فى صالح الدولة فضة وذهباً لدعم القوة السياسية والحربية ، كانت فرنسا وانجلترة قد أخضعتا اقتصاديهما القوميين لشرك من القواعد والقيود أعانت على التنظيم الاقتصادى ولكنها عطلت الانتاج بتعطيلها الابتكار والمغامرة والمنافسة . كل هذا — كما قال رجال مثل جورنيه وكزنيه ، وميرابو الأب ، ودوبون دنمور ، وطورجو — مناقض كل المناقضة للطبيعة ، فالانسان بطبيعته محب للاقتناء ، والتنافس ، فاذا حررت طبيعته من الاغلال التى لاداعى لها أدهش العالم بمقدار ما ينتج ، وتنوعه ، وجودته . يقول الفزيوقراطيين « إذن فلنترك الطبيعة (وهى بالاغريقية Physis) تحكم (Kratein) ولنترك الناس يخترعون ، ويصنعون ، ويتجرون وفق غرائزهم الطبيعية » ، أو كما قال جورنيه فيما روى « اتركهم يفعلون Laissez faire ما يرونه هم أصوب ما يكون» . وكانت هذه العبارة قديمة فعلا ، فحوالى عام ١٦٦٤ ، حين سأل كولبير رجل الأعمال الجاندر « ما الذى يجب أن نفعله نحن (أى الحكومة) لمساعدتك ؟ أجابه « Nous laisserfaire » اتركونا نفعله . . . اتركونا وشأننا .[٣٠]

وكان صوت جان — كلود فانسان دجورنيه أول صوت واضح للفزيوقيراطيين فى فرنسا . ولاشك فى أنه كان يعلم بالاحتجاجات التى قدمها بواجلبير وفوبان للويس الرابع عشر على القيود الخانقة التى فرضت على الزراعة فى ظل النظام الاقطاعى . وقد أعجب بكتاب السرجوسيا تشايلد « ملاحظات موجزة عن التجارة والفائدة » (١٦٦٨) إعجاباً حمله على ترجمته إلى الفرنسية (١٧٥٤) ، وأغلب الظن أنه قرأ كتاب رتشرد كانتلون « مقال عن طبيعة التجارة » (حوالى ١٧٣٤) فى طبعته الفرنسية (١٧٥٥) . ويؤرخ البعض من هذا الكتاب مولد الاقتصاد بوصفه « علما » — أى تحليلا منطقيا لمصادر الثروة ، وانتاجها ، وتوزيعها . قال كانتلون « أن الأرض هى المصدر أو المادة التى تؤخذ منها الثروة ، ولكن الجهد البشرى هو الشكل الذى ينتج الثروة » ، ولم يعرف الثروة بأنها الذهب أو النقود ، بل « صيانة الحياة ، ووسائل الراحة وأسبابها »[٣١] وكان هذا التعريف فى حد ذاته ثورة فى النظرية الاقتصادية .

وكان جورنيه تاجرا ميسورا يعمل أول الأمر (١٧٢٩ — ١٧٤٤) فى قادس . وبعد أن اشتغل بمعاملات تجارية واسعة النطاق فى انجلترة ، وألمانيا ، والأقاليم المتحدة ، استقر فى باريس ، وعين « ناظرا للتجارة » (١٧٥١) . وفى رحلاته التفتيشية فى أرجاء فرنسا لاحظ بشخصه القيود التى فرضتها اللوائح النقابية والحكومية على المشروعات الحرة والتبادل الاقتصادى ، ولم يخلف لنا صيغة مكتوبة لأرائه ، ولكن لخصها بعد موته (١٧٥٦) تلميذه طورجو . وقد حث على التخفيف من النظم واللوائح الاقتصادية القائمة ، أن لم يكن الغائها . فكل إنسان يعرف خيراً مما تعرف الحكومة الإجراء الذى يلائم عمله خير ملائمة ، فأذا كان حراً فى السعى إلى مصلحته إزداد إنتاج السلع ونمت الثروة[٣٢] .

« هناك قوانين فريدة أزلية ، مؤسسة على الطبيعة وحدها ، بمقتضاها توازن جميع القيم الموجودة فى التجارة بعضها بعضا وتثبت نفسها عند سعر مقرر ، تماماً كما تنظم الأجسام المتروكة لثقلها نفسها وفق وزنها النوعى[٣٣] » .

أى أن القيم والأسعار تحددها العلاقات بين العرض والطلب ، وهى علاقات تحددها بدورها طبيعة الإنسان . وخلص جورنيه إلى أن الدولة يجب إلا تتدخل فى الاقتصاد إلا لتحمى الحياة ، والحرية ، والملكية ، ولتشجع الإنتاج كما وكيفا باسباب التشريف والمكافآت . وقد قبل مسيو ترودين رئيس مجلس التجارة هذه المبادىء ، وخلع عليها طورجو قوة بلاغته وإستقامته المعترف بها .

أما فرانسوا كزنيه فقد أتبع خطاً فزيوقراطيا مختلفا إختلافا طفيفا . فهو لم ينس قط إهتمامه بالأرض لأنه مالك للأرض ، ولو أنه أعد ليكون طبيبا ، وقد جمع لنفسه ثروة بحذقه فى الطب والجراحة ، وارتقى حتى أصبح طبيبا لمدام دبومبادور وللملك (١٧٤٩) . وقد جمع فى مسكنه بفرساى لفيفا من الزنادقة — دوكلو ، وديدرو ، وبوفون ، وهلفتيوس ، وطورجو . . . هناك كانوا يناقشون كل شىء فى غير تحرج إلا شخص الملك ، الذى كانوا يحلمون بأن يجعلوا منه « حاكما مطلقا مستنيرا » يكون إداة للأصلاح السلمى ، وشعر كزنيه الغارق إلى إذنيه فى عصر العقل ، أن قد آن أوان إستخدام العقل فى الاقتصاد . ومع أنه كان دجماطيقياً شديد الإعتداد بنفسه فى كتبه ، فأنه كان فى شخصه إنسانا رقيقا يتميز بالنزاهة فى محيط لا يقيم الأخلاق وزنا .

وفى ١٧٥٠ ألتقى بجورنيه ، وسرعان ما فاق أهتمامه بالاقتصاد أهتمامه بالطب . وقد شارك بمقالات فى موسوعة ديدرو تحت أسماء مستورة بعناية . وقد عزا فى مقاله « المزارع » هجر الزراع لهـا إلى الضرائب المرتفعة والتجنيد الأجبارى . ولاحظ مقاله « الغلال » (١٧٥٧) أن المزارع الصغيرة تعجز عن الأفادة من أكثر الوسائل إنتاجا ، وحبذ المزارع الكبيرة التى يديرها « المقاولون » — وهذا سبق للشركات الزراعية العملاقة فى عصرنا . وقال إن على الحكومة أن تحسن الطرق ، والأنهار ، والقنوات ، وأن تلغى كل المكوس على النقل ، وتحرر حاصلات الزراعة من جميع قيود التجارة .

وفى عام ١٧٥٨ نشر كزنيه « جدولا اقتصاديا » أصبح البيان الرسمى الأساسى للفزيوقراطيين . ومع أنه طبع فى المطبعة الحكومية بقصر فرساى بأشراف الملك ، فأنه إدان الترف بأعتباره استعمالا مبدداً للثروة كان يمكن إستخدامه فى إنتاج مزيد من الثروة . وقد قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : « طبقة منتجة من الزراع ، والمعدنيين ، وصيادى الأسماك ؛ وطبقة قابلة للتوجيه (disponiles) من الأشخاص الذين يستخدمون فى الوظائف العسكرية أو الإدارية ، وطبقة غير مثمرة Classe stérile من مهرة الصناع الذين يحولون حاصلات الأرض إلى أشياء نافعة ، والتجار الذين يوصلون الحاصلات إلى المستهلك . وإذ كانت الضرائب المفروضة على الطبقة الثانية أو الثالثة تقع فى النهاية (فى رأى كزنيه) على ملاك الأرض ، كانت أكثر الضرائب تمشيا مع العلم وانسبها هى ضريبة واحدة (impot unique) تفرض على صافى الربح السنوى لكل قطعة من الأرض . ويجب أن تجمع الضرائب مباشرة بواسطة الدولة ، ولا تجمع أبدا بواسطة الماليين من الأهالى (الملتزمون العموميون) ، ويجب أن تكون الحكومة ملكية مطلقة وراثية .

وتبدو مقترحات كزنيه اليوم وقد أفسدها الغض من قدر العمل ، والصناعة ، والتجارة ، والفن ، ولكن بعض معاصرية رأوا فيها الهاما منيرا. وفى رأى أكثر أتباعه حيوية وهو فكتور ريكيتى ، مركيز دميرابو ، أن « الجدول الاقتصادى » نافس الكتابة والنقود فى كونه من أجل ابتكارات التاريخ . وقد اجتاز هذا المركيز عصر فولتير من أوله لآخره بالضبط ، لأنه ولد فى ١٧١٥ ومات فى ١٧٨٩ . ورث ثروة طيبة ، وعاش عيشة الأمراء ، وكتب كما يكتب الديموقراطيون ، وعنون أول كتاب له « صديق الناس » ، أو مقال فى السكان (١٧٥٦) وإستحق بذلك الأسم الذى اتخذه « صديق الإنسانية » . وبعد أن نشر رائعته تأثر بكزنيه ، فراجع بناء على ذلك كتابه وزاده ، إلى بحث من ستة مجلدات طبع أربعين طبعة وشارك فى إعداد فكر فرنسا لثورة ١٧٨٩ .

ولم يقلق تكاثر البشر المركيز كما سيقلق مالتوس فى ١٧٩٨ . فقد آمن بأن الأمة تعظم بكثرة سكانها ، وأن هذا يسيره « توالد الناس كما تتوالد الفيران فى جرن إذا توفرت لها أسباب الحياة[٣٤] وهو ما زلنا نراه إلى الآن. وخلص إلى وجوب تشجيع منتجى الطعام بكل الوسائل . وذهب إلى أن التفرقة فى توزيع الثروة تثبط إنتاج الطعام ، لأن ضياع الأغنياء تشغل الأرض التى كان فى الأمكان أن تصبح مزارع خصبة . وقالت مقدمة ميرابو للملك أن الفلاحين :

« هم أكثر الطبقات إنتاجا ، الذين لا يرون من تحتهم غير مرضعتهم ومرضعتك ـــ الأرض الأم ، والذين يرزحون إبدا تحت ثقل أشق الأعمال والذين يباركونك كل يوم ، ولا يسألونك شيئا غير السلام والحماية . وبفضل عرقهم ، بل ودمهم ذاته (وهو ما لا تعرفه !) تشبع مطامع ذلك الحشد من البشر غير النافعين الذين لا يفتأون يقولون لك أن عظمة الملك فى قيمة وعدد . . . النعم التى يقسمها على إفراد حاشيته . لقد رأيت مساعد جاب الضرائب يقطع يد امرأة فقيرة تشبثت بقدرها لتمنع إستيلاءه عليها وفــاء للدين ، وكانت آخر ما فى بيتها من آنية . فماذا كنت تقول فى هــذا أيها الملك العظيم[٣٥] ؟

وقد هاجم المركيز الثائر فى كتابه « نظرية الضرائب » (١٧٦١) الملتزمين العمومين بجباية الضرائب لأنهم طفيليون يغتالون أقوات الأمة ؛ وحرض الماليون الغاضبون لويس الخامس عشر على أن يحبسه فى الشاتو دفانسين (١٦ ديسمبر ١٧٦٠) ولكن كزنيه أقنــع مدام دبومبادور بأن تتشفع له ، وأطلق لويس سراح المركيز (٢٥ ديسمبر) ولكنه أمره بأن يلزم ضيعته فى لوبنيون . وأحال ميرابو الضرورة إلى فضيلة ، فدرس الزراعة دراسة عملية مباشرة . وفى ١٧٦٣ أصدر كتاب « الفلسفة الريفية » الذى قيل فيه إنه « أشمل بحث فى الاقتصاد قبل آدم سميث[٣٦] » ، ووصفه جريم بأنه « الأسفار الموسوية للمذهب الفزيوقراطى[٣٧] » . وبلغت جملة مؤلفات

هذا المركيز ، الذى كان نسيج وحده ، أربعين كتابا حتى عام وفاته — وذلك رغم المتاعب التى سببها له أبنه الذى زجه فى السجن حين أعيته الحيل عسى أن يكون فى ذلك سلامة لكليهما . وكان كابنه ذاك عنيفا فاسقا ، تزوج للمال ، وأتهم امرأته بالزنا ، وتركها تعود إلى أبويها ، واتخذ له خليلة : وقد ندد بأوامر الاعتقال الملكية باعتبارها ضربا من الظلم لا يطاق ، وبعد ذلك حمل الوزارة على أن تصدر خمسين أمراً منها تعينه على تأديب أسرته[٣٨] .

وليس من اليسير علينا أن ندرك اليـــوم ذلك الهيجان الذى أثارته مطبوعات الفزيوقراطيين ، والحماسة التى اصطبغت بها حملاتهم . وتطلع تلاميذ كزنيه إليه كأنه سقراط الاقتصاد : وعرضوا عليه كتاباتهم قبل طبعها ، وفى كثير من الحالات كان يشارك فى كتبهم . وفى ١٧٦٧ إصدر لومرسييه دلا ريفيير ، الذى حكم المارتنيك فترة ، كتابا عده آدم سمث أوضح شرح للمذهب وأفضله ترابطا[٣٩] وأسمه « النظام الطبيعى الأساسى للمجتمعات السياسية » يقول فيه أن فى العلاقات الاقتصاديه قوانين تقابل تلك التى وجدها نيوتن فى الكون ، والعلل الاقتصادية منشؤها أغفال تلك القوانين أو أنتهاكها :

« أتريدون لمجتمع ما أن يبلغ الغاية فى الثراء ، والسكان ، والقوة ؟ أتركوا مصالحه إذن للحرية ، وليكن هذا قانونا عاماً . فبفضل هذه الحرية (التى هى العنصر الأساسى للصناعة) وبفضل الرغبه فى التمتع — التى تحفزها المنافسه وتنيرها الخبرة والقدرة — تضمنون أن يسعى كل إنسان على الدوام لاقصى مصلحة مستطاعة له ، ومن ثم يسهم بكل ما فى مصلحته الخاصة من قدرة فى الخير العام، سواء للحاكم ولكل فرد فى المجتمع[٤٠] » .

وقد لخص بير — صموئيل ديون هذه الدعوة فى كتابه « الفزيوقراطية» (١٧٦٨) الذى خلع على المذهب أسمه التاريخى . كذلك نشر ديون النظرية فى دوريتين كان نفوذهما محسوسا من السويد إلى توسكانيا . وقد عمل مفتشا

عاماً للصناعات تحت رآسة طورجو ، وسقط بسقوطه (١٧٧٦) . وعاون على المفاوضة مع إنجلترة على عقد المعاهدة التي أعترفت بأستقلال إمريكا (١٧٨٣) . وإنتخب عضوا بمجلس الأعيان (١٧٨٧) والجمعية التأسيسية (١٧٨٩) . وتمييزا له في هذه الجمعية عن عضو آخر يدعى ديون ، سمى ديون دنمور ، نسبة للمدينة التي مثلها . وقد عارض اليعاقبة فتعرض للخطر حين تقلدوا زمام الأمور ، وفى ١٧٩٩ نفى نفسه إلى إمريكا ، ثم عاد إلى فرنسا عام ١٨٠٢ ، ولكن فى ١٨١٥ اختار الولايات المتحدة وطنا نهائيا له ، وهناك أسس أسرة من أشهر الأسر الأمريكية .

وبدا فى ظاهر الأمر أن مذهب الفزيوقراطيين يناصر الاقطاع ، لأن السادة الاقطاعيين كانوا إلى ذلك الحين يملكون أويتقاضون الرسوم الاقطاعية من ثلث أرض فرنسا على الأقل . ولكنهم — وهم الذين لم يكونوا يدفعون أى ضرائب تقريبا قبل ١٧٥٦ — هالتهم فكرة تحميل ملاك الأرض جميع الضرائب ، كذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا إلغاء المكوس الاقطاعية على نقل البضائع داخل أملاكهم . أما الطبقات الوسطى ، التي كانت تتوق إلى تشريعات جديدة ، فقد ساءها زعم الفزيوقراطيين أنها شطر عقيم غير منتج من الأمة ومع أن جماعة الفلاسفة كانوا فى الغالب يوافقون الفزيوقراطيين على الاعتماد على الملك أداة للاصلاح إلا أنهم لم يستطيعوا موافقتهم على مصالحة الكنيسة[٤١] . وقد ذهب ديفد هيوم ؛ الذى زار كزنية فى ١٧٦٣ ، إلى أن الفريوقراطيين أكثر ما يوجد اليوم من الجماعات تعلقاً بالأوهام وخيلاء منذ تدمير الصوريون . وسخر منهم فولتير (١٧٦٨) فى قصيدته اللاذعة المسماه « الرجل ذو الأربعين أيكوه »[٤١] . وفى ١٧٧٠ أصدر فرديناند وجاليانى ، وهو ايطالى من المترددين على « مجمع » الملحدين الذين كان يجمعهم دولباخ فى بيته كتابا اسمه « حوار حول تجارة الغلال » ترجمه ديدرو إلى الفرنسية فى السنة نفسها . وقال فولتير ان أفلاطون وموليير لابد قد شاركا فى كتابة هذا المؤلف فى الاقتصاد الذى كان « علما يقبض الصدر » . وقد هزأ جاليانى بخفة روح باريسية بزعم الفزيوقراطيين أن الأرض وحدها مصدر الثروة . وقال أن تحرير تجارة الغلال عن جميع

اللوائح والنظم معناه خراب بيوت مزارعى فرنسا ، وقد يجر إلى المجاعة فى أرض الوطن فى الوقت الذى يصدر فيه التجار الأذكياء الغلال إلى الدول الأخرى . وهذا ما حدث بالضبط فى ١٧٦٨ و١٧٧٥ .

ويروى أن لويس الخامس عشر سأل كزنيه ماذا يصنع إن كان ملكاً فأجاب « لاشيء » . « فمن يحكم إذن » ؟ « القوانين » — وكان الفزيوقراطى يقصد بذلك « القوانين » الملازمة لطبيعة الانسان والتى تتحكم فى العرض والطلب ووافق الملك على أن يجربها . ففى ١٧ سبتمبر ١٧٥٤ الغت وزارته جميع المكوس والقيود المفروضة على بيع الغلال — القمح ، والجاودار ، والذرة — ونقلها داخل المملكة . وفى ١٧٦٤ شملت هذه الحرية تصدير الغلال إلا إذا بلغت ثمنا مقررا . وهبط سعر الخبز حينا نتيجة تركه لعملية العرض والطلب ، ولكن محصولا رديئا فى ١٧٦٥ رفع سعره فوق السعر العادى بكثير جدا . وبلغ نقص الغلال مرحلة المجاعة فى ١٧٦٨ — ٦٩ ، فكان الفلاحون ينبشون عن الطعام فى زرائب الخنازير ، ويأكلون العشب والحشيش . وفى أبرشية تعد ٢٫٨٠٠ نسمة راح ٢٫٢٠٠ يستجدون الخبز . وشكا أفراد الشعب من أن المضاربين يصدرون الغلال بينما هم يواجهون المجاعة . واتهم الناقدون الحكومة بأنها تتكسب من عمليات هؤلاء المحتكرين فى « ميثاق المجاعة » وامتد رنين هذه النقمة المرة التى تعزف على ميثاق المجاعة . هــذا الذى وقع عام ١٧٦١ ، خلال السنوات التالية ليتهم — حتى لويس السادس عشر الرحيم بالكسب من غلاء الخبز . وكان بعض الموظفين مذنبين فيما يبدو ، أما لويس الخامس عشر فلم يذنب . فلقد كلف بعض التجار بشراء الغلال فى السنين الطيبة ، وخزنها ، ثم عرضها فى السوق فى السنين العجاف ، ولكن حين بيعت هذه الغلال ارتفعت أسعارها ارتفاعا أعجز فقراء الشعب عن الشراء . واتخذت الحكومة تدابير متأخرة لعلاج الحالة ، فاستوردت القمح ووزعته على أفقر الأقاليم . وطالب الشعب برد هيمنة الدولة على تجارة الغلال ، وشارك البرلمان فى هــذه المطالبة . فى هذه الأزمة نشر فولتير قصيدته المسماة الإنسان ذو الأربعين

ايكو . وأذعنت الحكومة ، وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٧٠ ألغيت المراسيم التى أباحت حرية الاتجار فى الغلال .

على أن أفكار الفزيوقراطيين شقت طريقها رغم هذه النكسة ، سواء فى فرنسا أو خارجها . وكان مرسوماً قد صدر فى ١٧٥٨ وقرر حرية التجارة فى الصوف ومنتجاته . وزار آدم سمث كزنية فى ١٧٦٥ ، وراعه منسه « تواضعه وبساطته » ورسخ ميله إلى الحرية الاقتصادية . وكان رأيه « أن أكبر غلطة لهذا النظام . . . فى اعتباره طبقة الصناع ، ورجال الصناعة والتجارة طبقة عقيمة غير منتجة على الاطلاق » ، ولكنه خلص إلى « أن النظام ، بكل ما فيه من عيوب ، ربما كان أقرب ما نشر إلى الآن من الحقيقة حول موضوع الاقتصاد السياسى »[٤٥] . وقد انسجمت أفكار الفزيوقراطيين مع رغبة انجلترا — التى أصبحت الآن أعظم الأمم المصدرة فى خفض رسوم التصدير والاستيراد . ووجد هذا المذهب القائل بأن الثروة تنمو نموا أسرع فى ظل التحرر من القيود الحكومية على الإنتاج والتوزيع ، آذانا صاغية فى السويد تحت حكم شارل الثالث . وكان حب جفرسون للحكومة التى تمارس أقل قدر من الحكم ، من بعض النواحى ، صدى للمبادىء الفزيوقراطية . وقد أقر هنرى جورج بتأثير الفزيوقراطيين على دعوته لضريبة واحدة تفرض على العقار . واستهوت فلسفة حرية المشاريع والتجارة طبقة رجال الأعمال الأمريكيين ، وأعطت دفعة جديدة للتطور السريع الذى حظيت به الصناعة والثروة فى الولايات المتحدة . وفى فرنسا أتاح الفزيوقراطيون أساسا نظريا لتحرير الطبقات بالوسطى من العقبات الإقطاعية والقانونية التى عرقلة التجارة الداخلية والتقدم السياسى ، وقبل أن يموت كزنيه (١٦ ديسمبر ١٧٧٤) كان عزاء له أن يرى أحــد أصدقائه بعين مراقباً للمالية ولو أفسح له فى الأجل خمسة عشر عاما أخر لشهد انتصار الكثير من الأفكار الفزيوقراطية فى الثورة الفرنسية .

٤ — ظهور طورجو ١٧٢٧ — ٧٤

أكان طورجو فزيوقراطيا ؟ إن خلفيته الفنية المنوعة تمنع كل تخصيص يلصق به ، فلقد ولد فى أسرة عريقة « من أصل طيب une bonne race كما قال لويس الخامس عشر — شغل أفرادها المناصب الهامة أجيالا عديدة بكل كفاية . وكان أبوه مستشارا للدولة وسر تجار باريس ، وهو أرفع منصب إدارى فى باريس ، وأخوه الأكبر امينا للالتماسات والمطالب فى برلمان باريس وعضوا بارزا فيه . وكانت النية توجيه طورجو (آن روبير — جاك) ، وهو الابن الأصغر إلى وظيفة القسوسية .

واجتاز بتفوق جميع الامتحانات فى كلية لوى — لجران ، وفى مدرسة سان — سولبيس اللاهوتية ؛ وفى الصوربون ، وأصبح « الأبيه دبروكور » وهو بعد فى التاسعة عشرة . وتعلم قراءة اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، والأسبانية ، والإيطالية ، والألمانية ، والانجليزية ، والكلام بثلاثة من هذه اللغات على الأقل بطلاقة . وفى ١٧٤٩ انتخب رئيسا للصوربون ، وبوصفه هذا ألقى محاضرات أثارت اثنتان منها ضجه خارج نطاق اللاهوت .

ففى يوليو ١٧٥٠ ألقى محاضرة على الصوربون باللاتينية فى « الفوائد التى أفاد بها توطيد المسيحية الجنس البشرى » ، وقال إنها أنقذت العالم القديم من سلطان الخرافة ، وصانت الكثير من الآداب والفنون والعلوم ، وقدمت للبشر المفهوم المحرر لقانون العدالة يسمو فوق كل ألوان التعصب والأنانية البشرية . « أفيستطيع الإنسان أن يطمع فى هذا من أى مصدر آخر غير الدين ؟ . . . إن الدين المسيحى دون غيره . . . . . هو الذى أخرج إلى النور حقوق الإنسان . »[٤٧] وفى هذه التقوى تسمع صدى الفلسفة ؛ وواضح أن الرئيس الشاب كان قد قرأ مونتسكيو وفولتير ، وتأثر لاهوته بعض الشىء بما قرأ .

وفى ديسمبر ١٧٥٠ ألقى محاضرة فى الصوربون عنوانها « جدول فلسفى بالتقدم المطرد للعقل البشرى » . وكان هذا التعبير عن ديانة التقدم الجديدة

انجازا رائعا من فتى فى الثالثة والعشرين . وقد سبق كونت — وربما حذا حذو فيكو — فقسم تاريخ العقل البشرى إلى ثلاث مراحل : مرحلة لاهوتية ، وأخرى ميتافيزيقية ، وثالثة علمية . قال : —

« قبل أن يفهم الناس العلاقة العلية بين الظواهر الطبيعية ، كان طبيعيا جداً أن يفترضوا أنها صادرة عن كائنات عاقلة ، غير مرئية ، شبيهة بهم . . . . فلما أدرك الفلاسفة سخف هذه الخرافات عن الأرباب دون أن يكتسبوا بعد بصراً بالتاريخ الطبيعى ، حاولوا تفسير أسباب الظواهر بعبارات تجريدية مثل الجواهر والقوى . ولم توضع الفروض — التى أمكن تطويرها بالرياضيات واثباتها بالتجربة ؛ بملاحظة التفاعل الميكانيكى المتبادل للاجسام — إلا فى فترة متأخرة »(٤٨) .

وقال الشاب الألمعى إن الحيوانات لا تعرف التقدم ، فهى تظل كما هى جيلا بعد جيل ، أما الإنسان فبفضل تعلمه تجميع المعرفة وتوصيلها يستطيع تحسين الأدوات التى يستخدمها فى التعامل مع بيئتـــه وفى اثراء حياته . مادام هذا التجميع والتوصيل للمعرفة والتكنولوجيا مستمراً فلامندوحة عن التقدم وأن عطلته أحياناً الكوارث الطبيعية أو تقلبات الدول . وليس التقدم متماثلا ، ولا هو عام ، فبعض الأمم يتقدم وبعضها يتقهقر ، وقد يركد الفن فى حين يتحرك العلم قدما ، ولكن الحركة فى جملتها حركة إلى الأمام . وفضلا عن هذه الآراء ، تنبأ طورجو بالثورة الأمريكية فقال « أن المستعمرات أشبه بالفاكهة التى تتشبث بالشجرة إلى أن تنضج ، وحين تغدو مستكفية بذاتها تفعل ما فعلته قرطاجة ، وما ستفعله أمريكا يوما ما (٤٩) » .

وقد خطط طورجو لكتابة تاريخ للحضارة وهو بعد فى الصوربون مستوحيا فى ذاك فكرة التقدم . ولم يبق من مشروعه هذا سوى مذكرات خطها لبعض فصول الكتاب ، ومنها يتبين أنه قصد أن يضمنه تاريخ اللغة ، والدين ، والعلم ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، كما يضمنه قيام الدول وسقوطها (٥٠) » . فلما ورث عن أبيه دخلا كافيا قرر أواخر عام ١٧٥٠ أن يترك الوظيفة الكنسيه والح عليه زميل من الآباء الدينيين فى

البقاء وأعدا اياه بالترقى السريع ، ولكن طورجو أجاب على ما روى دبون دنمو « لاأستطيع أن أفرض على نفس لبس قناع طوال حياتى[٥١] » .

ولم يكن قد رسم إلا لوظيفة كهنوتية صغيرة ، للذلك كان حرا فى الاشتغال بالسياسة . وفى يناير ١٧٥٢ أصبح نائبا عاما مناوبا ، وفى ديسمبر أصبح مستشارا فى البرلمان ، وفى ١٧٥٣ اشترى منصب « أمين الالتماسات والمطالب » ، الذى اشتهر فيه بالاجتهاد والعدل . وفى ١٧٥٥ — ٥٦ رافق جورنيه فى جولات تفتيشية فى الأقاليم ، وتعلم الاقتصاد الآن بالاتصال المباشر مع الزراع والتجار ، والصناع ، وعن طريق جورينه التقى بكزنيه وعن طريق كزنيه التقى بميرابو الأب ، ودبون دنمور ، وآدم سمث . ولم ينخرط قط فى زمرة المدرسة الفزيوقراطية ، ولكن ماله وقلمه كانا أهم سند لمجلة دبون المساماة التقاويم .

وفى غضون هذا (١٧٥١) استطاع بفضل ذكائه وسلوكه المهذب أن يلقى الترحيب فى صالونات مدام جوفران ومدام دجرافينه ، ومدام دوديفان والآنسة دلسبيناس . وهناك التقى بدالامبير ، وهلفتيوس ، ودولباخ ، وجريم ، ومن بين الثمرات المبكرة لهذه الاتصالات كتاب (١٧٥٣) من رسالتين « فى التسامح » . وكتب لموسوعة ديدرو مقالات فى الوجود ، والاشتقاق اللغوى ، والمهرجانات ، والأسواق ، ولكن حين أدانت الحكومة مشروع الموسوعة كف عن موافاتها بمقالاته . وخلال جولاته فى سويسره وفرنسا زار فولتير (١٧٦٠) وبدأ صداقة معه دامت حتى وفاة فولتير . وكتب حكيم فرنيه إلى دالامبير يقول : (قل أن رأيت طوال حياتى رجلا ألطف منه أو أوسع إطلاعا[٥٢]) . وأدعى جماعة الفلاسفة أنه واحـــد منهم ، وراودهم الأمل فى أن يؤثروا على الملك عن طريقه .

وفى ١٧٦٦ كتب لطالبين صينيين على وشك العودة إلى الصين مجملاً للاقتصاد من مائة صفحة عنوانه « تأملات فى نشوء الثروة وتوزيعها » . فلما نشر فى مجلة « التقاويم » (١٧٦٩ — ٧٠) أشاد به الناس شرحاً من أكثر

شروح النظرية الفزيوقراطية إحكاماً وقوة . قال طورجو أن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وكل الطبقات فيما عدا زراع الأرض يعيشون على الفائض الذى ينتجه الزراع فضلا عن حاجاتهم ، وهذا الفائض يؤلف « صندوق أجور » تدفع منه أجور طبقة مهرة الصناع . ثم يسوق صيغة مبكرة لما أصبح فيما بعد يطلق عليه « قانون الأجور الحديدى » يقول :

إن أجر العامل يحدده مستوى معيشته بالمنافسة بين العمال . والعامل المجرد الذى لا يملك غير ذراعيه وجده ، لا يملك شيئاً إلا بقدر مايوفق فى بيع كده لغيره ، وصاحب العمل ينقده أقل مايستطيع من أجر ، وبما أنه يستطيع الاختيار من بين العديد من العمال ، فإنه يفضل أقلهم أجراً . ومن ثم يضطر العمال إلى خفض سعرهم فى المنافسة فيما بينهم ، وفى كل أنواع العمل لا بد أن يحدث هذا ، وهو يحدث فعلا . وهو أن أجر العامل يحدده ماهو ضرورى لإعاشته »[٥٣] .

ويسترسل طورجو مؤكداً أهمية رأس المال . فلا بد أن يوفر شخص ما ، بمدخراته ، أدوات الإنتاج ومواده قبل أن يتسنى له استخدام العامل ، ولا بد له من إعاشة العامل قبل أن يرد بيع الناتج له رأسماله . وإذا لم يكن هناك ضمان على الإطلاق لنجاح مشروع ما ، فيجب السماح بربح ليوازن خطر فقد رأس المال . « فحركة رأس المال هذه انطلاقاً ورجوعاً هى قوام دورة النقود ، تلك الدورة النافعة المثمرة التى تشيع الحياة فى جميع جهود المجتمع ، والتى شبهت بكل حق بدورة الدم فى الجسم الحيوانى »[٥٤] . ويجب عدم التدخل فى هذه الدورة ، وأن يسمح للأرباح والفائدة ، كما يسمح للأجور ، بأن تصل إلى مستواها الطبيعى حسب العرض والطلب . ويجب أن يعفى من الضرائب أصحاب رؤوس الأموال ، وأرباب المصانع ، والتجار ، والعمال ، فلا تفرض إلا على ملاك الأرض الذين سيستردون مادفعوه بتقاضى ثمن أغلى لمحاصيلهم . وينبغى ألا يفرض أى رسم على نقل أو بيع أى سلعة من سلع الاستهلاك .

فى هذه « التأملات » أرسى طورجو الأساس النظرى لرأسمالية القرن التاسع عشر قبل التنظيم الفعال للعمل . فهذا الرجل الذى كان من أرحم وأنبل

رجال زمانه لم يستطع أن يتطلع إلى مستقبل للعمال أفضل من أجور الكفاف . ومع ذلك أصبح هذا الرجل خادماً للشعب متفانياً فى عمله. فى أغسطس ١٧٦١ عين ناظراً ملكياً لمديرية ليموج ، وهى من أفقر أقاليم فرنسا ، وقد قدر أن ٤٨ ٪ إلى ٥٠ ٪ من دخل الأرض فيها يضيع ضرائب للدولة وعشوراً للكنيسة . وكان فى فلاحى الإقليم كآبة وفى نبلائه فظاظة . كتب إلى فولتير يقول : « من سوء حظى أن أكون ناظراً ملكياً . وأقول من سوء حظى لأن السعادة فى هذا الزمان الممتلىء بالتناحر واللوم لا تتوافر إلا فى حياة الفلسفة بين الكتب والأصدقاء » . ورد عليه فولتير قائلا : « ستكسب أهل ليموج وجيوبهم ؛ وفى اعتقادى أن الناظر الملكى هو الشخص الوحيد الذى يمكنه إفادة الناس . ألا يستطيع إصلاح الطرق ، وزرع الحقول ، وتصريف المستنقعات ، وتشجيع الصناعات ؟ » .

وقد فعل طورجو هذا كله . فكافح بهمة طوال ثلاثة عشر عاماً ، اكتسب فيها محبة الشعب وكراهية النبلاء . فالتمس مراراً ، ودون جدوى ، من مجلس الدولة أن يخفض معدل الضريبة ، وحسن توزيع الضرائب ، ورفع المظالم ، ونظم خدمة موظفى الحكومة ، وحرر تجارة الغلال ، وشق ٤٥٠ ميلا من الطرق ؛ وكانت هذه الطرق جزءاً من برنامج إنشاء الطرق الذى ينتظم البلاد كلها (والذى بدأته الحكومة الفرنسية فى ١٧٣٢) والذى ندين له بالفضل فى هذه الطرق الجميلة ذات الأشجار الوارفة الظلال التى تنتشر اليوم فى ربوع فرنسا . وكانت الطرق قبل طورجو تشق بالسخرة ، فألغى السخرة فى ليموج ، ودفع أجر العمال من ضريبة عامة على الكافة . وأقنع الفلاحين بأن يزرعوا البطاطس غذاء للإنسان لا للحيوان فقط . وقد ظفر بإعجاب الناس جميعاً لما اتخذ من تدابير فعاله لإغاثة الشعب فى فترات المجاعة التى امتدت بين سنتى ١٧٦٨ و ١٧٧٢ .

وفى ٢٠ يوليو ١٧٧٤ دعاه الملك الجديد للانضمام إلى الحكومة المركزية واغتبطت فرنسا كلها وتطلعت إليه منقذاً مرجواً للدولة المتداعية .

٥ — الشيوعيون

بينما كان الفزيوقراطيون يرسون الأساس النظرى للرأسمالية، كان موريللى ومابلى، ولانجيه، يشرحون الاشتراكية والشيوعية. فقد عزت الطبقات المتعلمة نفسها بمتع هذه الأرض بعد أن تخلت عن آمالها فى السماء: فتجاهل الأغنياء منهم المحظورات الدينية، وأطلقوا العنان لرغباتهم فى الثروة والقوة والنساء والخمر والفن؛ ووجد العامة عزاء فى عالم مثالى تقسم فيه خيرات الأرض بالقسط بين البسطاء والموهوبين، وبين الضعفاء والأقوياء.

ولم تقم فى القرن الثامن عشر حركة اشتراكية، ولا جماعة محددة مثل جماعة المسوين فى انجلترة كرومويل، أو يسوعى براجواى الشيوعيين. واقتصر الأمر على أفراد متفرقين أضافوا أصواتهم إلى صيحة متصاعدة ستصبح فى «جراكوس» بابوف عاملا فى الثورة الفرنسية. ونذكر القراء بأن الكاهن الشكوكى جان ميزلييه طالب فى كتابه «الميثاق» الذى أصدره عام ١٧٣٣ بمجتمع شيوعى يقسم فيـــه الناتج القومى بالتساوى بين الناس ويتزاوج فيه الرجال والنساء وينفصلون كما يشاءون، ثم ألمع إلى أنه مما يعين فى هذا الباب أن يقتل بعض الملوك. (٥٥) وبعد سبعة أعوام من طبع هذه الدعوة ندد روسو فى «مقاله» الثانى (١٧٥٥) بالملكية الخاصة لأنها أس جميع شرور الحضارة، ولكنه حتى فى صيحته تلك أنكر أى برنامج اشتراكى. وما وافى عام ١٧٦٢ حتى كان ابطال كتبه أفرادا ينعمون بالثروة.

وفى نفس العام الذى صدر فيه كتاب روسو «مقـــال فى أصل عدم المساواة» ظهر كتاب عنوانه «ناموس الطبيعة لراديكالى مغمور لانكاد نعرف عنه شيئاً غير أسمه الأخير، إذا استثنينا كتبه، وهو موريللى Morelly؛ ولا نخلط بينه وبين أندريه موريلليه Morellet الذى التقينا به مشاركاً فى تحرير الموسوعة. وقد بدأ موريللى بإيقاظ الأفهام بكتابه «رسالة فى فضائل ملك عظيم» (١٧٥١) الذى صور ملكا شيوعياً. وفى ١٧٥٣ أضفى على حلمه الشاعرية بقصيدته «غرق الجزر الطافية، أو الملحمة الملكية.» وهنا نرى الملك الطيب، ربما بعد أن قرأ الكاتب مقال روسو الأول، يعود بشعبه

إلى حياة بسيطة فطريه . وكان خير عرض للمثال الشيوعي وأكمله كتاب موريللي « ناموس الطبيعة » (١٧٥٥ — ٦٠) وقد نسبه الكثيرون إلى ديدرو ، وصرح المركيز دارجانسون بأنه يفوق كتاب مونتسكو « روح الشرائع » (١٧٤٨) . وقد ذهب موريللي ، كما ذهب روسو ، إلى أن الإنسان خير بطبعه وإلى أن غرائزه الاجتماعية تحمله على السلوك الطيب ، وأن القوانين أفسدته بتقرير الملكية الخاصة وحمايتها . وامتدح المسيحية لميلها إلى الشيوعية ، وأسف لأن الكنيسة أقرت الملكية ، فإقامة الملكية الخاصة أورثت البشر « الغرور ، والحمق ، والكبرياء ، والجشع ، واللؤم ، والنفاق ، والشر .. وكل شيء شرير ينتهي إلى هذا العنصر الخفي المؤذي ، وأعني به شهوة التملك [٥٦] » . ثم ينتهي السفسطائيون إلى أن طبيعة البشر تجعل الشيوعية ضربا من المحال ، في حين إن الذي حدث في التتابع الواقعي للأحداث هو أن انتهاك الشيوعية هو الذي أفسد الفضائل الفطرية للإنسان . ولولا الجشع والأنانية ، والمزاحمات ، والأحقاد التي ولدتها الملكية الخاصه لعاش الناس معا في إخوة مسالمة متعاونة .

ولا بد للبدء في إعادة البناء من إزالة العوائق من طريق التعايش الحر في الأخلاق والسياسه « فتعطى كامل الحرية للعقلاء من الناس في مهاجمة الأخطاء والأهواء التي تدعم نزعة التملك » وينبغي أن يؤخذ الأطفال من آبائهم وهم في السادسة وينشأوا تنشئة مشتركة بواسطة الدولة حتى يبلغوا السادسة عشرة ، وعندها يعادون إلى ذويهم بعد أن تكون المدارس قد دربتهم على التفكير بلغة الصالح العام لا التملك الشخصي . وينبغي ألا يسمح بالملكية الخاصة إلا في أخص خصائص الحاجات الشخصية « فتجمع كل النواتج في مخازن عامة لتوزع على كل المواطنين لسد حاجات الحياة » [٥٧] . ويجب أن يعمل كل قادر على العمل ، فيساعد في المزارع من الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين . ويجب ألا يكون هناك طبقة عاطلة ، ولكن لكل فرد الحرية في أن يعتزل في الأربعين على أن تدير الدولة رعايته في شيخوخته . وتنقسم الأمة إلى مدن حدائق لها مركز للبيع والشراء وميدان عام . ويحكم

كل جماعة مجلس من الآباء الذين تزيد أعمارهم على الخمسين ، وتنتخب هذه المجالس مجلس شيوخ أعلى يحكمها كلها وينسق فيما بينها .

ولعل موريللى بخس قدر النزعة الفرديه الفطرية فى البشر ، وقوة غريزة الاقتناء ، ومقاومة التعطش للحرية وللاستبداد اللازم للابقاء على حاله من مساواة غير طبيعية ومع ذلك كان تأثيره كبيراً . فصرح بابيف بأنه تشرب شيوعيته من كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » والا رجح أن شارل فوربيه استمد من نفس المصدر خطة المستعمرات التعاونيه (الكتائبية phalansteries) (١٨٠٨) التى أفضت بدورها إلى تجارب شيوعية من أمثال مزرعة بروك (١٨٤١) . وفى « ناموس » موريللى نلتقى بذلك المبدأ الشهير الذى انحدر ليلهم الثورة الروسية وينكبها ، ونعنى به « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجاته » .(٥٨)

أما جماعة الفلاسفة فقد رفضوا بوجه عام نظام موريللى باعتباره غير عملى ، وقبلوا الملكية الخاصة نتيجة لا مناص منها للطبيعة البشرية . ولكن فى ١٧٦٣ وجد موريللى حليفاً قوياً فى سيمون — هنرى لانجيه . وهو محام هاجم القانون والملكية جميعاً . فبعد أن شطب اسم لانجيه من جدول المحامين نشر (١٧٧٧ — ٩٢) « حوليات سياسية » وهى مجلة اطلق فيها وابلا من النيران على الشرور الاجتماعية . فالقانون فى رأيه قد أصبح أداة لتحليل وصيانة المقتنيات التى كسبت أصلا بالقهر أو الغش :

« إن القوانين يقصد بها أولا تأمين الملكية . وبما أنه يمكن الآن أن يؤخذ من الغنى أكثر مما يؤخذ من الفقير ، فمن الواضح أنها ضمان يعطى الأغنياء ضد الفقراء . وقد يعسر علينا أن نصدق — وإن كان هذا يمكن بيانه بجلاء — أن القوانين من بعض نواحيها مؤامرة على الكثرة العظمى من البشر (٥٩).

ويترتب على ذلك أن حربا طبقية لا مندوحة عنها تستعر بين أصحاب الملكية أو رأس المال ، وبين العمال الذين لا بد لهم من بيع كدهم لأرباب العمل

الملاك ، منافسين فى ذلك بعضهم بعضا ، وقد احتقر لابجيه دعاوى الفزيوقراطين بأن تحرير الاقتصاد من سيطرة الدولة سيجلب الرخاء تلقائياً ، لأنه على النقيض من ذلك يعجل بتركز الثروة ، فترتفع الأسعار ، وتتخلف الأجور . وسيطرة الأغنياء على الأسعار من شأنها الإبقاء على عبودية الأجير حتى بعد « إلغاء » الرق قانوناً ، « فكل ما جنوه (أى العبيد السابقون) هو العذاب الدائم من خوف الموت جوعا ، وهو خطب أعفى منه على الأقل أسلافهم ممن ترددوا فى هذا الدرك الأسفل للانسانية » (٦٠) . فقد كان العبيد يسكنون ويطعمون على مدار السنة ، أما فى الاقتصاد غير المقيد فإن رب العمل حر فى أن يقذف بالعمال فى مهاوى التسول إذا لم يستطع جنى الربح من ورائهم ، ثم يجعل التسول جريمة . وفى رأى لابجيه أنه لا دواء لهذا كله الا الثورة الشيوعية . على أنه لم يوصى بها جيله ، لأنها ستفضى على الأرجح إلى الفوضى لا إلى العدالة ، ولكنه أحس بأن الأحوال المواتيه لثورة كهذا آخذه فى التشكل السريع ، يقول :

« لم يحدث قط إن كان الفقر أعم ولا أشد فتكا بالطبقة التى تبلى به ، ولعل أوربا لم تكن فى يوم من الأيام أقرب منها اليوم إلى الانقلاب التام وسط هذا الرخاء الظاهر ... ولقد بلغنا بالضبط ، بطريق عكسى تماماً ، تلك النقطة التى بلغتها إيطاليا حين اغرقتها حرب العبيد (التى قادها سبارتاكوس) فى حمام من الدم ، وحملت النار والتقتيل إلى أبواب عاصمة الدنيـــا ذاتها » . (٦٠)

وقد نشبت الثورة وهو حى بعد رغم نصيحته وقذفت به إلى الحلوتين (١٧٩٤) .

وأما الأبيه جابرييل بونو دمابلى نو فقد احتفظ برأسه لأنه مات قبل الثورة بأربع سنوات وكان سليل أسرة كريمة فى جرينوبل ، وأخذ أخوته جان بونو دمابلى الذى عاش روسو معه فى ١٧٤٠ ، والآخر كونديلاك الذى أثار ضجة بأبحاثه السيكولوجية . ثم قريب مشهور آخر هو الكردينال دتنسان ، حاول أن يجعل من جابريل قسيسا ، ولكنه لم يجاوز مراتب الكهانة الصغرى ،

واختلف إلى صالون مدام تنسان فى باريس ، ثم استسلم لإغراء الفلسفة . وفى ١٧٤٨ تشاجر مع الكردينال ، وانصرف إلى الدرس فى خلوته ، وبعدها كانت أهم أحداث حياته هى كتبه ، وكلها ذاع صيته فى الماضى .

وقد أفاد من الأعوام السبعة التى قضاها فى باريس ولمرساى علماً بالسياسة ، والعلاقات الدولية ، والطبيعه البشرية . وأسفر هذا كله عن مزيج فذ جمع بين التطلعات الاشتراكية والشكوك المتشائمة . وقد أصر مايلى على أن المعايير الخلقية التى تطبق على الأفراد يجب أن تطبق على سياسة الدول (وهو عكس ما قال به مكيافللى) ، ولكنه أدرك أن هذا يتطلب نظاماً من القانون الدولى يمكن فرضه . وكان كفولتير وموريللى موحدا بغير مسيحية ، ولكنه آمن بأنه لا سبيل إلى صيانة الفضيلة إلا بديانة قوامها العقاب والثواب فوق الطبيعيين ، لأن أكثر الناس « قضى عليهم بطفولة العقل الدائمة »[٦٢] . وقد آثر اخلاقيات الرواقيين على أخلاقيات المسيح ، والجمهوريات الإغريقية على الملكيات الحديثة . واتفق مع موريللى على أن رزائل البشر مبعثها الملكية لا الطبيعة ، فهى « أس جميع البلايا التى نكب بها المجتمع[٦٣] » . وقد تربعت شهوة الغنى على عرش متضخم فى قلب الإنسان ، فخنقت كل ما فيه من حب العدل والانصاف[٦٤] » ، وكلما ازدادت التفرقه بين حظوظ البشر تأججت هــذه الشهوة . فالحسد ، والطمع ، والفوارق الطبقية ، تسمم ما فى طبيعة البشر من مودة فطرية . فيستكثر الأغنياء من أسباب الترف والبذخ ، ويتردى الفقراء فى مهاوى الذل والهوان . فأى خير فى الحرية السياسية مادامت العبودية الاقتصادية قائمة ؟ « ان الحرية التى يحسب كل أوربى أنه يستمتع بها ليست سوى حريته فى أن يترك عبوديته لسيد ويسلم نفسه إلى سيد آخر[٦٥] » .

وكم يكون البشر اسعد وأهنأ إذا اختفت الفاظ « هذا ملكى » « وذلك ملكك » . وزعم مايلى أن الهنود الحمر كانوا أهنأ بالا فى ظــل شيوعية اليسوعيين فى برجواى من فرنسيي جيله ، وأن السويديين والسويسريين فى ذلك الجيل ، الذين تخلوا عن الجرى وراء المجد والثراء قانعين برخاء معتدل ، هم أسعد حالا من الإنجليز الذين يغزون المستعمرات والتجارة . وذهب إلى

أن الأخلاق فى السويد تحظى بمقام أعظم من الشهرة ، وأن القناعة أثمن فى نظار القوم من الثراء الطائل(٦٦) . أن الذين يملكون الحرية الحقيقية هم أولئك الذين لا تهفو نفوسهم للغنى . ولن تتوافر السعادة فى مجتمع كذلك الذى يدعو إليه الفزيوقراطيون ، لأن الناس ستثير هم على الدوام الرغبة فى أن يتساووا فى مقتنياتهم مع من يفوقونهم ثراء .

وهكذا خلص مابلى إلى أن الشيوعية هى النظام الاجتماعى الوحيد الذى يدعم الفضيلة والسعادة . « أقيموا اشتراكية السلع ، وعندها لن يكون أيسر من إقرار المساواة بين أحوال العيش ، وارساء رفاهية الإنسان على هذا الأساس المزدوج . » (٦٧)ولكن كيف السبيل إلى إقامة شيوعية كهذه والناس على مثل هذا الفساد ؟ هنا يرفع الشكوكى فى مابلى رأسه ، ويسلم فى قنوط بأنه ليس فى قدرة أى قوة بشرية اليوم أن تعيد إقرار المساواة دون أن تحدث من ضروب الخلل والاضطراب ما يفوق تلك التى تحاول تفاديها(٦٨) » . فالديمقراطية رائعة نظريا ، أما عمليا فهى تفشل بسبب جهل الجماهير وحبها للاقتناء(٦٩) . وقصارى ما نستطيعه هو أن نعرض الشيوعية مثلا أعلى ينبغى أن تسعى إليه الحضارة شيئاً فشيئا فى حذر ، وتغير ببطء عادات الإنسان الحديث من التنافس إلى التعاون . ويجب ألا يكون هدفنا الأستكثار من الثروة ، ولا حتى الأستكثار من السعادة ، بل إنماء الفضيلة ، فالفضيلة وحدها هى مجلبة السعادة . وأول خطوة فى سبيل الحصول على حكومة أفضل هى دعوة مجلس طبقات الأمة ، الذى ينبغى أن يضع دستورا يخول السلطة العليا لجمعية تشريعية (وهذا ما تم . فى ١٧٨٩ - ٩١) . وينبغى تحديد مساحة الأطيان التى يتملكها الفرد ، وتقسيم الضياع الواسعة للاستكثار من ملكية الفلاحين للأرض ، ووضع القيود الصارمة على إرث الثروة ، وإلغاء « الفنون عديمة الجدوى » كالتصوير والنحت .

وقد تبنت الثورة الفرنسية كثيراً من هذه المقترحات . ونشرت مجموعة أعمال مابلى فى ١٧٨٩ ، ثم فى ١٧٩٢ ، ثم فى ١٧٩٣ ، ورتب كتاب نشر عقب الثورة هلفتيوس ، ومابلى ، وروسو ، وفولتير ، وفرانكلن ، بهذا الترتيب ، بوصفهم أكبر ملهمى ذلك الحدث ، وقديسى الدين الجديد الحقيقيين(٧٠) .

٦ — الملك

أما لويس الخامس عشر فقد أبتسم سخرية من هؤلاء الشيوعيين — على قدر علمه بهم — لأنهم قوم حالمون لا وزن لهم ، وراح يتنقل فى ود من فراش إلى فراش . وأما البلاط فواصل قماره المستهتر وزهوه المسرف ، من ذلك أن أمير سوبيز أنفق ٢٠٠,٠٠٠ جنيه على توفير أسباب اللهو للملك فى يوم واحد ، وكان كل إنتقال لجلالته إلى أحد مقاره الريفيه يكلف دافعى الضرائب ١٠٠,٠٠٠ جنيه . وكان خمسون من كبار القوم يملكون « أوتيلات » أى قصوراً فى فرساى أو باريس ؛ وكان عشرة آلاف خادم يبذلون العرق فى كبرياء وفخر لتلبية حاجات النبلاء ؛ والأحبار ، والخليلات ، والأسرة المالكة واشباع غرورهم . وكان للويس نفسه ثلاثة آلاف جواد و ٢١٧ مركبة ، و ١٥٠ غلام يرتدون حللا من المخمل والذهب ، وثلاثون طبيبا يقصدونه وينظفون أمعاءه ويسممونه . وقد أنفق البيت المالك فى سنة واحدة (سنة ١٧٥١) ٦٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو ما يقرب من ربع إيراد الحكومة(٧١) وشكا الشعب ولكن أكثر شكاوا هم كانت غفلا من التوقيع ، وفى كل عام كشفت عشرات النشرات والملصقات ، وأغانى الهجو ، عن كراهية الملك . وقد جاء فى أحد الكتيبات « إذا كنت يا لويس مرة موضع حبنا فما ذلك إلا لأن رذائلك كانت لا تزال مجهولة لنا . وفى هذه المملكة ، التى نضبت من أهلها بسببك ، وأسلمت نهبا « للمشعوذين الذين يحكمون معك ، إن بقى فرنسيون ، فانما يبقون ليكرهوك(٧٢) » .

فكيف انقلب لويس المحبوب ملكا محتقراً مهانا ؟ أننا لو صرفنا النظر عن إسرافه ، وإهماله ، وفواحشه ، لم نجده فى ذاته بالسوء الذى صوره به التاريخ الحقود . كان فى بنيته رجلا وسيما ، طويلا ، قويا ، قادرا على الصيد طوال المساء واللهو مع النساء فى الليل . أفسده معلموه ، فأفهمه فيلرو أن فرنسا كلها ملكه بالوراثة والحق الألهى . وقد خفف من كبرياء الملكية وشوشها الظل الذى خلفه لويس الرابع عشر وتقاليده ، إذ ألح على الملك الحدث إلحاح الهاجس ، وأورثه الجبن ، إحساسه بالعجز عن الأرتفاع

إلى ذلك المستوى الجليل من الفخامة وقوة الارادة ؛ فأصبح عاجزا عن البت فى الأمور ، وترك مهمة إتخاذ القرارات لوزرائه مغتبطا . وأتاحت له قراءاته وهو غلام ، وذاكرته القوية ، بعض الإلمام بالتاريخ ، واكتسب مع الوقت معرفة لا يستهان بها بالشئون الأوربية ؛ واحتفظ سنوات كثيرة بمراسلاته الدبلوماسية السرية . كان ذكيا فى تراخ وفتور ، يحكم حكما شديدا ولا رحمة فيه على أخلاق من أحاط به من الرجال والنساء ؛ فى وسعه أن يجارى خير العقول فى بلاطه حديثا ونكته ، ولكن يبدو أنه قبل حتى أسخف العقائد اللاهوتية التى تبثها فيه فلورى وهو صبى . وبات الدين عنده أشبه بالحمى المتقطعة إذ راح يتذبذب بين التقوى والفجور . فكان يعانى من خوف الموت والجحيم ، ولكنه يقامر على غفران خطاياه وهو فى النزع الأخير . وقد أوقف اضطهاد الجانسنيين ، وإذ نستحضر تاريخ تلك الحقبة نتبين أن جماعة الفلاسفة استمتعوا فى حكمه بين الحين والحين بقدر كبير من التسامح .

كان يقسو أحيانا ، ولكنه فى الأكثر رحيم . تعلمت بومبادور ودوربارى أن تحباه من أجل شخصه كما أحبتاه من أجل السلطة التى منحهما أياها . وكانت برودة عاطفته وتحفظه جزءا من حيائه وانعدام ثقته بنفسه ، ولكن وراء ذلك التحفظ عناصر من الحنان والرقة أعرب عنها خاصة فى محبته لبناته ، وقد أحببنه أباً منحهن كل شىء إلا القدوة الحسنة . وكان فى سلوكه عموما تلطف وكياسة ولكنه كان قاسى الفؤاد احينا ؛ ويتكلم فى هدؤ مفرط على امراض إفراد حاشيته أو موتهم الوشيك . وقد نسى تماما أن يسلك مسلك الرجل المهذب وهو يقيل فجأة دارجانسون ، وموريا ، وشوازيل ؛ ولكن هذا أيضاً ربما كان نتيجة عدم ثقته بنفسه . فقد شق عليه أن يقول لا لإنسان فى وجهه . ومع ذلك كان قادرا على أن يواجه الخطر بشجاعة كما كان يفعل فى الصيد أو فى فونتنوا .

وكان على ظهوره بمظهر الوقار أمام الناس لطيفا حلو العشرة بين أخصائه ، يعد لهم القهوة بيديه الكريمتين . وقد راعى قواعد السلوك المعقدة التى أرساها لويس الرابع عشر للملكية ولكنه أنكر الشكلية التى فرضتها

على حياته . وكثيراً ما كان يستيقظ قبل تقليد « الاستيقاظ » المقرر رسميا ويوقد ناره بنفسه لكيلا يوقظ خدمه ، ويغلب عليه أن يلبث فى فراشه حتى الحادية عشرة . أما فى الليل ، فإنه بعد أن يحتفل رسميا بذهابه إلى فراشه، قد يتسلل ليلهو بمحظيته أو حتى ليتفقد مدينة فرساى متنكرا وكان يلوذ بالصيد من مراسم البلاط المتكلفة ، وفى الأيام التى لا يهرب فيها للصيد كانت بطانته تقول « أن الملك لا يعمل اليوم شيئاً[٧٣] » . وكان يعرف عن كلاب صيده أكثر مما يعرف عن وزرائه ؛ إذ رأى أن فى قدرة وزرائه أن يعنوا بشئون الدولة خيراً منه ، فلما نبه إلى أن فرنسا فى طريقها إلى الأفلاس والثورة ؛ عزى نفسه بهذه الفكرة « ستسير الأمور على هذه الوتيرة حتى ينتهى أجلى » .

أما من الناحية الجنسية فقد كان وحشا فاسقاً . ولقد تغتفر له إتخاذه المحظية التى إتخذها حين ضاقت الملكة ذرعا بفحولته ، وقد نفهم افتتانه بپومپادور ؛ وحساسيته لجمال المرأة وظرفها وحيويتها المشرقة ، ولكن قل فى تاريخ الملوك ما أشبه حقارة تنقله بين الفتيات اللاتى إعددن لفراشه فى البارك أوسير واحدة تلو أخرى . وكان مجىء دوبارى بالقياس إلى هذا رجوعا إلى الحالة السوية .

٧ — دوبارى

بدأت حياتها فى قرية من قرى شمبانيا تدعى فوكولير حوالى ١٧٤٣ باسم مارى — جان بيكى . أبنة الآنسة آن بيكى ، التى يبدو أنها لم تمط اللثام قط عن شخصية أبى الفتاه . ومثل هذه الخفايا كانت مألوفة بين الطبقات الدنيا . وفى ١٧٤٨ أنتقلت آن إلى باريس وأصبحت طاهية للمسيو دومونسيه الذى رتب إلحاق جان ، وهى فى السابعة ، تلميذة داخلية بدير سانت —آن للراهبات . هناك مكثت الفتاة الجميلة تسع سنوات ، يلوح أنها لم تعوزها فيها السعادة ؛ وقد احتفظت بذكريات حلوة عن هذا الدير المنظم . وتلقت فيه تعليما فى القراءة والكتابة والتطريز ، واحتفظت طوال حياتها بتدين بسيط لا يتشكك ، وباجلال للراهبات والقساوسة ، وكان إيواؤها للقساوسة المطاردين فى الثورة من العوامل التى أفضت بها إلى الجيلوتين[٧٥] :

فلما خرجت من مدرسة الدير إتخذت إسم صديق أمها الجديد ، المسيورانسون ، لقباً لها وأرسلت إلى حلاق لتتعلم فنه ، ولكن هذا الفن أشتمل على الإغواء ، وجان - الجميلة جمالا لا يقاوم - لم تعرف كيف تقاوم . ونقلتها أمها وصيفة لمدام دلاجارد ، ولكن ضيوف هذه السيدة غالوا فى الأهتمام بجان ، فما لبثت أن طردت . واجتذب دكان القبعات الذى التحقت به بائعة عددا غير عادى من الزبائن الذكور . فاصبحت خليلة اختص بها سلسلة من الفجرة . وفى ١٧٦٣ تلقاها جان دوبارى ؛ وهو مقامر كان يجلب النساء للفاسقين من النبلاء . وخدمت هذا القواد - متخذة اسم جان دفوبرنية الأنيق - خمس سنوات مضيفة فى حفلاته ، وأضافت شيئاً من التهذيب والصقل لمفاتنها . ثم رأى دويارى أنه هو أيضاً ، كمدام بواسون ، قد أكتشف « طبقاً شهياً للملك » .

وبيان ذلك أن الملك الطيب ستانسلاس مات عام ١٧٦٦ فى اللورين فأصبح بذلك اقليما من أقاليم فرنسا . وانهارت صحة ابنته مارى (ملكة فرنسا التقية المتواضعة) انهيارا سريعا بعد موته لأن حبهما المتبادل كان سندا لها فى حياة العبودية الطويلة التى عاشتها مع زوج خائن العهود الزوجية ، فى بيئة غريبة . وفى ٢٤ يونيو ١٧٦٨ لفظت أنفاسها الأخيرة فبكاها الجميع حتى الملك . وقد علل بناته بالأمل فى أنه لن يتخذ المزيد من الخليلات . ولكن فى شهر يوليو رأى جان التى كانت سائرة بالصدفة على غير هدى فى قصر فرساى فى براءة كبراءة لايومبادور وهى راكبة فى أرض الصيد « سينار » قبل أربع وعشرين سنة .

وراعه فيها جمالها الشهوانى ومرحها وطبعها اللعوب . فهاهنا امرأة تستطيع أن توفر له اللهو من جديد وتدفىء قلبه البارد الحزين ، فأرسل إليها تابعه لبيل . ولم يتردد (الكونت) دوبارى فى التفريط فيها لقاء مقابل ملكى . ورغبة فى تهدئة المظاهر أصر لويس على أن تتزوج الفتاة . فزوجها الكونت بسرعة لأخيه جيوم ، الكونت دوبارى الحقيقى ، المفتقر بعد أن استقدمه لهذا الغرض من لفنياك بغسفونية . وحيته تحية الوداع

عقب حفل الزفاف مباشرة (أول سبتمبر ١٧٦٨) ، ولم تقع عليه عيناها بعد ذلك قط . وكوفىء جيوم بمعاش قدره ٥٫٠٠٠ جنيه ، فاتخذ له خليلة واصطحبها إلى لفنياك حيث عاشرها خمسة وعشرين عاما ، ثم تزوجها حين علم أن زوجته أعدمت بالجلوتين .

ولحقت جان ، التى اتخذت الآن اسم الكونتس دوبارى ، بالملك سرا فى كومبيين ، ثم علانية فى فونتنبلو . وسأل الدوق ريشليو لويس ماذا يرى فى هذه اللعبة الجديدة ، فأجاب جلالته «لا أكثر من أنها تنسينى انى سأبلغ الستين بعد قليل.[٧٦] » وريعت بطانته . فقد كان فى استطاعتهم أن يفهموا فى غير غباء حاجة الملك إلى خليلة ، أما أن يأخذ امرأة عرفها العديدون منهم مومسا ، ثم يرفعها إلى مقام يعلو على المركيزات والدوقات !! وكان شوازيل قد منى نفسه بأن يقدم أخته للملك (خليلة تحمل لقبا) ، فراحت هذه النبيلة المرفوضة تحرض أخاها — الذى كان الحذر من طبعه — على العداء الصريح لهذه الدعية الجميلة ، ولم تغتفر له دوبارى فعلته قط .

وسرعان ما تقلبت الخليلة الجديدة فى الذهب والجواهر . وخلع عليها الملك معاشـــا قدره ١٣٠٫٠٠٠ فرنك بالاضافة إلى راتب سنوى قدره ١٥٠٫٠٠٠ فرنك ، تفرض على مدينة باريس وولاية برحندية . وهرع الجواهريون إلى تزويدها بالخواتم والعقود والأساور والتيجان وغيرها من أسباب الزينة المتألقة التى اقتضوا الملك ثمنا لها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك فى أربع سنوات . وبلغت جملة ما تكلفته الخزانة فى تلك السنوات الأربع ٦٫٣٧٥٫٠٠٠ جنيها[٧٧] . وسمع أهل باريس بجمالها المتألق ، وحزنوا لأن بومبادور جديدة اقبلت لتبتلع ضرائبهم .

وفى ٢٢ ابريل ١٧٦٩ قدمت رسميا فى البلاط ، وطلعت على أفراده فى شعلة متوهجة من الحلى والجواهر وهى تتكىء على ذراع ريشليو . وأعجب الرجال بمفاتنها ، أما النساء فاستقبلنها بما جرؤن عليه من فتور . واحتملت هذه الاهانات فى هدوء ، وأرضت بعض الحاشية بتواضع سلوكها والضحك الرخيم الذى كانت تشرح به صدر الملك . ولم تبد أى ضغينة حتى لأعدائها (باستثناء شوازيل) ؛ واكتسبت الرضى باستمالة

جلالته لاصدار قرارات عفوا أكثر مما كان يصدر من قبل . وشيئاً فشيئاً جمعت حولها رجالا ونساء من النبلاء الذين تشفعوا بها عند الملك. وقد حرصت على رعاية أقاربها كما فعلت بومبادور من قبل ، فاشترت أملاكا ولقبا لأمها ، وحصلت على معاشات لخالتها وأبناء خالتها ، ثم دفعت ديون جان دوبارى ، وخلفت عليه مالا كثيرا ، واشترت له فيلا أنيقة فى لبل — جوردان . وظفرت لنفسها من الملك بالشاتو لوفسيين الذى كان أمير لامبال وأميرتها يشغلانه ، على حافة الحديقة الملكية فى مارلى ، واستخدمت أعظم معمارى الجيل ، جاك — انج جابرييل ، ليعيد بناء القصر على هواها ، وصانع الأثاث المدقق بيير جوتيير ليزخرفه بأثاث وتحف فنيه بلغ ثمنها ٧٥٦٫٠٠٠ جنيه .

وكانت تعوزها خلفية التعليم والاختلاط التى جعلت من بومبادور راعية مختارة ذواقة للأدب والفلسفة والفن . بيد أنها جمعت عددا كبيرا من الكتب الأنيقة التجليد ، من هومر إلى كتب الفحش ، ومن تأملات بسكال الورعة إلى رسوم فراجونار البذيئة . وفى ١٧٧٣ أرسلت تحيتها وصورتها إلى فولتير مع قبلة على كل وجنة وأجاب بأبيات فيها ذكاء شعره المعهود :

« ماذا ! أقبلتان فى ختام حياتى ! أى جواز تتفضلين بأن ترسليه لى ! قبلتان ! إن واحدة تكفى وزيادة ، أى إجيريا المعبودة ، لأننى سأموت فرحا فى القبلة الأولى(٧٨) » .

وطلبت إلى لويس الخامس عشر أن يسمح لفولتير بالعودة إلى باريس فرفض ، وكان عليها أن تقنع بشراء تشكيلة من الساعات من فرنيه وفى ١٧٧٨ . حين أتى الاقطاعى العجوز إلى باريس ليموت ، كانت من بين الكثيرين الذين صعدوا سلم بيته فى شارع بون لتقدم له احترامها . وقد فتن بزيارتها ، وختمها بالنهوض من فراشة ليصحبها إلى الباب . وفى تزولها التقت بجاك بيير بريسو ، رجل الثورة المستقبل ، وكان يرجو أن يقدم إلى فولتير مخطوطة فى القانون الجنائى ، وحاول الدخول إليه بالأمس ففشل ، وكان يعيد الكرة الآن ، فقادته عودا إلى باب فولتير

ورتبت له أن يدخل . وقد استعاد فى مذكراته « ابتسامتها المفعمة دفئا ولطفا[٧٩] » .

لقد كانت طيبة القلب سمحة النفس ما فى ذلك ريب . احتملت دون رد عداء الأسرة المالكة ورفض مارى انطوانيت التحدث اليها . وكان شوازيل دون غيره هو الذى لم تستطع الصفح عنه لأنه لم ين عن محاولة طردها من البلاط . وسرعان ما وضح أن واحداً منهما لابد أن يرحل .

٨ — شوازيل

كان سليل أسرة لورينية عريقة ، وأصبح فى مطلع حياته الكونت دستانفيل ، وقد ظفر بالتشريف لبلائه فى حرب الوراثة النمساوية . وفى ١٧٥٠ حين كان فى الحادية والثلاثين استعاد لأسرته ثراءها بزواجه من وارثة غنيه . وسرعان ما ظفر بمكان مرموق فى البلاط بفضل ذهنه الوقاد وذكائه المرح ، ولكنه عطل رقيه بمعارضته لبومبادور . وفى ١٧٥٢ نقل ولاءه فاكتسب عرفانها بصنيعه حين أفشى لها سر مؤامرة دبرت لطردها . فحصلت له على وظيفة سفير فى روما ثم فينا . وفى ١٧٥٨ دعى إلى باريس ليحل محل برنيس وزيرا للخارجية ، ورقى دوقا ونبيلا من نبلاء فرنسا . وفى ١٧٦١ نقل وزارته هذه لأخيه سبزار ، ولكنه واصل توجيه السياسة الخارجية ، أما هو فاتخذ لنفسة وزارتى الحربية والبحرية . وتعاظم سلطانه حتى كان يتغلب أحيانا على الملك ويخيفه [٨٠] » . وقد أعاد بناء الجيش والبحرية ، وقلل من المضاربة والفساد فى المدفوعات الحربية وفى تموين الجيش ، وأعاد النظام إلى صفوف الجيش ، وأحل ذوى الكفايات من غير حملة الألقاب محل حملتها ممن شاخوا فى سلاح الضباط . وطور المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية ، وأضاف كورسيكا إلى ممتلكات التاج الفرنسى ، وتعاطف مع جماعة الفلاسفة ، ودافع عن الموسوعة ، وأيد طرد اليسوعيين (١٧٦٤) وأغضى عن إعادة تنظيم الهيجونوت فى فرنسا . وقد حمى أمن فوابتيز فى فرنيه ، وأيد حملته دفاعا عن أسرة كالاس ، وظفر من ديدرو بمديح قال فيه « أى شوازيل العظيم ، انك لتسهر على مقدرات الوطن[٨١] » .

ويمكن القول على الجملة إن سياساته أنقذت فرنسا إلى حد معتدل من الكارثة التى جرها إليها الحلف النمساوى المنحوس . فخفض الإعانات المالية التى كانت تدفعها عادة إلى السويد ، وسويسرة ، والدنمرك ، وبعض الأمراء الألمان . وشجع الجهود التى بذلها شارل الثالث ليدخل أسبانيا إلى حظيرة القرن الثامن عشر ، وحاول أن يعزز قوة فرنسا وأسبانيا بميثاق الأسرة (١٧٦١) الذى أبرمه الملكان البوربونيان . وقد تعثرت الخطة ، ولكن شوازيل فاوض انجلترة على صلح بشروط تفضل كثيراً ما كان الموقف العسكرى يبرره . وقد تنبأ بثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا ، ودعم مركز فرنسا فى سان دومنيج والمارتنيك ، وجواديلوب ، وغيانا الفرنسية ، أملا فى إرساء سلطان استعمارى جديد يعوض فرنسا عن فقد كندا . وقد تبنى النابليونان هـــذه السياسة فى ١٨٠٣ و ١٨٦٣ .

ويجب أن نضع مقابل هذه المنجزات إخفاقه فى وقف التغلغل الروسى فى بولندة وإصراره على قيادة فرنسا وأسبانيا فى أعمال عدائية مجددة مع انجلترة . وكان لويس قد سئم الحرب ، فاستمع بذهن مفتوح لأولئك الذين يعملون على إسقاط شوازيل . وقد فتن الوزير الأريب الكثيرين بمجاملته للبلاط ، واستضافته المسرفة للأصدقاء ، وسعة حيلته وجهاده فى خدمة فرنسا ، ولكنه قوى المنافسات فأحالها عداوات بنقده الصريح وحديثه المستهتر . وأتاحت معارضته لدوبارى معارضة لا هوادة فيها لإعدائه سبيلا إلى أذن الملك . وأيد ريشيلو — الذى لا يكل — دو بارى ، وكان ابن أخيه الدوق دجيون يتحرق شوقاً للحلول محل شوازيل رئيساً للحكومة . ونزلت الأسرة المالكة التى أنكرت نشاط شوازيل ضد الشيوعين إلى استعمال الخليلة المزدراة أداة لعزل الوزير العديم التقوى .

وطلب إليه لويس غير مرة أن يتجنب الحرب مع انجلترة ومع دوبارى . ولكن شوازيل واصل الإئتمار على الحرب خفية ، وازدراء الخليلة جهراً . وأخيراً استجمعت كل قواها ضده وفى ٢٤ ديسمبر ١٧٧٠ أرسل الملك المغيظ رسالة مقتضبة إلى شوازيل جاء فيها « ياابن عمى ، إن عدم رضائى

عن خدماتك يضطرنى إلى نفيك إلى شانتلوب حيث يتعين عليك أن ترحل فى ظرف أربع وعشرين ساعة . » وتحدى أكثر الحاشية غيظ الملك بالإعراب عن عطفهم على الوزير المقال بعد أن صدمهم هذا الطرد الفجائى لرجل أدى لفرنسا خدمات جليلة. وركب نبلاء كثيرون إلى شانتلوب ليواسوا شوازيل فى منفاه . وكان منفى مريحا لأن ضيعة الدوق كانت تحوى قصرا من أبدع القصور ، وحدائق خاصة من أرحب الحدائق فى فرنسا ؛ ثم إنه كان يقع فى تورين غير بعيد من باريس . هنالك عاش شوازيل حياة الأبهة و الأناقة ، لأن دو بارى أقنعت الملك بأن يرسل إليه ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فوراً وتعهداً بستين ألفاً كل عام . وحزن جماعة الفلاسفة بسقوطه ، وبكى الطاعمون على مائدة دولباخ قائلين : « لقد ضاع كل شيء » وقال ديدرو فى وصفهم إنهم غرقوا فى دموعهم .

٩ — تمرد البرلمانات

جاءت بعد شوازيل « حكومة ثلاثية » كان دجيون وزير الخارجية فيها ورينيه نيكولا دمويو مستشارا ، و الأبيه جوزيف مارى تريه مراقباً مالياً . وأعطى تريه لدوبارى كل ماطلبته من مال ، ولكنه فيما عدا ذلك خفض المصروفات تخفيضاً بطولياً . فأوقف استهلاك الديون ، وخفض نسبة الفائدة على الديون الحكومية ، ووضع الجديد من الضرائب ،والفروض ، والرسوم وضاعف الرسم الحكومى على النقل الداخلى . وبلغت جملة ماوفره ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأضاف ١٥,٠٠٠,٠٠٠ إلى الدخل . والواقع أنه إنما أجل الانهيار المالى بتفليسة مؤقتة ولكن الكثيرين عانوا من تخلف الحكومة فى إيفاء ديونها ، وضموا أصواتهم لأصوات السخط الذى لم يهدأ . وما لبث العجز أن عاد إلى التفاقم حتى بلغ ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى آخر سنوات الحكم (١٧٧٤) . وكان هذا الذى يبدو اليوم دينا أهليا متواضعا لأمة تتمتع بالاستقرار المالى مبررا إضافيا لقلق أولئك الذين أقرضوا الحكومة مالا ، والذين سمعوا الآن ، بعداء أنل الصيحات المتصاعدة بطلب التغيير .

وكانت أزمة الذروة فى العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر هى

كفاح وزرائه للحفاظ على سلطة الملك المطلقة ضد تمرد البرلمانات . وهذه البرلمانات (كما رأينا) لم تكن هيئات نيابية أو تشريعية كالبرلمان البريطانى بل غرفاً قضائيه تقوم بعمل محاكم الاستئناف فى ثلاث عشرة مدينة فرنسية. زد على ذلك أنها إدعت — كما إدعى البرلمان الإنجليزى ضد تشارلز الأول . . بأنها تدافع عن « القانون الأساسى » أو التقاليد المقررة لأقاليمهم ضد الاستبدادية الملكية ، وإذ كان الوصى فليب دورليان قد أكد حقهم فى « الاعتراض » أو الأحتجاج على المراسم الملكية أو الوزارية ، فإنهم تقدموا خطوة أخرى فطالبوا بألا يصبح أى مرسوم من هذه المراسيم قانونا مالم يوافقوا عليه ويسجلوه .

ولو كانت هذه البرلمانات قد إنتخبها الشعب ، أو إنتخبتها أقلية متعلمة مالكة (كما فى بريطانيا) لكان ممكنا أن تكون إداة أنتقال إلى الديمقراطية ، ولقد كانت إلى حد ما رقيباً صحياً على الحكومه المركزيه . ومن ثم فإن الشعب بصفة عامة أيدها فى كفاحها ضد الملك . على أنها كانت من أشد القوى محافظة فى فرنسا ، لأن أعضاءها كلهم تقريباً كانوا من أثرياء المحامين . وأصبح هؤلاء المحامون ، بوصفهم « نبلاء الرداء » منغلقين بانغلاق نبلاء السيف ، « وقرر البرلمان تلو البرلمان قصر المناصب الجديدة التى تحمل النبالة . . . . على الأسر النبيلة فعلا [٨٣] » . وكان برلمان باريس أكثرها غلوا فى المحافظة ، وبارى الأكليروس فى معارضة حرية الفكر أو النشر ؛ وحرم كتب جماعة الفلاسفه بل احرقهـــا أحيانا . وكان قد إنحاز إلى الجانسنية التى إدخلت لاهوتا كلفنيا فى الكنيسة الكاثوليكية . وقد لاحظ فولتيران برلمان تولوز الجانسنى عذب وقتل جان كالاس ، وإن برلمان باريس صدق على إعدام لابار ، فى حين نقضت وزارة شوازيل الحكم على كالاس وحمت الموسوعين .

وزاد كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، الصراع حدة بين الجانسنين والكاثوليك التقليدين إذ أصدر أمره إلى الكهنه الخاضعين له بألا يناولوا القربان إلا للأشخاص اللذين إعترفوا على يدكاهن غير جانسنى .

ومنع برلمان باريس الكهنة من إطاعة هذا الأمر مؤيدا من أكثرية الشعب ، وأتهم رئيس الأساقفه بأنه يثير إنشقاقا فى الكنيسة ، وأستولى على بعض أملاكه غير الكنسية . وأعتبر مجلس الدولة الملكى هذا الإجراء مصادره غير قانونيه ، وأمر البرلمان بالأنسحاب من الخلافات الدينية . فأبى ، لا بل وضع « اعتراضات كبرى » (٤ مايو ١٧٥٣) كانت إلى حد ما إرهاصا بالثورة : فقد قال الأعضاء أنهم يعلنون ولاءهم للملك ولكن « إذا كانت الرعية تدين بالطاعة للملوك ، فإن هؤلاء يدينون بالطاعة للقوانين[٨٤] » . والمعنى الذى تضمنه هـــذا القول هو أن البرلمان بوصفه حارسا للقانون ومفسرا له ، سيقوم بوظيفة المحكمه العليا فوق الملك . وفى ٩ مايو أصدر مجلس الدولة أوامر ملكية مختومة بنفى معظم أعضاء برلمان باريس من العاصمة . وهبت برلمانات الأقاليم وأهل باريس لمناصرة المنفيين . ولاحظ المركيز دارجنسون فى ديسمبر أن « الباريسيين فى حالة إنفعال مكظوم[٨٥] » . وأمرت الحكومه جنودها بخفر الشوارع وحماية بيت رئيس الأساقفه لخشيتها من فتنة شعبية . وفى مارس ١٧٥٤ كتب دارجنسون يقول « كل الاستعدادات تجرى لحرب أهلية[٨٦] » . ووضع الكردينال دلاروشفوكوحلا وسطا ينقذ ماء الوجوه ؛ فطلبت الحكومة إلى المنفيين أن يعودوا (٧ سبتمبر) ، ولكنها أمرت البرلمان والأكليروس أن يكفا عن النزاع . ولكن احداً لم يطع الأمر ، وواصل رئيس أساقفة باريس حملته على الجانسنية ، وواصلها بعنف حمل لويس على نفيه إلى كونفلانس (٣ ديسمبر) : وأعلن البرلمان أن المرسوم البابوى الصادر ضد الجانسنيين ليس قانونا من قوانين الإيمان ، وأمر الكهنه بتجاهله . وتذبذبت الحـــكومة ، وأخيرا أمرت البرلمان بقبول المرسوم البابوى (١٣ ديسمبر ١٧٥٦) نظراً لحاجتها إلى سلفة من الأكليروس تعينها على خوض حرب السنين السبع .

وأدار الجدل العنيف رؤوسا كثيره . ففى ٥ يناير ١٧٥٧ هاجم روبير — فرنسوا داميان الملك فى أحد شوارع فرساى ؛ وطعنه بمطواة كبيره ،

ثم لزم مكانه ينتظر القبض عليه . وقال لويس لحراسه المهملين « تحفظوا عليه ولكن لا يؤذه أحد[٨٧] » . واتضح أن الجرح غير ذى بال ، وقال المهاجم « لم يكن فى نيتى قتل الملك ، ولو شئت لقتلته . إنما فعلت ما فعلت ليمس الله قلب الملك ويؤثر فيه ليعيد الأمور إلى سيرتها الأولى[٨٨] » . وفى رسالة أرسلها من سجنه إلى الملك أعاد القول بأن « رئيس أساقفة باريس هو سبب كل هذه الضجه حول الأسرار المقدسة ، لأنه أمسكها عمن يريد تناولها[٨٩] » . وقال إنه قد أثاره ما سمعه فى البرلمان من خطب ، « ولوانى لم إدخل قط دارا للعداله .... لما وصلت إلى هذا المكان قط[٩٠] » . وقد هاجته هذه الخطب هياجا حمله على أن يرسل فى طلب طبيب ليفصده ، ولكن لم يأتى طبيب . ولو أنه فصد (كما قال) لما هاجم الملك[٩١] . وحاكمته غرفة البرلمان الكبرى ، وأدانته ، وحكمت عليه ، ثم حكمت على أبيه ، وأمه ، وأخته ، بالنفى المؤبد . وعانى داميان الوان التعذيب التى نص عليها القانون عقابا لقتلة الملوك : فمزق لحمه بكماشات محمية ، ورش عليه الرصاص المغلى ، ومزقت أوصاله جياد أربعة (٢٨ مارس ١٧٥٧) . ودفعت نبيلات النساء المال نظير تمكينهن من مشاهدة هذه العملية من مواقع مواتية . أما الملك فاعرب عن اشمئزازه من ضروب التعذيب هذه وأرسل المعاشات للأسرة المنفية .

وأسفر العدوان عن بعض العطف على الملك ، فشارك اليهود والبروتستنت فى الصلاة من أجل سرعة شفائه ، ولكن حين علم الناس أن الجرح لم يكن أكثر من «شكة دبوس» فى عبارة فولتير (piqure d'épingle) ارتد تيار التأييد الشعبى إلى ناحية البرلمان . وبدأ الناس يتنافسون فى موضوع الحكومة النيابية وما يقابلها من الملكية المطلقة . كتب دارجنسون يقول « إنهم يرون فى هذه البرلمانات علاجا للاوصاب التى يعانون منها .... أن الثور تضطرم تحت الرماد » . وفى يونيو ١٧٦٣ عاد برلمان باريس يؤكد أن « مراجعه البرلمان للقوانين هى أحد القوانين التى لا يمكن انتهاكها دون انتهاك للملك القانون الذى أوجد الملوك انفسهم[٩٢] » . ومضى برلمان تولوز شوطا أبعد ، فأعلن أن القانون يقتضى «رضاء الأمة الحر الطليق[٩٣]»

ولكنه عنى بلفظ « الأمة » فى البرلمانات . وفى ٢٣ يوليو ١٧٦٣ قدمت هيئة قضائيه عامة تدعى محكمة المعوقات يرأسها مالزيرب الشجاع الأمين إلى الملك تقريرا عن فقر الشعب وعن العجز والفساد فى إدارة مالية الدولة ؛ ورجته الهيئة « أن يصغى للشعب نفسه عن طريق مندوبيه فى اجتماع لمجلس طبقات المملكة[٩٤] » . وهذه أول مطالبة صريحة بمجلس الشعب الذى لم يدع منذ ١٦١٤ .

وفى الصراع الخطر الذى تمخض عن طـــرد اليسوعيين من فرنسا (١٧٦٤)[٩٥] . إتخذ برلمان باريس موقف الهجوم وفرض رأيه على الملك . وفى يونيو ونوفمبر أرسل برلمان رين ، وهو دار القضاء العالى ببريتنى ، إلى لويس اعتراضات شديدة اللهجة على الضرائب التى فرضها الدوق ديجبون الذى كان آنئذ حاكما على الإقليم . فلما لم يتلق جوابا يرضيه أوقف جلساته ، واستقال معظم أعضائه (مايو ١٧٦٥) ، ونشر نائبه العام ، لوى رينيه دلاشالوتيه ، هجوما على الحكومة المركزيه فقبض عليه وعلى ابنه وثلاثة مستشارين وأتهموا بالتحريض على الفتنة . وأمر الملك برلمان رين بمحاكمتهم . فرفض ، وأيدت الرفض جميع برلمانات فرنسا يظاهرها فى ذلك الرأى العام . وفى ٣ مارس ١٧٦٦ ظهر لويس أمام برلمان باريس وحذره من الإغضاء عن الفتنه . وأعلن تصميمه على الحكم ماسكا مطاق السلطان .

« فى شخصى وحدى تستقر سلطة السيـــادة ، ولى وحدى السلطة التشريعية غير مشروطة ولا مجزأه . وكل النظام العام ينبثق منى . وشعبى وأنا واحد ، وحقوق الأمة ومصالحها ، الأمة التى يجرؤ البعض على جعلها هيئة منفصلة عن الملك ، هى بالضرورة متحدة مــع حقوق ومصالحى ، مستقره فى يدى دون غيرى[٩٦] » .

وأضاف أن الإيمان التى أقسمها لم يقسمها للأمة ، كما أكد البرلمان ، بل لله وحده . وواصل برلمان باريس دفاعه عن برلمان رين ، ولكنه فى ٢٠ مارس قبل النظرية التالية رسميا ، بإعتبارها « مبادىء أساسية

لا مناص منها » وهى « أن السيادة للملك وحده ، ولا يسأل إلا أمام الله ... والسلطة التشريعية مستقره كلها فى شخص الملك(٩٧) » . وحث شوازيل وغيره الملك على بذل تنازلات متجاوبة فأفرج عن لاشالويته وزملائه المسجونين ، ولكنهم نفوا إلى سانت قرب لا روشيل . ودعى دبجيون من بريتنى ، وانضم إلى اعداء شوازيل . واستأنف برلمان رين جلساته (يوليو ١٧٦٩) .

ودخل فولتير الصراع باصداره « تاريخ برلمان باريس بقلم الأبيه بج » عام ١٧٦٩ . وقد أنكر أنه مؤلف الكتاب ، وكتب خطابا ينقده لأنه آية فى الأغلاط والسخف ، وجريمة ضد اللغة(٩٨) » . ومع ذلك فالكتاب بقلمه . ومع أنه كتبه على عجل فقد دل على ما بذل فيه من بحث تاريخى لا يستهان به . غير أن النزاهة تعوزه ، فهـو أتهام طويل للبرلمان باعتباره مؤسسة رجعية قاومت فى كل مناسبة التدابير التقدميه — كانشاء الأكاديمية الفرنسية ، والتطعيم ضد الجدرى ، والأدارة الحرة للقضاء . وأتهم فولتير البرلمانات بالتشريع الطبقى ، والخرافة ، والتعصب الدينى . فلقد أدانت أقدم الطابعين فى فرنسا ؛ وهللت لمذبحة يوم القديس برتلميو ؛ وحكمت بحرق المرشال دانكر كما تحرق الساحرات . وقال فولتير أنها إنشئت لوظائف قضائيه بحته ، وليس لهـا سلطة التشريع ، ولو إتخذت هذه السلطة لأحلت محل أوتقراطية الملك أو ليجاركية المحامين الأغنياء المتحصنه ضد أى رقابة شعبيه . وكان فولتير قد كتب هـذه المذكرة المسهبة خلال سطوة شوازيل الذى شجعت ميوله اللبرالية الأعتقاد بأن التقدم ميسور أشد ما يكون يسرا على يد وزير مستنير فى ظـل ملك مستنير . أما ديدرو فلم يوافق فولتير ، وقال أن البرلمانات مهما كانت رجعية النزعة فإن مطالبتها بحـق الأشراف على التشريع ضابط مرغوب فيه على الاستبداد الملكى (٩٩) .

وجاءت عودة دبجون إلى باريس بأزمة جديدة . فقد اتهم برلمان رين الدوق بارتكاب عمل محظور ، وإذعن لمحاكمة برلمان باريس له على هذه

التهم ، فلما وضح أن الحكم سيصدر بأنه مذنب لجأت مدام دوبارى إلى الملك ليتدخل . وأيدها فى ذلك المستشار موبو ، وفى ٢٧ يوليو ١٧٧٠ أعلن لويس أن الجلسات تفشى أسرارا للدولة . وعلى ذلك يجب انهاؤها ثم ألغى شكاوى الفريقين المتبادلة ، وأعلن براءة كل من دجيون ولاشالوتيه ، وأمر جميع أطراف النزاع بالكف عن اثارة الشعور العام . وتحدى البرلمان هذه الأوامر باعتبارها تدخلا تعسفيا فى سير العدالة المشروع ، وأعلن ان الشهادة أضرت ضررا بليغا بشرف دجيون ، وأوصى بوقفه عن ممارسة جميع وظائفه بصفته نبيلا حتى تثبت براءته بالطريقة القانونية الواجبة . وفى ٦ سبتمبر أصدر البرلمان قرارا arrêté كان فيه اختبار بقوة الملك :

« أن تعدد أعمال سلطة مطلقة تمارس فى كل مكان ضد روح ونص القوانين التأسيسية للملكية هو برهان دامغ : على أن هناك نية مبيتة لتغيير شكل الحكومة ، ولأحلال الأعمال الشاذة لسلطة تعسفية محل سلطان القوانين المتعادل على الدوام[١٠٠] » .

ثم أجل البرلمان جلساته حتى ٣ ديسمبر .

واستغل موبو هذه المهلة ليعد دفاعا متصلبا عن السلطة المليكية . فى ٢٧ نوفمبر أصدر بتوقيع الملك مرسوما سلم بحق الاعتراض ولكنه حرم أى رفض لمرسوم يجدد بعد سماع الاعتراضات . ورد البرلمان بأن التمس من الملك أن يسلم مشيرى العرش الأشرار لانتقام القوانين[١٠١] . وفى ٧ ديسمبر دعا لويس البرلمان إلى فرساى ، وفى جلسة رسمية لـ (سرير العدالة) أمر الأعضاء بأن يوافقوا على مرسوم ٢٧ نوفمبر ويسجلوه . فلما عاد القضاة إلى باريس قرروا الكف عن أداء جميع وظائف البرلمان حتى يسحب مرسوم نوفمبر . وأمرهم لويس باستئناف جلساتهم ، فتجاهلوا الأمر . وحاول شوازيل إقرار السلام فى ربوع الوطن لخوض حرب انجح خارجه ، فأقاله لويس ، وهيمن موبو الآن على مجلس الدولة بينما راحت دوبارى تحوم حول الملك ، وأرته لوحة فانديك التى رسمها لتشارلز

الأول ملك انجلترة ؛ وحذرته من مصير كمصيره قائلة « إن برلمانك أيضا سيضرب عنقك[١٠٢] » .

وفى ٣ يناير ١٧٧١ أمر لويس ثانية بقبول مرسوم نوفمبر . ورد البرلمان بأن المرسوم ينتهك قوانين فرنسا الأساسية . وفى ٢٠ يناير فيما بين الساعة الواحدة والرابعة صباحاً سلم جنود الملك المسلحون لكل قاض « إرادة ملكية » تخيره بين الطاعة أو النفى من باريس . وأكدت الكثرة الساحقة حبهم للملك ، ولكنهم ظلوا على عنادهم . وعليه فنى اليومين التاليين نفى ١٦٥ عضوا فى برلمان باريس إلى أنحاء شتى فى فرنسا . وهتف الشعب لهم وهم يبرحون قصر العدالة .

وتحرك الآن موبو ليحل منظمة قضائية جديدة محل البرلمانات . فأنشأ فى باريس بمرسوم ملكى محكمة عليا تتألف من مجلس الدولة وبعض الفقهاء اللينيين ؛ وأنشأ فى آراس ، وبلوا ، وشالون ؛ وكليرمون — فران، وليون وبواتييه ، « مجالس عليا » لتكون محاكم استئناف للأقاليم . وأصلحت بعض المفاسد القضائية ، وأوقف بيع الوظائف ، وتقرر أن يكون التقاضى من الآن بالمجان . وهلل فولتير للإصلاح ، وتنبأ فى تهور « إننى واثق تمام الثقة أن المستشار سيحقق نصراً كاملا ، وأن الشعب سيحب هذا الانتصار »[١٠٣] . ولكن الشعب لم يستطع أن يتقبل فى رضى هدم مؤسسة عريقة القدم كالبرلمانات فما من شىء يكثر الناس من إدانته ويعمق حبهم له كالماضى . واحتقرت معظم الجماهير المحاكم الجديدة لأنها أدوات إضافية تستعين بها الأوتقراطيه الملكية . وحزن ديدرو على نهاية البرلمانات وإن لم يكن مخدوعاً فيها ، فقال إن ذلك « خاتمة الحكم الدستورى . . فنى لحظة واحدة قفزنا من الحالة الملكية إلى أشد حالات الاستبداد »[١٠٤] . وأعرب أحد عشر نبيلا من نبلاء المملكة ، بل بعض أعضاء الأسرة المالكة ، عن عدم موافقتهم على المحاولة التى يبذلها موبو لاستبدال البرلمانات . ولم ينشب بين الشعب هياج واضح ، ولكن كلمات الحرية ، والقوانين ، والشرعية ، التى ترددت كثيراً فى البرلمان مؤخراً أخذت تتداولها الألسن . واصطبغت الهجائيات الموجهة للملك الفاسق بعنصر جديد من الجرأة والمرارة ، ودعت الملصقات الدوق أورليان لتزعم الثورة .

وتورطت البرلمانات كارهة تقريبا ، وبرغم نزعتها المحافظة ، فى خميرة من الأفكار الثورية . وكان مقالا روسو ، وشيوعية موريللى ، ومقترحات مابلى والاجتماعات السرية لجماعة الماسون الأحرار ، وفضح الموسوعة للمفاسد المتفشية فى الحكومة والكنيسة ، وسيل النشرات المتدولة فى أرجاء العاصمة والأقاليم — كلها كانت تعارض معارضة عنيفة دعوى السلطة المطلقة والحق الإلهى التى يدعيها ملك خامل عربيد . وهكذا أخذ الرأى العام (M.Tout le monde) يتحرك بوصفه قوة فى التاريخ .

كان أثقل النقد إلى عام ١٧٥٠ يقع على الكنيسة ، ولكنه بعد ذلك راح يقع بازدياد على الدولة بعد أن حفزه حظر الموسوعة . كتب هوراس ولبول من باريس فى أكتوبر ١٧٦٥ :

« لم يعد للضحك سوق هنا .. ياللقوم الطيبين ، إن وقتهم لا يتسع للضحك ، فواجبهم الأول هو هدم الله والملك ، ويشارك الرجال والنساء ، والعظماء والحقراء فى هذا الهدم من كل قلوبهم .. أتعلم من هم « الفلاسفة » أو ما مدلول اللفظ هنا ؟ أولا هو يشمل كل إنسان ، ثانياً يعنى الرجال الذين يهدف الكثيرون منهم ، بعد أن أقسموا على خوض الحرب على الملكية ، إلى هدم الدين كله وأكثر من هؤلاء إلى القضاء على سلطة الملك »[١٠٥] .

وفى هذا الحكم مغالاة بالطبع ، فمعظم جماعة الفلاسفة (باستثناء ديدرو على الأخص) كانوا أنصارا للملكية يتجنبون الثورة . هاجموا النبلاء وكل الامتيازات الوراثية ، وانتقدوا عشرات المفاسد وطالبوا بإصلاحها ، ولكنهم كانوا يرتعدون فرقاً من فكرة إعطاء السلطة كلها للشعب[١٠٦] . ومع ذلك كتب جريم فى « رسائله » فى يناير ١٧٦٨ يقول :

« إن السأم العام من المسيحية ، الذى يتضح فى جميع الأرجاء ، لاسيما فى الدول الكاثوليكية ، والقلق الذى يهيج عقول الناس بشكل غامض ويدفعهم إلى مهاجمة المفاسد الدينية والسياسية — كل هذا ظاهرة يتسم بها قرننا ، كما اتسم القرن السادس عشر بروح الإصلاح ، وهو ينذر بثورة داهمة لا مفر منها »[١٠٧] .

١٠ — رحيل الملك

لم يؤت لويس الخامس عشر كما لم يؤت من قبله لويس الرابع عشر ، فن الموت فى الوقت المناسب . لقد كان عليما بأن فرنسا تترقب زواله ، ولكنه لم يطق التفكير فى الموت . كتب السفير النمساوى « أن الملك يبدى الملاحظات بين الحين والحين عن سنه ، وصحته والحساب العسير الذى لابد أن يقدمه يوما ما للخالق الأعظم »[١٠٨] . وقد يتأثر لويس تأثراً عابراً باعتكاف ابنته لويز — مارى فى دير كرملى تكفيراً عن ذنوب أبيها فيما زعموا ، وقيل إنها كانت تدعك أرض الحجرات وتغسل الملابس . فلما ذهب لزيارتها وبختة على عيشته وتوسلت إليه أن يطرد دى بارى ويتزوج الأميرة دلامبال ويصلح ما فسد بينه وبين الله .

وقد مات عدة أصدقاء له فى أخريات عهده ، وقع اثنان منهم صريعين تحت قدميه بهبوط فى القلب[١٠٩] . ومع ذلك بدا أنه يجد لذة رهيبة فى تذكير الشيوخ من حاشيته بقرب موتهم . قال مرة لأحد قواده . « انك تشيخ يا سوفريه ، فأين تريد أن تدفن ؟ » فأجاب سوفريه « عند قدمى جلالتك يا مولاى » . وقيل أن هذا الجواب « جعل الملك واجما كثير التفكير [١١٠] » . وقالت مدام دؤوسيه أنه « لم يخلق رجل أكثر منه اكتئابا وغما[١١١] » .

وكان موت الملك انتقاما طال انتظاره ، انتقمه على غير عمد جنس النساء الذى هام به وحط من كرامته ، فحين لم تكف حتى دوبارى لأشباع شهوته ، جاء إلى فراشه بفتاه يبلغ من حداثتها انها لم تكد تبلغ سن الزواج . وكانت تحمل جراثيم الجدرى ، فنقلت عدواه إلى الملك . وفى ٢٩ ابريل ١٧٧٤ بدأ هذا المرض يهاجمه . وأصرت بناته الثلاث على ملازمته وتمريضه مع انهن لم يسبق لهن التحصين ضد الجدرى (وقد أصبن بالمرض جميعهن ولكنهن شفين) وكن يتركنه فى الليل فتحل دوبارى محلهن . غير أن الملك صرفها برفق حين رغب فى تناول الأسرار المقدسة فى ٥ مايو قائلا : « أعلم الآن انى مريض مرضا خطيرا . أن فضيحة متز يجب ألا تتكرر .

أنى أدين بنفسى لله ولشعبى . وإذن يجب أن نفترق . فاذهبى إلى قصر الدوق ديجيون الريفى فى روبيل وانتظرى أوامر جديدة . وصدقينى إننى سأظل على الدوام أحتفظ لك بشعور المحبة العميقة(١١٢) .

وفى ٧ مايو صرح الملك فى حفل رسمى أمام البـــلاط بأنه نادم على مافرط منه من فضائح أمام رعاياه ، ولكنه أصر على أنه لايدين بأى مؤاخذه عن سلوكه إلا لله وحده(١١٣) . وأخيراً رحب بالموت . فقال لإبنته لم أشعر فى حياتى بمثل هذه السعادة(١١٤) . ولفظ أنفاسه فى ١٠ مايو ١٧٧٤ وهو فى الرابعة والستين ، بعد أن حكم تسعة وخمسين عاما . وحمل جثمانه الذى لوث الهواء على عجل إلى المدافن الملكية فى سان دنيس دون أبهة وسط تهكم الجميع الذى اصطف على الطريق . واغتبطت فرنسا مرة أخرى بموت ملكها كما اغتبطت من قبل عام ١٧١٥ .

الفصل الرابع

فن الحياة

١ – الفضيلة والكياسة

يقول تاليران « لا يعرف لذة العيش من لم يعش حوالى سنة ١٧٨٠ » * بالطبع شريطة أن يكون من أبناء الطبقات العليا ، وأن تكون مجرداً من أى ميول للفضيلة .

وتعريف الفضيلة صعب ، فكل عصر يكيف تعريفه وفق طبعه وآثامه . وقد ظل الفرنسيون القرون الطوال يخففون من وطأة الاقتصار على الزوجة الواحدة بالزنا ، كما تخفف منها أمريكا اليوم بالطلاق . والرأى الغالى (الفرنسى) يجد الزنا المعتدل أقل إضراراً بالأسرة — أو بالأبناء على الأقل من الطلاق . على أية حال ازدهر الزنا فى فرنسة القرن الثامن عشر ، وكان الناس يغضون عنه عموما . وآية ذلك أن ديدرو حين أراد فى موسوعته أن يفرق بين « الارتباط » و« التعلق » ضرب هذا المثال : « أن الرجل يرتبط بزوجته ، ولكنه يتعلق بخليلته . [٢] » ويقول معاصر لذلك الجيل « ان خمسة عشر نبيلا من بين العشرين الذين تراهم فى البلاط يعاشرون نساء لم يتزوجوهن [٣] » . وكان الظفر بخليلة أمرا لاغنى عنه للمركز الاجتماعى كحيازة المال سواء بسواء . أما الحب فكان شهوانياً فى غير مواربة : صوره بوشيه فى صورة وردية ، وخلع عليه فراجونار الأناقة والرشاقة ، أما بوفون فقال فى صراحة وحشية « ليس فى الحب شىء طيب إلا الجسد [٤] » .

---

* وردت هذه الملاحظة الشهيرة فى « موسوعة الأقوال المأثورة » لمصنفها ب . دوبريه (باريس ١٩٥٩) ، ١ ، ٦٣٥ ، نقلا عن « مذكرات لتاريخ عصرى » بقلم فر . جيزو (باريس ١٨٥٨ -٦٨) ، ١ ، ٦ . (١)

على أن الحب الأنبل كان يظهر هنا وهناك . حتى فى « كريبيون » الابن[٥] ، ومن جماعة الفلاسفة جرۋ هلفتيوس على الهيام بزوجته ، وظل دالامبير وفيا لجولى دليسبيناس طوال تنويعات حبها الذى أمتعها . وقد اضطلع جان جاك روسو فى هذا الجيل باصلاح للاخلاق يدعو إليه رجل واحد . وهل نشيد كذلك بفضل روايات صموئيل رتشردسن ؟ وتحلت بعض النساء بالفضيلة على سبيل الموضة[٦] fashion ، ولكن بعضهن تقبلن فى عرفان دعوة بعثت من مرقدها ، دعوة العفة قبل الزواج ، والوفاء بعده ، منقذة لهن من هوان استخدامهن معابر لكل زير نساء ، على أية حال لم يعد الاقتصار على الزوجة الواحدة شارة تخجل حاملها . فقد اكتشف الفاسقون من جديد بعد أن تزوجوا مباهج قديمة فى الحياة الأسرية ، وأنه خير للرجل أن يسبر أغوار الوحدة . من أن يظل طوال حياته يعبث بسطح التعـــدد والتنوع . واستقرت نسوة كثيرات بدأت حياتهن بنزق وطيش كأنهن سطوح لا عمق فيها ــ حين أنجبن . وأرضع بعضهن أطفالهن حتى قبل أن يحثهن على ذلك روسو ، وكثيرا ما كان هؤلاء الأطفال يردون هذا الصنيع بعد أن ترعرعوا فى ظل محبة الأم ، باهتمام البنين بوالديهم . ومن أمثلة ذلك أن المرشالة دلكسمبورج أصبحت زوجة مثالية بعد شبابها المغامر ، وأخلصت لزوجها وهى ترعى روسو فى حنان كأنها أمه . وحين مات الكونت دموريا (١٧٨١) بعد أن خدم لويس الخامس عشر والسادس عشر وعانى آلام النفى الطويل فيما بين فترتى وزارته ، ذكرت زوجته أنهما « اتفقا معاً خمسين عاما دون أن يفترقا يوما واحدا »[٧] ونحن نسمع الكثير جدا ــ والمؤلفان قد تكلما كثيرا جدا عن النساء اللاتى أفلحن فى دخول التاريخ بفضل حنثهن بعهود الزواج ، ولا نسمع إلا القليل جداً عن أولئك النسوة اللاتى امتنعن عن الخيانة حتى ولو خانهن رجالهن . مثال ذلك أن الآنسة كروزا ، التى خطبت وهى فى الثانية عشرة للرجل الذى أصبح فيما بعد الدوق دشوازيل . احتملت فى صبر هيامه بأخته الطموح ، ورافقته فى منفاه ، فأشـــاد بقداستها حتى ولبول « المرقع » . ولم تفتر محبة الدوقة درشليو لزوجها طول خياناته الزوجية ، وكانت شاكرة لأن القدر سمح لها بأن تموت بين ذراعيه[٨] » .

وظلت الانحرافات ، والمطبوعات الفاجرة ، والبغاء على ما عهدنا . كان القانون الفرنسي ينص على الإعدام عقابا للواط ، وحدث فعلا أن لوطيين احرقا فى ميدان جريف عام ١٧٥٠[9]. ولكن القانون كان عادة يتجاهل اللواط الاختيارى بين البالغين[10] . وكانت الأخلاق الاقتصادية على حالها اليوم ، وليلاحظ القارىء الفقرة الواردة فى كتاب روسو « إميل »[11] . (١٧٦٢) عن غش الطعام والخمور . وكانت الأخلاق السياسية على حالها اليوم ، كان هناك الكثيرون من خدام الشعب المخلصين (مالزيرب ، وطورجو ، ونكير) ، ولكن كثيرون أيضا ممن وصلوا إلى مناصبهم بالمال أو الاتصالات ، وأثروا فى المنصب متجاوزين فى ذلك نص القانون وعاش كثير من النبلاء العاطلين عيشة الترف على دماء فلاحيهم ، ولكن بر الحكومة والأفراد بالناس كان كثيرا .

وكان فرنسيو القرن الثامن عشر فى جملتهم شعبا لطيفا رغم ناموس من الاخلاق الجنسية أنتهك المعايير المسيحية بصراحة . فانظر كم من الناس خفوا لنجدة روسو وتعزيته رغم صعوبة إدخال البهجة على نفسه ؛ وكثيرا ما كان هؤلاء القوم الكرام ينتمون إلى الطبقة الاستقراطية التى سبها . وكانت الشهامة قد اضمحلت فى علاقة الرجل بالنساء ، ولكنها ظلت حية فى معاملة الضباط الفرنسين لأسرى الحرب اللذين من طبقتهم . كتب سموليت الخصم النزق فى رحلة له بفرنسا عام ١٧٦٤ يقول : « أنى أخص الضباط الفرنسين بالأحترام لشهامتهم وبسالتهم : لاسيما للروح الإنسانيه السمحة التى يعاملون بها أعداءهم . حتى وسط أهوال الحرب[12] » . وقد صور جويا قسوة الجنود الفرنسيين على العامة الأسبان فى حروب نابليون ، ولكنه كان فى أغلب الظن مبالغا . وما من شك فى أن الفرنسين كانوا يستطيعون أن يكونوا غاية فى القسوة . ربما لأنهم تعلموا القسوة من الحرب وقانون العقوبات . كانوا صخابين يميلون للمشاجرت على نحو ما يفعل طلاب الكايات اللذين يهاجمون خصومهم بالمدى . وللمشاغبات فى الشوارع بديلا عن الإنتخابات . فيهم عنف وتهور . يندفعون إلى الخير أو الشر دون أن يضيعوا وقتا فى التروى . وفيهم شوفينية (غلو فى الوطنيه) لا يستطيعون أن يفقهوا لم كان سائر

البشر من الهمجية بحيث يتحدثون بلغة غير الفرنسية . وقد أبت مدام دنيس أن تتعلم الكلمه الإنجليزية « الخبز » — لم لا يستطيعون كلهم أن يقولوا pain ؟ [١٣] ولعلهم أحبوا مجد وطنهم أكثر مما أحبه أى شعب آخر . وعما قليل سيموتون بالألوف المؤلفة وهم يهتفون « يحى الأمبراطور » .

وقد بز الفرنسيون بالطبع غيرهم من الشعوب فى آداب السلوك . صحيح إن تقاليد الأدب التى أرسيت فى عهد لويس الرابع عشر لوثها النفاق ، والكلبية ، والسطحية ، ولكنها ظلت فى جوهرها حية ، وأضفت على الحياة بين الطبقات المتعلمة كياسة لا قدرة لأى مجتمع أن يضارعها اليوم . قال كازانوفا « إن فى الفرنسين أدبا جما وتلطفا كثيراً يجذب إليهم المرء للتو » ولكنه أضاف أنه لم يستطع قط أن يثق بهم[١٤] .

وقد تفوقوا على غيرهم من الشعوب فى النظافة . فأصبحت فى المرأة الفرنسية إحدى الفضائل الأساسيه التى تمارسها حتى الموت . وكان من حسن الأدب نظافة الملبس وأناقته . وكان رجال الحاشية ونساؤها يخرجون أحيانا على أصول الذوق السليم بالاسراف فى اللباس الفاخر أو الغلو فى تصفيف شعورهم . وأرسل الرجال شعورهم فى ضفائر ، وهى عادة استهجنها المرشال دساكس لخطرها فى الحرب لأنها تمكن العدو من صاحب الشعر ، ثم يبدرون الشعر بنفس العناية التى يبدر بها نساؤهم شعورهن . وغالت النساء فى رفع شعورهن حتى خشين الرقص مخافة أن يلتقطن النار من الثريات . وقد قدر زائر فرنسى أن ذقن إحدى السيدات الفرنسيات يقع تماما فى منتصف المسافة بين قدميها وقمة شعرها[١٥] . وجنى الحلاقون الأموال الطائله بكثرة تغيير موضات الشعر . ولم تمتد النظافة إلى شعر المرأة ، لأن تصفيفه كان يستغرق الساعات . واحتفظت جميع النساء — إلا أشدهن غلوا فى التبرج — بنفس التسريحة أياما دون أن تمسها مشط . وحملت بعض السيدات مكاشط من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، يحككن بها روسهن فى رشاقة ساحرة .

وكان ماكياج الوجه ، عتمدا تعقيده اليوم . كتب ليوبولد موتسارت إلى

زوجة من باريس فى ١٧٦٣ يقول . « تسألين هل النساء الباريسيات جميلات . ولكن كيف السبيل إلى معرفة هذا إذا كن مزوقات كعرائس نورمبرج ، ممسوخات بهذه الحيلة المنفرة مسخا تعجز معه عينا الألمانى السادج عن التعرف على امرأة ذات جمال طبيعى إذا رآها[١٦] » ؟ وكان النساء يحملن مساحيق الزينة معهن ، ويجملن بشرتهن من جديد علانية فى غير حياء شأنهن اليوم . وقد حمرت مدام دموناكو وجهها قبل أن تركب لتقطع الجيلوتين رأسها . وكانت جثث الموتى تجمل ، وتبدر ، وتحمر ، كما فى زماننا . أما ثياب النساء فكانت مزيجا متحديا من الاغراءات والمعوقات : فيه فتحات النحور الواطئة ، والصدارات المخرمة ، والجواهر التى تخطف الأبصار ، والتنانير الكبيرة الفضفاضة . والأحذية العالية الكعوب المصنوعة عادة من التيل أو الحرير . وانتقد بوفون وروسو وغيرهما لبس المشدات ، ولكنها ظلت ضربة لازب حتى أطاحت بها الثورة .

وكان تنوع الحياة الاجتماعية ومرحها من مفاتن باريس . فكانت مقاهى بروكوب ، ولا ريجانس ، وجرادو ، تستقبل رجال الفكر والثوار ، والأثرياء . من الرجال الباحثين عن اللهو . والنساء الباحثات عن الرجال . أما نجوم الأدب ، والموسيقى ، والفن ، فكانوا يسطعون فى الصالونات . وأبهج أقطاب النبالة أو الثروة فرساى وباريس بالمآدب والاستقبالات والمراقص . وكانت الفنون بين عليه القوم تشتمل على الأكل والحديث . فكان المطبخ الفرنسى مثار حسد أوربا . وكان الحديث الفرنسى الذكى الظريف قد بلغ الآن من الصقل مبلغا أستنزف فيه كل المواضيع . فقام الضجر على الإشراق ، واضمحل فن الحديث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فرفعت الخطابة من حرارته فوق ما ينبغى ، وسبق المتكلمون السامعين . وأبتذلت النكتة الذكية نتيجة إسرافها ولدغاتها المستمرة . وقد ذكر فولتير — الذى كان هو ذاته قادرا على اللدغ — باريس بأن النكته إذا خلت من اللياقة كانت الفجاجة بعينها[١٧] ، وذهب لا شالوتيه إلى أن « الولع بالتظرف . . . أقصى العلم والثقافه الصحيحة عن الصالونات[١٨] » .

وكان الناس يتمشون الهوينا فى الحدائق العامة ... التى لقيت النظافة والتشذيب وحفلت بالتماثيل — أو يتبعون أطفالهم أو كلابهم ، والفتيان الطائشون المرحون يطاردون الصبايا البارعات فى التراجع عديم الجدوى . وأغلب الظن أن حدائق التويلرى كانت يومها أبدع منها الآن فلنستمع إلى وصف مدام فيحيه — لوبرون :

« كانت دار الأوبرا قريبة فى تلك الأيام ، على حافة الباليه — رويال. وكان التمثيل فى الصيف ينتهى فى الثامنة والنصف ، فيخرج علية القوم حتى قبل النهاية للتمشى فى أرجاء الحديقة . وراج بين النساء أن يحملن طاقات زهر كبيرة كانت هى والبودرة المعطرة التى فى شعرهن تمـــلأ الجو عبيراً بكل معنى الكلمة . وأنا أعلم أن هـــذه الاجتماعات كانت قبل الثورة تمضى حتى الثانية صباحاً ثم كانت هناك حفلات موسيقية على ضوء القمر فى الهواء الطلق . . . . وكان يحتشد فى المكان جمع كبير على الدوام[١٩] » .

٢ — الموسيقى

إتخذت فرنسا من الموسيقى جزءا من « مرحها الباريسى » فهى لم تعبأ بمنافسة ألمانيا فى القداسات والكورالات الحادة . وقد تجاهلت مونسارت تقريباً حين وفد على باريس ، ولكنها نسيت التعصب لوطنيتها حين افتتنت آذانها بالألحان الإيطاليه . وجعلت من موسيقاها « مهرجانات ترفيه » : وتخصصت فى الـــوان تناسب الرقص أو تذكر به — كالكورانت ، والسربنده ، والجيج ، والجاڤوت ، والمنويت . وكانت المرأة المحور الذى تدور حوله الموسيقى كما دارت أخلاقها ، وعادتها ، وفنونها ، وكثيراً ما اتخذت أسماء تذكر بصورتها — كالساحرة ، والساذجة ، وميمى وكاريون دستير .

وأحب القوم الأوبرا التهريجية فى فرنسا ، كما أحبوها فى أيطاليا ، أكثر من الأوبرا الحادة قبل أن يأتى جلوك (١٧٧٣) . وكانت فرقة سمت نفسها الأوبرا كوميك قد أستقرت فى باريس عام ١٧١٤ ، وفى ١٧٦٢

إتحدت مع فرقة الكوميدى الايطالية . وفى ١٧٨٠ إنتقلت هذه الأوبرا كوميدى الموسعة إلى مقر دائم لها فى صالة فاڤار . أما صاحب الفضل فى إزدهارها فهو فرانسوا أندريه فيليدور ، الذى جاب أوربا بطلا من أبطال الشطرنج ، وألف خمسا وعشرين أوبرا ، كلها تقريباً هزلية ، مثل « سانشوبانسا » ، « وتوم جونس » ولكن فيها ذوق سليم وفن رفيع . وقد نسيت الآن أوبراته ، ولكن « دفاع فيليدور » « وتراث فيليدور » مازالا يذكران بوصفهما نقلتين كلاسيكيتين فى لعبه الشطرنج وكان الباليه فاصلا محببا يتخلل الأوبرا الفرنسية . هنا وجدت الرشاقة الفرنسية مجالا آخر ، وغدت الحركة شعرا ، قد كتب جان جورج نوفير ، أستاذ الأوبرا فى دار أوبرا باريس ، رسالة كانت يوما ما مشهورة عن ألحان الرقص — « رسائل فى الرقص والباليه » (١٧٦٠) . وقد مهدت الطريق لإصلاحات جلوك بدعوتها إلى الرجوع للمثل الإغريقية فى الرقص ، بما فيها من طبيعية الحركة ، وبساطة اللباس . وتأكيد على الدلالة الدرامية لا الأشكال التجريدية أو براعات العازفين .

واصبحت الحفلات الموسيقية العامة الآن جزءا من الحياه فى جميع مدن فرنسا الكبرى . ففى باريس ضربت « الفرقة الموسيقية الروحية » (التى انشئت بالتويلرى فى ١٧٢٥) مثلا رفيعا فى الموسيقى الآلية . وبينما كانت الأوبرا — كوميك تمثل مسرحيه برجوليزى « لا سيرفا پادرونا » كانت فرقة الكونسير تعزف ترنيمة « ستابات ماتر » [وهى ترنيمة لا تينية عن حزن مريم على المسيح المصلوب] التى أحسن الجمهور أستقبالها فظلت تتكرر سنويا حتى عام ١٨٠٠[٢٠] . وكان لفرقة الكونسير الفضل فى تحبيب هاندل ، وهيدن ، وموتسارت ، وجوملى ، ويتشينى ، والباخيين ، إلى الجماهير الفرنسية ، وأتاحة فرصة الظهور لكبار عازفى ذلك العهد .

وقد أجمع هؤلاء العازفون الزائرون على أمر واحد ، هو تخلف فرنسا فى الموسيقى عن المانيا والنمسا وإيطاليا . وشاطرهم جماعة الفلاسفة هـذا الحكم . فكتب جريم (وهو المانى) « من الأسف أن القوم فى هذا البلد

لا يفهمون من الموسيقى غير القليل جداً[٢١] » . وكان يستثنى الأنسه فل ، التى تغنى بحنجرة بديعة . ووافق جريم روسو وديدرو على طلب « الرجوع إلى الطبيعة » فى الأوبرا : وتزعم ثلاثتهم الحزب الإيطالى فى « حرب المهرجين » تلك التى كانت قد بدأت بتقديم أوبرا تهريجية مثلتها فرقة إيطاليه فى باريس . وقد سبقت الإشارة إلى هـذا الجدل الذى نشب بين المذهبين الموسيقيين الفرنسى والإيطالى ، ولم يكن قد أنتهى بعد . فمازال ديدرو يخوض حرب المهرجين فى قصته « ابن أخى رمو » ؛ وفى « حديث ثالث حـول الأبن الطبيعى » (١٧٥٧) وطالب بمنقذ يخلص الأوبرا الفرنسية من الخطب الطنانه والأساليب المفتعلة « ألا فليتقدم ذلك الذى عليه أن يعرض المأساة الصحيحة ، والملهاة الصحيحة ؛ عن المسرح الغنائى » ؛ وضرب مثلا لنص صالح « إفجينا فى أوليس » لبوربيديس[٢٢] . ترى هل سمع هذا النداء جلوك ، الذى كان يومها فى فينا ؛ أما فولتير فقد كرره فى ١٧٦١ متنبئاً :

« أننا نأمل أن يظهر عبقرى أوتى من القوة ما يحول به الأمة عن هذه الآفة [آفة التصنع والتكلف] ويضفى على الإخراج المسرحى . . . الكرامة والروح الخلقية التى يفتقر إليها الآن . . . أن سيل الذوق الفاسد متدفق ؛ وهو يغرق على غير وعى منا ذكرى ما كان يوما ما مجد هذه الأمة . ولكنى أكرر ثانية : يجب إرساء الأوبرا على أساس مختلف ؛ حتى لا تعود مستأهلة للك الاحتقار الذى تنظر به إليها كل أمم أوربا [٢٣] » .

وفى ١٧٧٣ وصل جلوك إلى باريس ، وفى ١٩ أبريل ١٧٧٤ قاد هناك أول أداء فرنسى « لافجينيا فى أوليس » . ولكن هذه القصة يجب ارجاؤها إلى حينها المناسب .

٣ — المسـرح

لم تنتج فرنسا فى هذه الفترة تمثيليات تتحدى النسيان — ربما باستثناء بعض التمثيليات التى بعث بها فولتير من ليدليس أو فرنيه . ولكن فرنسا منحت

الدراما كل تشجيع سواء فى العرض أو الاستحسان . ففى ١٧٧٣ أقام فكتور لوى فى بوردو أجمل مسرح فى المملكة ، له رواق فخم من الأعمدة الكونثية، ودربزين كلاسيكى ، وزخارف منحوته . أما الكوميدى — فرانسيز ، التى أقر جاريك بأنها خير الفرق التمثيلية فى أوربا ، فقد أنزلت « التياتر — فرانسيه » الذى شيد عام ١٦٨٣ فى شارع فوس ، بسان — جرمان — دى — بريه : ثلاثة صفوف من الشرفات فى مستطيل ضيق فرض الالقاء الخطابى وقرر الأسلوب الخطابى للتمثيل فى فرنسا . وعرضت مئات الأسر مسرحيات خاصة ، من فولتير فى فرنيه إلى الملكة فى تريانون — حيث لعبت مارى أنطوانيت دور كوليت فى مسرحية روسو « قسيس القرية » وحيث كان « أكثر من عشر نساء من علية القوم يمثلن ويغنين خيرا من أى ممثلات ومغنيات فى الملهى »[٢٤] ونبتت فى كل مكان فى فرنسا « مسارح صغيرة » . من ذلك أن ديرا نرناردیا ، قابعا فى غابات بلريس بنى مسرحا صغيرا لرهبانه « دون علم من المتعصبين وأصحاب العقول الضيقة » (كما قال أحدهم) .

ولمع نجوم الكوميدى — فرانسيز فوق ربوع فرنسا رغم منافسة الفرق الهاوية . وقد رأينا كيف أقبل أهل جنيف وفرنيه ليروا الممثل لوكان يمثل لفولتير فى شاتلين . أما اسمه الحقيقى فهو هنرى — لوى كان Cain ،(قابيل) ولكن هذا كان لقبا ملعونا غيره واه العذر فى تغييره . كذلك لم يجلب له وجهه الحظ ، وقد استقرت الآنسة كليرون فترة حتى تأنس إليه ولو كان ذلك فى تمثيليته ، وكان فولتير قد اكتشف مقدرته فى حفلة تمثيل للهواة ، وعلمه ، ووجد له مكانا فى التياتر — فرانسيه . وفى ١٤ سبتمبر ١٧٥٠ استهل لوكان حياته المسرحية بدور تيطس فى مسرحية فولتير « بروتس » ، وظل طوال جيل بعد ذلك يمثل دور البطل فى مسرحيات فولتير . وأحبه الشيخ الغضوب إلى النهاية .

على أن أحب من إعتلى مسرح فولتير إلى القلوب كانت الآنسة كليرون (بعد أن توفيت أدرين لكوفرير) وكان اسمها قانونا كلير — جوزيفه ليبوليت ليريس دلاتور . ولدت عام ١٧٢٣ دون زواج شرعى بين أبويها .

ولم يتوقع أهلها أن تعيش ، ولكنها عمرت إلى الثمانين وما هذا العمر المديد بالشيء الذي تغبط عليه دائما بطلات المسرح . ولم ير أهلها أنها تستحق عناء التعليم ، ولكنها تسللت إلى التياتر — فرانسيه ، وسحرتها المناظر والخطب المسرحية ، ولم تتغلب قط تماما على الميل للخطابة حتى وهي في نشوة الحب . وأعلنت أنها ستحترف التمثيل ، فهددتها أمها بأنها ستكسر زراعيها ورجليها ان هي مضت في انفاذ هـذه النية الآثمة ، (٢٦) . ولكنها أصرت ، وانضمت إلى فرقة تمثيلية متنقله . وسرعان ما تخلقت بأخلاق مهنتها . « إنني بفضل موهبتي ، وجمالي ، وسهولة الاتصال بي رأيت عددا هائلا من الرجال يركعون تحت قدمي ، بحيث استحال علي وقد أوتيت قلبا رقيقا بطبعه . . . ان امتنع على الحب »(٢٧) .

فلما عادت إلى باريس فتنت المسيو دلا بوبلنيير . وقد استمتع بها ثم استخدم نفوذه ليحصل لهـا على مكان في دار الأوبرا . وبعد أربعة شهور استطاعت دوقحه شاتورو ، خليلة الملك آنئذ : أن تدخلها فرقة الكوميدى فرانسيز . وطلبت إليها الفرقة أن تختار الدور الذي ستمثله أول مرة ، متوقعه منها أن تجرى على السنة المعهودة ، فتختار دورا صغيرا ، ولكنها اقترحت أن تمثل دور فيدر ، وعارضت الفرقة . ولكنها تركتها تنفذ مشيئتها . وتكللت مغامرتها بالنصر . وبعدها غدت نجم الأدوار المأساوية التي لم ينافسها فيها غير الآنسة دومنيل . وذاعت شهرتها بالفسق المقترن بشهوة الاقتناء . كانت ترفه عن لفيف من النبلاء ، وتتقاضى منهم أجرا طيبا ، وتجمع مكاسبها ، ثم تعطي كثيرا منها لعشيقها المفضل الشفاليه دجوكور ، الذي كان يحرر مقالات في الاقتصاد للموسوعة . كذلك دفعت ثمنا لملاطفة مارمونتيل ، الذي سنلتقي به عما قليل مؤلفا لكتاب « الحكايات الخلقية » . تأمل جانب المرأة في هذا الحب في خطابها له : « أممكن أنك لم تعرف أي معاناة سببتها لي (على غير عمد منك ، ولكنني كابدتها رغم ذلك) ، وان هذه المعاناة ألزمتني الفراش ستة أسابيع وأنا في خطر كبير ؟ لا أستطيع أن أصدق أنك كنت عليما بهذا ، وإلا لمـا ذهبت في صحبة بينما الناس جميعا يعرفون ما كنت فيـه »(٢٨) . ومع ذلك ظلت هي ومارمونتيل صديقين حميمين ثلاثين عاما .

وهو الذى حملها انتقاداته ومقترحاته على أن تحدث فى التمثيل حدثا .
ذلك أنها كانت إلى عام ١٧٤٨ تجرى على أسلوب ممثلى التياتر — فرانسيه فى الحديث المفتعل العاطفى ، والايماءات الفخمة ، والانفعالات المرتعدة . أما مارمونتيل فقد وجد هذا أمرا غير طبيعى يمجه الذوق . وكانت كليرون قد قرأت كثيراً وسط غرامياتها ، وأصبحت من أفضل نساء جيلها تعلما ، وأدخلتها شهرتها ورجاحة عقلها حظيرة المجتمع المثقف ، وأدركت أن أفرغ الطبول هو أعلاها صوتا . وفى عام ١٧٥٢ أكرهتها إصابة بالزهرى على اعتزال المسرح حينا . فلما أبلت قبلت عقدا بإحياء خمس وثلاثين حفلة فى بوردو . روت أنها فى أول ليله مثلت فيها هناك لعبت دور فيدر بالأسلوب التقليدى « بكل الضجيج والعجيج والحماقة التى كانت يومها تلقى الاستحسان فى باريس » وصفق لها الجمهور استحسانا . ولكن فى الليلة التالية لعبت دور أجريبن فى مسرحية راسين بريتا نيكوس بصوت هادىء وبحركات محسوبة ، وكظمت الانفعالات حتى المشهد الأخير . وضج النظارة بالهتاف . فلما عادت إلى باريس كسبت جمهورها القديم لأسلوبها الجديد . وحبذ ديدرو هذا الأسلوب بحرارة . وكانت فى ذهنه حين كتب « مفارقة الممثل » ومؤادها أن الممثل القدير هادىء متمالك نفسه فى داخله حتى فى أكثر لحظات أدواره انفعالا ، ثم تساءل أى تمثيل كان أروع من تمثيل كليرون [٢٩] » . وكانت تحب أن تصدم المعجبين بها فتروى لهم أنها تراجع ذهنها فى فواتيرها الشهرية وهى تلقى إلى الجمهور من الأشجان ما يستدر دموعه[٣٠] » . ولم يرحب فولتير بالأسلوب الجديد ، ولكنه أيدها تأييداً فعالا كما أيدته هى فى اصلاح ملابس المسرح وأثاثه . وكانت جميع الممثلات إلى ذلك الحين يلعبن أدوارهن — من أى أمة أو عصر — مرتديات زى باريس القرن الثامن عشر ، فى تنورات بأطواق موسعة وشعر مبدر ، ولكن كليرون فاجأت جمهورها باتخاذ زى زمان المسرحية لجسمها وشعرها ، فلما لعبت دور إيدامى فى تمثيلية فولتير « يتيمة الصين » كانت الثياب والأثاث صينية .

وفى ١٧٦٣ ذهبت كليرون إلى جنيف لتستشير الدكتور ترونشان . وطلب إليها فولتير أن تمكث معه فى فيلا دليس . « إن مدام دننس مريضة ، وكذلك أنا . وسيحضر مسيو ترونشان إلى مستشفانا ليعودنا نحن الثلاثة[٣١] ، وأنت ، وأعجب بها الحكيم العجوز إعجابا حمله على إغرائها بزيارة أطول لفرنيه ، وأقنعها بأن تشاركه فى حفلات عديدة بمسرحه ويظهره رسم قديم وهو فى السبعين من عمره راكعا أمامها فى اعتراف حار بالحب .

واعتزلت المسرح فى ١٧٦٦ وكانت صحتها قد اعتلت وهى بعد فى الثالثة والأربعين ، بل لم تعد قادرة على التحكم فى حديثها ، وهامت حباً بفتى نبيل أنيق كما فعلت لوكوفيير وباعت كل ممتلكاتها تقريباً لتنقذه من دائنيه ورد لها صنيعها ببذل حبه ، وماله لغيرها من النساء . ثم تلقت وهى فى التاسعة والأربعين دعوة من كرستان فريدرش كارل الكسندر ، حاكم آنزباخ وبايرويت البالغ من العمر ستة وثلاثين عاما للعيش معه فى آنزباخ ناصحة وخليلة . فذهبت (١٧٧٣) وظلت محتفظة بسلطانها عليه ثلاثة عشر عاماً ، وكان قد تشرب فى فرنسا بعض مثل التنوير ، وبتشجيع منها أجرى عدة اصلاحات فى إمارته ، فألغى التعذيب وأقر الحرية الدينية . وكانت آخر مآثرها أن أقنعته بأن ينام كل ليله مع زوجته . وبمضى الوقت أصاب الملل كليرون فتاقت إلى باريس فكان الأمير يصحبها إليها بين الحين والحين . وفى احدى هذه الرحلات اتخذ خليلة جديدة ، وترك كليرون فى باريس بعد أن أجرى عليها معاشاً طيباً ، وكانت الآن فى الثالثة والستين .

ولقيت الترحيب فى الصالونات ، حتى من مدام نكير الفاضلة ، وأعطت الدروس فى الالقاء للفتاة التى أصبحت فيما بعد مدام دستال . واتخذت عشاقا جددا منهم الرجل الذى تزوج بعد ذلك مدام دستال ذاتها التى سرها التخلص منه . وقد رتب للممثلة العجوز معاشاً مريحاً ، ولكن الثورة اختزلت معاشها فعاشت فى ضنك حتى زاد نابليون معاشها فى

١٨٠١ . وفى ذلك العام عرض عليها رجل يدعى المواطن دوبواربيه غراماً أخيراً . فثبطت عزيمته بخطاب مؤلم يلخص مأساة الكثير من الممثلات العجائز . قالت « لعل ذاكرتك مازالت تتخيلنى مشرقة ، فتية ، محاطة بكل مظاهر سمعتى الماضية . ولكن عليك أن تراجع أفكارك . فأنا لا أكاد أبصر ، وسمعى ثقيل ولم يعد لى أسنان ، ووجهى كله غضون ، وجلدى الذى جف بالجهد ايكسوهيكلى الضعيف . [٣٢]» ومع ذلك أتى وعزى أحدهما الآخر باسترجاع ذكرى شبابهما . ثم ماتت عام ١٨٠٣ إثر سقوطها من فراشها .

وكانت قد خلفت وراءها منذ سنين طويلة الدراما المأساوية الكلاسيكية التى أشاد فولتير ، أعظم كتابها فى القرن الثامن عشر ، بكلبرون معبرة عنها لا ضريب لها . فقد أتخم جمهور باريس ، وكثرته من الطبقة الوسطى ، بالخطب المسجوعة يلقيها الأمـــراء ، والأميرات ، والملوك ، وبدت تلك البحور « الاسكندرية » بحـــور كورينى وراسين التى تمشى مختالة على ستة أقدام (أى تفاعيل) — بدت الآن رمزاً للحياة الأرستقراطية ، ولكن أليس فى التاريخ سوى النبلاء ؟ بلى بالطبع . ورجل كموليير أبرز هؤلاء من قبل ، ولكن فى الملهاة ، أفليس هناك مآس ، من المحن العميقة والمشاعر النبيلة فى بيوت وقلوب البشر الذين تجردوا من الألقاب ؟ ورأى ديدرو أن قد آن أوان درامات البورجوازين ، وقال أنه إذا كان النبلاء قد تجنبوا العاطفية ، واشترطوا إلباس المشاعر قناعاً مهيباً ، فإن على الدراما الجديدة أن تطلق الوجدان من عقاله ، وألا تخجل من إثارة أشجان الجمهور وإدرار دموعه . وهكذا كتب هو وغيره من بعده « مسرحيات باكية » .

يضاف إلى هذا أن العديد من كتاب المسرحيات الجدد لم يكتفوا بتصوير حياة الطبقة الوسطى والإشادة بها ، بل هاجموا النبلاء ، والكهنة ، وحتى الحكومة آخر الأمر — هاجموا فسادها ، وضرائبها ، وبذخها ، وإسرافها ، ولم يقتصروا على التنديد بالاستبداد والتعصب (فقد أجاد فولتير هذا التنديد من قبل) بل امتدحوا الجمهوريات والديمقراطية ، ولقيت تلك الفقرات أشد الاستحسان من النظارة.[٣٣] وشارك المسرح الفرنسى عشرات القوى الأخرى فى الإعداد للثورة .

٤ — مارمونتيل

كتب هوراس ولبول من باريس فى ١٧٦٥ يقول « إن المؤلفين فى كل مكان ، وأنهم « أسوأ من كتاباتهم ، ولست أقصد بهذا ثناء على الكتاب أو ما يكتبون (٣٤) » ولا ريب فى أن ذلك العصر لم يكن ليضارع فى الأدب عصر فولتير وراسين ، ولا عصر هوجو وفلوبير وبلزاك ، ففى هذه الفترة القصيرة بين ١٧٥٧ و ١٧٧٤ ليس لدينا من الكتاب الجديرين بالذكر سوى روسو ومارمونتيل ، والجمرات الحية من نار فولتير ، وغليان ديدرو الدفين غير المنشور . ذلك أن الرجال والنساء أسلموا أنفسهم بقوة للحديث حتى كلت قرائحهم قبل أن يعتادوا الكتابة . وانقضى زمان العقل الاستقراطى ، واستأثرت الفلسفة والاقتصاد والسياسة بالجو ، وتغلب المضمون الآن على الشكل . لا بل إن الشعر نزع إلى الدعاية . فقد قلدت قصيدة سان — لامبير الفصول » (١٧٦٩) جيمس طومسن ، ولكنها نددت بالتعصب والترف تنديداً فى غير أوانه ، وتمثلت الشتاء ... كما تمثله الملك لير .. عواصف ثلجية تقصف حول اكواخ الفقراء .

ويدين جان — فرنسوا مارمونتيل فى صعود نجمه لدهائه ، وللنساء ، ولفولتير . ولد فى ١٧٢٣ . وقد كتب فى شيخوخته « مذكرات أب » (١٨٠٤) وهى تعطينا صورة رقيقة لطفولته وشبابه . ومع أنه اعتنق الشكوكية وكاد يعبد فولتير ، إلا أنه لم يذكر إلا بالخير أهله الأتقياء الذين ربوه ، واليسوعيين العطوفين المخلصين الذين علموه . وقد أحبهم حبا جما حمله على أن ينذر نفسه لله ، وتطلع إلى الانضمام إلى رهبنتهم ، وعلم فى مدارسهم بكليرمون وتولوز . ولكنه كالكثيرين من أفراخ اليسوعيين ، طار بعيدا على أجنحة التنوير ، وفقد على الأقل عذريته الفكرية . وفى ١٧٤٣ قدم أبياتاً من شعره على فولتير فاستمتع بقراءتها أيما استماع ، وأرسل إلى مارمونتيل مجموعة من أعماله صححها بيده . واحتفظ الشاعر الشاب بها ميراثا مقدساً ، وأقلع عن كل تفكير فى احتراف القسوسية . وبعد عامين حصل له فولتير على وظيفة فى باريس ، وعلى إذن بدخول التياتر — فرانسية مجانا ، لا بل

إن فولتير ، بما فى قلبه — قلب الأب المحروم من البنين — من طيبة مستنيرة. باع قصائد مارمونتيل وبعث إليه بحصيلة البيع . وفى ١٧٤٧ قبلت تمثيلية مارمونتيل « دنيس الجبار » (دبونيسيوس) — التى أهداها إلى فولتير ، وأخرجت على المسرح ، وحققت نجاحا لم يحلم به « فقد أصبحت « مشهور وغنيا فى يوم واحد » . (٣٥) وسرعان ما أصبح سبعـــا صغيرا من سباع الصالونات ، فطعم على موائدها ، ودفع الثمن ذكاء وظرفا ، ووجد سبيلا إلى فراش كليرون .

وآتته تمثيلية الثانية « أريستومين » بمزيد من المال ، والأصدقاء ، والخليلات. وفى ندوات مدام دتنسان التقى بفونتنيل ، ومونتسكيو ، وهلفتيوس ، وماريفو ، وعلى مائدة البارن دولباخ سمع ديدرو ، وروسو ، وجريم وشق طريقة صعدا فى المجتمع تحدوه يد النساء المرشدة . وأدخل إلى البلاط بعد أن مدح لويس الخامس عشر بأبيات ذكية . وافتتنت بومبا دور بوجهه المليح وشبابه المتفتح ، فأقنعت أخاها بأن يستخدمه سكرتيرا ، وفى ١٧٥٨ عينته محرراً للجريدة الرسمية « مركير دفرانس » وكتب نصاً لرامو ، ومقالات للموسوعة . وأعجبت به مدام جوفران إعجابا حملها على أن تقدم له مسكنا مريحا فى بيتها ، حيث عاش عشر سنوات ضيفا بالأجر .

وقـــد كتب لصحيفة المركير (١٧٥٣ — ٦٠) سلسلة من « الحكايات الأخلاقية » رفعت تلك الدورية إلى مقام الأدب . ومن إحدى هذه الحكايات تكون فكرة عنها كلها . فسليمان الثانى ، بعد أن مل المباهج التركية ، يطلب ثلاث حسان أوربيات . أما الأولى فتقاوم شهراً ، ثم تستسلم أسبوعاً ثم تنجى جانباً . وأما الثانية فتغنى غناء رخيما ، ولكن حديثها منوم . وأما الثالثة — روكسالانا — فلا تكتفى بالمقاومة ، بل تسب السلطان لأنه داعر مجزم ويصيح السلطان « أنسيت من أنا ومن أنت ؟ وتجيب روكسالانا « أنت قوى ؛ وأنا جميلة ، فنحن إذن صنوان . « وهى ليست بارعة الجمال ، ولكن لها أنفاً أخنس (مرتفع الأرنبة) ، وهو يغلب السلطان على أمره . فيحاول بكل الحيل أن يكسر مقاومتها ولكنه يخفق . ويهدد بقتلها ، فتقترح أن تعفيه

من هذا العناء بالانتحار . ويسبها ؛ فتسبه سبا أقذع . ولكنها تخبره أيضاً أنه جميل ، وأنه لا يحتاج إلا لإرشادها لكي يصبح فى روعة الفرنسيين . فيغتاظ ويبتهج . وأخيراً يتزوجها ويجعل منها مليكة . وفى أثناء حفل الزفاف يسأل نفسه « أيمكن أن يطيح أنف أخنس صغير بقوانين امبراطورية ؟ (٣٦) والعبرة عندما ما رمونتيل : إن صغار الأشياء هى التى تحدث جلائل الأحداث ، ولو عرفنا تلك التوافة الخفية لراجعنا التاريخ مراجعة كاملة .

وسارت الأمور كلها تقريباً رخاء مع ما رمونتيل إلى أن نشر (١٧٦٧) قصة سماها « بيليزير » . وكانت قصة ممتازة ؛ ولكنها دافعت عن التسامح الدينى ، وتشككت فى « حق السيف فى أن يبيد الهرطقة ، والألحاد ، وعدم التقوى ، وأن يضع العالم كله تحت نير الدين الحق(٣٧) » . وادانت الصوربون الكتاب لا حتوائه على تعليم يستحق الشجب . ومثل ما رمونتيل أمام عميد الصوربون واحتج عليه قائلا « قـــل لى ياسيدى ، ألست تدين الآن روح العصر لا روحى(٣٨) ، » وظهرت روح العصر فى جرائه ، فى إعتدال العقوبة . ولو نشر قصته تلك قبل عشر سنوات لزج به فى الباستيل ولصودر — كتابه ؛ أما الآن فالذى حدث هـــو أن القصة راجت رواجا كبيراً ، وظلت تحمل « إذن الملك وامتيازه » وأكتفت الحـــكومة بالتوصية بأن يلزم الصمت حول الموضوع(٣٩) ، على أن مدام جوفران إنزعجت كثيراً حين لم يقتصر الأمر فى قرار الصوربون بمصادرة الرواية على قراءته فى الكنائس ، بل تجاوزه إلى تعليقه على باب بيتها . فاقترحت على مارموتتيل فى لطف أن يبحث عن مسكن آخر .

ووقع واقفا كالعادة . ففى ١٧٧١ عين مؤرخا رسميا ملكيا براتب حسن ، وفى ١٧٨٣ أصبح السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية ، وفى ١٧٨٦ عين أستاذا للتاريخ فى الليسيه . وفى ١٧٩٢ حين كان فى التاسعة والستين وقد عززته إنحرافات الثورة ، إعتكف فى أفرو ؛ ثم فى أبلوفيل ؛ وهناك كتب « مذكراته » التى اغتفر فيها حتى للصوربون إساءاتها . وقضى سنواته الأخيرة فى فقر لا يشكو ولا يتذمر ، شاكرا لأنه عاش حياة غنية ممتعة . ومات فى آخر يوم فى عام ١٧٩٩ .

٥ — حياة الفن

(١) النحت

كان الملك ذواقة فى الفن ، وكذلك كان نبلاء بلاطه ونبيلاته ، والمليونيرات الذين كانوا الآن يتحرقون شوقا للهيمنة على الدولة . وكان حدثا هاما فى التاريخ الفرنسى أن تبدأ مصانع سيفر ، التى أسستها مدام دبومبادور من قبل ، إنتاج الخزف الصينى القاسى الغجينة عام ١٧٦٩ ؛ ومع أن الإلمان فى درسدن وما يسن قد فعلوا هذا قبل ستين عاما ، فأن منتجات سيفر سرعان ماكسبت سوقا أوربيه . ولم ير كبار الفنانين أمثال بوشيه ، وكافييرى ، وباجو ، وبيجال ، وفالكونيه ، وكلوديون ، ما يغض من قدرهم فى رسم التصميمات لصينى سيفر . واستمر خزافو سيفر ، وسان كلو ، وشانتيى ، وفانسين ، فى إنتاج القاشانى والصينى الطرى العجينة فى رسوم غايه فى الإتقان .

وتضافرت مهارات الخزافين ، وصناع المشغولات المعدنية والأثاث الخشبى وقطع النسيج المرسومة ، لتجميل الحجرات الملكية وغرف النبلاء واقطاب المال . وكانت "ساعات الجدارية ، كتلك التى صممها بوازو وصبها جرتيير بالبرونز[٤٠] إحدى حليات العصر المميزه . وأبدع بيير جوتيير وجاك كافييرى فى صناعة « الأورمولو » ومعناه الحرفى « الذهب المطحون» ، وهو فى حقيقته سبيكة أهم مكوناتها النحاس الأحمر والزنك ، تنقش وترصع بالجواهر ويكفت بها الأثاث . وألف كبار صناع الأثاث نقابه قوية تعتز بنفسها ، اشترط على عضائها أن يختموا إنتاجهم بأسمائهم علامة على مسئوليتهم عنه . وكان خيرهم فى فرنسا وافدا من المانيا : جال فرنسوا أوبن وتلميذه جان — هنرى ريزنر ، وسخر هذان مهارتهما فى صنع مكتب فخم للملك لويس الخامس عشر (١٧٦٩) ، وهو تحفة روكوكية معربدة من رسوم ونقوش وتطعيم وتذهيب دفع الملك ٦٣,٠٠٠ ابره ثمنا لها.

وقد استمتع بها نابليون الأول ونابليون الثالث ، وسلمت إلى اللوفر فى ١٨٧٠ وتقدر الآن بخمسين ألفا من الجنيهات [٤١] .

فى هذا العهد الذى علق مثل هذه الأهمية على القيم اللمسية ، كان النحت يقدر بقدره الكلاسيكى تقريبا ، فالشكل لبه ، وكانت فرنسا تعلم أن الشكل ، لا اللون ، هو روح الفن . وهنا أيضاً فاقت النساء الآلهة ، لا فى عيوب الواقع الطبيعية ، بل فى المثالى من الأشكال والثياب التى إستطاع النحاتون المرهفو الحس أن يؤلفوا بينها ويصوروها . ولم يزين النحت القصور والكنائس فحسب ، بل الحدائق والمتنزهات العامة ، وكانت التماثيل التى أقيمت مثلا فى حدائق التويلرى من أحب التماثيل إلى الناس فى باريس ، وقلدت بوردو ، ونانسى ، ورين ، ورامس ، باريس فى التراكوتا (الطين النضيج) والرخام والبرونز .

وأخرج جيوم كوستو الثانى الآن أروع إنتاجه (وكان يصغر العهد بسنة واحدة فقط) ففى ١٧٦٤ عهد إليه فردريك الثانى بنحت تماثيل لفينوس ومارس إله الحرب ، وفى ١٧٦٩ أرسلها كوستو الى بوتسدام لقصر صانسوسى . كذلك بدأ فى ١٧٦٩ تحت المقبرة الفخمة المشيدة للدوفين والدوفينة (والدى لويس السادس عشر) لكاتدرائية صانس ، وعكف على هذا العمل بهمة إلى أن مات (١٧٧٧) . ورأى فى أخريات عمره ظهور أربعة نحاتين من ألمع من عرفتهم فرنسا إلى يومنا هذا ، وهم بيجال وفلاكونيه ، وكافييرى ، وباجو .

أما بيجال فقد قصد روما على نفقته ، يعينه على ذلك كوستو ، بعد أن أخفق فى نيل « الجائزة الكبرى » التى تدفع لنائلها مصروفات تعلمه الفن فى روما . فلما عاد إلى باريس شق طريقه إلى أكاديمية الفنون الجميلة برائعته المسماة « عطارد يثبت خفيه » ، هذه الرائعة التى صاح الفنان للعجوز جان — باتست لموان حين رآها « وددت لو كنت راسمها ! » كذلك أعجب بها لويس الخامس عشر ، وأرسلها إلى حليفه فردريك الثانى فى ١٧٤٩ . وقد وجدت سبيلها بطريقة ما عودا إلى اللوفر ، حيث نستطيع أن نتأمل المهارة الفائقة

التى ألمع بها الفنان الشاب إلى لهفة الرسول الأولمبى على النهوض والانطلاق . ووافق فن بيجال مزاج مدام دبومبادور ، فعهدت إليه بالكثير من المهام . وقد صنع لها تمثالا نصفيا ، محفوظا الآن بمتحف المتروبولتان للفن بنيويورك ، وحين هدأ ما بينها وبين الملك من غرام مشبوب واستحال إلى صداقة ، نحت لها تمثالا على هيئة « ربة الصداقة » (١٧٥٣) . [٤٥] وصنع تمثالا للويس بوصفه مجرد « مواطن » للميدان الملكى برامس ، وأتم تمثال بوشاردون « لويس الخامس عشر » للميدان الذى يسمى الآن ميدان الكونكورد . وصور ديدرو فى البرونز ، رجلا تمزقه الفلسفات المتصارعة . ولكنه أطلق لنفسه عنان التمثيل فى المقبرة التى نحتها لرفات المرشال دى دساكس بكنيسة القديس توما بستراسبوج — فهو المحارب العاشق يركب إلى الموت كأنه راكب إلى معركة ينتصر فيها .

أما أشهر التماثيل الذى كان حديث الناس فى هذا العهد فذلك الذى اختارت صفوة مفكرى أوربا بيجال لينحته لفولتير . وقد اقترحته مدام نكير فى احدى أمسياتها فى ١٧ ابريل ١٧٧٠ ورحب بالاقتراح جميع ضيوفها السبعة عشر (ومنهم دالامبير ، وموريللية ، ورينال ، وجريم ، ومارمونتيل) ودعى عامة الناس للمساهمة فى النفقة . وأثيرت بعض الاعتراضات ، إذ لم يكن من المألوف إقامة التماثيل لأى احياء سوى الملوك ، ولم يصنع تمثال لكورنى أو راسين قبل موتهما . ورغم ذلك تدفقت التبرعات ، حتى من نصف ملوك أوربا ، وأرسل فردريك مائتى جنيه ذهبى لتخليد ذكرى صديقه وخصمه القديم . واستأذن روسو فى المساهمة ، فاعترض فولتير ، ولكن دالامبير اقنعه بالموافقة . وعرض فريرون ، وبالايسو ، وغيرهم من خصوم جماعة الفلاسفة أن يشاركوا فى التحية ، ولكن عرضهم رفض . ووضح أن الفلاسفة كانوا أبطأ من خصومهم مغفرة وصفحا . أما فولتير نفسه فقد نبه مدام نكير إلى أنه لا يصلح موضوعا لتمثال :

« لقد بلغت السادسة والسبعين ، ولم أكد أتماثل للشفاء من مرض عبث بجسدى وروحى عبثا منكرا ستة أسابيع . ويقولون إن مسيو بيجال قادم ليصنع تمثالا يحكى محياى . ولكن هذا يا سيدتى يقتضى أن يكون لى محيا ،

ومن العسير التكهن بالموضع الذى كان فيه هـــذا المحيا . فعيناى غائرتان ثلاث بوصات ، وخداى من الرق البالى الملصق لصقا سيئا على عظام لاترتكز على شىء ، وقد فقدت الأسنان القليلة التى كانت لى . وليس كلامى هذا من قبيل التمنع ، ولكنه الصدق الخالص . ولم ينحت قط تمثال لرجل مسكين فى حالتى هذه ، ولعل مسيو بيجال سيعتقد أنكم تهزأون به ، أما أنا فينبغى أن يكون عندى من حب الذات ما لا أجرؤ معه أبدا على الظهور فى حضرته . ولو شاء أن يضع حدا لهذه المهمة الغريبة لنصحته بأن يأخذ نموذجه ، بتغيرات طفيفة ، من تمثالى الصغير المصنوع من صينى سيفر[٤٣]».

وضاعف بيجال المشكلة باقتراحه ان يصنع تمثالا عاريا لذلك العفريت الأشهر ، ولكنهم ثنوه عن هذا الرأى . وقصد فرنيه فى يونيو ، وجلس إليه الفيلسوف الخجول ثمانية أيام ، فى فترات متقطعة ، ولكن فى تململ شديد — يملى على سكرتيره ، ويومىء للإيماءات وينفخ حبات البسلا على أشياء شتى فى الحجرة — حتى قاربت أعصاب المثال على الانهيار[٤٤] . فلما عاد إلى باريس بقالب للتمثال عكف على مهمته شهرين ، ثم أعلن النتيجة فى ٤ سبتمبر ، وأقبل نصف الصفوة الممتازة يعجبون ويبتسمون . والتمثال يقوم الآن فى دهليز مكتبة المعهد .

ولم يكن من مزاحم لبيجال فى زعامة النحت فى هذه الحقبة غير إتيين موريس فلاكونيه ، ويروى ديدرو قصة لطيفة عن خصومتهما . ذلك أن فلاكونيه الذى كان يصغر غريمه بعامين تجنب أول الأمر منافسته مباشرة ، فكان يصنع التماثيل من الصينى ، وكان من أبهج هذه التماثيل تمثال « بجماليون » الذى صنعه دورو على تصميم فلاكونيه ، وفيه تبدو دهشة النحات الاغريقى إذ ينحنى تمثاله « غلاطية » المرمرى للتحدث إليه . واستطاع ذلك التمثال أن يرمز إلى حقيقة أوشك الناس أن ينسوها ، وهى أنه ما لم يتحدث إلينا العمل الفنى فهو ليس بفن . فلما اطلع بيجال على هذه القطعة من الطين وقد تحولت إلى رمز خالد فاه بالثناء التقليدى يثنى به فنان عظيم على آخر : « وددت لو كنت صانعه ! » ولكن فلاكونيه لم يرد التحية بمثلها تماما حين

رأى تمثال بيجال « لويس الخامس عشر مواطنا » فقد قال « انى لا أحبك يا مسيو بيجال ، وأعتقد أنك تبادلنى هذا الشعور . وقد رأيت تمثال « المواطن » الذى صنعته . لقد كان ممكنا خلق هذا العمل ، لأنك قمت بهذا فعلا ، ولكنى لا أعتقد أن الفن يستطيع أن يجاوزه بخط واحد وهذا لا يمنعنا من أن نظل كما كنا(٤٥) .

وقد نغصت عيش فلاكونيه أربعون سنة من المحن قبل أن يظفر بالتقدير التام ، فانطوى على نفسه وعاش فى بساطة ديوجينية ، وأصبح سريع الشجار ، وغض من قدر فنه ، وأعرب عن احتقاره للشهرة سواء فى حياة صاحبها أو بعد موته . واتته الشهرة آخر الأمر بتمثاله « المستحمة » (١٧٥٧) ... وهى مستحمة جميلة تجس حرارة الماء بأصابع قدمها .(٤٦) وآنست إليه الآن مدام دبومبادور ، فنحت لها « الحب الداهم » الذى يمثل كيوبيد يهدد باطلاق سهم فيه عدوى الحب . وأصبح فلاكونيه حينا فى عالم النحت ما كانه بوشيه وفراجونار فى عالم التصوير مبدعا دغدغات فتانه مثل « فينوس وكيوبد » ، « وفينوس تخلع ثيابها أمام باريز » .

وقد أبدع فى تصميم الشمعدانات الزينية ، والنوافير الصغيرة ، والتماثيل الدقيقة ، وحفر الرخام « ساعة ربات الحسن الثلاث » المحفوظة الآن فى اللوفر ، وأبهج بومباذور بتمثيلها فى صورة الموسيقى(٤٧) » . وفى ١٧٦٦ قبل دعوة كاترين الثانية له للذهاب إلى روسيا . وقد صنع فى سانت بطرسبوج رائعة « بطرس الأكبر على جواد يخطر» ، وشارك ديدرووجريم حظوتهما عند الأمبراطورة ، وعمل لها بهمه طوال اثنى عشر عاماً ، ثم تشاجر معها ومع وزرائها ، ورحل فى نوبة غضب عائدا إلى باريس . وفى ١٧٨٣ أصيب بالفالج ، ولزم حجرته فى الأعوام الثمانية الباقية له ، وقد زادت نظرته إلى الحياة اكتئاباً .

أما جان — جاك كافيرى فكان فى وسعه أن يكون أكثر بشاشه وانشراحاً لأنه ربى على النجاح فى رعاية أبيه جاك ، الذى كان من أئمة — صناع البرونز فى العهد الأسبق . وقد شق طريقه مبكراً إلى أكاديمية الفنون

الجميلة بتمثال عجوز لاتكسوه غير سبلة سماه « النهر » . وكلفه مسرح الكوميدى — فرانسيز بتزيين قاعاته بتماثيل نصفيه للمسرحيين الفرنسيين ، فأبهج الناس جميعاً بتماثيله التي صورت كورنيى ، وموليير وفولتير ، فى صور مثالية . أما رائعته فتمثال نصفى للكاتب المسرحى جان دروترو نقله عن حفر فى حوزة الأسرة . وهو أشبه بدارتنيان فى كهولته — شعر مرسل ، وعينان متقدتان ، وأنف مشاكس ، وشوارب كثة ، وهو من أبدع التماثيل النصفية فى تاريخ النحت. وبدافع الغيرة من مسرح الكوميدى — فرانسيز ، كلفت فرقة الأوبرا كافييرى بأن ينحت التماثيل لأبطالها هى أيضاً ، فصنع التماثيل النصفية للوللى ورامو ، ولكن هذه التماثيل اختفت . وبقيت لوحة جميلة لفتاة صغيرة[٤٨] » . ربما كانت من أعضاء فريق باليه الأوبرا ، وهى توفيق ساحر جمع بين العينين الخجولتين والصدر الناهد .

أما أحب المثالين لمدام دوبارى فهو أوجستن باجو . فبعد أن قضى الفترة المألوفة لتلمذة الفنانين فى روما ، حقق ثراء مبكرا بمسا تلقى من مهام ملكية وتكليفات من خارج فرنسا . وقد صور الخليلة الجديدة فى نحو اثنتى عشرة لوحة . ويرتدى التمثال المحفوظ باللوفر رداء كلاسيكيا منقوشاً نقشاً رائعاً . وصور بوفون للجاردان دروا بناء على طلب الملك[٤٩] . ثم خلد ديكارت ، وتورين ، وبسكال ، ونوسوبه ، وأروع أعماله مازال حياً فى الصور البارزة التي حلى بها أسفل المقصورات فى دار الأوبرا بفرساى . وعمر حتى قام بأعمال للويس السادس عشر ، وبكى على إعدام ذلك الملك ، وشهد نابليون يبسط سلطانه الشامل على القارة .

ب — العمارة

هل قامت فى فرنسا خلال هذه الأعوام الثمانية عشر عمارة خالدة؟ لم يقم إلا القليل . فالكنائس كانت أوسع من أن يملأها من بقى من المؤمنين . والقصور أخذت تثير غيرة الجماهير التي طحنها الجوع . وكان تجدد الاهتمام بالمعمار الرومانى نتيجة للحفائر التي أجريت فى هركولانيوم (١٧٣٨) وبومبى (١٧٤٨ — ٦٣) يدعم إحياء الطرز الكلاسيكية الخطوط ذات البساطة

والوقار ، وواجهة الأعمدة والقوصرة ، والقبة الفسيحة أحياناً . وكان جاك — فرنسوا بلوندل ، الأستاذ بالأكاديمية الملكية للعمارة ، نصيراً متحمساً لهذه الأشكال الكلاسيكية ، وأصدر خلفه جوليان — دافيد لروا ، فى ١٧٥٤ ، رسالة سماها « أجمل آثار الإغريق » زادت من سرعة الانتشاء بهذه الآثار . وقد نشر آن — كلود تيبير ، كونت دكايلوس ، بعد أن ساح كثيراً فى إيطاليا واليونان والشرق الأدنى (١٧٥٢ — ٦٧) ، ثمانية مجلدات خطيرة سماها « مختارات من الآثار المصرية ، والأتروسيكية ، واليونانية ، والرومانية ، والغالية » موضحة فى عناية ببعض رسومه ؛ وتأثرت دنيا الفن الفرنسى كلها حتى السلوك الفرنسى ، تأثراً قوياً بهذا الكتاب فمالت إلى نبذ شطحات الباروك ونزوات الروكوك رجوعاً إلى خطوط الطرز الكلاسيكية الأكثر نقاء. وهكذا نجد جريم يقول لقرائه فى ١٧٦٣ :

« ظللنا سنوات نبحث بحثاً جاداً عن الآثار والأشكال القديمة وأصبح الميل لها عاما حتى عدا من الأمور المقررة الآن أن يؤدى كل شيء على الطريقة اليونانية à la grècque من العمارة إلى صنع القبعات ، فنساؤنا يصففن شعورهن على الطريقة اليونانية ، ووجهاؤنا يرونه عاراً إن لم يمسكوا علبة صغيرة على الطريقة اليونانية »[٥٠] .

أما ديدرو ، رسول الرومانسية البورجوازية ، فقد استسلم فجأة للموجة الجديدة (١٧٦٥) حين قرأ ترجمة لكتاب وثكلمان « تاريخ الفن القديم » وكتب يقول « يخيل إلى أننا يجب أن ندرس القديم لكى نتعلم رؤية الطبيعه » [٥١] . وكانت هذه العبارة فى حد ذاتها ثورة .

وفى ١٧٥٧ بدأ جاك — جرمان سوفلو بناء كنيسة القديسة جنفييف ، التى نذر لويس الخامس عشر خلال مرضه فى متز أن يشيدها للقديسة راعية باريس حالما يتماثل للشفاء . وأرسى الملك بنفسه حجر الأساس ، وأصبح بناء هذا الصرح « الحدث المعمارى العظيم فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر » فى فرنسا [٥٢] . وقد صممها سوفلو على شكل معبد رومانى ، برواق من قوصرة منحوته وأعمدة كورنثية ، وأربعة أجنحة تلتقى فى صليب يونانى

فى خورس أوسط تحت قبة ثلاثية . واتسمت كل مرحلة تقريباً من مراحل البناء بالجدل . ومات سوفلو فى ١٧٨٠ بعد أن أرهقته وفتت فى عضده الهجمات التى شنت على تصميمه ، وخلف البناء ناقصاً . وتبين أن الركائز التى صممها لتحمل القبة أضعف من أن تحملها ، فأحل شارل-اتيين كوفلييه محلها دائرة — من الأعمدة تفوقها جمالا . وحولت الثورة هذه الرائعة من روائع إحياء الفن القديم من هدفها الدينى إلى هدف دنيوى ؟ فسمتها من جديد البانتيون ، تذكاراً لرائعة ماركوس أجريبا فى روما ، لتكون مثسوى لـ « جميع آلهة » النظام الجديد ، حتى فولتير ، وروسو ، ومارا ، ولم تعد كنيسة مسيحية ، بل غدت مقبرة وثنية ، وقد رمزت فى عمارتها ومصيرها إلى انتصار الوثنية المطرد على المسيحية .

وأحرز الشكل الكلاسيكى نصراً آخر فى كنيسة المادلين (المجدلية) الأولى التى بدىء تشيدها عام ١٧٦٤ ، فحلت صفوف الأعمدة والأجنحة المستوية السقوف محل العقود والبواكى ، وغطت الخورس قبة . وأطاح نابليون بها كلها قبل أن تنجز لتحل محلها كنيسة المادلين التى تتبوأ مكانها اليوم والتى هى أشد إمعاناً فى الكلاسيكية .

كان هذا الانقلاب إلى الطرز الكلاسيكية الوقورة ، بعد إسراف الباروك المتمرد فى عهد لويس الرابع عشر وإناقة الروكوك اللعوب فى عهد لويس الخامس عشر ، جزءا من الانتقال إلى « طراز لويس السادس عشر » فى عهد لويس الخامس عشر نفسه — وهو طراز البناء ، والأثاث ، والزخرفة الذى سيتخذ اسم الملك الذى أطاحت الجيلوتين برأسه . وضبط الفن نفسه فتحول عن المنحنيات الكثيرة والزخارف المسرفة إلى البساطة المقتصدة ، بساطة الخطوط المستقيمة والشكل البنائى . وكان اضمحلال المسيحية قد انتزع من التسامى القوطى المفرط قلبه ، ولم يترك للفن ملاذاً غير تحفظ رواقى تجرد من الآلهة وتشبث بالأرض .

أما أعظم المعماريين الفرنسيين فى هذا الجيل فهو جاك - آنج جابرييل ، الذى أورثه اسلافه العمارة فى عروقه . عهد إليه لويس الخامس عشر

(١٧٥٢) بإعادة بناء قلعة قديمة فى كومبين ، فجمل مدخلها ببوابة إغريقية ذات أعمدة دورية ، وكورنيش بدنطيل (مسنن) ، ودرابزين خال من الزخرف . ونهج هذا النهج من التصميم فى إعادة بناء الجناح الأيمن فى قصر فرساى (١٧٧٠) . وأضاف لهذا القصر (١٧٥٣ — ٧٠) داراً أنيقة للأوبرا . وبفضل الأعمدة المستوية ، والكرانيش الرقيقة النقوش ، والدرابزين الجميل ، أصبحت هذه الدار من أجمل المبانى الداخلية فى فرنسا. وحين سئم لويس ما فى حياة البلاط من علنية وتكلف ، لجأ إلى جابرييل ليبنى له « بيتاً صغيراً » تستره الغابات واختار جابرييل موقعاً يبعد ميلا عن القصر ، وشاد عليه بطراز النهضة الفرنسية « البتى تريانون » (١٧٦٢ — ٦٨) . هنا كانت بومبا دور تمنى النفس بالاستمتاع بحياة العزلة والدعة وهناك مرحت دوبارى وقصفت برهة ، ثم جعلته مارى انطوانيت منتجها المفضل كأنها الراعية الملكية فى تلك الأيام الخلية السعيدة والشمس ما تزال تشرق على ربوع فرساى .

حـ — جروز

كانت الصورة حلية أثيرة فى جو البيوت الأرستقراطية الحميم . فالتماثيل باردة عديمة اللون ؛ تسر العين والعقل دون القلب والنفس ، أما الصور فتستطيع أن تعكس تقلب الأمزجة والأذواق ، وأن تنقل الروح إلى الأماكن الحلوية ، أو الأشجار الظليلة ، أو المشاهد النائية والجسد باق داخل الجدران . وهكذا نرى كلود — جوزف فرنية يرسم من السفن التى تمخر عباب البحار الفرنسية عدداً بلغ من كثرته إن لويس الخامس عشر قال فى نكتة مشهورة إنه لا حاجة به لبناء المزيد منها . واستأجرت الحكومة الفرنسية فرنية ليزور الثغور ويرسم السفن الراسية فيها ، ففعل ، وجعل فرنسا فخورة بأساطيلها . وحصل ديدرو على إحدى صور فرنيه للبحر والأرض ، وغلا فى تقديرها غلوا حتى لقد توسل إلى إله إرتجله إتجالا فقال « أنى أتخلى لك عن كل شىء ، فخذه كله ، إلا فرنيه[٥٣] » . — وهناك أومير روبير ، الذى لقب « روبير الاطلال » نعم كله لأنه زود كل صور مناظره الطبيعية تقريباً بالأطلال

الرومانية مثل « كوبرى جار فى نيم » ومع ذلك كان القوم « يتهافتون عليه » فى صالونات باريس كما تؤكد لنا مدام فيجيه — لوبرون ، رغم شغفه المدمر بالأكل[٥٤] . ثم هناك فرنسوا ... أوبير درواى ، الذى حفظ لنا فى تصوير مرهف جمال المركيزة دسور والطفولة البريئة للغلام الذى سيصبح شارل العاشر ولاخته مارى أدليد[٥٥] . ولكن لنلق نظرة أكثر تدقيقا على جروز وفراجونار .

أما جان — باتيست جروز فقد صنع بفرشاته ما صنعه روسو وديدرو بقلمهما ؛ إذ أضفى على الوانه إشراق العاطفة ، وجعل نفسه « آيليز » البورجوازية . فالعاطفه أسعد من التكلف والصقل ، وليست ضحلة مثلها ، وعلينا أن نغفر لجروز رؤيته الجوانب السارة من الحياة وتصويرها ، وحبه لوثب الأطفال المرح ؛ وبراءة البنات الجميلات الهشة ، والقناعه المتواضعة لبيوت الطبقة الوسطى . فلولا جروز وشاروان لتوهمنا أن فرنسا كلها كانت منحطة فاسدة ، وأن دويارى كانت نموذجها ، وأن فينوس ومارس كانا ربيها الوحيدين . أما الحقيقة فهى أن الأشراف هم المنحطون ، وأن لويس الخامس عشر هو الفاسد ، وأن الارستقراطية والملكية هما اللذان سقطا فى الثورة . أما جماهير الشعب - باستثناء رعاع الريف والمدن . . فقد احتفظت بالفضائل التى تنقذ أمة من الأمم ؛ وقد صورها جروز . وحيا ديدرو شاردان وجروز ، لا بوشيه وفراجونار ، باعتبارهما صوت فرنسا وسلامة روحها .

ويروى عن هذا الفنان فى شبابه ما يروى عادة من قصص عن شباب الفنانين : اراد أن يرسم ، فمنعه أبوه ظنا منه بأن هذه الرغبه ليست سوى ستار للكسل ، وكان الغلام يتسلل من فراشه ليلا ليرسم الصور . فلما وقع بصر أبيه على صورة منها لانت قناته فأوفده ليدرس على يد مصور فى ليون . ولم يطل رضاء جان — باتيست عما استطاع أن يتعلمه هناك ، فيم شطر باريس . وعمل فترة فى الفقر الذى تمتحن به الموهبة الشابة . وكان محقا فيما بعد فى إبراز الجانب الأفضل فى الناس ، لأنه وجد كما يجد معظمنا

الكثير من العطف مختلطا بما فى الدنيا من عدم مبالاة وانشغال عن الموهبة . وحوالى عام ١٧٥٤ اشترى إجماع للفنون يدعى إلا ليف دجوللى صورة رسمها جروز تسمى « رب الأسرة » (وقد استعمل ديدرو هذا العنوان ذاته لتمثيليته الثانية عام ١٧٥٨) وشجعه على مواصلة التصوير . ورأى الفنان الذى كان يعلم التصوير للأسرة المالكة صورة بريشة جروز ، فرشحه للأكاديمية . ولكن كل مرشح كان ينتظر منه أن يقدم خلال ستة أشهر رسما لمشهد من مشاهد التاريخ . ولم تكن هذه المشاهد التاريخية مما يوافق مزاج جروز ، فترك حقه فى الترشيح يسقط ، وقبل ما عرضه الأبيه جوجنو من تمويل رحلته إلى روما (١٧٥٥) .

وكان قد بلغ الثلاثين ، ولا بد أنه أحس قبل ذلك بزمن بسحر الأنثى ، أو ليس نصف الفن نتاجا جانبيا لتلك القوة القاهرة ؟ وقد خبرها فى روما خبرة أورثته تباريح الجوى . ذلك أنه عهد إليه بتعليم الرسم لليتتيا ، ابنة أحد الأدواق ، وكانت فى ميعة الصبا ، فما الذى يستطيعه إلا أن يقع فى غرامها ؟ وكان مليح الصورة ، له شعر مموج ووجه بشوش متورد ، وكان زميله فى الطلب فراجونار يلقبه « الملاك العاشق » . أنظر فى اللوفر إلى صورته التى رسمها لنفسه فى شيخوخته ، ثم تخيله وهو فى الثلاثين . ولم يكن مناص من أن تلعب ليتيتيا فى حميا الشباب الذى لا يعبأ بالمال ، دور هلويز أمام هذا الأبيلار ، باستثناء الجراحة . ولم يستغل ضعفها ، وعرضت عليه الزواج : وكان يهفو إليها ، ولكنه أدرك أن زواج فنان فقير بوارثة دوق سينقلب بعد قليل مأساة للفتاه . وإذ كان غير واثق من قدرته على السيطره على نفسه فقد عقد النية على إلا يراها ثانية . فمرضت ، وزارها وسرى عنها ، ولكنه عاد إلى تصميمه . ويؤكدون أنه ظل ثلاثة أشهر يلزم فراشه بحمى وهذيان متكرر[٥٦] . وفى ١٧٥٦ قفل إلى باريس دون أن يتأثر إطلاقا بالفن الكلاسيكى أو الإحياء الكلاسيكى الجديد .

يقول « بعد وصولى إلى باريس اتفق أن مررت — ولا أدرى أى قدر دفعنى إلى هذا — بشارع سان — جاك ، حين لحظت الإنسة بابوتى خلف

منضدتها[٥٧] » . وكانت جابرييل بابولى تعمل فى مكتبة ، وكان ديدرو يشترى كتبها و « يحبها كثيرا » (على حد قوله) قبل ذلك بسنوات . وكانت الآن (١٧٥٦ — ٥٧) قد تجاوزت الثلاثين (كما يقول جروز) تخشى أن تظل عانسا ؛ فوجدت جان — باتيست غير ميسور الحال ولكنه حلو . وبعد أن زارها بضع مرات قالت له « يا مسيو جروز ، اتتزوجنى أن رضيت بك زوجا ؟ » وأجاب كما يجيب أى فرنسى مهذب « يا آنسة . ألا يكون أى رجل غاية فى السعادة إذا أنفق حياته مع امرأة ساحرة مثلك ؟ » ولم يفكر فى الأمر أكثر من هذا . ولكنها تركت الجيران يفهمون أنه خطيبها . ولم يطاوعه قلبه على تكذيبها ، فتزوجها وظلا . سبع سنين ينعمان بقسط معقول من السعادة . وكانت ذات جمال مغر ، فاستخدمها راضية موديلا فى كثير من الأوضاع التى لم تكشف عن شىء وإن ألمعت لكل شىء . وأنجبت له فى تلك السنين ثلاثة أطفال عاش منهم اثنان كانا إلهاما » لفنه .

ويعرفه العالم بصور الأطفال التى رسمها . وعلينا ألا نتوقع هنا روعة لوحة فيلاسكويز « دون بلتازار كارلوس »[٥٨] . أو لوحة فانديك « جيمس الثانى صبيا » [٥٩] ، لا بل إننا أحيانا قد نصدم بما فى بنات جروز من غلو وتهافت فى العاطفة ، كما تشهد بذلك « صورة عذراء » المحفوظة ببرلين ؛ ولكن لم نرفض مافى صورة « البراءة »[٦٠] من خصل متموجة ، وخدود متوردة . وعيون فيها الحزن والثقة ، أو مافى لوحة « الفلاحة الصغيرة » [٦١] من بساطة لم يفسدها التبرج ؟ كذلك لانجد تكلفا فى لوحة « الغلام وكتاب الدرس » [٦٢] . فهى تصور أى غلام مل واجبا يبدو له مقطوع الصلة بالحياة . ومن بين ١٣٣ لوحة بقيت من رسوم جروز . اختص البنات بست وثلاثين . وقد اشترى يوهان جيورج فللى ، الحفار الإلمانى نزيل باريس ، ما استطاع شراءه من هذه الصور المثالية للطفولة ، ورآها « أثمن من أروع صور هذا العهد[٦٣] » ورد جروز هذه التحية بتصويره السكسونى غير الجذاب مثالا للفحولة . على أن هؤلاء الفتيات يشوبهن التكلف والصنعة إذ يكبرن فى فن جروز . مثال ذلك أن « اللبانة[٦٤] » تبدو فى أبهى لباس كأنها تتأهب للذهاب إلى المرقص ، وصبية « الجرة المكسورة[٦٥] » لا داعى (إلا داعى

الحمال) يدعوها للكشف عن حلمة ثديها وهى فى طريقها من البئر . ولكن فى صورة لصوفى أرنو[٦٦] ، وتبدو القبعة ذات الريش ، والوقفة الأنيقة ، والشفاه القرمزية ، كلها طبيعية .

لقد كان جروز أشبه بشاردان صغير فيه مسحة من بوشيه ، رجلا معجبا حقيقة بالفضيلة وبحياه الطبقة الوسطى ، ولكنه يكسوها بين الحين والحين إغراء شهوانيا كان شاردان يتجنبه . وكان فى إستطاعة جروز إذا نسى أجساد نسائه أن ينشد فى صورة أنشودة الحياه العائلية البورجوازيه ، كما نرى فى « عروس القرية[٦٧] » التى ظفوبت بأكبر جائزة حين عرضت فى آخر أسبوع لصالون ١٧٦١ ، وأصبحت حديث باريس . وأطراها ديدرو لما فيها من « عاطفة حلوة » وأشاد بها « مسرح الإيطاليين » إشادة لم يسبق لها نظير . إذ قدمها فى « لوحة حية » على المسرح . وقد وجد الخبراء فيها عيوبا — من ضؤ لم يحسن المصور التصرف فيه ، إلى الوان متنافرة ، إلى قصور فى الرسم والتنفيذ ، وضحك الارستقراطيون على مافيها من غلو فى العاطفة ، ولكن جمهور باريس ، الذى كان قد عب فى الزنا حتى الثمالة ، وأبكته فى هذه السنة بعينها « جولى » روسو ، كان فى مزاج يدعوه لاحترام النصائح والتحذيرات الخلقية التى كادت تسمع من فم والد العروس إلى زوجها الموعود . وكانت كل عقيلة من عقائل الطبقة الوسطى عليمة بمشاعر تلك الأم وهى تسلم أبنتها لمشاق الزواج ومخاطره ، وكل فلاح كان يشعر بأنه ليس غريبا فى ذلك الكوخ الذى تنقر فيه دجاجة وأفراخها الغلة على أرضه أو تشرب فى أطمئنان من القدر التى تحت قدم الأب . واشترى مركيز دمارينيه الصورة لفوره ، ودفع الملك فيها بعد ذلك ١٦،٦٥٠ جنيها ليحول دون بيعها بالخارج . وهى اليوم محفوظة بأحدى حجرات اللوفر التى لا تحظى بزوار كثيرين ، وقد أتلفها تغير ألوانها السطحية جداً . وغض الجمهور من قدرها فى غمرة تمرد الواقعية والكلبة على العاطفة المتفائلة .

وأحس كل فنانى باريس تقريباً بأن جروز حط من شأن الفن لأنه سخره للوعظ من خلال الروايات والقصص بدلا من كشف الحقيقة والطبائع

بنفاذ بصيرة وعدم تحيز . ودافع عنه ديدرو قائلا إنه « أول فنانينا الذى أضفى الخلق على الفن ، وهيأ صوره لتروى قصة[٦٨] » . وبلغ به الأمر حد الدهشة والتعجب من المآسى الرقيقة التى رسمها جروز ، فصاح فى أسى « لذيذة ! لذيذة ! » حين رأى لوحة « الفتاة الصغيرة تبكى على عصفورها الميت » وكان هو نفسه يدعو لمواضيع الطبقة الوسطى ومشاعرها فى الدراما . فأنس فى جروز حليفا عظيم القيمة وأطراه حتى فوق إطرائه شاردان . وغلا جروز فى تصديقه ، فكرر نفسه كأنه رسول الفضيلة والعاطفة ، وأرسل إلى مجلات باريس شروحا طويلة للدورس الاخلاقية فى الصور التى كان ينتجها . وأخيرا أستنزف ترحيب جمهور الفن به حتى إبان تسلط العاطفة على مزاج العصر .

وكان خلال فترة السنوات الأثنتى عشرة كلها منذ قبول ترشيحه للأكاديمية قد أهمل أن يقدم لها الصورة التاريخية التى كانت شرطا للعضوية الكاملة ، وكانت الأكاديمية ترى أن الصورة التى ترسم المشاهد المألوفة التى تصف الحياة البيتية أو اليومية تتطلب من الموهبة الناضجة أقل مما يتطلبه التأليف القادر على التخيل ، والتمثيل الكفء لمشهد من المشاهد التاريخية . ومن ثم قبلت مصورى مشاهد الحياة اليومية على أنهم « مقبولون agrées » فقط ، ولكنهم ليسوا بعد صالحين للدرجات أو الكراسى الأكاديمية . وفى ١٧٦٧ أعلنت الأكاديمية أن صور جروز سيتوقف عرضها فى الصالون البينالى حتى يقدم لها صورة تاريخية .

وعليه ففى « ٢٩ يوليو ١٧٦٩ » قدم جروز صورة لسبتميوس سفيروس يوبخ أبنه كراكالا لمحاولته أغياله[٦٩] . وأطلع أعضاء الأكاديمية على الصورة ، وبعد ساعة أبلغه المدير أنه قبل ، ولكنه قال له : « سيدى . لقد قبلت فى الأكاديمية مصورا للمشاهد اليومية . وقد أخذت الأكاديمية فى الاعتبار تفوق صورك السابقة ، وأغمضت عينيها عن الإنتاج الحالى غير الجدير بها ولا بك[٧٠] » . وصدم جروز ، فدافع عن لوحته ، ولكن أحد الأعضاء بين الأخطاء فى الرسم . واحتكم جروز إلى الجمهور فى خطاب

لصحيفة « الأفان — كوربيه » (٢٥ سبتمبر ١٧٦٩) ، وأخفق شرحه في إقناع الراسخين في الفن ، وحتى ديدرو سلم بعدالة النقد .

وألمع ديدرو إلى أن قصور اللوحة راجع إلى أن فشل المصور في زواجه شوش ذهنه . واتهم جابرييل بابوتي بأنها ترددت إلى درك المرأة المشاكسة المغرورة ، فاستنزفت مال زوجها بإسرافها ؛ وأرهقته بمضايقاتها ؛ وحطمت عزة نفسه بخياناتها المتكررة[71] . وقدم جروز نفسه لرئيس الشرطة (١١ ديسمبر ١٧٨٥) شهادة خطية يتهم فيه زوجته بأستقبال عشاقها بإصرار في بيته ورغم إحتجاجاته . وفي خطاب لاحق أتهمها بسرقة مبالغ كبيرة منه ، وبمحاولة « تحطيم رأسي بمبولة[72] » . وحصل على انفصال شرعي ، وأخذ ابنتيهما في حضانته ، وترك لها نصف ثروتة ومعاشا سنويا قدره ١,٣٥٠ جنيها .

وتدهور خلقه إثر هذه اللطمات ، فبات يضيق بأي نقد ، وفقد كل تواضع في الأشادة بلوحاته . على أن الجمهور وافقه على إعتزازه بنفسه ، فأقبل على مرسمه وأثراه بشراء صوره ، والنسخ المطبوعة منها . وإستثمر هو مكاسبه في سندات حكومية ، ولكن الثورة أطاحت بقيمة هذه السندات ، وألقى جروز نفسه مملقا ، في حين إنهارت سوق صوره الممثلة للسعادة والسلام البيتين نتيجة « لا ستغراق فرنسا في العنف الطبقي ، والهياج السياسي ، ورد فعل الكلاسيكية الجديدة . وأنقذته الحكومة الجديدة إنقاذا معتدلا (١٧٩٢) بمعاش قدره ١,٥٣٧ جنيها ، ولكن سرعان مانفد هذا المعاش فالتمس سلفة ، وجاءت امرأة من الرعاع تدعى إنتيجون لتعيش معه وتعنى بصحته المتدهورة . فلما قضى نحبه (١٨٠٥) كان العالم كلــه تقريباً قد نسيه ، ولم يرافق جثمانه إلى القبر سوى فنانين أثنين .

(٥) فراجونار

تغلب جان — أونوريه فراجونار على محن النجاح خيراً من جروز ، لأنه كان يفوقه شهوانية وصنعة . وفنه الأنيق هو التمجيد الأخير للمرأة الفرنسية في القرن الثامن عشر .

ولد فى جراس بأقليم بروفانس (١٧٣٢)، فأضفى على فنه أريج وطنه وعبير إزهاره ، فضلا عن عشق التروبادور الرومانسى ، وإضاف إلى هذا كله مرح الباريسيين وتشككهم الفلسفى . وجلب إلى باريس فى الخامسة عشرة فطالب إلى بوشيه أن يقبله تلميذا ، وقال له بوشيه بكل ما وسعه من تلطف إنه لا يقبل غير الطلاب المتقدمين . فذهب فراجونار إلى شاردان ليخدمه . وكان فى ساعات فراغه ينسخ الروائع الفنية أينما وجدها . وأطلع بوشيه على بعض هذه النسخ فأعجب بها إعجابا شديدا حمله على قبوله الآن تلميذا ، وجند خياله الفنى فى عمل تصميمات لقطع النسيج المرسومة ، وتقدم الغلام بسرعة حتى حثه بوشيه على دخول المسابقة لنيل جائزة روما . وقدم فراجونار لوحة تاريخيه سماها « يربعام يضحى للاصنام(٧٣) » . وكانت إنتاجا ممتازا لفتى فى العشرين — فيها الأعمدة الرومانية الفخمة ، والأرواب المنسابة ، ورؤس الشيوخ الملتحية ، أو المعممة ، أو الصلعاء ، وكان فراجونار قد تعلم فى زمن قليل بحيث نرى فى الوجه العجوز من الملامح أكثر من وجه لم تطبعه بعد الرغبة فى الأثارة والأستجابة . ومنحته الأكاديمية الجائزة ، فدرس ثلاث سنين فى مرسم كارل فانلو ، ثم إنطلق فى نشوة إلى روما (١٧٦٥) .

وثبطت همته كثرة الروائع التى وجدها هناك أول الأمر :

« لقد روعتنى همة ميكلانجلو — فجاشت فى صدرى عاطفة عجزت عن التعبير عنها ، وحين رايت روائع رفائيل تأثرت إلى حد البكاء ووقع القلم من يدى . وفى النهاية رانت على حالة من التراخى لم أقــو على قهرها . ثم ركزت على درس المصورين اللذين أتاحوا لى الأمل فى أننى قد أنافسهم يوما ما . وهكذا جذب إنتباهى باروتشيو ، وبييترو داكورتونا ، وسليينا ، وتييبولو(٧٤) » .

وبدلا من أن ينسخ صور قدامى الفنانين راح يرسم التصميات أو التخطيطات للقصور ، والقناطر ، والكنائس ، والمناظر الطبيعية ، والكروم ، وأى شيء آخر ، ولا غرور لقد ملك الآن فى استعمال القلم تلك البراعة التى

ستحوله واحدا من أقدر الرسامين وأكملهم فى عصر غنى فى ذلك الفن الأساسى (*) . وقل من الرسوم مالتقط من حياة الطبيعة أكثر من الأشجار الخضراء فى فيلا دستى كما رآها فراجو نار فى تريفولى (٧٥) .

فلما عاد إلى باريس عكف على إرضاء الأكاديمية بلوحة تاريخية ، باعتبار هذه اللوحة شرطا لاغنى عنه فى قبول الرسام عضوا بها . ووجد المواضع التاريخية كما وجدها جروز ، لاتناسبه ، فقد اجتذبته باريس جميلة بنسائها الساحرات بأقوى مما اجتذبه الماضى . وكان تأثير بوشيه لايزال حارا فى مزاجه . وبعد تلكؤ كثير قدم لوحـة « كبير الكهنة كوريرسوس يضحى بنفسه لينقذ كالليروبيه » ؛ ولاحاجة بنـا للوقوف والاستفسار عمن يكون هذا الكاهن وتلك العذراء ، والمهم أن الأكاديمية وجدتهما نابضتين بالحياة مرسومين رسما جيداً ، فمنحت فراجونا رعضوية مشاركة . وقال ديدرو فى حماسة عارمة « لاأعتقد أن أى فنان آخر فى أوربا كان مستطيعا تصور هذه اللوحة (٧٦) » . واشتراها لويس الخامس عشر لتكون تصميما لقطعة نسيج مرسومة . ولكن فراجونا نفض يده من المواضيع التاريخية ، بل إنه بعد ١٧٦٧ رفض أن يعرض فى الصالون ، وقصر إنتاجه كله تقريباً على التكليفات الخاصة ، حيث يستطيع اطلاق العنان لذوقه من القيود الأكاديمية . ولقد تمرد على تلك « الصلصة البنية » صلصة النهضة الأوربية ، قبل أن يتمرد عليها الرومانسيون الفرنسيون بزمن طويل ، وانطلق فى مرح إلى بحار أرحب وأقل تخطيطا .

ولكنها لم تكن خلوا تماما من التخطيط . فقد فتح فاتو الطريق . من قبل بنسائه اللائى كساهن أثوابا مشرقة وهن منطلقات بضمير مطمئن إلى جزيرة فينوس ، وكان بوشيه قد نهج هذا النهج بحواس مرحة لعوب ، وزاوج جروز بين الشهوانية والبراءة . أما فراجونار فقد جمع بين هذه كلها : فنى لوحاته الثياب الهفافة ترف فى النسيم ، والغوانى الرقيقات يعرضن اللذات الطليقة من كل قيد ، والنبيلات الأنيقات يسحرن الرجال

* كان هذا عصر أئمة النقش والحفر أمثال شارل - نيكولا كوشان ، وجابرييل دسانت أوبان ، وجان - جاك بواسييه ، وشال ايزن - ألمع رسامى الكتب فى القرن الثامن عشر .

بحفيف ثوب أو رقة قميص ، أو بحركة رشيقة متناغمة أو بسمة تلين الأفئدة ، والأطفال السمان المتوردون الشعث ، الذين لم يكتشفوا الموت بعد . وقد صور فى رسومه ومنماته كل ناحية تقريبا من نواحى الطفولة — وضع يعانقون أمهاتهم ، وفتيات يدللن عرائسهن ، وصبية يركبون حمارا أو يلعبون مع كلب . . . .

وقد استجابت ميول فراجونار العشقية الغالية لطلبات رجال الحاشية المكتهلين ، والخليلات المتعبات ، من الصور التى تشيد بالجسد وتلهبه . فجال بين أرجاء الأساطير الوثنية بحثاً عن ربات امتنعت أجسادهن الوردية على فعل الزمن . وكانت فينوس ، لا العذراء ، هى التى رفعت الآن فى صعود ظافر إلى السماوات . وسطا على نصف شعائر الدين لمهرجانات الغرام : فكانت لوحته « القبلة »[٧٧] صلاة ، و « نذر الحب» عهدا مقدساً ، و « قربان الوردة » التقدمة الأخيرة . ومن بين صور أربع رسمها فراجونار لقصر مدام دوبارى الريفى فى لوفسين كان لإحداها عنوان يصلح لتغطية نصف انتاج الفنان : « الحب الذى يشعل الكون » . ثم نبشن فى ملحمة تحرير أورشليم » بحثاً عن المشهد الذى تعرض فيه الحوريات مفاتنهن أمام رينالدو العفيف . وأصبح هذا الفنان « بوشيه » الفراش ، إذ أبدى النساء نصف عاريات أو عاريات تماماً ، كما يرى فى لوحات « الجمال النائم » أو القميص المخلوع أو الباخوسية النائمة [٧٨] » . فلما أدرك أن العرى قد يقشع الأوهام تحول من التصريح إلى التلميح ، ورسم أشهر لوحاته « مخاطر الأرجوحة[٧٩] » ، ففيها يرى العاشق يتفرس بابتهاج فى أسرار ثياب عشيقته الداخلية التى تتكشف وهى تتأرجح لأعلى فأعلى ، وتقذف بخفها فى الهواء بتحرر لعوب . وأخيرا استطاع فراجونار أن يتقمص جروز ، بل وشاردان : فصور النساء المحتشمات ، كما فى لوحاته « الدراسة » « والمطالعة[٨٠] » . و «قبلات الأم » ، وفى صورة « مدموازيل كولومب » اكتشف أن النساء نفوساً » .

وفى ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة والثلاثين ، أذعن للزواج ، فحين قدمت الآنسة جيرار من جراس لدراسة التصوير فى باريس ، كان حسبها أن تذكر

سقط رأسها حتى تظفر بالقبول فى مرسم فراجونار . ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت امرأة مكتملة النضج ،وقرر « فراجو » (كما كان يسمى نفسه) كما قررت مدام بوفارى ، أنه لا يمكن أن يكون الاكتفاء بامرأة واحدة مملا أكثر من الزنا . ووجد متعة جديدة فى العمل معها فى رسم صور مثل « خطوات الطفل الأولى » وفى التوقيع معها على الصور . فلما ولدت طفلها الأول استأذنته فى استدعاء أختها البالغة أربعة عشر عاماً من جراس لتعينها على الطفل والبيت ، فوافق وظلت هذه الأسرة سنين تعيش فى سلام مزعزع .

ونافس الآن جروز فى تصوير الحياة البيتية ، ونافس بوشيه فى توصيل هدوء المشاهد الريفية إلى أنظار المشاهدين . ورسم بعض الصور الدينية ، وصور أصدقاءه . وكان فى صداقته أثبت منه فى حبه ، فلم يفتر قط تعلقه بجروز وروبير ودافيد رغم ماأصابوا من نجاح . وحين نشبت الثورة أهدى صورة وطنية سماها « الأم الطيبة » للأمة . وكادت مدخراته تفقد قيمتها نتيجة للتضخم وتخلف الحكومة فى الوفاء بديونها ، ولكن دافيد الفنان الأثير لدى العهد الجديد ، حصل له على وظيفة شرفية صغيرة . وفى نحو هذه الفترة رسم صورته الذاتية الرائعة المعلقة الآن فى اللوفر : الرأس قوى ضخم والشعر أشيب قصير القص ،والعينان مازالتا هادئتين ثقة واطمئناناً .وقد روعه عصر الارهاب وقززه ، ففر إلى وطنه الأول جراس ، حيث وجد المأوى فى بيت صديقه موبير وقد زين الجدران بلوحات تعرف فى جملتها باسم « رواية الحب والشباب » وقد رسمها خصيصاً لمدام دوبارى ، ولكنها كانت قد رفضتها لأنها لم تعــد فى ثرائها السابق ، وهى اليوم من كنوز فريك جالرى بنيويورك .

وذات يوم من أيام الصيف كان راجعاً من جولة فى باريس وقد حمى جسمه وتصبب عرقاً ، فوقف عند مقهى وتناول قطعة من الجيلاتى وأصيب للتو تقريبا باحتقان فى المخ . ونعم بميتة عاجلة (٢٢ أغسطس ١٨٠٦) . وقد أقامت جراس تمثالا جميلا لتخليد ذكراه ، وتحت قدميه طفل عار ومن خلفه شابة تدوم ثوبها فى رقصة مرحة .

أن الفنان لابد أن يدفع ثمنا لرمزه لعصر ما ، فشهرته تضمحل بزوال رغبات العصر المشبوبة ، ولا سبيل إلى عودة هذه الشهرة إلا إذا رفع قدره عاطف البعد ، أو رد تحول فى التيار موضة قديمة إلى الذوق الحاضر . وقد زكا فراجونار لأن فنه العارى أو الكاسى أبهج زمانه ، بتلطيفه وتزيينه للانحلال ، ولكن الناموس الصارم الذى خضعت له ثورة تقاتل فى سبيل الحياة سائر أقطار أوربا ، كان فى حاجة إلى أرباب غير فينوس تلهمه ، فوجدها فى أبطال روما الجمهورية ، الشديدى المراس . لقد انتهى عصر المرأة وعاد حكم المقاتل ، وأقبل جيل جديد من الفنانين على النماذج اليونانية — الرومانية ، التى أعاد تأليبها فنكلمان ، واكتسح الطراز الكلاسيكى الجديد الباروك والروكوك فى موجة عارمة من الأشكال القديمة .

٦ — الصالونات الكبرى

(١) مدام جوفران

لقد دالت دولة المرأة ، ولكن بعد أن بلغت الصالونات ذروتها . وبلغت تلك المؤسسة الفذة أوجها بمدام جوفران ، وانحسرت فى حمى من الرومانسى بمدموازيل دليسبيناس . وستنتعش بعد الثورة بالسيدتين دستال وريكامييه ، ولكنها لن تدرك أبدا فتنة وخصوبة تلك الفترة التى كان يلتقى فيها مشاهير الساسة فى أيام السبت بصالونات مدام دوديفان . والفنانون فى أيام الإثنين والفلاسفة والشعراء أيام الأربعاء بصالون مدام جوفران ، والفلاسفة والعلماء أيام الثلاثاء بصالون مدام هلفتيوس ، وأيام الأحد والخميس بصالون البارون دولباخ ، وفحول الأدب وأقطاب السياسة أيام الثلاثاء بصالون مدام نكير ، وقد يلتقى أى منهم فى أى ليلة بصالون جولى دليسبيناس . وإلى هذه الصالونات كان هناك الكثير من الصالونات الصغرى : كصالونات السيدات دلكسمبورج ودلافالبير ، ودفور كالكييه ودتالمون ، ودبرولى ، ودبوسى ، ودكروسول ودشوازيل ، ودكاميس ودميربوا ودبوفو ، ودانفيل ، وديجيون ، ودودتو ودمارشيه ، ودوبان ، وديبينيه .

ولم يكن الجمال هو الذى زين ربات الصالونات هؤلاء ، فقد كان جلهن

نساء نصفا أو أكبر ، إنما هو ذلك المركب من الذكاء ، واللباقة، والكياسة والنفوذ والمال غير المتطفل ، الذى مكن للمضيفة أن تجمع نساء ذوات فتنة وسحر ، ورجالا ذوى عقول راجحة يستطيعون أن يجعلوا اجتماعاً أو مجلس سمر يتألق ظرفاً أو حكمة دون أن يؤججوه انفعالاأو تعصباً . ولم يكن الصالون منها مكانا للمغازلات ولا للمواضيع العشقية أو التوريات . [٨١] فقد يكون لكل رجل فيه خليلة ولكل امرأة عشيق ، ولكن هذا كان يستتر بأدب فى التبادل المتحضر للمجاملات والأفكار . وكانت الصداقات الأفلاطونية تستطيع أن تجد القبول هناك . كما كان الحال مع دودفان وهوراس ولبول ، أو مع ليسبيناس ودالامبير . وباقتراب الثورة نزعت الصالونات إلى فقدان تسامحها الهادىء وأصبحت مراكز للتمرد .

وذاعت شهرة صالون مدام جوفران لأنها كانت أبرع مروضى السباع بين ربات الصالونات ، ولأنها أتاحت للرواد مزيدا من حرية النقاش ، ولأنها عرفت كيف تمنع الحرية من تجاوز حدود السلوك المهذب أو الذوق السليم — دون أن تبدو مستبدة . وكانت احدى النساء القليلات اللاتى برزن من الطبقة الوسطى ليحتفظن بصالون مرموق . وكان أبوها ، وصيف الدوفينة مارى — آن ، قد تزوج بابنة مصرفى ، وأول من رزقا من أطفال فى ١٦٩٩ هى مارى — تريز ، التى أصبحت فيما بعد مدام جوفران . ووضعت أمها ، وكانت امرأة مثقفة موهوبة فى التصوير ، الخطط الطموحة لتنشئة ابنتها . ولكنها ماتت عام ١٧٠٠ وهى تلد صبيا . وأرسل الطفلان ليعيشا مع جدتهما فى شارع سانت — أونوريه — وبعد نصف قرن عللت مدام جوفران افتقارها إلى التبحر فى الثقافة فى خطاب أجابت به ماطلبته كاترين الثانية فى سيرة ذاتية موجزة لها .

« لم تحظ جدتى . . . إلا بنصيب ضئيل من التعليم . ولكن كان لها عقل أوتى من قوة الملاحظة ، والذكاء ، والسرعة . . . . ما جعله دائما بديلا عن المعرفة . وكانت تتحدث حديثاً لطيفا جداً عن أمور لاتعرف عنها شيئاً حتى لم تترك زيادة لمستزيد . . . وبلغ رضاؤها عن

حظها مبلغا جعلها ترى التعليم نافلة لاتحتاج اليها المرأة . وكانت تقول « لقد وفقت توفيقاً لم يجعلنى أشعر قط بحاجتى اليه . فاذا كانت حفيدتى حمقاء فستجعلها المعرفة معتدة بذاتها لايطيقها أحد ، وإذاكان لها ذكاء وفطنة فسوف تسلك كما سلكت ، وسوف تعوض النقص باياقتها ونفاذ بصيرتها ، ومن ثم فإنها فى طفولتى لم تعلمنى غير القراءة ، ولكنها جعلتنى اقرأ كثيرا ، وعلمتنى أن أفكر ، وأن أجادل ، وعلمتنى أن أعرف الرجال وجعلتنى أعرب عن رأيى فيهم ، وأخبرتنى كيف تحكم هى عليهم . . . وما كانت تطيق ضروب التظرف التى يعلمها مدرسو الرقص ، وكل ما تمنته لى هو أن تكون لى الرشاقة التى تهيئها الطبيعة للمرأة الحسنة الخلقة(٨٢) .

وأحست الجدة أن الدين أهم من التعليم ، ومن ثم كان الطفلان اليتيمان يؤخذان لحضور القداس كل يوم :

كذلك أهتمت الجدة بزواج مارى . ذلك أن رجل أعمال غنيا يدعى فرنسوا جوفران ، فى الثامنة والأربعون من عمره ، تقدم للزواج من الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعا ، ورأت الجدة فى ذلك العرض صفقة طيبة ، وكان فى تربية مارى وتهذيبها المفرط ما منعها من الاعتراض . على أنها أصرت على أن تصحب معها أخاها إلى بيت السيد جوفران المريح ، الواقع فى شارع سانت — أوثوريه أيضاً ، والذى قدر لها أن تقوم عليه إلى نهاية عمرها . وفى ١٧١٥ أنجبت أبنه ، وفى سنة ١٧١٧ أبنا — مات فى العاشرة .

وفى ذلك الشارع العصرى ذاته إفتتحت مدام دتانسان صالونا مشهورا . ودعت إليه مدام جوفران فأعترض زوجها . ذلك أن ماضى مدام دتنسان كان قد أحدث بعض الضجة ، وأن ضيوفها الأثيرين كانوا من أحرار الفكر أمثال فونتينيل ، ومونتسكيو ، وماريفو ، وبريفوست ، وهلفيتيوس ، وما رمونتيل . على أن مدام جوفران ذهبت برغم ذلك ، فلقد بهرتها هذه العقول الطليقة من كل قيد : فما كان أثقل أولئك التجار الذين يأتون لزيارة

زوجها الشيخ بالقياس إلى هؤلاء ! وكان الآن قد بلغ الخامسة والستين ، وهى لم تزل « امرأة الثلاثين » كما يقول بلزاك . وبدأت هى أيضاً تستضيف الزائرين . فاعترض ، ولكنها تغلبت عليه ، وأخيرا ارتضى أن يترأس على حفلات عشائها ؛ صامتا عادة ومؤديا دائماً . فلما مات (١٧٤٩) فى الرابعة والثمانين ، لم يكد ضيوفها يلحظون غيابه . واستفسر أحد رواد الصالون حين عادو من رحلة عما أصاب السيد العجوز الذى كان يجلس فى استحياء شديد على قمة المائدة . وأجابت مدام جوفران برفق « أنه كان زوجى ، وقد توفى [٨٣] » .

كذلك طوت مدام دتنسان رحلة الحياة عام ١٧٤٩ ، مما فزع له ضيوفها المعتادون . ويجب أن نذكر ثانية تلك الملاحظة التى أبداها فونتينيل الذى بلغ يومها الثمانية والتسعين : « امرأة طيبة جداً (مع أنها كانت تركيبة من الآثام الحقيقية .) ياله من خطب مقلق ؟ فأين أتناول غدائى الآن أيام الثلاثاء ؟ » ولكن أساريره إنفرجت وقال : « حسنا ، فى أيام الثلاثاء يجب أن أتناول الغداء فى بيت مدام جوفران[٨٤] » . وقد أبهجها أن يحضر ، لأنه كان « فليسوفا » قبل مونتسكيو وفولتير ، يحتفظ بذكريات تمتد إلى مازاران ، وقد بقى له من الأجل سبع سنوات ؛ وكان فى وسعه أن يحتمل المعاكسة دون أن يتأذى منها لأن سمعه ثقل . وحذا حذوه أكثر مشاهير القوم الذين تألقوا على مائدة دتنسان ؛ وسرعان ماجمع غداء أربعاء جوفران ، فى وقت أو آخر ، مونتسكيو ، وديدرو ، ودولباخ ، وجريم ، وموريلليه ؛ ورينال ، وسان — لا مبير ؛ والأبية فردينانو جاليانى ؛ النابولى القصير الأريب ؛ سكرتير السفير النابولى فى باريس .

وعقب موت زوجها ، ورغم معارضة أبنتها الساخطة . سمحت مدام جوفران لديدرو ، ودالامبير ، وما رمونتيل ، بأن يقرروا خط النقاش ونبرته فى حفلات غدائها أيام الأربعاء . لقد كانت وطنية ومسيحية ، ولكنها أعبجت بشجاعة الفلاسفة وحيويتهم . فلما نظمت « الموسوعة » تبرعت بأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ جنيه فى نفقاتها وأصبح بيتها يعرف بـ «صالون

الموسوعة » ، وحين هجا باليسو المتمردين فى هزلية « الفلاسفة »(١٧٦٠) سخر منها فى شخصية سيد البز ، الجنية عرابة « الشلة » . وبعدها طلبت إلى سباعها أن يزأروا بأدب أكثر من ذى قبل ، وكبحت البلاغة الجامحة بعبارة مجاملة خففت من غلوائهم — « آه ، هاهنا شيء طيب[٨٥] » ! وأخيراً سحبت دعوتها الدائمة لميدرو ، ولكنها أرسلت إليه طقما من الأثاث الجديد وروبا فخما فخامة غير مريحة .

واكتشفت أن الفنانين والفلاسفة ، ورجال الأعمال ، لا ينسجمون إذا اجتمعوا معا ، فالفلاسفة يحبون النقاش والثرثرة . والساسة يتوقعون التحفظ والتأدب ؛ أما الفنانون فقبيلة صخابة لا يستطيع فهمهم غير الفنانين . وعليه فإن المدام ، التى كانت جماعة للفن والتقطت شيئاً من حرارة الجماليات من الكونت دكايلوس ، دعت أقطاب الفن وذواقيه الباريسيين إلى حفلات عشاء خاصة فى أمسيات الأثنين . ولبى الدعوة بوشيه ، ولاتور ، وفرنيه ، وشاردان ، وفانلو ، وكوشان ، ودرويه ، وروبير ، وأودريه ، وناتييه ، وسوفلو ، وكايلوس ، وبوشاردون ، وجروز . وكان مارمونتييل الفيلسوف الوحيد الذى سمح له بحضور هذه الحفلات لأنه كان يسكن فى بيت مدام جوفران ، ولم تكتف المضيفة اللطيفة بالاحتفاء بضيوفها ، بل اشترت أعمالهم وجلست إليهم ليصوروها ، وأجزلت لهم الأجر ، وصورها شاردان خيراً من سائر الفنانين . سيدة بدينة لطيفة فى قبعة من الدانتيلا[٨٦] .

وبعد موت فانلو اشترت صورتين من صوره بأربعة آلاف جنيه . ثم باعتهما لأمير روسى بخمسين ألف جنيه ؛ وأرسلت الربح لأرملة المصور[٨٧] .

واستكمالا للضيافة كانت مدام جوفران تقيم « حفلات عشاء صغيرة » لصديقاتها . ولكنها لم تدع نساء لحفلات الاثنين . وكانت مدموازيل دليسبيناس (ربما بوصفها نفس دالامبير الثانية) من النساء القليلات اللاتى حضرن أمسيات الأربعاء . ذلك أن المدام كانت على شيء من حب التملك ،

ثم إنها وجدت أن حضور الأناث يصرف سباعها عن الفلسفة والفن . وبدا أن سياسة الفصل بين الجنسين التى إنتهجتها قد بررها ما كسبته ندواتها من صيت ذائع بالمناقشات الطريفة الهامة . واحتال الأجانب فى باريس للظفر بدعوات إلى صالونها ، ذلك أن مباهاتهم ، بعد عودتهم إلى أرض الوطن ، بأنهم إختلفوا إلى صالون مدام جوفران ، كانت تشريفا لا يفوقه إلا شرف المثول بين يدى الملك . وكان هيوم ، وولبول ، وفرانكلن ، من بين ضيوفها الشاكرين . وحرص السفراء لدى بلاط فرساى – حتى الكونت فون كاونتز الرفيع المقام – على تقديم أنفسهم فى ذلك المنزل المشهور فى شارع سانت – أونوريه . وفى ١٧٥٨ أصطحب الأمير كانتيمير ، السفير الروسى ، أميرة أنهالت تسربست التى حدثت القوم بفضائل أبنتها ، ولم تنقضى أربعة أعوام حتى أصبحت هذه الأبنة كاترين الثانية ، وظلت إمبراطورة الأقاليم الروسية كلها سنين طوالا بعد هذا ، تبادل ربة الصالون البورجوازية الرسائل الساحرة . وعاد سويدى جميل ذكى ممن اختلفوا إلى بعض ولا ئم المدام إلى وطنه ليصبح جوستاف الثالث .

وثمة شاب أجمل هو ستانيسلاس بونياتوفسكى كان كثير التردد بل كاد يكون من عباد مدام جوفران (التى كانت أحيانا تؤدى عنه ديونه[٨٨]) ، وما لبث أن إعتاد أن ينادبها « ماماً » ، فلما أصبح ملـكا على بولندة (١٧٦٤) دعاها إلى زيارة وارسو ضيفا عليه . فلبت الدعوة مـع أنها بلغت الآن الرابعة والستين . وأقامت فى طريقها بفينا فترة ، وكتبت تقول « أن القوم يعرفوننى هنا خيراً مما يعرفنى جيرانى على ياردتين من بيتى[٨٩] » . وظلت حينا فى القصر الملكى بوارسو (١٧٦٦) تقوم من الملك مقام الأم والمشيرة . وتبادل الناس الرسائل التى بعثت بها إلى باريس كما تبادلوا الرسائل التى بعث بها فولتير من فرنيه ، وقد كتب جريم يقول: « إن الذين لم يقرؤا رسائل مدام جوفران لم يكونوا أهلا لمخالطة المجتمع الراقى[٩٠] » . فلما قفلت إلى باريس واستأنفت ولائمها ، إبتهج عشرات من مشاهير القوم ، ونظم بيرون وديليل القصائد احتفاء بعودتها .

وكانت الرحلة شاقة – فقد أستقلت مركبة اخترقت نصف أوربا طولا

ثم عادت بها إلى وطنها ، ولم تعد مدام جوفران قط بعدها إلى سابق تيقظها ومرحها . وراحت الآن تجدد حرصها على العبادة الكاثوليكية ، وهى التى أعربت من قبل عن إفكارها الحياة بعد الموت[٩١] ، وأحالت الدين محبة وبراً بالناس . وقد وصف ما رمونتيل تقواها الغريبة فقال :ـ

« لكى ترضى السماء دون أن تغضب مجتمعها ، ألفت العكوف على لون من العبادة المستورة . فتذهب إلى القداس سراً كما يذهب غيرها إلى مؤامرة ، ولها شقة فى دير . . . . ومقعد خاص فى كنيسة الكبوشيين تتكتم أمرها كما تتكتم النساء العاشقات فى تلك الأيام عش غرامهن[٩٢] .

وفى سنة ١٧٧٦ أعلنت الكنيسة الكاثوليكية يوبيلا يتلقى فيه كل من يزورون كنائس معينة فى أوقات مقررة الحل والغفران . وفى ١١ مارس حضرت مدام جوفران صلاة طويلة فى كتدرائية نوتردام . وعقب وصولها إلى بيتها أصابتها نوبة فالج . وغضب جماعة الفلاسفة لأن مرضها جاء عقب قيامها بالعبادة ، وعلق الأبيه موريلليه تعليقا لاذعا « لقد أكدت بالقدوة صدق القول المأثور الذى كثيراً ماردرته « أن المرء لا يموت إلا بفعل من أفعال العبادة[٩٣] . وتكفلت أبنتها المركيزة دلافرتيه — يامبو بأمهـا المريضة ، وحذرت الفلاسفة من زيارتها . ولم تقع عينا المدام ثانية على دالامبير ولا موريلليه ، ولكنها رتبت زيادة فى المعاشات التى كانت تجريها عليها بعد موتها . وإمتد بها الأجل عاما آخر ، مشلولة عاجزة ، ولكنها ظلت توزع صدقاتها إلى النهاية .

ب — مدام دودفان

كان هناك صالون واحد فى أوربا يستطيع أن ينافس صالون مدام جوفران شهرة ومريدين وقد سبق أن درسنا سيرة ونخلق مارى ديفيشى — شامرون : وكيف أنها وهى صبية أفزعت الراهبات والقساوسة بحرية فكرها ، وكيف تزوجت المركيز دودفان ، وهجرته ، والتمست السلوى لوحدتها فى صالون (١٧٣٩ وما بعدها) ، بشارع بون أولا ، ثم (١٧٤٧) بدير سان جوزيف

بشارع سان دومنيك. وروع هذا الموقع الجديد الذى اختارته لصالونها جماعة الفلاسفة الذين كانوا يأتون ليستمتعوا بنبيذها وظرفها، إلا واحداً منهم هو دالامبير، الذى ظل يتردد عليه لأنه كان أقل أفراد هذه القبيلة مشاغبة وعدوانا . أما باقى الرواد فكانوا رجالا ونساء من الطبقة الارستقراطية ، يميلون إلى التعالى على مدام جوفران لأنها بورجوازية . وحين كف بصر المركيزة وهى فى السابعة والخمسين (١٧٥٤) واصل أصدقاؤها الاختلاف إلى حفلات عشائها ولكنها خلال باقى الأسبوع أحست وقع الوحدة فى جزع متزايد ، إلى أن أقنعت ابنة أخيها بالإقامة معها ، والقيام بدور المضيفة المساعدة فى أمسياتها .

وكانت جولى دليسبناس الإبنة غير الشرعية للكونتيسة دالبون وجسبار دفيشى ، أخى مدام دودفان ، واعترفت الكونتيسة بها ، وربتها مع أطفالها الآخرين ، وأتاحت لها تعليما ممتازا ، وحاولت إقرار شرعيتها ، ولكن إحدى بناتها اعترضت فأخفقت المحاولة . وفى ١٧٣٩ تزوجت هذه الأخت غير الشقيقة من جسبار دفيشى وذهبت لتعيش معه فى قصر شامبرون الريفى ببرجنديا . وفى ١٧٤٨ ماتت الكونتيسة بعد أن أوصت بمعاش سنوى قدره ثلثمائة جنيه لجولى البالغة آنذاك السادسة عشرة . وأخذت مدام دفيشى جولى إلى شامبرون ، ولكنها عاملتها على أنها فتاة يتيمة غير شرعية تستخدمها مربية للأطفال . فلما زارت مدام دودفان شامبرون راعها ما آنسته فى الآنسة دليسبناس من عقل نير وسلوك مهذب ، وكسبت ثقة الفتاة ، وعلمت أنها تشقى فى وضعها الراهن شقاء حملها على أن تدخل ديرا . واقترحت المركيزة أن تأتى جولى وتعيش معها فى باريس . واعترضت الأسرة مخافة أن ترتب دودفان تقرير شرعية جولى فيخول لها هذا حقاً فى نصيب من تركة ألبون . ولكن المركيزة وعدت بأنها لن تسىء إلى أقربائها بعمل كهذا . ودخلت جولى أثناء ذلك ديرا (أكتوبر ١٧٥٢) لا كراهبة مبتدئة بل كتلميذة فى القسم الداخلى . وجددت المركيزة اقتراحها . ووافقت جولى بعد عام من التردد . وفى ١٣ فبراير ١٧٥٤ أرسلت لها المركيزة رسالة غريبة يجب أن نتذكرها ونحن نحكم على ما تلاها :

« سأقدمك على أنك شابة من إقليمى تريدين دخول دير ، وسأقول إننى

قدمت لك مسكنا حتى تجدى مكانا مناسبا لك . وستعاملين بأدب ، بل بمجاملة ، وفى وسعك أن تعتمدى على فى أن أحدا لن ينال من كرامتك .

على أن .... هناك نقطة أخرى على أن أشرحها لك . فأنا لا أطيق أى خداع ، ولو كان مكرا طفيفاً جداً ، إن كنت تخلطينه بسلوكك . وأنا بطبعى شكاكه ، أشتبه فى كل من أكشف فيهم المكر إلى أن أفقد كل ثقة فيهم . إن لى صديقين حميمين — فورمون ودالامبير ، أحبهما حبا جما ، لا للطفهما وصداقتهما بقدر ما أحبهما لصدقهما المطلق . عليك إذن يا مليكتى أن تعتزمى العيش معى بغاية الصدق والإخلاص ... قد تظنين أننى أعظك ، ولكنى أؤكد لك أننى لا أفعل هذا أبداً إلا فيما يتصل بالإخلاص . فى هذا لا تأخذنى رحمة بأحد .(٩٤)

وفى أبريل ١٧٥٤ أتت جولى لتسكن مع مدام دودفان ، أولا فوق سقيفة للعربات ، ثم فى حجرة فوق شقة المركيزة فى دير سان جوزيف . وقرر لها دوق أورليان معاشا قدره ٦٩٢ جنيها(٩٥) ، ربما بناء على اقتراح المدام . وكانت تعين المضيفة المكفوفة على استقبال ضيوفها وإجلاسهم فى ندواتها ، وأضفت الإشراف على أعمال الندوة باطف سلوكها وسرعة بديهتها ونضارة شبابها وتواضعه . ولم تكن ذات جمال بارع ، ولكن عينيها السوداوين المتألقتين وشعرها البنى الغزير ألفا مزيجا فتانا . فكاد يقع فى غرامها نصف الرجال الذين اختلفوا إلى الندوة ، حتى فارس المدام الأمين العجوز شارل — جان فرنسوا اينو ، رئيس محكمة العرائض ، صاحب الأعوام السبعين ، المتوجع أبداً ، الثمل أبداً بالكثير من النبيذ . وتقبلت جولى مجاملاتهم بما يجب من عدم الاكتراث ، ولكن رغم ذلك فإن المركيزة الشديدة الحساسية فى عماها لابد قد شعرت بأن بعض العبادة قد انتقلت من عرشها . وربما دخل فى الأمر عنصر جديد : ذلك أن المرأة المسنة كانت قد بدأت تحب الشابة حبا لا يرضى بشريك له . وكانت كلتاهما تلتهب بالعاطفة المشوبة ، رغم أن المركيزة أوتيت عقلا من أكثر عقول العصر رجاحة ونفاذا .

ولم يكن مناص لجولى من أن تحب . أولا إرلنديا شابا لا نعرف عنه

غير اسمه تاف . فبعد أن قبل فى الصالون كان يختلف إليه كل يوم تقريبا . وسرعان ما تبين للمركيزة أنه لا يأتى لمشاهدتها بل لمشاهدة المدموازيل . وروعها أن ترى أن جولى قبلت تودده بالرضى . فحذرتها من تعريض نفسها للخطر . وأنكرت الفتاة المتكبرة نصيحة الأم . وإذ خافت المركيزة أن تفقدها وحرصت على حمايتها من غرام عات لا يرجى دوامه ، أمرت جولى بأن تلزم حجرتها إذا جاء تاف . فأطاعت ، ولكن المشاجرة أثارت فيها من الانفعال ما حملها على تعاطى الأفيون لتهدىء أعصابها . وقد شاع استعمال الأفيون فى القرن الثامن عشر مهدئا ، ولكن الآنسة ليسبيناس ضاعفت جرعاتها مع كل غرام جديد .

وألفت أن تسلو تاف ، ولكن غرامها الجديد دخل التاريخ ، لأنه أصاب الرجل الذى اصطفته مدام دودفان لنفسها فى حب أموى ولكنه شديد التملك . وكان هذا الرجل ، جان لورون دالامبير ، فى عام ١٧٥٤ قد بلغ أوج شهرته رياضيا ، وفيزيائيا ، وفلكيا ، ومحررا فى تلك « الموسوعة » التى كانت حديث باريس المثقفة بأسرها . وقد قال فولتير عنه ، فى لحظة تواضع ، إنه « أعظم كتاب القرن » [٩٦] ومع ذلك لم يؤت شيئا من فرص فولتير . فقد ولد ولادة غير شرعية ، وأنكرته أمه مدام دتانسان ، ولم ير أباه منذ طفولته . وعاش بورجوازيا بسيطا فى بيت الزجاج روسو . وكان وسيما ، حسن الهندام ، جم الأدب ، مرحا أحيانا ، فى وسعه أن يخوض فى أى موضوع مع أى متخصص تقريبا ، ولكن فى وسعه أيضاً أن يخفى علمه وراء واجهة من القصص ، والتقليد الساخر ، والنكتة الذكية . وفيما عدا ذلك لم يصالح العالم إلا قليلا . فقد آثر استقلاله على رضى الملوك والملكات ؛ وحين قامت مدام دودفان بحملة لتدخله الأكاديمية الفرنسية أبى أن يضمن الحصول على صوت إينو بتقريظ كتابه « مختصر كرونولوجى لتاريخ فرنسا » (١٧٧٤) وكان فيه عرق من الهجاء جعل فكاهته لاذعة أحيانا ؛ [٩٧] فقد ينفد صبره ، ويبيت أحيانا عنيفا فى ثورته على خصومه [٩٨] ، ولم يعرف قط ما الذى يجب أن يقوله أو يفعله حين ينفرد بالنساء ، ومع ذلك فإن حياءه اجتذبهن ، كأنما بتحديه لقوة تأثير مفاتهن .

وقد راع مدام دودفان منه فى أول لقائها به (١٧٤٣) اتساع ذهنه ونصوع تفكيره . وكانت يومها فى السادسة والأربعين ، وهو فى السادسة والعشرين . فتبنته « قطها الوحشى » [٩٩] ولم تكتف بدعوته لصالونها بل دعته أيضاً إلى تناول الطعام معها على انفراد ؛ وأقسمت بأنها على استعداد « لتنام اثنتين وعشرين ساعة من الأربعة والعشرين ، ما دمنا ننفق الساعتين الباقيتين معاً » [١٠٠] وكان قد انقضى على هذه الصداقة الحميمة أحد عشر عاماً حين دخلت جولى حياتهما .

كان هناك رباط طبيعى بين الابن الطبيعى والابنة الطبيعية . وقد دون دالامبير هذه الحقيقة وهو يسترجع ذكراها فيما بعد :

« كان كلانا يفتقد الوالدين والأسرة ، وإذ عانينا الهجر ، وسوء الطالع ، والشقاء منذ ولادتنا ، بدا أن الطبيعة بعثت بنا إلى العالم ليجد الواحد منا صاحبه ، وليكون له كل ما افتقده ، ولنقف معا كأننا صفصافتان ، أحنتهما العاصفة دون أن تقتلعهما ، لأنهما فى ضعفهما تشابكت أغصانهما » [١٠١] .

وأحس بهذا الانجذاب لأول نظرة تقريبا . كتب لها عام ١٧٧١ يقول :— « إن الزمن وطول الألفة يبليان كل الأشياء ، ولكنهما عاجزان عن أن يمسا حبى لك ، وهو حب الهمتنيه قبل سبعة عشر عاما » [١٠٢] ومع ذلك تريث تسع سنوات قبل أن يفصح عن غرامه ، وحين فعل كان ذلك بطريقة غير مباشرة . كتب لها من بوتسدام فى ١٧٦٣ يقول : أن له فى رفض دعوة فردريك له أن يصبح عميداً لأكاديمية برلين للعلوم « ألف سبب ، منها سبب لا يخطر لك أن تحزريه » [١٠٣] وتلك زلة فى الذكاء تستغرب عن دالامبير ، فهل فى الوجود امرأة لا تعرف أن رجلا من الرجال يهواها ؟

وأحست مدام دودفان ذلك الود المتزايد بين ضيفها المقدر وأبنة أخيها المحروسة ، كذلك لحظت أن جولى تغدو محور النقاش والاهتمام فى الصالون . وظلت برهة لا يبدر منها لوم ولا عتاب ، ولكنها فى رسالة إلى فولتير (١٧٦٠) أبدت ملاحظات مرة حول دالامبير . وسمحت لصديق أن يقرأ على ضيوفها

قبل وصول دالامبير جواب فولتير الذى أشار إلى ملاحظاتها . وإذا دالامبير يدخل بمجرد البدء فى القراءة ويسمع الفقرة التامة ، فضحك مع الضاحكين ، ولكنه تأذى ، وحاولت المركيزة استرضاءه ، ولكن الجرح لم يندمل ، فلما زار فردريك عام ١٧٦٣ كانت رسائله يومية تقريبا إلى الآنسة ديليسبناس ، نادرة إلى المدام . وبعد عودته من باريس ألف أن يزور جولى فى شقتها قبل أن يهبطا إلى الصالون ، وكان طورجو أو شاستللوكس أو رمارمونتيل يصحبونه أحيانا فى هذه الزيارات الحميمة . وشعرت المضيفة العجوز أن الذين أعانتهم وأحبتهم يخونونها . ونظرت الآن إلى جولى كأنها عدو لها ، وكشفت عن شعورها بطرق مثيرة كثيرة — كفتور لهجتها فى الحديث معها ، ومطالبها التافهة منها ، وتذكيرها إياها بين الحين والحين باعتمادها عليها . أما جولى فقد ازداد ضيقها يوما بعد يوم بهذه « العجوز العمياء الغضوب » ، وبالتزامها بأن تكون دائما فى متناولها أو على مقربة منها لتلبى حاجة المركيزة فى أية ساعة . وزادها مرور الأيام تعاسة على تعاسة ، إذ كان لكل يوم لدعته . وقد كتبت فى تاريخ لاحق تقول « كل ألم يتغلغل إلى الأعماق ، أما اللذة فطائر سريع الفرار »(١٠٤) وفى ثورة أخيرة من ثورات غضب المدام اتهمتها بخداعها فى بيتها وعلى نفقتها . وردت جولى بأنها لم تعد قادرة على العيش مع من تنظر إليها هذه النظرة . وفى يوم من أوائل مايو ١٧٦٤ غادرت المنزل بحثا عن مسكن آخر . أما المركيزة فقد جعلتها قطيعة لا رجعة فيها باصرارها على أن يختار دالامبير بينها أو بين جولى ، فغادر البيت ، ولم يعد إليه قط .

وبدا حينا أن الصالون القديم قد جرح جرحا مميتا بهذين البترين . وواصل معظم رواده زيارة المركيزة ، ولكن العديد منهم — كالمرشالة دلكسمبورج ، والدوقة دشايتون ، والكونتسية دبوفليه ، وطورجو ، وشاستللوكس ، بل حتى إينو — ذهبوا إلى جولى ليعربوا عن تعاطفهم واهتمامهم المستمر بها ، وتقلص الصالون فلم يحو غير قدامى الأصدقاء والأوفياء منهم ، والوافدين الجدد الذين يسعون إلى التميز والطعام الطيب . وقد وصفت المدام هذا التغيير فى ١٧٦٨ فقالت :

« كان هنا بالأمس إثنا عشر شخصا ، وأعجبت بمختلف أنواع الحديث التافه ودرجاته . كنا جميعاً مغفلين كبارا ، كل فى بابه ... كنا مملين غاية الإملال . وانصرف الإثنا عشر جميعا فى الساعة الواحدة ، ولكن أحداً منهم لم يخلف وراءه أسفا ... ان بون — دفيل صديقى الوحيد ، وهو يقتلنى ضجراً ثلاثة أرباع الوقت » . (١٠٥)

إنها لم تكن للحياة أى حب على الاطلاق منذ انطفأ نور عينيها ، أما الآن ، وبعد أن انفض عنها أعز أصدقائها ، فقد ترددت فى حالة من القنوط الساخر الذى لا شفاء منه . فلعنت اليوم الذى ولدت فيه كما فعل أيوب « إن عماى وشيخوختى هما أقل ما رزئت به من أحزان ... فليس هناك غير خطب واحد ... هو أنى ولدت . »(١٠٦) وسخرت من أحلام الرومانسيين والفلاسفة على السواء — لا من « هلويز ؛ وروسو وقسيسه السافواوى » فحسب ، بل من حملة فولتير الطويلة فى سبيل « الحقيقة » قالت : « وأنت يا مسيو فولتير » . عاشق الحقيقة المعلن ، قل لى بأمانة ، هل وجدتها ؟ إنك تحارب الأخطاء وتهدمها ، ولكن ماذا تحل محلها ؟ »(١٠٧) لقد كانت شكاكه ، ولكنها آثرت الشكاكين المعتدلين أمثال مونتينى وسانت — إفرمون على الثوار العدوانيين كفولتير وديدرو .

وخالت أنها نفضت يديها من الحياة ، ولكن الحياة لم تنفض يديها منها تماما . فقد بعث صالونها بعثا متقطعا خلال وزارة شوازيل ، حين تجمع أقطاب الحكم حول المركيزة العجوز ، وجاءت صداقة دوقة شوازيل الرقيقة يبعض النور الذى أشرق وسط تلك الأيام الحالكة . وفى ١٧٦٥ بدأ هوراس ولبول يختلف إلى ندواتها ، وشعرت نحوه شيئاً فشيئاً بمحبة غدت آخر تشبث مستميت لها بالحياة . ونرجو أن نلقى بها ثانية فى ذلك التجسد الأخير المذهل .

الآنسة دليسبيناس

اختارت جولى لمسكنها الجديد بيتا ذا طوابق ثلاثة عند ملتقى شارع بلشاش بشارع سان — دومنيك، ولم يكن يبعد غير مائة ياردة من بيت المركيزة الديرى.

ولم تبلغ معاناتها مبلغ الإملاق ، فقد تلقت بالإضافة إلى عدة معاشات صغيرة ، معاشين مقدارهما ٢,٦٠٠ جنيه من « دخل الملك (١٧٥٨ و ١٧٦٣) ، بناء على إلحاح شوازيل فيما يبدو ، ثم إن مدام جوفران وهبتها بناء على اقتراح دالامبير راتبين سنويين منفصلين مقدارهما ألفا جنيه وألف كراون . وأعطتها المرشالة دلكسمبورج طقما كاملا من الأثاث .

وما إن استقرت جولى فى مسكنها الجديد حتى أصيبت بالجدرى إصابة شديدة . كتب ديفد هيوم إلى مدام دبوفليه يقول « أن الآنسة دليسبيناس مريضة مرضاً خطراً ، ويسرنى أن دالامبير نسى فلسفته فى لحظة كهذه »[١٠٨] والواقع أن الفليسوف كان يمشى مسافة طويلة كل صباح ليقوم على خدمتها إلى جوار فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل ، ثم يعود إلى حجرته فى بيت مدام روسو . وتماثلت جولى للشفاء ، ولكنها باتت ضعيفة عصبية باستمرار وغلظت بشرتها وشابتها الندوب . وفى وسعنا أن نتصور ما يعنيه هذا لإمرأة لم تجاوز الثانية والثلاثين ولم تتزوج بعد .

وقد شفيت فى الوقت المناسب لتعنى بدالامبير الذى لزم فراشه فى ربيع ١٧٦٥ إثر ألم فى معدته أشرف به على الهلاك . وراع مارمونتيل أن يراه ساكنا « حجرة صغيرة سيئة الإضاءة ، سيئة التهوية ، تحوى سريرا ضيقا جدا كأنه النعش . »[١٠٩] وعرض صديق آخر هو المالى قاتلية على دالامبير أن يستعمل بيتا فسيحا قرب التامبل . وارتضى الفليسوف الآن فى أسف أن يترك المرأة التى آوته وأطعمته منذ طفولته . وقال دوكلو فى دهشة « يا لليوم المدهش ! لقد فطم دالامبير ! » وكانت جولى تقطع الرحلة كل يوم إلى مسكنه الجديد وترد له رعايته الأخيرة لها باخلاصها الفياض . فلما نقه إلى حد يتيح له التحرك رجته أن يشغل بعض الحجرات فى الطابق الأعلى من بيتها ، فذهب فى خريف ١٧٦٥ ، ودفع لها إيجارا معتدلا . ولم ينسى مدام روسو ، فكان يزورها كثيرا ، ويقتسم معها بعض إيراده ، ولا يكف عن الاعتذار عن انفصالهما « أيتها الحاضنة المسكينة ، يا من تحبيننى أكثر مما تحبين أبناءك ! »[١١٠]

وزعمت باريس حينا أن جولى خليلته . وأبدت المظاهر الزعم . فقد كان دالامبير يتناول طعامه معها ، ويكتب لها الرسائل ، ويدبر لها أعمالها ، ويستثمر لها مدخراتها ، ويجمع لها إيرادها . وكانا أمام الناس يظهران معا على الدوام ؛ وما دار نخلد مضيف أن يدعو الواحد دون صاحبه . ولكن شيئا فشيئا بدأ القوم — حتى المتقولون منهم — يتبينون أن جولى لا هى بالخليلة ولا الزوجة ولا العاشقة لدالامبير ، إنما هى مجرد أخت وصديقة . ويلوح أنها لم تدرك قط أن حبه لها كان كاملا وإن لم يستطع أن يعرب عنه ، وتقبلت السيدتان جوفران ودكير — وكلتاهما مضرب المثل فى الفضيلة — هذه العلاقة بين دالامبير وجولى على أنها حب أفلاطونى . ودعت صاحبة الصالون العجوز كليهما لندوتها .

وكان إمتحانا قاسيا لعطف الأم الذى أبدته مدام جوفران نحو الآنسة دليسبيناس ألا يصدر عنها أى احتجاج حين افتتحت هذه صالونا خاصا بها ذلك أن جولى ودالامبير كانا قد صنعا من الأصدقاء عددا بلغ من الكثرة ما ملأ قاعة استقبالها كل يوم تقريبا من الخامسة إلى التاسعة بصفوة الزوار رجالا ونساءا ، وكلهم تقريبا ذائع الصيت أو رفيع المرتبة . وكان دالامبير يقود الحديث ، وجولى تضفى على الندوة كل مفاتن الأنوثة ودفء الضيافة . ولم يقدم فيها غداء أو عشاء ، ولكنها اشتهرت بأنها أعظم صالونات باريس حفزا للعقول ، اختلف إليها طورجو ، ولومينى دبريين ، اللذين سيرقيان سريعا إلى مكان مرموق فى الحكومة ؛ ونبلاء مثل شاستللوكس وكوندورسيه ، وأحبار مثل بوامون وبواجيلان ، وشكاكون مثل هيوم وموزيلليه ، ومؤلفون مثل مابليه ، وكوندياك ، ومارمونتيل ، وسان — لامبير . حضروا أول الأمر ليروا دالامبير ويستمعوا إليه ، ثم ليحظو بتلك المهارة المتعاطفة التى كانت جولى تستدرج بها كل ضيف ليتجلى فى ميدان تفوقه الخاص . ولم يحظر أى موضوع هنا ، فكانت تناقش أدق مشكلات الدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولكن جولى — التى دربتها مدام جوفران على هذا الفن — عرفت كيف تهدىء من ثائرة الثائرين وترد النزاع نقاشا . وكانت الرغبة فى عدم الإساءة إلى المضيفة الرقيقة هى القانون غير المكتوب الذى بعث النظام فى هذه الحرية . وفى ختام حكم لويس الخامس عشر كان صالون الآنسة دليسبيناس

فى رأى سانت ــ بيف ، « أكثر الصالونات رواجا ، وأحفلها بالزوار المتشوقين إليه ، فى جيل كثر فيه الألمعيون » (١١١)

ولم يقدم صالون آخر لزواره مثل هذا الإغراء المزدوج ، فقد بدأت جولى رغم ندوب وجهها وعدم شرعية نسبها تصبح الحب الثانى لعشرة أو يزيد من الرجال المرموقين . وكان دالامبير فى قمة قدراته . يقول جريم :

« كان فى حديثه كل ما يعلم العقل ويمتعه . فكان يسلم نفسه بيسر ورغبة لأى موضوع يدخل السرور على نفوس أكثر السامعين ، مدخلا فيه معينا لا يكاد ينضب من الأفكار ، والنوادر ، والذكريات العجيبة ، وما من موضوع أياً كان جفافه أو تفاهته فى ذاته لم يملك سرا إضفاء المتعة والطرافة عليه . وكان فى كل فكاهاته أصالة رقيقة عميقة . (١١٢) .

ثم استمع إلى ديفد هيوم يكتب إلى هوراس ولبول : « أن دالامبير رفيق لطيف المعشر كامل الفضائل . وقد دل على ترفعه عن المنفعة الشخصية والطمع الباطل برفضه عروضا من قيصرة روسيا وملك بروسيا .... وله خمسة معاشات ، أولها من ملك بروسيا ، وثانيها من ملك فرنسا ، والثالث يتلقاه بوصفه عضوا فى أكاديمية العلوم ، والرابع بوصفه عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ، والخامس من أسرته . ولا تزيد جملتها كلها على ستة آلاف جنيه فى العام . وهو يعيش على نصف هذا المبلغ عيشة كريمة ، ويهب النصف الآخر للفقراء الذين له بهم صلة . والخلاصة أننى لا أكاد أعرف رجلا ، إلا القليلين ، .. يفضله نموذجا للشخصية الفاضلة الفلسوفة . (١١٣)

أما جولى فكانت نقيض دالامبير فى كل شىء خلا يسر الحديث ورقته . ولكن بينما كان هذا الموسوعى واحدا من آخر أبطال حركة التنوير ، ينشد العقل والقصد فى الفكر والعقل ، كانت جولى ، بعد روسو ، أول صوت واضح للحركة الرومانسية فى فرنسا ، مخلوقا (فى عبارة مارمونتيل) « أوتى أنشط تصور ، وأحر روح ، وأشد الخيالات تأججا منذ سافو » (١١٤) . فلم يفقها أحد من الرومانسيين ، فى عالم الحقيقة أو القصص لا هلويز روسو ، ولا روسو ذاته ، ولا كلاريسية رتشردسن ، أو مانون بريفوست ــ فى رهافة

الحس أو حرارة حياتها الباطنة. كان دالامبير موضوعيا، أو حاول أن يكون كذلك، أما جولى فكانت ذاتية إلى حد الاستغراق الأنانى فى النفس أحيانا . ومع ذلك « كانت تشارك المحزونين ألمهم ، وقد جاهدت جهادا محموما لكى ينتخب شاستللوكس ولا هارب عضوين فى الأكاديمية ، ولكنها حين أحبت نسيت كل شىء ، وكل إنسان آخر . نسيت أولا مدام دودفان ، وثانيا دالامبير نفسه .

ذلك أنه فى ١٧٦٦ دخل الصالون نبيل شاب هو المركيز خوزيه دمورا إى جونزاجو ، ابن السفير الأسبانى ، وكان فى الثانية والعشرين ، وجولى فى الرابعة والثلاثين وكان قد زوج فى الثانية عشرة من فتاة فى الحادية عشرة ، ماتت عام ١٧٦٤ . وأحست جولى بعد قليل بسحر شبابه ، وربما بسحر ثرائه . وسرعان ما نضج تعلق الواحد منهما بصاحبه فتعاقدا على الزواج . فلما سمع أبوه بالأمر أمره بأداء واجبه العسكرى فى أسبانيا. وذهب مورا ، ولكنه لم يلبث أن استقال من وظيفة الضابط . وفى يناير ١٧٧١ بدأ يبصق الدم ، فذهب إلى بلنسية التماسا للراحة ، فلما لم يشف هرع إلى باريس وجولى . واتفقا معا أياما سعيدة كثيرة ، مما روح عن بلاطها الصغير وأثار فى نفس دالامبير ألما دفينا . وفى ١٧٧٢ استدعى السفير إلى أسبانيا ، فأصر على أن يصحبه ابنه . ولم يرض الأب ولا الأم بزواجه من جولى ، فانفصل فورا عنهما وبدأ رحلته إلى الشمال ليعود إليها ، ولكنه مات بالسل فى بوردو فى ٢٧ مايو ١٧٧٤ . فى ذلك اليوم كتب لها يقول « كنت فى طريقى إليك ، ولابد أن أموت ، ياله من قضاء بشع ! ... ولكنك أحببتنى ، وتفكيرى فيك ما زال يسعدنى ، إننى أموت فى سبيلك ! » ونزعوا من أصابعه خاتمين ، احتوى أحدهما على خصلة من شعر جولى ، ونقش على الآخر هذه الكلمات « كل الأشياء تزول ، ولا يبقى غير الحب » وكتب دالامبير الشهم عن مورا يقول « إننى آسف لشخصى على فقد ذلك الرجل الحساس الفاضل الخلق ، الرفيع الفكر ، أكمل من عرفت من الناس ... وسأذكر ما حييت تلك اللحظات الغالية التى أحبت فيها نفس بهذا الطهر والنبل والقوة والتهذيب الاختلاط بنفسى » .(١١٦)

ومزق نبأ موت مورا قلب جولى ، وزاد الخطب فداحة أنها منحت حبها

فى الوقت نفسه لرجل آخر . ذلك أنها فى سبتمبر ١٧٧٢ التقت بالكونت جاك — أنطوان دجيبير ، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما ، والذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى حرب السنين السبع . أضف إلى ذلك أن كتابه « دراسة شاملة للتكتيك » أشاد به القواد ورجال الفكر رائعة فى هذا الميدان ، وقد قدر لهذا الكتاب أن يحمل نابليون نسخه منه عليها تعليقات بخط يده خلال حملاته جميعا. و « المقال التمهيدى » للكتاب الذى ندد بجميع الأنظمة الملكية صاغ المبادىء الأساسية لسنة ١٧٨٩ قبل اندلاع الثورة بعشرين عاما . وفى وسعنا أن نحكم على الاعجاب الذى أغرقه الناس على جيبير من موضوع أختير للنقاش فى أحد الصالونات الكبرى : « أيهن تحسد أكثر من غيرها : أم المسيو دجيبير ، أم أخته ، أم خليلته ؟ »(١١٧) وكان له بالطبع خليلة — هى جان دمونسوج ، آخر وأطول غرام له . وقد حكمت عليه جولى حكما قاسيا فى لحظة مرارة إذ قالت : —

« إن الاستخفاف ، بل القسوة ، التى يعامل بها النساء مصدرها قلة اعتباره لهن ... فهو يراهن معابثات ، مغرورات ، ضعيفات ، كاذبات ، طائشات ، واللاتى يحسن فيهن رأيه يراهن متعلقات بالخيال ، ومع أنه يضطر إلى الإقرار بوجود خصال حميدة فى بعضهن ، فهو لا يقدرهن لهذا السبب تقديرا أعلى ، بل يرى أن فيهن رذائل أقل ، لا فضائل أكثر . »(١١٨)

على أنه كان وسيما ، وسلوكه كاملا ، وحديثه يجمع بين الغنى والشعور ، وبين العلم والوضوح ، قالت مدام دستال « كان حديثه أكثر ما عرفت تنوعا ، وحيوية ، وغنى . »(١١٩)

ورأت جولى أنها محظوظة بإيثار جيبير لندواتها . وافتتن الواحد منهما بشهرة صاحبه . فنشأت بينهما علاقة أصبحت من جانبه غزوة عارضة ، ومن جانبها غراما قتالا . وهذا الغرام الفتاك هو الذى أحل رسائلها إلى جيبير مكانا مرموقا فى الأدب الفرنسى وبين أكثر وثائق العصر كشفا . ففيها أكثر حتى مما فى « جولى أو هلويز الجديدة » لروسو (١٧٦١) ، تلقى إرهاصات الحركة الرومانسية فى فرنسا تعبيرها الحى .

وفى أول رسالة باقية إلى جيبير (١٥ مايو ١٧٧٣) نراها واقعة فى حبائل غرامه ، ولكن كان يمزقها تأنيب الضمير لانتهاكها ميثاق الوفاء لمورا . فكتبت لجيبير وهو راحل إلى ستراسبورج تقول :

رباه ! بأى سحر ، وبأى قدر ، استطعت أن تفتننى ؟ لم لم أمت فى سبتمبر ؟ كان يمكن أن أموت آنئذ فأعفى .... من اللوم الذى ألوم به نفسى الآن .. إننى أشعر بهذا وآ أسفاه ، إننى ما زلت أستطيع الموت فى سبيله ، فما من مصلحة لى أضن ببذلها له ... أواه ، أنه سيصفح عنى ! لقد عانيت كثيراً جداً ! ولقد أضنى جسدى وروحى طول ما ألم بى من حزن . وطاش عقلى حين تلقيت خطابه . فى ذلك الحين رأيتك أول مرة ، فى ذلك الحين تسلمت نفسى ، فى ذلك الحين أدخلت عليها السرور ، ولست أدرى أيهما كان أحلى — أن أشعر بذلك السرور ، أو أن أدين به لك .[١٢٠]

وبعد ثمانية أيام سقطت كل أسباب دفاعها : « لو كنت صغيرة جميلة ، فاتنة جدا ، لما أعيانى أن أتبين الكثير من الافتعال فى مسلكك معى ، ولكن بما أننى لست من هذا كله فى شىء ، فأننى أجد فى مسلكك عطفا وشرفا أكسباك نصرا على روحى إلى الأبد .[١٢١]

وكانت أحيانا تكتب بكل التحرر الذى كتبت بها هلويز لأبيلار :

« أنت وحدك الذى يستطيع فى هذا الكون أن يمتلك كيانى ويتربع فيه .. وقلبى ، وروحى ، لا يمكن أن يملأهما سواك .... إن بابى لم يفتح اليوم مرة دون أن يخفق قلبى ، ومرت بى لحظات كنت أخشى فيها أن أسمع أسمك ، ثم كان يحطم قلبى ألا أسمعه . أن كثيرا من المتناقضات ، وكثيرا من الانفعالات المصطرعة ، صادقة ، وتفسرها كلمة واحدة : أحبك .[١٢٢]

وزاد الصراع بين الغرامين من الاضطراب العصبى الذى ربما كان مصدره تعطش آمالها إلى تحقيق المرأة لذاتها ، واستهدافها المتزايد للسل ، وكتبت إلى جيبير ٦ يوليو ١٧٧٣ تقول :

« إن روحك رغم اضطرابها ليست كروحى التى لا تفتأ مترددة بين

التشنج والاكتئاب . وأنا أتعاطى السم (الأفيون) لأهدىء نفسى . وأنت ترى أنى عاجزة عن أن اهدىء نفسى ؛ فأرشدنى ، وقونى ، وسأصدقك ، وستكون سندى .[١٢٣]

وعاد جيبير إلى باريس فى أكتوبر ، وقطع علاقاته مع مدام دمونسوج ، وباح بحبه لجولى . فقبلته شاكرة ، وأسلمت له جسدها — فى الحجرة المؤدية لمقصورتها فى الأوبرا (١٠ فبراير ١٧٧٤)[١٢٤] وقد زعمت فيما بعد أن هذه الفعلة التى اقترفتها وهى فى الثانية والأربعين ، كانت أول زلة لها من « الشرف » و « الفضيلة »[١٢٥] ولكنها لم تنح على نفسها باللوم :

« أتذكر الحال التى وضعتنى فيها ، والتى اعتقدت أنك تركتنى عليها ؟ حسنا أود أن أقول لك أننى بعد أن أفقت سريعا ، قمت ثانية (والكلمتان كتبتهما بحروف مائلة) ورأيت ذاتى غير هابطة عن مقامى قيد أنمله .... وربما تعجب لأن آخر الدوافع التى جذبتنى إليك هو الوحيد الذى لا يبكتنى عليه ضميرى ..... فبذلك الاستسلام ، بتلك المرتبة النهائية من نكران نفسى وكل مصلحة شخصية لى ، أثبت لك أنه ليس هناك غير خطب واحد فى الأرض لا طاقة لى باحتماله — وهو أن أغضبك وأفقدك . فذلك الخوف يجعلنى أبذل لك حياتى . »[١٢٦]

ونعمت حيا بنشوات السعادة . وكتبت إليه (لأنهما أخفيا عن الناس علاقتهما وسكن الواحد بعيدا عن صاحبه) . لقد ظللت أفكر فيك طوال الوقت . وأنا مستغرقة فيك استغراقا يجعلنى أفهم شعور العابد نحو إلهه . »[١٢٧] أما جيبير فلم يكن بد من أن يمل غراما يسرف هذا الاسراف فى سكب نفسه دون أن يترك لقوته أى تحد . وسرعان ما راح يهتم بالكونتيسة دبوفليه ، ويستأنف غرامه بمدام دمونسرج (مايو ١٧٧٤) . وعاتبته جولى ، فرد فى فتور . ثم نمى إليها فى ٢ يونيو أن مورا مات فى طريقه إليها وهو يبارك اسمها . فتردت فى حمى من الندم والحسرة وحاولت أن تسمم نفسها ، ولكن جيبير منعها . وراحت خطاباتها إليه يدور أكثرها حول مورا ، ومبلغ سمو هذا النبيل الأسبانى عن أى رجل عرفته فى حياتها . وقلت رؤية جيبير لها وزادت لقاءاته بمونسوج . وعللت جولى نفسها بالبقاء على الأقل خليلة من خليلاته ، فكانت

ترتب له الزيجات ، ولكنه رفض عرائسها ، وفى أول يونيو ١٧٧٥ تزوج الآنسة دكورنسيل ، وكانت فتاة غنية فى السابعة عشرة . وكتبت له جولى خطابات مفعمة بالحقد والاحتقار ، مختتمة بتوكيدات الحب الذى لا يموت[١٢٨].

وقد استطاعت طوال حمى غرامها كلها أن تخفى طبيعتها عن دالامبير ، الذى خيل إليه أن سببها هو غياب مورا ثم موته . فرحب بجيبير فى صالونها ، وكون صداقة مخلصة معه ، وكان يرسل بشخصه الرسائل المختومة التى تكتبها لعشيقها . ولكنه لحظ أنها فقدت اهتمامها به ، وأنها كانت أحيانا تستاء من وجوده . والواقع أنها كتبت لجيبير « لولا أنه يبدو عقوقا بالغا منى لقلت إن رحيل دالامبير يعطينى نوعا من السرور . إن حضوره يثقل روحى . وهو يجعلنى قلقة مضطربة النفس ، فأنا أشعر أننى غير مستحقة أبدا لصداقته وطيبة قلبه .. »[١٢٩] فلما ماتت كتب إلى « روحها » يقول :

« ليت شعرى لأى سبب لا أستطيع أن أفهمه ولاأن أحزره ، تغير فجأة ذلك الشعور الذى كان من قبل غاية فى الرقة نحوى ... إلى شعور الغربة والنفور ؟ ما الذى صنعت مما يسىء إليك ؟ لم لم تشكى إلى إن كان لك مبرر للشكوى ؟ ... أم أنك أيتها العزيزة جولى ... قد أسأت إلى إساءة أجهلها ، وكان يحلو لى كثيرا أن اغتفرها لو علمت بها .... لقدكنت عشرين مرة على وشك أن ألقى بنفسى بين ذراعيك ، وأن أطلب إليك أن تخبرينى ما جريرتى ، ولكنى خشيت أن تصدنى هاتان الذراعان ...

« وظللت تسعة أشهر أترقب اللحظة التى أخبرك فيها بما عانيت وما أحسست . ولكنى وجدتك خلال تلك الشهور أضعف من أن تحتملى العتب الرقيق الذى كان على أن أكاشفك به ، واللحظة الوحيدة التى كان يمكننى فيها أن أكشف لك فى غير خفاء عن قلبى المحزون الواهن هى تلك اللحظة الرهيبة ، قبل موتك بساعات ، حين سألتنى الصفح عنك بطريقة مزقت نياط قلبى ... ولكن عندها لم يعد فيك قوة لا للتحدث ولا للاستماع إلى ... وهكذا فقدت إلى الأبد لحظة العمر التى كانت ستكون لى أغلى اللحظات — اللحظة التى أخبرك فيها ، مرة أخرى ، كم أنت عزيزة على ، وكم شاطرتك محنك ، وما أعمق

رغبتى فى أن أنهى آلامى بك ، وددت لو بذلت كل ما بقى لى من لحظات عمرى لقاء تلك اللحظة الواحدة التى لن تتاح لى أبدا ، تلك التى ربما كنت أستعيد بها حنانك إذ أكاشفك بكل ما فى قلبى من حنان لك . »[١٣٠]

وساعد إنهيار حلم جولى السل على الفتك بها ، ودعى لعيادتها الطبيب بوردو (الذى التقلينا به فى قصة ديدرو «حلم دالامبير ») ، فصرح بأنه لا أمل فى شفائها . ولم تبرح فراشها منذ أبريل ١٧٧٦ . وكان جيبر يذهب لزيارتها كل صباح ومساء . ولم يكن دالامبير يترك العناية بها إلا لينام . وكان الصالون قد توقف ، لولا حضور كوندورسيه ، وسوار ، ومدام جوفران الطيبة ، التى كانت هى ذاتها مشرفة على الموت . وفى أيامها الأخيرة أبت جولى أن تسمح لجيبير بزيارتها ، لأنها لم تشأ أن تدعه يرى كيف شوهت التشنجات وجهها ؛ ولكنها كانت ترسل العديد من الخطابات ، وأكد لها هو أيضا حبه : « لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى التى التقينا فيها ، أنك أغلى عندى من كل شىء فى هذه الدنيا . »[١٣١] فكان هذا ، ووفاء دالامبير الصامت ، وقلق أصدقائها عليها ، العزاء الوحيد لها فى آلامها . وكتبت وصيتها ، التى عينت دالامبير منفذا لها ، وعهدت إليه بكل أوراقها وأمتعتها الشخصية (*) .

وجاء أخوها المركيز دفيشى من برجندية ، وألح عليها فى أن تتصالح مع الكنيسة وكتب إلى الكونت دالبون « يسعدنى أن أقول لك إننى أقنعتها بأن تتناول القربان على الرغم من « الموسوعة » كلها ، وفى مواجهتها »[١٣٢].

وأرسلت كلمة أخيرة إلى جيبير : « يا صديقى ، أننى أحبك ... وداعا » وشكرت دالامبير على وفائه الطويل ، وتوسلت إليه أن يغفر لها جحودها ، وماتت فى تلك الليلة ، فى الساعات الباكرة من يوم ٢٣ مايو ١٧٧٦ . ودفنت فى اليوم نفسه : من كنيسة سان — سولبيس ، « دفن الفقراء » كما رغبت فى وصيتها .

(*) احتفظت زوجة جيبير بخطابات جولى إليه ، وقد نشرت فى ١٨١١ .

الفصل الخامس

فولتير الشيخ

١٧٥٨ .. ١٧٧٨

١ — الإقطاعى الطيب

فى أكتوبر ١٧٥٨ اشترى فولتير ضيعة قديمة فى فرنيه ، فى مقاطعة جكس ، الواقعة على حدود سويسرة . ولم يلبث أن أضاف إليها أقطاعة تورنيه التى اشتراها لمدى الحياة ، وبهذا أصبح الآن من الناحية القانونية سيداً إقطاعياً ، وراح يوقع باسم « الكونت دتورنيه » فى الشئون القانونية ، وأبرز شعار نبالته على مدخل بيته وعلى آنيته الفضية »[1]

كان قد سكن فيللا دليس بجنيف منذ ١٧٥٥ . ولعب دور المليونير الفليسوف المضياف فى لذة وفى استحسان من الناس ، ولكن المقال الوارد فى موسوعة دالامبير عن جنيف ، الذى أماط اللثام عن الهرطقات السرية التى يدين بها قساوستها ، عرض فولتير للاتهام بأنه وشى بهم لصديقه ، فلم يعد شخصا مرغوبا فيه على أرض سويسرة ، وراح يلتمس من حوله مسكنا آخر . وكانت فرنيه تقع فى فرنسا ، ولكنها لا تبعد عن جنيف أكثر من ثلاثة أميال ، هنالك يستطيع أن يخرج لسانه للقادة الكلفنيين ، ولو جدد القادة الكاثوليك فى باريس — على بعد ٢٥٠ ميلا — حملتهم لإعتقاله ، لاستطاع فى ظرف ساعة أن يعبر الحدود ، وخلال ذلك (١٧٥٨ — ١٧٧٠) كان صديقه الدوق دشوازيل يرأس الوزارة الفرنسية واشترى فرنيه باسم ابنة أخته مدام دنيس ، ربما اتقاء المصادرة إذا غيرت ريح السياسة اتجاهها ، لم يشترط عليها إلا أن تعترف به سيداً على الضيعة طوال حياته . وظلت فيللا دليس حتى عام ١٧٦٤

مسكنه الرئيسى ، وراح يعدل فى بيته بفرنيه على مهل ، وأخيراً انتقل إليه فى ذلك العام .

وكان البيت الفخم الجديد من الحجر ، ومن تصميم فولتير إلى حد كبير ، وبه أربع عشرة حجرة نوم . كتب يقول « إنه ليس قصرا ، ولكنه بيت ريفى فسيح ، تلحق به أرض تنتج الكثير من الدريس ، والقمح ، والتبن ، والشوفان. ولدى بلوطات فى استقامة أشجار الصنوبر تلمس رؤوسها السماء . »[٢] وأضافت تورنيه إلى أملاكه هذه قصرا ريفيا قديما ، ومزرعة ، ومخزنا للغلال ، ومرابط ، وحقولا ، وغابات ، وضمت مرابطه فى جملتها الخيول ، والثيران ، وخمسين بقرة ، ووسعت مخازنه كل حاصلات أرضه وبقى فيها مكان لمعاصر النبيذ ، وحيشان الدواجن ، وحظيرة للغنم ، وامتلأت المزرعة بطنين أربعمائة خلية نحل ، وجادت الأشجار بأخشاب تدفء عظام السيد الإقطاعى من رياح الشتاء . واشترى وغرس الشجيرات ، وزرع شجيرات أكثر من نبتات صغيرة رباها فى مستنبتاته . ومد الحدائق والأفنية حول بيته حتى بلغ محيطها ثلاثة أميال ، وكانت تحوى أشجار الفاكهة ، والكروم ، وأنواعا كثيرة من الأزهار . هذه الأبنية ، والنباتات ، والحقول ، والنظار الثلاثون القائمون عليها — كل أولئك كان يشرف عليه بشخصه . هنا أيضا رضى رضى أنساه أن يموت ، شأنه حين دخلا فيللا دليس . فكتب إلى مدام دودفان يقول « أنى مدين بحياتى وصحتى للطريق الذى سلكته . ولو جرؤت لاعتقدت أننى حكيم ، لأننى سعيد جدا . »[٣]

وتسلطت مدام دنيس على الخدم والأضياف الثلاثين أو أكثر الذين عاشوا فى القصر الريفى بيد متفاوتة الإنصاف . وكانت طيبة القلب ، ولكنها حادة الطبع ، تحب المال أكثر قليلا من حبها لما عداه .... رمت خالها بالبخل ، ولكنه نفى التهمة ، على أى حال « نقل إليها شيئا فشيئا ، الجانب الأكبر من ثروته . »[٤] وكان قد أحبها طفلة ، ثم امرأة ، وطاب له الآن أن يتخذها قهرمانة له . وكانت تمثل فى المسرحيات التى يخرجها ، وأجادت التمثيل حتى كان يقارنها بكليرون . وأدار هذا المديح رأسها ، فعكفت على كتابة المسرحيات ولقى فولتير عنتاً فى ثنيها عن عرضها على الناس . ثم أضجرتها حياة الريف

وهفت نفسها إلى باريس ؛ وكانت رغبة فولتير فى الترويح عنها بعض ما دفعه إلى دعوة هذه السلسلة الطويلة من الضيوف واحتمالها . ولم تكن تحب سكرتيره فاجنير ، ولكنها أغرمت بالأب آدم ، اليسوعى الشيخ الذى رحب به فولتير فى بيته غريما لطيفا فى لعبة الشطرنج ، والذى فاجأه ذات يوم عند قدمى الخادمة بربارة .[٥] ومرة ، ربما بسبب سماح دنيس للاهارب بالرحيل مصطحبا إحدى مخطوطات السيد ، أغضبت فولتير غضبا حمله على ردها إلى باريس بعد أن رتب لها معاشا سنويا قدره عشرون ألف فرنك[٦]. ولكن بعد ثمانية عشر شهرا انهار ، فتوسل إليها أن تعود .

وغدت فرنيه كعبة يحج إليها من يستطيعون الرحلة ويستطيبون التنوير . فأمها صغار الحكام كدوق فورتمبرج وناخب بالاتين . والإقطاعيون كأمير لين ود وفى ريشليو وفيلار ، والأعيان كتشاواز جيمس فوكس ، وملتقطوا الأخبار كبيرنى وبوزويل ، والفاسقون مثل كازانوفا ؛ ومئات ممن هم أقل من هؤلاء شأنا . وكان يكذب كذبا مفضوحا إذا جاءه زوار لم يدعهم ؛ « قولوا لهم إننى مريض جدا » « قولوا لهم أننى مت » ، ولكن أحداً لم يصدق . كتب إلى المركيز دفيليت يقول « اللهم نجنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم . »[٧]

وما أن استقر به المقام فى فرنيه حتى ظهر بوزويل (٢٤ ديسمبر ١٧٦٤) وهو ما يزال متأثرا بزياراته لروسو . وبعث فولتير إليه بكلمة يقول إنه ما زال فى فراشه ولا يمكن إزعاجه . ولكن هذا لم يجد فى ثنى الاسكتلندى الملهوف ، فأصر على البقاء ولم يبرح مكانه حتى طلع عليه فولتير . وتحادثا مليا ، ثم خلا فولتير إلى مكتبه . وفى الغد كتب بوزويل إلى مدام دنيس من فندق فى جنيف يقول :

« يجب أن التمس منك ياسيدتى أن تعيرينى اهتمامك بأن تحصلى لى على صنيع كبير جداً من المسيو دفولتير . أريد أن أنال شرف العودة إلى فرنيه يوم الأربعاء أو الخميس . فأبواب هذه المدينة الوقور تغلق فى ساعة ... سخيفة جدا ، حتى ليضطر المرء إلى الرحيل بعد العشاء قبل أن يتاح لرب البيت الأشهر أن يطلع بمحياه على ضيوفه ...

فهل يسمح لى يا سيدتى بقضاء ليلة واحدة تحت سقف المنسيو دفولتر؟ إننى اسكتلندى صلب العود شديد البأس ، ولك أن تصعديني إلى أعلى وأبرد علية فى البيت ، بل أننى لن أرفض النوم على مقعدين فى حجرة نوم خادمتك »(٨)

وأمر فولتير أبنة أخته بأن يخبر الاسكتلندى أن يحضر ؛ وسيعد له فراش . فحضر فى ٢٧ ديسمبر ، وتحدث إلى فولتير بينما كان هذا يلعب الشطرنج ، وفتنه حديث السيد وشتائمه الإنجليزية ، ثم « أنزل مكانا أنيقا » فى « حجرة جميلة . »(٩) وفى الغد اضطلع بهداية فولتير إلى المسيحية القويمة ، وبعد قليل اضطر فولتير وقد أوشك على الاغماء أن يطلب هدنه . وبعد يوم ناقش بوزويل ديانه رب البيت مع الأب آدم ، اللذى قال له « أننى أصلى من أجل المسيو دفولتير كل يوم .... من المؤسف أنه ليس مسيحيا . فإنه يملك الكثير من الفضائل المسيحية . له أجمل نفس ، وهو إنسان خير ، محسن ، ولكنه شديد التحامل على الدين المسيحى . »(١٠)

وكان فولتير يقدم لضيوفه الطعام ، والحكمة ، والنكتة ، والمسرحية ، ليرفه عنهم . وبنى قرب بيته مسرحا صغيرا وصفه جبون حين رآه عام ١٧٦٣ بأنه « أنيق جداً مصمم تصميما حسنا ، يقع إلى جوار كنيسته الصغيرة ، التى لا تدانيه إطلاقا . »(١١) وسخر الفيلسوف من روسو والقساوسة الجنيفيين اللذى أدانوا المسرح باعتباره منبر الشيطان . ولم يكتف بتدريب مدام دنيس بل درب أيضاً خدمه وضيوفه على لعب الأدوار فى تمثيلياته وغيرها ، وكان هو نفسه يختال على خشبة المسرح فى الأدوار الرئيسية ، وأقنع الممثلون المحترفون بسهولة بأن يمثلوا لأشهر كاتب فى العالم .

ووجد الزوار فى مظهره فتنة تقرب من فتنة حديثه ؛ فقال أمير لين فى وصفه إنه مدثر بروب عليه رسوم أزهار ، على رأسه باروكة هائلة تعلوها قلنسوة من المخمل الأسود ، ويرتدى سترة من القطن الرفيع تصل إلى ركبتيه ، وبنطلونا قصيرا أحمر ، وجوارب رمادية ، وحذاء من القماش الأبيض .(١٢) وكانت عيناه « لامعتين تمتلئان نارا » كما يقول فاجنير ،

وقال هذا السكرتير المخلص إن مولاه « كثيرا ما كان يغسل عينيه بالماء النقى البارد » ، و « لا يستعمل النظارات إطلاقاً »[١٣] وفى أخريات حياته ، حين مل حلاقة لحيته ، كان ينزع شعرها بملقاط . ويواصل فاجنيير حديثه فيقول « كان شديد الولع بالنظافة والنظام ، وكان هو ذاته نظيفا إلى حد الوسوسة . »[١٤] وكثيرا ما كان يستعمل مساحيق التجميل ، والعطور ، والمراهم ، وكانت حاسة شمه المرهفة تتأذى من الروائح الكريهة .[١٥] وكان « نحيلا إلى حد يصدق » لا يحمل من لحم إلا ما يكسو عظامه بالجهد . وكتب الدكتور بيرنى بعد أن زاره عام ١٧٧٠ « ليس من اليسير تصور إمكان بقاء الحياة فى جسد يكاد يكون جلدا وعظاما .... وقد ظننى مشتاق لتكوين فكرة عن ... إنسان يمشى بعد موته . »[١٦] وقد قال يصف نفسه إنه « يثير السخرية لأنه لم يمت »[١٧].

كان عليلا نصف عمره . وكان يشكو من بشرة شديدة الحساسية ؛ وكثيرا ما شكا من حكات متنوعة[١٨] ، ربما من أثر العصبية أو الإفراط فى النظافة . وكان أحيانا يعانى من تقطر البول — وهو التبول البطىء المؤلم ؛ فى هذه الناحية كان هو وروسو صنوين وإن اشتد تباينهما فيما عداها . وكان يشرب القهوة باسراف — خمسين مرة فى اليوم فى رواية فردريك الأكبر ؛[١٩] وثلاث مرات فى رواية فاجنيير[٢٠] . وهو يسخر من الأطباء ، ويلاحظ أن لويس الخامس عشر عمر بعد أن مات أربعون من أطبائه ، ويقول « من سمع بطبيب عمر للمائة ؟ »[٢١]

ولكنه هو نفسه كان يستعمل الكثير من العقاقير . وقد وافق مرشح موليير لنيل درجة الطب على أن خير دواء فى أى داء خطير هو « إعطاء عقار مسهل »[٢٣] . وكان يطهر أمعاءه ثلاث مرات فى الأسبوع بمحلول القرفة الصيفية ، أو بحقنة صابون . ومن رأيه أن خير الأدوية هو الدواء الواقى ، وخير واق هو تنظيف الأعضاء الداخلية والغطاء الخارجى .[٢٤] وكان يمارس عمله ، رغم شيخوخته ، وأوصابه ، وزواره ، بنشاط لا يؤتاه إلا رجل تخفف من عبء اللحم الفائض . وقد قدر فاجنيير أن مولاه لم يكن ينام « أكثر من خمس ساعات أو ست »[٢٥] فى اليوم . وكان يواصل العمل إلى

ساعة متأخرة من الليل ، وأحيانا يوقظ الأب دم من فراشه ليعينه على تصيد كلمة يونانية .(٢٦)

وكان يؤمن أن العمل دواء ناجح للفلسفة والانتحار . وأنجع منه العمل فى الخلاء ، فهو يزرع حديقته بشخصه ، وأحيانا يحرث أو يبذر البذر بيديه.(٢٧) وتبينت مدام دودفان فى رسائله اللذة التى استشعرها فى رؤية الكرنب الذى غرسه ينمو . وكان يرجو أن يذكره الخلف على الأقل لآلاف الاشجار التى غرسها . وقد أصلح الأراضى البور وجفف المستنقعات . وأنشأ إسطبلا لتربية الخيل وجلب إليه عشر مهرات ، ورحب بعرض المركيز دفوابيه أن يعطيه فحلا . وكتب يقول « إن حريمى جاهز لا ينقصه غير السلطان ... لقد كتب الكثير جدا فى السنوات الأخيرة عن السكان حتى إننى أود على الأقل أن أملأ أرض جكس بالخيل ، ما دامت قاصرا عن شرف إكثار نوعى الإنسانى »(٢٨) ؛ وكتب إلى الفسيولوجى هالر يقول « أن خير ما يسعدنا عمله على هذه الأرض هو أن نزرعها ، وكل ما عدا ذلك من تجارب فى الفيزياء بالقياس إليه عبث أطفال . أنعم وأكرم بزراع الأرض ، وتباً للإنسان الشقى الذى يكدرها — سواء حمل على رأسه تاجا ، أو خوذة ، أو قلنسوة كاهن ! »(٢٩).

وحين أعوزته الأرض التى تكفى لتشغيل جميع السكان من حوله ، نظم فى فرنيه وتورنيه حوانيت لصنع الساعات ونسج الجوارب — التى ربت لها أشجار توته دودة القز . وكان يشغل كل طالب شغل ، حتى أصبح عدد من يعملون له ثمانمائة شخص . وشيد مائة بيت لعماله ، وأقرضهم المال بفائدة قدرها ٤٪ ، وساعدهم على إيجاد أسواق لسلعهم . وما لبث أصحاب التيجان أن أقبلوا على شراء ساعات فرنيه ، ولبست كرائم السيدات اللائى أغرتهن خطاباته جوارب زعم أنه نسج بعضها بيده . واشترت كاترين الثانية من ساعات فرنيه ما بلغت قيمته ٣٩,٠٠٠ جنيه ، وعرضت أن تساعده على إيجاد أسواق لها فى آسيا . وما مضت ثلاث سنوات حتى كانت الساعات الصغيرة والكبيرة والحلى والمجوهرات المصنوعة فى فرنيه تصدر فى شحنات منتظمة على السفن إلى هولندة ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، ومراكش ، والجزائر ،

وتركيا ، وروسيا ، والصين ، وأمريكا . وبفضل الصناعات الجديدة نمت فرنيه من قرية يسكنها أربعون فلاحا إلى مجتمع قوامه ألف ومائتا نفس خلال مقام فولتير بها . كتب إلى رشايو يقول « أعطني فرصة مواتية وأنا كفيل ببناء مدينة . »[٣٠] وعاش الكاثوليك والبروتستنت في سلام على أرض هذا الزنديق .

أما علاقاته بـ « مواليه » فكانت علاقات « الإقطاعي الطيب » . وكان يعاملهم كلهم بأمانة ومجاملة . يقول الأمير دلين : « كان يكلم فلاحيه وكأنهم سفراء »[٣١] . وأعفاهم من ضرائب الملح والتبغ (١٧٧٥) . [٣٢] وكافح دون طائل ولكن بغير هوادة ليحرر جميع فلاحي إقليم جكس من رق الأرض . وحين هددت المجاعة الإقليم استورد القمح من صقلية وباعه بأقل كثيرا مما كلفه .[٣٣] وبينما كان يواصل حربه على « العار » — على الخرافة ، والظلامية ، والاضطهاد — أنفق الكثير من وقته في ممارسة الإدارة . واعتذر عن عدم مغادرة فرنيه ليزور أصدقائه بقوله « على أن أرشد وأعول ثمانمائة شخص ... ولا أستطيع الغياب دون أن أعرض كل شيء للانتكاس إلى حالة الفوضى » .[٣٤] وقد أدهش نجاحه إداريا كل من شهد نتائجه . قال ناقد من أقسى نقاده « أنه أبدى حكما واضحا على الأمور وإدراكا حسنا جدا . »[٣٥] وتعلم القوم الذين حكمهم أن يحبوه ، ومرة ألقوا أوراق الغار على مركبته أثناء مروره .[٣٦] وكان أشدهم تعلقا به الشباب والصغار لأنه فتح لهم قصره كل أحد للرقص والترفيه . »[٣٧] وكان يشجعهم على المضي في لهوهم ويغتبط لابتهاجهم . كتبت مدام دجاللاتان تقول « كان في غاية السعادة ولم يحس بأنه بلغ الثانية والثمانين »[٣٨]. لقد أحس بهذا ، ولكنه كان راضيا . وكتب يقول « إني أصبح شيخا »[٣٩] .

٢ — صولجان القلم

وواصل الكتابة خلال ذلك ، فدفع بما لا يصدق كما ، وكيفا ، وتنوعا . من التواريخ ، والأبحاث ، والدراسات ، والقصص ، والقصائد ، والمقالات ، والنبذ ، والخطابات ، والمراجعات النقدية — دفع بهذا كله إلى جمهور دولي يتلهف على كل كلمة تصدر عنه . ففي سنة واحدة - سنة ١٧٦٨ — كتب

« الرجل صاحب الأربعين أيكو » و « أميرة بابل » (وهي من خيرة قصصه) ، و « رسالة إلى بوالو » ، و « إعلان لإيمان موحد بالله » و « بيروونية (لا أدرية) التاريخ » ونصين لأوبرا هزلية ، وتمثيلية . وكان ينظم كل يوم تقريبا « شعرا قصير الأجل » هو ضرب من الإجرام المسجوع ، قصير ، خفيف ، رشيق ؛ وهو في هذا المضمار لا يشق له غبار في الأدب بأسره ، حتى في التفوق المركب لـ « المختارات اليونانية » .

وقد عالجنا كتاباته في الدين والفلسفة في غير هذا الموضع . فلنلق نظرة عاجلة على التمثيليات التي كتبها في فرنيه . تانكريد ، ونانين ، والاسكتلندية ، وسقراط ، وشاول ، وإيرين ، وهي أقل ذريته خلودا وإن كانت حديث باريس في حياته . وقد حظيت تانكريد التي مثلت على التياتر — فرانسيه في ٣ سبتمبر ١٧٥٩ باستحسان الجميع حتى فريرون ، خصم فولتير اللدود . وقد بلغت الآنسة كليرون في دور دبورة ، ولو كان في دور تانكريد في هذه المسرحية قمة فنهما . وكانت خشبة المسرح قد أجلي عنها المتفرجون وجملت بديكور فسيح رائع ، وكان الموضوع الفروسي الوسيط تحولا محببا عن المواضيع الكلاسيكية ، بل يمكن القول إن تلميذ بوالو كتب هنا تمثيلية رومانسية ، وأظهرت « نانين » أن فولتير تأثر برتشردسن ، شأنه شأن ديدرو ؛ وقد امتدحها روسو ذاته . أما « سقراط » فاحتوت — حكمة غالية « إنه انتصار للعقل أن يعيش في سلام مع أولئك الذين لا عقل لهم . »[٤٠]

وقد درس فولتير كورني وراسين دراسة مستفيضة ، وهو الذي أشاد به جيله ضريبا لهما . تردد طويلا في أي الاثنين يفضل ؛ وانتهى به التردد إلى إيثار راسين . وقد رفع الاثنين بجرأة فوق مقام سوفوكليس ويوربيديس ، ورفع موليير في أفضل مسرحياته ، فوق تيرينس ببرودتة رغم نقائه ، وفوق المهرج أرستوفانيس .[٤١] وقد تأثر حين نمى إليه أن ماري كورنيي ، حفيدة أخي المسرحي ، تعيش في ضنك قرب إفريه ، فعرض أن يتبناها ويتكفل بتعليمها ، وحين علم أنها فتاة متدينة أكد لها أنه سيتيح لها كل الفرص لممارسة عبادتها . فحضرت إليه في ديسمبر ١٧٦٠ ، فتبناها ، وعلمها أن تكتب

الفرنسية الجيدة ، وأصلح من نطقها ، وصاحبها إلى القداس . ورغبة فى جمع مهر لها اقترح على الأكاديمية الفرنسية أن تنوط به نشر أعمال كورنى والتعليق عليها ، فوافقت . وعكف لتوه على قراءة تمثيليات سلفه من جديد وتزويدها بالمقدمات والهوامش ، ثم أعلن عن المشروع ، وناشد الراغبين أن يكتتبوا له لأنه كان خبيرا بشئون المال والأعمال ، واكتتب كل من لويس الخامس عشر ، والقيصرة اليزافيتا ، وفردريك ملك بروسيا ، بمائتى نسخة ، وكل من مدام ديومبادور وشوازيل بخمسين ، ووصلته اكتتابات أخرى من تشسترفيلد وغيره من وجوه الأجانب . وكانت النتيجة أن تقدم الخطاب الكثيرون لمارى كورنى . وقد تزوجت مرتين ، وأصبحت فى ١٧٦٨ أم شارلوت كورداى .

وقد كان فولتير أعظم مؤرخى جيله كما كان أعظم شعرائه ومسرحييه . فنى ١٧٥٧ طلبت إليه الإمبراطورة اليزافيتا أن يكتب ترجمة لأبيها بطرس الأكبر . ودعت فولتير إلى سانت بطرسبورج ووعدته بأن تغدق عليه أسباب التكريم . فأجاب بأن شيخوخته تحول بينه وبين القيام برحلة كهذه ، ولكنه سيكتب التاريخ إذا وافاه وزيرها الكونت شوفالوف بالوثائق التى تبين سيرة بطرس والتغيرات التى أحدثتها إصلاحات هذا القيصر . وكان قد رأى فى شبابه بطرس فى باريس (١٧١٦) ، وكان يعتبره رجلا عظيما ، همجيا رغم عظمته وتحاشيا للخوض الخطر فى أخطائه ، قرر ألا يكتب ترجمة بل تاريخا لروسيا تحت حكمه الجدير بأن يذكر ، وهى مهمة أشق بكثير . وقام بأبحاث هامة فى الموضوع ، وعكف بهمة على هذا العمل من ١٧٥٧ إلى ١٧٦٣ ، ثم نشره فى ١٧٥٩ — ١٧٦٣ بعنوان « تاريخ الروسيا فى عهد بطرس الأكبر . » وكان مأثرة جليلة بالنسبة لزمانه ، وظل خير تناول للموضوع قبل القرن التاسع عشر ، ولكن ميشليه الأمين وجده باعثا على السأم ، وقد رأت القيصرة أجزاء منه ، فأرسلت إلى فولتير « ماسات كبيرة » على الحساب ، ولكنها سرقت فى الطريق ، وماتت القيصرة قبل أن يكتمل الكتاب .

وبينما كانت حرب السنين السبع مستعرة من حوله ، قام فى فترات متقطعة بتجديد كتابه « التاريخ العام » أو « مقال فى الأعراف » مضيفا إليه (١٧٥٥ —

١٧٦٣ (« خلاصة لعصر لويس الخامس عشر » وكانت عملية شائكة ، لأنه لم يزل من الناحية الرسمية مدانا من الحكومة الفرنسية ؛ وعلينا أن نغتفر له مروره الحذر بأخطاء الملك الحاكم ؛ ولكنه رغم ذلك كان قصة ممتازة فيها بساطة ووضوح ، وكاد وهو يروى قصة الأمير تشارلز إدورد ستيوات (بونى برنس تشارلى) أن ينافس الشخصية التى رسمها للملك « شارل الثانى عشر » . ووفاء لمفهومه عن التاريخ ، الذى يراه أكمل ما يكون إذا سجل تقدم العقل البشرى ، أضاف مقالا ختاميا « فى تقدم العقل فى عصر لويس الخامس عشر » ولاحظ أشياء بدا له أنها علامات تشير إلى النمو :

« إن إلغاء السلطة الزمنية لرهبنة برمتها (اليسوعيين) وتأديب الرهبنات الأخرى التى أصلحتها هذه السلطة ، والفصل بين (اختصاص) القضاة والأساقفة — كل هذا يدل على مبلغ ما بدد من أهواء ، وعلى مدى اتساع المعرفة بشئون الحكم ، وعلى درجة استنارة أذهاننا . وقد ألقيت بذار هذه المعرفة فى القرن الماضى . وهى تنبت اليوم فى كل مكان فى القرن الحاضر ، حتى فى أقصى الأقاليم ... فقد أثار العلم البحت الفنون النافعة ، وبدأت هذه الفنون فعلا فى إبراء جراح الدولة التى ابتلتها بها حربان طاحنتان . « أن معرفة الطبيعة ، ونبذ الخرافات البالية التى قدسها الناس فى الماضى كأنها تاريخ ، والميتافيزيقا الصحيحة المبرأة من سخافات المذاهب — تلك هى ثمرات هذا العصر ، وقد تحسن العقل الإنسانى تحسنا كبيرا .

أما وقد أدى فولتير دينه للتاريخ ، فأنه عاد إلى الفلسفة وإلى حملته على الكنيسة الكاثوليكية . وأصدر فى تعاقب سريع الكتيبات التى فحصناها من قبل ، وكأنها ضرب من المدفعية الخفيفة فى الحرب على « العار » : « الفيلسوف الجاهل » ، و « إمتحان هام للورد بولنبروك » و « الساذج » و « قصة جينى » و « ألف باء العقل » ووسط هذه الأعمال الشاقة واصل أغرب تبادل للرسائل قام به فرد واحد .

فحين زاره كازانوفا عام ١٧٦٠ أراه فولتير مجموعة من نحو خمسين ألف خطاب تسلمها حتى ذلك العام ، وسيجتمع له منها بعد ذلك نحو هذا العدد ، ولما

كان مستلم الخطاب هو الذى يدفع أجرة البريد ، فإن فولتير كان ينفق أحيانا مائة جنيه على البريد الذى يتسلمه فى يوم واحد . وكان ألف معجب ، وألف عدو ، ومائة مؤلف شاب ، ومائة هاو للفلسفة ، يبعثون إليه بالهدايا وباقات الزهور ، والشتائم ، واللعنات ، والأسئلة ، والمخطوطات ، ولم يكن من غير المألوف أن يرجوه سائل متلهف أن ينبئه برجوع البريد هل وجد إله ، أو هل للإنسان نفس خالدة . وأخيرا نشر تحذيرا فى « المركيز دفرانس » جاء فيه :

« نظرا إلى أن أشخاصا عديدين شكوا من عدم تسلمهم ما يفيد وصول طرود أرسلوها إلى فرنيه ، أو تورنيه ، أو ليدليس ، لزم التنبيه إلى أنه بسبب ضخامة عدد تلك الطرود ، أصبح من الضرورى رفض تسلم كل ما لا يأتى من أشخاص تشرف المالك بمعرفتهم . »(٤٣)

وفى طبعة تيودور بسترمان الكاملة تملأ رسائل فولتير ثمانية وتسعين مجلداً . وفى رأى برونتيير أنها « أخلد قسم من إنتاجه كله »(٤٤) . والحق أننا لا نجد صفحة مملة فى هذا الحشد برمته ، لأننا فى هذه الرسائل ما زال فى إمكاننا أن نسمع ألمع محدث فى زمانه يتكلم بكل ألفة الصديق . وما من كاتب من قبل ولا من بعد حشد على قلمه المتدفق كل هذا التأدب ، والحيوية ، والسحر ، والرشاقة الكثيرة . إنها ليست وليمة للذكاء والبلاغة فحسب ، بل للصداقة الحارة ، والشعور الرقيق ، والفكر البتار ، ولو قورنت بها رسائل مدام دسفينيه على ما فيها من دواعى البهجة . لبدت ترفرفا خفيفاً عارضاً على سطح توافه عابرة . لقد كان فى زخارف أسلوب رسائله ولا ريب بعض التمسك بالعرف ، ولكن يبدو أنه يتعمده حين يكتب إلى دالامبير قائلا « أعانقك بكل قوتى ، ويؤسفنى أنه حتم أن يكون العناق على هذا البعد السحيق » ، وهو مارد عليه دالامبير بقوله : « وداعا يا صديقى العزيز الشهير ، إنى أعانقك فى حنان ، وأنا أكثر منى فى أى وقت مضى ، ملكك بالروح » .(٤٥) ثم استمع إلى كلمات فولتير لمدام دودفان : « وداعا يا سيدتى .... إن أوثق الحقائق التى التمسها هى أن لك نفسا توافقنى ، وسأكون شديد التعلق بها طوال الأجل القصير الذى افسح لى »(٤٦) .

وكانت رسائله لمعارفه فى باريس موضع تقديرهم ، تتداولها الأيدى تداول نفائس الأخبار ودرر الأسلوب . ذلك أن رسائل فولتير هى التى بلغ فيها أسلوبه أروع تألقه . فهذا الأسلوب لم يبلغ قصارى إبداعه فى تواريخه ، حيث يستحب السرد الناعم المتدفق أكثر من البلاغة أو النكتة ، وفى تمثيلياته شط إلى حد الخطابة الرنانة الطنانة ؛ أما فى رسائله فقد استطاع أن يدع سن قلمه الماسى يسطع بالاجرام أو ينير موضوعا بدقة وإيجاز لا مثيل لهما . وقد جمع بين علم بيل وأناقة فونتنيل ، واستعار مسحة تهكم وسخرية من رسائل بسكال الإقليمية ، وقد ناقض نفسه خلال سنى كتابته السبعين ، ولكنه لم يكن قط غامضا ؛ ونحن لا نكاد نصدق أنه كان فليسوفا ، فهو فى غاية الوضوح ، يقصد مباشرة إلى هدفه الأهم ، إلى النقطة الحيوية فى الفكرة . وهو يتوخى القصد فى النعوت والتشبيهات مخافة أن يعقد الفكرة ، وفى كل جملتين تقريبا ومضة من نور . وقد تتكاثر الومضات أحيانا ، وتتزاحم نفحات الذكاء ؛ فيتعب القارىء بين الحين والحين من هذا التألق ، وتضيع عليه بعض السهام المريشة من ذهن فولتير السريع الحركة . وقد أدرك أن فرط تألقه هذا خطأ ، كوضع الجواهر على العباءة . واعترف فى تواضع بأن « اللغة الفرنسية بلغت وج كمالها فى عصر لويس الرابع عشر . » (٤٧)

وكان بين مراسليه نصف وجوه ذلك العهد — لا كل جماعة الفلاسفة فحسب ، ولا جميع كبار مؤلفى فرنسا وانجلتره فحسب ، بل الكرادلة ، والبابوات ، والملوك ، والملكات ، واعتذر له كرستيان السابع عن عدم تنفيذ كل الاصلاحات الفولتيرية فى وقت واحد فى الدنمرك ؛ وأسف ستانسلاس يونياتوفسكى ملك بولندة على أنه سيق على عجل لاعتلاء العرش وهو فى طريقه إلى فرنيه ؛ وشكره جوستاف الثالث ملك السويد لأنه ألقى بين الحين والحين نظرة عجلى على الشمال البارد ، وتوسل « أن يطيل الله فى أيامك الغالية القيمة للإنسانية » (٤٨) . ومع أن فردريك الأكبر وبخه لأنه قسا على موبرتوى ، وأساء أدبه مع الملوك (٤٩) ، إلا أنه كتب بعد شهر يقول « الصحة والرفاهية لأشد من عاش أو سيعيش من العباقرة على هذه الأرض خبثا وإغراء » ؛ (٥٠) وفى ١٢ مايو ١٧٦٠ أضاف :

« أما أنا فسأذهب إلى هناك (الجحيم) وأخبر فرجل بأن فرنسيا بزه فى فنه . وسأقول مثل هذا لسوفوكليس ويوربيديس ، وسأحدث ثيوسيديديس عن تواريخك ، وكوينتوس كورتيويس عن كتابك « شارل الثانى عشر » ؛ وربما رجمنى هؤلاء الموتى الفيورون لأن رجلا واحدا جمع فى شخصه شتى فضائلهم . »[٥١]

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٧٤ واصل فردريك مدائحه : « لن يكون هناك بديل لك بعد موتك ، وسيكون نهاية الآداب الجيدة فى فرنسا . »[٥٢] (وهذه غلطة بالطبع لأنه ليس للأدب الجيد نهاية فى فرنسا) . وأخيرا ، فى ٢٤ يوليو ١٧٧٥ ، أحنى فردريك صولجانه أمام قلم فولتير: « وأما أنا فيعزينى أنى عشت فى عصر فولتير ، وحسبى هذا . »[٥٣]

وكانت كاترين الكبرى تكتب إلى فولتير كما يكتب رأس متوج إلى آخر — لا بل كما يكتب التلميذ إلى معلمه . فلقد قرأته بشغف ولذة ستة عشر عاما قبل أن تشق طريقها إلى عرش روسيا ، ثم بدأ تراسلهما فى أكتوبر ١٧٦٣ بجوابها بضمير المتكلم على رسالة منظومة بعث بها إلى عضو فى هيئتها الدبلوماسية .[٥٤] ولقبها فولتير سميراميس الشمال ، وأغمض فى لباقة عن جرائمها ، وأصبح المدافع عنها أمام فرنسا . ورجته أن يعفيها من مدائحه ، ولكنه أفاض فيها . وكانت تقدر انحيازه لها ، لأنها علمت أن بفضله — ثم بفضل جريم وديدرو — نالت « مساندة طيبة من الكتاب » فى فرنسا . وأصبحت الفلسفة الفرنسية أداة للدبلوماسية الروسية . وأوصى فولتير كاترين باستعمال المركبات الحربية المدججة بالمناجل على الطريقة الأشورية فى حربها مع الترك ، واضطرت إلى أن تبين له أن الأتراك غير المتعاونين لن يهاجموا عدوهم بتشكيلات مكثفة تكثيفا يتيح حصدهم بشكل مريح .[٥٥] ونسى كراهيته للحرب وسط تحمسه لإمكان قيام جيوش كاترين بتحرير بلاد اليونان من سلطان العثمانيين ، وناشد « الفرنسيين ، والبريطانيين ، والإيطاليين » أن يناصروا هذه الحرب الصليبية الجديدة ، وحزن حين قصرت سميراميس عن تحقيق هدفه . ثم اضطلع بيرون بقضيته تلك .

وقد عنف الكثيرون من الفرنسيين فولتير على تملقه للملكية ، وشعروا أنه حط من قدره بالالف حول العروش والتشدق بمديح أصحابها . ولا ريب فى أن هذا اللف كان أحيانا يدير رأسه . ولكنه هو أيضا كان يلعب لعبة دبلوماسية . فهو لم يدع قط العواطف الجمهورية ، وقد ذهب غير مرة إلى أن قدرا من التقدم يمكن تحقيقه بفضل الملوك « المستنيرين » أكثر مما يتحقق بسيطرة الجماهير المتقلبة ، الجاهلة ، التى تتسلط عليها الخرافة . ولم يخض الحرب ضد الدولة بل ضد الكنيسة الكاثوليكية ، وكان تأييد الحكام فى تلك المعركة عونا قيما . وقد رأينا قيمة ذلك التأييد فى حملاته الظافرة دفاعا عن أسرتى كالاس وسيرفنس . وكان أهم فى نظره أن يكون فردريك وكاترين فى صفه وهو يناضل فى سبيل التسامح الدينى . كذلك لم ييأس من كسب لويس الخامس عشر ، فقد كسب من قبل مدام دبومبادور وشوازيل ؛ ثم خطب ود مدام دى بارى . ولم يكن يتورع عن شىء فى استراتيجيته ، والواقع أنه قبل أن ينتهى العهد استطاع الظفر بتأييد نصف حكومة فرنسا ، وتكللت معركة التسامح الدينى .

٣ — فولتير السياسى

ما الذى أمل أن يحققه فى ميدان السياسة والاقتصاد ؟ لقد ثبت بصره على هدفين ، هدف أعلى وآخر أدنى : الأعلى تحرير الناس من الخرافات اللاهوتية وسلطان الكهنة — وهى مهمة عسيرة ولا ريب ، وفيما عدا ذلك طلب بعض الاصلاحات ، ولكنه لم يطمع فى المجتمع المثالى . وكان يبتسم سخرية من « أولئك المشرعين الذين يحكمون الكون .... ومن أبراجهم يصدرون الأوامر للملوك »(٥٦) . وكان معارضا للثورة شأن جماعة الفلاسفة كلهم تقريبا ، ولعله لو عمر حتى يشهدها لصدمته — وربما أعدمته بالجلوتين* . أضف إلى هذا أنه كان غنيا غنى فاحشا ، وما من شك فى أن ثراءه لون آراءه .

(*) انظر وصف روبسبيير الموسوعيين : « أما فيما يتصل بالسياسة ، فإن هذه الجماعة توقفت عند حقوق الشعب . . . . . .وقد عارض زعماؤها الاستبداد أحيانا ، وكان يغذيهم الطغاة ، كانوا أحياناً يكتبون المقالات عن الملوك ، وأحياناً الإهداءات تكريما لهم ، وكانوا يدبجون الخطب للحاشية ، والقصائد الغنائية للحظيات (٥٧) .

فنى ١٧٥٨ نوى أن يستثمر ٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٢٥,٠٠٠ دولار ؟) فى اللورين .[٥٨] وقد كتب إلى فردريك فى ١٧ مارس ١٧٥٩ يقول « أننى أتلقى ستين ألف جنيه (٧٥,٠٠٠ دولار ؟) من دخلى (السنوى) من فرنسا ... وأننى أعترف بأننى غنى جدا . » وكان قد جمع ثروته بفضل « نصائح » من أصدقائه الماليين أمثال الأخوين بارى ، وبفضل فوزه بجوائز اليانصيب فى فرنسا واللورين ، وبفضل نصيبه فى تركة أبيه ، وبفضل شراء سندات الحكومة ، والمساهمة فى مشروعات تجارية ، وإقراض المال للأفراد . وكان يقنع بعائد قدره ٦٪ ، وهو عائد معتدل إذا أخذنا فى الاعتبار المخاطر والخسائر. وقد ضاع عليه ألف إيكو (٣,٧٥٠ دولارا ؟) فى تفليسة شركة جليار فى قادس (١٧٦٧)[٥٩] . وفى ١٧٦٨ علق جيبون فى معرض الإشارة إلى الثمانين ألف فرنك (١٠٠,٠٠٠ دولار ؟) التى أقرضها فولتير للدوق دريشليو : « لقد أفلس الدوق ، والضمان عديم القيمة ، واختفت النقود . »[٦٠] وعند موت فولتير كان قد تسدد ربع السلفة . وكان دخل فولتير من معاشاته أربعة آلاف فرنك فى العام . وفى عام ١٧٧٧ بلغت جملة دخله ٢٠٦,٠٠٠ فرنك (٢٥٧,٥٠٠ دولار ؟) [٦١] وقد جمل هذه الثروة بما يتناسب معها من سخاء ، ولكنه أحس أنه مطالب بالدفاع عنها دفاعا ليس بالضرورة مما لا يليق بفليسوف

« لقد رأيت الكثير جداً من الأدباء فقراء محتقرين ، بحيث قررت ألا أزيد عددهم . ولا مناص للمرء فى فرنسا من أن يكون إما سندانا أو مطرقة ؛ وقد ولدت سندانا . والميراث الهزيل يتناقص كل يوم ، لأن كل شىء فى المدى الطويل يزداد ثمنه ، وكثيرا ما تفرض الحكومة الضرائب على الدخل والنقود كليهما .... فعليك أن تكون مقتصدا إبان شبابك ، وستجد نفسك فى شيخوختك تملك رأس مال يدهشك ، وهذا هو الوقت الذى تشتد فيه حاجتنا للثروة . »[٦٢]

وكان قد اعترف فى فترة باكرة (عام ١٧٣٦) فى قصيدته « رجل الدنيا » « إننى أحب الترف ، بل الحياة الناعمة ، وجميع اللذات ، وجميع الفنون . » وذهب إلى أن طلب الأغنياء لأسباب الترف يداول مالهم بين الصناع المهرة

والغنائين ، وظن أنه لولا الثروة لما كان هناك فن عظيم .[٦٣] وحين نظر «ميثاق» ميزلييه الملحد ـ الشيوعى ، حذف القسم المعارض للملكية . وقد آمن أنه ما من نظام اقتصادى يستطيع النجاح بغير حافز التملك . «إن روح التملك تضاعف من قوة الإنسان»[٦٤] وكان يأمل أن يرى كل إنسان يملك ملكا ، وبينما كان روسو يبارك القنية فى بولندة كتب فولتير يقول «إن بولندة يمكن أن يزداد سكانها وثروتها ثلاث مرات لو لم يكن فلاحوها أقنانا .»[٦٥] على أنه لم يحبذ أن يصبح الفلاحون أغنياء ، فمن أذن يرفر للدولة جندها الأقوياء ؟[٦٦] .

ولم يشاطر روسو تحمسه للمساواة ؛ فهو يعلم أن الناس كلهم يخلقون غير أحرار ولا متساوين . ورفض فكرة هلفتسيوس القائلة بأنه لو أتيح للناس كلهم التعلم والفرص المتكافئة ، لأصبح الجميع بعد قليل متساوين فى التعليم والقدرات . » يا لها من حماقه أن نتصور أن فى استطاعة كل إنسان أن يصبح نيوتنا ! »[٦٧] فسوف يكون هناك دائما الأقوياء والضعفاء ، والأذكياء والبسطاء ، وإذن الأغنياء والفقراء .

« يستحيل فى دنيانا الكئيبة منع الناس الذين يعيشون فى مجتمع من أن ينقسموا إلى طائفتين ـ الأغنياء الآمرين ، والفقراء الذين يأتمرون .... ولكل إنسان الحق فى أن يكون له رأيه الخاص فى مساواته مع غيره ، ولكن لا يستتبع هذا أن طباخ الكردينال ينبغى أن يأخذ على عاتقه أن يأمر سيده بتجهيز طعامه . على أن للطباخ أن يقول «أننى إنسان كسيدى سواء بسواء ، فقد ولدت مثله بالدموع ، وسأموت مثله فى عذاب ... فكلانا يؤدى الوظائف الحيوانية نفسها . وإذا استولى العثمانيون على روما فأصبحت كردينالا وأصبح سيدى طباخا ، فأننى سأدخله فى خدمتى «وهذه اللغة معقولة ومنصفة جدا ، ولكن ، إلى أن يستولى السلطان العثمانى على روما لابد للطباخ من أن يؤدى واجبه وإلا انهار المجتمع الإنسانى كله .»[٦٨]

ولما كان ابن موثق ، ولم يصبح سيدا إقطاعيا إلا مؤخرا ، فقد كان له

فى الارستقراطية آراء مختلطة ، وواضح أنه فضل نوعها الإنجليزى[٦٩]. وقد قبل النظام الملكى باعتباره الشكل الطبيعى للحكومة « لم يحكم الملوك الأرض كلها تقريبا ؟ ... الجواب الأمين هو : لأن الناس نادرا ما يكونون جديرين بحكم أنفسهم . »[٧٠] وقد سخر من حق الملوك الالهى وأرجعهم هم والدولة إلى الغزو « إن القبيلة تختار زعيا ليقود حملات السلب والنهب التى تشنها ؛ وهى تعود نفسها الطاعة ، وهو يعود نفسه إصدار الأوامر لها ، وفى اعتقادى أن هذا أصل الملكية . »[٧١] فهل هذا طبيعى ؟ أنظر إلى حوش المزرعة :

« إن حوش المزرعة يرينا أكمل تمثيل للملكية . فما من ملك يضارع الديك . ذلك أنه إن مشى شامخا ضاريا وسط قطيعه فما ذلك لغروره ، لأنه إذا زحف العدو فهو لا يكتفى باصدار الأمر لرعيته أن تخرج وتقتل فداءه .... إنما هو يذهب بشخصه ، وينظم جنده من خلفه ، ويقاتل إلى آخر نسمة . فاذا انتصر فهو الذى يترنم بمسبحة الشكر .... وإذا صح أن النحل تحكمها ملكة يخطب ودها جميع رعاياها ، فتلك حكومة أعظم كمالا حتى من حكومة الديك . »[٧٢]

واستطاع لعيشه فى برلين ثم فى جنيف أن يدرس الملكية و « اللاملكية » فى ممارستهما الحية . وكان كغيره من جماعة الفلاسفة متحيزا لأن ملوكا عدة (فردريك الثانى ، وبطرس الثالث ، وكاترين الثانية) وبعض الوزراء (شوازيل ، وأراندا ، وتانوتشى ، وبومبال) استمعوا إلى نداءات الإصلاح ، أو منحوا المعاشات للفلاسفة . وقد بدا فى عصر بلغ فيه الفلاح الروسى منتهى البدائية ، وغلبت الأمية على جماهير الشعب فى كل بلد ، وأعجزها الإرهاب عن التفكير ، إن من السخف اقتراح حكم الشعوب ، والواقع أن « الديمقراطيات فى سويسرة وهولندة كانت أولجاركيات . والجماهير هى التى أحبت أساطير الدين ومراسمه القديمة ، ووقفت كأنها جيش عرمرم فى طريق الحرية والتطور الفكريين . وليس هناك سوى قوة واحدة لها من القدرة ما يمكنها من مقاومة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، كما قاومت بنجاح الكنائس البروتستنتية فى انجلتره وهولندة وألمانيا وتلك هى الدولة . وبفضل الحكومات الملكية القائمة فى فرنسا وألمانيا وروسيا — بفضل هذه فقط يستطيع الفلاسفة أن يطمعوا فى

الفوز فى كفاحهم الخرافة ، والتعصب ، والاضطهاد ، واللاهوت الطفلى . فهم لا يستطيعون توقع التأييد من « البرلمانات » لأنها تنافس الكنيسة وتبز الملك فى الظلامية ، والرقابة ، وعدم التسامح . ولكن انظر ما فعله هنرى الملاح للبرتغال ، وما فعله هنرى الرابع لفرنسا ، أو بطرس الأكبر لروسيا أو فردريك الأكبر لبروسيا . « ما من عمل جليل تقريبا عمل فى العالم إلا بفضل عبقرية وحزم رجل فرد كافح أهواء الجماهير »[٧٣]. ومن ثم كان جماعة الفلاسفة يتمنون تربع الملوك المستنيرين على العروش . كتب فولتير فى «ميروب» يقول « إن الفضيلة المتربعة على العرش هى أروع أعمال السماء »[٧٤](*)

وسياسة فولتير ينبعث بعضها من ظنه بأن من الناس عدداً كبيراً لا قدرة لهم على هضم التعليم حتى إن قدم لهم . وقد أشار إلى « الشطر المفكر من النوع الإنسانى — أى الجزء على مائة ألف منهم »[٧٦] ، وكان يخشى من عدم النضج العقلى وسرعة الانفعال العاطفى للناس عموما . «حين تشارك الجماهير فى التفكير يضيع كل شىء . »[٧٧] وهكذا ظل حتى سنى شيخوخته لا يتعاطف تعاطفا يذكر مع الديموقراطية . فلما سأله كازانوفا « أتود أن ترى الشعب سيد نفسه ؟ » أجابه « معاذ الله ! »[٧٨] وكتب إلى فردريك « حين رجوتك أن تكون الباعث لفنون اليونان الجميلة ، لم يبلغ رجائى الحد الذى أطلب إليك فيه إعادة الديمقراطية الأثينية . فأنا لا أحب حكم الرعاع . »[٧٩] وقد اتفق وروسو على أن « الديمقراطية لا تناسب غير البلاد الصغيرة » ، ولكنه أضاف قيودا أخرى » وغير تلك التى تنعم بموقع ملائم ... والتى يكفل لها موقعها الحرية ، والتى فى مصلحة جيرانها المحافظة عليها . »(وكان يعجب بالجمهوريتين الهولندية — والسويسرية ، ولكن خامرت إعجابه بعض الشكوك :

« إن تذكرتم أن الهولنديين أكلوا على السفود قلب الأخوين دى ويت ،

(*) علق ميشيلة بفقرة ظريفة على هذا الدفاع عن الملكية فقال « إن من أحلام جماعة الفلاسفة والاقتصاديين — رجال كفولتير وطورجو — أن يحدثوا الثورة — أن يحققوا سعادة النوع الإنسانى — على يد الملوك . وليس أغرب من رؤية هذا المعبود يتنازعه الفريقان ، تجذبه الفلاسفة يمنة ، والقساوسة يسرة . فمن سيظفر به ؟ النساء » (٧٥) .

وإن تذكرتم ... أن الجمهوري يوحنا كلفنى .... بعد أن كتب أننا ينبغى ألا نضطهد إنسانا ولو أنكر الثالوث ، أمر بحرق أسبانى خالفه فى الرأى حول الثالوث فأحرقه حيا على حطب أخضر (بطىء الاحتراق) ، خلصتم حقاً إلى أنه ليس فى الجمهوريات فضيلة أعظم مما فى الملكيات . »[٨١]

على أنه بعد كل هذه التصريحات المعارضة للديمقراطية ، نجده يؤيد الطبقة الوسطى الجنيفية تأييدا نشيطا ضد الاشراف (١٧٦٣) ووطنيى جنيف المحرومين من الحقوق المدنية ضد الارستقراطية والبورجوازية (١٧٦٦) ، ولكن لنرجىء هذه القصة إلى موضعها المناسب .

والواقع أن فولتير أخذ يتحول إلى مزيد من الراديكالية فيما يبدو كلما تقدم به العمر . ففى ١٧٦٨ أصدر قصته « الرجل ذو الأربعين إيكو » فطبع الكتاب عشر طبعات فى سنته الأولى ، ولكن برلمان باريس أحرقه وزج بالطابع فى سفن تشغيل العبيد ، ولم يكن مرجع هذه الصراحة تلك السخرية التى سخت بها القصة على جماعة الفزيوقراطيين ، بل تصويرها الحى للفلاحين الذين أفقرتهم الضرائب ، والرهبان الذين يحيون حياة التبطل والترف على أملاك يفلحها عبيد الأرض . وفى كتيب آخر نشره عام ١٧٦٨ وسماه الألف باء (وقد حرص فولتير أشد الحرص على إنكاره) أجرى هذه العبارات على لسان « مسيو ب » .

فى وسعى أن أتكيف بسهولة مع الحكومة الديمقراطية .... فكل الملاك على نفس الأرض لهم نفس الحق فى حفظ النظام على تلك الأرض . إنى أحب أن أرى رجالا أحرارا يضعون القوانين التى يعيشون فى ظلها .... ويطيب لى أن يرفع بنائى ، ونجارى ، وحدادى ، أولئك الذين أعانونى على بناء مسكنى ، وجارى المزارع ، وصديقى الصانع — أن يرفعوا أنفسهم فوق حرفهم ، ويعرفوا الصالح العام خيراً مما يعرفه الموظف التركى الشديد الوقاحة . فليس فى الديموقراطية ما يدعو عاملا أو صانعا إلى الخوف من الإزعاج أو الإحتقار ... فأن يكون المرء حرا ، بين أنداد لا أكثر ، هو الحياة الطبيعية الصادقة للإنسان ،

وما عدا ذلك من أساليب الحياة فهو خدع حقيرة ، وهزليات رديئة يلعب فيها فرد دور السيد ، وآخر دور العبد ، فرد دور الطفيلي ، وآخر دور القواد.»[٨٢]

وفى عام ١٧٦٩ أو بعده بقليل (وكان فى الخامسة والسبعين) فى طبعة جديدة للقاموس الفلسفى ، ساق فولتير وصفا مرا لألوان الطغيان والفساد الحكومية فى فرنسا [٨٣] ، وامتدح انجلترة بالقياس إليها :

« لقد بلغ الدستور الإنجليزى فى الواقع نقطة التفوق التى فيها يرد جميع الناس إلى الحقوق الطبيعية التى حرموا منها فى جميع النظم الملكية تقريبا ، وهى : الحرية الكاملة للأشخاص والأملاك ؛ حرية النشر ؛ حرية المحاكمة فى جميع الجرائم على يد هيئة محلفين من أعضاء مستقلين ؛ حق المحاكمة طبقاً لنص القانون فقط ؛ وحق كل إنسان فى أن يجهر دون مضايقة بأى دين يختاره ويرفض المناصب التى لا يجوز تقليدها إلا لأتباع الكنيسة الرسمية . هذه ..... إمتيازات لا تقدر بقيمة ... أن تكون آمنا مطمئنا وأنت ماض إلى فراشك إلى أنك ستستيقظ وأنت تملك نفس الثروة التى كانت لك حين ذهبت لتنام ، وأنك لن تنتزع من أحضان زوجتك وأطفالك فى جوف الليل ليزج بك فى سجن مظلم أو لتدفن فى منفى فى الصحراء ... وأن يكون لك القدرة على نشر جميع أفكارك ... هذه الإمتيازات يتمتع بها كل من تطأ قدمه أرض انجلترة ... ولا مفر من أن يعتقد أن الدول التى لا تقوم على هذه المبادىء ستجتاحها الثورات [٨٤]

وتنبأ بالثورة فى فرنسا كما تنبأ بها الكثيرون . فنى ٢ أبريل ١٧٦٤ كتب إلى المركيز دشرفلان :

« إنى لأرى فى كل مكان بذور ثورة لا مناص منها ، ثورة لن تتاح لى لذة مشاهدتها . فالفرنسيون يصلون متأخرين فى كل شىء ، ولكنهم يصلون فى النهاية ما فى ذلك شك . وقد اتسع انتشار التنوير اتساعا سيعينه على التفجر فى أول فرصة ، وعندها ستحدث فرقعة عنيفة ... إن الشباب محظوظون ، لأنهم سيرون أشياء عظيمة . »

ومع ذلك حين تذكر أنه يعيش فى فرنسا بفضل تسامح ملك أساء إليه بإقامته فى بوتسدام ، وحين رأى بومبادور وشوازيل ومالزيرب وطورجو يوجهون الحكومة الفرنسية صوب التسامح الدينى والإصلاح السياسى — وربما لأنه تاق إلى الإذن له بالعودة إلى باريس — اتخذ على العموم نغمة أكثر وطنية ، واستنكر الثورة العنيفة :

« إذا اشتد شعور الفقراء بفقرهم أعقبت ذلك حروب كحروب حزب الشعب ضد مجلس الشيوخ فى روما ، وحروب الفلاحين فى ألمانيا ، وانجلترة ، وفرنسا . وقد انتهت هذه الحروب كلها ، إن عاجلا أو آجلا ، باخضاع الشعب ، لأن الكبار يملكون المال ، والمال فى الدولة هو صاحب الإمر والنهى فى كل شيء . »[٨٥]

إذن ، فبدلا من إنقلاب من أسفل ، حيث القدرة على التدمير لا تتبعها القدرة على التعمير ، وحيث تعود الكثرة الساذجة بعد قليل للخضوع مرة أخرى لقلة ماكرة ، آثر فولتير أن يعمل على قيام ثورة غير عنيفة عن طريق إنتقال التنوير من المفكرين إلى الحكام ، والوزراء ، والقضاة ، وإلى التجار ورجال الصناعة ، وإلى الصناع والفلاحين . « أن العقل يجب إقراره أولا فى أذهان القادة ، ثم ينزل شيئا فشيئا وفى النهاية يحكم أفراد الشعب ، الذين لا يعون وجوده ، ولكنهم حين يرون اعتدال رؤسائهم يتعلمون أن يقلدوهم . »[٨٦] ورأى أن التحرير الحقيقى الوحيد ، فى المدى الطويل ، هو التعلم ، وأن الحرية الحقيقية الوحيدة هى الذكاء. « كلما استنار الناس تحرروا . »[٨٧] وليس هناك ثورات حقيقية غير تلك التى تغير العقل والقلب ، ولا ثوار حقيقيون غير الحكيم والقديس .

٤ — المصلح

وبدلا من أن يدعو فولتير لثورة سياسية راديكالية ، جاهد فى سبيل إصلاح معتدل تدريجى فى إطار هيكل المجتمع الفرنسى القائم ، وفى نطاق هذه الدائرة المنكرة للذات حقق أكثر مما حققه أى رجل آخر فى جيله .

وكان أهم نداء له هو طلب تنقيح القانون الفرنسى تنقيحا شاملا ، ولم يكن قد روجع منذ ١٦٧٠ . وفى ١٧٦٥ قرأ بالإيطالية كتاب الجيل المسمى « رسالة فى الجنايات والعقوبات » — من تأليف الفقيه الميلانى بيكاريا ، الذى كان بدوره قد استلهم جماعة الفلاسفة . وفى ١٧٦٦ أصدر فولتير كتابه « تعليق على كتاب الجنايات والعقوبات » وفيه اعترف صراحة بفضل السبق لبيكاريا ، ثم واصل مهاجمة مظالم القانون الفرنسى ووفظاعاته إلى عام ١٧٧٧ حين نشر وهو فى الثانية والثمانين كتابه « ثمن العدالة والإنسانية . »

وقد طالب ، بادىء ذى بدء ، بإخضاع القانون الكنسى للقانون المدنى ، وبكبح سلطان الكهنوت فى اشتراط العقوبات التكفيرية المذلة أو فرض التبطل على الناس فى عطلات دينية كثيرة ؛ وطلب تخفيف العقوبات على إنتهاك المقدسات ، وإلغاء القانون الذى يهين جسد المنتحر ويصادر ثروته . وأصر على التفرقة بين الخطيئة والجريمة ، والقضاء على الفكرة التى تقول إن عقاب الجريمة ينبغى أن يدعى أنه يثأر لإله مهان .

« يجب ألا يكون لأى قانون كنسى قوة إلى أن يحصل على موافقة الحكومة الصريحة عليه ... وكل ما يتصل بالزواج لا يفصل فيه غير القضاة ، وينبغى أن يقصر القساوسة على وظيفته مباركة الزواج الجليلة ... وإقراض المال بالفائدة من إختصاصات القانون المدنى وحده ... ويجب أن يكون جميع الكهنة ، فى جميع الحالات أياً كانت ، خاضعين لرقابة الحكومة المطلقة لأنهم رعايا للدولة ... ويجب ألا يكون لأى قسيس سلطة حرمان مواطن ولو من أبسط الحقوق بحجة أنه خاطىء ... ويجب أن يسهم القضاة ، والزراع ، والكهنة على السواء فى نفقات الدولة . »[٨٨]

وقد شبه قانون فرنسا بمدينة باريس — فهو حصيلة بناء تدريجى ، ونتاج المصادفات والظروف ، وخليط من المتناقضات ؛ وقال إن المسافر فى فرنسا يغير قوانينه مرارا كما يغير خيول مركبته ،[٨٩] فالواجب توحيد قوانين جميع الأقاليم والتنسيق العام فيما بينها . وينبغى أن يكون كل قانون واضحا ،

دقيقاً ، ومحصنا على قدر الإمكان من التلاعب بحرفيته . ويجب أن يكون جميع المواطنين سواء أمام القانون ، وإلغاء عقوبة الإعدام لأنها عقوبة همجية مبددة . فلا شك أن من الهمجية عقاب التزوير ، أو السرقة ، أو التهريب ، أو الحرق المتعمد بالموت . وإذا كانت السرقة تعاقب بالإعدام ، فلن يكون هناك ما يمنع اللص من القتل ، ومن ثم فإن كثيرا من جرائم قطع الطريق فى إيطاليا مصحوبة بالاغتيال . « إذا علقتم على مشنقة الدولة (كما حدث فى برلين عام ١٧٧٢) الخادمة التى سرقت دستة فوط من سيدتها ... فإنها لن تستطيع إضافة دستة من الأطفال إلى مواطنيكم ... وشتان بين دستة فوط وبين حياة إنسان . »[٩٠] ومصادرة ثروة إنسان محكوم عليه بالإعدام سرقة صريحة تقترفها الدولة ضد الأبرياء . وإذا كان فولتير يجادل أحيانا من وجهة نظر نفعية فقط فما ذلك إلا لأنه عرف أن حججه هذه سترجح أى نداء إنسانى فى نظر معظم المشرعين .

على أنه حين تناول موضوع التعذيب القضائى أفصحت روحه الإنسانية عن نفسها فى قوة وتأكيد . ذلك أن القانون الفرنسى أباح للقضاة أن يستخدموا التعذيب وسيلة لاستلال الاعترافات قبل المحاكمة إذا كانت هناك من المؤشرات المريبة ما يلمع إلى أن المتهم مذنب . وقد حاول فولتير أن يخزى فرنسا بإشارته إلى مرسوم كاترين الثانية الذى ألغى التعذيب فى روسيا التى زعم الفرنسيون أنها قطر همجى . « أن الفرنسيين ، الذين يعتبرون — ولا أدرى لماذا — شعبا عظيم الإنسانية ، يدهشهم أن الانجليز الذين دفعهم تجردهم من الإنسانية إلى انتزاع كندا كلها من أيدينا ، قد أقلعوا عن لذة استخدام التعذيب . »[٩١]

واتهم بعض القضاة بأنهم « فتوات » يتصرفون كأنهم مدعون لا قضاه ، مفترضين بشكل واضح أن المتهم مذنب حتى تثبت براءته . وأحتج على حبس المتهم فى سجون قذرة ، وأحيانا فى أغلال عدة شهور قبل تقديمه للمحاكمة . ولاحظ أن المتهم بجريمة كبرى يمنع من الاتصال بأى إنسان حتى بمحام . وروى مرارا وتكرارا معاملة آل كالاس وسيرفنس مثالا على التعجل فى

لإدانة الأبرياء . وقال إن شهادة شخصين فقط ، حتى إذا كانا شاهدى عيان ، ينبغى ألا تعتبر بعد اليوم كافية لإدانة رجل بالقتل ، وساق أمثلة على شهادة الزور ، وألح فى إلغاء عقوبة الإعدام ولو للحيلولة دون إعدام برىء واحد فى كل ألف منهم . وكان فى الإمكان إصدار أحكام الإعدام فى فرنسا بأغلبية اثنين من القضاة ، وقد حكم على كالاس بالموت بأغلبية ثمانية ضد خمسة . وطالب فولتير بأن يشترط لإصدار حكم الإعدام توافر أغلبية ساحقة ، ويفضل أن تكون إجماعا . « يالها من فظاعة سخيفة أن يعبث بحياة مواطن وموته فى لعبة ستة إلى أربعة ، أو خمسة إلى ثلاثة ، أو أربعة إلى اثنين ، أو ثلاثة إلى واحد . »[٩٢]

وكانت الاصلاحات التى اقترحها فولتير على الجملة توفيقا بين ميراثه الثقافى الوسيط وكراهيته للكنيسة ، وخبرته واستثماراته بوصفه رجل أعمال ومالك أرض ، ومشاعره الصادقة شخصا بارا بالإنسانية ، وكانت مطالبه معتدلة ، ولكنها كانت فى كثير من الحالات ذات أثر فعال . شن حملة لتحقيق حرية النشر ، فوسعت هذه الحرية توسيعا هائلا — ولو بفضل إغضاء الحكومة فقط — قبل أن يموت . وطلب إنهاء الاضطهاد الدينى ، فأنهى فى فرنسا من الناحية العملية فى ١٧٨٧ . واقترح الإذن للبروتستنت ببناء الكنائس ونقل الملكية أو وراثتها ، والتمتع بكامل حماية القوانين ؛ فتم هذا قبل إندلاع الثورة . وطلب إباحة الزواج قانونا بين أشخاص من ديانات مختلفة ، فأبيح . وندد ببيع المناصب ، وفرض الضرائب على الضروريات ، والقيود على التجارة الداخلية ، وبقاء القنية والوقف ؛ وأشار على الدولة بأن تسترد من الكنيسة تنفيذ الوصايا وتعليم الصغار ؛ وفى هذه الأمور جميعها كان لصوته تأثير على الأحداث . وقاد الحملة لإجلاء المتفرجين عن خشبة مسرح التياتر — فرانسيه ، فتم هذا فى ١٧٥٩ . وأوصى بفرض الضرائب على جميع الطبقات ، وبنسبة ثروتهم ، وكان على هذه التوصية أن تنتظر حتى تنشب الثورة . وطلب تنقيح القانون الفرنسى ، فتم هذا فى مجموعة قوانين نابليون (١٨٠٧) ؛ وهكذا يسر الفقهاء والفلاسفة لرجل الحرب والسياسة ، الذى قرر الهيكل التشريعى لفرنسا حتى يومنا هذا ، أن يحقق أعظم مآثره بقاء على الزمن .

٥ — فولتير الصميم

كيف نجمل القول فى شخصية هذا الرجل المذهل جدا من رجال القرن الثامن عشر ؟ لم يعد بنا حاجة للحديث عن عقله — فقد أفصح عن نفسه فى مائة صفحة من هذه المجلدات . ولم يباره أحد فى سرعة الخاطر ووضوح الفكر ، ولا فى حدة النكتة ووفرتها ، وقد عرف النكتة الذكية بعناية بالغة فقال .

« إن ما يسمى النكتة الذكية هو أحيانا مقارنة مجللة ، وأحيانا كناية رقيقة ، أو قد يكون لعبا بالألفاظ — فأنت تستعمل لفظا بمعنى ، علما أن محدثك سيأخذه (لأول وهلة) بمعنى آخر . أو هو طريقة ماكرة للمقارنة بين أفكار لا يقرن الناس بينها عادة ... إنه فن إيجاد صلة بين نقيضين ، أو خلاف بين شبيهين ؛ إنه فن قول نصف ما تعنى وترك الباقى للخيال . ولو أوتيت المزيد منه شخصيا لزدت القول فيه كثيرا . »[٩٣]

ولم يؤت إنسان آخر مزيدا من هذه النكتة الذكية ، ولعل حظه هو منها كان كما قلنا مفرطا . فقد كان زمام حبه للدعابة يفلت منه أحيانا ، وكثيرا ما غلظت دعابته وأشرفت على التهريج أحيانا .

ولم تترك له سرعة إدراكاته ، وربطاته ، ومقارناته ، وقفة تتيح له الاتساق والتماسك ، ولم يسمح له تعاقب أفكاره السريع دائما وهو يتناول موضوعا بالتغلغل فيه إلى أعماقه المتاحة للبشر . ولعله تسرع فى الحكم على الجماهير بأنهم رعاع ؛ وليس فى وسعنا أن نتوقع منه التنبؤ بزمن سيكون فيه التعليم للجميع ضروريا لاقتصاد تقدمى من الناحية التكنولوجية . ولم يطيق صبرا على نظريات بوفون الجيولوجية ، أو فروض ديدرو البيولوجية . وقد اعترف بقصوره ، ولم يخل من لحظات تواضع . قال لصديق مرة « إنك تظننى أعبر عن نفسى بوضوح كاف . ولكننى أشبه بالجداول الصغيرة — فهى صافية شفافة لأنها ليست عميقة . »[٩٤] وكتب إلى داكان فى ١٧٦٦ :

« منذ كنت فى الثانية عشرة اعتدت أن أتكهن بعدد هائل من الأشياء التى لم أوت الموهبة لفهمها . فأنا عليم بأن أعضائى لم تهيأ لتعمق الرياضة . وقد أثبت أننى لا أميل إلى الموسيقى . اعتمد على تقدير فيلسوف عجوز فيه من الحماقة .... ما يحمله على الاعتقاد بأنه مزارع قدير جدا ، ولكن ليس فيه من الحماقة ما يحمله على الاعتقاد بأنه وهب جميع المواهب . »[٩٥]

وليس من الإنصاف أن نطلب من رجل كثرت الموضوعات التى عالجها هذه الكثرة أن يكون قد أستوعب كل المعلومات المتاحة عن كل موضوع قبل أن يجرى عليه قلمه . فلم يكن كله عالما ؛ لقد كان مقاتلا ، أديبا جعل الأدب ضربا من العمل ، وسلاحا للتغيير . ومع ذلك تستطيع أن ترى من مكتبته التى حوت ٢,٢١٠ مجلدا ، وما تركه على الكتب من هوامش ، أنه درس فى شغف وعناية موضوعات فيها تنوع مذهل ، وأنه كان رجلا واسع العلم جدا بالسياسة ، والتاريخ ، والفلسفة ، واللاهوت ، ونقد الكتاب المقدس ، وكانت رقعة حبه للاستطلاع واهتماماته شاسعة ؛ وكذلك كان غنى أفكارة وقدرة ذاكرته على التذكر . ولم يأخذ أى تقليد موروث على أنه قضية مسلمة ، بل فحص كل شىء بنفسه . وكان فيه نزوع إلى التشكك لا يتردد فى أن يعارض بالفطرة السليمة مخافات العلم وأساطير إيمان العوام سواء بسواء . وقد وصفه عالم نزيه بأنه « مفكر جمع من المعلومات الدقيقة عن العالم فى جميع نواحيه أكثر مما جمعه أى إنسان منذ أرسطو . »[٩٦] ولم يوفق عقل واحد فى أى بلد آخر فى أن ينقل إلى دنيا الأدب ودنيا العمل هذا الحشد الهائل من المواد من مثل هذه الميادين المنوعة .

ولابد لنا من أن نصوره أعجب مزيج من عدم الاستقرار العاطفى ، والرؤية والقدرة العقليتين . فقد جعلته أعصابه دائما متوترا قلقا ، فما كان فى استطاعته الجلوس ساكنا إلا إذا استغرقته الكتابة الأدبية . وحين سألت السيدة ذات الردف الواحد « أيهما أسوأ للمرأة — أن يهتك عرضها قرصان من الزنوج مائة مرة ، أو أن يجرح ردفها جرحا بليغا ... أو أن تقطع أربا ، أو أن تجذف فى سفن تشغيل العبيد ، .... أو أن تقعد ولا تعمل شيئاً ؟ » أجابتها كانديد

وهي تنعم الفكر « ذلك سؤال كبير . »[٩٧] لقد كان لفولتير أيام حفلت بالسعادة ، ولكنه قل أن عرف سلام العقل أو الجسد . كان عليه أن يكون مشغولا ، نشيطا ، يبيع ويشترى ، ويزرع ، ويكتب ، ويمثل ، ويتلو ، وكان يخشى الملل أكثر مما يخشى الموت ، وفى لحظة سأم ذم الحياة لأنها « إما ضجر أو قشدة مخفوقة . »[٩٨]

ولعلنا نرسم صورة قبيحة لفولتير أن وصفنا طلعته دون أن نلحظ عينيه ، أو عددنا أخطاءه وحماقاته دون فضائله وظرفه . لقد كان « البورجوازى منتحل النبالة » الذى شعر بأن له من الحق فى لقب الشرف ما لمدينيه المماطلين . ولقد بارى أعظم السادة الإقطاعيين كياسة فى السلوك والحديث ، ولكنه كان قادرا على المساومة فى المبالغ التافهة ، وانهال على المشرف على الآجام بأقذع الشتائم بسبب أربعة عشر قدما مكعبا من الخشب — أصر على قبولها هدية دون ثمن . وأحب المال أساسا لأمنه . وقد اتهمته مدام دنيس بالبخل بعبارات فيها غلو شديد : « إن محبة المال تعذبك ... وأنت فى صميمك أحط الرجال . وسأخفى مااستطعت رذائل قلبك » . [٩٩] ولكنها حين كتبت هذا (١٧٥٤) كانت تعيش عيشة التبذير فى باريس على مال كان عبئا باهظا على جيبه ، وفى باقى السنين التى قضتها معه كانت تحيا حياة الأبهة والفخفخة بفرنيه .

وقبل أن يصبح مليونيرا وبعده كان يسعى لمصادقة الأقوياء إجتماعيا أو سياسيا بتعلق يقرب أحيانا من التذلل . وفى « رسالة إلى الكردينال دموا » وصف معدن الرذائل ذاك بأنه أعظم من الكردينال ريشليو[١٠٠] . وحين كان يسعى لقبوله فى الأكاديمية الفرنسية واحتاج إلى تأييد رجال الدين أكد للأب دلاتو الكبير النفوذ أنه يود أن يعيش ويموت فى كنف الكنيسة الكاثوليكية المقدسة .[١٠١] وأكاذيبه المطبوعة تؤلف كتابا لو جمعت ، والكثير منها لم يطبع ، وبعضها كان غير قابل للنشر ، وقد ذهب إلى أن هذا الإجراء مبرر فى الحرب ، وأحس أن حرب السنين السبع لم تكن غير لهو الملوك إذا قيست بحرب الثلاثين عاما التى خاضها ضد الكنيسة ؛ والحكومة التى تستطيع أن تزج برجل فى السجن لقوله الصدق ليس فى وسعها أن تشكو بحق إذا كذب .

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٦٤ عندما حمى وطيس معركته ، كتب إلى دالامبر يقول « حالما يبدو أدنى خطر تفضل بإبلاغى لكى أنكر كتاباتى فى الصحف العامة بما عهد فى من صراحة وبراءة . » وقد أنكر كل أعماله تقريبا باستثناء ملحمة « الهنريادة » وقصيدته فى معركة فونتنوا . » على المرء أن يظهر الحق للأجيال القادمة بجرأة ، ولمعاصريه بحذر . ومن العسير جدا التوفيق بين الواجبين . » (١٠٢)

وما من شك فى أنه كان مغرورا : فالغرور مهماز التقدم ، وسر الكتابة والتأليف . وكان فولتير يتحكم فى غروره عادة ، فكثير ما نقح كتاباته استجابة لما يوجه إليه من مقترحات ونقد بروح طيبة . وكان سخيا فى ثنائه على المؤلفين الذين لا ينافسونه — كما رمونتيل ، ولا هارب ، وبومارشيه ، ولكنه قد يغدو غيورا غيرة صبيانية من مزاحميه ، كما نرى فى . « مديح كريبيون » (الأب) المفعم بالنقد الخبيث ؛ ويرى ديدرو أنه « يحمل ضغينة لكل قاعدة تمثال »(١٠٣) وقد دفعته غيرته إلى شتم روسو شتما مقذعا ، فوصفه بأنه « صبى الساعاتى » و « يهوذا خائن الفلسفة » و « كلب مسعور يعقر كل إنسان » و « مجنون وليد زواج صدفة بين كلبى ديوجين وايراسستراتوس . »(١٠٤) وذهب إلى أن النصف الأول من « جولى أو هلويز الجديدة » قد ألف فى ماخور ، والآخر فى مستشفى للمجاذيب ، وتنبأ بأن « إميل » سينسى بعد شهر .(١٠٥) وأحس أن روسو ولى ظهره لتلك الحضارة الفرنسية التى كانت رغم كل ذنوبها وجرائمها فى نظر فولتير خمر التاريخ ذاته .

وإذا كان فولتير مجرد أعصاب وعظام دون لحم يذكر ، كان أرهف حسا حتى من روسو . ولما كان حتما أن نحس بالآمنا حساسا أحد من إحساسنا بلذاتنا ، فإنه كان يأخذ المديح والاطراء قضية مسلمة ؛ ولكنه « يصاب باليأس » إذا وجه إليه نقد معاد .(١٠٦) وقلما أوتى من الحكمة والتعقل ما يضبط قلمه ؛ فكان يرد على كل معارض مهما صغر شأنه . وقد وصف هيوم بأنه إنسان « لا يغفر أبدا (؟) ، ولا يرى عدوا لا يستحق إهتمامه . » (١٠٧) وقد حارب خصومه الالداء كديفونتين وفريرون حربا لا هوادة فيها ؛ ولجأ إلى كل أسلوب فى الهجاء ، والسخرية ، والشتم ، وحتى لوى الحق بمكر .(١٠٨)

وكان غله يصدم أصدقاءه القدامى ويخلق له أعداء جددا . قال « إنى أعرف كيف أكره لأننى أعرف كيف أحب . »[١٠٩] « إننى بحكم طالعى أميل قليلا إلى الأذى »[١١٠] ؛ وهكذا حرك كل كتائبه بنجاح ليهزم ترشيح دى روس للأكاديمية (١٧٧٠) . وقد لخص الأمر بمزيج من خلق دارتنيان ورابليه :

« أما عن شخصى الضعيف ، فإنى أخوض الحرب حتى آخر لحظة — ضد الجانسنيين ، والمولنيين ، والفريرونيين ، والبومبنيانيين ، اليمينيين واليساريين ، والوعاظ ، وجان — جاك روسو . أتلقى مائة طعنة وأردها مائتين ، وأضحك .. حمداً لله ! إننى أنظر إلى العالم كله كأنه مهزلة (فارص) تستحيل مأساة أحيانا ، يستوى كل شيء آخر النهار ، وسيظل كل شيء سواء فى نهاية الأيام . »[١١١]

وفى عدائه للسامية حول على شعب بأسره ذلك الغيظ الذى ولدته خصوماته مع بعض أفراده . ومن زاوية تلك الذكريات فسر فولتير تاريخ اليهود ، فسجل عليهم أخطاءهم بتدقيق وتفصيل ، وندر أن برأهم لعدم كفاية الأدلة على إدانتهم . ولم يستطيع أن يغتفر لليهود إنجابهم المسيحية . « حين أرى المسيحيين يلعنون اليهود يخيل إلى أننى أرى أبناء يضربون أباءهم . »[١١٢] ولم يكد يتبين فى العهد القديم شيئا سوى سجل للقتل ، والفسق ، والاغتيال بالجملة ، ورأى فى سفر الأمثال « مجموعة من الحكم التافهة ، القذرة ، المهلهلة ، المجردة من الذوق ، أو الاختيار ، أو الهدف » ، أما نشيد الإنشاد فهو فى نظره « قصيدة حماسية سخيفة » .[١١٣] على أنه أثنى على اليهود لإنكارهم القديم للخلود ، ولامتناعهم عن التبشير بعقائدهم ، ولتسامحهم النسبى ؛ فالصدوقيون أنكروا وجود الملائكة ، ولكنهم لم يعانوا من أى اضطهاد بسبب هرطقتهم .

أكانت فضائله ترجح رذائله ؟ أجل ، حتى ولو لم نضع فى الميزان صفاته العقلية مع صفاته الخلقية . فأمام شحه يجب أن نضع سخاءه ، وأمام محبته للمال تقبله البشوش لخسائر واستعداده لاقتسام مكاسبه مع غيره . استمع إلى كولايني ، الذى لابد قد عرف عيوبه لأنه عمل سكرتيراً له سنين كثيرة :

«ما من دعوى أكذب من تهمة البخل التى يرمى بها ... فلم يكن للبخل مكان فى بيته . وما عرفت رجلا يستطيع خدمه أن يسرقوه بسهولة أكثر . لقد كان ضنينا بوقته فقط ... وكان له فى أمر المال المبادىء التى يهتدى بها فى أمر الوقت ؛ فمن الضرورى فى رأيه أن تقتصد لكى تسخو فيه .»[١١٤]

وتكشف رسائله عن بعض الهبات الكثيرة التى وزعها ، دون أن يعلن عن اسمه عادة ، لا على أصدقائه ومعارفه فحسب ، بل حتى على أشخاص لم يرهم قط .[١١٥] وسمح لباعة الكتب أن يحتفظوا بالربح الذى يجنونه من كتبه . وقد رأيناه يسدى العون للآنسة كورنبى ؛ وسنراه يساعد الآنسة فاريكور . ورأيناه يعين فوفنارج ومارمونتيل ؛ كذلك فعل مع لاهارب ، الذى فشل مسرحيا قبل أن يغدو أقوى نقاد فرنسا أثرا ، فطلب فولتير أن يعطى نصف معاشه الحكومى البالغ ألفى فرنك للاهارب دون أن ينبئه بحقيقة المعطى .[١١٦] كتب مارمونتيل «يعلم الجميع مبلغ العطف الذى كان يحبو به الشبان الذين يبدون أى موهبة للشعر .»[١١٧]

وإذا كان فولتير الواعى بضآلة جسيمة ، لم يؤت شجاعة بدنية تذكر (إذ ترك الكابتين بورجار يضربه بالعصا عام ١٧٢٢) ،[١١٨] فإنه أوتى من الشجاعة الأدبية قدرا مذهلا (فقد هاجم أقوى مؤسسة فى التاريخ ، وهى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) . وإذا كان عنيفا فى الخصومة ، فإنه كان سريع العفو عن خصومه الذين يسعون إلى الصلح معه ، «فكان غضبه يزول لأول رجاء .»[١١٩] وكان يغدق الحب على كل من طلبه ، وكان وفيا لأصدقائه . فلما افترق عن فاجنير بعد عشرة أربعة وعشرين عاما «بكى كالأطفال .»[١٢٠] أما عن فضيلته فى أمور الجنس فقد كانت فوق مستوى جيله مع مدام دوشاتليه ، ودون ذلك المستوى مع ابنة أخته . وكان متسامحا مع الفوضى الجنسية ، ولكنه يغضب غضبة مضرية على الظلم . والتعصب ، والاضطهاد ، والنفاق ، وفظاعات قانون العقوبات . وقد عرف الفضيلة بأنها «البر بالبشر .» أما فيما عدا ذلك فكان يسخر من المحظورات ، ويستمتع بالخمر ، والنساء ، والغناء ، فى قصد فلسفى . وفى أقصوصة سماها «باباييك»

رفض الزهد بما هو معهود فيه من تهكم موجع . فترى أومنى يسأل البرهمى « أهناك أمل فى أن يبلغ فى النهاية السماء التاسعة عشرة ؟ »

ويجيب البرهمى « هذا يتوقف على نوع الحياة التى تحياها . إنى أحاول أن أكون مواطنا صالحا ، وزوجا صالحا ، وأبا صالحا ، وصديقا صالحا ، وأحيانا أقرض المال بغير ربا للأغنياء ، وأتصدق على الفقراء ، وأحفظ السلام بين جيرانى . » فيسأل البرهمى « ولكن أتغرز المسامير أحيانا فى عجزك ؟ .

« أبداً يا أبى المبجل »

ويجيب البرهمى « إذن فأنا آسف ، لأنك لن تبلغ السماء التاسعة عشر ، ما فى ذلك ريب . »[١٢١]

أما فضيلة فولتير المتوجة لفضائله المكفرة عن سيئاته ، فهى إنسانيته . لقد حرك ضمير أوربا بحملاته دفاعا عن آل كالاس وسيرفنس . وشهر بالحرب باعتبارها « الوهم الكبير » . « فالأمة الغالبة لا تفيد إطلاقا من أسلاب الأمة المغلوبة ؛ وهى تدفع ثمن كل شىء ، وتعانى حين تنتصر جيوشها قدر معاناتها حين تنهزم . [١٢٢] وأياً كان الفريق المنتصر ، فإن الإنسانية خاسرة على الحالين» . وقد ناشد الناس فى شتى الظروف والأقطار أن يتذكروا أنهم أخوة ؛ واستمع الناس إلى ذلك النداء بشكر وعرفان فى مجاهل أفريقيا . [١٢٣] كذلك لم تصدق عليه التهمة التى وجهها روسو للذين بشروا بحب البشر ووسعوا هذا الحب توسيعا لم يترك فيه مكانا لجيرانهم ؛ فكل الذين عرفوه تذكروا عطفه ومجاملته لأقل الأشخاص المحيطين به شأنا . كان يحترم كل نفس ، عارفا حساسيتها لأنه يعرف حساسيته .[١٢٤] وقد واصل كرم ضيافته رغم ما فرض عليها من مطالب باهظة . كتبت مدام دجرافينى « كم تأثرت حين وجدت فيك من الطيبة مالا يقل عما فيك من العظمة ، ورأيتك تفعل لكل من يحيطون بك الخير الذى كنت تود أن تفعله للبشرية جمعاء . »[١٢٥] وكان أحيانا

نزقا يتفجر غضبا ، ولكن « لا يمكن أن تتصور أبدا مبلغ ما فى قلب هذا الرجل من طيبة » كما كتب عنه زائر آخر [٢٦]

وإذ ذاع صيت العون الذى يسديه للمضطهدين فى أوربا ، وانتشرت الأنباء فى فرنسا عن بره وإحساناته المستورة ، تشكلت صورة جديدة لفولتير فى ذهن الجماهير . فلم يعد عدو المسيح ، ولا المحارب لدين يحبه الفقراء ؛ بل أصبح منقذ آل كالاس ، وسيد فرنيه الطيب ، والمدافع عن عشرات من ضحايا العقائد المتزمتة والقوانين الظالمة . وقال قساوسة جنيف إنهم حائرون فى موقفهم وإياه فى يوم الحساب ، فهل إيمانهم بعدل أعمال هذا الزنديق . [١٢٧] وغفر له المثقفون رجالا ونساء زندقته ، ومشاجراته ، وغروره ، لا بل خبثه . ورأوه يتحول من الخصومة إلى السماحة ، فنظروا إليه الآن نظرتهم إلى الأب الجليل للآداب الفرنسية ، وفخر فرنسا أمام العالم المثقف . ذلك هو الرجل الذى رحبت حتى جماهير العامة بمقدمه حين جاء إلى باريس ليموت .

* * *

الفصل السادس

روسو الرومانسى

١٧٥٦ — ١٧٦٢

---

١ — فى « الايرميتاج » : ١٧٥٦ — ١٧٥٧

كان روسو قد انتقل إلى كوخ مدام دينيه فى ٩ أبريل ١٧٥٦ مصطحبا زوجته غير الشرعية تريز لافاسير وأمها . وسعد بالعيش هناك حينا ، إذ أحب غناء الطيور وزقزقتها ، وحفيف الأشجار وعبيرها ، وهدوء الجولات المنفردة فى الغابات . وكان فى جولاته يحمل قلما وكراسة ليقتنص الأفكار وهى تمرق منه.

ولكنه لم يخلق للراحة والسلام . ذلك أن حساسيته ضاعفت كل عناء ، وخلقت مزيدا من المتاعب . لقد كانت تريز زوجة وفية ، ولكنها لا تستطيع أن تكون رفيقا لذهنه ، كتب فى إميل يقول « ينبغى ألا يقترن الرجل الذى يفكر بزوجة لا تستطيع مشاطرته أفكاره . »[1] ولم يكن بتريز المسكينة حاجة تذكر للأفكار ، ولا كبير حاجة للكلمات المكتوبة . لقد بذلت له جسدها وروحها ، واحتملت غضباته ، وأغلب الظن أنها ردت عليها بمثلها ، وسمحت له بأن يقترب من حافة الخيانة مع مدام دودتو ، وكانت هى على قدر ما نعلم وفية فى تواضع باستثناء حادث لا سند لنا فيه إلا رواية بوزويل . ولكن أنى لهذه المرأة الساذجة أن تستجيب لذلك الاتساع والتنوع الجامح فى عقل قدر له أن يزلزل نصف القارة ؟ استمع إلى تفسير روسو :

« ماذا يظن القارىء إذا قلت له ... إننى منذ اللحظة الأولى التى وقع عليها بصرى حتى اللحظة التى أكتب الآن فيها لم أشعر قط بأقل حب لها ، ولم أشته قط أن أملكها ... وأن الحاجات البدنية التى أشبعت بشخصها كانت بالنسبة لى

حاجات الجنس فقط ، دون أن تنبعث إطلاقا من شخصيتها ؟ ... لقد كانت أولى حاجاتى ، وأعظمها ، وأقواها ، وأشرهها ، كلها فى قلبى : الحاجة إلى رباط (روحى) حميم ، حميم ما أمكن . وكانت هذه الحاجة الفريدة بحيث لا يشبعها أوثق الاتصال البدنى ، ولم يكن بد لها من وجود روحين . [٢]

ولعل تريز كانت ترد على هذه الشكاوى بضدها ، لأن روسو كان قد كف الآن عن القيام بوظائفه الزوجية . ففى ١٧٥٤ قرر لطبيب جنيفى : « لقد تعرضت طويلا لأقسى الآلام ، لعلة حصر البول التى لاشفاء لى منها ، والتى نجمت عن احتقان فى مجرى البول يسد القناة سدا يستحيل معه أن يدخل فيها حتى قسطرات الدكتور داران المشهور . [٣] وزعم أنه أقلع عن كل اتصال جنسى مع تريز بعد ١٧٥٥ [٤] ثم أضاف « حتى ذلك التاريخ كنت صالحا ، ومن تلك اللحظة أصبحت طاهرا ، أو على الأقل متيما بالطهارة .

وجعل وجود حماته معهما هذا المثلث حادا إلى درجة مؤلمة . وقد عالها هى وزوجته ما استطاع من دخله الذى جاءه من نسخ الموسيقى ومن بيع كتبه . غير أن مدام لافاسير كان لها بنات أخريات يحتجن إلى مهور ويعشن فى ضنك مقيم . وجمع جريم وديدرو ودولباخ فيما بينهم للمرأتين معاشا سنويا قدره أربعمائة جنيه ، وأخذوا عليهما العهد بكتمان الأمر على روسو مخافة جرح كبريائه . واختصت الأم نفسها وبناتها بمعظم المال (على رواية روسو) [٥] ، واستدانت باسم تريز ، ودفعت تريز الديون ، وأخفت أمر المعاش طويلا ، وأخيرا كشف روسو سره ، فاستشاط غضبا على أصدقائه لاذلالة على هذا النحو . وقد زادوه غضبا بالإلحاح عليه فى أن ينتقل من الإيرمتاج قبل حلول الشتاء ، فالكوخ (فى رأيهم) لم يعد للجو البارد . وحتى لو احتملت زوجته برد الشتاء فيه فهل فى طاقة الأم احتماله ؟ وكان ديدرو قد كتب فى تمثيلية « الابن الطبيعى » [٦] : « إن الرجل الصالح يحيا فى مجتمع ؛ ولا يعيش وحيدا غير الطالح » .وخيل لروسو أنه المقصود بهذا القول ، وبدأ الآن نزاع طويل لم تكن المصالحات التى تخللته إلا مهادنات . وشعر روسو أن جريم وديدرو يحاولان إغرائه بالعودة إلى مدينة فاسدة لأنهما يحسدانه على السلام الذى وجده بين

الغابات . وقد كشف فى خطاب أرسله إلى صاحبة الفضل عليه ، مدام ديبنيه ، (وكانت فى باريس) عن خلقه بصراحة ونفاذ بصر . قال :

« أريد أن يكون أصدقائى أصدقاء لا سادة على ؛ أريدهم أن ينصحونى لا أن يحاولوا التسلط على ؛ وأن يكون لهم كل المطالب على قلبى دون مطلب واحد يقيد حريتى . أنى لأراها غريبة تلك الطريقة التى يتدخل بها الناس باسم الصداقة فى شئونى دون أن يطلعونى على شئونهم ... وحرصهم الشديد على أن يؤدوا لى ألف خدمة يرهقنى ، ففيه لمسة من الاستعلاء تضنينى ؛ ثم إن كل إنسان فى وسعه أن يفعل مثل ما يفعلون ...

« وإنى لتوحدى وانعزالى على الناس أشد حساسية من غيرى . فلو فرضنا أننى تشاجرت مع إنسان يعيش وسط الزحام ، فإنه يفكر فى الأمر لحظة ثم تنسيه إياه عشرات الشواغل بقية النهار . أما أنا فلا يصرف أفكارى عنه شىء ولا أفتأ أقلبه فى ذهنى طوال الليل وأنا مؤرق ، وأفكر فيه وأنا أتمشى وحدى من شروق الشمس إلى غروبها ، وقلبى لا يهدأ لحظة واحدة ، وإساءة من صديق كفيله بأن تجعلنى أعانى فى يوم واحد سنوات من الحزن . وإن لى أنا العليل حقا فى التسامح الواجب من إخوتى البشر نحو هفوات رجل مريض وغضباته ... وأنا فقير ، وفقرى يخول لى بعض الرعاية (أو كذلك يخيل إلى) .

« لا يدهشك إذن إن أنا أبغضت باريس أكثر فأكثر . ليس لى شىء أنشده من باريس سوى رسائلك . ولن يرانى أحد هناك ثانية أبدا . وإذا شئت أن تنبئينى بآرائك حول هذا الموضوع ، وبكل ما تبغين من قوة وعنف ، فلك الحق فى ذلك . فستلقى منى قبولا حسنا ، وستكون — عديمة الجدوى ». [7]

وقد أجابته بما يكفى من العنف فقالت « أوه ، دع هذه الشكاوى التافهة لمن خانت قلوبهم ورؤسهم . » [8] ولكنها استفسرت مرارا عن صحته وراحته ، واشترت له حاجياته ، وأرسلت له الهدايا الصغيرة .

« ذات يوم والحرارة بلغت من التجمد درجة قصوى ، وجدت وأنا افتح طردا به عدة أشياء طلبت إليها أن تبتاعها لى جونلة داخلية من الفانللا الإنجليزية

قالت إنها كانت تلبسها ، ورغبت إلى فى أن ألبسها صدرية داخلية ، ورأيت فى هذه الرعاية البالغة الود حنانا شديدا — وكأنها تعرت لتكسونى — حتى رحت فى انفعالى أقبل الخطاب والجونلة جميعا غير مرة وأنا أزرف الدمع . وخالتى تريز قد جننت . [٩]

وخلال عامه الأول فى الارميتاج صنف « قاموس الموسيقى » ولخص بلغته المجلدات التى ألفها الأبيه دسان — بيير عن الحرب ، والسلام ، والتعليم ، والإصلاح السياسى . وفى صيف ١٧٥٦ تلقى من المؤلف نسخة من قصيدة فولتير فى الزلزال الذى أهلك خمسة عشر ألف شخص ، وبجرح خمسة عشر ألف آخرين فى لشبونة فى عيد جميع القديسين أول نوفمبر ١٧٥٥ ، وقد تساءل فولتير كما تساءل نصف العالم لم اختارت العناية ، المفترض فيها أنها خيرة ، لهذه المذبحة العمياء عاصمة قطر كله كاثوليكى ، وساعة — ٩,٤٠ صباحا — كل الاتقياء يصلون فيها فى الكنيسة . وفى نغمة من التشاؤم المطلق رسم فولتير صورة للحياة والطبيعة محايدتين حيادا قاسيا بين الشر والخير . وفى الفقرة التالية من الاعترافات نقرأ رد فعل روسو لهذه القصيدة القوية :

« حين ادهشنى أن أرى هذا المسكين ، الغارق (إن جاز القول) فى أسباب الثراء والتشريف ، يشكو بمرارة أرزاء هذه الحياة ، ويجد كل شىء خطأ ، فكرت فى مشروع جنونى هو أن أجبره على تحويل اهتمامه إلى نفسه ، وعلى إثبات أن كل شىء صواب . إن فولتير وهو يبدو مؤمنا بالله لم يؤمن قط فى الواقع بشىء غير الشيطان ، لأن إلهه المزعوم كائن خبيث لا يلتذ إلا بالشر ، كما يقول . وسخف هذه القصيدة الصارخ يثير أشد التقزز من رجل ينعم بثراء فاحش ، رجل يحاول من حضن السعادة أن يشيع اليأس فى قلوب إخوته البشر بما يصور من صورة رهيبة قاسية لكل الكوارث التى أعفى منها ، أما أنا الذى يحق لى أكثر منه أن أعدد وأزن كل شرور الحياة البشرية ، فقد فحصتها فى غير تحيز ، وأثبت له أنه ما من شر من جميع الشرور الممكنة يجب أن ننسبه للعناية ، وألا نرده بالأحرى إلى إساءة استعمال الإنسان لقدراته لا إلى الطبيعة » [١٠] .

وعليه فى ١٨ أغسطس ١٧٥٦ أرسل روسو إلى فولتير « رسالة فى العناية الإلهية من خمس وعشرين صفحة ، بدأها باقرار لطيف بفضل فولتير . قال :

« جاءتنى قصائدك الأخيرة يا سيدى فى عزلتى ، ومع أن جميع أصدقائى يعرفون محبتى لكتاباتك ، فلست أدرى من كان ممكنا أن يرسل لى هذا الكتاب سواك . فقد وجدت المتعة والفائدة جميعا ، وتبينت فيه يد الأستاذ ... ولزام على أن أشكرك على المجلد وعلى صنيعك . »(١١)

ثم ناشد فولتير ألا يلوم العناية الإلهية على مصائب البشر . فمعظم الشرور راجع لحماقتنا ، أو خطيئتنا ، أو إجرامنا :

« لاحظ أن الطبيعة لم تحشد عشرين ألف بيت من ستة طوابق أو سبعة ، وأنه لو كان سكان تلك المدينة الكبرى موزعين توزيعا أكثر توازنا فى مساكن أقل تكاثفا ، لكانت الخسارة أقل كثيرا ، أو ربما انعدمت ، ولكان كل اهلها قد هربوا عند أول هزة ، ولرأيناهم فى الغد على بعد عشرين فرسخا ، مرحين كأن شيئا لم يصبهم . »(١٢)

وكان فولتير قد كتب أن قلة من الناس من يودون أن يولدوا من جديد فى نفس الظروف ؛ فرد روسو بأن هذا لا يصدق إلا على الأثرياء الذين أتخموا باللذات ، وملوا الحياة ، وأعوزهم الإيمان ؛ أو على الأدباء القاعدين ، غير الأصحاء ، الغارقين فى تأملاتهم ، الساخطين ؛ ولكنه لا يصدق على بسطاء الناس كالطبقة الوسطى الفرنسية أو القرويين السويسريين . والذى يجعل من الحياة معضلة لنا هو إساءة استعمالها .(١٣) ثم إن شر الجزء قد يكون خير الكل ؛ فموت الفرد يتيح الحياة المتجددة للنوع . والعناية الإلهية عامة لا خاصة ؛ فهى تسهر على الكل ، ولكنها تترك أحداثا نوعية للأسباب الثانوية والقوانين الطبيعية .(١٤) وقد يكون الموت المبكر نعمة كذلك الذى أصاب أطفال لشبونة ، وهو على أية حال غير ذى بال ما دام هناك إله ، لأنه تعالى سيكافىء الجميع على ما أصابهم من معاناة لا يستحقونها .(١٥) ومسألة وجود الله تجاوز

الحل بالعقل . ولنا أن نختار بين الإيمان والكفر ، فلم نرفض إيمانا ملهما معزيا ؟؟
أما عن نفسى « فقد عانيت فى هذه الحياة كثيراً ، لهذا يملؤنى الرجاء فى حياة أخرى . وكل دقائق الميتافيزيقا لن تشككنى لحظة فى وجود عناية خيرة وفى خلود النفس . أننى أحس هذا ، وأومن به ، وأتمناه ... وسأدافع عن هذه المعتقدات إلى آخر نسمة من حياتى . »(١٦)

واختتم روسو خطابه ختاما لطيفا ، فقال إنه متفق مع فولتير على التسامح الدينى ، وأكد له « إننى أوثر أن أكون مسيحيا على طريقتك لا على طريقة الصوربون . »(١٧) . ورجا فولتير أن ينظم بكل ما فى شعره من قوة وفتنة «كتاب تعليم مسيحى للمواطن» يتضمن قاموسا أخلاقيا يهدى الناس فى فوضى العصر . وكتب فولتير إقراراً مهذبا بوصول رسالة روسو ، ودعاه للنزول ضيفا عليه فى الدليس(١٨) ، ولم يبذل محاولة منظمة لتنفيذ حجج روسو ، ولكنه رد عليها بطريق غير مباشر بروايته « كانديد »(١٧٥٩) .

٢ — العاشــق

حفل شتاء ١٧٥٦ — ١٧٥٧ بالأحداث لروسو . ففى فترة ما خلال تلك الشهور بدأ يكتب أشهر رواية فى القرن الثامن عشر « جولى ، أو هلويز الجديدة» وقد تصورها أول الأمر دراسة فى الصداقة والحب . فابنتا العم جولى وكلير تحبان سان — برو ، ولكنه حين يغوى جولى تظل كلير الصديقة الوفية لكليهما . فلما أخجله أن يكون الكتاب مجرد رواية غرامية ، عمد إلى رفع القصة إلى مقام الفلسفة بتحويل جولى إلى التدين ، والعيش فى ولاء مثالى لزوجها فولمار وهو سيد شكاك استسلم لتعالم فولتير وديدرو . يقول روسو فى اعترافاته :

« كانت العاصفة التى أطلقتها الموسوعة .. فى ذلك الحين على أشدها . فلم يلبث الفريقان ، اللذان بلغ سخطهما بعضهما على بعض نهايته ، أن أصبحا أشبه بذئاب غاضبة ... لا مسيحيين وفلاسفة يرغب كل منهما فى إثارة الآخر وإقناعه وهداية إخوانهم إلى طريق الحق . وكنت قد جهرت بالحقائق الصارمة للفريقين لأننى بطبعى عدو لكل أنواع التخريب ، ولكنهم لم يستمعوا إلى :

ففكرت فى طريقة أخرى ، بدت لى فى بساطتى جديرة بالإعجاب ؛ وهى التخفيف من كراهتهما المتبادلة بأن أحطم تعصبهما ، وأظهر لكل فريق ما للآخر من فضائل وحسنات تستحق تقدير الجميع واحترامهم . وأحرزت الفكرة ... للنجاح المرتقب ، فقد قربت ووحدت الحزبين المتنافسين على هدف واحد هو سحق الكاتب ... ولما رضيت .. عن خطتى ، عدت إلى الموقعين تفصيلا ... فأسفر هذا عن الجزئين الأول والثانى من « هلويز » .[١٩]

وكان يقرأ على تريز ومدام ليفاسير كل مساء صفحات من القصة عند المدفأة . وشجعته الدموع التى كانت تذرفها تريز ، فدفع بالمخطوطة إلى مدام ديبنيه حين عادت إلى قصرها الريفى ، لاشتزيت ، على ميل من الإرميتاج . وفى مذكراتها استعادة للحدث : « حين وصلنا هنا ... وجدنا روسو فى إنتظارنا . وكان هادئا رائق المزاج للغاية . وأحضر لى رواية (جانبا منها) قد بدأها ... وقد قفل إلى الإرميتاج أمس ليستأنف هذا العمل ، الذى يزعم أنه قوام سعادة حياته . »[٢٠] وبعد قليل كتبت إلى جرىم :

« بعد العشاء قرأنا مخطوطة روسو . ولست أدرى هل أنا متحيزة ضدها ، ولكنى غير راضية عنها ، إنها مكتوبة بأسلوب فى غاية الروعة ، ولكنها مسرفة فى التفصيل ، وتبدو غير واقعية ومفتقرة إلى الحرارة . ولا تقول شخوصها كلمة واحدة مما ينبغى أن تقوله ، فالمؤلف هو الذى يتكلم دائما . ولا أدرى كيف أخرج من هذا المأزق ، فلست أحب أن أخدع روسو ، ولا أستطيع أن أستقر على إدخال الحزن على قلبه . »[٢١]

على أن روسو ، على نحو ما ، بث الحرارة فى جولى خلال الشتاء ، أكان ذلك لأن قصة حب حية دخلت حياته ؟ ذلك أنه فى ٣٠ يناير ١٧٥٧ زارته سيدة كان قد لقيها فى باريس باعتبارها أخت زوج مدام ديبنيه . وكانت هذه السيدة ، واسمها اليزابث ــ صوفى دبيلجارد ، قد تزوجت الكونت دودتو ، ثم تركته ، وأصبحت الآن خليلة عدة سنوات للمركيز دسان ــ لامبير ، الذى كان يوما ما مزاحما لفولتير على مدام دشاتليه . وكان زوجها وعشيقها كلاهما

قد انطلق إلى ساحة القتال . وفى صيف ١٧٥٦ كانت الكونتيسة قد استأجرت قصر أوبون الريفى ، على نحو ميلين ونصف من الإيرميتاج . وكتب لها سان – لامبير أن روسو على رحلة جواد قصيرة منها ، واقترح عليها أن تسرى عن وحدتها بزيارة الكاتب الشهير الذى أوقف الحضارة كلها موقف الدفاع عن نفسها . فذهبت فى مركبة ، فلما انغرزت فى الوحل واصلت الرحلة سيرا ، فوصلت وحذاؤها وثوبها ملطخان . « وجعلت المكان يدوى بضحكها الذى شاركتها فيه من كل قلبى »[٢٢] . وأعطتها تريز تغييرة ملابس . ومكثت المركيزة لتتناول « وجبة ريفية خفيفة » وكانت فى السابعة والعشرين ، وروسو فى الخامسة والأربعين . ولم تكن باهرة الجمال سواء فى طلعتها أو قوامها ، ولكن رقتها ، ردماثة طبعها ، وروحها المرحة أثارت حياته المظلمة . وفى العصر التالى أرسلت إليه رسالة لطيفة ، مخاطبة إياه باللقب الذى اتخذه بعد أن استوطن جنيف ثانية :

« أيها المواطن العزيز ، أعيد إليك الثياب التى تفضلت بأعارتى إياها . وقد وجدت عند رجوعى طريقا أفضل كثيرا ، ويجب أن أخبرك بمبلغ سرورى بهذا ، لأنه ييسر لى العودة إلى زيارتك . ويؤسفنى أننى لم أمكث إلا قليلا ... وسيكون أسفى أقل إذا كنت أكثر حرية ، واثقة دائما من أننى لا أزعجك . وداعا يا مواطنى العزيز ، وأرجوك أن تشكر للآنسة ليفاسير كل ما أبدته نحوى من عطف . »[٢٣]

وبعد أيام عاد سان – لامبير من الجبهة . وفى أبريل استدعى من جديد للخدمة العسكرية ، وما لبثت الكونتيسة المرحة أن خطرت إلى الإيرميتاج على صهوة جوادها مرتدية ثياب الرجال . وصدم زيها روسو ، ولكنه ما لبث أن أحس بأنه يحتوى امرأة فاتنة . فانطلق مع ضيفته سيرا فى الغابات تاركا تريز لواجباتها المنزلية وأخبرته مدام دودتو عن شدة محبتها لسان لامبير ، وفى مايو رد زيارتها ، فذهب إلى أوبون فى الوقت الذى تكون فيه « وحيدة تماما » كما قالت له . يقول « كنت أحيانا فى رحلاتى المتكررة لأوبون أنام هناك ...

وكنت أراها كل يوم تقريبا طوال ثلاثة أشهر . ورأيت شخصية جولى متمثلة فى مدام دودتو ، ثم لم أعد أرى غير مدام دودتو (فى جولى) ، ولكن بكل أسباب الكمال التى جملت بها معبودة قلبى . »[٢٤]

وأسلم نفسه زمنا لهذا الهذيان المحموم حتى لقد كف عن كتابة قصته ، وراح بدلا من هذا يكتب الخطابات الغرامية التى حرص على أن تعثر عليها فى كوى أشجار أوبون . فقال لها أنه يحب ، ولم يقل من محبوبته ؛ ولكنها عرفت بالطبع . فوبخته ، وأكدت له أنها ملك سان — لامبير جسدا وروحا ، ولكنها سمحت له بمواصلة زياراته وتودده الحار ؛ والمرأة على أى حال تحيا حياة واحدة فقط حين تحب ، وحياة مضاعفة حين يحبها إثنان . « لم تنكر على شيئاً يمكن أن تمنحه أرق الصداقات . ولكنها لم تمنحنى شيئاً يجعلها خائنة . » وهو يروى أنباء ما كانا يخوضان فيه من « أحاديث مستفيضة متكررة ... خلال الشهور الأربعة التى انفقاها فى صلة حميدة لا تكاد تضارعها صلة بين صديقين من الجنسين يحصران نفسيهما داخل الحدود التى لم نتجاوزها قط . »[٢٥] وفى روايته لهذه العلاقة نجد الحركة الرومانسية على أشدها : فلا شىء فى قصته يمكن أن يضارع هذه النشوات :

« لقد سكرنا كلانا بخمر الحب — حبها لحبيبها ، وحبى لها ؛ وامتزجت تنهداتنا ودموعنا ... ولم تنس نفسها قط لحظة واحدة فى حميا هذا السكر اللذيذ ، وأؤكد تأكيدا قاطعا إننى أن كنت مرة ، وأنا منساق بحواسى ، قد حاولت حملها على الخيانة ، فإنه لم يكن لى رغبة حقيقية فى النجاح .. ذلك أن واجب نكران الذات تسامى بعقلى ... لقد كان من الممكن أن أقارف الجريمة ، وقد قورفت مائة مرة فى قلبى ؛ ولكن أن الوث شرف حبيبتى صوفى ! أواه ، أممكن هذا ؟ كلا ! لقد قلت لها مائة مرة إنه محال ... فإن حبى لها أعظم من أن يغرينى بتملكها ... تلك كانت اللذة الوحيدة لرجل أوتى مزاجا من أكثر الأمزجة تأججا ، ولكنه ربما كان فى الوقت ذاته من أجبن من أنجبتهم الطبيعة من البشر . »[٢٦]

ولاحظت مدام دبينيه أن « دبها » لم يعد يزورها الآن إلا لماما ، وسرعان

ما علمت بنبأ رحلاته لأخت زوجها . فآلمها النبأ . وكتبت إلى جريم فى يونيو تقول « من القسوة على أى حال أن يهرب منك فيلسوف فى أقل اللحظات توقعا لهروبه . »[٢٧] وذات يوم فى أوبون وجد روسو « صوفى » تبكى . ذلك أن سان — لامبير نمى إليه خبر عبثها هذا ، وقد أبلغ بالخبر (كما قالت لجان — جاك) « بطريقة سيئة . إنه ينصفنى ، ولكنه مغيظ ... وأخشى ما أخشاه أن تكلفنى حماقاتك الراحة والهدوء بقية أيامى »[٢٨] . واتفقا على أن الذى باح بالسر لسان — لامبير لابد هومدام دبينيه ، لأننا «كنا نعلم أنها تراسله . » أو لعلها باحت به لجريم ، الذى كان يلقى سان — لامبير بين الحين والحين فى وستفاليا . وقد حاولت مدام دبينيه — فى رواية روسو — أن تحصل من تريز على خطاباته التى تلقاها من مدام دوذتو ، واتهم مضيفته بخيانته فى خطاب عنيف :

« هناك عاشقان (صوفى وسان — لامبير) عزيزان على ، وهما وثيقا الارتباط جديران بحب الواحد لصاحبه ... وأحسب أن محاولات بذلت للتفريق بينهما ، وأننى استعملت لبث الغيرة فى صدر أحدهما . ولم يكن الاختيار سديدا ، ولكنه بدا محققا لأغراض الحقد ؛ وأنت التى أشتبه فى أنها مذنبة بهذا الحقد .. وهكذا كان يمكن أن يلصق بالمرأة التى أكن لها أعظم تقدير ... عار قسمة قلبها وشخصها بين حبيبين ، ويلصق بى أنا عار كونى أحد هذين التعيسين . ولو علمت أنك فكرت فى هذا إطلاقا ولو لحظة واحدة فى حياتك ، سواء عنها أو عنى ، لأبغضتك حتى آخر نسمة من حياتى ، ولكنى لا أتهمك بالتفكير فى هذا فحسب ، بل بقوله أيضا .

« أتعلمين كيف أكفر عن أخطائى فى الفترة القصيرة التى أنا مضطر للمكث فيها بقربك ، بفعل ما لا يفعله أحد سواى : بمصارحتك برأى الناس فيك ، وبالصدوع التى عليك أن ترأبيها فى سمعتك[٢٩] » .

وأحزن عنف هذه التهم مدام دبنيه ، سواء أكانت مذنبة أم بريئة (ولا علم لنا بالحقيقة) ، فأبلغتها إلى حبيبها البعيد جريم . وأجاب بأنه قد حذرها من « المآذق الشيطانية » ، التى ستتورط فيها بإنزال روسو النزق الغريب الأطوار

فى الإيرميتاج [٣٠] . ودعت جان — جاك إلى شفريت ، وحيته بالعناق والدموع ، وأجاب على الدموع بمثلها ، ولم تدل له بأى تفسير وصل إليها علمه ، وتعشى معها ، ونام فى بيتها ، ورحل فى الغد مودعا بعبارات الصداقة .

وزاد ديدور الطين بلة . فقد أشار على روسو بأن يكتب إلى سان — لامبير معترفا بميله لصوفى ، مؤكدا له رغم ذلك وفاءها . ووعد روسو بأن يكتب (فى رواية ديدرو) ولكن مدام دودتو رجته ألا يفعل ، وأن يدعها تنقذ نفسها بطريقتها الخاصة من المآزق التى ورطها فيها هيامه وعبثها . فلما عاد سان—لامبير من الجبهة حدثه ديدرو بالعلاقة ، مفترضا أن روسو قد اعترف بها . ولام روسو ديدرو ورماه بخيانته ؛ ولام ديدرو روسو ورماه بخديعته . ولم يتصرف تصرف الفلاسفة غير سان — لامبير . فقد جاء وصوفى إلى الإيرميتاج ، و « دعا نفسه إلى العشاء معى ... وعاملنى بصرامة ولكن بروح الصداقة . » ولم يوقع عليه عقوبة أشد من النوم والشخير بينما كان جان — جاك يقرأ عاليا خطابه المطول إلى فولتير . على أن مدام دودتو لم تشجع المزيد من اللقاءات بروسو . وأعاد لها الخطابات التى كتبتها له بناء على طلبها ، ولكن حين طلب خطاباته إليها قالت إنها أحرقتها . يقول « جرؤت على الشك فى زعمها هذا ... وما زلت أشك . فلم تلق فى النار قط خطابات كخطاباتى . لقد رأى الناس أن خطابات هلويز (لأبيلار) حارة ! فيا للسماء ! ، فماذا كانوا يقولون فى خطاباتى هذه ؟ » [٣١] وأنكفأ إلى عالمه الخيالى مجروحا شاعرا بالخزى ، واستأنف كتابة « هلويز الجديدة » ، وسكب فيه عواطف رسائله المشبوبة لمدام دودتو .

على أن صنوفا جديدة من الذل كانت فى انتظاره حين عاد جريم من الحرب (سبتمبر ١٧٥٧) « لم أكد اتبين فيه جريم القديم » الذى كان فيما مضى « يعده شرفا له أن ألقى عليه نظرة » [٣٢] ولم يستطع روسو أن يفهم العلة فى فتور جريم ، ولم يعرف أن جريم عرف بأمر الخطاب المهين الذى أرسله إلى مدام ديبنيه . وكان جريم يقرب من جان — جاك أنانية ، ولكنه فيما عدا ذلك نقيضه عقلا وخلقاً — فهو شكاك ، واقعى ، فظ ، قاس . [٣٣] وهكذا فقد روسو صديقين بخطاب واحد .

٣ — لغط كبير

وحدثت أزمة جديدة حين قررت مدام دبينيه فى أكتوبر ١٧٥٧ أن تزور جنيف . وإليك قصة روسو :

« كتبت إلى تقول « يا صديقى ، سأقوم فورا بالرحلة إلى جنيف ، لأن صدرى ساءت حالته ، وصحتى أعتلت كثيرا ، بحيث يتعين على أن أذهب لاستشارة ترونشان . » وزادت دهشتى لهذا القرار الذى اتخذ هكذا فجأة ، وفى بداية أسوأ طقس فى السنة ... وسألتها من سيصحبها ، فأجابت بأنه إبنها ومعلمه مسيو دليفان ، ثم أردفت بغير اكتراث «وأنت يا عزيزى ، ألا تذهب أنت أيضاً ؟ » ولم يخطر لى أنها جادة فيما تقول ، لأننى فى هذا الفصل كنت لا أكاد أقوى على المضى إلى حجرتى (أى السفر بين لاشفريت والإيرميتاج) فقد رحت أمزح حول الفائدة التى يسديها مريض لآخر . ولم تكن هى ذاتها ، فيما بدا لى ، جادة فى اقتراحها ، وإلى هنا انتهى الأمر »[٣٤] .

وكان له مبررات وجيهة للزهد فى مصاحبة المدام ، فقد حالت دون ذلك آلامه وأوصابه ، ثم كيف يستطيع أن يترك تريز ؟ أضف إلى ذلك أن الشائعات أرجفت بأن مضيفته حبلى ، من جريم على الأرجح ، وصدق روسو القصة حينا وهنأ نفسه على النجاة من موقف مثير للسخرية . ولكن المرأة المسكينة كانت صادقة ، فهى تعانى من السل ، ويبدو أنها كانت مخلصة فى رغبتها فى أن يرافقها روسو ، ولم لا يبهجه أن يعود ، على نفقتها ، لزيارة المدينة التى كان يفخر كثيرا بأنه مواطن فيها ؟ وكتب ديدرو ، العالم بشعورها ، إلى روسو يناشده أن يأخذ طلبها مأخذ الجد ويستجيب له ، ولو لما فى ذلك من بعض الرد على إحساناتها . وأجاب روسو بأسلوبه المعهود :

« أحس أن الرأى الذى تراه مصدره غيرك . وفضلا عن عدم ميلى لأن أدع نفسى أساق على غير إرادتى تحت ستار اسمك من شخص ثالث أو رابع ، فإننى ألاحظ فى هذه النصيحة الثانوية نوعا من الغدر لا يتفق وصراحتك ، ويحسن بك أن تكف عنه مستقبلا لأجلك ولأجلى . »[٣٥]

وفى ٢٢ أكتوبر أخذ خطاب ديدرو وجوابه عليه إلى لاشفريت وقرأهما « بصوت عال واضح » على جريم ومدام دبينيه . وفى الخامس والعشرين من الشهر رحلت قاصدة باريس . وذهب روسو ليودعها وداعا محرجا ، يقول « ولحسن الحظ قامت فى الصباح ، وبقى لى من الوقت متسع للذهاب والغداء مع أخت زوجها » فى أوبون .[٣٦] وفى التاسع والعشرين (كما جاء فى مذكرات مدام دبينيه) كتب إلى جريم :

« قل لى يا جريم لم يعلن بجسيع أصدقائى أن من واجبى أن أصحب مدام دبينيه ؟ أمخطىء أنا ، أم أنهم كلهم مسحورون ؟ ... إن مدام دبينيه مسافرة فى مركبة أجرة لطيفة ، ويصحبها زوجها ، ومعلم ولدها ، وخمسة خدم أو ستة ... فهل أحتمل أنا السفر فى مركبة أجرة ؟ وهل أطمع فى القيام برحلة طويلة كهذه وبهذه السرعة الكبيرة دون أن يقع لى حادث ؟ وهل على أن أطلب وقوفها فى كل لحظة لأنزل ، أم على أن أعجل بعذاباتى وساعاتى الأخيرة باضطرارى إلى فرض القيود على نفسى ؟ (يلوح) أن أصدقائى المخلصين ... مصممون على إرهاقى حتى الموت »[٣٧] .

وفى ٣٠ أكتوبر غادرت مدام دبينيه باريس قاصدة جنيف ، وفى ٥ نوفمبر (فى رواية المذكرات) رد جريم على روسو :

« لقد بذلت ما وسعنى من جهد لأتجنب الرد القاطع على الدفاع الرهيب الذى وجهته إلى . وأنت تلح على فى أن أرد ... إنه لم يدر بخلدى قط أنه كان من واجبك أن تصحب مدام دبينيه إلى جنيف . وحتى لو كان دافعك الأول هو أن تعرض عليها صحبتك لها ، لكان من واجبها أن ترفض عرضك ، وأن تذكرك بما يجب عليك نحو مركزك ، وصحتك ، والمرأتين اللتين جررتها إلى معتكفك ؛ هذا رأيى ... وأنت تجسر على أن تحدثنى بعبوديتك ، أنا الذى كنت طوال أكثر من عامين الشاهد اليومى على كل دلائل الصداقة البالغة الحنان والكرم ، التى منحتها إياك هذه المرأة ، ولو استطعت أن أصفح عنك لرأيتنى غير جدير بصداقة إنسان . أننى لا أريد أن أراك ما حييت ، وسأحسب نفسى

سعيدا إن استطعت أن أطرد من عقلى ذكرى سلوكك . سأطلب إليك أن تنسانى ، وأن تكف عن إزعاجى .»(٣٨)

ومن جنيف كتبت مدام دبينيه إلى جريم : « لقد تلقيت شكر الجمهورية على الطريقة التى عاملت بها روسو واستقبلت وفدا رسميا من صانعى الساعات للغرض ذاته ... إن القوم هنا ينظرون إلى نظرة الإجلال من أجله . »(٣٩) ونبهها ترونشان إلى ضرورة بقائها عاما تحت رعايته الطبية . وكانت تختلف مرارا إلى بيتى فولتير فى جنيف ولوزان . وبعد حين لحق بها جريم ، وقضيا معا ثمانية أشهر فى عيشة سعيدة .(*)

وفى ٢٣ نوفمبر ١٧٥٧ كتب إليها روسو (كما يروى) يقول :

إن كان ممكنا لإنسان أن يموت حزنا لما كنت الآن على قيد الحياة ..... إن الصداقة قد انطفأت بيننا يا سيدتى ، ولكن ذلك الذى مضى وانقضى ما زالت له حقوق ، وأنا احترمها . فأنا لم أنس كرمك معى ، ولك أن تنتظرى منى ما يمكن من عرفان بالجميل لشخص لا أستطيع أن أحبه بعد ...

« أردت أن أغادر الإيرميتاج . وكان ينبغى لى أن أفعل ، ويزعم أصدقائى أنه لابد من بقائى هناك إلى الربيع ، وما دام أصدقائى يريدون هذا فسأبقى هناك إن وافقت . »(٤٠)

وفى أوائل ديسمبر جاء ديدرو لزيارة روسو ، فوجده ساخطا باكيا لما حل به من « استبداد » أصدقائه . وقد وردت رواية ديدرو لهذه الزيارة فى خطابه المؤرخ ٥ ديسمبر إلى جريم :

« إن الرجل مسعور forcen ... لقد زرته ، ولمته على شناعة سلوكه بكل القوة التى منحتنى إياها الصراحة والأمانة . وقد دافع عن نفسه فى ثورة

(*) عادا إلى باريس فى أكتوبر ١٧٥٩ ، وأصبح بيتها هناك أحد الصالونات الصغيرة وقد فاز كتابها فى التربية بجائزة من الأكاديمية .

غضب أحزنتني ... إن هذا الرجل يقف حائلا بيني وبين عملي ، ويربك عقلي ؛ وكأن بجواري أحد المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي ... أي منظر هذا — منظر رجل شرير ضار ! لا تدعني أراه ثانية ، فهو يحملني على الإيمان بالشياطين والجحيم . »(٤١)

وتلقى روسو ردا من مدام دبينيه في ١٠ ديسمبر . والظاهر أن جريم كان قد نقل إليها ملاحظات روسو عن « عبوديته » في الإيرميتاج ، لأنها كتبت إليه بمرارة غير معهودة فيها :

« كل ما يسعني عمله الآن أن أرثي لك ، بعد أن بذلت لك طوال سنوات عديدة كل أمارات الصداقة الممكنة . فأنت شقي جدا ...

« وما دمت مصمما على مغادرة الإيرميتاج ، ومقتنعا بأنه ينبغي لك أن تفعل ، فإنه يدهشني أن يقنعك أصدقاؤك بعد إلحاح بالبقاء فيه . أما أنا فلا أستشير أصدقائي أبداً في أمر واجبي ، وليس عندي ما أزيد في أمر واجبك . »(٤٢)

وفي ١٥ ديسمبر ، ورغم حلول الشتاء ، غادر روسو الإيرميتاج ومعه تريز وكل متعلقاتهما . أما أمها فقد أرسلها لتعيش في باريس مع بناتها الأخريات ولكنه وعد بأن يسهم في نفقاتها . وانتقل إلى كوخ في مونمورنس أجره له وكيل للوي — فرانسو دبوريون ، أمير كونتي . هناك ، وقد ولى ظهره لأصدقائه السابقين ، أنتج في خمس سنوات ثلاثة من أعظم كتب القرن تأثيرا .

٤ — خصامه مع جماعة الفلاسفة

كان مسكنه الجديد يقع فيما سماه « حديقة مون — لوي » وهو « حجرة واحدة » أمامها مرجة ، وفي طرف الحديقة حصن قديم فيه « طاقة خالصة على الهواء . » وكان عليه أن يستقبل زواره حين يجيئون « وسط أطباق القذرة وقدوري المحطمة » ويرتعد مخافة أن ينخسف « أرض الحجرة التي تهدمت » تحت أقدام ضيوفه . ولم يكترث لفقره ، فقد كان يكسب ما يكفيه

بنسخ الموسيقى ، اغتبط بكونه حرفيا كفئا [٤٣] ، وبأنه لم يعد تابعا لامرأة غنية . وكان يرد هدايا جيرانه اللطفاء حين يرسلونها إليه ، فقد أحس أن من الذل أن يأخذ المرء أكثر مما يعطى . وأرسل له الأمير دكونتى الدجاج مرتين ، فأخبر الكونتيسة دبوفليه أنه سيرد الهدية الثالثة إن جاءت .

ونلاحظ عرضا كثرة الأرستقراطيين الذين ساعدوا ثوار التنوير . لا لموافقتهم على آرائهم بقدر تعاطفهم الكريم مع العبقرية المحتاجة . لقد كان فى نبلاء النظام القديم الكثير من عناصر النبل ، وقد خصت الأرستقراطية روسو بصداقتها رغم تنديده بها . وكان الحرفى المعتز بنفسه ينسى نفسه أحيانا ويفخر بأصدقائه حملة الألقاب ، قال فى معرض حديثه عن مرجته :

« كانت تلك الشرفة قاعة الجلوس التى استقبلت فيها مسيو ومدام لكسمبورج ، والدوق دفيلروا ، وأمير تنجرى ، ومركيز أرمنتيير ، ودوقة مونمررنسى ، ودوقة بوفليه(*) ، والكونتيسة دفانتنوا ، والكونتيسة دبوفلييه ، وغيرهم من نفس الرتبة ... الذين تنازلوا بأن يحجوا إلى مون - لوى » [٤٤]

وكان منزل المرشال والمرشالة دلكسمبرج غير بعيد من كرخ روسو . وما لبثا عقب وصوله أن دعواه إلى العشاء فرفض الدعوة . ثم كرراها فى صيف ١٧٥٨ فرفضها ثانية . ثم أتيا حوالى عيد القيامة فى ١٧٥٩ ومعهما ستة من أصدقائهم النبلاء يتحدونه فى معتكفه . وراعه الأمر فقد اكتسبت المرشالة يوم كانت الدوقة دبوفلية سمعة بأنها فتنت عددا هائلا من الرجال . ولكنها خلفت خطاياها وراءها وغدت فى نضجها امرأة فيها فتنة الأمومة لا مجرد فتنة الجنس ؛ وسرعان ما أذابت تحفظه الخجول وهمزته ليشارك فى حديث حى . وتساءل الزوار لم يعيش رجل أوتى هذه المواهب فى هذا الضنك . ودعا المرشال روسو وتريز ليذهبا ويعيشا معه حتى يمكن إصلاح كوخهما ؛ ولكن

(*) نستطيع فى زحمة أفراد آل بوفليه الذين دخلوا التاريخ فى القرن الثامن عشر أن نميز (١) دوقة بوفليه ، التى أصبحت مرشالة الكسمبورج . (٢) مركيزة بوفليه ، خليلة ستانسلاس لسكزنسكى (٣) كونتيسة بوفليه ، صديقة ديفد هيوم وهوارس ولبول .

جان — جاك ظل على مقاومته ؛ وأخيرا اقتنع هو وتريز بأن يسكنا حينا « القصر الريفى الصغير » الواقع فى ضيعة لكسمبورج . فانتقلا إليه فى مايو ١٧٥٦ . وكان روسو أحيانا يزور لكسمبورج وزوجته فى بيتهما الفخم ، هناك كان يغرى بسهولة بأن يقرأ عليهما وعلى ضيوفهما بعض فصول الرواية التى كان يكملها . وبعد بضعة أسابيع عاد هو وتريز إلى كوخهما ولكنه واصل زياراته لآل لكسمبورج ، وظلا هما على وفائهما له طوال تقلبات مزاجه . وشكا جريم من أن روسو « هجر أصدقائه القدامى واستبدل بنا قوما من أعلى الطبقات »(٤٥) ولكن جريم هو الذى نبذ روسو ، وفى خطاب كتبه جان -جاك إلى مالزيرب فى ٢٨ يناير ١٧٦٢ رد على من اتهموه بالتنديد بالنبلاء ، وبالتودد إليهم :

« سيدى ، إننى أكره كرها شديدا تلك الطبقات الاجتماعية التى تتسلط على غيرها ... ولا يضايقنى أن أعترف لك بهذا وأنت سليل أسرة مشهورة بعراقتها ... إننى أبغض العظماء ، أبغض وضعهم ، وقسوتهم ، وأهواءهم ... ورذائلهم ... بمثل هذا المزاج ذهبت كانسان يجر جرا إلى قصر (آل لكسمبورج) الريفى فى مونمورنسى . ثم رأيت سادته ؛ وقد أحبونى ، وأحببتهم يا سيدى ، وسأظل أحبهم ما حييت ... وإنى لأبذل لهم ، لا أقول حياتى فتلك عطية هزيلة .. بل الفخر الوحيد الذى مس قلبى — وهو ذلك التشريف الذى أتوقعه من الخلف ، والذى سيمنحنيه ما فى ذلك شك ، لأنه حق ، ولأن الخلف منصفون دائما . »

وكان يود أن يحتفظ بصديقة سابقة — هى مدام دودتو ، ولكن سان - لامبير لامها على الشائعات التى ربطت فيها باريس اسمها باسم روسو ، فاخبرت روسو بأن يكف عن الكتابة لها . وتذكر أنه اعترف لديدرو بحبه لها ، فخلص الآن إلى أن ديدرو هو الذى ثرثر به فى الصالونات و « عقدت النية على مقاطعته إلى الأبد . »(٤٦)

ولكنه اختار أسوأ اللحظات والوسائل ففى ٢٧ يوليو ١٧٥٨ كان هلفتيوس قد نشر فى كتابه « فى العقل » هجوما عنيفا على الكهنوت الكاثوليكى . وأفضت

الضجة المترتبة على هذا الهجوم إلى المطالبة المتصاعدة بحظر « الموسوعة » (التى كان قد صدر منها سبعة مجلدات) وكل الكتابات التى تنتقد الكنيسة أو الدولة . وكان المجلد السابع يتضمن مقال دالامبير المتهور عن جنيف ، الذى امتدح فيه القساوسة الكلفنين على عقيدة التوحيد التى يتكتمونها وناشد السلطات الجنيفية أن تسمح باقامة مسرح . وفى أكتوبر ١٧٥٨ نشر روسو « خطابا إلى مسيو دالامبير عن المسرح » وكان على اعتدال لهجته أشهار حرب على عصر العقل ، وعلى زندقة فرنسة منتصف القرن الثامن عشر وفساد خلقها ، وقد بذل روسو فى مقدمته قصارى جهده فى التبرؤ من ديدرو ، دون أن يذكر اسمه صراحة : « كان من بين أصحابى أرستارخوس » رجل صارم ، عادل ولكنه لم يعد صاحبا لى واستأريد مزيدا من صحبته ، على أنى لن أكف عن الأسف عليه وأن قلبى ليفتقده أكثر حتى من كتاباتى » « وأضاف فى هامش معتقدا أن ديدرو قد أفشى سره لسان -- لامبير :

« إن كنت قد امتشقت حساما على صديق فلا تيأس لأن هناك سبيلا لرد الحسام إليه وإن كنت قد اشقيته بكلامك فلا تخف لأن فى الإمكان مصالحته . أما الإهانة واللوم المؤذى وافشاء السر وجرح قلبه بالخيانة فهذه كلها تسخطه عليك وهو تاركك إلى غير عودة (٤٧) .

أما الخطاب الذى تبلغ صفحاته فى الترجمة ١٣٥ فكان بعضه دفاعا عن الدين كما يبشر به علانية فى جنيف . وكان روسو نفسه موحدا — أى رافضا للاهوت المسيح كما سيدل على ذلك كتاب « إميل » بعد قليل ، ولكنه حين تقدم طالبا المواطنة الجنيفية كان قد أقر بالعقيدة الكلفية الكاملة ، وفى هذا الخطاب دافع عن الدين القديم ، وعن الإيمان بالوحى الإلهى ، باعتبارهما أمرين لا غنى عنهما لاخلاق الشعب . « أن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس إلا الحساب ، إن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس الحساب النفعى للمصلحة الشخصية » ومن ثم كان مجرد (الدين الطبيعى) سيهبط بالأخلاق إلى مستوى لا يزيد على تجنب اكتشاف الذنوب .

ولكن اللاهوت كان مثارا صغيرا للجدل فى حجة روسو ، أما هجمته الأمامية فكانت على اقتراح دلامبير بأن يصرح باقامة مسرح فى جنيف . هنا لم يكن العدو الخفى هو دالامبير ، بل فولتير . فولتير الذى حجب سناء شهرته نزيلا بجنيف ، فخر روسو بمواطنته الجنيفية ، حجبا أثار حنقه ، فولتير الذى جرؤعلى تقديم التمثيليات فى جنيف أو قربها ، والذى حث لامبير بلا شك على أن يضمن مقالا فى الموسوعة نداء بانشاء مسرح جنيفى . فماذا ؟ أتدخل فى مدينة اشتهرت بأخلاقها البيورتانية ضربا من اللهو . كان فى كل مكان تقريبا يمجد الفساد الخلقى ؟ أن الدرامات المحزنة تصور الجريمة دائما ، وهى لا تظهر العواطف كما ظن أرسطو ، بل تلهبها ، لاسيما عواطف الجنس والعنف . وأما التمثيليات الهزلية فنادرا ما تعرض الحب الزوجى النقى ، وكثيرا ما تهزأ بالفضيلة ، كما فعل حتى موليير فى مسرحيته « مبغض البشر » . وكل الناس عليمون بأن الممثلين يحيون حياة العربدة والفساد ، وأن معظم ممثلات المسرح الفرنسى الفاتنات هن مضرب الأمثال فى فوضى الجنس ، وبؤر ومصادر الفساد فى مجتمع يعبدهن . وربما كانت شرور المسرح هذه فى المدن الكبيرة مثل باريس ولندن لا تؤثر إلا فى شطر صغير من السكان ، أما فى مدينة صغيرة كجنيف (لا يسكنها أكثر من ١٤,٠٠٠ نسمة) فإن سمومها تتغلغل فى جميع الطبقات ، وتثير العروض أفكارا مولعة بالجديد وحربا بين الأحزاب .[٤٨]

وإلى هنا كان روسو يردد الرأى البيورتانى أو الكلفنى فى المسرح ، ويقول فى فرنسا عام ١٧٥٨ ما قاله من قبل ستيفن جوسون فى انجلتره عام ١٥٧٩ ، ووليم يرين عام ١٦٣٢ ، وجريمى كوليار عام ١٦٩٨ . ولكن روسو لم يقتصر على التنديد . فهو لم يكن بيورتانيا ؛ ومن ثم دعا إلى الرقص والمراقص تحت رعاية الدولة وإشرافها . وقال إنه ينبغى أن تتوفر أسباب الترفيه العامة ولكن من نوع إجتماعى وصحى ، كالرحلات الخلوية ، والألعاب فى الهواء الطلق ، والمهرجانات ، والاستعراضات (هنا أضاف روسو وصفا نابضا بالحياة لسباق زوارق على بحيرة جنيف .[٤٩]

ويقول لنا روسو أن الخطاب « أصاب نجاحا كبيرا » فقد بدأت باريس

تمل حياة الفساد ؛ ولم يعد هناك لذه فى الانحرافات الخارجة على العرف التى أصبحت هى ذاتها عرفا . فلقد أتخمت المدينة برجال يسلكون مسلك النساء ، ونساء يتحرقن شوقا إلى أن يكن كالرجال . لقد شبعت من الدراما الكلاسيكية وأشكالها الطنانة المتكلفة ورأت حقارة قواد مدام دبومبادور وجنودها أمام جند فردريك الاسبرطيين . وكان الاستماع إلى فيلسوف يمجد الفضيلة تجربة منعشة وسيزداد تأثير « الخطاب » الأخلاقى حتى يشارك هو وكتابات روسو الأخرى فى إحداث عودة للياقة تكاد تكون ثورية فى عهد لويس السادس عشر .

ولم يكن فى وسع الفلاسفة أن يتوقعوا هذا . فالذى أحسوا به فى إعلان روسو هو أنه عمل من أعمال الخيانة ، لأنه هاجمهم فى لحظة خطرهم الأكبر . ففى يناير ١٧٥٩ حظرت الحكومة نهائيا نشر الموسوعة أو بيعها . وحين ندد روسو بأخلاق باريس رماه أخصائه القدامى بالنفاق . وقد تذكروا مطاردته لمدام دودتو ، وحين ندد بالمسرح نوهوا بأنه كتب « كاهن القرية » و « نارسيس » للمسرح ، وأنه كان يختلف إلى المسرح . ورفض سان — لامبير برسالة جافية (١٠ أكتوبر ١٧٦٨) نسخة « الخطاب » التى أرسلها إليه روسو :

« لا أستطيع قبول هدينك ، ولعل لك عذرا — على غير ما أعلم — فى الشكوى من ديدرو ، ولكن هذا لا يعطيك حق إهانته علنا . فأنت لا تجهل طبيعة الاضطهادات التى يعانيها .... ولست أملك يا سيدى إلا أن أقول لك إن هذا العمل الشائن الذى اقترفته صدمنى كثيرا ... كلانا يختلف فى مبادئنا اختلافا أشد من أن يتيح لنا أن ننسجم . فانس أنى موجود ... وأنى أعدك بأن أنسى شخصك ، ولا أذكر عنك شيئا إلا مواهبك . »(٥١)

على أن مدام دينيه حين عادت من جنيف شكرت روسو على النسخة التى بعث بها إليها ، ودعته للعشاء فذهب ، والتقى بسان — لامبير ومدام دودتو آخر لقاء .

ووافاه من جنيف أكثر من عشرة خطابات ثناء . وحظر قضاه جنيف على فولتير عرض أى مسرحيات على أرض جنيف بعد أن شجعهم موقف روسو . ونقل فولتير مواهبه المسرحية إلى تورنيه ، وانتقل هو إلى فرنيه . وأحس

بوجع الهزيمة ، فاتهم روسو بأنه هارب مارق ، وأسف على تردى قطيع « الفلاسفة » الصغير إلى هوة صراع يفنون فيه أنفسهم . وكتب يقول « إن جان ــ جاك السيء السمعة هو يهوذا الجماعة »(٥١) ورد روسو بخطاب (٢٩ يناير ١٧٦٠) إلى الراعى الجنيڤى بول مولتو :

« أتحدثنى عن ذلك الرجل فولتير ؟ لم يلوث اسم ذلك المهرج رسائلك ؟ لقد دمر ذلك التعس وطنى (جنيف) . ولو كان احتقارى له أقل لكرهته أكثر . وأنا لا أرى فى مواهبه العظيمة إلا شيئا مخزيا يضاف إلى خزيه ، ويحط من قدره بسبب الطريقة التى يسخر بها ... إيه أيها المواطنون الجنيفيون ، إنه يكلفكم غاليا جزاء إيوائكم له ! »(٥٢)

وأحزن روسو أن يعلم أن فولتير يخرج التمثيليات فى تورنيه ، وأن كثيرا من المواطنين الجنيفيين يعبرون الحدود إلى فرنسا ليشهدوا هذه الحفلات ــ لا بل ليشارك بعضهم فيها . ووجد استياؤه مبررا آخر لحرب حين طبع خطابه الذى أرسله إلى فولتير عن زلزال لشبونة فى مجلة برلين (١٧٦٠) ، لأن فولتير فيما يبدو أعار المخطوطة فى غير مبالاة لأحد الأصدقاء . فأرسل روسو الآن (١٧ يونيو) إلى فولتير خطابا من أعجب الخطابات فى رسائل هذا العصر الصاخب . قال بعد أن لام فولتير على نشر الخطاب دون إذنه :

« إننى لا أحبك يا سيدى . فلقد آذيتنى أنا تلميذك المتحمس لك أبلغ الأذى . لقد دمرت جنيف جزاء على الملجأ الذى قدمت لك . ولقد نفرت مواطنى من جراء المديح الذى مدحتك به بينهم . وأنت الذى تجعل مقامى فى وطنى شيئا لا أطيقه ، أنت الذى ستضطرنى للموت على أرض غريبة ، محروما من كل تعزيات المحتضرين ، ملقى على كوم من أكوام المهملات فى ازدراء ، بينما يحيط بك كل ما يستطيع إنسان أن يطمع فيه من أسباب التكريم فى وطنى . فأنا باختصار أكرهك ، لأنك هكذا شئت ، ولكنى أكرهك بمشاعر إنسان ما زال فى وسعه أن يحبك لو كنت قد رغبت فى حبى . ولم يبق من جميع المشاعر التى امتلأ بها قلبى نحوك سوى الإعجاب بعبقريتك الرائعة ، وحب

كتاباتك . وإذا كنت لا أكرم فيك غير مواهبك فليس الذنب ذنبى . ولن يوجد قصور أو نقص أبدا فى الاحترام الواجب لها ، ولا فى المسلك الذى يقتضيه ذلك الاحترام . »[٥٣]

ولم يحب فولتير ، ولكنه كان يدعو روسو سرا « المشعوذ » و « المجنون »[٥٤] و « النسناس الصغير » وقد كشف فى رسائله لدالامبير عن نفس لا تقل حساسية وتأججا عن نفس جان — جاك :

« تلقيت رسالة طويلة من روسو . لقد جن جنونا مطبقا ... فهو يهاجم المسرح بعد أن كتب هو نفسه تمثيلية هزيلة رديئة ؛ هو يهاجم فرنسا التى تطعمه ؛ وهو يجد خمسة أضلاع متعفنة أو ستة من برميل ديوجين ويتسلقها لينبحنا ؛ وهو يتخلى عن أصدقائه . ويكتب إلى — إلى ! — أشد ما سود به متعصب الصحائف إهانة ... ولولا أنه قزم حقير لا أهمية له ، انتفخت أوداجه غرورا ، لما كان فى الأمر أذى يذكر ؛ ولكنه أضاف إلى وقاحة خطابه عار التآمر مع متنطعى السوسنيين هنا للحيلولة بينى وبين إقامة مسرح لى فى تورنيه ، أو على الأقل لمنع المواطنين من التمثيل فيه معى . وإذا كان قصده من هذه الحيلة الوضيعة أن يعد لنفسه عودة ظافرة إلى الأزقة الحقيرة التى نشأ فيها ، فذلك فعل وغد ، ولن أصفح عنه ما حييت . ولو أن أفلاطون لعب على لعبة من هذا النوع لانتقمت منه ، فما بالك بتابع خانع لديوجين . إن مؤلف « ألويزا الجديدة » ليس إلا وغدا شريرا . »[٥٥]

فى هذين الخطابين اللذين كتبهما أشهر كاتبين فى القرن الثامن عشر نستشف من وراء تيارات العصر التى يحسبها الناس غير شخصية ، الأعصاب التى اشتد إحساسها بكل لطمة فى الصراع ، والغرور البشرى المشترك الذى تضطرب به أفئدة الفلاسفة والقديسين .

٥ — هلويز الجديدة

إن الكتاب الذى أخطأ فولتير فى تسميته كان طوال ثلاث سنين ملاذا لروسو من أعدائه ، وأصدقائه ، والعالم . بدأه عام ١٧٥٦ وفرغ منه فى

سبتمبر ١٧٥٨ ، وأرسله إلى ناشر فى هولندة ، وظهر فى فبراير ١٧٦١ باسم « جولى ، أو هلويز الجديدة ، رسائل عاشقين جمعها ونشرها ج .ج روسو » . وصياغة الرواية فى شكل رسائل كانت عادة قديمة ، ولكن لعل الذى دعا روسو إلى التصميم عليها هو محاكاته رواية رتشردسن « كلاريسا » .

والقصة بعيدة الاحتمال ولكنها نسيج وحدها . فجولى هى ابنة بارون ديتانج ، وهى فى السابعة عشرة أو نحوها . وتدعو أمها الشاب الوسيم سان ـبرو ليكون معلمها الخاص . ويقع أبيلار الجديد هذا فى غرام هلويز الجديدة ، كما كان يمكن أن تتوقعه أى أم فى دنيا الواقع . ولا يلبث أن يرسل إلى تلميذته رسائل حب حددت اللحن لقرن من القصص الرومانسى :

« إنى لأرتعد كلما تصافحت أيدينا ، ولا أدرى كيف يحدث هذا ، ولكنها تتصافح دوما . وإنى أجفل حالما أحس لمسة أصبعك ، وتأخذنى حمى أو قولى حمى مصحوبة بهذيان فى هذه المتع ؛ وتتخلى عنى حواسى شيئاً فشيئا ، فإذا خرجت هكذا عن طورى فماذا أستطيع أن أقول ، أو أفعل ، وأين أختبىء ، وكيف أكون مسئولا عن سلوكى ؟ »[٥٦] ثم يقترح أن يرحل ولكنه يكتفى بالكلام دون الفعل :

« وداعا أذن ياجولى ، المفرطة الفتنة . . . غداً سأكون رحلت إلى الأبد . ولكن ثقى أن غرامى العنيف الطاهر بك لن ينتهى إلا بانتهاء حياتى ، وأن قلبى المفعم بهذا المخلوق الملائكى ، لن يهبط بنفسه إلى إفساح مكان فيه لحب ثان ، وأنه سيوزع كل ولائه المستقبل بينك وبين العفة ، وأنه لن يدنس لهيب آخر المذبح الذى عبدت عليه جولى[٥٧]» .

وقد تبتسم جولى لهذا التعبد ، ولكن فيها من الأنوثة ما يمنعها من اقصاء مثل هذا الكاهن المبهج عن المذبح . فتطلب إليه أن يؤجل قراره . فالاتصال الكهربى بين الذكر والأنثى قد أحدث بها على أى حال اضطرابا مماثلا ، وسرعان ما تعترف بأنها هى أيضاً قد أحست باللذغة الغامضة : « منذ أول يوم التقينا فيه تشربت السم الذى يسرى الآن فى حواسى

وعقلى ، شعرت به فورا وعيناك ، وعواطفك ، وحديثك ، وقلمك المذنب — كلها تزيد كل يوم أذاه [٥٨] . » ومع ذلك يتعهد بألا يطلب مطلبا أشد إثماً من قبلة « كونى عفيفة وإلا احتقرت ، وسأكون جديراً بالإحترام وإلا عدت كما كنت ، ذلك هو الأمل الوحيد الباقى لى ، والذى يفضل الأمل فى الموت » . ويوافق سان — برو على أن يجمع بين الهذيان والعفة ، ولكنه يعتقد أن هـــذا يتطلب معونة خارقة من السماء .

« أيتها القرى السماوية ، . . . انفخى فى روحا تطيق السعادة العظمى ! أيها الحب الإلهى ! يا روح وجودى ، أواه ، اسندنى لأننى أوشكت على السقوط تحت وطأة الوجد ! . . . أواه كيف أحتمل سيل السعادة المتدفق الذى يفيض به قلبى ؟ كيف أطرد هواجس عاشقة خائفة ؟[٥٩] ، وهكذا طوال ٦٥٧ صفحة . فإذا بلغنا صفحة ٩١ قبلته . والكلمات تقصر عن وصف « حالى بعد ذلك بلحظة ، حين شعرت — إذ ارتعشت يداى — برعدة رقيقة — وشفتاك المعطرتان — شفتا جولى حبيبتى — تضغطان شفتى ، وأنا بين ذراعيها ! وبأسرع من البرق انطلقت من كيانى نار مباغتة [٦٠] ، فإذا وصلنا الرسالة التاسعة والعشرين وجدنا أنه أغواها ، أو أنها أغوته . ويهيم هو فى عوالم من النشوة ، ولكنها تحسب كل شىء قد ضاع . « إن لحظة غفلة واحدة قد أسلمتنى إلى تعاسة أبدية . لقد سقطت فى وهدة العار التى لامخرج منها [٦١] .

وتموت أم جولى كمدا حين تعلم بأن بكارتها فضت . ويقسم البارون أن يقتل سان — برو ، فيخرج هذا فى رحلة بحرية حول الأرض . وتتزوج جولى فولمار ، وهو روسى كريم المولد ، متقدم السن ، تكفيرا عن ذنبها وطاعة لأبيها ، ولكنها تظل تراسل سان — برو خفية ، وتشعر نحوه بعاطفة أقوى من حبها الواجب عليها لزوجها . ويدهشها أن تجد فولمار إنساناً طيباً ، وفيا ، حريصا على راحتها ، منصفا كريما

مع الجميع ، وذلك رغم إلحاده . وفى رسالة كتبتها لسان — برو تؤكد له أن الرجل والمرأة قد يجدان الرضى فى « زواج المصلحة » ولكنها لن تعرف السعادة الكاملة أبدا . فانحرافها قبل زواجها يثقل ذاكرتها وأخيرا تعترف لزوجها بلحظة الإثم تلك . ويقول أنه علم بها ، وصمم على ألا يذكرها أبدا . ويخبرها بأنه لم يكن إثماً قط ، وتأكيدا لغفرانه لها يدعو سان — برو للحضور والإقامة مع الأسرة معلما خاصاً لطفلهما ، ويحضر سان — برو ؛ ويؤكد لنا المؤلف أن الثلاثة يعيشون معاً فى وفاق حتى يفرق بينهم الموت . ويغيب الزوج العجيب أياما . وتخرج جولى وسان — برو للتجديف على بحيرة جنيف ، ويعبران إلى سافوى ، ويريها الصخور التى كتب عليها اسمها فى منفاه ، ويبكى ؛ وتمسك بيده المرتعشة ، ولكنهما يعودان بريئين من الأثم إلى بيتها فى كلارنس فى اقليم فو [٦٢] .

ويعجبان كيف يمكن لفولمار أن يكون بهذه الطبيعة دون إيمان دينى . ويفسر سان — برو هذه الظاهرة الشاذة ، وهو كجولى بروتستنتى متمسك بدينه :

« ان فولمار الذى أقام فى أقطار كاثوليكية رومانسية لم يغره ما خبره من إيمان أهلها . بأن يرى فى المسيحية رأياً أفضل . فقد رأى أن مذهبهم لايتجه إلا لمصلحة كهنتهم ، وهو يتألف بجملته من حركات مثيرة للسخرية ورطانة بألفاظ لامعنى لها . ولاحظ أن ذوى الفطرة السليمة والأمانة مجمعون على رأيه ، وأنهم لايتحرجون من الجهر برأيهم ، لا بل أن القساوسة أنفسهم فى الخفاء كانوا يهزأون سراً بما يعلمون ويثبتون فى الأذهان علانية ، ومن ثم فكثيراً ما أكد لنا أنه بعد أن أنفق كثيراً من الوقت والجهد فى البحث ، لم يلتق قط بأكثر من ثلاثة قساوسة يؤمنون بالله [٦٣] » . ويضيف رسو فى حاشية ، معاذ الله أن أوافق على هذه التأكيدات القاسية الطائشة ! ومع ذلك يذهب فولمار بانتظام إلى

الخدمات الدينية البروتستنتية مع جولى ، بدافع من احترامه لها ولجيرانه . وترى جولى وسان — برو فيه « أغرب اللامعقول » — إنسانا يفكر تفكير ملحد ويسلك مسلك مسيحى[٦٤] » .

وهو لايستحق اللطمة الأخيرة ، ذلك أن جولى تعهد إلى فولمار وهى على وشك الموت بحمى أصابتها وهى تنقذ ابنها من الغرق — بخطاب غير مختوم يعلن لسان — برو أنه كان على الدوام حبها الوحيد . وفى وسعنا أن نفهم دوام ذلك الحب الأول ، ولكن لم تجزى طول وفاء زوجها وثقته بها بمثل هذا الرفض القاسى وهى على فراش الموت ؟ أن هذا لايكاد يتفق والنبل الذى اضفاه المؤلف على خلق جولى .

ومع ذاك فهى من أعظم اللوحات فى القصص الحديث. وقد استلهمها روسو من وحى ذكرياته الخاصة رغم أن (كلاريسا) رتشردسن أوحت بها فى أغلب الظن ، الفتاتان اللتان قادا جواديهما عبر النهر فى آنسى ، والذكريات التى احتفظ بها فى اعزاز لمدام دفاران حين كانت تبسط عليه حمايتها فى سنوات صباه ، ثم لمدام دودتو ، التى أشعرته بفيض الحب حين وقفت سداً أمام شهوته ، وبالطبع ليست جولى واحدة من هاتين المرأتين ، ولعلها ليست أى امرأة التقى بها روسو طيلة حياته ، بل مثالا مخلقا من أحلامه . وقد أفسد الصورة اصرار روسو على جعل شخوصه كلها تقريباً تتكلم كروسو ، فجونى حين تزيدها الأمومة عمقا تغدو حكيمة من الحكماء ، فتطيل الحديث فى كل شيء من التدبير المنزلى إلى الاتحاد الصوفى بالله . وهى تقول لابد أن نفحص صحة هذه الحجة ، ولكن أى امرأة جديرة بالحب نزلت يوما ما إلى مثـل هذه التفاهة .

أما سان — برو فهو بالطبع أشبه الشخوص بروسو ، حساس لكل مفاتن النساء ، تواق للركوع عند أقدامهن التى يحلم بها ، ويسكب عبارات الولاء والحب البليغة التى رددها فى وحدته . ويصفه روسو بأنه لا يفتأ

يأتى عملا مجنونا ثم يحاول أن يثوب إلى رشده (٦٥). وسان — برو إنسان متزمت أشد التزمت باليقاس إلى لفليس الوغد السافر كما صوره رتشردسن. وهو الآخر لأبد أن ينطق بلسان روسو ، فهو يصف باريس بأنها دوامة من الشرور — غنى فاحش ، وفقر مدقع ، وحكومة عاجزة ، وهواء فأسد ، وموسيقى رديئة ، وأحاديث تافهة ، وفلسفة باطلة ، وانهيار كامل تقريباً للدين ، والفضيلة ، والزواج ، وهو يردد مقال روسو الأول عن صلاح الإنسان الفطرى وتأثيرات الحضارة المفسدة المحطة ، ويهنىء جولى وفولمار على أيثارهما حياة الريف الهادئة الصحية فى كلارنس .

أما فولمار فأكثر الأشخاص أصالة فى معرض روسو . فمن كان النموذج الذى حاكه المؤلف على غراره ؟ لعله دولباخ ، « الملحد اللطيف » ، والبارون الفليسوف ، والمادى الفاضل ، والزوج الوفى لزوجة واحدة ومن بعدها لأختها . أو لعله سان — لامبير ، الذى صدم روسو بتبشيره بالإلحاد ، ولكنه صفح عنه لمغازلته خليلته . ويعترف روسو صراحة باستخدامه النماذج الأصلية الحية والذكريات الشخصية :

« إن قلبى المفعم بما وقع لى ، والذى لم يزل جياشا بالكثير من الأنفعالات العنيفة ، أضاف الشعور بآلامه إلى الأفكار التى أوحى إلى بها التأمل ... وعلى غير وعى منى وصفت المواقف التى كنت فيها آنئذ ، ورسمت صوراً لجريم ، ومدام دبينيه ، ومدام دودتو ، وسان — لامبير ، ولشخصى (٦٦) » .

وخلال لوحات الأشخاص هذه عرض روسو جوانب فلسفته كلها تقريباً . فأعطانا صورة مثالية للزواج السعيد ، ولضيعة تدار بكفاية ، وعدالة ، ورحمة ، ولأطفال يربون ليكونوا مزيجا مثاليا من الحرية والطاعة ، ومن ضبط النفس والذكاء . وأستبق الحجج التى سيوردها فى كتابه « إميل » : أن يوجه التعليم أولا لتربية البدن ليكون صحيحا ، ثم لتربية الخلق ليعود النظام الصارم ، وبعد ذلك فقط لتربية الذهن ليعود الجدل العقلى. تقول جولى

« إن السبيل الوحيد لجعل الأطفال طيعين ليس سبيل الجدل العقلي معهم، بل إقناعهم بأن الجدل العقلي فوق سنهم[٦٧] . وينبغي ألا نلجأ إطلاقا للجدل العقلي، أو ألا يكون هناك أى تعليم عقلي ، قبل سن البلوغ . وحرصت القصة حرصاً شديداً على مناقشة الدين . فترى إيمان جولي يغدو الأداة لخلاصها ، وقد ألهمها الاحتفال الديني الذى قدس زواجها إحساسا بالتطهر والوفاء . ولكنه إيمان بروتستنتي خالص ذلك الذى يشيع فى الكتاب . فسان — برو يسخر مما يبدو له من نفاق القساوسة الكاثوليك فى باريس ؛ ويندد فولمار بعزوبة الكهنة لأنها قناع يخفى وراءه الفجور ، ويضيف روسو بشخصه هذه العبارة : « إن فرض العزوبة على جماعة كبيرة مثل قساوسة الكنيسه الكاثوليكية الرومانية ليس لمنعهم من أن يكون لهم زوجات ، بقدر ما هو لأمرهم بأن يقنعوا بزوجات غيرهم من الرجال[٦٨] » . ويصرح روسو بهذه المناسبة بتأييده للتسامح الديني ، ويبسطه حتى على الملحدين ، « أن المؤمن الحقيقي لا يتعصب ولا يضطهد غيره . ولو كنت قاضيا ؛ ولو قضى القانون بعقوبة الموت على الملحدين ؛ لبدأت بحرق كل مبلغ يشى بإنسان آخر ، لأنه هو نفسه ملحد[٦٩] » .

وكان للقصة تأثير بالغ فى تنبيه أوربا لمفاتن الطبيعة وروائعها . ففى فولتير ؛ وديدرو ، ودالامبير ، لم تشجع حمى الفلسفة وحياة الحضر الأحساس المرهف بجلال الجبال وجمال ألوان السماء . أما روسو فقد تميز بولادته فى أحضان أروع مناظر أوربا وقعا فى النفوس . وكان قد مشى من جنيف متجولا فى سافوى عبر الألب إلى تورين ، ومن تورين إلى فرنسا؛ وأستمتع بمشاهد الريف وأصواته وعبيره ؛ وأحس بكل شروق شمس كأنه إنتصار الأله على الشر والشك . وقد تصور توافقا صوفيا بين حالات مزاجه والمزاج المتغير للأرض والهواء ؛ وعانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة ، وكل ورقة عشب . وتسلق الألب إلى نصف أرتفاعها ، ووجد نقاء فى الهواء ، خيل إليه أنه يطهر أفكاره ويجلوها . وقد وصف هذه التجارب بأحساس وحيوية جعلا من تسلق الجبال ، لاسيما فى سويسرة ، رياضة من أكبر رياضات أوربا .

ولم يحدث من قبل فى الأدب الحديث أن ظفر الوجدان ، والعاطفة المشبوبة،والحب الرومانسى ، بمثل هذا العرض والدفاع المستفيضين البليغين. فلقد أعلن روسو ، فى تمرده على عبادة العقل من بوالو إلى فولتير ، مكانة الوجدان العليا وحقه فى أن يسمع فى ترجمة الحياة وتقييم القصائد ، وبرواية « هلويز الجديدة » أعلنت الحركة الرومانسية تحديها للعصر الكلاسيكى . وقد سبقتها بالطبع لحظات رومانسية حتى فى عز الكلاسيكية ، مثال ذلك أن أوتوريه دورفيه داعب الحب الريفى فى قصته « لاستريه » (١٦١٠ — ١٦٢٧) ، وأن الآنسة سكوديرى أسهبت فى وصف الغراميات فى قصتها « أرطمين ، أو قورش العظيم » (١٦٤٩ — ١٦٥٣) ، كذلك زاوجت مدام دلا فييت بين الحب والموت فى قصتها « أميرة كليف » (١٦٧٨) ، وأدخل راسين هذا الموضوع فى مسرحيته « فيدر » (١٦٧٧) ، وهى قمة العصر الكلاسيكى ، ونحن نذكر كيف ورث روسو الروايات الغرامية القديمة عن أمه ، وقرأها مع أبيه . أما جبال الألب فان البرشت فون هاللر كان قد تغنى بجلالها (١٧٢٩) ، كذلك تغنى جيمس طومسن بجمال الفصول ورهبتها (١٧٢٦ — ١٧٣٠) . ولا بد أن جان — جاك قرأ قصة بريفوست « مانون لسكو » (١٧٣١) ، وأحاط علما برواية رتشرد سن « كلاريسا » فى ترجمة بريفوست (١٧٤٧ — ١٧٤٨) (لأنه كان يقرأ الأنجليزية بصعوبة) . ومن قصة الإغواء تلك التى طالت إلى ألفى صفحة (ولم تكتمل بعد) إقتبس شكل الرسائل فى الرواية لصلاحيته للتحليل النفسى ، وكما دبر رتشرد سن لكلاريسا نجية تدعى الآنسة هاو ، كذلك دبر روسو لجولى نجية هى أبنة عمها كلير . ولاحظ روسو فى غيظ أن ديدرو نشر تقريظا حماسيا لرتشردسن (١٧٦١) عقب نشر جولى ، فحجب بذلك سناء قصته جولى .

ولا تقل رواية جولى عن كلاريسا أصالة ومآخذ ، وهى تسمو عنها كثيراً فى أسلوبها والروايتان غنيتان فى شطحات الخيال مثقلتان بالمواعظ . ولكن فرنسا ، التى تبز العالم أسلوبا ، لم تر قط اللغه الفرنسية تتخذ مثل هذا اللون ، والحرارة ، والنعومة ، والإيقاع ، فروسو لم يكن مجرد مبشر

بالوجدان ، إنما كان يملكه ، فكل ما يمسه مشرب بالحساسية والعاطفة . وقد نبتسم لنشواته ولكننا نجد أن ناره تدفئنا . وقد ننكر الخطب المقحمة ونمر بها مرور الكرام ، ولكنا نمضى فى القراءة ، وبين الحين والحين تتجدد حياة القصة بمشهد شعر به المؤلف شعورا حادا . كان فولتير يفكر بالآراء ويكتب بالأبجرامات ، أما روسو فكان يبصر بالصور ويؤلف بالأحاسيس . ولم تكن عباراته ووقفاته بريئة من الصنعة ، فقد اعترف بأنه كان يقلبها وهو فى فراشه حين تقصى النوم عن جفنيه عاطفة الفنان المشبوبة[٧٠] . يقول كانط « لأبد من أن أقرأ روسو إلى أن يكف جمال عبارته عن فتنتى ، وعندها فقط أستطيع أن أفحصه فى روية وتعقل[٧١] » .

ولقيت جولى النجاح فى أعين الجميع إلا الفلاسفة . فوصفها جريم بأنها تقليد هزيل لكلاريسا ، وتنبأ بأن النسيان سيطوبها سريعا[٧٢] . وقال فولتير وهو يهدر غضبا (٢١ يناير ١٧٦١) لا تزدنى حديثا عن رواية جان — جاك من فضلك ، فلقد قرأتها لشدة أسفى ، ولشدة أسفه. لو كان لدى من الوقت ما يتسع لأبداء رأيى فى هذا الكتاب السخيف[٧٣] . وبعد شهر أفصح عن رأيه فى كتابه « رسائل حول هلويز الجديدة » الذى نشر بأسم مستعار . فنبه إلى الأخطاء اللغوية ، ولم تبدر منه أى إشارة تدل على تقديره لوصف روسو للطبيعة — وأن كان سيقلد جان — جاك بعد حين بتسلقه ربوة ليتعبد للشمس المشرقة . وتبينت باريس قلم فولتير ، وحكمت بأن « الشيخ » عضته الغيرة بأنيابها .

وإذا ضربنا صفحا عن هذه الوخزات ، فأن روسو إبتهج بالأستقبال الذى لقيه أول عمل مطول له . يقول ميشليه « لم يعهد فى تاريخ الأدب كله نجاح عظيم كهذا[٧٤] . » وظهرت الطبعة تلو الطبعة ، ولكن المطبوع كان أقل كثيراً من الطلب ووقف الجمهور فى طوابير أمام المكتبات لشراء الكتاب ، وكان القراء الملهوفون يدفعون أثنى عشر سوا فى الساعة ليستعيروه ، وقراء النهار يؤجرونه لغيرهم يقرؤنه فى الليل[٧٥] . وروى روسو فى أغتباط أن نبيلة طلبت مركبتها وقد تهيات للذهاب إلى مرقص فى الأوبرا ، وشرعت تقرأ

جولى خلال ذلك ، وشوقتها القصة تشويقا أغراها بالمضى فيها حتى الرابعة صباحا بينما الخادمة والجياد فى أنتظارها [٧٦] . وقد عزا أنتصاره إلى اللذة التى يجدها النساء فى قراءة قصص الغرام ، ولكن كان هناك أيضا نساء ملان حياتهن خليلات ، وتقن إلى أن يكن زوجات ، وأن يكون لاطفالهن آباء . وتلقى روسو مئات الخطابات فى مونمورنسى يشكره فيها أصحابها على كتابه ، وكثر عدد النساء اللائى عرضن عليه حبهن حتى أنتهى به خياله إلى أنه « ما من امرأة فى المجتمع الراقى لم أكن لألقى التوفيق فى الأتصال بهـــا لو حاولته [٧٧] » .

وكان من الطريف أن يكشف إنسان عن سريرته كشفا كاملا كما فعل روسو خلال سان — برو وجولى ، وليس هناك أكثر طرافة وإمتاعا من نفس إنسان تتجرد أمام الناظرين ولو تجردا جزئيا أو لاشعوريا . تقول مدام دستال « هنا مزقت كل أقنعة القلب [٧٨] » . وبدأ الآن سلطان الأدب الذاتى ، تلك السلسة الطويلة الممتدة إلى زماننا ، من أفشاءات الذات ، من القلوب المحطمة فى صفحات مطبوعة ، من « النفوس الحمياة » التى تسبح فى المأساه جهارا نهارا . وفشا بين الناس الإفصاح عن حرارة العاطفة ، والأعراب عن الأنفعال والشعور ، لا فى فرنسا وحدها بل فى إنجلترة وألمانيا أيضاً . وبدأ يتلاشى الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب ضبط النفس ، والنظام ، والعقل ، والشكل ، وأوشكت دولة « الفلاسفة » أن تدول . لقد أصبح القرن الثامن عشر بعد عام ١٧٦٠ ملكا لروسو [٧٩] .

* * *

الفصل السابع

روسو الفيلسوف

---

١ – العقد الاجتماعى

قبل نشر « هلويز الجديدة » بشهرين كتب روسو إلى مسيو لينبس (١١ ديسمبر ١٧٦٠) يقول :

« لقد طلقت حرفة الكاتب إلى الأبد . وبقيت خطيئة قديمة يجب التكفير عنها فى كتاب مطبوع ، وبعدها لن يسمع الجمهور منى أبداً . ولست أعرف حظاً أسعد من أن يكون الإنسان مجهولاً إلا من أصدقائه .... ومنذ الآن سيكون نسخ الموسيقى شاغلى الوحيد [1] » .

ثم كتب ثانية فى ٢٥ يوليو ١٧٦١ :

« ظللت عاقلا إلى الأربعين . ثم تناولت القلم ، وهأنذا أضعه قبل أن أبلغ الخمسين ، وأنا العن فى كل يوم من أيام حياتى ذلك اليوم الذى دفعنى فيه غرورى الأحمق إلى تناوله ، والذى رأيت فيه سعادتى ، وراحتى ، وصحتى ، كلها تتطاير هباء دون أمل فى أستعادتها ثانية [2] » .

أكان هذا منه تظاهرا ؟ ليس بالضبط . صحيح إنه فى ١٧٦٢ نشر كتابيه « فى العقد الاجتماعى » و « إميل » ، ولكنهما كانا قد اكتملا قبيل ١٧٦١ ، وكانا « الخطيئة القديمة التى يجب التكفير عنها فى كتاب مطبوع » ، وصحيح إنه بعد ذلك كتب ردودا على رئيس أساقفة باريس ، وعلى مجمع الكنائس الجنيفى ، وعلى طلبات من كورسيكا وبولندة بأن يقترح عليهما دستورين ، ولكن هذه المؤلفات كانت مؤلفات مناسبات ، دعت إليها أحداث غير

متوقعة . وقد نشرت « الأعترافات » و « الحوارات » و « أحلام جوال منفرد » بعد موته . وهكذا التزم أساسا بتعهده الجديد . ولا عجب أن يشعر فى ١٧٦١ أنه قد أرهق ونضب ، لأنه كان قد ألف فى خمس سنوات ثلاثة أعمال كبرى ، كان كل منها حدثا فى تاريخ الأفكار .

ومنذ عام ١٧٤٣ يوم كان سكرتيرا للسفير الفرنسى فى البندقية ، هدته ملاحظتة لحكومة البندقية بالقياس إلى الحكومتين الجنيفية والفرنسية إلى تخطيط رسالة هامة فى المؤسسات السياسية . وكان « المقالان » شرارتين بعثهما تلك النار ، ولكنهما كانا محاولتين متعجلتين لإثارة الأنتباه بالمبالغة ، ولم تنصف واحدة منهما فكره المتطور . وراح خلال ذلك يدرس أفلاطون ، وجروتيوس ، ولوك ، وبوفندورف . ولم تكتمل قط الرائعة الأدبية التى حلم بها . فروسو لم يوهب الذهن المنظم ، والإرادة الصابرة ، والطبع الهادئ الذى يتطلبه مشروع كهذا يقتضيه الأستدلال العقلى لا الوجدان فقط ، وإخفاء العاطفة لا إعلانها ، وكان مثل هذا الإنكار للنفس فوق طاقته . لقد كان هجرانه للتأليف أعترافا منه بالهزيمة . ولكنه أعطى العالم عام ١٧٦٢ قطعة رائعة من مخططه فى ١٢٥ صفحة نشرت بأمستردام تحت عنوان « فى العقد الاجتماعى ، أو مبادىء القانون السياسى » .

وكلنا يعرف الصيحة الجريئة التى استهل بها الفصل الأول « ولد الإنسان حرا وهو فى كل مكان مكبل بالأغلال » وقد افتتح روسو كتابه بمبالغة مقصودة ، لأنه علم بأن للمنطق سلطانا منوما قويا ، وقد أصاب فى ضربه على هذه النغمة العالية ، لأن هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله . وافترض روسو هنا — شأنه فى « المقالين » — وجود « حالة طبيعية » بدائية لم تكن فيها قوانين ، واتهم الدولة القائمة بتدمير تلك الحرية ، واقترح بديلا عنها « ايجاد شكل من المجتمع يدافع عن شخص كل عضو فيه وعن متاعه ويحميهما بكل ما أوتى ذلك المجتمع من قوة مجموعه ، مجتمع يظل الإنسان فيه رغم اتحاده مع الجميع يطيع نفسه فقط ، ويبقى حرا كما كان من قبل ... تلك هى المعضلة الأساسية التى يقدم لها العقد الاجتماعى الحل [٣] » .

يقول روسو أن هناك عقدا اجتماعياً ، لا كتعهد من المحكومين باطاعة الحاكم ، كما جاء فى كتاب هوبز (اللوياثان) « الوحش » ، بل كاتفاق الأفراد على أن يخضعوا رأيهم ، وحقوقهم ، وسلطاتهم لحاجات ورأى مجتمعهم ككل . وكل شخص يدخل ضمنا فى مثل هذا العقد بقبوله حماية القوانين العامة . والسلطة العليا فى أى دولة لا تستقر فى أى حاكم — فرداً كان أو جماعة — بل فى « الإرادة العامة » للمجتمع ، وتلك السيادة لايمكن التخلى عنها أبدا وإن جاز تفويضها جزئيا إلى حين .

ولكن ما هذه « الإرادة العامة » ؟ أهى إرادة جميع المواطنين ، أم إرادة الأغلبية فقط ؟ ومن الذين يعتبرون مواطنين ؟ أنها ليست إرادة الجميع ، لأنها قد تناقض كثيرا من الإرادات الفردية . ولا هى دائماً إرادة الأغلبية الذين يعيشون (أو يصوتون) فى لحظة بعينها ، بل هى إرادة المجتمع باعتباره صاحب حياة ووافع مضافين إلى حيوات وإرادات الأعضاء الأفراد . (وروسو ، كمفكر واقعى من العصر الوسيط ، ينسب للجماعة مجتمعة ، أو للفكرة العامة ، واقعا بالإضافة إلى واقع أعضائها الأفراد . فالإرادة العامة أو « روح الجماعة » يجب أن تكون الصوت المعبر لا عن المواطنين الأحياء فحسب ، بل الأموات أو الذين لم يولدوا بعد ، ومن ثم فالذى يعطيها طابعها ليس هو الإرادات الراهنة فحسب ، بل تاريخ الجماعة الماضى وأهدافها المستقبلة . وما أشبهها بأسرة عريقة تفكر فى نفسها على أنها واحدة على مر الأجيال ، وتكرم أسلافها ، وتحمى أخلاقها — (بمعنى أن أباً من الآباء قد يدفعه التزامه قبل حفدته الذين لم يولدوا بعد إلى مناقضة رغبات أبنائه الأحياء ، وأن سياسيا ما قد يشعر بأنه ملتزم بالتفكير لابلغة انتخاب واحد بل أجيال(*) كثيرة .) ومع ذلك فان (صوت الأغلبية ملزم دائما للباقين جميعاً[٤]) . ومن له حق التصويت ؟ كل مواطن[٥] . ومن المواطن ؟ واضح أنه ليس كل بالغ ذكر . وروسو غامض جدا فى هذه النقطة ، ولكنه يمتدح دالامبير لتفريقه بين

(*) العبارة المحتواة بين القوسين تفسير اجتهادى وليست واردة صراحة فى روسو .

« طبقات الناس الأربعة ... الذين يسكنون مدينتنا (جنيف) ، وطبقتان من هؤلاء فقط تؤلفان الشعب . ولم يفهم كاتب فرنسي آخر ... المعنى الحقيقي لكلمة المواطن [٦] .

يقول روسو أن القانون ، فى الحالة المثالية ، ينبغى أن يكون التعبير عن الإرادة العامة . فالإنسان بفطرته يغلب عليه الخير ، ولكن له غرائز يجب التحكم فيها ليصبح المجتمع أمراً ممكنا . وليس العقد الاجتماعى تمجيد « حالة الطبيعة » فروسو يتكلم لحظة كما يتكلم لوك أو مونتسكيو لا بل فولتير :

« ان الانتقال من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية يتمخض عن تغير ملحوظ جداً فى الإنسان ، لأنه يحل القانون محل الغريزة فى سلوكه ، ويضفى على أفعاله ، الفضيلة التى كانت تعوزها من قبل . ومع أنه فى هذه الحالة (المدنية) يحرم نفسه من بعض المنافع التى تلقاها من الطبيعة . إلا أنه يكسب نظير ذلك منافع أخرى عظيمة جداً ؛ فقدراته تحفر حفراً شديداً وتطور تطويراً كبيراً ، وأفكاره توسع كثيراً وروحه كلها تسمو سموا عظيما . ولولا أن مساوىء حالته الجديدة كثيراً ما تهبط به إلى مستوى أدنى من ذلك الذى تركه ، لكان عليه أن يبارك على الدوام تلك اللحظة السعيدة التى نقلته من حالته الأولى إلى غير رجعه ، والتى جعلته كائنا . ذكياً وإنسانا بدلا من أن يظل حيوانا غبياً عديم الخيال [٧] .

وهكذا نجد روسو (الذى تكلم يوما ما كما يتكلم فوضوى لا يفلسف كلامه تماما) يناصر بكليته قداسة القانون ، إذا عبر القانون عن الإرادة العامة . فإذا لم يتفق فرد ما كما يحدث فى حالات كثيرة -- مع تلك الإرادة كما يعبر عنها فى القانون ، حق للدولة إكراهه على الخضوع [٨] . وليس هذا انتهاكا للحرية بل صيانة لها ، حتى للفرد المقاوم ، لأنه بفضل القانون وحده يستطيع الفرد فى الدولة المدنية أن يتمتع بتحرره من العدوان ، والسرقة ، والاضطهاد ، وتشويه السمعة ، وعشرات الشرور الأخرى . ومن ثم فإن المجتمع بإكراهه الفرد على طاعة القانون إنما « يكرهه على أن يكون حراً » ف.

الواقع [٩] . وهذه هي الحالة على الأخص في الجمهوريات ، لأن «طاعة القانون الذي نضعه لأنفسنا هي الحرية » [١٠] .

والحكومة جهاز تنفيذي تفوض فيه الإرادة العامة مؤقتا بعض سلطاتها . وينبغي أن تكون فكرتنا عن الدولة لا على أنها الحكومة فقط ، بل الحكومة ، والمواطنون ، والإرادة العامة أو روح الجماعة . والدولة تكون جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى إعتبار الملكية جمهورية . أما إذا كانت الملكية مستبدة — أي إذا كان الملك يضع القوانين وينفذها — فليست هناك جمهورية أو دولة ، بل طاغية يحكم عبيدا . ومن ثم رفض روسو الانضمام إلى أولئك الفلاسفة الذين امتدحوا « الاستبداد المستنير » — استبداد فردريك الثاني أو كاترين الثانية سبيلا لدفع الحضارة والإصلاح قدما . وكان رأيه إن الشعوب التي تعيش في أجـــواء قطبية أو مدارية قد تحتاج إلى الحكم المطلق حفاظا على الحياة والنظام ، [١١] أما في المناطق المعتدلة فيحسن المزج بين الارستقراطية والديمقراطية . والارستقراطية الوراثية « اسوأ الحكومات قاطبة » ، والارستقراطية الانتخابية أفضلها [١٢] ، أي أن أفضل حكومة هي تلك التي تضع القوانين وتنفذها فيها أقلية من الرجال ينتخبون دوريا لتفوقهم الفكري والخلقي :

أما الديمقراطية بوصفها حكما مباشرا بواسطة الشعب كله فقد بدت لروسوا مستحيلة .

« لو أخذنا هذا اللفظ بمعناه الدقيق لم نجد قط ديمقراطية حقيقية ، ولن توجد أبداً هذه الديمقراطية . فمما يناقض النظام الطبيعي أن تكون الكثرة حاكمة والقلة محكومة . ومما لا يمكن تصوره أن يظل الناس مجتمعين بصفة مستمرة ليتفرغوا للشئون العامة ، وواضح أنهم لايستطيعون إنشاء لجان لهذا الغرض دون تغيير في شكل الحكومة » .

ثم كم من الظروف التي يصعب الجمع بينها تفترض لهذه الحكومة ؟

أولاً دولة صغيرة جداً يمكن جمع الشعب فيها عاجلا ، ويمكن لكل مواطن فيها أن يعرف سائر المواطنين بسهولة ؛ ثانياً ، البساطة التامة فى العادات ، منعاً لتكاثر الأعمال وإثارة المشاكل الشائكة ، ثم قدر كبير من المساواة فى الرتب والثروات بدونه لا تستطيع المساواة فى الحقوق والسلطة البقاء طويلا ؛ وأخيراً قلة الترف أو انعدامه ، لأن الترف مفسدة للأغنياء والفقراء جميعاً — للأغنياء بالاقتناء ، وللفقراء بالاشتهاء . . وهذا هو ماحدا كاتباً شهيراً (مونتسكيو) إلى اعتبار الفضيلة المبدأ الأساسى للجمهوريات ، لأن هذه الظروف كلها لا يمكن توافرها بغير الفضيلة . . ولو كان هناك شعب من الآلهة لكانت حكومة ديمقراطية أما البشر فليست هذه الحكومة البالغة الكمال مما يناسبهم[١٣] .

وقد تغرى هذه الفقرات بسوء التفسير . فروسو يستخدم لفظ «الديمقراطية» بمعنى ندر أن ينسب له فى السياسة أو التاريخ ، وهو أنها حكومة تشرع فيها كل القوانين بواسطة الشعب كله المجتمع فى مجالس قومية . والواقع أن «الارستقراطية الانتخابية» التى فضلها هى ما يجب أن نسميه الديمقراطية النيابية — أى الحكومة التى يتولاها موظفون يختارهم الشعب لما يفترض فيهم من صلاحية عليا . على أن روسو يرفض الديمقراطية النيابية على أساس أن الممثلين أو النواب سرعان مايشرعون لمصلحتهم لا للخير العام . « أن الشعب الإنجليزى يعتبر نفسه حراً ولكنه يخطىء بذلك خطأ فاحشا ؛ فهو حر فقط خلال انتخاب أعضاء البرلمان ؛ وما إن يتم انتخابهم حتى تسيطر العبودية على الشعب فلا يعود له وزن »[١٤] . فالممثلون يجب أن ينتخبوا ليشغلوا المناصب الإدارية والقضائية لا ليشرعوا ، ويجب أن تشرع جميع القوانين بواسطة الشعب فى جمعية عامة ، وأن يكون لتلك الجمعية سلطة إقالة الموظفين المنتخبين[١٥] . ومن ثم وجب أن تكون الدولة المثالية من الصغر بحيث تسمح لجميع المواطنين بالإجتماع مراراً كثيرة . « وكلما اتسعت الدولة تقلصت الحرية »[١٦] .

أكان روسو اشتراكيا ؟ إن «المقال» الثانى نسب جميع رذائل الحضارة إلى إقرار الملكية الخاصة ، ولكن حتى ذلك المقال رأى أن هذا النظام أعمق

جذورا فى البنيان الاجتماعى من أن يتيح القضاء عليه دون ثورة فوضوية مدمرة .
« والعقد الاجتماعى » يسمح بالملكية الخاصة بشرط رقابة الجماعة ، فيجب أن تحتفظ الجماعة بكل الحقوق الأساسية، ولها أن تستولى على الأملاك الخاصة لخير المجتمع ، ويجب أن تحدد أقصى مايسمح للأسرة الواحدة بتملكه [١٧] .
ولها أن تؤمن على توريث الملكية ، ولكن إذا رأت الثورة تنحو إلى تركز ممزق فلها أن تستخدم ضرائب التركات لإعادة توزيع الثروة والتخفيف من عدم المساواة الإجتماعى والإقتصادى . « يجب أن يتجه التشريع دائماً إلى الحفاظ على المساواة بالضبط لأن قوة الأشياء تتجه دائماً إلى القضاء عليها [١٨] .
ومن أهداف « العقد الإجتماعى » أن يصبح الأفراد الذين قد يكونون مختلفين قوة أو ذكاء متساوين فى الحقوق الإجتماعية والقانونية [١٩] » . ويجب أن تفرض الضرائب العالية على الكماليات . « ان الحالة الاجتماعية لاتفيد الناس إلا إذا ملك كل فرد شيئاً ولم يملك أحد فوق ما ينبغى [٢٠] » . ولم يورط روسو نفسه فى القول بالجماعية ، ولا خطرت بباله قط (دكتاتورية البرولتاريا) ، وكان يحتقر البرولتاريا الوليدة فى المدن ، واتفق مع فولتير على تسميتها (الرعاع أوحثالة المجتمع) [٢١] . وكان مثله الأعلى طبقة فلاحين تعيش مستقلة رخية الحال ، وطبقة وسطى فاضلة تتألف من أسر كأسرة فولمار فى « هلويز الجديدة » وسيتهمه بيير — جوزف برودون بتمجيد البورجوازية» [٢٢] »

ترى أى مكان للدين فى الدولة ؟ لقد شعر روسو أن دينا ما لاغنى عنه للفضيلة ، «ما قامت دولة قط دون أساس دينى» [٢٣] .

« ان الحكماء أن حاولوا الكلام بلغتهم إلى القطيع العام بدلا من لغته لن يستطيعوا ايصال ما يريدون إلى أفهامهم . . . ولكى يمكن شعب ناشىء من ايثار الأصول السليمة للنظرية السياسية . . . يجب أن تصبح النتيجة سبباً : فالروح الاجتماعية التى ينبغى أن تخلقها هذه المؤسسات يجب أن تسود أساسها نفسه ، ويجب أن يكون الناس أمام القانون ما يجب أن يصبحوه بالقانون . إذن فالمشرع لعجزه عن الالتجاء إلى القوة أو للعقل

يجب أن يلجأ إلى سلطة من نوع مختلف ، قادرة على الكبح دون عنف . هذا ما دعا آباء الأمم فى جميع العصور إلى الإلتجاء للتدخل الإلهى ، ونسبة حكمتهم هم لآلهتم ، حتى ، تطيع الشعوب بخضوعها لقوانين الدولة كما تخضع لقوانين الطبيعة ، . . . دون عائق ، وتحتمل نير الخير العام عن طيب خاطر »[٢٤] .

ولئن يتشبث روسو دائماً بهذا الرأى السياسى القديم فى الدين ، ولكنه فى « العقد الاجتماعى » جعل من الإيمان فوق الطبيعى أداة للدولة ، واعتبر القساوسة على أفضل تقدير ضربا من الشرطة السماوية . على أنه رفض اعتبار الكهنة الكاثوليك الرومان كذلك ، لأن كنيستها زعمت أنها فوق الدولة ، فهى إذن قوة مفسحة ، تقسم ولاء المواطن[٢٥] . وفضلا عن ذلك فإن المسيحى — كما زعم — إذا أخذ لاهوته مأخذ الجد ، يركز إهتمامه على الحياة الآخرة ، ولا يقيم وزنا يذكر لهذه الحياة الدنيا ، فهو إلى هذا الحد مواطن ضعيف . ومثل هذا المسيحى يكون جنديا وسطا ؛ قد يقاتل دفاعا عن وطنه ، ولكنه لا يفعل إلا تحت إكراه وأشراف مستمرين ، وهو لا يؤمن بشن الحرب دفاعا عن الدولة ؛ لأن له وطنا واحدا فقط — هو الكنيسة . والمسيحية تبشر بالعبودية والتبعية الطيعة ؛ ومن ثم كانت روحها مواتية جدا للاستبداد بحيث أن الطغاة يرحبون بتعاونها . « أن المسيحين الحقيقين خلقوا ليكونوا عبيداً[٢٦] » . وهكذا أتفق ورسو مع ديدرو ، وأستبق جيبون ؛ وكان فى تلك الفترة أشد عنفا فى عدائه للكاثوليكية من فولتير ؛ ومع ذلك شعر بأن دينا ما لا غنى عنه ؛ « دينا مدنيا » تصيغه الدولة وتفرضه فرضا على جميع سكانها . أما عن العقيدة :

« فأن عقائد الدين المدنى يجب أن تكون قليلة ؛ بسيطة ؛ دقيقة العبارة ؛ دون شروح أو تعليقات . فوجود إله قادر ؛ ذكى ؛ خير ؛ ذى بصيرة وتدبر ؛ ثم حياة آخرة ؛ وسعادة الأبرار ؛ وعقاب الأشرار ؛ وقداسة العقد الاجتماعى والقوانين ؛ تلك هى عقائد الدين الإيجابية[٢٧] » .

وهكذا إعترف روسو بعقائد المسيحية الأساسية ؛ على الأقل لأغراض

سياسية ؛ على حين رفض أخلاقياتها لغلوها فى المسالمة والدولية — على العكس تماماً ومما درج عليه الفلاسفة من الاحتفاظ بأخلاقيات المسيحية مع رفض لاهوتها . وقد سمح بأديان أخرى فى دولته الوهمية ، بشرط عدم تعارضها مع العقيدة الرسمية . وهو يتسامح مع الأديان « التى تتسامح مع غيرها » ؛ أما من يجسر على القول « بأنه لاخلاص خارج الكنيسة » فيجب طرده من الدولة ، إلا أن تكون الدولة هى الكنيسة ، والملك هو حبرها الأعظم[٢٨] . » ولا يسمح بانكار البنود الواردة فى ديانة الدولة .

« وإذا كانت الدولة لا تستطيع أكراه أحد على الإيمان بهذه البنود ، فإن فى إستطاعتها أن تنفيه ، لا لزندقته ، بل بوصفه كائنا أرستقراطيا ، عاجزا عن محبة القوانين والعدالة محبة صادقة ، وعن بذل حياته عند الحاجة فى سبيل الواجب . وإذا سلك إنسان — بعد إقراره بهذه العقائد علانية — مسلك من لا يؤمن بها ، كان عقابه الموت[٢٩] » .

وهذه الجملة الأخـــيرة هى أشهر الجمل فى « العقد الاجتماعى » بعد « ولد الإنسان حرا وهو فى كل مكان مكبل بالأغلال » وإذا أخذت بمنطوقها الحرفى كان معناها إعدام كل من يسلك مسلك من لا يؤمن بالله ، أو الجنة أو النار ، ولو طبقت على باريس ذلك الزمان لأنضبت تلك العاصمة من أهلها . ولعل حب روسو للعبارات المسرفة التى تهز القراء طوح به إلى أن يقول أكثر مما يعنى . ولعله تذكر مجمع أوجزنورج (١٥٥٥) الذى وافق فيه كل الأمراء الموقعين على قراراته على أن يكون لكل منهم الحق فى أن ينفى من أملاكه أى شخص لا يقبل مذهب الأمـــير . وفى قوانين جنيف إذا أخذت حرفيا (كما حدث فى حالة سرفيتوس) سابقة لوحشية روسو المفاجئة . وقد اعتبرت أثينا القديمة « رفض الأعتراف بالآلهة الرسميين » جريمة كبرى ، كما حـــدث فى نفى أناكساجوراس وقتل سقراط بالسم ، وكان هذا بالمثل القدر الذى بررت به روما الامبراطورية إضطهادها للمسيحين ، وأخذاً برأى روسو هذا فى معاملة المجرمين يمكن أن يوصف الأمر باعتقاله بأنه من أفعال المحبة المسيحية .

أكان « العقد الاجتماعى » كتابا ثوريا ؟ لا ونعم . فهنا وهناك ، وسط مطالبة روسو بحكومة مسئولة أمام الإرادة العامة ، تهدىء ثائرته لحظات من الحذر ، كما فى قوله : « لا شىء يمكن أن يعدل خطر تغيير النظام العام غير الأخطار الكبرى ، ويجب إلا تعطل السلطة المقدسة للقوانين إطلاقا مالم تكن حياة الوطن فى خطر »[٣٠] . ومع أنه حمل المالكية الخاصة اللوم على كل الشرور تقريباً ، إلا أنه دعا إلى صيانتها لأنها ضرورة يدعو إليها ما آل إليه الإنسان من فساد لا صلاح له . وتساءل ألا تعيد طبيعة الإنسان ، بعد أن يقوم بثورة ، نظما وعبوديات قديمة تحت أسماء جديدة ؟ « إن قوما تعودوا الخضوع لسادة لن يدعوا السيادة تتوقف . . . فهم إذ يحسبون الاباحية حرية ، تسلمهم ثوراتهم إلى أيدى مضللين لا يزيدونهم إلا رسوفا فى إغلالهم[٣١] ».

ومع ذلك كان صوت روسو أكثر أصوات العهد ثورية . ففى هذا الكتاب كان خطابه موجها لكثرة الشعب ، وإن غض من شأن الجماهير ولم يثق بها فى غيره من كتبه . لقد كان يعلم أنه لامناص من عدم المساواة ، ولكنه أدانه بقوة وبلاغة . وأعلن فى غير لبس أو غموض أن من حق الشعب أن يطيح بحكومة تصر على مخالفة الإرادة العامة . وبينما كان فولتير ، وديدرو ود الامبير ، ينحنون للملوك أو الأمبراطورات ، أطلق روسو على الحكومات القائمة صرخة احتجاج قدر لها أن تسمع من اقصى أوربا إلى إقصاها . وبينما إقتصر جماعة الفلاسفة ، الغارقين فى « الحالة الراهنة » على الدعوة لإصلاح تدريجى لشرور معينة ، هاجم جان — جاك النظـــام الاقتصادى ، والاجتماعى ، والسياسى بجملته ، وبشمول بدا معه كل علاج مستحيلا إلا علاج الثورة . ثم أعلن أنها آتية : « محال أن تعمر ممالك أوربا الكبرى أكثر مما عمرت . لقد كان لكل منها فترة مجدها ، ومآلها بعدها إلى الأضمحلال . . . إن الأزمة تقترب ، ونحن على شفا ثورة[٣٢] » . وتنبأ بوقوع تغييرات بعيدة المدى بعد أن تنشب هـــذه الثورة : « ستتطلع إمبراطورية روسيا إلى غزو أوربا ، وستغزى هى نفسها . وسيصبح التتار — رعاياها أو جيرانها — سادتها وسادتنا ، بثورة أراها آتيه لا ريب فيها[٣٣] ».

على أن « العقد الاجتماعى» الذى نرى فى نظرة مؤخرة أنه كان أكثر كتب روسو ثورية ، أثار ضجة أقل كثيراً مما أثارته « هلويز الجديده » . فلقد كانت فرنسا مهيأة للانفراج العاطفى والحب الرومانسى ، ولكنها لم تتهيأ لمناقشة الأطاحة بالملكية . وكان هذا الكتاب أكثر ما إنتج روسو إلى ذلك الحين من حجج مدعمة ، ولم يكن تتبعه سهلا كتتبع دعايات فولتير المتألقة . ونحن الذين راعنا مالقى من ذيوع متأخر، يدهشنا أن نعلم أن شعبيته وتأثيره بدآ بعد الثورة لا قبلها[٣٤]. ومع ذلك نرى دالامبير يكتب لفولتير فى ١٧٦٢ قائلا : « لا جدوى من مهاجمة جان — جاك أو كتابه بصوت عال جداً ، فهـــو أشبه بملك فى السوق (« لىزال »[٣٥] — أى بين العمال الغلاظ فى سوق باريس المركزيه ، و — بالتضمين — بين جماهير الشعب) . ولعل هذا كان غلوا فى القول ، ولكن لنا أن نعتبر عام ١٧٦٢ تاريخا لتحول الفلسفه من مهاجمة المسيحية إلى نقد الدولة .

وقل من الكتب ما أثار مثل هـــذا النقد الكثير . وقد أشر فولتير على نسخه من « العقد الاجتماعى » بردود على الهامش ، فرداً على ما أشار به روسو من إعدام من يذنب بالكفر الأيجابى كتب «كل إكراه فى العقيدة مرذول[٣٦] » . ويذكرنا العلماء بقدم الدعوى بأن السيادة مستقره فى الشعب ، فقد قدمها رسيليوس البادواوى ، ووليم أوكم ، وحتى اللاهوتيون الكاثوليك أمثال بيللارمين ، وماريانا ، وسواريز ، هذه الدعوى كأنها الضربة خلف ركب الملوك . وقد ظهرت من قبل فى كتابات جورج بوكانان وجروتيوس ، وملتن ، والجرنون سدنى ، ولوك ، وبوفندورف . . . إن « العقد الاجتماعى » شأنه شأن فلسفة روسو السياسية والأخلاقية كلها تقريباً ، هو صدى وانعكاس لجنيف بقلم مواطن على بعد كاف يتيح له تمجيده دون أن يحس بمخالبها . لقد كان الكتاب مزيجا من جنيف وأسبرطة ، من « قواعد » كلفن و « قوانين » إفلاطون .

وبين عشرات النقاد ذلك التناقض بين النزعه الفردية فى مقالى « روسو وحرفية القانونية فى «العقد الاجتماعى » . لقد رفض فيلمر فى كتابه **Patriarcha**

(١٦٤٢) قبل مولد روسو بزمن طويل الفكرة التى تزعم أن الناس ولدوا متساوين ، فهم فى ميلادهم خاضعون للسلطان الأبوى ولقوانين الجماعة وعاداتها . وروسو نفسه ، بعد الصرخة الأولى للدفاع عن الحرية ، أخذ يبتعد عن الحرية أكثر فأكثر متجها إلى النظام — إلى خضوع الفرد للارادة العامة . والتناقضات التى تلحظها فى مؤلفاته هى أساساً بين خلقه وفكره، فلقد كان فرديا متمردا بحكم مزاجه ، وعلته ، وأفتقاره إلى الأنضباط ، وكان بيئيا (لاشيوعياً إطلاقا ، ولا حتى جماعيا) بحكم إدراكه المتأخر لا ستحالة تكوين المجتمع الفعال من الخوارج . وعلينا أن نحسب حساباً للتطور ، فأفكار إنسان ما هى دالة خبرته وعمره ، ومن الطبيعى للمفكر أن يكون فردى النزعة فى شبابه — فيحب الحرية ويبحث عن المثل العليا — وأن يكون معتدلا حين ينضج ، فيحب النظام ويرتضى الممكن . وقد ظل روسو من الناحية العاطفية طفلا طوال حياته ، ينكر العرف ، والمحظورات، والقوانين ، ولكنه حين فكر تفكيراً منطقيا أدرك أن فى الأمكان بقاء الكثير من الحريات فى نطاق القيود الضرورية للنظام الاجتماعى ، وانتهى إلى أن يدرك أن الحرية فى مجتمع ما ليست ضحية القانون بل ثمرته — وأنها تتسع ولا تضيق بطاعة الجميع لقيود يفرضونها على أنفسهم جماعة . وفى وسع الفوضويين الفلسفيين والشموليين السياسيين جميعاً أن يستشهدوا بروسو تأييداً لدعواهم[٣٧]، وكلا الفريقين لا حق له فى الأستشهاد ، لأنه اعترف بأن النظام أول قوانين الحرية ، والنظام الذى دافع عنه يجب أن يكون التعبير عن الأرادة العامة .

وقد نفى روسو أى تناقضات حقيقية فى فلسفته فقال « كل أفكارى متسعة ، ولكنى لا استطيع عرضها كلها مرة واحدة[٣٨] » . وسلم بأن كتابه « فى حاجه إلى أن يكتب من جديد ، ولكنى لست أملك من العافية ولا الوقت ما يسمح لى بذلك[٣٩] » ، فحين كانت العافية متاحة له سلبه الأضطهاد وقته ، وحين كف الأضطهاد وأتيح له الفراغ ، كانت العافية قد تضاءلت . وفى تلك السنوات الأخيرة بات يتشكك فى حججه، « أن الذين يفاخرون بأنهم فهموا « العقد الاجتماعى» فهما تاما أذكى منى » . وقد أغفل تماماً ، من الناحية العملية ، المبادىء التى وضعها فيه ، ولم يخطر بباله قط أن

يطبقها حين طلب إليه وضع دستور لبولندة أو كورسيكا . ولو أنه مضى فى خط التغير الذى اتبعه بعد عام ١٧٦٢ لا نتهى به المطاف إلى حضن الأرستقراطية ، والكنيسة ، وربما تحت سكين الجيلوتين .

٢ — اميــل

(أ) تربيتـــه

فى وسعنا أن نغتفر الكثير لكاتب أستطاع فى خمسة عشر شهراً أن يصدر « هلويز الجديدة » (فبراير ١٧٦١) و « العقد الاجتماعى » (إبريل ١٧٦٢) ، « واميل » (مايو ١٧٦٢) . وقد نشر ثلاثتها فى أمستردام ،ولكن « اميل » نشر فى باريس أيضاً ، بإذن من الحكومة حصل عليه مالزيرب العطوف بمخاطرة كبيرة . ومن حق مارك — ميشيل راى ، الناشر الأمستردامى ، علينا أن نحييه تحية عابرة ، ذلك أنه بعد أن كسب أرباحاً لم يتوقعها من هلويز أوقف على تريز معاشا سنوياً مدى الحياة قدره ٣٠٠ جنيه ، وإذ تنبأ لاميل برواج أعظم من « العقد الاجتماعى » (الذى كان قد اشتراه بألف جنيه) دفع لجان — جاك سته الأف جنيه نظير المخطوطة الجديده الأطول من سابقتها .

أما الكتاب فكان بعضه ثمرة مناقشاته مع مدام دبينيه عن تربية ولدها ، وإتخذ أول شكل له فى مقال صغير كتب — ليسر أماً طيبة قادرة على أن تفكر — وهى مدام دشنونسو ، أبنة مدام دويان . وقد قصد به روسو أن يكون تذييلا لقصته « هلويز الجديده» : فكيف ينبغى أن ينشأ أبناء جولى ؟ وخامره الشك لحظه فى صلاحية رجل أودع كل إطفاله فى ملجأ للقطاء ، وفشل معلما خاصا فى أسرة مابليه ، للكلام فى موضوع الأبوة والتربية . ولكنه كعادته وجد لذة فى إطلاق حبل خياله على غاربه دون أن يعوقه معوق من التجربة . ودرس مقالات « مونتينى » و « تليماك فنيلون » ، ورسالة فى الدراسات لرولان، وكتاب لوك « خواطر فى التربية ». وكان « مقاله » الأول تحديا له ، لأنه صور الإنسان خيراً بفطرته ولكن أفسدته الحضاره بما فيها التربية . فهل فى الأمكان الاحتفاظ بهذا الخير الفطرى وتنميته بالتربية

الصحيحة ؟ لقد أجاب هلفتيوس قبيل ذلك بأن هذا ممكن ، وذلك في كتابه « عن العقل » (١٧٥٨) ، ولكنه قدم حجة لا مخطط .

أما روسو فقد استهل كتابه برفض الطرق القائمة لأنها تلقن ، بالصم عادة ، أفكارا بالية فاسدة ، وتحاول جعل الطفل آلة طيعة في مجتمع منحل ، وتمنع الطفل من التفكير والحكم لنفسه ، وتشوهه فتهبط بمستوى قدراته ، وتلوح بملاحظات تافهة وأقوال قديمة مبتذلة . وقد أخمد هذا التعليم المدرسي كل الحوافز الفطرية ، وجعل التربية عذابا يتوق كل طفل إلى تجنبه . ولكن التعليم يجب أن يكون عملية سعيدة فيها تفتح طبيعي ، وتعلم من الطبيعة والتجربة ، وتنمية حرة لقدرات الطفل نحو حياة فياضة لذيذة . يجب أن تكون « فن تدريب الناس [٤١] » والارشاد الواعي للجسم النامي ليبلغ الصحة ، وللخلق ليبلغ الفضيلة ، وللذهن ليبلغ الذكاء ، وللوجدان ليبلغ ضبط النفس وحب العشرة والسعادة .

وكان روسو يؤثر أن يكون هنالك نظام تعليم عام تقوم عليه الدولة ، ولكن بما أن التعليم العام كان يومها في يد الكنيسة فقد أوصى بتعليم خاص يضطلع به معلم خاص أعزب ينقد أجراً نظير تكريس سنين كثيرة من حياته لتلميذه . وعلى هذا المعلم أن يبعد الطفل ما أمكن عن أبويه وأقاربه مخافة أن تصل إليه العدوى من رذائل الحضارة المتراكمة . وأضفى روسو على بحثه صبغة إنسانية بتخيله أنه قد فوض بكامل السلطة تقريبا ليربي غلاماً طيبا جدا يدعى إميل . وهي فكرة لا يمكن تصديقها ، ولكن روسو وفق في أن يجعل هذه الصفحات — وعددها ٤٥٠ — أمتع كتاب ألف في التربية اطلاقا . وقد تناول كانط «إميل» ليقرأه فاستغرق في قراءته استغراقاً أنساه الخروج للتمشي في نزهته اليومية[٤٢] .

ومادامت الطبيعة ستكون الهادي والمرشد للمعلم ، فسيعطي الطفل كل الحرية التي تسمح بها سلامته . وسيبدأ باقناع مربيته بأن تحرر الرضيع من أقمطته لأنها تعوق نموه وتطور أطرافه تطورا سليما . ثم يقنع أمه بارضاع طفلها بدلا من أن تعهد به لمرضعه ، لأن المرضعة قد تؤذيه بالقسوة أو الاهمال ،

أو قد تظفر منه – بفضل عنايتها الصادقة به – بتلك المحبة التى يجب بالطبيعة أن توجه للأم باعتبارها أول مصدر ورباط لوحدة الأسرة والنظام الأخلاقى . وهنا ساق روسو عبارات كان لها تأثير جديد بالاعجاب على الأمهات الشابات فى الجيل الجديد :

« أتريدون أن تردوا الناس جميعاً إلى واجباتهم الفطرية ؟ إبدأوا بالأم إذن ، وسوف تدهشكم النتائج . فكل الشرور تأتى فى أعقاب هذه الخطيئة الأولى ... والأم التى يغيب أطفالها عن بصرها لاتكتسب الاحترام الكثير ، فليس هنا حياة أسرية ، وروابط الطبقة لاتتقوى بروابط العادة ، وليس هناك وجود بعد للآباء والأمهات والأخوة والأخوات . فهم أغراب تقريباً ، فكيف يحب بعضهم بعضا ؟ ان كلا منهم يفكر فى نفسه .

« أما إذا تنازلت الأمهات بإرضاع أطفالهن ، فسيكون هناك اصلاح فى الخلق سينتعش الشعور الفطرى فى كل قلب ، ولن تشكو الدولة فقرا فى عدد المواطنين . وهذه الخطوة الأولى وحدها ستعيد المحبة المتبادلة ومباهج البيت خير ترياق للرذيلة . عندها يغدو لعب الأطفال الصاخب متعة بعد أن كنا نحسبه شديد الارهاق لنا ، ويزداد اعزاز الأم والأب بعضهما لبعض ويقوى رباط الزواج . . . وهكذا يأتى الشفاء من هذا الشر الواحد باصلاح شامل ، فتستعيد الطبيعة حقوقها . وإذا أصبحت النساء أمهات صالحات أصبح الرجال أزواجاً وآباء صالحين(٤٣) .

هذه الفقرات المأثورة جعلت إرضاع الأمهات لأطفالهن شطرا من تغير العادات الذى بدأ فى العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر . وكان بوفون قد أذاع مثل هذا النداء فى العقد السابق ولكنه لم يصل إلى نساء فرنسا . وبدأ الآن ظهور أجمل الصدور فى باريس أعضاء للأمومة فضلا عن كونها مفاتن جنسية ساحرة .

وقسم روسو حياة تلميذه التعليمية إلى ثلاث ، فترات إثنى عشرة سنة طفولة ، وثمانى سنوات صبى ، وعمر غير محدود للإعداد للزواج والأبوة ، وللحياة

الاقتصادية والاجتماعية . ففي الفترة الأولى يكون التعليم كله تقريباً بدنيا وخلقيا ، وعلى الكتب والتعلم من الكتب ، وحتى الديانة أن تنتظر نمو العقل ، فإلى أن يبلغ اميل الثانية عشرة لن يعرف كلمة فى التاريخ ، ولايكاد يسمع ذكر الله (٤٤) . فتربية الجسم يجب أن يشرع فيها أولا . ومن ثم يربى إميل فى الريف لأنه المكان الوحيد الذى يمكن أن تكون الحياة فيه صحية طبيعته :

لم يخلق البشر ليتكدسوا فى كثبان نمل ، بل لينتشروا على الأرض ليفلحوها . وكلما حشدوا معاً فسدوا . والمرض والرذيلة هما النيجتان المحتومتان للمدن المكتظة . . فأنفاس الإنسان تفتك باخوانه البشر . . . والإنسان تفترسه مدننا ، ولن تنقضى اجيال قليلة حتى ينقرض النوع الإنسانى أو ينحط ، فهو فى حاجة إلى التجديد ، وتجديده يكون دائماً من الريف . فأرسلوا أطفالكم إلى الخلاء ليجدوا أنفسهم . ارسلوهم ليستعيدوا فى الحقل المكشوف تلك العافية التى فقدوها فى الهواء الفاسد الذى يملأ مدننا المزدحمة(٤٥) .

شجعوا الصبى على حب الطبيعة والخلاء ، وعلى تربية عادات البساطة وعلى العيش على الأطعمة الطبيعية . وأى طعام ألذ من ذلك الذى زرعه المرء فى حديقته ؟ أن الغذاء النباتى أصح الأغذية ومن شأنه أن يقلل كثيراً من الأمراض والعلل (٤٦) .

ان عدم اكتراث الأطفال باللحم من الأدلة على أن الميل لأكل اللحم غير طبيعى . وهم يؤثرون الأطعمة النباتية واللبن والفاكهة الخ . . فحذار أن تغيروا هذا الميل الفطرى وتجعلوا أطفالكم أكلة للحوم . افعلوا هذا من أجل أخلاقهم أن لم تفعلوه من أجل صحتهم ، إذ كيف نعلل ان كبار أكلة اللحوم هم فى العادة أشد ضراوة وقسوة من غيرهم من البشر(٤٧) .

وبعد الغذاء الصحيح ، والعادات الطيبة يعلم إميل البكور فى الاستيقاظ . «رأينا الشمس تشرق فى منتصف الصيف وسنراها تشرق فى عيد الميلاد ..

لسنا تؤومى الضحى ، فنحن نلتذ بالبرد[٤٨] . وإميل يكثر من الاستحمام وكلما اشتد عوده قلل من حرارة الماء إلى أن يستحم أخيرا بالماء البارد، بل المثلج ، صيف شتاء . وتفاديا للخطر يكون هذا التغيير بطيئا ، تدريجيا ، غير محسوس[٤٩] . ونادراً ما يلبس على رأسه أى غطاء ، وهو يمشى حافياً طوال السنة إلا إذا خرج من بيته وحديقته . « يجب أن يعود الأطفال على البرد لا على الحر ، فالبرد الشديد لا يضرهم إطلاقا إذا تعرضوا له فى بواكير حياتهم[٥٠] » . وشجعوا محبة الطفل الطبيعية للنشاط والحركة « فلا تتركوه على السكون إن أراد الجرى ، ولا على الجرى أن إراد القعود . . . فليجر ، وليقفز ، وليزعق ما شاء[٥١] » . وأبعدوا عنه الأطباء ما أستطعتم[٥٢] . ودعوه يتعلم بالممارسة لا بالكتب ولا حتى بالتعليم ، دعوه يصنع الأشياء بنفسه ، وأكتفوا باعطائه المواد والأدوات . والمعلم الذكى يرتب المسائل والواجبات ، ويدع تلميذه يتعلم من ضربة تصيب إبهامة أو صدمة تصيب قدمه . وهو يحميه من الأذى البالغ لا من الآلام التى تربيه .

إن الطبيعة خير هاد ، ويجب أن تتبع فى أمر الأذى الذى نعرفه فى هذه الحياة :

« فلتكن قاعدتنا التى لانزاع عليها أن الدوافع الأولى للطبيعة صواب دائما . ليس فى القلب البشرى خطيئة أصلية . . فلا تعاقب تلميذك أبدا ، لأنه لا يعرف معنى الخطأ . ولا تجعله يقول « سامحنى » . . . فهو فى أفعاله التى لاصبغة أخلاقية لها كلها لا يمكن أن يأتى خطأ من الناحية الأخلاقية ، ولا يستحق عقابا ولا تقريعا . . . فابدأ بترك بذرة شخصيته حرة فى الإفصاح عن نفسها ، ولا تقسره على شىء ، وبهذا يتكشف لك على حقيقته[٥٣] » .

على أنه سيحتاج إلى التربية الخلقية ، فبغيرها يصبح إنسانا خطرا تعساً . ولكن لا تعظه . فإن أردت لتلميذك أن يتعلم العدل والرحمة كن أنت عادلا رحيما فيقلدك . « القدوة القدوة ! فبدونها لن تنجح فى تعليم أى شىء للأطفال[٥٤] » . وهنا أيضاً قد تجد أساساً طبيعيا . فالخير والشر (من وجهة نظر المجتمع) كلاهما فطرى فى الإنسان ، وعلى التربية أن تشجع الخير

وتثبط الشر . ومحبة الذات عامة ، ولكن فى الأمكان تعديلها حتى لتدفع الإنسان إلى إقتحام الأخطار الداهمة حفاظا على أسرته، أو وطنه ، أو عرضه. فهناك غرائز اجتماعية تحفظ الأسرة والجماعة كما أن هناك غرائز أنانية تحفظ الفرد(٥٥) . والرحمة قد تنبع من محبة الذات (كما يحدث حين نحب الأبوين اللذين يغذواننا ويحميانا) ، ولكنها قد تؤتى ثمارا شتى من السلوك الاجتماعى والمعونة المتبادلة . ومن ثم فإن نوعاً من الضمير يبدو أنه عام وغريزى .

« ألق ببصرك إلى كل أمة فى الأرض ، واقرأ كل سفر من أسفار تاريخها ، ففى جميع ألوان العبادة العجيبة القاسية هذه ، وفى هذا التنوع المذهل من العادات والتقاليد ، ستجد فى كل مكان نفس الأفكار (الأساسية) أفكار الخير والشر . . . ففى إعماق قلوبنا مبدأ فطرى للعدل والفضيلة نحكم بمقتضاه — رغم قواعدنا — على إفعالنا ، أو أفعال غيرنا ، أخير هى أم شر ، وهذا المبدأ هو الذى نسميه الضمير(٥٦) » .

ومن ثم ينطلق روسو فى مناجاة سنجدها تتردد حرفياً تقريباً فى كانط :

« إيه أيها الضمير ! أيها الضمير ! أيها الفطرة المقدسة ، والصوت الخالد الآتى من السماء ، الهادى الأمين لإنسان هو جاهل محدود حقاً ، ولكنه ذكى حر ؛ أيها القاضى المعصوم والفيصل بين الخير والشر ، الذى يجعل الإنسان شبيها بالله ، فيك يكمن سمو طبيعة الإنسان وفضيلة أفعاله ، لست أجد فى نفسى إذا انفصلت عنك شيئاً يرفعنى فوق البهائم — لا شىء إلا إمتياز مؤسف — هو قدرته على أن يهيم من خطأ إلى خطأ بمعونة ذكاء طايق من كل قيد وعقل لا يعرف له مبدأ(٥٧) » .

إذن فالتربية العقليه يجب إلا تبدأ إلا بعد تكوين الخلق الفاضل . ويسخر روسو من نصيحة لوك بمناقشة الأطفال منطقياً :

« أن الأطفال الذين كانوا يناقشون عقليا باستمرار يبدون لى غاية فى البلاهة . فالعقل هو آخر ما ينمو من قدرات الإنسان وأسماها .. وأنت تريد أن تستخدمه لتدريب الطفل المبكر ؟ وجعل الإنسان منطقيا هو الحجر الأعلى

فى التربية الحسنة ، ومع ذلك تريد أن تربى الطفل عن طريق عقله . إنك إذن تبدأ من الطرف الخطأ[٥٨] » .

كلا ، بل يجب أن تؤجل التربية العقليه . « أبق ذهن الطفل (فكره) عاطلا أطول ما تستطيع[٥٩] » ، فإذا كانت له آراء قبل أن يبلغ الثانية عشرة فثق أنها ستكون سخيفة . ولا تزعجه فى هـذه السن بالعلم ، فهذا سباق لانهاية له ، كل ما نكتشفه فيه إنما يزيدنا جهلا وغرورا أحمق[٦٠] ». فدع تلميذك يتعلم حياة الطبيعة وأساليبها بالتجربة ، دعه يستمتع بالنجوم دون الزعم بأنه يتتبع تاريخها .

ويمكن أن تبدأ التربية العقليه فى الثانية عشرة ، ويجوز لإميل أن يقرأ بعض الكتب . ويستطيع أن ينتقل من الطبيعة إلى الأدب بقراءة روبنصن كروزو ، لأنها قصة رجل جاز — على جزيرة — بمختلف المراحل التى جاز بها الناس من الهمجيه إلى المدنية . ولكن إميل لا يكون قد قرأ كتبا كثيرة حين يبلغ الثانية عشرة ، وسيضرب صفحا عن الصالونات والفلاسفة ، ولن يكترث للفنون ، لأن الجمال الحـق الوحيد كائن فى الطبيعة[٦١] : ولن يصبح أبدا « موسيقيا ، أو ممثلا ، أو مؤلفا[٦٢] » ، بل سيكون قد اكتسب مهارة كافية فى حرفة ما ليكسب قوته بعمل يديه أن اقتضته الظروف يوماً ما (وبعد ثلاثين عاماً سيندم الكثير من المهاجرين الذين لا حرفة لهم على أنهم سخروا كما سخر فولتير من النجار النبيل)[٦٣] . على أية حال يجب أن يخدم إميل المجتمع بيده أو بعقله (رغم أنه وارث لثروة متواضعة) ، « فالرجل الذى يأكل وهو عاطل ما لم يكسبه بجهده ليس إلا لصا[٦٤] ».

(ب) ديانتـــه

واخيراً نستطيع أن نحدث إميل عن الله إذا بلغ الثامنه عشرة :

« إنى عليم أن الكثير من قرائى سيد هشهم أن يجدونى متتبعا سير تلميذى خلال سنيه الأولى دون أن أحدثه فى الدين . إنه وهو فى الخامسة عشرة لن يعرف حتى أن له نفسا ، وقد لا يكون فى الثامنة عشرة مهيأ بعد للإلمام

بهذه الحقيقة . . . . ولو كان علىأن أصور الغباوة فى أفجع أشكالها لصورت معلما متحذلقا يلقن التعليم الدينى للأطفال ، ولو أردت أن أخرج طفل عن طوره لطلبت إليه أن يشرح ما تعلمه فى دروسه الدينية . . . لاشك أننا يجب ألا نضيع لحظة واحدة إن وجب أن نكون مستحقين للخلاص الأبدى، ولكن إذا كان تكرار الفاظ معينه يكفى للحصول على هذا الخلاص فلست أرى لم لا نملاء السماء بالزرازير والعقاعق كما نملؤها بالأطفال(٦٥) » .

ثم جرد روسو أمضى سهامه على جماعة الفلاسفة ، رغم إعلانه هذا الذى أثار غضب رئيس أساقفة باريس . وليتصور القارىء فولتير أو ديدرو يقرءان هذا الكلام :

« لقد استشرت جماعة الفلاسفة ، فوجدتهم كلهم سواء فى الغرور ، والجزم ، والدجماطية ، يتظاهرون — حتى فى شكوكيتهم المزعومة — بأنهم عليمون بكل شىء ، لا يثبتون شيئا ، ويهزأ بعضهم ببعض . وقد بدت لى . . . هذه الخاصة الأخيرة ، النقطة الوحيدة التى أصابوا فيها . فهم ضعاف فى الدفاع رغم تبجحهم فى الهجوم. زن حججهم تجدها كلها مدمرة، وأحص أصواتهم تجدكلا منهم يتحدث عن نفسه وحده . . . . وما من واحد فيهم — إن تصادف واكتشف الفرق بين الباطل والحق — لا يؤثر باطله على الحق الذى اكتشفه غيره من قبله . فأين الفيلسوف الذى يعف عن خداع الدنيا بأسرها فى سبيل مجده(٦٦) » .

ومع أن روسو واصل تنديده بالتعصب ، فإنه على نقيض بيل أدان الكفر لأنه أشد خطرا من التعصب . وقدم لقراءه « إعلانا بالإيمان » رجا به أن يحول التيار من إلحاد دولباخ ، وهلفتيوس ، وديدرو ، عوداً إلى الإيمان بالله، وحرية الإرادة ، والخلود. وقد تذكر الرئيسين الدينيين — جيم وجاتييه — اللذين التقى بهما فى صباه ، فمزج بينهما وأخرج من المزيج كاهنا وهميا فى سافوى ، وأنطق هذا الكاهن الريفى بالمشاعر والحجج التى بررت (فى نظر روسو) العودة إلى الدين .

ويصور روسو كاهن سافوى قسيساً على أبرشية صغيره فى الألب الايطاليه . وهو يعترف سرا بشىء من الشكوكية ، ويرتاب فى الوحى الإلهى للأنبياء ، وفى معجزات الرسل والقديسين ، وفى صحة الأناجيل[٦٧] ؛ ثم يتساءل كما تساءل هيوم « من يجرؤ على أن يخبرنى كم شاهد عيان يقتضيهم إقناعنا بتصديق معجزة ما ؟[٦٨] » وهو يرفض صلاة التضرع ، فصلواتنا يجب أن تكون ترانيم لمجد الله ، وتعبيرات عن امتثالنا لمشيئته[٦٩] . وهو يرى الكثير من مواد العقيده الكاثوليكية حديث خرافة أو اساطير الأولين[٧٠] . ومع ذلك يشعر بأنه يحسن خدمة شعبه بكتمان شكوكه ، وممارسة العطف على الجميع والبر بهم (مؤمنين وغير مؤمنين على السواء) . وأداء طقوس الكنيسة الرومانية كلها بأمانة . فالفضيلة ضرورية للسعادة ، والإيمان بالله ، وبحرية الإرادة ، وبالجنه ، وبالنار ، ضرورى للفضيله ، والأديان رغم ما قارفت من جرائم جعلت الرجال والنساء أكثر فضيلة ، أو على الأقل أقل قسوة ولؤما مما كان يمكن أن يكونوا . فإذا بشرت هذه الاديان بعقائد تبدو لنا غير معقولة ، أو إذا ارهقتنا بطقوسها ومراسمها ، وجب أن نسكت شكوكنا فى سبيل الجماعة .

والدين صواب فى جوهره حتى من وجهة نظر الفلسفة . ويستهل الكاهن الكتاب كديكارت بقوله « إننى موجود ولى حواس أتلقى من خلالها الانطباعات ، هذه أولى الحقائق التى تسترعى انتباهى ، وأنا مضطر إلى قبولها[٧١] » . وهو يرفض رأى باركلى : « إن سبب أحاسيسى خارج عنى ، لأنها تؤثر فى سواء كان عندى داع لها أو لم يكن ، وهى تخلق وتهدم مستقلة عنى .. إذن توجد كيانات أخرى فضلا عنى » . ونقطة ثالثة ترد على هيوم وتسبق كانط : انى أجد لدى القدرة على المقارنة بين أحاسيسى ، إذن فقد وهبت قوة ايجابية للتعامل مع التجربة[٧٢] . وهذا العقل لايمكن تفسيره على أنه شكل من أشكال المادة ، فليس فى فعل التفكير أمارة على عملية مادية أو ميكانيكية . أما كيف يستطيع عقل غير مادى أن يؤثر فى جسم مادى فذلك أمر يجاوز فهمنا ، ولكنه حقيقة تدرك للتو ، ويجب ألا ننكرها لأجل الاستدلال

المجرد . وعلى الفلاسفة أن يتعلموا الاعتراف بأن شيئا ما قد يكون حقيقياً ولو عجزوا عن فهمه — خصوصاً إذا كان يدرك بأسرع من جميع الحقائق .

والخطوة التالية (كما يسلم الكاهن) هي الاستدلال العقلي الخالص : فأنا لاأدرك الله بحسي ، ولكن استدل عقلا على أنه كما أن في أفعالي الارادية عقلا هو السبب المدرك للحركة ، كذلك هناك على الأرجح عقل كوني وراء تحركات الكون . إن الله لايمكن معرفته ، ولكني أشعر أنه تعالى موجود وفي كل مكان . وأبصر قصداً في مئات الحالات ، من تكوين عيني إلى حركات النجوم ، وينبغي ألا أفكر في أن أنسب إلى الصدفة (مهما ازداد تكاثرها « على طريقة ديدرو ») تكييف الوسائل وفق الغايات في الكائنات الحية ونظام العالم ، أكثر مما أنسب إلى الصدفة تجميع الحروف تجميعاً للديذا في طبع الانيادة(٧٣) .

فاذا كان هناك إله ذكي وراء عجائب الكون ، فمحال أنه سيسمح بأن يهزم الحق هزيمة دائمة . ولابد لي من الإيمان بإله خير يؤكد انتصار الخير ، ولو لأتحاشى ذلك الإيمان الكئيب بانتصار الشر . إذن يجب أن أومن بحياة آخرة ، بجنة تجزى فيها الفضيلة . ومع أن فكرة الجحيم تقززني ، وأوثر عليها الاعتقاد بأن الأشرار يصلون نار جهنم في قلوبهم ، فانني متقبل حتى تلك العقيدة الرهيبة إذا اقتضاها ضبط الدوافع الشريرة في الإنسان . وفي تلك الحالة أتوسل إلى الله ألا يجعل آلام الجحيم خالدة(٧٤) . ومن ثم كانت فكرة المطهر باعتباره مكاناً للعقوبة الممكن اختزالها للخطاة جميعاً إلا أشدهم عناداً وعصياناً أكثر انسانية من تقسيم الموتى كلهم إلى فريق المباركين إلى الأبد ، والهالكين إلى الأبد . وهبنا عاجزين عن البرهان على وجود الجنة ، فيالها من قسوة أن ننتزع من الناس هذا الرجاء الذي يعزيهم في أحزانهم ويشدد عزائمهم في هزائمهم(٧٥). ولو انعدم الايمان بالله وبالآخرة ؛ لتعرضت الفضيلة للخطر وتجردت الحياة من معناها ، لأن الحياة في الفلسفة الملحدة صدفة آليه تمر بمئات الآلام إلى موت أليم أبدي .

وعليه وجب أن نتقبل الدين على أنه فى مجموعه عطية كبرى للبشر ولاحاجة بنا إلى أن نعلق أهمية كبيرة على شتى المذاهب التى مزقت المسيحية ، فكلها خير إذا حسنت السلوك وغدت الرجاء . ومن السخف أن نفترض أن أصحاب العقائد والآلهة والأسفار المقدسة الأخرى سوف يحكم عليهم بالهلاك ، « فلولم يكن على الأرض سوى دين واحد ، ولو حكم على كل الخارجين عنه بالعقاب الأبدى . لكان إله ذلك الدين أظلم الطغاة وأقساهم[٧٦]. وعليه فلن يعلم إميل لونا بعينه من المسيحية ، ولكنا سنعطيه الوسيلة لأن يختار لنفسه حسبما يرتئيه عقله صوابا[٧٧] . وخير الطرق أن نمضى فى الدين الذى ورثناه عن آبائنا أو مجتمعنا . ونصيحة كاهن روسو الوهمى له هى « عد إلى وطنك ، وارجع إلى دين آبائك ، واتبعه بكل قلبك ولا تتخل عنه أبدا فهو بسيط جداً ومقدس جدا ، وما من دين آخر تجد فيه الفضيلة أشد نقاء ، ولا العقيدة أكثر اشباعا للعقل[٧٨] . »

وكان روسو عام ١٧٥٤ قد سبق إلى هذه النصيحة ، وعاد الى جنيف وعقيدتها ، على أنه لم يف بوعد الذهاب اليها والإقامة فيها بعد أن يسوى أموره فى فرنسا . وفى «رسائل من الجبل» التى كتبها بعد عشر سنوات تنكر لمعظم دين آبائه كما سنرى . وفى العقد الأخير من حياته سنجده يوصى غيره بالدين ، ولكنه لايكاد يبدى أمارة على الإيمان الدينى أو الممارسة الدينية فى حياته اليومية . واجمع الكاثوليك والكلفنيون واليسوعيون على مهاجمته هو «واعلان الإيمان» الذى ناب عن عقيدته لأنهما أساسا غير مسيحيين[٧٩]. وصدم التعليم الذى اقترحه لإميل قراءه المسيحيين لأنهم رأوه فى حقيقته تعليما لا دينيا ، وخامرهم الظن فى أن فتى من أواسط الشباب ، نشىء على غير دين ، لن يعتنق دينا بعد حين ، إلا لداعى المصلحة الاجتماعية . وقد رفض روسو عقيدة الخطيئة الأصلية والدور الفدائى الذى يؤديه موت المسيح وذلك برغم قبوله الرسمى للكلفنية . وأبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله ، وذهب إلى أن العهد الجديد «يحفل بأشياء لايمكن تصديقها ، أشياء ينفر منها العقل[٨٠]» . ولكنه أحب الأناجيل لأنها أعظم الأسفار تأثيرا وإلهاما للنفس .

أيمكن أن يكون كتاب اجتمع له كل هذا الجلال والبساطة فى وقت معاً من عمل إنسان ؟ أيمكن أن يكون ذلك الذى احتوى تاريخه فيها مجرد انسان ؟ . . . أى رقة وطهر فى أفعاله ، وأى نعمة تمس القلوب فى تعاليمه ، وما اسمى أقواله ، وما أعمق حكمة مواعظه ، وما أعظم إجاباته سدادا وتمييزا وأى إنسان ، وأى حكيم يستطيع أن يحيا ويتألم ويموت دون ضعف أو تباه ؟ . . . إذا كانت حياة سقراط وموته هما حياة فيلسوف وموته ، فحياة المسيح وموته هما حياة إله وموته[٨١] .

جـ — حبه وزواجه

حين اختتم روسو صفحات كاهن سافوا الخمسين وعاد إلى إميل تصدى لمشاكل الجنس والزواج .

فهل يحدث تلميذه عن الجنس ؟ لاتفعل حتى يسألك . فإذا سألك فاخبره بالحقيقة[٨٢] . ولكن افعل كل ما يتفق والصدق والصحة لكى تؤجل وعيه بالجنس . على أى حال لاتنبه هذا الوعى : « إذا اقتربت السن الحرجة فقدم للشباب من المشاهد ما هو كفيل بالحد من رغباتهم الجنسية لا بإثارتها . . . أبعدهم عن المدن الكبيرة حيث يعجل لباس النساء اللاتى يعرضنه فى زهو وتباه ، وتعجل جرأتهن دوافع الطبيعة وتستبقها ، وحيث يعرض كل شىء على أبصارهم ، للذات يجب ألا يعرفوا عنها شيئاً حتى يبلغوا من العمر ما يمكنهم من أن يختاروا بأنفسهم . . . وإذا أبقاهم ميلهم للفنون فى المدينة فابعدهم عن . . . حياة التبطل الخطرة . واختر بعناية عشراءهم ، وشواغلهم وملاهيهم ، ولاترهم شيئاً غير الصور المحتشمه المثيرة للشفقة . . . وغير حسهم المرهف دون أن تثير حواسهم[٨٣] . »

وأقلقت روسو العواقب الوخيمة لعادة يبدو أنه عرفها معرفة خبير :

« حذار أن تترك الفتى ليلا ولا نهارا ، وعليك على الأقل أن تقاسمه حجرته . وإياك أن تسمح له بالذهاب إلى فراشه حتى يأخذ الكرى بجفونه ، ثم اجعله ينهض بمجرد استيقاظه . . . فلو أنه اعتاد هذه العادة الخطرة

تملك . فسيتنبه جسمه ونفسه من تلك اللحظة فصاعداً» وسيحمل إلى الغير آثار . . . أضر عادة يكتسبها شاب » .

ثم يضع هذا القانون لتلميذه .

« إن عجزت عن التحكم فى شهواتك ياعزيزى إميل فإنى أرثى لك ، ولكنى لن أتردد لحظة ، فلن أسمح بالروغان من مقاصد الطبيعة . وإذا كان حتماً عليك أن تكون عبداً فإنى أوثر أن أسلمك إلى طاغية قد أنقذك منه ، فمهما حدث ، فإنى قادر على تحريرك من العبودية للنساء بسهولة أكثر من عبوديتك لنفسك[٨٤]».

ولكن لا تدع رفاقك يغرونك بالذهاب إلى ما خور ! « فلم يريد هؤلاء الفتيان أغراءك ؟ لأنهم يرغبون فى إفسادك . . . فحافزهم الوحيد هـــو غل دفين لأنهم يرونك خيراً منهم ، فهم يريدون أن يجروك إلى الهوة التى ترددوا فيها » .

والزواج خير من هذا . ولكن ممن ؟ يصف المعلم المثل الأعلى للفتاة ، والمرأه ، والزوجة ، ويحاول أن يطبع ذلك المثل على ذهن إميل هاديا له وهدفا فى البحث عن زوجة . وكان روسو يخاف النساء المسترجلات ، المسيطرات ، الوقحات ، ويرى سقوط الحضاره فى تسلط النساء المسترجلات استرجالا متزايداً على الرجال المخنثين تخنثا متزايدا «فى كل بلد تجد أن الرجال من النوع الذى تصنعة النساء . . . . فردوا النساء إلى الأنوثه ، نعد رجالا مرة أخرى[٨٥] » أن نساء باريس يغتصبن حقوق جنس دون أن يردن التخلى عن حقوق الآخر ، وهن لذلك لا يملكن هذه ولا تلك مكتمله[٨٦] » . والقوم يتصرفون بطريقه أفضل فى الأقطار البروتستنتية حيث الحشمة ليست أضحوكة بين المسفسطين بل وعدا يبشر بأمومة أمينة[٨٧] . أن مكان المرأة فى البيت ، كما كانت الحال عند قدماء اليونان ، ويجب أن تقبل زوجها سيدا ولكن يجب أن تكون صاحبة الكلمة العليا فى البيت[٨٨] . وبهذه الطريقة تصان صحة النوع .

ويجب أن تهدف تربية الفتيات إلى أخراج أمثال هؤلاء النساء . يجب أن يربين في البيت على أيدي أمهاتهن ، وأن يتعلمن كل فنون البيت ، من الطهو الى التطريز ، وأن يحصلن الكثير من الدين ، بأسرع ما يمكن ، لأن من شأن هذا أن يعينهن على الحشمة ، والعفة ، والطاعة . وعلى البنت أن تقبل دين أمها دون جدل ، ولكن على الزوجة أن ترتضى دين زوجها[٨٩] على أية حال لتتجنب الفلسفة وتحتقر حياة الصالونات[٩٠] . على أنه يجب إلا تكره الفتاة على الإحجام الغبي ، فينبغى أن تكون خفيفة الروح ، مرحة ، تواقة ، وأن تغنى وترقص كما تشتهى ، وتستمتع بكل لذات الشباب البريئة ، ولتذهب إلى المراقص والألعاب الرياضية ، وحتى إلى المسارح — تحت الملاحظة الواجبة وفى صحبة طيبة[٩١] .ويجب العمل على أن يظل ذهنها نشيطا يقظا إن أريد بها أن تكون زوجة صالحة لرجل مفكر « ولابأس بأن يسمح لها بقدر من التدلل » باعتبار هذا جزءا من اللعبة المعقدة التى تختبر بها خطابها وتختار زوجها[٩٢] . ان الرجل هو موضوع الدرسة الصحيحة لجنس النساء[٩٣] .

فإذا ثبت هذا المثل الأعلى للفتاة والمرأة فى آمال إميل جاز له أن يخرج ويبحث عن زوجته . وهو الذى يختار ، لأبواه ولامعلمه . ولكن من واجبه نحوهم ونحو خدمهم عليه سنين طوالا ، أن يستشيرهم فى احترام . أتريد أن تذهب إلى المدينة وتتطلع إلى الفتيات اللاتى يعرضن هناك ؟ حسنا جداً ، سنذهب إلى باريس وسترى بنفسك حقيقة هؤلاء الأوانس المثيرات. وهكذا يعيش إميل برهة فى باريس ويختلط بـ« المجتمع الراقى » . ولكنه لايجد فيه فتاة من النوع الذى وصفه له معلمه الماكر « إذن وداعاً ياباريس الذائعة الصيت ، بكل ما فيك من ضجيج ودخان وقذارة ، حيث كفت النساء عن الإيمان بالشرف ، والرجال عن الإيمان بالفضيلة ، إننا نبحث عن الحب والسعادة والبراءة ، وكلما بعدنا عن باريس كان خيرا لنا[٩٤] » .

وعليه يقفل المعلم وتلميذه إلى الريف ، وإذا هما يصادفان صوفى فى قرية هادئة نائية عن الزحام المجنون . هنا (الكتاب الخامس) تتحول

رسالة روسو إلى قصة حب مثالية التصوير ولكنها مبهجة ، تروى ببراعة كاتب قدير . فبعد تلك الأحاديث المسهبة فى التعليم والسياسة والدين ، يعود إلى الشاعرية والخيال ، وبينما تنكب تريز على أشغال بيتها ، يعاود أحلامه بتلك المرأة الرقيقة التى لم يجدها إلا فى لحظات متفرقة من جولاته ويطلق عليها اسما اشتقه من آخر غرام اشتعل فى قلبه .

وصوفى الجديدة هذه ابنة سيد كان يوما ما ثريا ، يعيش الآن فى عزلة وبساطة قانعتين . فتاة صحيحة الجسم ، جميلة ، محتشمة ، رقيقه — ونافعة وتعين أمها بكفايتها السريعة الهادئة فى كل شىء « ما من شىء لاتستطيع عمله بأبرتها [٩٥] » . ويجد إميل المبرر لمعاودة لقائها ، وتجد هى المبرر لمزيد من زياراته . وشيئاً فشيئاً يتضح له أن صوفى حائزة لكل الفضائل التى صورها له معلمه فى صورة مثالية . فيا للصدفة الإلهية ! وبعد أسابيع يصل إلى القمة التى تدير رأسه ، قمة لثم هدب ثوبها . وما هى إلا أسابيع أخر حتى يخطبها . ويصر روسو على أن تكون الخطبة احتفالا رسمياً مهيبا فيجب أن تتخذ كل التدابير — بالطقوس وسواها — للتسامى بقدسية رباط الزوجية وإقرارها فى الذاكرة ، وبينما يرتعش إميل وهو على حافة النعيم ، يحمله معلمه العجيب الذى يضرب بالحرية والطبيعة عرض الحائط على ترك خطيبته والغياب عنها عامين والسفر إمتحاناً لحبهما ووفائهما . ويبكى إميل ويصدع للأمر ، فإذا عاد وهو محتفظ بعذريته كأنما بمعجزة وجد صوفى عفيفة فى وفاء ، فيتزوجان ، ويرشدهما المعلم إلى واجبات الواحد نحو صاحبه ؛ فيطلب إلى صوفى أن تطيع زوجها إلا فيما يتصل بالفراش والمآكل « ستهيمنين عليه طويلا بالحب إذا جعلت وصلك له نادرا غالياً . . » ؛ وليكرم إميل عفة زوجته دون أن يشكو من برود عاطفتها [٩٦] . ويختتم الكتاب بنصر ثلاثى :

« ذات صباح » يدخل إميل حجرتى ويعانقنى قائلا : « هنىء ابنك يا أستاذى فهو يأمل أن يحظى بعد قليل بشرف الأبوة . ما أعظم المسئولية التى ستحملها يوما أشد حاجتنا إليك ! ولكن معاذ الله أن أدعك تربى

الولد كما ربيت الولد ، معاذا الله أن يقوم إنسان غيرى بهذه المهمة اللذيذة المقدسة . . : ولكن واصل مهمة تعليم المعلمين الشابين . أبذل لنا النصح وأشرف علينا . وسيسلس قيادنا لك وسأحتاج إليك ما حييت . . . . لقد أديت واجبك فعلمتنى كيف اقتدى بك ، بينما تستمتع أنت بالفراغ الذى تستحقه جزاء جهودك[٩٧] » .

لقد اتفق العالم عموما بعد قرنين من الثناء ، والسخرية ، والتجربة على أن « اميل » كتاب جميل موح ، ومستحيل . فالتربية موضوع ثقيل ، لأننا نتذكرها فى ألم ، ولانحب أن نسمع المزيد عنها ، ونكره أن تفرض علينا من جديد بعد أن أتممنا مدة الخدمة التى فرضت علينا فى المدرسة . ومع ذلك فقد صنع روسو من هذا الموضوع المنفر رواية تسحر قارئها . فالأسلوب البسيط ، المباشر الشخصى يأسرنا برغم ما شابه من تمجيد بليلغ ، ونحن ننساق للرواية ونسلم أنفسنا للدلك المعلم الكلى العلم ، وأن ترددنا فى إسلام أبنائنا له . ذلك أن روسو ، بعد أن امتدح حدب الأم وحياة الأسرة ، يأخذ إميل من أبويه وينشئه فى عزلة مضادة للفساد عن المجتمع الذى لابد له من العيش فيه بعد حين . وروسو لم يرب أطفالا قط ، لذلك لايعلم أن الطفل المتوسط هو بـ « الطبيعة » لص صغير ، غيور ، جشع ، مسيطر ، ولوانتظرنا حتى يتعلم الانضباط دون أوامر ، والاجتهاد دون تعليم ، لشب إنساناً سيء التكيف ، بليداً قليل الحيلة ، فوضوياً ، قذر الجسم أشعث الشعر ، لايطاق . وأنى لنا هؤلاء المعلمون الخصوصيون الراغبون فى تكريس عشرين عاما من حياتهم لتربية طفل واحد ؟ تقول مدام دستال (١٨١٠) أن هذا الضرب من العناية والاهتمام . . . يضطر كل رجل إلى تكريس حياته كلها لتربية مخلوق آخر ، ولا تتاح الحرية فى النهاية إلا للاجداد ليهتموا بمصالحهم[٩٨] .

وأكبر الظن أن روسو أدرك هذه الصعوبات وغيرها بعد أن أفاق من نشوة تأليف كتابه . فقد جاءه فى ستراسبورج عام ١٧٦٥ أحد المتحمسين له وهو يتدفق ثناء وقال له « سيدى انك ترى رجلا ينشىء أبناءه على المبادىء التى أسعده أن يتعلمها من كتابك اميل » . وقال روسو

غاضبا » هذا أسوأ لك ولأبنك[٩٩] . وفى الرسالة الخامسة من « رسائل من الجيل » بين أنه لم يؤلف إميل للآباء العاديين بل للحكماء « لقــد أوضحت فى المقدمة أن اهتمامى كان بتقدم خطة نظام جديد للتربية لينظر فيه الحكماء ، لا طريقة يستخدمها الآباء والأمهات[١٠٠] » . فهو كمعلمه افلاطون انتزع الطفل من أذى أبويه مؤملا أن يصبح صالحاً لتربية اطفاله بعد ان اكتملت له التربية المنقذة . وكأفلاطون « ذخر فى السماء أنموذجا لحالة أو طريقة مثالية ، حتى « يشهدها كل راغب ، فإذا شهدها استطاع أن يوجه نفسه وفقها[١٠١] » . وقد اذاع على الناس حلمه هذا ، عسى أن يحمل الإلهام فى بلد ما ، لبعض الرجال والنســاء ، ويعين على صلاح الحال . ولقد فعل .

* * *

الفصل الثامن

روسو المنبوذ

١٧٦٢ — ٦٧

١ — الهروب

عجيب أن يفلت من الرقيب كتاب يحوى ما حوى إميل من هجوم صريح على كل شيء إلا أسس المسيحية ، وأن يطبع فى فرنسا . ولكن الرقيب كان مالزيرب المتسامح العطوف . وقبل أن يأذن بالنشر حث روسو على أن يحذف فقرات من المؤكد أنها تدفع الكنيسة إلى العداء النشيط . ولكن روسو رفض . ولقد نجا زنادقة آخرون من الاضطهاد لأشخاصهم بالتخفى وراء أسماء مستعارة ، أما روسو فقد ذكر اسمه بشجاعة على صفحات غلاف كتبه .

وبينما ندد جماعة الفلاسفة بإميل باعتباره خيانة أخرى للفلسفة ، أدانه أحبار فرنسا وقضاة باريس وجنيف باعتباره مروقا من المسيحية . وأعد رئيس أساقفة باريس ، عدو الجنسنين ، للنشر فى أغسطس ١٧٦٢ رسالة قوية تهاجم الكتاب . وكان برلمان باريس المناصر للجنسنين مشغولا بطرد اليسوعين ، ولكنه أراد رغم ذلك أن يبدى غيرته على الكاثوليكية ، وأتاح له ظهور إميل فرصة ليضرب ضربته دفاعا عن الكنيسة . واقترح مجلس الدولة الذى كان يخوض حربا مع البرلمان. ويكره أن يكون دونه غيرة على سلامة العقيدة ، أن يلقى القبض على روسو . فلما نمى الخبر إلى أصدقاء روسو من النبلاء نصحوه بالرحيل فورا عن فرنسا . وفى ٨ يونيو بعثت إليه مدام دكريكى رسالة تشى بانفعالها . قالت : لاريب فى أن أمراً صدر بالقبض عليك . فاستحلفك بالله أن تهرب . . . إن حرق كتابك ان يضيرك أما شخصك فلا يطيق السجن . فاستشر جيرانك [١] .

أما الجيران فكانا مرشال ومرشالة لكسمبورج . وقد خشيا أن يتورطا فى الأمر لو قبض على روسو [٢] ، فحثاه هما وأمير كونتى على الهروب إلى سويسرة ، وأعطوه مبلغا من المال وعربة ليعبر بها الطريق الطويل من فرنسا إلى سويسره . وأذعن روسو على مضض . وترك تريز فى رعاية المرشالة . وبرح مونمورنى فى ٩ يونيو . فى ذلك اليوم حضر مرسوم بالقبض عليه ولكنه نفذ ببطء رحيم ، لأن الكثيرين من رجال الحكومة سرهم أن يتركوه يهرب . وفى ذلك اليوم ذاته قال الأستاذ أومير جولى دفلورى لبرلمان باريس وهو يلوح بنسخة من إميل :

« يبدو أن هذا العمل ألف لهدف واحد هو رد كل شىء إلى الدين الطبيعى ، وتطوير ذلك النظام الإجرامى فى خطة المؤلف لتربية تلميذه ...

وأنه ينظر إلى جميع الأديان على أنها تستوى فى الخير ، وعلى أنها كلها منبعثة من مناخ الناس ، وحكومتهم وطبعهم . . وأنه بناء على هذا يجرؤ على هدم صحة الكتاب المقدس والنبوات ، ويقينية المعجزات الواردة فى الأسفار المقدسة . وعصمة الوحى ، وسلطان الكنيسة . . وهو يسخر من الدين المسيحى ويجدف عليه . ذلك الدين الذى هو وحده من صنع الله .

ومؤلف هذا الكتاب الذى جرؤ على وضع اسمه عليه يجب القبض عليه بأسرع ما يمكن . ومن الأهمية بمكان ، أن تجعل العدالة — من المؤلف وأولئك الذين . . » شاركوا فى طبع هذا الكتاب وتوزيعه — مثلا وعبرة للناس بكل صرامة » .

ومن ثم فقد أمر البرلمان :

بأن يمزق الكتاب المذكور ويحرق فى فناء القصر (قصر العدالة) أسفل السلم الكبير ، بيد كبير الجلادين ، وعلى كل الذين يملكون نسخا من الكتاب أن يسلموها إلى المسجل لإبادتها ، ومحظور على الناشرين طبع هذا الكتاب أو توزيعه ، وسيقبض على جميع بائعيه وموزعيه ويعاقبون طبقا لنص القانون الصارم ، ويجب القبض على ج — ج روسو وزجه فى سجن الكونسيرجرى فى قصر العدالة [٣] .

وفى ١١ يونيو مزق وحرق إميل كما نص الأمر، ولكن روسو كان قد وصل إلى سويسرة. أمرت الحوذى أن يقف لحظة دخولى إقليم برن وخرجت من مركبتى، وخررت على وجهى، وقبلت الأرض وصحت فى غمرة فرحى:

« حمدا لك أيتها السماء، حامية الفضيلة، إننى ألمس أرضاً للحرية [٤]. »

ولم يكن مطمئناً كل الاطمئنان. فواصل ركوبه إلى إيفردون، قرب الطرف الجنوبى لبحيرة نوشاتل، فى مقاطعة برن، وهناك مكث شهرا مع صديقه القديم روجان. أيبحث عن منزل فى جنيف؟ ولكن فى ١٩ يونيو أدان مجلس الخمسة والعشرين الذى يحكم جنيف كلا من « إميل » و« العقد الاجتماعى» لأنهما خارجان على التقوى، فاضحان، وقحان، مفعمان بالتجاديف والافتراءات على الدين. وقد جمع المؤلف تحت ستار الشك كل ما من شأنه أن يضعف المقومات الرئيسية للدين المسيحى المنزل، ويهزها ويهدمها . . . ويتعاظم خطر الكتابين ووجوب شجبهما لأنهما مكتوبان بالفرنسية (لا باللاتينية التى لا تعرفها غير القلة) بأسلوب شديد الإغراء، منشوران باسم مواطن جنيفى [٥].

وعليه فقد أمر المجلس بحرق الكتابين، وحرم بيعهما، وأصدر مرسوماً بالقبض على روسو إذا دخل يوما ما أرض الجمهورية. ولم يعترض قساوسة جنيف على هذا التبرؤ من أشهر أبناء جنيف الأحياء. ولا ريب فى أنهم شعروا بأن أى عطف يبدونه لمؤلف « إعلان بإيمان كاهن سافوى »، سيؤكد ما كشفه دالامبير عما يبطنونه من ميول للتوحيد، وانقلب عليه يعقوب فيرن الذى ظل صديقا له سنين كثيرة، وطالب بأن يسحب روسو أقواله. يقول روسو وهو يذكر ذلك الموقف « لو سرت بين الجماهير أى شائعة عنى لأضرت بى، وقد عاملنى كل مروجى الشائعات والمتفيقهين كأننى تلميذ يهدد بالجلد لأنه لم يحسن حفظ درسه الدينى [٦].

وتأثر فولتير من موقف غريمه، فلقد قرأ إميل، وتعليقاته مازالت ترى على نسخته المحفوظة بمكتبة جنيف. وفى خطاب مؤرخ ١٥ يونيو كتب عن الكتاب « إنه خليط تهرف به مرضعة بلهاء فى أربعة مجلدات بها أربعون

صفحة ضد المسيحية من أجرأ ما عرفنا . . , وهويقول في الفلاسفه من الأشياء المؤذية قدر ما يقوله في المسيح ، , ولكن الفلاسفة سيكونون أكثر تسامحا من القساوسة[٧] . على أية حال أعجبه « إعلان الإيمان » فقال عنه خمسون صفحة كاملة ، ولكنه أضاف « من المؤسف أن يكون كاتبها . . . وغدا كهذا[٨]. وكتب إلى مدام دودفان سأحب مؤلف كاهن سافوى، مهما فعل ومهما يفعل[٩] . . ولما سمع أن جاك طريد لا مأوى له صاح « فليأت إلى هنا (إلى قريته) . . يجب أن يأتي . سأستقبله بذراعين مفتوحتين . سيكون هنا سيداً أكثر مني . سأعامله كأنه ابني[١٠]». وبعث بدعوته إلى خمسة عناوين مختلفة ، ولابد أنها وصلت إلى أحدها ، لأن روسو أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يرد عليها[١١] . وفي ١٧٦٣ جدد فولتير الدعوة ، فرفضها روسو ، واتهم فولتير بأنه حرض مجلس الخمسة والعشرين على إدانة « العقد الاجتماعي » و « إميل» . . ولكن فولتير أنكر التهمة ، وبحق فيما يبدو .

وفي بواكير يوليو ١٧٦٢ أخطر مجلس شيوخ برن روسو بأنه لايستطيع السماح بوجوده في اقليم برن ، وأن عليه أن يرحل عنه في بحر خمسة عشر يوما وإلا واجه السجن . وتلقى خلال ذلك خطابا رقيقا من دالامبير ينصحه بأن يحاول الاقامة في إمارة نوشاتل ، وكانت تقع في قضاء فردريك الأكبر ، ويحكمها ايرل ماريشال جورج كيث ، الذي قال عنه دالامبير إنه سيستقبلك ويعاملك كما كان الآباء في العهد القديم يستقبلون ويعاملون الفضيلة المضطهدة[١٢] . وتردد روسو ، لأنه كان قد انتقد فردريك زاعما أنه طاغية في ثياب فيلسوف[١٣] . ومع ذلك قبل في ١٠ يوليو ١٧٦٢ دعوة ابنة أخي روجان ، مدام دلاتور ، بأن ينزل بيتا تملكه موتييه — ترافير ، على خمسة عشر ميلا جنوب شرقي مدينة نوشاتل في بقعة سيصفها بوزويل بأنها واد بري بديع تحيط به الجبال الشاهقة[١٤]. وحوالي ١١ يوليو تقدم جان — جاك بالتماس إلى الحاكم ، وبما تميز به من تواضع وإباء . كتب إلى : (ملك بروسيا) .

« لقد قلت فيك الكثير من السوء ، وأغلب الظن أنى قائل فيك المزيد منه ؛ ولكننى وأنا مطارد من فرنسا ومن جنيف ، ومن مقاطعة برن ، جئت ألتمس ملجأ فى ولاياتك . . . سيدى ، لم أستحق منك فضلا ، ولا أطلب فضلا ، ولكنى أحسست بأن من واجبى أن أصرح لجلالتك بأننى فى قبضتك ، وانى شئت أن أكون كذلك ، لجلالتك أن تتصرف معى كما تشاء » .

وكتب فردريك إلى كيث فى تاريخ غير مؤكد ، وهو لم يفرغ بعد من حرب السنين السبع :

« يجب أن ننقذ هذا الشقى المسكين . فذنبه الوحيد أن له آراء غريبة نحسبها سديدة ، سأرسل إليك مائة كروان ، فتفضل باعطائه منها ما يحتاج اليه . وأظنه سيقبلها عينا بأسهل مما يقبلها نقدا ، ولولا أننا نخوض حرباً ، ولولا أننا أفلسنا ، لبنيت له كوخا بحديقة حيث يستطيع العيش كما عاش فى ظنى أباؤنا الأولون . . . . أظن أن روسو المسكين قد اختار المهنة الخطأ ، فواضح أنه ولد ليكون ناسكا مشهورا ، وأبا من آباء البرية يشتهر بنسكه وجلده لجسده . ختاما أقول أن نقاء أخلاقيات صاحبك المتوحش يعدل عدم منطقية عقله[١٥] » .

أما المريشال ، الذى يقول روسو إنه قديس بخيل ، عجوز ، شارد الذهن ، فقد أرسل اليه الزاد والفحم والخشب ، واقترح أن يبنى له بيتاً صغيراً . وفسر جان — جاك هذا العرض بأنه آت من فردريك ، فرفضه ، « ولكن منذ تلك اللحظة تعلقت به تعلقاً صادقاً حتى أصبحت أهتم الآن بمجده قدر ما كنت أرى انتصاراته إلى ذلك الحين ظالمة[١٦] . وفى أول نوفمبر ، والحرب قاب قوسين من نهايتها ، كتب إلى فردريك يصف مهام السلم :

« مولاى :

أنت حامي وولي نعمتي ، وان لي لقلبا خاق ليعرف الجميل، وأريد أن أبرىء نفسي معك ، ان استطعت . تريد أن تعطيني الخبز ، أفليس بين رعاياك من يعوزه الخبز؟ أبعد عن عيني ذلك السيف الذى يومض ويجرحني ... أن سيرة الملوك الذين أوتوا همتك عظيمة ، وأنت لاتزال بعيدا عن ساعة منيتك ، ولكن الوقت كالسيف ، وليس أمامك لحظة واحدة تضيعها . أو تستطيع ان تعتزم الموت دون أن تكون أعظم الرجال قاطبة .

ولو أتيح لى يوما أن أرى فردريك العادل المرهوب يملأ بلاده فى نهاية المطاف بشعب سعيد سيكون أباً له ، إذن لذهب جان — جاك روسو عدو الملوك ، ليموت فرحا فى أسفل عرشه[١٧] ».

ولم يرد فردريك ردا وصل إلينا علمه ، ولكن حين ذهب كيث إلى برلين أخبره الملك بأنه تلقى توبيخاً من روسو[١٨] .

وحين خيل لجان — جاك أنه ضمن بيتاً يقيم فيه ، أرسل إلى تريز لتلحق به . ولم يكن واثقا من أنها ستأتى ، لأنه أحس قبل ذلك بزمن طويل بفتور حبها له ، وعزا هذا إلى توقفه عن الاتصال الجنسى بها ، لأن «الاتصال بالنساء كان يؤذى صحتى[١٩]» . فلعلها الآن تؤثر باريس على سويسرة . ولكنها حضرت . وكان لقاء ذرفا فيه الدموع ، وتطلعا أخيرا إلى بضع سنين ينعمان فيها بالسلام .

٢ — روسو ورئيس الأساقفة

ولكن السنوات الأربع التالية كانت أشق مالقيا . ذلك أن قساوسة نوشاتل الكلفنين أدانوا روسو علانية بالمرطقة ، وحظر القضاة بيع إميل . » واستأذن روسو راعى الكنيسة فى موتييه فى أن ينضم إلى شعب كنيسته ، ربما ليهدىء ثائرة القساوسة ، أو مدفوعا برغبة صادقة فى اتباع مبادىء كاهن سافوى، (أما تريز فظلت كاثوليكية) ، فقبل . واختلف إلى الكنيسة للصلاة ، وتناول القربان « بعاطفة من القلب ، وعيناى تملؤهما دموع الحنان[٢٠]. » وأعطى الساخرين منه سلاحا باتخاذه الزى الأرمنى — قلنسوة من فراء ،

وقفطان ، وحزام . وأتاح له الروب الطويل أن يستر آثار حصر البول الذى ابتلى به . وكان يختلف إلى الكنبسة فى هذا الزى ، وارتداه وهو يزور اللورد كيث ، الذى لم يعلق عليه إلا بتحيته بعبارة (السلام عليكم) . وواصل الإضافة إلى دخله بنسخ الموسيقى ، ثم أضاف إليها الآن أشغال الأبرة ، وتعلم صناعة الدنتلا . كنت أحمل كالنساء مخدتى فى زياراتى ، أو اجلس لأشتغل بالأبرة عند باب بيتى . . وأتاح لى هذا أن انفق وقتى مع جاراتى دون أن أحس مالا . . (٢١)

وأغلب الظن أن الناشرين أقنعوه فى هذه الفترة (أواخر ١٧٦٢) بأن يبدأ كتابه « اعترافات » وكان قد أقسم أن يعتزل التأليف ، ولكن هذا لن يكون تأليفاً بقدر ماهو دفاع عن خلقه وسلوكه ضد عالم من الخصوم ، لا سيما ضد تهم جماعة الفلاسفة وشائعات الصالونات . أضف إلى ذلك أنه كان مضطراً إلى الرد على عدد كبير من مختلف الرسائل . وقدم له النساء على الأخص بخوراً معزباً من إعجابهم الشديد ، لا لتعاطفهن فحسب مع المؤلف المطارد لرواية مشهورة ، بل لأن نفوسهن كانت تهفو للرجوع إلى الدين ، ولم يرين فى « كاهن سافوى » وصانعه عدوا حقيقياً للدين ، بل المدافع الشجاع عنه ضد إلحاد يشيع الكآبة فى النفوس . لمثل هؤلاء النساء ولرجال عديدين ، غدا اب الاعتراف ، ومرشداً للنفوس والضمائر . وقد نصحهم بأن يقيموا على دين شبابهم أو يعودوا إليه ، ضاربين صفحاً عن كل الصعوبات التى يوحى بها العلم والفلسفة . فتلك العجائب البعيدة التصديق ليست هى الجوهر ، ولا ضير فى تنحيتها فى صمت ، إنما العبرة بالإيمان بالله وبالخلود ، فبهذا الإيمان والرجاء يستطيع الإنسان أن يتسامى فوق كل كوارث الطبيعة التى لا تفهم ، وكل آلام الحياة وأحزانها . وطلب كاثوليكى شاب متمرد على دينه تعاطف روسو ، فأجابه روسو ناسياً تمرداته ألا يهتم كثيرا بالتوافه العارضة . « لو أننى ولدت كاثوليكيا لظللت كاثوليكيا ، علما بأن كنيستك تضع قيداً صحياً على شطحات العقل البشرى الذى لا يجد قرارا ولا شاطئاً حين يريد سبر أعماق الأشياء السحيقة (٢٢) » . وأشار على جل طلاب الحكمة هؤلاء

بالهروب من المدينة إلى الريف ، ومن التكلف والتعقد إلى البساطة الطبيعية للحياة ، والرضا الهادىء بالزواج والأبوة .

وأحبت النساء اللاتى صدمهن القساوسة المتعلقون بالحياة الدنيا ورؤساء الدين المتشككون ، هذا المهرطق الزاهد الذى ندت به جميع الكنائس ، وإن اقتصر هذا الحب على الرسائل . فقالت مدام دبلو ، النبيلة المحترمة ، لجماعة من النبلاء والنبيلات ، « مامن شيء يمنع امرأة ذات حس مرهف صادق من تكريس حياتها لروسو إلا أسمى ضروب العفة ، لوكانت واثقة من أنه سيحبها حبا حارا [٢٣]. وحسبت مدام دلاتور بعض ماجاء فى خطاباته لها من مجاملات اعترافاً بالحب ، فاستجابت و رقة وحرارة وتدفق وبعثت إليه بصورتها ، مؤكدة أنها لا تنصفها . وابتأست حين أجاب بهدوء رجل لم يرها قط [٢٤]. إلا أن معجبات أخريات تمنين لو قبلن الأرض التى يمشى عليها ، وأقامت بعضهن مذابح له فى قلوبهن ، ودعاه بعضهن المسيح المولود من جديد . وكان يصدقهن أحياناً ، ورأى فى نفسه المؤسس المطلوب لدين جديد [٢٥] .

وسط هذا التمجيد كله ، أثار الشعب عليه كاهن أعلى من كهنة التمويل (الهيكل) — كأنما لتأكيد القياس — ليدينوه ثائر خطرا . ففى ٢٠ أغسطس ١٧٦٢ أصدر كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، رسالة لجميع الكهنة فى أسقفيته ليقرءوا على شعبهم ، ويعلنوا على الملأ ، اتهامه لإميل ذا التسع والعشرين صفحة . وكان رجلا صارم العقيدة طاهر السمعة ، حارب الجانسنيين والموسوعية والفلاسفة ؛ وبدا له الآن أن روسو ، بعد ماظهر من انفصاله عن الملحدين ، قد انضم إليهم فى مهاجمة الإيمان الذى يرتكز عليه فى رأى رئيس الأساقفة نظام فرنسا الاجتماعى كله وحياتها الأخلاقية بأسرها.

واستهل اتهامه بالاستشهاد بمـــا جاء فى رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس :

« ستأتى أزمنة صعبة لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم . . متعظمين ،

مستكبرين ، مجدفين . . غير طائعين لوالديهم متصلفين ، محبين للذات ، دون محبة الله ... أناس فاسدة أذهانهم ومن وجهة الإيمان مرفوضون[٢٦] .

وهاهي قد جاءت تلك الأزمنة مافى ذلك شك :

« إن الكفر الذى تشجعه جميع الشهوات يلبس كل لبوس ليكيف نفسه على نحو ما وفق جميع الأعمار ، والأشخاص والطبقات . . . فقد يستعير أسلوباً خفيفاً لطيفاً لعوبا ، ومن هنا الحكايات الكثيرة التى تستوى بذاءة وزندقة (روايات فولتير) ، وترفه عن الخيال لأنها غواية للعقل ومفسدة للقلب . وقد يدعى الرجوع إلى الأصول الأولى للمعرفة متظاهرا بعمق آرائه وسموها ، ويزعم له سندا إليها ، لكى يخلع نيراً يقولون إنه بجلل البشر بالعار . وقد يعلو صوته كأنه امرأة غضبى فيهاجم الغيرة الدينية ، ومع ذلك يبشر بالتسامح الشامل بحماسة . وقد يمزج الجد بالهزل فى جمعه بين هذه الأساليب الكلامية المختلفة ، ويخلط الحكم بالفحش ، والحقائق الكبيرة بالأخطاء الكبيرة ، والإيمان بالتجديف ، ويأخذ على عاتقه — باختصار — التوفيق بين النور والظلمة ، وبين المسيح وبليعال »[٢٧] .

وقال رئيس الأساقفه أن هذه الطريقة لجأ اليها إميل بصفة خاصة ، فهو كتاب حفل بلغة الفلسفة دون أن يكون فلسفة حقاً ، وطفح بنتف من المعرفة لم تثر المؤلف ، وكل ما تفعله أنها تربك قرءاه لامحالة . أنه رجل مولع بمفارقات الآراء والسلوك ، يجمع بين بساطة العادات وخيلاء الفكر ، بين الحكم القديمة وجنون التجديد ؛ وبين احتجاب عزلته ورغبته فى أن تعرفه الدنيا بأسرها . إنه يندد بالعلوم ، ثم يصادقها . إنه يمتدح روعة الانجيل ، ثم يدمر تعاليمه . لقد أقام نفسه معلماً للنوع الإنسانى ليخدعه ، ومرشدا للشعب ليضل العالم ، ونبياً للقرن ليهدمه ، فيالها من مغامرة[٢٨] .

وهال رئيس الأساقفة ما اقترحه روسو من إغفال ذكر الله أو الدين لإميل حتى يبلغ الثانية عشرة أو حتى الثامنة عشرة ، فمعنى هذا أن « الطبيعة

كلها تكون قد تحدثت عبثاً بعظمة الخالق . . وأن كل تعليم خلقى سيفقد مساندة الإيمان الديني . ولكن الإنسان ليس بطبيعته خيراً كما زعم المؤلف . فهو يولد ملوثا بالخطيئة الأصلية ، وهو يشارك في افساد البشرية العام . والمعلم الحكيم — وخير المعلمين كاهن ترشده النعمة الإلهية — يتوسل بكل وسيلة سليمة ليغذى دوافع الخير في الناس ، ويقتلع دوافع الشر ، ومن ثم فهو يطعم الطفل بلبن الدين الروحى . لكى ينمو نحو الخلاص . . وبهذا التعليم وحده يمكن أن يغدو الطفل عابدا مخلصا للإله الحق ، وواحداً من رعايا الملك الأوفياء [٢٩] . وأن الكثير من الخطايا والجرائم ليظل باقياً حتى بعد هذا التعليم المجتهد ، فما بالك بها إذا حرم الطفل منه . إن سيلا عرما من الشر يغرقا في هذه الحالة [٣٠] » .

وقال رئيس الأساقفة في ختام كلامه إنه لهذه الأسباب :

« بعد استشارة عدة أشخاص عرفوا بورعهم وحكمتهم ، وبعد التضرع لإسم الله القدوس ، ندين هذا الكتاب لأنه يحوى تعليما بغيضا من شأنه أن يقلب القانون الطبيعى وأسس الدين المسيحى ، وأن يرسى مبادىء تناقض تعليم الأناجيل الخلقى ، وينحو إلى تكدير سلام الدول ، وتزعم الثورة على سلطان الملك ، ولأنه يتضمن الكثير جدا من الدعاوى الباطلة المفترية المفعمة بالحقد على الكنيسة ورعاتها . . لذلك نحظر صراحة على جميع الأشخاص في أسقفيتنا أن يقرأوا الكتاب المذكور أو يقتنوه ، وإلا وقعوا تحت طائلة العقاب [٣١] . »

وطبع هذه الرسالة « بامتياز الملك » وسرعان ما وصلت إلى موتيه — ترافير . وقرر روسو أن يرد عليها ، وهو الذى كان على الدوام مصمما على الكف عن الكتابة . وقبل أن يضع قلمه (١٨ نوفمبر ١٧٦٢) كان قد أطلق له العنان حتى بلغ الرد ١٢٨ صفحة ، وطبع بامستردام في مارس ١٧٦٣ ، بهذا العنوان : « من جان — جاك روسو المواطن الجنيفى إلى كرستوف ديمومون رئيس أساقفة باريس » . وسرعان ما أدانه برلمان باريس ومجمع جنيف . ورد روسو على الهجوم الذى شنه عليه مذهبا أوربا الكبيران

بالهجوم عليهما جميعا . وراح الرومانسى الخجول الذى نبذ من قبل جماعة الفلاسفة يكرر الآن حججهم بجرأة مستهترة .

واستهل رده بسؤال مازال يسأله جميع الخصوم بعضهم لبعض فى هذا الجدل الذى لاينتهى . « لم يتحتم على أن أقول أى شىء لك يا صاحب النيافة ؟ وأى لغة مشتركة يمكننا أن نتحدث بها ، وكيف نستطيع أن يفهم الواحد منا الآخر(٣٢) ؟ وأبدى أسفه لأنه ألف كتباً على الاطلاق ، وهو لم يفعل إلا حين بلغ الثامنة والثلاثين ، وقد جره إلى هذه الغلطة أنه لاحظ مصادفة ذلك « السؤال التعس » الذى وجهته أكاديمية ديجون ، ودفعه نقاد المقال إلى الرد عليهم ، ثم أفضى كل جدل إلى جدل جديد . . . فألفيتنى ، إن جاز التعبير ، أغدو مؤلفا فى سن يهجر فيها المؤلفون التأليف عادة . . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم اختفت الراحة والأصدقاء(٣٣) » . وزعم أنه فى حياته كلها كان :

« أكثر حماسة منى استفادة . . ولكنى كنت مخلصاً فى كل شىء . . بسيطا طيعا ، وإن كنت مرهف الحس ضعيفا ، أفعل الشر كثيرا وأحب الخير دائماً . . أتبع عواطفى أكثر من مصالحى . . أخشى الله دون أن أخشى الجحيم .. أجادل فى الدين ولكن دون إباحية . لاأحب الكفر ولاالتعصب ، ولكنى أمقت المتعصبين أكثر مما أمقت الملحدين . . وأعترف بأخطائى لأصدقائى واعلن آرائى للعالم كله(٣٤) » .

وأحزنته إدانة الكاثوليك لإميل أقل مما أحزنته إدانة الكلفنيين . فهو الذى كان يعتز بلقبه « مواطنا جنيفيا » هرب من فرنسا أملا فى أن يتنفس فى مسقط رأسه نسيم الحرية ، وأن يجد فيه من الترحيب ما يعزيه عما لقى من اذلال كثير . أما الآن « فماذا أقول ؟ إن قلبى ينفلق ، ويدى ترتعد ، والقلم يسقط منها ، وعلى أن أصمت . . ويجب أن اجتر فى الخفاء أشد أحزانى مرارة (٣٥) . فهاهو الرجل الذى اجترأ فى قرن اشتهر بالفسلفة ، والعقل والإنسانية ، على أن يدافع عن قضية الله ، ها هو قد وصم ، وحرم وطورد من بلد إلى بلد ، ومن ملجأ إلى ملجأ ، دون اكتراث لفقره ، ولارحمة

لأمراضه » ثم وجد ملاذا آخر الأمر عند « ملك مستنير ذائع الصيت » وأنزوى فى قرية صغيرة رابضة بين جبال سويسرة ، ظانا أنه فى النهاية ، واجد العزلة والهدوء ، ولكن طاردته حتى هناك لعنات الكهنة .. أن رئيس الأساقفة هذا ، « الرجل الفاضل ، النبيل النفس ، الكريم المحتد » ، كان ينبغى أن يوبخ هؤلاء المضطهدين ، ولكنه بدلا من هذا أصدر لهم الأذن فى غير خجل ، « وهو الذى كان يجب أن يدافع عن قضية المظلومين[٣٦] ..

وأحس روسو أن أشد ماساء رئيس الأساقفة هو تعليم روسو أن الناس يولدون اخيار ، أو غير أشرار على الأقل ، وقد أدرك بومون أنه لو كان هذا حقا ، ولو لم يكن الإنسان ملوثا منذ مولده بوراثته خطيئة آدم وحواء، لسقط التعليم بكفارة المسيح ، وهذا التعليم لب العقيدة المسيحية . ورد روسو بأن تعليم الخطيئة الأصلية لم يذكر بوضوح فى أى مكان من الكتاب المقدس. وقد إدرك أن رئيس الأساقفة قد صدمه الأقتراح بتاحيل تعليم الدين ، فرد بأن تربية الأطفال على أيدى الراهبات والقساوسة لم تقلـــل من الخطيئة أو الجريمة ، فهؤلاء الأطفال بعد أن يكبروا يفقدون خوفهم من الجحيم ، ويؤثرون لذة صغيرة حاضرة على الجنة التى وعدوا بها . ثم ما بال هؤلاء القساوسة انفسبهم ــ أتراهم نماذج للفضيلة فى فرنسا المعاصرة[٣٧] ؟ ومع ذلك « فأنا مسيحى ، مسيحى بأخلاص ، طبقاً لتعليم الأنجيل ، لا مسيحى متلمذ للقساوسة ، بل تلميذ للمسيح » . ثم أضاف روسو وعينيه على جنيف « إننى فى سعادتى بالولادة فى أقدس وإعقل دين فى الأرض ، مازلت متعلقاً تعاقا لا أنفه ام فيه بأيمان آبائى . وأنا مثلهم أتخذ من الأسفار المقدسة والعقل القواعد الوحيدة لأيمانى[٣٨] ... وأحس بلوم من أخبروه بأنه « مع أن كل أصحاب العقول الذكية يفكرون كما تفكر ، فأنه ليس من الخير أن يفكر العوام على هذا النحو » .

« ذلك ما يتصايحون به على من كل جانب ، ولعله ماكنت أنت نفسك قائله لى لو كنا وحيدين فى مكتبك . هكذا الناس ، فهم يغيرون لغتهم مع ملابسهم ، ولا يقولون الحق إلا وهم فى أروابهم ، أما فى ثيابهم التى

يبدون فيها أمام الناس فلا يعرفون إلا أن يكذبوا . وهم ليسوا مخادعين غشاشين أمام وجوه البشر فحسب ، بل إنهم لا يخجلون من أن يعاقبوا كل من يأبون أن يكونوا غشاشين كذابين علانية مثلهم ، مخالفين فى ذلك ضمائرهم (٣٩) .

وهذا الخلاف بين ما نؤمن به وما نبشر به هو سر الفساد فى الحضارة العصرية . أن هناك تحيزات ينبغى أن نحترمها ، على ألا تحيل التربية إلى خداع هائل وتقوض الأساس الخلقى للمجتمع (٤٠) . فإذا أصبحت هذه التحيزات قتالة فهل نسكت على جرائمها ؟

« لست أقول ، ولا أرى ، أن الدين الحسن لا وجود له ... ولكن الذى أقوله . . . . أنه ما من دين من الأديان التى سادت لم يثخن الإنسانية بالجراح . وكل المذاهب عذب بعضها بعضا ، وكلها قدم لله قربان الدم البشرى . وأيا كان مبعث هذه التناقضات فهى قائمة ، فهل من الأجرام الرغبة فى إزالتها (٤١) ؟

وقبيل ختام رده دافع روسو عن إميل دفاع المحب المتيم بكتابه ، وتساءل لم لم يقم لمؤلفه تمثال .

« هبنى ارتكبت بعض الأخطاء ، لا بل كنت دائما مخطئا ، أفلا شفاعة لكتاب يشعر المرء فى كل جزء فيه — حتى فى أغلاطه وحتى فى الضرر الذى قد يكون فيه — بالحب الصادق للخير وبالغيرة على الحق ؟ . . كتاب لا يشع غير السلام ، واللطف ، والصبر ، وحب النظام ، وطاعة القوانين فى كل شىء ، حتى فى أمر الدين . كتاب تؤكد فيه قضية الدين تأكيداً رائعاً ، وتحترم فيه مكارم الأخلاق احتراما كبيراً . . . . ويصور الشر فيه على أنه حماقة ، والفضيلة على أنها شىء محبب للنفوس . . . أجل ، إنى لا أخشى أن أقولها . . فلو أن فى أوربا حكومة واحدة مستنيرة حقاً . . لخلعت على مؤلف إميل أسباب التشريف العلنية ، ولأقامت له تمثالا . .. ولكن خبرتى الكبيرة بالبشر تمنعنى من أن أتوقع تقديراً كهذا وأنا لم أعرفهم معرفة تكفى لأن أتوقع ذلك الذى أتوه » .

ولكنهم أقاموا له التماثيل .

٣ — روسو والكلفنيون

لم يبتهج بخطاب روسو الذى وجهه إلى كرستوف بومون غير بعض أحرار الفكر فى فرنسا وبعض المتمردين السياسيين فى سويسرة . وجاءت من البروتستنت معظم الردود « المفندة » لدعاوى روسو والموجهة إلى المؤلف . ورأى قساوسة جنيف الكلفنيون فى الخطاب هجوما على المعجزات وتنزيل الكتاب المقدس ، والإغضاء عن هـــذه الهرطقات معناه التمهيد من جديد للخطر الذى عرضهم له دالامبير . وغضب روسو من إحجام الأحرار الجنيفيين عن الجهر بالدفاع عنه ، فارسل (١٢ مايو ١٧٦٣) إلى مجلس جنيف الكبير يتخلى عن مواطنته .

وقد حظى عمله هذا ببعض التأييد المسموع . ففى ١٨ يونيو رفع وفد إلى الرئيس الأول للجمهورية « إحتجاجا غاية فى التواضع والاحترام من مواطنى جنيف وسكان مدنها » شكا فيها شكا من مظالم ، من أن الحكم الصادر على روسو غير قانونى ، وأن مصادرة نسخ إميل من مكتبات جنيف كانت عدوانا على حقوق الملكية . ورفض مجلس الخمسة والعشرين الاحتجاج . وفى سبتمبر أصدر المدعى العام ، جان روبير ترونشان (ابن عم طبيب فولتير) ، خطابات مكتوبة من الريف « للدفاع عن إجراءات المجلس المختلف عليها . وناشد « المحتجون » روسو الرد على ترونشانى . وإذ لم يكن بروسو أى نية فى البعـــد عن الشر ، فقد نشر (ديسمبر ١٧٦٤) تسعة « خطابات مكتوبة من الجبل » — وهى رد من بيته الجبلى على أوليجاركية السهل الجنيفى . وكان ساخطاً أشد السخط على القساوسة والمجلس جميعا ، فهاجم الكلفنية كما هاجم الكاثوليكية ، واحرق بذلك معظ جسـ من خلفه .

وقد وجه الخطابات من الناحية الشكلية لزعيم المحتجين . واستهلها بتناول الأذى الذى لحق به من جراء الإدانة المتعجلة لكتبه وشخصه ، دون أن تتاح له أى فرصة للدفاع . واعترف بعيوب كتبه . « لقد وجدت أنا نفسى الأخطاء الكثيرة فيها ، ولست أشك فى أن غيرى قد يرون فيها اخطاء أكثر ،

وأنه مازالت هناك أخطاء أخرى لم أدركها لا أنا ولا غيرى . . . فبعد الاستماع إلى الطرفين سيحكم الجمهور . . وسينجح الكتاب أو يسقط ، وتنتهى القضية عند هذا[٤٣] . ولكن أكان الكتاب مؤذيا ؟ أيمكن أن يقرأ انسان « هلويز الجديدة » « وإعلان إيمان كاهن سافوّى » ثم يعتقد حقا أن مؤلفها قصد هدم الدين ؟ صحيح ان الكتابين حاولا تدمير الخرافة لأنها شر بلاء رزئت به البشرية ، ولأنها محنة الحكماء وأداة الطغيان[٤٤] . ولكن ألم يؤكدا ضرورة الدين ؟ ان المؤلف يتهم بعدم ايمانه بالمسيح ، وهومؤمن بالمسيح ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة متهميه .

اننا نعترف بسلطان المسيح ، لأن فكرنا يوافق على تعاليمه ولأننـا نجدها تعاليم سامية . ونحن نسلم بالوحى منبثقاً من روح الله ، دون أن نعرف كيف . . وإذ نقر بسلطان إلهى فى الانجيل ، فاننا نؤمن بأن المسيح بشر بهذا السلطان ، ونحن نقر بفضيلة فى سلوكه تفوق فضيلة البشر ، وبحكمة فى تعليمه تفوق حكمة البشر . »

وأنكر الخطاب الثانى حق مجلس مدنى فى الحكم فى قضايا الدين (ناسيا العقد الاجتماعى) . وفى إدانة إميل انتهاك لمبدأ أساسى من مبادىء حركة الاصلاح البروتستنتى ، وهو حق الفرد فى أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه[٤٥] .

« لو برهنت لى اليوم انى فى مسائل الدين مضطر للاذعان لقرارات غيرى ، فسأتحول إلى الكاثوليكية غدا[٤٦] » . وسلم روسو بأن دعاة الاصلاح البروتستنتى أصبحوا بدورهم مضطهدين للتفسير الفردى[٤٧] . ولكن هذا لا يبطل المبدأ الذى لولاه لكانت ثورة البروتستنت على السلطة البابوية ظالمة . واتهم القساوسة الكلفنيين (باستثناء راعى) بأنهم اعتنقوا روح الكاثوليكية المتعصب ، ولو كانوا أوفياء لروح الاصلاح البروتستنتى لدافعوا عن حقه فى نشر تفسيره الخاص للكتاب المقدس . وجاد الآن بكلمة ثناء على رأى دالامبر فى قساوسة جنيف :

« أن أحد الفلاسفة يلقى عليهم نظرة عجلى ، ثم يتغلغل إلى أعماقهم ،

فيرى أنهم أريوسيون ، سوسينيون ، فيقول هذا ، ويحسب أنه بهذا القول يشرفهم ولكنه لايدرك أنه يعرض مصالحهم الدنيوية للخطر ، وهو الأمر الوحيد الذى يقرر على العموم إيمان البشر فى هذه الدنيا[٤٨] . »

وفى الخطاب الثالث تناول اتهامه برفض المعجزات . فنحن إن عرفنا المعجزة بأنها خرق لقوانين الطبيعة ، فلن نستطيع أبدا أن نعرف هل الشىء معجزة أم غير معجزة ، لأننا لانعرف كل قوانين الطبيعة[٤٩] . فحتى فى ذلك العصر كان كل يوم يشهد معجزة جديدة يحققها العلم ، لامخالفا بذلك قوانين الطبيعة ، بل بفضل معرفته بها معرفة أعظم .

كان الأنبياء فى قديم الزمان يستنزلون النار من السماء بكلمتهم ، أما اليوم فالأطفال يفعلون هذا بقطعة صغيرة من الزجاج (المشتعل) . ان يشوع أوقف الشمس ، وأى واضع للتقاويم يستطيع الوعد بمثل هذه النتيجة إذا حسب كسوف الشمس[٥٠] . وكما أن الأوربين الذين يجرون عجائب كهذه بين الهمج يعدهم هؤلاء آلهة ، فكذلك معجزات الماضى — حتى معجزات المسيح — ربما كانت نتائج طبيعية فسرتها الجماهير خطأ بأنها تعطيلات إلهية للقانون الطبيعى[٥١] . ولعل لعازر الذى أقامه المسيح من بين الأموات لم يكن فى حقيقة الأمر ميتا . ثم ، كيف يمكن أن تثبت معجزات معلم صدق تعليمه ، إذا كان معلمو التعاليم المعتبره عموما تعاليم كاذبة قد أجرو معجزات قيل إنها أيضاً حقيقية ، كما حدث حين بارى سحرة مصر هارون فى تحويل العصى إلى حيات ؟[٥٢] . ان المسيح حذر من « المسحاء الكذبة » الذين يعطون آيات عظيمة وعجائب[٥٣] .

كان روسو قد بدأ خطاباته بغرض مساعدة المحتجين من رجال الطبقة الوسطى ، ولم يطلب توسيعا لحق الانتخاب فى اتجاه ديمقراطى ، لا بل انه فى الخطاب الرابع يلتزم بالرأى بأن الارستقراطية المنتخبة هى خير أشكال الحكم ، وأكد لحكام جنيف أن المثل الأعلى الذى رسمه فى «العقد الاجتماعى» كان فى صميمه متفقا مع الدستور الجنيفى [٥٤] . ولكن فى الخطاب السابع أخبر أصدقاءه من البورجوازية المحتجة أن الدستور لايقر سيادة المواطنين

ذوى الحقوق الانتخابية إلا خلال الإنتخابات للمجلس العام ومؤتمره السنوى ، أما فى باقى السنة فالمواطنون مجردون من السلطة . وفى تلك الفترة الطويلة كلها يكون مجلس الخمسة والعشرين الصغير هو الحكم الأعلى فى القوانين ، وفى مصير جميع الأفراد تبعا لذلك ، والواقع أن المواطنين والبورجوازين الذين يبدون أصحاب سيادة فى المجلس العام ، يصبحون بعد فضه عبيدا لسلطة استبدادية اسلموا بغير دفاع لرحمة خمسة وعشرين مستبدا(٥٦) .

وكان هذا اقرب إلى الدعوة للثورة . ولكن روسو استنكر هذا الملجأ الأخير . ففى خطابه الأخير اثنى على البورجوازية باعتبارها اعقل طبقة فى الدولة ، واكثرها حبا للسلام ، محصورة بين طبقة اشراف غنية ظالمة ، وجماهير متوحشة غبية(٥٧) . ولكنه نصح المحتجين بالصبر والمصابرة ، وبأن يركنوا إلى العدالة والزمن لينصفاهم من مظالمهم .

واغضبت « خطابات الجبل » هذه اعداء روسو وساءت اصدقاءه . . وأفزعت هرطقاته القساوسة الجنيفيين ، وزادهم فزعاً إدعاؤه أنهم يشاطرونه أياها . فانقلب الآن فى عنف على القساوسة الكلفنيين ورماهم بأنهم « رعاع غشاشون ، بطانة غبية ، وذئاب مسعورة » . « وأعرب عن إيثاره للكهنة الكاثوليك البسطاء فى القرى والمدن الفرنسية(٥٨) . ولم يستعن « المحتجون » بالخطابات فى حملتهم الناجحة لنيل المزيد من السلطة السياسية ، واعتبروا روسو حليفاً خطراً لا يركن إليه ، فاعتزم ألا يشارك بعدها بأى نصيب فى السياسة الجنيفية .

٤ — روسو وفولتير

كان قد تساءل فى الخطاب الخامس ، لم لم يوح « المسيو فولتير » الذى « طالما زاره » أعضاء المجلس الجنيفيون ، لهم « بروح التسامح تلك التى لا ينى عن التبشير بها ، والتى يحتاج هو إليها أحياناً ؟ وأجرى على لسان فولتير حديثا خيالياً(٥٩) يحبذ فيه حرية الكلام للفلاسفة بحجة أن قلة لا تذكر

هى التى تقرأ لهم . وكان تقليده لأسلوب فولتير الخفيف الرشيق بارعا .
ولكنه صور حكيم فرنية معترفا بتأليفه لكتاب نشر حديثا أسمه « عظة الخمسين » وكان فولتير أنكر أبوته غير مرة لأنه زخر بالمرطقات . ولاندرى أكان كشف روسو للسر متعمداً خبيثاً ؟ على أى حال هذا ما رآه فولتير ، وحنق منه أشد الحنق ، لأنه عرضه لإمكان طرده من فرنسا من جديد ، فى الوقت الذى كان مستقراً فيه فى فرنية .

وصاح حين قرأ الخطاب الواشى « ياللمجرم ! يا للوحش ! كان يجب أن أضربه بالنبوت — نعم ؛ سآمر بضربه بالنبوت فى جباله عند ركبتى مربيته ؛ » وقال متفرج « أرجو أن تهدىء روعك ، لأنى أعلم أن روسو ينوى أن يزورك ، وسيكون فى فرنية قريباً جداً » .. وصاح فولتير وقد بدت عليه نية الأذى « آه ، فليأت فقط » .

« ولكن كيف ستستقبله ؟ »

« سأقدم له العشاء ، وأعطيه فراشى ، وأقول له » هاك عشاء طيبا ، وها هو أفضل فراش فى البيت ؛ فتفضل بقبول الأثنين وانعم بالسعادة هنا [٦٠] » .

ولكن روسو لم يحضر . وثأر فولتير لنفسه بأصداره (٣١ ديسمبر ١٧٦٤) كتيباً بقلم مجهول ، سماه « عواطف المواطنين » هو لطخة من أشد اللطخ التى تلوث خلقه ومهنته سوادا . ولابد من نقل ماجاء به ليصدق القارىء :

« أننا نرثى للأحمق ، ولكن حين تستحيل حماقته جنونا فاننا نوثق رباطه. ذلك أن التسامح — وهو فضيلة — يصبح عندها رذيلة . . . . . لقد غفرنا لهذا الرجل رواياته ، التى آذى فيها اللياقة والحياء كما آذى المنطق السليم . وحين خلط الدين بقصصه ، أضطر قضاتنا إلى محاكاة قضاة باريس . . . . وبرن . . . واليوم ألا يفرغ الصبر حين ينشر كتابا جديداً يعتدى فيه إعتداء مجنونا على الدين المسيحى ، وعلى الأصلاح البروتستنتى الذى يدعيه ، وعلى كل خدام الأنجيل المقدس وكل هيئات الدولة ؟ — إنه يقول بجلاء ، وباسمه

صراحة ، ليس فى الانجيل معجزات نستطيع أخذها حرفياً دون أن نطلق عقولنا . . . .

« أهو عالم يجادل العلماء ؟ لا . . . بل رجل مازال يحمل آثار فجوره المخزية . . . ويجر معه من بلد إلى بلد ، ومن جيل إلى جيل ، المرأة التعسة التى كان سبباً فى موت أمها ، والتى ألقى باطفالها على باب مستشفى . . . جاحداً كل مشاعر الطبيعة ، كإنكاره لمشاعر الشرف والدين . . .

« أيريد أن يطيح بدستورنا بتشويهه ، كما يريد أن يطيح بالمسيحية التى يدعيها ؟ يكفى أن ينذر بأن المدينة التى يزعجها تنكره . . . . . . فإذا ظن أنها تمتشق الحسام [أى تقوم بثورة] بسبب [إدانة] إميل ، فليضف هذه الفكرة إلى سخافاته وحماقاته . . ولكن يجب أن يخبر بأننا إن ترفقنا فى عقاب رواية فاجرة ، فإننا سنقسو فى عقاب خائن لئيم[٦١] . »

وكان هذا الكلام فعلة مخزية لا يشفع لهـــا غضب فولتير ولا أمراضه ولاشيخوخته ، (وكان الآن فى السبعين) .

لأعجب إذا كان روسو لم يصدق قط (وحتى فى يومنا هـــذا لا نكاد نصدق) أن فولتير هو كاتبه ، بل نسبه إلى القس الجنيفى فيرن ، الذى أكد عبثاً أنه ليس كاتبه . وأذاع روسو فى لحظة من أجمل لحظاته ردا على « العواطف » (يناير ١٧٦٥) :

« أريد أن أدلى ببساطة بالتصريح الذى يبدو أنه مطلوب منى بهذا المقال . فما من علة صغيرة أو كبيرة ، كما يدعى المؤلف ، قد لوثت قط جسدى . والعلة التى أصابتنى ليس هناك أدنى شبه بينها وبين تلك المشار إليها فقد ولدت معى ، ويعرف ذلك الذين رعونى فى طفولتى ، الباقون على قيد الحياة . وهى معروفة للسيدات مالوان ، وموران ، وتيرى ، وداران . . . فإذا وجدن فى هذه العلة أقل أمارة من أمارات الفجور ، فأنى أرجوهن أن يلعننى ويفضحننى . . والمرأة العاقلة التى يقدرها العالم ، والتى تعنى بى فى كوارثى . . لا يشقيها إلا مشاطرتها لشقائى . أما أمها فهى فى

الواقع فياضة بالحياة ، وفى صحة سابغة ، رغم شيخوختها [فقد عمرت إلى الثالثة والتسعين] . ولم ألق قط ، ولا تسببت فى إلقاء أى أطفال على باب مستشفى ولا فى أى مكان آخر . . . ولن أزيد . . اللهم إلا القول بأننى حين يحضرنى الموت أوثر أن أكون قد ارتكبت ما يتهمنى به المؤلف ، عن أن أكون كاتب كتيب كهذا . .(٦٢)

ومع أن تسليم روسو أطفاله للملجأ للقطاء (لا إلقاءهم فى العراء بالضبط) كان موضوعاً يعرفه المقربون فى باريس (فقد اعترف به للمرشالة لكسمبورج) ، فإن نشر فولتير كانت أول إفشاء علنى لهذا السر . وخامر جان — جاك الظن فى أن مدام دبينيه أفشته عند زيارتها لجنيف ، واقتنع الآن بأنها هى وجريم وديدرو كانوا يأتمرون لتشويه سمعته . وقد هاجم جريم روسو فى هذه الفترة غير مرة فى « الرسائل الأدبية(٦٣) » . وفى خطابه المؤرخ ١٥ يناير ١٧٦٥ فى معرض الحديث عن « خطابات من الجبل » أنضم إلى فولتير فى أتهام روسو بالخيانة : « إن وجد فى أى مكان على الأرض جريمة تدعى الخيانة العظمى ، فهى ولاريب فى مهاجمة الدستور الأساسى لدولة بالأسلحة التى استخدمها روسو ليطيح بدستور وطنه » .

والشجار الطويل الذى نشب بين فولتير وروسو من أفجع اللطخ التى لوثت وجه حركة التنوير . لقد باعد بينهما مولدهما ومركزهما . ففولتير ، ابن الموثق الموسر ، تلقى تعليما حسنا ، لا سيما فى الدراسات القديمة ؛ أما روسو المولود فى أسرة فقيرة وشيكة التفكك ، فلم يتلق أى تعليم نظامى ، ولم يرث أى تقليد كلاسيكى ، وقد قبل فولتير القواعد الأدبية التى وضعها بوالو — «أحب العقل ، ولتستق كل كتاباتك من العقل بهاءها وقيمتها(٦٤) . » أما فى رأى روسو (كما فى رأى فاوست وهو يغوى ما رجريت بروسو.) فإن « الوجدان كل شىء(٦٥). » وكان فولتير لا يقل عن جان — جاك حساسية وسرعة أنفعال ، ولكنه عادة كان يرى من سوء الأدب أن يترك الأنفعال يشوه فنه ، وقد اشتم فى دعوة روسو للوجدان والغريزة لاعقلية فوضوية فردية تبدأ بالثورة وتنتهى بالدين . وقد شجب فولتير بسكال ، أما روسو

فردده كالصدى . وكان فولتير يعيش كما يعيش أصحاب الملايين ، أما روسو فكان ينسخ الموسيقى ليكسب قوته . وكان فولتير خلاصة كل لطائف المجتمع ، أما روسو فكان يشعر بالقلق فى المجتمعات ، وكان أقل صبرا وأضيق صدراً من أن يحتفظ بصداقة صديق . وكان فولتير ابن باريس ، وربيب مرحها وترفها ، أما روسو فكان طفل جنيف ، بورجوازيا مكتئبا ، وبيورتانيا يكره تمييز الطبقات الذى يجرحه ، وألوان البذخ التى لا قدرة له على الاستمتاع بها ، ودافع فولتير عن الترف لأنه يداول مال الإغنياء بتشغيل الفقراء ، أما روسو فادانه لأنه « يطعم مائة فقير فى مدننا ويسبب هلاك مائة ألف فى قرانا[٦٦] » وذهب فولتير إلى أن آثام الحاضرة ترجحها فنونها وما توفره من أسباب الراحة ، أما روسو فكان لا يشعر بالراحة فى أى مكان ، ويندد بكل شىء تقريباً . وأصغى المصلحون إلى فولتير ، واستمع الثوار إلى روسو .

إن هوراس وليلول حين قال إن « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون[٦٧] . » أجمل فى سطر واحد ؛ على غير قصد منه ؛ حياة أعظم عقلين من عقول القرن الثامن عشر تأثيرا فى الناس .

٥ — بوزويل يلتقى بروسو

فى رواية بوزويل لزيارات خمس قام بها لجان — جاك فى ديسمبر ١٧٦٤ تصوير غاية فى اللطف لروسو . فلقد أقسم ذلك المعجب الذى لامهرب منه يمينا مغلظة (٢١ أكتوبر) أنه « لن يكلم ملحدا ؛ ولن يتمتع بامرأة ؛ قبل أن يلقى روسو[٦٨] » وفى ٣ ديسمبر شد رحاله من نوشاتل إلى موتييه — ترافير . وحين بلغ برو فى منتصف الطريق وقف بنزل وسأل ابنة صاحبه ماذا تعرف عن فريسته . وكان جوابها مقلقا :

« إن المسيو روسو يحضر هنا كثيراً ويمكث أياما مع مدبرة بيته ؛ الآنسة ليفاسير . وهو رجل لطيف جداً ؛ له وجه جميل ؛ ولكنه لا يحب أن يأتى الناس ويحملقوا فيه كأنه رجل له رأسان . ياللسماء ! أن فضول

الناس لا يصدق ، أن كثيرين ، كثيرين يأتون ليروه ، وكثيراً ما يرفض لقاءهم . إنه مريض ، ويكره أن يزعجه أحد[٦٩] » .

ولكن بوزويل واصل رحلته بالطبع . وفى موتييه نزل بفندق القرية .

« وأعددت خطابا لمسيو روسو أخبرته فيه أن سيداً أسكتلنديا عتيق الطراز فى الرابعة والعشرين قدم بأمل لقائه . وأكدت له أننى جدير باحترامه . . . وفى خاتم خطابى بينت له أن لى قلبا وروحاً . . . والخطاب آية فى بابه حقاً . وسأحتفظ به ما حييت برهانا على أن فى قدرة روحى أن تتسامى[٧٠] » .

وكان خطابه — الذى كتبه بالفرنسية — مزيجا بارعاً من السذاجة المتعمدة والأعجاب الذى لايرد :

« إن كتاباتك ياسيدى أذابت قلبى . ورفعت روحى . وألهبت خيالى . صدقنى سيبهجك أن تلتقى بى . إيه ياسان — برو العزيز ! أيها المعلم المستنير ! أى روسو البليغ المحبوب ! يحدثنى قلبى بأن صداقة شريفة حقاً ستولد اليوم.. لدى الكثير الذى أحدثك به . ومع أننى لست إلا شابا فقد خبرت من الوان الحياة ما سيدهشك . . . ولكنى أتوسل اليك أن تلقانى وحدك . . . ولا أدرى هلا أفضل أن ألقاك إطلاقا من أن القاك أول مرة فى صحبة . وأنى مترقب ردك بفارغ الصبر[٧١] .

وأرسل له روسو كلمة يقول إن فى استطاعته الحضور إذا تعهد بأن تكون زيارته قصيرة . وذهب بوزويل « مرتديا سترة وصدرية قرمزية بدانتيللا مذهبة ، وبنطلون ركوب من جلد الغزال ، ومنتعلا حذاءا طويلا . وفوق ذلك كله لبست معطفا كبيرا من وبر الجمل الأخضر المبطن بفراء الثعلب » . وفتحت تريز الباب « فتاة فرنسية قصيرة رشيقة أنيقة » . وقادته صعدا إلى روسو — رجل ظريف أسمر اللون فى زى الأرمن ... وسألته عن صحته فقال : « مريض جدا ولكنى طلقت الأطباء » . وأعرب روسو عن اعجابه

بفردريك وازدرائه للفرنسيين — « شعب جدير بالاحتقار ، ولكنك ستجد نفوسا عظيمة في أسبانيا » . بوزويل : «وفي جبال اسكتلندة» . وقال روسو عن اللاهوتيين أنهم « سادة يقدمون تفسيرا جديدا لشيء من الأشياء ويتركونه مغلقا على الأفهام كما كان » . وناقشا أحوال كورسيكا ، وقال روسو أنه قد طلب اليه أن يشرع لها قوانين ، وبدأ بوزويل تحمسه الدائم لاستقلال كورسيكا . ثم صرفه روسو بعد قليل ، قائلا أنه يود التمشى منفردا .

وفي ٤ ديسمبر استأنف بوزويل الحصار . وتحدث معه روسو مليا ، ثم صرفه : انك « تزعجني . هذا طبعي ولا حيلة لي فيه . » بوزويل : « ارفع الكلفة معي » . روسو « امضي » . وصحبت تيريزا بوزويل إلى الباب وقالت له « لقد عشت مع المسيو روسو اثنين وعشرين عاما ، ولن أتخلى عن مكاني لأكون ملكة فرنسا . وأنا أحاول الانتفاع بالنصيحة الطيبة التي يسديها إلي . وإذا مات سأضطر إلى دخول الدير[٧١]

وطرق بوزويل الباب مرة أخرى في ٥ ديسمبر . وتأوه روسو « يا سيدي العزيز ، يؤسفني عجزي عن التحدث إليك كما أشتهي » بوزويل : نحي هذه الأعذار وأثار الحديث بقوله : لقد اعتنقت الكاثوليكية وأنوي الاختفاء في دير روسو ياللحماقة ! . . بوزويل : « أخبرني بحق أأنت مسيحي ؟ » وقرع روسو صدره وأجاب : « نعم إنني أعتز بأني مسيحي . » بوزويل (الذي كان مصاباً بالاكتئاب) قل لي : هل تعاني من الاكتئاب ؟ روسو : لقد ولدت هادئاً ، وليس بي ميل طبيعي للاكتئاب . لقد أصابتني به الكوارث التي حلت بي . بوزويل :ما رأيك في الأديار ، والكفارات ، والعلاجات التي من هذا النوع ؟ روسو : كلها سخافات . بوزويل : هل لك يا سيدي أن تضطلع بارشادي الروحي ؟ روسو : لاأستطيع . بوزويل: سأعود . روسو : لا أعد بلقائك . إنني أعاني ألماً ، انني احتاج إلى مبولة كل دقيقة[٧٢] .

في عصر ذلك اليوم ، في بيت القرية كتب بوزويل في أربع عشرة

صفحة مجملا لحياتى وبعث به إلى روسو . وقد اعترف فيه بحادث زنا أتاه ، وسأل روسو ألا يزال فى امكانى أن أجعل نفسى رجلا ؟ وعاد إلى نوشاتل ، ولكنه كان بباب روسو مرة أخرى فى ١٤ ديسمبر . وأخبرته تريز أن سيدها مريض جدا ، وأصر بوزويل ، واستقبله روسو « ووجدته جالسا وهو فى غاية الألم » . روسو : لقد غلبتى العلل ، وخيبات الأمل ، والحزن . إننى استعمل مجسا . كل إنسان يعتقد أن من واجبى أن أصغى له . . عد فى العصر . موزويل : وكم تطول زيارتى ؟ روسو : « ربع ساعة ، لاأكثر . بوزويل :عشرين دقيقة . روسو : هيا انصرف . ولكنه لم يتمالك نفسه من الضحك .

وعاد موزويل فى الرابعة وهو يحلم بلويس الخامس عشر . « إن الأخلاق تبدو لى أمرا غير يقينى . فأنا مثلا أحب أن يكون لى ثلاثون امرأة . ألا أستطيع أن أشبع تلك الرغبة ؟ لا . ولكن انظر ، لوكنت غنيا لاستطعت أن اتخذ عددا من الفتيات ، وأحبلهن ، وبهذا يزداد النسل . ثم أعطيهن مهوراً ، وأزوجهن لفلاحين طيبين سيسعدون جداً بالزواج منهن . وهكذا يصبحن زوجات فى نفس السن التى كن يتزوجن فيها لوظللن أبكاراً ، وأكون أنا من ناحيتى قد أفدت بالاستمتاع بعدد كبير من مختلف النساء » فلما لم يقع من نفس روسو هذا الفرض الملكى ، سأله « أخبرنى من فضلك كيف أكفر عن الشر الذى ارتكبته ؟ وأجاب روسو جوابا ذهبياً « ليس هناك تكفير عن الشر إلى الخير[٧٤] . وطلب بوزويل إلى روسو أن يدعوه للغداء ، وقال روسو « غدا » وعاد بوزويل إلى الفندق منتعشا غاية الانتعاش .

وفى ١٥ ديسمبر تناول الطعام مع جان — جاك وتريز فى المطبخ ، وقد وجده نظيفا مشرقا . وكان روسو رائق المزاج ، ولم تبد عليه علامات الاضطرابات العقلية التى ستظهر فيما بعد . وكان كلبه وقطته على وفاق مع بعضهما البعض ومعه . « ووضع بعض الطعام على صينية خشبية ، وجعل كلبه يرقص حوله وغنى روسو .. لحنا مرحا بصوت

رخيم وذوق رفيع . وتحدث بوزويل فى الدين .. « ان الكنيسة الانجليكانية أفضل المذاهب عندى . روسو : نعم ، ولكنها ليست الإنجيل . ألا تحب القديس بولس ؟ انى احترمه ، ولكنى أحسبه مسئولا إلى حد ما عما فى رأسك من اختلاط . لوعاش لكان قسيسا انجليكانيا .

الآنسة ليفاسير : أستلقى المسيو دفولتير يا سيدى ؟ بوزويل: بكل تأكيد. ثم إلى روسو : ان المسيو دفولتير لايحبك . روسو : أن المرء لايحب من أذاهم أذى شديداً . أن حديثه ممتع جداً ، لا بل إنه يفضل كتبه . وطال وزويل المكث فوق ما تحتمله الضيافة ، ولكن حين ودع « قبلنى روسو مرات ، وضمنى بين ذراعية ببرد رقيق » . فلما وصل بوزويل إلى الفندق قالت ربته سيدى : أظنك كنت تبكى . ويضيف إننى احتفظ بذكرى هذه الكلمات إطراء صادقا لإنسانيتى [٧٥] .

٦ — دستور لكورسيكا

بعد أن زار بوزويل فولتير فى فرنيه ، مضى فى رحلته إلى ايطاليا ونابلى وكورسيكا ، وبما بحث من روسو . وكانت كورسيكا بزعامة باسكالى دى باولى قد حورت نفسها من سيطرة جنوه (١٧٥٥) ورحب روسو فى « العقد الاجتماعى » من قبل بمولد الدولة الجديدة .

ما زال فى أوربا بلد واحد مفتوح للمشرع • انه جزيرة كورسيكا . والبسالة والأصرار اللذان برهن بهما هذا الشعب الشجاع على قدرتة على استرداد حريته والدفاع عنها يستحقان المعونة من انسان حكيم يعلمهم كيف يحتفظون بها . ونفسى تحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة سوف تدهش أوربا يوما ما[٧٦] . »

ولو أخذ رأى فولتير لرأى أن روسو آخر رجل فى أوربا يصبح دعوته للتشريع . ولكن الذى حدث أن جان — جاك تلقى فى ٣١ أغسطس ١٧٦٤ الخطاب الآتى من ماتيو بوتافوكو ، المبعوث الكورسيكى لدى فرنسا :

« لقد ذكرت كورسيكا ياسيدى فى « عقدك الاجتماعى » على نحو يتيه به وطننا . وهذا الثناء من قلم مخلص كل الإخلاص كقلمك . . .أوحى بالرغبة القوية فى إنك يمكن أن تكون المشرع الحكيم الذى يعين الأمة على الحفاظ على الحريات التى إقتنتها بدم كثير . وإنى إدرك بالطبع أن المهمة التى أجرؤ على الالحاح عليك فى الأضطلاع بها تحتاج إلى معرفة خاصة بالتفاصيل ... ولكنك إن تفضلت أن تقبل المهمة فسأزودك بكل المعرفة الضروريةلإنارتك. وسيبذل المسيو باولى . . . قصاراه ليرسل اليك من كورسيكا كل المعلومات التى قد تحتاج إليها . ويشاطرنى رغبتى هذا الزعيم المرموق ، لا بل جميع اخوانى المواطنين الذين أتيح لهم الإطلاع على إعمالك ، ويشاركوننى مشاعر الاحترام التى تشعر بها أوربا كلها نحوك ، والتى أنت أهل لها لأسباب كثيرة جداً[٧٧] » .

ورد روسو (١٥ أكتوبر ١٧٦٤) بقبول المهمة ، وطلب تزويده بالمعلومات عن طبيعة الشعب الكورسيكى ، وتاريخه ، ومشاكله . واعترف بأن العمل قد يكون « فوق طاقتى وإن لم يكن فوق تحمسى » . ثم كتب إلى بوتافيوكو ، فى ٢٦ مايو ١٧٦٥ يقول : غير أنى أعدك أنه لن يكون لى إهتمام فيما بقى لى من أجل غــير نفسى وكورسيكا ، وكل ماعدا ذلك من أمور سأقصية عن إفكارى[٧٨]» . ثم عكف من فوره على وضع « مشروع دستور لكورسيكا » .

واقترح روسو فى مشروعه و « العقد الاجتماعى » فى ذاكرته ، أن يوقع كل مواطن على تعهد ملزم لا رجعة فيه بوضع نفسه — « جسدى وأملاكى وارادتى ، وكل قدراتى » — تحت تصرف الأمة الكورسيكية[٧٩] . وحيا « الكورسيكيين البواسل » الذين ظفروا باستقلالهم ، ولكنه نبههم إلى أن فيهم رزائل كثيرة — كالكسل ، وقطع الطريق ، والعداوات ، والوحشية — ومعظمها ناجم عن كراهيتهم لسادتهم الأجانب . وخير علاج لهذه الرزائل أن يعيشوا عيشة زراعية خالصة . وينبغى أن توفر القوانين كل إغراء للشعب ليلزم الأرض بدلا من التجمع فى المدن ، فالزراعة تعين على الخلق الفردى

والصحة القومية ، أما التجارة بأنواعها والمالية فتفتح الأبواب لكل ضروب الغش والاحتيال ، ويجب على الدولة ألا تشجعها . ويجب أن يكون السفر كله على الأقدام أو على ظهور الدواب ، وأن يكافأ الزواج المبكر والأسرة الكبيرة ؛ وأن تسقط المواطنة عن الرجال الذين يظلون عزابا إلى الأربعين . ويجب خفض الملكية الخاصة وزيادة ملكية الدولة.. « بودى أن أرى الدولة المالك الوحيد ، ولا يصيب الفرد من لمكية المشتركة إلا بنسبة خدماته [٨٠] » ، وينبغى إلزام السكان بفلاحة أراضى الدولة إذا إقتضى الأمر ، وأن تشرف الحكومة على التعليم كله ، وعلى الآداب العامة كلها ؛ وأن تشكل الحكومة نفسها على غرار الولايات السويسرية (الكنتونات) .

وفى ١٧٦٨ اشترت فرنسا كورسيكا من جنوه ؛ وجردت عليها جيشا ؛ وعزلت باولى ، وأخضعت الجزيرة للقانون الفرنسى . وكف روسو عن المضى فى مشروعه ؛ وندد بالغزوة الفرنسية لأنها إنتهاك « لكل عدل ؛ وإنسانية ؛ وحق سياسى ، وتفكير سليم [٨١] » .

٧ — اللاجىء

ظل روسو عامين يحيا حياة متواضعة هادئة فى موتيية ؛ يقرأ ؛ ويكتب ويرعى مرضه ، ويعانى من إصابة بعرق النسا (أكتوبر ١٧٦٤) ؛ ويحتفى بالزوار الذين تجيزهم تريز بعد الفحص . وقد وصفه أحدهم وصف عارف بالجميل فقال :

« أنك لا تتصور أى سحر فى الاجتماع به ؛ ولا أى إدب صادق فى سلوكه ؛ ولا أى عمق من الهدوء والبشاشة فى حديثه . ألم تتوقع صورة مغايرة تماماً لهذه الصورة ؛ وألم تصور لنفسك مخلوقا غريب الأطوار ؛ جادا دائما لا بل فظا أحيانا ؟ فيالها من غلطة ! إنه يجمع إلى سمات اللطف الكثير نظرة من نار ؛ وعينين لم ير قط مثل حيويتهما . فأذا تناولت موضوعا يهتم به ، تكلمت عيناه ، وشفتاه ، ويداه — وكل ما فيه . وأنت تخطىء كل الخطأ أن تصورته إنسانا لا يكف عن التذمر . فهو على النقض يضحك مع الضا حكين ويثرثر ويمزح مع الأطفال ؛ ويسخر من مديرة منزله [٨٢] » .

ولكن القساوسة المحليين كانوا قد أكتشفوا مافى « إميل » و«خطابات الجبل» من هرطقات ، ورأوها فضيحة أن يمضى هذا الوحش فى تلويث سويسرة بوجوده فيها . ورغبة فى تهدئة ثائرتهم عرض (١٠ مارس ١٧٦٥) أن يتعهد ، فى وثيقة رسميـــة « بالا ينشر أبدا أى كتاب جديد فى أى موضوع دينى ، لا بل أن يتناوله عرضا فى أى كتاب جديد آخر . . . وأكثر من ذلك أننى سأظل شاهدا ، بمشاعرى وسلوكى ، بالقيمة العظمى التى أعلقها على سعادة الإتحاد بالكنيسة[٨٣] » . وإستدعاه مجمع كنيسة نه شاتل للمثول أمامه والرد على تهم الهرطقة الموجهة إليه ، فالتمس إعفاءه : « يستحيل على رغم صدق نيتى أن أحتمل جلسة طويلة[٨٤] وهـــو ما كان الحقيقة المؤلمة » . وانقلب عليه راعى كنيسته ، وندد به فى مواعظ علنية متهما أياه بأنه عدو المسيح[٨٥] . وألهبت هجمات القساوسة شعب أيرشيلتهم ، فراح بعض القرويين يحصبون روسو إذا خرج للتمشى . وقرب نصف ليلة ٦ — ٧ سبتمبر أيقظته هـــو وتريز حجارة تقذف على جدرانهما وتحطم نوافذهما . وأخترق حجر كبير الزجاج وسقط عند قدمه . واستدعى جار له — وكان موظفاً فى القرية — بعض الحراس لإنقاذه ، وتفرق الجمع ، ولكن إصدقاء روسو الباقين فى موتييه نصحوه بأن يبرح المدينة .

وأتته عدة عروض تقدم له الملجأ « ولكنى كنت متعلقاً بسويسرة تعلقا منعنى من أن أصمم على الرحيل عنها مادام فى إستطاعتى العيش فيها[٨٦] » . وكان قد زار قبل عام « الإيل دسان — بيير » ، الجزيرة الصغيرة الواقعة فى وسط بحيرة بيين ، ولم يكن على الجزيرة سوى بيت واحد — هو بيت الوكيل ، وخيل لروسو أن المكان بقعة مثالية لعاشق للعزلة يكرهه الناس . وكان يقع فى كانتون برن التى طردته قبل عامين ، ولكنه تلقى تأكيدات غـــير رسمية بأن فى إستطاعته الإنتقال إلى الجزيرة دون أن يخشى الأعتقال[٨٧] .

وهكذا ، حوالى منتصف سبتمبر ١٧٦٥ ؛ بعد ستة وعشرين شهراً فى موتييه ؛ ترك هو وتريز المنزل الذى أصبح عزيزا عليهما ، وذهبا للأقامة مع

أسرة الوكيل فى مكان لا يتيح إنعزاله « لا للجمهور ولا لرجال الكنيسة تكديره[٨٨] » . «وخيل إلى أننى سأكون فى تلك الجزيرة أشد إنعزالا عن الناس . . . . وأن البشر سيكونون أسرع نسيانا لى[٨٩] » . ورغبة فى تغطية نفقاته أعطى الناشر دوبيرو حق نشر كل كتبه ؛ « وجعلته مستودع جميع أوراقى ؛ بشرط صريح هـو ألا يستعملها إلا بعد موتى ؛ لأن غاية أمانى كانت أن اختم حياتى فى هدوء ؛ دون أن أفعل شيئاً يعيدنى مرة أخرى إلى ذاكرة الجماهير[٩٠] » . وعرض عليه المريشال كيث معاشا سنويا قدره ألف ومائتا جنية ؛ فوافق أن يأخذ نصفه . ودبر معاشا آخر لتريز . واستقر معها على الجزيرة وهو لا يتوقع من الحياة شيئاً آخر . وكان الآن فى سنته الثالثة والخمسين .

وبعد ثلاثة عشر عاماً — فى آخر سنة فى عمره — ألف كتاباً من أروع كتبه اسمه « أحلام متجول وحيد » وصف فى بلاغة مخففة معيشته على جزيرة سان — بيير «كانت أول وأهم متعة أتوق إلى تذوقها بكل حلاوتها هى حياة الدعة اللذيذة[٩١] » . وقد رأينا فى غير هذا الموضع مبلغ إعجابه بلينايوس ؛ أما الآن ، وفى يده احد كتب عالم نبات سويدى ؛ فقد بدأ يعدد ويدرس النباتات التى وجدها على ملكه الصغير . أو كان إذا صحا الجو يفعل كما يفعل تورو على بركة فولدن :

« كنت أرتمى وحيداً فى زورق أجدف به إلى وسط البحيرة حين يكون الماء هادئا . هناك ؛ وأنا ممدد بطولى كله فى الزورق ؛ وعيناى إلى السماء كنت أترك نفسى للماء يحملنى هونا كما يشاء ؛ ساعات عدة أحيانا ، وأنا غارق فى مئات الأحلام المبهجة[٩٢] » .

ولكن راحته لم تطل حتى على هذه المياه . ذلك أن مجلس شيوخ برن أمره فى ١٧ أكتوبر ١٧٦٥ بأن يرحل عن الجزيرة والمقاطعة خلال خمسة عشر يوماً . وغلبته الحيرة والهزيمة «فالتدابير التى كنت قداتخذتها تأمينا لموافقة الحكومة الضمنية ، والهدوء الذى تركت فيه لأستقر ، وزيارات العديدين

من أهل برن لى» ، كل هذا حدا به إلى الاعتقاد بأنه الآن فى مأمن من الازعاج والمطاردة . والتمس من مجلس الشيوخ شيئاً من التفسير والتأجيل ، واقترح بديلا يائسا لحكم النفى :

« لست أرى لى غير سبيل واحد ، ومهما بدأ رهيباً ، فانى سأتخذه لا دون نفور فحسب ، بل برغبةشديدة إذا تفضل أصحاب السعادة بالموافقة . وذلك إننى إن طاب لهم سأقضى مابقى لى من أجل سجينا فى إحدى قلاعهم ، أو فى أى مكان آخر فى ضياعهم يرون اختياره . وسأعيش فيه على نفقتى ، وسأقدم ضمانا بالا أكلفهم أى نفقة . وأقبل إلا أحمل ورقا أو قلما ، أو أكون على اتصال بأى إنسان فى الخارج . فقط اسمحوا لى ، مع بعض الكتب ، بالأحتفاظ بحرية المشى بين الحين والحين فى حديقة ، وسيرضينى هذا .

أكان ذلك ايذانا بأنهيار عقله ؟ أنه يؤكد لنا عكس هذا :

« لا تظنوا أن وسيلة تبدو بهذا العنف هى ثمرة اليأس . فعقلى فى تمام الهدوء فى هذه اللحظة . وقد ترويت فى إتخاذ قرارى ، ولم أنته إليه إلا بعد تفكير عميق . وأرجو أن تلاحظوا أنه إذا بدا هــذا قرارا شاذا فإن وضعى أكثر شذوذا . فالحياة المضطربة التى أكرهت على أن احياها سنوات عديدة دون انقطاع ، خليقة بتعذيب رجل موفور العافية ، فما بالكم بعليل تعس براه التعب وسؤ الحظ ، ولم يعد له الآن من أمنية إلا أن يموت فى هدوء وسلام[٩٣] » .

وكان رد برن أن أمرته بالرحيل عن الجزيرة وعن كل اقليم برن خلال أربع وعشرين ساعة[٩٤] .

فإلى أين يمضى ؟ كان لديه دعوات إلى بوتسدام من فردريك ، وإلى كورسيكا من باولى ، وإلى اللورين من سان — لا مير ، وإلى امستر دام من ناشره رى ، وإلى إنجلترة من ديفد هيوم . فى ٢٢ أكتوبر كتب إليه هيوم الذى كان يومها سكرتيرا للسفارة البريطانية فى بارس يقول :

« أن محنك العجيبة التى لم يسمع بمثلها ، فضلا عن فضيلتك وعبقريتك

لابد أن تثير عواطف كل إنسان فينحاز إليك ، ولكنى أجليل نفسي بأنك واجد فى انجلترة أمانا مطلقاً من كل اضطهاد ، لا بفضل ما تمتاز به قوانيننا من روح سمحة فحسب ، بل بفضل الاحترام الذى يكنه كل الناس هناك لشخصيتك [٩٥] » .

وفى ٢٦ أكتوبر غادر روسو جزيرة سان — بيير ورتب أن تظل تريز جينا فى سويسرة ، ورحل هو إلى سترا سبورج ، ومكث فيها شهراً كاملا دون أن يستقر على رأى . وأخيرا قرر أن يقبل دعوة هيوم إلى انجلترة ، ومنحته الحكومة الفرنسية جوازا بالحضور إلى باريس . هناك التقى به هيوم أول لقاء ، وما لبث أن شغف به ، وتحدثت باريس كلها عن عودة للنفى . وكتب هيوم يقول « محال وصف أو تصور تحمس هذه الأمة لروسو . . . فلم يظفر شخص قط بمثل ما ظفر به من اهتمام القوم . . . لقد حجب بهاء فولتير وسواه حجباً تاماً[٩٦] » .

ولكن الصداقة الوليدة أصيبت بصدع فى المهد ومن العسير هنا أن نحدد الحقائق بدقة أو نرويها دون تحيز . ففى أول يناير ١٧٦٦ أرسل جريم إلى قرائه التقرير الآتى :

دخل جان — جاك روسو باريس فى ١٧ ديسمبر . وفى الغد تمشى فى حدائق اللكسومبرج وهو يرتدى زيه الأرمنى ، وإذ لم ينبه أحد إلى الأمر فأن احداً لم ينتفع بالمشهد . وقد أسكنه الأمير كونتى فى التامبل حيث يعقد الأرمنى المذكور بلاطه كل يوم. كذلك يتمشى يوميا فى ساعة معينة فى الشوارع الكبيرة القريبة من مسكنه(*). وها هو ذا خطاب تداولته الايدى فى باريس خلال مكثه هنا ، وقد لقى نجاحاً كبيراً[٩٨] » .

وهنا نقل جريم خطابا زعم أن روسو تلقاه من فردريك الأكبر . وكان

(*) قارن خطاب روسو لصديقة دلوز : « وددت لو استطعت الخروج وزيارتك ، ولكنى مضطر لرجائك أن تحضر أنت إلى تحاشيا للإعلان عن قلنسوتى الارمنية فى الشوارع » .

قد زيفه على روسو هوراس وليول . ولندع وليلول نفسه يتحدث عنه فى خطاب له إلى ه . س كونواى فى ١٢ يناير ١٧٦٦ .

« أن الفضل فى شهرتى الراهنة لتأليف تافه جداً ، ولكنه أثار ضجة لا تصدق . ذلك إننى كنت ذات مساء فى بيت مدام جوفران أسخر من إدعاءات روسو وتناقضاته ، وقلت إشياء أضحكتهم . فلما عدت إلى البيت دونتها فى خطاب ، وأريته فى الغد لهلفيتيوس ودوق نفرنوا ، وقد سرا به كثيراً حتى إنهما ، بعد الأشارة على بعض الأخطاء اللغوية . . . . شجعانى على اطلاع الناس عليه . وأنا كما تعلم يطيب لى أن اهزأ بالدجالين سواء السياسيين منهم أو الأدباء مهما عظم قدر مواهبهم ، لذلك لم أنكر الفكرة . وسرت النسخ مسرى النار ، وهأنذا «اصبحت موضة et me voici à la mode . . . . وإليك الخطاب (وهو مترجم حرفيا عن فرنسية وليول) :

ملك بروسيا إلى مسيو روسو عزيزى جان — جاك

لقد لفظت جنيف وطنك ، لقد جعلتهم يطاردونك من سويسرة ، البلد الذى أطريته كثيراً فى كتاباتك ، وقد أصدرت فرنسا أمرا باعتقالك . فتعال إلى إذن ، فأنا معجب بمواهبك ، وتمتعنى أحلامك ، وهى (بهذه المناسبة) تشغلك فوق ما ينبغى وأطول ممـــا ينبغى . وعليك أن تكون فى النهاية حكيما وسعيداً . لقد أثرت ما يكفى من الاقاويل بسبب غرائب لاتليق برجل عظيم بحق . فأثبت لخصومك أن فى استطاعتك احيانا أن تكون معقولا ، فمن شأن هذا أن يغيظهم دون أن يؤذيك . إن بلادى تقدم لك معتكفا هادئا ، وإننى أرجو لك الخـــير ، وأحب أن إساعدك إذا إستطعت أن تستطيب مقامك . أما إذا واصلت رفض معونتى ، فتأكد أننى لن أخبر أحدا بالأمر . وإذا اصررت على إجهاد نفسك لتجد نكبات جديدة ، فأختر ما يحلو لك منها ، فأنا ملك ، وفى إستطاعتى أن أحصل لك منها على مايلبى رغباتك ، وسأكف عن اضطهادك حين تكف عن أن تجد فخرك فى أن تضطهد — وهو بالتأكيد ما لن يحدث لك أبدا بين خصومك .

صديقك المخلص فردريك [٩٩]

أما وليول فلم يحدث له أن التقى بروسو قط . ولم يجد عقله الرفيع الثقافة ، وثراؤه الموروث معنى فى كتابات روسو . وقد عرف عيوب روسو وحماقته من حفلات عشاء مدام جوفران ، حيث كان يلتقى ديدرو وجريم . وأغلب الظن أنه لم يدرك أن روسو الحساس إلى درجة العصاب ، قد دفعته إلى مشارف الأنهيار العقلى سلسلة من المجادلات والضيقات . ولو كان وليول على علم بهذا حقا لكانت دعابته قاسية قسوة شائنة . على أننا ينبغى أن نضيف أنه حين طلب هيوم رأيه فى إيجاد معتكف لروسو فى إنجلترة ، تعهد وليول بأن يمد الطريد بكل ضروب المعونة[١٠٠] .

أكان هيوم على علم بهذا الخطاب ؟ يبدو أنه كان موجودا ببيت مدام جوفران حين لفق أول الأمر ، وقد إتهم بأنه « شارك » فى تحريره[١٠١] . وقد كتب إلى المركيزة دباربنتان فى ١٦ فبراير ١٧٦٦ :

« إن الدعابة الوحيدة التى سمحت بها لنفسى فى أمر خطاب ملك بروسيا المزعوم كانت على مائدة عشاء اللورد أو سورى[١٠٢] » . وفى ٣ يناير ١٧٦٦ قام هيوم بزيارة وداع لضيوف البارون دولباخ وأخبرهم بآماله فى إنقاذ « الرجل القصير القامة » من الأضطهاد وتوفير أسباب السعادة له فى انجلترة . أما دولباخ فتشكك قائلا يؤسفنى أن ابدد الأمال والأوهام التى تخدعك ، ولكنى أقول لك إنه لن يمضى طويل زمن حتى ينقشع عنك الوهم بصورة محزنة . إنك لا تعرف صاحبك ، وأصارحك بأنك تحتضن ثعبانا فى صدرك[١٠٣] » .

وفى صباح الغد غادر باريس إلى كالية فى مركبتى اجرة هيوم وروسو مع جان — جاك دلوز وسلطان كلب روسو . ودفــع روسو نفقاته بعد أن رفض عروض هيوم ومدام دبوفليه ، ومدام دفرديلان بمده بالمال . فلما بلغوا دوفر (١٠ يناير) عانق روسو هيوم ، وشكره لأنه أتى به إلى بلد تسوده الحرية .

٨ — روسو فى انجلترة

وصلوا إلى لندن فى ١٣ يناير ١٧٦٦ ولاحظ المارة زى روسو — قلنسوته الفراء ، وروبه الارجوانى ، وحزامة ، وأوضح لهيوم أنه يشكو مرضا يجعل سراويل الركوب القصيرة غير مريحة له[١٠٤] . واقنع هيوم صديقه كوفواى بأن يقترح معاشاً للغريب الكبير ، ووافق جورج الثالث على منحه مائة جنيه فى العام ، وأبدى رغبة فى أن يلقى عليه نظرة سريعة بصفة غـــير رسمية . وحجز جاريك لروسو وهيوم مقصورة فى مسرح درورى لين فى مواجهة المقصورة الملكية فى ليلة تقرر فيها حضور الملك والملكة . ولكن حين زار هيوم روسو لقى عنتا شديدا فى اقناعة بأن يترك كلبه الذى مزق نباحه بسبب حبسه قلب الغريب المنفى . وأخيرا « إحتويت روسو بين ذراعى و . . . . حملتة على المسير فى شىء من الإكراه[١٠٥] » . وبعد الحفل دعى جاريك روسو إلى عشاء لتكريمة وهنأه روسو على تمثيله : « سيدى ، لقد جعلتنى اذرف الدموع على مأساتك ، وأبتسم لملهاتك ، مع مع أنى لم أكد أفهم كلمة من لغتك » .

وإلى هناكان هيوم على الجملة مسر ًرا غاية السرور بضيفه . وكتب إلى مدام دباربنتان بعد وصوله إلى لندن بقليل يقول :

سألتنى رأيى فى جان ـ جاك روسو . وأنى بعد أن راقبته فى جميع النواحى . . . . أصرح بأننى لم أعرف رجلا أكثر منه لطفا ولا أكرم خلقا . فهو رقيق ، متواضع ، ودود ، نزيه ، مرهف الحس ، فإذا بحثت عن عيوب فيه لم أجد سوى قلة صبر مفرطة ، وميل لاحتضان شبهات ظالمة فى خير أصدقائه . . . أما عن نفسى فبودى لو أمضيت حياتى فى صحبته دون أن يكدر علاقتنا مكدر . أن فى سلوكه بساطة عجيبة . وهو فى الأمور العادية طفل بمعنى الكلمة . وهذا من شأنه أن يسهل . . . لمن يعيشون معه أن يسوسوه[١٠٦] » .

ثم يقول : « إن له قلبا حارا ممتازا ، وفى الحديث كثيراً ما تشتد حماسته

إلى ما يشبه الالهام . وإنى أحبه حباً جما وأرجو أن يكون لى فى وده نصيب . . . لقد تنبأ لى فلاسفة باريس إننى لن أستطيع اصطحابه إلى كاليه دون شجار ، ولكنى أحسبنى قادرا على العيش معه طوال حياتى فى صداقة وتقدير متبادلين . وأعتقد أن من أكبر أسباب انسجامنا أن كلينا لا يحب الجدل ، وهذا ليس حالهم . ويسؤهم منه أيضاً ظنهم إنه مغال فى الدين ؛ ومن الغريب حقاً أن يكون فيلسوف هـــذا الجيل ، الذى لقى أشد اضطهاد أكثرهم تدينا [١٠٧] . . . أن به شوقا إلى الكتاب المقدس ، وهو فى الحق أفضل من المسيحيين قليلا[١٠٨] » .

على أنه كان هناك صعوبات . ففى لندن ، كما فى باريس ، توافد النبلاء والنبيلات ، والمؤلفون والنواب على بيت السيدة آدمز فى شارع بكنجهام ، حيث أسكن هيوم روسو . وسرعان ما ضاق بهذه المجاملات ، ورجا هيوم أن يجد له بيتا بعيدا عن لندن . وجاء عرض بالعناية به فى دير ولزى ، فأراد أن يقبله ، ولكن هيوم اقنعه بأن يسكن مع بدال فى تشيزيك على التيمز على ستة أميال من لندن . . فانتقل إلى هذا المنزل روسو وسلطان فى ١٨ يناير وأرسل الآن فى طلب تريز ، وأزعج مضيفه وهيوم باصراره على وجوب السماح لها بالجلوس إلى المائدة معه . وشكا هيوم فى خطاب إلى مدام دبوفليه .

« إن مسيو دلوز.. يقول أن الناس يرونها شريرة محبة للشجار والثرثرة ، ويظنون أنها أهم سبب فى رحيله عن نوشاتيل (موتييه) . وهو نفسه يعترف أنها من الغباء بحيث لاتعرف فى أى سنة ميلادية نحن ولا فى أى شهر من السنة ، ولا فى أى يوم من الشهر أو الأسبوع ، وأنها لاتستطيع أن تتعلم أبدا القيم المختلفة للعملة فى أى بلد . ومع ذلك فهى تحكمه حكما مطلقا كما تحكم المربية طفلا . وقد اكتسب كلبه هذه السيادة فى غيابها ، فحبه لهذا المخلوق يفوق كل تعبير أو تصور[١٠٩] .

ووصلت تريز خلال ذلك إلى باريس فاستقبلها بوزويل وتطوع باصطحابها إلى انجلترة . وفى ١٢ فبراير كتب هيوم إلى مدام دبوفليه

يقول « جاءنى خطاب فهمت منه أن الآنسة مسافرة على جناح السرعة فى صحبة صديق لى ، وهو شاب فى غاية الطيبة، وفى غاية اللطف ، وفى غاية الجنون . . وبه من الولع بالأدب ما يجعلنى أتوجس من حدث مؤذ لشرف صديقنا[١١٠] . وقد ادعى بوزويل أنه برر هذا الإحساس السابق . وقد جاء فى صفحات فى يوميته ، تالفة الآن[١١١] ، أنه شارك تريز فراشها فى نزل ثانى ليلة بعد رحيلهما عن باريس . ثم ليالى عديدة بعدها . ووصلا إلى دوفر باكرا فى ١١ فبراير . وتقول اليومية : « الأربعاء ١٢ فبراير . ذهبت صباح أمس إلى الفراش مبكرا جدا ، وفعلتها مرة ، والجملة ثلاث عشرة . كنت فى الحق محبا لها . وفى الثانية بعد الظهر قمنا فى رحلتنا . فى ذلك المساء صحب تريز إلى هيوم بلندن ووعدها بأنه « لن يذكر علاقتهما الغرامية حتى مماتها أو ممات الفيلسوف . »

وفى المرة الثالثة عشرة أسلمها إلى روسو . ولقيها بقبلات كثيرة . . وقد بدا فى حال من الشيخوخة والضعف حتى «إنك (بوزويل) لم يعد فيك حماسة له[١١٣] طبعاً . »

وفى تشيزيك ، كما فى موتييه ، تلقى روسو من البريد أكثر مما أراد، وشكا من نفقات البريد التى كان عليه أن يدفعها . وذات يوم ، حين جاءه هيوم بـ «شحنة» من لندن ، رفض تسلمها ، وطلب اليه أن يردها إلى مكتب البريد . ونبهه هيوم أن موظفى البريد فى هذه الحالة سيفتحون الخطابات المرفوضة ويطلعون على أسراره . وتطوع الاسكتلندى الصبور بأن يفتح ما يرد من رسائل روسو إلى لندن وألا يأتيه إلا بما يراه هاما منها . ووافق جان — جاك ، ولكنه سرعان ما توجس شرا من عبث هيوم ببريده .

وأتته دعوات للغداء ، شاملة للآنسة ليفاسير عادة ، من الأعيان فى لندن فاعتذر روسو من قبولها بحجة مرضه ولكن السبب على الأرجح هو كرهه إظهار تريز أمام علية القوم . وكان يبدى رغبته فى الانزواء فى أعماق الريف . فلما سمع رتشرد ديفنيورت برغبته هذه من جاريك،

عرض عليه بيتا فى ووتن بداربيشير على ١٥٠ ميلا من لندن . فقبله روسو مغتبطا . وأرسل ديفنبوت مركبة تنقله هو وتريز ، وشكا روسو من أنه يعامل معاملة المتسولين ، وأردف قائلا لهيوم « ان كانت هذه حقا حيلة من حيل ديفنبورت ، فأنت عليم بها موافق عليها ، وما كان فى امكانك أن تسيء إلى بأكثر من هذا » . وبعد ساعة (كما يقول هيوم) ، جلس فجأة على ركبتى ، وطوق عنقى بيديه ، وقبلنى بكل حرارة ثم قال وهو يبلل وجهى كله بالدموع : «أيمكن أن تصفح عنى يا صديقى العزيز ؟ انى بعد جميع دلائل الود التى تلقيتها منك ، أجازيك النهاية بهذه الحماقة وهذا المسلك السيء . ولكن لى رغم ذلك قلبا جديرا بصداقتك ، وأنا أحبك وأقدرك ، ولم تضع على سدى أقل مكرمة من مكرماتك » فقبلته وعانقته عشرين مرة بفيض من الدمع (١١٣) .

وفى الغد ٢٢ مارس انطلق جان - جاك وتريز قاصدين ووتن ، فلم يرهما قط بعدها . ولم يلبث هيوم أن كتب إلى هيوبلير تحليلا بصيرا بحالة روسو وخلقه .

كان مصمما تصميم البائس على الاندفاع إلى هذه العزلة رغم كل اعتراضاتى ، وأنا أتوقع أنه سيكون تعسا فى موقفه ذاك كما كان فى الواقع تعسا فى جميع المواقف . فسيكون محروما تماما من أى شغل يشغله ، ومن الأصحاب ومن أى تسلية من أى نوع تقريباً . لقد قرأ أقل القليل فى حياته ، وطلق الآن كل قراءاته طلاقا بائنا ، ولقد رأى أقل القليل من الدنيا وليس به أى فضول ليرى أو يلاحظ . والواقع أنه لا يملك الكثير من المعرفة ، وكل ما فعله طوال حياته أنه أحس فقط ، واحساسه فى هذه الناحية مرهف إلى حد لا أعرف له مثيلا ، ولكنه مع ذلك يشعره بالألم بأحد مما يشعره باللذة ، وما أشبهه برجل لم تنزع عنــه ثيابه فحسب ، بل جلده أيضا . ثم دفع به فى ذلك الموقف ليصارع قوى الطبيعة الغاشمة الصاخبة التى تلم على الدوام بهذا العالم الأسفل(١١٤) .

ووصل روسو وتريز إلى ووتن فى ٢٩ مارس . وراقه البيت الجديد لأول وهلة . فوصفه فى خطاب لصديق بنوشاتل : « بيت منعزل ... ليس واسعا جدا ولكنه مناسبا جدا ، شيد فى منتصف الطريق على جانب واد ، وأمامه « أبدع مخضرة فى الوجود » ومشهد طبيعى من مروج ، وأشجار ، ومزارع متفرقة ، وعلى مقربة منه طرق للتنزه على ضفاف غدير . وفى أسوأ الأجواء أخرج فى هدوء لجمع النباتات(١١٥) » . وكان آل ديفنبورت يشغلن قسما من البيت حين يلمون به ، وبقى به خدمهم ليعنوا بالفيلسوف و « مديرة بيته » . وأصر روسو على أن يؤدى لديفنبورت ثلاثين جنيها فى العام نظير الأجرة والخدمة .

ولم تعمر سعادته أكثر من أسبوع . ففى ٣ ابريل نشرت مجلة لندنية تسمى « سانت جيمس كرونكل » بالفرنسية والانجليزية خطاب فردريك الأكبر المزعوم إلى روسو ، دون اشارة إلى كاتبه الحقيقى . وحز الأمر فى نفس جان — جاك حين نمى اليه الخبر ، وزاد من ألمه أن محرر المجلة وهو وليم ستراهان كان صديقا قديما لهيوم . يضاف إلى هذا ان نغمة الصحف البريطانية فى حديثها عن روسو تغيرت تغيرا واضحا منذ برح تشزيك : فكثرت المقالات التى انتقدت الفيلسوف الغريب الأطوار ، واحتوى بعضها على أشياء اعتقد أن هيوم وحده هو الذى يعرفها ، ويمكن أن يزود بها الصحف . على أى حال شعر أن واجب هيوم كان يقتضيه أن يكتب شيئاً للدفاع عن ضيفه الأسبق . وسمع أن الاسكتلندى كان يسكن بلندن البيت الذى يسكنه فرانسوا ترونشان : ابن عدو جان — جاك فى جنيف ، وأغلب الظن أن هيوم كان الآن على علم تام بنقائص روسو .

وفى ٢٤ إبريل كتب روسو إلى سانت جيمس كرونكل ما يأتى :

« لقد عدوت ياسيدى على الاحترام اللذين يدين به كل فرد للملك بأن نسبت علنا إلى ملك بروسيا خطابا إمتلأ مبالغة وغلا ، وكان يجب بناء عليه أن تعرف إنه ماكان يمكن أن يصدر عنه . لا بل إنك جرؤت على نقل

توقيعه كانك رأيته مكتوبا بيده . وإنى أخبرك يا سيدى أن هذا الخطاب زيف فى باريس ، ومما يحزننى ويمزق قلبى أن المحتال الذى كتبه له شركاء ضالعون معه فى انجلترا . وواجبك نحــو ملك بروسيا ، ونحو الحقيقة ، ونحوى أيضاً ، يقتضيك أن تنشر خطابى هذا ، الموقع بامضائى ، تصحيحا لخطأ لا شك إنك كنت تلوم نفسك على ارتكابه لو علمت أى مؤامرة خبيثة سخرت لها . وأنى إقدم لك خالص تحيتى .

جان ــ جاك روسو[116]

وفى وسعنا الآن أن نفهم لم ظن روسو أن هناك « مؤامرة » عليه . فمن غير خصومة القدامى ، فولتير ، وديدرو ، وجريم ، وغيرهم من نجوم التنوير ، يمكن أن يدبروا هذا التغير الفجائى فى لهجة الصحف البريطانية من الترحيب والتكريم إلى الهزء والتحقير ؟ وفى نحو هذه الفترة نشر فولتير « خطابا إلى الدكتور ج . ج . بانسوف » ، فضلا من أسمه ، أعاد فيه ذكر الأشارات المؤذية للشعب الانجليزى فى كتابات جان ــ جاك ــ كقوله إنهم ليسوا فى الحقيقة أحرارا ، وأنهم شديدو الولع بالمال ، وانهم ليسوا بطبيعتهم طيبين . واعيد نشر أكثر الفقرات ايذاء فى كتيب فولتير فى دورية لندنية تسمى (للويدز ايفننج نيوز [117]) .

وفى ٩ مايو كتب روسو إلى كونواى يطلب اليه وقف المعاش الذى منح له مؤقتا . والح عليه هيوم فى قبوله ، فرد عليه روسو بأنه لايستطيع قبول أى امتياز يأتيه من وساطة هيوم . وطالبه هيوم بالتفسير . ويبدو ن روسو قد انتقل الآن إلى حالة من الشك والغيظ . ففى ١٠ يوليو بعث إلى هيوم بخطاب من ثمانى عشرة صفحة من القطع الكبير ، لا يسمح طوله المفرط بنقله هنا كاملا ، ولكنه من الأهمية البالغة لهذا الشجار الأشهر بحيث يقتضينا الأمر ان نتذكر بعض فقراته الرئيسية : « انى مريض يا سيدى ، وليس بى كبير ميل للكتابة ، ولكن بما أنك طلبت التفسير ، فلابد من تقديمه لك . . . .

«انى أعيش خارج العالم ، واجهل الكثير مما يدور فيه . . . ولاأعرف إلاماأشعر به .»»

« انك تسألنى فى جرأة من هو الذى يتهمك ؟ انه يا سيدى الرجل الوحيد فى العالم كله الذى . . . أود لصديقه ، انه انت . . . وإذ اشير إلى ديفد هيوم بشخص الغائب ، فانى جاعلك الحكم فيما ينبغى أن يكون رأيى فيه . . »

واعترف روسو فى إسهاب بافضال هيوم ، ولكنه ازدف :

«أما إذا تحريت عن الخير الحقيقى الذى صنعته بى ، فان هذه الخدمات ظاهرية أكثر منها جوهرية ، . . فأنا لم أكن نكرة تماما بحيث انى لو وصلت وحيدا ، . لما لقيت عونا ولامشورة .. وإذا كان مستر ديفنبورت قد تفضل باعطائى هذا المسكن فهولم يفعل ذلك لإرضاء مستمر هيوم الذى لم يكن يعرفه . . وكل الخير الذى أصابنى هنا كان يصيبنى بالطريقة ذاتها بدونه (هيوم) ولكن الشر الذى أصابنى ما كان يقع لى . إذ لم يكون لى أعداء فى انجلترا؟وكيف يتفق أن يكون هؤلاء الأعداء بالضبط أصدقاء لمستر هيوم ؟

« وقد نمى إلى أيضاً ان ابن المشعوذ ترونشان ، ألد خصومى ، لم يكن فقط صديق مستر هيوم بل محسوبه أيضا ، وانهما يسكنان معا ....

« وكل هذه الحقائق مجتمعة تركت فى انطباعا جعلنى قلقاً . . . وفى الوقت نفسه لم تصل الخطابات التى كتبتها إلى وجهتها ، وتلك التى تلقيتها كانت مفتوحة ؟ وهذه كلها تناولتها يد مستر هيوم .

« ولكن ما الذى حدث لى حين رأيت خطاب ملك بروسيا المزعوم منشورا فى الصحف العامة ؟ . . لقد كشف لى شعاع من النور ، سر ما طرأ على اتجاه الشعب البريطانى نحوى من تغير فجائى إلى حد مذهل ؟ ورأيت فى باريس مركز المؤامرة التى تنفذ فى لندن . . فحين نشر هذا الخطاب

المزعوم فى لندن لم ينبس مستر هيوم ببنت شفة ، ولا كتب لى شيئاً ، وهو العليم ولا ريب بأنه خطاب زائف . . . .

« لم يبق لى غير كلمة واحدة أقولها لك . إن كنت مذنبا فلاتكتب إلى ، إذلا جدوى من الكتابة ، وثق انك لن تخدعنى . ولكن ان كنت برئياً فتضفل بتبرير نفسك . . وإلا فوداعا إلى الأبد[118] » .

وكان رد هيوم موجزا (٢٢ يوليو ١٧٦٦) ولم يجب عن التهم ، لأنه خلص إلى أن روسو مشرف على الجنون . وكتب إلى ديفنبورت يقول ان جاز لى ان ابذل النصح فهو أن تمضى فيما بدأته من حسنة حتى يحبس كلبه فى مستشفى المجاذيب[119] ... فلما سمع ان روسو ندد به فى خطابات أرسلها إلى باريس (كخطابه إلى الكونتيسة دبوفليه فى ٩ابريل ١٧٦٦)، بعث إلى دبوفليه صورة من خطاب جان — جاك الطويل . فردت على هيوم بما يلى :

« ان خطاب روسو فظيع ، انه مبالغ جدا ولا عذر له فيه اطلاقا ... ولكن لاتحتسبه قادرا على الكذب أو الخداع ، ولا تتصور انه دجال أو وغد، ان غضبه بلا مبرر حق ، ولكنه غضب مخلص ، وليس لدى فى هذا أى شك ...

« واليك ما اتصوره السبب فيه . لقد سمعتهم يقولون ، ولعله أخبر ، انك صاحب عبارة من خير ما ورد فى خطاب مستر ولبول — وانك قلت مازحا وانت تتحدث باسم ملك بروسيا « ان شئت الاضطهاد ، فأنا ملك ، وأستطيع اضطهادهم نيابة عنك بأى نوع تريد» وأن مستر ولبول . . . قال انك صاحب هذه العبارة . فان صح هذا ، وعلم به روسو ، فهل تعجب ان يثور سخطه . . . وهو المرهف الحس، الغضوب ، السوداوى المزاج ، المتكبر [120] .

وفى ٢٦ يوليو كتب ولبول إلى هيوم يحمل نفسه كل اللوم — دون الإعراب عن أى ندم — فى أمر الخطاب المزيف ، ويدين « قلب روسو

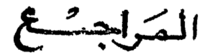
الجحود الشرير»[١٢١] ، ولكنه لم ينكر ان هيوم كان له يد فى الخطاب. وكتب هيوم إلى دولباخ يقول « انك محق تماما ، فروسو وحش » . وسحب الكلمات الرقيقة التى وصف بها من قبل خلق روسو [١٢٢] . فلما سمع من ديفنبورت ان جاك ... جاك يكتب «اعترافاته» افترض أن روسو سيذيع رأيه فى الأمر على الملأ . ونصحه آدم سمث ، وطورجو والمرشال كيث ، بأن يتحمل الهجوم صامتا ، ولكن جماعة الفلاسفة فى باريس يقودهم دالامبير ، حرضوه على أن ينشر روايته عن نزاع ذاع خبره فى عاصمتين . وعليه فقد أصدر (اكتوبر ١٧٦٦) عرضا موجزا للنزاع الذى ثار بين السيدين هيوم وروسو، صاغه بالفرنسية دالامبير وسوار ، وبعد شهر ظهر بالانجليزية . وأذاع جريم مضمونه على نطاق واسع « فى خطاب الاشتراك » الذى كتبه فى ١٥ اكتوبر ، فتردد صدى المشاجرة فى جنيف ، وامستردام ، وبرلين ، وسانت بطرسبورج . وضاعفت الضجة أكثر من عشر نشرات ، ونشر ولبول روايته للنزاع ، وهاجم بوزويل ولبول ، ورمت مدام دلاتور فى « مجمل عن مسيو روسو» ، هيوم بأنه خائن ، ووفاه فولتير بمزيد من البيانات عن نقائص روسو وجرائمه ، وعن اختلاله الى أماكن سيئة السمعة ، وعن أعماك التحريض التى أتاها فى سويسره[١٢٣] . أما جورج الثالث فقد تابع المعركة بفضول شديد[١٢٤] . وأرسل هيوم الوثائق المتعلقة بها إلى المتحف البريطانى[١٢٥]

ووسط هذه الضجة الكبرى لزم روسو الصمت الرهيب . ولكنه صمم الآن على العودة إلى فرنسا أيا كان الخطر والثمن . فقد اكتأب لرطوبة مناخ انجلترا وتحفظ الخلق الانجليزى ، وكانت العزلة التى نشدها فوق ما يطيق ، ولم يكن قد بذل أى جهد فى تعلم الانجليزية فوجد مشقة فى التفاهم مع الخدم . ولم يستطع الحديث إلا مع تريز — التى ما فتئت كل يوم تلح عليه فى أن يأخذها إلى فرنسا . ودعماً لخططها أكدت له ان الخدم يبيتون دس السم له . وعليه ففى ٣٠ ابريل كتب إلى مالك بيته الغائب يقول :

« غدا أترك بيتك يا سيدى .. ولست اجهل الكمائن التى تدبر لى ، ولا عجزى عن حماية نفسى ، ولكننى عشت يا سيدى ، ولم يبق لى إلاأن أنهى بشجاعة حياة قضيت بشرف . . وداعا سيدى . سآسف دوما على المسكن الذى ابرحه الآن، ولكن أسفى سيكون أكثر لأننى وجدت فيك مضيفا غاية فى اللطف ، ومع ذلك لم استطيع أن اجعل منه صديقا[١٢٦] .

وفى أول مايوفر مع تريزعلى عجل وفى رعب . وتركا حقائبهما ومالا للوفاء بإيجار ثلاثة عشر شهرا . . ولجهلهما بجغرافية انجلترا استقلا مختلف وسائل الانتقال غير المباشرة، وقطعا شطرا من الطريق على الإقدام ، وظلا عشرة أيام تائهين لايعرف أحد مستقرهما . وأعلنت الصحف عن اختفائهما، ثم ظهرا فى ١١ مايو فى سبولدنج بلنكولنشير ، ومنها وجدا طريقهما إلى دوفر، وهناك استقلا سفينة إلى كاليه فى ٢٢ مايو . بعد أن قضيا فى انجلترا ستة عشر شهرا ، وكتب هيوم إلى طورجو وغيره من الأصدقاء طالبا اليهم أن يمدوا يد المعونة للمنبوذ الذى عاد الآن وحيدا مهجوراً إلى فرنسا، وهو من الناحية القانونية لايزال تحت طائلة الأمر باعتقاله .

* * *



CHAPTER I

1. Rousseau, *The Confessions of Jean-Jacques Rousseau*, I, 22.
2. *Ibid.*, 4.
3. I, 156-57; II, 70, 321.
4. Saintsbury, *History of the French Novel*, I, 391.
5. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 174.
6. Lanson, G., *Histoire de la littérature française*, 801.
7. *Encyclopaedia Britannica*, XIX, 587a.
8. Rousseau, *The Confessions*, I, 3.
9. *Ibid.*, 8.
10. 9.
11. 11.
12. 13.
13. 9.
14. 16.
15. 22.
16. 41.
17. 44.
18. *Ibid.*; Lemaitre, *Jean-Jacques Rousseau*, 290; Mann, Thomas, *Three Essays*, 156.
19. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, I, 51 f.
20. Rousseau, *The Confessions*, I, 69.
21. Rousseau, *Les Confessions*, I, 140.
22. *The Confessions*, I, 117-19.
23. *Ibid.*, 76.
24. 76.
25. 106.
26. 91.
27. 92.
28. 96.
29. 104.
30. 107.
31. 116.
32. 122.
33. 130.
34. 154.
35. 138.
36. 148.
37. 160.
38. 178.
39. *Les Confessions*, I, 238.
40. *Ibid.*; *The Confessions*, I, 178.
41. *Ibid.*, 224.
42. 195.
43. Josephson, *J.-J. Rousseau*, 111.
44. *Ibid.*, 113-14.
45. *The Confessions*, I, 247, 250.
46. *Ibid.*, 259.
47. 262.
48. 265.
49. *Ibid.*
50. 296.
51. 295.
52. 300.
53. Josephson, 132.
54. *Ibid.*, 133.
55. *The Confessions*, I, 305.
56. Letter of Frederick, 1762, in Gooch, *Frederick the Great*, 145.
57. *The Confessions*, I, 309.
58. *Ibid.*, 310.
59. *Ibid.*, II, 139.
60. Martin, Henri, *Histoire de France*, XVI, 83; Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 209.
61. Josephson, 140.
62. Morley, John, *Rousseau and His Era*, I, 127; Hendel, C. W., *Citizen of Geneva*, 208.
63. Diderot, *Essai sur les règnes de Claude et Néron*, Ch. 67.
64. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
65. *The Confessions*, II, 21.
66. *Ibid.*, 32.
67. Rousseau, *Discourse on Arts and Sciences*, in *Social Contract and Discourses*, 130.
68. *Ibid.*, 132.
69. 134.
70. 134.
71. 146.
72. 151.
73. 142.
74. 151.
75. 135.
76. 139.
77. 153.
78. 153.
79. Rousseau, preface to *Narcisse*.
80. Michelet, *Histoire de France*, V, 371.
81. Grimm, *Correspondance littéraire*, IX, 49.
82. Bayle, Pierre, *Réponse aux questions d'un provincial*.
83. Rousseau, *Reveries of a Solitary*, Book VI, pp. 127-32.
84. *The Confessions*, II, 21.
85. Lemaitre, 92.
86. Letter of July 15, 1756, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 142.
87. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
88. *The Confessions*, II, 34.
89. *Ibid.*, 48.
90. 49.
91. 51.
92. 56; Goncourt, E. and J. de, *Madame de Pompadour*, 143.
93. Faguet, *Rousseau artiste*, 192.
94. Grimm, II, 307.

95. Rousseau, *Reveries*, 111.
96. In Faguet, *Rousseau artiste*, 193.
97. Musée, St.-Quentin.
98. Levey, Michael, *Painting in 18th-Century Venice*, 155.
99. Marmontel, *Mémoirs*, I, 169.
100. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, II, 52.
101. *Ibid.*; Masson, *La Religion de Rousseau*, I, 184-85.
102. Preface to *Narcisse*.
103. Masson, I, 182.
104. Michelet, *Histoire de France*, V, 428.
105. *The Confessions*, II, 63.
106. *Ibid.*, 58.
107. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, in *Social Contract* . . . , 157.
108. *Ibid.*, 159.
109. 160.
110. 239.
111. Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra*, 129.
112. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, *loc. cit.*, 181.
113. *Ibid.*, 169.
114. 175.
115. 222.
116. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. ii.
117. Second *Discourse*, in *Social Contract* . . . , 214.
118. *Ibid.*, 207.
119. 220-22.
120. 238.
121. 242-44.
122. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, in Cassirer, *The Question of Rousseau*, 54.
123. Second *Discourse*, *loc. cit.*, 236.
124. End of second *Discourse*.
125. Mumford, Lewis, *The Condition of Man*, 275.
126. Helvétius, *Treatise on Man*, II, xx.
127. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 11.
128. Lemaitre, 122.
129. Second *Discourse*, *loc. cit.*, 175, 246.
130. Voltaire, *Works*, XXIa, 227-30.
131. *Ibid.*
132. *The Confessions*, II, 65.
133. *Social Contract*, 271.
134. *Ibid.*, 272.
135. 281.
136. 269.
137. 262.
138. 253.
139. 260.
140. 256.
141. *The Confessions*, II, 40.
142. *Ibid.*
143. Masson, I, 181.
144. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 181.
145. *The Confessions*, II, 40.
146. Grimm, *Correspondance*, II, 239.
147. Sainte-Beuve, II, 195n.
148. *Ibid.*, 180.
149. 191.
150. 213.
151. Morley, *Rousseau*, I, 272.
152. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 83.
153. Source lost.
154. Toth, Karl, *Woman and Rococo in France*.
155. Hobbes, *De Corpore*, Ch. xxv.
156. Toth, 194; Josephson, 194; Faguet (*Vie de Rousseau*, 214) thought Mme. d'Épinay had been infected by Dupin de Francueil.
157. Épinay, II, 85.
158. *Ibid.*, 130.
159. Josephson, 149.
160. *The Confessions*, II, 81.
161. *Ibid.*, 66.
162. Letter to Malesherbes, Jan. 26, 1762.
163. Épinay, II, 128; Sainte-Beuve, II, 187; Morley, *Rousseau*, I, 274.

CHAPTER II

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 4.
2. Frederick the Great, *Histoire de la guerre de Sept Ans*, 388.
3. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 306.
4. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 74.
5. Aldis, Janet, *Madame Geoffrin*, 200.
6. Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 113.
7. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 346.
8. Walpole, H., *Memoirs of . . . the Reign of George the Second*, II, 73; Marmontel, *Memoirs*, I, 175.
9. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, V, 72.
10. Levron, Jacques, *Pompadour*, 174.
11. Treitschke, H. von, *Life of Frederick the Great*, 149.
12. Mann, Thos., *Three Essays*, 163.
13. Dorn, *Competition for Empire*, 15.
14. Treitschke, *Frederick*, 181.
15. Carlyle, *Friedrich*, V, 263-69; Martin, H., *Histoire de France*, XV, 497; Reddaway, *Frederick the Great*, 198; Coxe, *History of . . . Austria*, III, 370.
16. Reddaway, 199.
17. Gooch, G. P., *Frederick the Great*, 334.
18. Reddaway, 201.
19. Dorn, 300; *Cambridge Modern History*, VI, 251.
20. Gooch, *Frederick*, 334.
21. *CMH*, VI, 402.
22. Coxe, *History of . . . Austria*, III, 369.
23. *Ibid.*
24. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 33.
25. Gooch, *Frederick*, 43.

16. Coxe, 379.
27. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 369; Carlyle, *Friedrich*, V, 479.
28. *Ibid.*, 523.
29. 527.
30. 534; Sainte-Beuve, II, 373
31. *Ibid.*, I, 219; Brandes, *Voltaire*, II, 77.
32. Sainte-Beuve, II, 372.
33. Martin, H., *France*, XV, 522.
34. Michelet, *Histoire de France*, V, 402.
35. Dorn, 323.
36. Michelet, V, 402.
37. Carlyle, VI, 22.
38. *Ibid.*, V, 547.
39. Jahn, *Life of Mozart*, I, 47.
40. Carlyle, VI, 42; Robinson, J. H., *Readings in European History*, 395.
41. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 173.
42. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 297.
43. Carlyle, VI, 63.
44. Martin, XV, 527.
45. *Ibid.*, 528.
46. Carlyle, VI, 63.
47. Dorn, 338.
48. Carlyle, VI, 115.
49. *CMH*, VI, 290.
50. Wilhelmine, *Memoirs*, vii.
51. *Ibid.*, *ix*.
52. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 44.
53. Carlyle, VI, 265.
54. Coxe, *History*, III, 407.
55. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 259.
56. Carlyle, VI, 322, 386.
57. Martin, XV, 533.
58. Dorn, 363.
59. Voltaire and Frederick, *Letters*, 262; Carlyle, VI, 399.
60. Martin, XV, 565.
61. Voltaire and Frederick, *Letters*, 271.
62. Coxe, III, 425.
63. Dec. 25, 1761, by the Russian calendar.
64. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 229.
65. *Ibid.*, 227.
66. 295.
67. Gooch, *Frederick*, 64.
68. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 305.
69. Macaulay, *Essays*, II, 185.
70. Voltaire and Frederick, *Letters*, 245; Mann, *Three Essays*, 210.
71. Gooch, *Frederick*, 64.
72. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 192.

CHAPTER III

1. Du Hausset, *Memoirs of Mme. de Pompadour*, 97.
2. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 338-42.
3. *Ibid.*, 200.
4. Aldis, *Madame Geoffrin*, 129.
5. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 42.
6. Goncourts, *Mme. de Pompadour*, 317.
7. *Ibid.*, 319; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 451.
8. Mitford, Nancy, *Madame de Pompadour*, 234.
9. Levron, Jacques, *Pompadour*, 260.
10. Bancroft, George, *Literary and Historical Miscellanies*, 91.
11. See Stryienski, *Eighteenth Century*, 189.
12. Mitford, *Pompadour*, 234.
13. Ercole, Lucienne, *Gay Court Life*, 236.
14. Mitford, 234-35.
15. Taine, H., *Ancient Regime*, 338.
16. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 181-82; Martin, H., *France*, XVI, 236.
17. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 253.
18. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 213.
19. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 54.
20. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 135.
21. Du Hausset, *Memoirs*, 27.
22. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 352.
23. Rousseau, *La Nouvelle Héloïse*, in Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 193.
24. Parton, James, *Life of Voltaire*, II, 329.
25. Voltaire, *Works*, VIIb, 56.
26. Goldoni, *Memoirs*, 359.
27. Taine, *Ancient Regime*, 308.
28. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 61.
29. Ducros, *French Society*, 325.
30. Martin, H., *France*, XVI, 163; Acton, *Lectures on Modern History*, 326.
31. Higgs, Henry, *The Physiocrats*, 18.
32. Say, Léon, *Turgot*, 47, 67.
33. Turgot, *Éloge de Gournai*, in Martin, *France*, XVI, 165.
34. Mirabeau *père* in Higgs, 21
35. Higgs, 24.
36. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the 18th Century*, 730.
37. Higgs, 37.
38. Warwick, C. F., *Mirabeau and the French Revolution*, 146.
39. Higgs, 68.
40. In Sée, Henri, *Les Idées politiques en France au xviii^e siècle*, 161.
41. Pomeau, René, *La Religion de Voltaire*, 405.
42. Hume, letter to Morellet, July 10, 1769.
43. Voltaire, *Works*, Ib, 147-48, 265.
44. In Gay, Peter, *Voltaire's Politics*, 169n.
45. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, Book IV, Ch. ix.
46. Higgs, 135.

47. In Frankel, Charles, *The Faith of Reason*, 121.
48. Bury, J. B., *The Idea of Progress*, 157.
49. Say, *Turgot*, 27.
50. Dakin, *Turgot*, 10.
51. Say, 29.
52. Dakin, 19.
53. Turgot, *Reflections on the Formation and the Distribution of Wealth*, No. 6.
54. *Ibid.*, No. 68.
55. See *The Age of Voltaire*, Ch. xviii, Sec. III.
56. Morelly, *Code de la nature*, in Hearnshaw, F. J., ed., *Social and Political Ideas of Some Great French Thinkers of the Age of Reason*, 224.
57. In Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 173.
58. Martin, H., *France*, XVI, 147.
59. In Martin, Kingsley, *The Rise of French Liberal Thought*, 254.
60. *Ibid.*
61. 256.
62. Talman, J. L., *Origins of Totalitarian Democracy*, 58.
63. Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 178.
64. Hearnshaw, 238.
65. Jaurès, Jean, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 158.
66. Martin, Kingsley, 247.
67. Hearnshaw, 243.
68. *Ibid.*, 244.
69. Mornet, Daniel, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 233.
70. Hearnshaw, 217.
71. Marquis d'Argenson in Taine, *Ancient Regime*, 82.
72. Crocker, L. G., *The Embattled Philosopher*, 78.
73. Ducros, 81.
74. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 452.
75. Loomis, Stanley, *Du Barry*, 33.
76. *Ibid.*, 57.
77. Ercole, 263-66.
78. Parton, II, 394.
79. Loomis, *Du Barry*, 175.
80. Michelet, *Histoire*, V, 454.
81. Diderot, *Salons*, in *Oeuvres complètes*, II, 357.
82. Loomis, 89.
83. Lefebvre, *Coming of the French Revolution*, 41.
84. Stryienski, *Eighteenth Century*, 162.
85. *Ibid.*, 163.
86. Lecky, W. E., *History of England in the 18th Century*, V, 327.
87. Voltaire *Works*, XVIa, 234.
88. *Ibid*
89. 236.
90. Dorn, 352.
91. Voltaire, XVIa, 231.
92. *Ibid.*, 226.
93. Cobban, A., *History of Modern France*, I, 127
94. Voltaire, XVIa, 227.
95. See *Age of Voltaire*, pp. 765 f.
96. Martin, H., *France*, XVI, 243.
97. *Ibid.*
98. Voltaire, letter to Thieriot, Aug. 9, 1769.
99. Crocker, *Embattled Philosopher*, 352.
100. Martin, H., XVI, 281.
101. *Ibid.*
102. 283.
103. Voltaire, letter to Mignot, June 24, 1771.
104. Crocker, *Embattled Philosopher*, 352.
105. Walpole, H., letters of Oct. 19 and 28, 1765.
106. Collins, J. C., *Bolingbroke* . . . 47; Cumming, Ian, *Helvétius*, 168.
107. Grimm, *Correspondance*, January, 1768.
108. Loomis, 131.
109. *Ibid.*, 140.
110. Du Hausset, *Memoirs*, 36.
111. *Ibid.*
112. Loomis, 151.
113. Martin, H., *France*, XVI, 308.
114. Loomis, 154.

CHAPTER IV

1. Funck-Brentano, F. (*L'Ancien Régime*, 180), gives another form: "*Qui n'a pas vécu avant 1789 n'a pas connu la douceur de vivre.*"
2. Wilson, A. M., *Diderot: The Testing Years*, 135.
3. Hazard, *European Thought*, 256.
4. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 112.
5. Crébillon *fils*, *The Sofa*, introduction.
6. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 237.
7. Goncourts, *Woman*, 143.
8. *Ibid.*, 142; Michelet, *Histoire*, V, 454.
9. Ellis, Havelock, *Sexual Inversion*, 207.
10. Westermarck, *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 482.
11. Rousseau, *Émile*, 145.
12. Smollett, *Travels through France and Italy*, Letter xv.
13. Toth, *Woman and Rococo*, 271.
14. Casanova, *Memoirs*, I, 51.
15. Boehn, *Modes and Manners*, IV, 196.
16. *Ibid.*, 211.
17. Ducros, *French Society*, 340.
18. La Fontainerie, *French Liberalism and Education*, 63.
19. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 27.
20. Láng, *Music in Western Civilization*, 722.
21. Jahn, *Life of Mozart*, I, 38.
22. Rolland, *Essays in Music*, 194.
23. Voltaire, *Mélanges littéraires*, in Tiersot, Jean, *Gluck and the Encyclopedists*.
24. Goncourts, *Woman*, 87.
25. Taine, *Ancient Regime*, 154.
26. Herold, *Love in Five Temperaments*, 264.

27. *Ibid.*, 267.
28. 277.
29. Diderot, *Paradox of Acting*, 15.
30. Herold, *Love in Five Temperaments*, 281.
31. *Ibid.*, p. 288.
32. 326.
33. Mornet, *Origines intellectuelles*, 121.
34. In Aldis, *Madame Geoffrin*, 223.
35. Marmontel, *Memoirs*, I, 102, 120.
36. Marmontel, *Moral Tales*, I, 18.
37. In Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 101.
38. Hazard, 63.
39. Brunetière, *Manual of the History of French Literature*, 371.
40. Faniel, *French Art of the 18th Century*, 119D.
41. Litchfield, *Illustrated History of Furniture*, 240.
42. This statue has disappeared.
43. Letter of May 11, 1770.
44. Grimm, *Correspondance*, VII, 23.
45. Diderot, *Salons*, I, 370.
46. Louvre. Another form in Huntington Art Gallery, San Marino, Calif.
47. Louvre.
48. Huntington Art Gallery.
49. Louvre.
50. In Muther, *History of Modern Painting*, I, 98.
51. *Ibid.*
52. Dilke, Lady E., *French Architects and Sculptors of the 18th Century*, 36.
53. Diderot, *Dialogues*, 163.
54. Vigée-Lebrun, 160.
55. Both in the Louvre.
56. Goncourts, *French 18th-Century Painters*, 213.
57. *Ibid.*, 233.
58. Prado.
59. Turin.
60. Victoria and Albert Museum.
61. Musée Condé, Chantilly.
62. National Gallery, Edinburgh.
63. Goncourts, *French Painters*, 216.
64. Louvre.
65. Louvre.
66. Wallace Collection.
67. Louvre.
68. Diderot, *Salons*, I, 243.
69. Louvre.
70. Goncourts, 224.
71. *Ibid.*, 228.
72. 239.
73. École des Beaux-Arts, Paris.
74. Goncourts, 266.
75. Catalogue of the Fragonard Exhibition, Bern, 1954, Plate XIII.
76. Diderot, *Salons*, I, 544.
77. Leningrad.
78. All in the Louvre.
79. Louvre.
80. Louvre.
81. Hume in Mossner, *Life of David Hume*, 449.
82. Aldis, 11.
83. Batiffol, *The Great Literary Salons*, 155.
84. *Ibid.*, 131.
85. Goncourts, *Woman*, 321.
86. Musée de Montpellier.
87. Batiffol, 158.
88. Aldis, 198.
89. Toth, 269.
90. Aldis, 287.
91. *Ibid.*, 356.
92. 355.
93. 357.
94. Koven, Anna de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 81; Lespinasse, Julie de, *Letters*, introd. by Sainte-Beuve, 25.
95. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 129.
96. Bertrand, J., *D'Alembert*, 101.
97. *Ibid.*, 59-60.
98. 86.
99. Koven, 76.
100. Ségur, *Lespinasse*, 98.
101. *Ibid.*, 103.
102. 102.
103. 104.
104. 83.
105. 125.
106. Du Deffand, Marquise, *Lettres à Voltaire*, 12.
107. *Ibid.*, 26.
108. Ségur, *Lespinasse*, 132.
109. *Ibid.*, 133.
110. 134.
111. In Lespinasse, *Letters*, 1.
112. *Ibid.*, 33.
113. Mossner, *Life of Hume*, 477.
114. Marmontel, *Memoirs*, I, 259.
115. Miranda in *The Tempest*.
116. Ségur, *Lespinasse*, 336.
117. *Ibid.*, 293.
118. 296.
119. 295.
120. Lespinasse, 44 (letter of May 15, 1773).
121. *Ibid.*, 45 (May 23, 1773).
122. In Ford, Miriam de, *Love Children*, 212.
123. Lespinasse, 52.
124. Ségur, *Lespinasse*, 211, 321-22.
125. *Ibid.*, 271.
126. Lespinasse, 204.
127. Ségur, 322.
128. Lespinasse, 234 (letter of July 3, 1775).
129. Ségur, 387.
130. Lespinasse, 327.
131. Ségur, 395.
132. *Ibid.*, 398.

CHAPTER V

1. Chaponnière, *Voltaire chez les calvinistes*, 202.
2. Parton, *Life of Voltaire*, II, 262.
3. *Ibid.*, 263-65.

4. Besterman in Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 9.
5. Chaponnière, 203.
6. Parton, II, 475.
7. Letter of July 4, 1782, in Desnoiresterres, *Voltaire*, VI, 288.
8. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 283.
9. *Ibid.*, 293.
10. 302.
11. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 144.
12. Desnoiresterres, VI, 290; Chaponnière, 202.
13. Parton, *Life of Voltaire*, II, 481.
14. *Ibid.*
15. Desnoiresterres, I, 131.
16. Noyes, A., *Voltaire*, 550.
17. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 189.
18. Desnoiresterres, VII, 335.
19. *Ibid.*, 335.
20. Parton, II, 480.
21. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Malady—Medicine."
22. Molière, *Le Malade imaginaire*.
23. Chaponnière, 202; Parton, II, 480.
24. Voltaire, art. "Malady."
25. Parton, I, 529.
26. Chaponnière, 202.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 312.
28. Parton, II, 263.
29. Desnoiresterres, V, 324.
30. Parton, II, 471.
31. Chaponnière, 202.
32. Lanson, *Voltaire*, 197.
33. Desnoiresterres, VII, 482.
34. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 201.
35. Faguet, *Literary History of France*, 507.
36. Lanson, *Voltaire*, 197.
37. Torrey, 34.
38. Lanson, 197.
39. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXXIX, 546.
40. *Works*, VIIIb, 286.
41. *Philosophical Dictionary*, art. "Ancients and Moderns."
42. Michelet, *Histoire*, V, 426.
43. Parton, II, 489.
44. Brunetière, 361.
45. Torrey, 176.
46. Letter of Mar. 12, 1766.
47. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, Ch. xxxix.
48. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 335.
49. Letter of Frederick to Voltaire, June 10, 1759.
50. Letter of July 2, 1759.
51. Voltaire and Frederick, *Letters*, 266.
52. *Ibid.*, 358.
53. 363.
54. Brandes, II, 241.
55. Desnoiresterres, VI, 391.
56. *Phil. Dict.*, art. "Peter the Great."
57. Robespierre, speech of 18 Floréal, Year II, in Hazard, *European Thought*, 265.
58. Parton, II, 260.
59. Chaponnière, 238.
60. Gibbon, *Memoirs*, 154n.
61. Parton, II, 556.
62. Voltaire, *Mémoires*, in Parton, I, 141.
63. Letter to Frederick, January, 1737, in Voltaire and Frederick, 41.
64. *Phil. Dict.*, art. "Property."
65. *Ibid.*
66. *Ibid.*
67. Letter to Dr. Daquir in Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 228.
68. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
69. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 47.
70. *Phil. Dict.*, art. "Country" ("Pays").
71. Voltaire, *L'A, B, C*, in Sée, *Les Idées politiques*, 84.
72. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
73. *Essai sur les moeurs*, xii, 161, in Gay, *Voltaire's Politics*, 181.
74. *Mérope*, Act. II, Sc. ii.
75. Michelet, *French Revolution*, 47.
76. In Parton, II, 544.
77. Desnoiresterres, VI, 240.
78. Casanova, *Memoirs*, II, 406-7.
79. Letter of Oct. 28, 1773.
80. *Phil. Dict.*, art. "Democracy."
81. Letter of Sept. 20, 1760.
82. In Gay, 236.
83. *Phil. Dict.*, art. "Government," Sec. 3.
84. *Ibid.*, Sec. 6, slightly transposed.
85. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
86. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 415.
87. Quoted in Black, *Art of History*, 48.
88. *Phil. Dict.*, art. "Law, Civil and Ecclesiastical."
89. In Hearnshaw, *Social . . . Ideas of Some Great French Thinkers*, 157.
90. Art. "Execution."
91. Art. "Torture."
92. In Gay, 307.
93. Art. "Wit."
94. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 146.
95. *Ibid.*, 228.
96. Black, 29.
97. *Candide*, last chapter.
98. In Pomeau, 261.
99. Desnoiresterres, V, 24.
100. Brandes, *Voltaire*, I, 118.
101. Torrey, 10.
102. Letter of Aug. 28, 1751.
103. Brandes, *Creative Spirits of the 19th Century*, 138.
104. *Ibid.*, 142; Höffding, H., *Jean Jacques Rousseau and His Philosophy*, 80; Desnoiresterres, VI, 310.
105. *Ibid.*
106. Mme. de Graffigny in Parton, I, 392.

107. Hume, letter of Apr. 26, 1764, in Gay, 81.
108. Torrey, 131.
109. Letter to Thieriot, Dec. 10, 1738.
110. Torrey, 131.
111. *Ibid.*
112. Voltaire, *English Notebooks*, in Gay, 353.
113. *Phil. Dict.*, art. "Solomon."
114. Desnoiresterres, V, 157; Parton I, 106.
115. See letter of March, 1737, to Moussinot, in *Works*, XXIa, 190.
116. Parton, II, 520.
117. *Ibid.*, I, 507.
118. *Ibid.*, 144.
119. Morley, *Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 96.
120. Parton, II, 600.
121. In Noyes, *Voltaire*, 536.
122. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 61.
123. Pomeau, 462.
124. Desnoiresterres, II, 239.
125. In Torrey, 197.
126. Desnoiresterres, VI, 287.
127. Torrey, 91.

CHAPTER VI

1. Rousseau, *Émile*, p. 371.
2. *The Confessions*, II, 84.
3. Josephson, 190.
4. *Ibid.*; *The Confessions*, II, 84.
5. *The Confessions*, II, 88.
6. Diderot, *Le Fils naturel*, Act. IV, Sc. iii.
7. Brockway, W., and Winer, B., *Second Treasury of the World's Great Letters*, 195.
8. *Ibid.*, 201.
9. *The Confessions*, II, 107.
10. *Ibid.*, 99.
11. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, I, 424.
12. *Ibid.*, I, 428.
13. 431.
14. 438.
15. 442.
16. 449.
17. 443.
18. Desnoiresterres, V, 141.
19. *The Confessions*, II, 105.
20. Épinay, Mme. d', *Memoirs*, II, 329.
21. *Ibid.*, 334.
22. *The Confessions*, II, 102.
23. Josephson, 213.
24. *The Confessions*, II, 114-15, 110.
25. *Ibid.*, 113.
26. 114-16.
27. Josephson, 220.
28. *The Confessions*, II, 118.
29. *Ibid.*, 121.
30. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 193.
31. *The Confessions*, II, 133. Several of Mme. d'Houdetot's letters to Rousseau survive, and a few of his to her; see Martin, H., *France*, XVI, 91n.
32. *The Confessions*, II, 136.
33. Sainte-Beuve, II, 213.
34. *The Confessions*, II, 144.
35. *Ibid.*, 146.
36. 147.
37. Épinay, III, 130-32; Josephson, 249.
38. Épinay, III, 140-42.
39. *Ibid.*, 186.
40. *The Confessions*, II, 154.
41. Josephson, 252.
42. *The Confessions*, II, 155.
43. Letter of Nov. 26, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 160.
44. Lemaître, *Rousseau*, 174.
45. Josephson, 308.
46. *The Confessions*, II, 165.
47. Rousseau, *Politics and the Arts*, 7.
48. *Ibid.*, 121.
49. 125-26.
50. *The Confessions*, II, 165.
51. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 97, 105.
52. Hendel, *Citizen of Geneva*, 169; Desnoiresterres, VI, 85.
53. Chaponnière, 169; Josephson, 278.
54. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
55. Josephson, 279.
56. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, Part I, Letter I.
57. Letter II.
58. Letter IV.
59. Letter V.
60. Letter XIV.
61. *Rousseau juge*, p. 139.
62. *Ibid.*, Part IV, Letter XVII.
63. Part V, Letter V.
64. *Rousseau juge*, p. 186.
65. *Ibid.*, Part V, Letter X.
66. *The Confessions*, II, 163.
67. In Hendel, *J.-J. Rousseau, Moralist*, II, 47.
68. *Rousseau juge*, Part VI, Letter VI.
69. Part V, Letter V.
70. *The Confessions*, I, 101.
71. Kant, Fragment 618, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 6.
72. Texte, J., *Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 236.
73. Desnoiresterres, VI, 87.
74. Michelet, *Histoire*, V, 427.
75. *Ibid.*
76. *The Confessions*, II, 213.
77. *Ibid.*, 211.
78. Maritain, *Three Reformers: Luther, Descartes, Rousseau*, 119.
79. Taine, *Ancient Regime*, 271.

CHAPTER VII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 179.
2. *Ibid.*, 195.

3. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. v.
4. *Ibid.*, IV, ii.
5. IV, i.
6. I, vii.
7. I, viii.
8. I, vii.
9. II, iv.
10. I, viii.
11. Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, I, 81.
12. *Social Contract*, Book III, Ch. v.
13. III, iv.
14. III, xv.
15. III, xviii.
16. III, i.
17. I, ix.
18. II, xi.
19. I, end.
20. II, i.
21. Letter to Mme. d'Étang, in Cobban, *Rousseau and the Modern State*, 193.
22. Cobban, *Rousseau*, 211.
23. *Social Contract*, IV, viii.
24. II, vii.
25. IV, viii.
26. *Ibid.*
27. *Ibid.*
28. *Ibid.*
29. *Ibid.*
30. IV, vi.
31. In Cobban, *Rousseau*, 55.
32. *Émile*, p. 157.
33. *Ibid.*
34. Cobban, *In Search of Humanity*, 168.
35. Voltaire, *Works*, XXIb, 332.
36. Havens, *Voltaire's Marginalia*, 68, in Gay, *Voltaire's Politics*, 268.
37. *Cf. Social Contract*, II, iv; Talman, *Origins of Totalitarian Democracy*; Crocker, *Rousseau et la philosophie politique*, p. 111.
38. *Social Contract*, 11, v.
39. Faguet, *Rousseau penseur*, 397.
40. *Ibid.*
41. *Émile*, preface.
42. Boyd, *Educational Theory of Jean Jacques Rousseau*, 297.
43. Rousseau, *Émile*, 13.
44. *Ibid.*, 216.
45. 26.
46. 156.
47. 118.
48. 133.
49. 27.
50. 92.
51. 50.
52. 21-22, 46.
53. 56-58.
54. 341.
55. 153.
56. 251.
57. 154.
58. 53.
59. 58.
60. 167.
61. 149, 306.
62. 160.
63. Martin, H., *France*, XVI, 98.
64. Rousseau, *Émile*, 158.
65. *Ibid.*, 220.
66. 230.
67. 261-62.
68. 263.
69. 257.
70. 272.
71. 232.
72. *Ibid.*
73. 238-49.
74. 245-47.
75. Letter of Oct. 5, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 152.
76. *Émile*, 261.
77. 223.
78. 275.
79. See Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 256.
80. *Émile*, 272.
81. 271-72.
82. 179.
83. 192.
84. 298-99.
85. Letter of Nov. 5, 1758, in Hendel, *Citizen*, 158.
86. In Faguet, *Rousseau penseur*, 111.
87. Émile, 351; Hendel, *J.-J. Rousseau*, II, 23.
88. *Émile*, 330, 370.
89. 340.
90. 341, 371.
91. 337, 350.
92. 350.
93. 349.
94. 320.
95. 357.
96. 443.
97. 444.
98. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 125.
99. Seillière, *J. J. Rousseau*, 132, in Maritain, *Three Reformers*, 125.
100. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, IXb, 157.
101. Plato, *Republic*, No. 592.

CHAPTER VIII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 232.
2. *The Confessions*, II, 243.
3. *Collection complète*, IXa, pp. *v-x*.
4. *The Confessions*, II, 253.
5. *Collection*, IXb, 4.
6. *The Confessions*, II, 255.
7. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 110.
8. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
9. Voltaire, letter of July 26, 1764.

10. In Brandes, *Voltaire*, II, 97.
11. *Ibid.*, 98; Desnoiresterres, VI, 320-23.
12. Hendel, *J.-J. Rousseau*, II, 252.
13. *The Confessions*, II, 257.
14. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 226.
15. In Gooch, *Frederick the Great*, 138.
16. *The Confessions*, II, 264.
17. Hendel, *Citizen of Geneva*, 252.
18. *The Confessions*, II, 265.
19. *Ibid.*, 259.
20. 270.
21. 265-66.
22. Letter of July 22, 1764, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 171.
23. In Goncourts, *Women of the 18th Century*, 287.
24. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 138.
25. Masson, III, 73-75.
26. 2 Timothy iii, 1 f.
27. *Collection complète*, IXa, pp. xi-xiii.
28. *Ibid.*, p. xiii.
29. P. xiv.
30. P. xvi.
31. P. xxxix.
32. P. 1.
33. 2.
34. 4.
35. 7.
36. 8.
37. 26-28.
38. 55.
39. 63.
40. 65-66.
41. 70-71.
42. 121-22.
43. 8.
44. 15.
45. 42.
46. 44.
47. 47.
48. 50.
49. 83.
50. 86.
51. 87-89.
52. Exodus vii, 9-12.
53. Matthew xxiv, 24.
54. *Collection complète*, IXa, 201-2.
55. *Ibid.*, 210-12.
56. 244-45.
57. 334.
58. Letter of Mar. 8, 1765, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 206-7.
59. *Collection complète*, IXa, 184-85.
60. Morley, *Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 97.
61. In Faguet, *Vie de Rousseau*, 318-20.
62. *Rousseau juge de J.-J.*, I, ii-iv.
63. Grimm, *Correspondance*, May 15, 1763, Dec. 15, 1763, Jan. 15, 1765; see also Masson, P. M., II, 126-40.
64. Boileaux-Despréaux, Nicolas, *L'Art poétique*, lines 37-38.
65. Goethe, *Faust*, Part I, Everyman's Library translation, p. 116.
66. *Collection complète*, I, 196n.
67. Horace Walpole, letter of Dec. 31, 1769, to Horace Mann.
68. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switz.*, 150.
69. *Ibid.*, 215.
70. 217.
71. 219.
72. 229.
73. 230-31.
74. 254.
75. 258-68.
76. In Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, II, 293.
77. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 118.
78. Vaughn, II, 369n.
79. *Ibid.*, 350.
80. 338.
81. Letter of Feb. 26, 1770.
82. Morley, *Rousseau and His Era*, II, 94.
83. Letter of Mar. 10, 1765.
84. Letter of Mar. 29, 1765.
85. Macdonald, F., II, 123.
86. *The Confessions*, II, 301.
87. *Ibid.*
88. Letter of Oct. 1, 1765.
89. *The Confessions*, II, 302.
90. *Ibid.*
91. Rousseau, *Reveries*, 106.
92. *Ibid.*, 108; *cf. The Confessions*, 308.
93. Morley, *Rousseau*, II, 117.
94. *The Confessions*, II, 312.
95. Hendel, *Citizen of Geneva*, 326.
96. Burton, *Life of David Hume*, II, 299.
97. Macdonald, F., II, 166.
98. *Ibid.*, 213-14.
99. Walpole, Letter of Jan. 12, 1766.
100. Macdonald, II, 168.
101. Lemaître, 322; Macdonald, II, 172.
102. *Ibid.*, II, 171.
103. Morellet, *Mémoires*, in Mossner, *Life of Hume*, 575.
104. *Ibid.*, 517.
105. 518.
106. Faguet, *Vie de Rousseau*, 332.
107. In Burton, *Hume*, II, 304, 309.
108. Hume, letter to Lord Charlemont, in Mossner, 523.
109. Mossner, 519.
110. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica, France*, 279.
111. But summarized by Col. Robert Isham, who read them before their destruction by the executors.
112. *Boswell on the Grand Tour: Italy . . .*, 277-81.
113. Mossner, 521.

114. *Ibid.*, 523.
115. Letter of May 10, 1766, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 336.
116. Letter of Apr. 24, 1766, in Hendel.
117. Josephson, 460.
118. Macdonald, F., II, 186-209.
119. Mossner, 529.
120. Macdonald, II, 171.
121. *Ibid.*, 174.
122. Josephson, 464; Morley, *Rousseau*, II, 133.
123. Josephson, 467.
124. Morley, II, 135.
125. *Ibid.*
126. Josephson, 471.
127. Faguet, *Vie de Rousseau*, 361; Ségur, *Julie de Lespinasse*, 203.

فهرس

صفحة

الصفحة

الصفحة

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الجنوب الكاثوليكي

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد العاشر





بيروت



تونس

الكتاب الثالث

الجنوب الكاثوليكي

١٧١٥ — ١٧٨٩

الفصل التاسع

إيطاليا السعيدة

١٧١٥ – ١٧٥٩

١ – المشهد العام

لم يكن فى استطاعة إيطاليا أن تتحد فى سبيل الدفاع عن نفسها وهى منقسمة إلى نحو اثنتى عشرة دولة متحاسدة متنابذة . وانصرف الإيطاليون إلى الاستمتاع بالحياة ، التلذذ بها انصرافا جعلهم يتركون الأجانب اللذين أعوزهم النضج يقتتلون طمعا فى ثمرة السياسة المرة ، وغنائم الحرب وأسلابها الملوثة . وهكذا غدت شبه الجزيرة الزاهرة ساحة قتال بين أسبانيا وفرنسا البوربونيتين والنمسا الهابسبورجية . ووضعت سلسلة متعاقبة من حروب الوراثة أوزارها فى ١٧٤٨ وقد استردت أسبانيا مملكة نابلى ودوقية بارما ، واحتفظ البابوات بسلطانهم على الدويلات البابوية ، وظلت سافوى والبندقية وسان مارينو حرة ، وكانت جنوه ومودينا محميتين فرنسيتين ، واحتفظت النمسا بميلان وتسكانيا . وكانت الشمس أثناء ذلك تشرق على ربوع إيطاليا والحقول والكروم والبساتين تجود بالطعام والشراب ، وكانت النساء رائعات الحسن مشبوبات العاطفة ، والأغانى والألحان تملأ أجواز الفضاء ، ووفد عليها الأجانب سائحين وطلاب علم ليستمتعوا بالمناخ ومشاهد الطبيعة ، وبالمسارح والموسيقى والفن ، وبمخالطة رجال ونساء أوتوا ثقافة قرون طوال . لقد كانت إيطاليا ، على الأقل فى شمالها ، أسعد بلد فى أوربا ، رغم أنها كانت نصف مغلوبة ، ونصف مسلوبة منهوبة .

وكان سكانها عام ١٧٠٠ يناهزون الأربعة عشر مليونا ، وعام ١٨٠٠ الثمانية عشر مليونا . وكان الصالح للزراعة من أرضها يقل عن النصف ولكن

كل شبر من هذا النصف كان يفلح بالجهد الصابر والرعاية الفائقة . وكانت الأرض المنحدرة تقسم إلى مصاطب لتحتفظ بالتربة . والكروم تتدلى من شجرة إلى شجرة فتز دان بها بساتين الفاكهة . أما الجنوب فكانت أرضه ضعيفة، وجففت الشمس المبتسمة فى سخرية الأنهار والتربة والإنسان ، ولم يرخ الاقطاع قبضته التى فرضها على الناس فى العصر الوسيط . وكان من الأمثال الساخرة قولهم «أن المسيح لم يتجاوز قط جنوبى إيبولى» — التى كانت إلى الجنوب تماما من سورينتو . أما وسط إيطاليا فكان خصب التربة ، يفلحه الزراع نظير حصة من المحصول باشراف كبار رجال الكنيسة . وأما فى الشمال — لاسيما فى وادى نهر بو — فقد أشبعت القنوات الأرض ريا ، وكانت هذه القنوات تتطلب رؤوس الأموال تنفق عليها ، والفلاحين المدربين على تطهير الصفاية وتقوية الشواطىء . وهنا أيضا زرع الفلاحون أرض غيرهم لقاء نصيب من المحصول . ولكن فى هذه الحقول المثمرة استطاع الناس أن يحتملوا كل شيء حتى الفقر وهم محتفظون بكرامتهم .

وقامت مئات القرى على السهول ، وفى التلال ، وعلى شاطىء البحر : قرى قذرة متربة فى الصيف ، صاخبة فى الصباح بأحاديث الفلاحين وهم يمشون الهوينا إلى وقدة الحر ، ساكنة فىالظهيرة ، شاغية فى المساء بثرثرة المثرثرين وبالموسيقى ولقاءات المحبين . وكان الإيطاليون يحبون القيلولة أكثر من حبهم للمال ، وهى فترة قال فيها الأب لابا «لا يرى المرء فى الشوارع أثناءها غير الكلاب والحمقى والفرنسيين .»[1] وكان هناك عشرات المدن الملأى بالكنائس والقصور والمتسولين والفن ، وست مدن تضارع باريس جمالا ، وألوف من مهرة الصناع ما زالوا فى قمة فنهم . وكانت الصناعة الرأسمالية تتطور من جديد فى مجال النسيج لاسيما فى ميلان وتورين وبرجامو وفتشنتا ، ولكن معظم العمل حتى فى النسيج كان يؤدى على أنوال بيتية جزءا من حياة الأسرة . وكانت هناك طبقة وسطى صغيرة (قوامها التجار والمصرفيون ورجال الصناعة والمحامون والأطباء والموظفون والصحفيون والكتاب والفنانون والكهنة) آخذة فى النمو وسطا بين الطبقة الأرستقراطية (طبقة ملاك

الأرض وكبار رجال الدين) وطبقة « العامة » (وهم أصحاب الحوانيت ومهرة الحرفيين والفلاحون) ، ولكن لم تحرز هذه الطبقة الوسطى أية قوة سياسية بعد .

ولم تكن الفوارق الطبقية واضحة ملحوظة إلى حد مؤلم ، اللهم إلا فى البندقية وجنوه . فنى معظم المدن الإيطالية دخل النبلاء بنشاط ميدان التجارة أو الصناعة أو المال . وكان فى إمكان وصول أى فلاح إيطالى إلى منصب الأسقفية أو البابوية ما أشاع عنصرا ديمقراطيا فى الحياة الاجتماعية ؛ وفى البلاط كان حامل لقب النبالة المهيب يلتقى بالأسقف المتواضع الأصل ومجالسه، وفى الأكاديميات والجامعات كان النبوغ الفكرى يرجح الدعاوى الطبقية ، وفى صخب الكرنفال كان الرجال والنساء المطمئنون وراء أقنعتهم ينسون مراتبهم الاجتماعية كما ينسون نواميسهم الخلقية . وكان الحديث بين الناس يتسم بالمرح شأنهم فى فرنسا ، هذا إذا استثنينا إجماعا متفاهما عليه بعدم المساس بدين يأتى بالجزية الدولية لإيطاليا — حتى من فاتحيها — بنوع خاص .

على أن ذلك الدين كان بريئا من أى شائبة تزمت ، فقد تصالح مع طبيعة البشر ومناخ إيطاليا . وسمح فى الكرنفالات بفترة تعطيل للاحتشام ، ولكنه جاهد للمحافظة على مؤسستى الزواج والأسرة وحمايتهما من سذاجة النساء وأهواء الرجال . فكانت الفتيات فى الطبقات المثقفة يرسلن إلى أحد الأديرة فى سن مبكرة — فى الخامسة — لا للتعليم أولا بل لضمان الإشراف الخلقى عليهن . ولم تكن الفتاة التواقة إلى الحرية يطلق سراحها إلا إذا وفر لها صداق وهيىء لها خطيب يوافق عليه أبوها أو أولياؤها ويتقدم لزواجها . وإذا جاز لنا أن نصدق كازانوفا ، فإنه كان فى استطاعة راهبة شديدة الشوق إلى الرجال أن تغافل أحيانا الرئيسة الأم — أو تغافل الرئيسة الأم راهباتها — وتجد سبيلا للقاء رجل شديد الشوق إلى النساء بين الغسق والفجر ، ولكن هذه كانت مغامرات نادرة محفوفة بالخطر . على أننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم على أخلاقيات الرهبان .

وكان الذكر غير المتزوج إذا لم يستطع إغواء زوجة رجل آخر ، يتعامل

عموما مع البغايا . وقد قدر الكونت دكايلوس أن عددهن فى نابلى عام ١٧١٤ بلغ ثمانية آلاف من بين السكان البالغين ١٥٠,٠٠٠ . ووجد الرئيس دبروس فى ميلان « إنك لاتخطو خطوة فى الميادين العامة دون أن تتلقى بقوادين courtiers de galanterie يعرضون عليك نساء من كل لون أو جنس تشاء ، ولكن لك أن تثق بان النتيجة لا تكون دائما باهرة كالوعد .(٢) » وكان محظورا على البغايا فى روما أن يظهرن فى الكنائس أو المحافل العامة ، وحرم عليهن بيع مفاتنهن خلال صـــوم الميلاد ، والصوم الكبير ، وأيام الآحاد والعطلات الدينية .

وكان أشد ما يعاكس هؤلاء البغايا ويفسد عليهن حرفتهن أن طريق العشق الحرام كانت ميسرة إلى قلوب النساء المتزوجات . فهؤلاء النساء انتقمن لأنفسهن من فترة المرهقة التى ضيق عليهن فيها ، ومن الأزواج الذين لم يكن لهن رأى فى إختيارهن ، بالانغماس فى العلاقات الغرامية غير المشروعة ، وباتخاذ « سيد تابع » cavaliere servente . وقد سمحت عادة مرافقة المرأة المتزوجة هذه cicisbeatura ، بموافقة زوجها وفى غيبته ، (وهى عادة مستوردة من أسبانيا) بأن يقوم على خدمتها سيد يخدمها ، فيرافقها إلى العشاء وإلى المسرح وإلى المنتديات ، ولكن نادرا ما يصحبها إلى الفراش . واختيار بعض الأزواج مرافقين لزوجتهن لحمايتهن من علاقات العشق الحرام .(٣) وقد أفضى الانتشار الواسع لمذكرات كازانوفا ، والأخبار المتعجلة التى أذاعها الرحالة الفرنسيون الذين الفوا التحلل الفرنسى ، إلى مبالغة الأجانب فى فكرتهم عن فساد الأخلاق فى إيطاليا . صحيح أن جرائم العنف أو الجنس كثرت ، ولكن الإيطاليين كانوا بوجه عام أبناء أوفياء لوالديهم ، وأزواجا غيورين على نسائهم ، وزوجات مجدات فى بيوتهن ، وآباء متعلقين بأبنائهم ، يحيون حياة أسرية مترابطة ، ويواجهون متاعب الزواج والأبوة والأمومة باباء فى الخلق وطلاقة فى الحديث وبشاشة حاضرة فى الطبع .

ولم يلق تعليم النساء تشجيعا ، لأن كثيراً من الرجال كانوا يرون التعليم خطرا على العفة . وتلقت قلة من البنات فى الأديرة تعليما فى القراءة والكتابة

والتطريز وفنون الحياكة والترفيه . ومع ذلك نسمع عن نساء راقيات التعليم يدرن صالونات يتجاذبن فيها الأحاديث فى يسر مع الكتاب والفنانين ورجال الأعمال . وفى بلرمو ترجمت « أنا جنتيلى » فولتير شعرا إيطاليا جيدا ، ونشرت « الرسائل الفلسفية » التى دافعت فيها بجرأة عن أخلاقيات هلفتيوس غير القائمة على الدين . وفى ميلان سمع الرئيس دبروس ماريا جايتانا اجنيزى ، البالغة من العمر عشرين عاما ، تحاضر باللاتينية فى علم السوائل[٤] ، وقد درست اليونانية والعبرية والفرنسية والإنجليزية وكتبت رسائل فى القطاعات المخروطية والهندسة التحليلية[٥] ، وفى جامعة برلونيا كانت السنيورة ماتسوكينى تدرس التشريح ، والسنيورة تامبرونى تدرس اليونانية[٦] . ومن تلك الجامعة ذاتها نالت لاورا باسى درجة الدكتوراه فى الفلسفة ولما تتجاوز الحادية والعشرين (١٧٣٢) ، وما لبثت أن ضربت فى العلم بسهم وافر حتى عينت استاذا فى الجامعة وحاضرت فى « بصريات » نيوتن والفت البحوث فى الفيزياء ، وأنجبت خلال ذلك لزوجها اثنى عشر طفلا قامت بنفسها على تربيتهم[٧] .

وظلت الكثرة العظمى من الجنسين أمية دون أن ينالها من ذلك أى غضاضة أو ازدراء من المجتمع . فاذا ظهرت مخايل الذكاء والنضج على غلام فى القرية وجد له القسيس عادة سبيلا إلى التعليم . ذلك أن شتى الجماعات الدينية أسست المدارس فى المدن . فكان لليسوعيين عدد كبير من الكليات فى إيطاليا — ست فى البندقية ، وسبع فى ميلان وست فى جنوه ، وعشر فى بيدمونت ، وتسع وعشرون فى صقلية وكليات كثيرة فى مملكة نابلى وفى الولايات البابوية . وقامت الجامعات فى تورين وجنوه وميلان وبافيا وبيزا وفلورنسه وبولونيا وبادوا وروما ونابلى وبلرمو ، وكلها تحت إشراف رجال الكنيسة الكاثوليك ، ولكن الكليات ضمت الكثير من العلمانيين . وكان المعلمون والطلاب على حد سواء يحلفون اليمين بالا يعلموا أو يقرؤا ويقولوا أو يفعلوا شيئا يخالف تعليم كنيسة روما . يقول كازانوفا « فى بادوا كانت حكومة البنـــدقية تدفع المرتبات الكبيرة لمشاهير الأساتذة ، وتترك للطلاب كامل الحرية فى الانتظام فى حضور دروسهم ومحاضراتهم أو عدمه كما يشاءون »[٨].

يضاف إلى هذا أن الفكر الإيطالى شحذه عدد كثير من الأكاديميات المخصصة للآداب أو العلوم أو الفنون ، المتحررة عادة من إشراف رجال الدين ، وأشهرها الأكاديمية الاركادية التى كانت فى الفترة التى نحن بصددها تموت موتا كريما . وكانت هناك مكتبات عامة مثل « دار الكتب الامبروزية » الجميلة فى ميلان ، أو دار كتب ماجليابكينانا (دار الكتب القومية الآن) فى فلورنسه ، وكان الكثير من المكتبات الخاصة كمكتبة بيزانى فى البندقية ، يفتح أبوابه للجمهور فى أيام معلومة من الأسبوع . وقد روى دبروس أن مكتبات إيطاليا كان يستخدمها القراء استخداما يفوق فى كثرته وحماسته استخدام القراء لمكتبات فرنسا . وأخيرا كانت هناك دوريات من جميع الأنواع — ثقافية ، أو أدبية ، أو فكاهية . وكانت مجلة الآداب الإيطالية التى أسسها أبوستولو تسينو وفرانشسكو سكيبيونى دى ما فيى عام ١٧١٠ من أرقى المجلات فى أوربا ثقافة وأحظاها بالاحترام .

وصفوة القول أن إيطاليا كانت تنعم بحياة فكرية نشيطة ، فكثر عدد الشعراء الذين عاشوا على إهداء شعرهم لكبار القوم ، وتعطر الجو بأريج القصائد الغنائية التى ما برحت تقلد بترارك ، وتنافس المرتجلون فى إفراخ القريض فور دعوتهم إلى قرضه . ولكن العصر خلا من الشعر العظيم حتى أقبل ألفييرى فى ختام القرن . وقامت المسارح فى البندقية وفتشنتا وجنوه وتورين وميلان وفلورنسه وبادوا ونابلى وروما ، وأم هذه الأبنية الأنيقة الرشيقة صفوة القوم وعامة الشعب ليتجاذبوا الحديث ويسددوا نظرات الغرام . كما أتوها ليستمعوا إلى الأوبرا أو التمثيلية . وكان هناك دارسون كبار مثل مافيى ،ومؤرخون شديدو الاجتهاد مثل موراتورى ، وعما قليل سيأتى علماء عظام . غير أنها كانت ثقافة متكلفة بعض الشيء ،حذرة خشية الرقابة ،مهذبة مجاملة إلى حد أفقدها الجرأة .

ومع ذلك هبت عليها رياح متقطعة من الهرطقة عبر الألب أو البحر . فأسس الأجانب — لاسيما الإنجليز من أنصار جيمس الثانى — فى جنوه وفلورنسه وروما ونابلى ، من ١٧٣٠ فصاعدا محافل ماسونيه نزاعة إلى الربوبية . وقد أدانها البابوان كلمنت الثانى عشر وبندكت الرابع عشر ، ولكنها اجتذبت

الاتباع العديدين خصوصا من طبقة النبلاء وأحيانا من الأكليروس . وجلبت إلى إيطاليا بعض مؤلفات مونتسكيو وفولتير ورينال ومايلى وكونديلاك وهلفتيوس ودولباخ ولامترى . ونشرت طبعات من « الموسوعة » بالفرنسية فى لوكا ولجهورن وبادوا . ووصلت حركة التنوير إلى إيطاليا بدرجة متواضعة وفى صورة ميسرة لمن يقرءون الفرنسية . ولكن الإيطالى أعرض عن الفلسفة ، وأعرض عنها عمدا ؛ وعن قناعة فى الأكثر الأعم . فلقد كان هواه ومهارته فى إبداع أو تذوق الفن والشعر أو الموسيقى ، وبدا له الجمال المحسوس أو المرئى أو المسموع أفضل من حقيقة رواغة لا يضمن اطلاقا إشاعتها البهجة فى نفسه . ومن ثم فقد ترك الدنيا تناقش وتجادل بينما انصرف هو إلى شدوه وغنائه .

٢ — الموسيقى

اعترفت أوروبا للموسيقى الإيطالية بمكان الصدارة وقبلت آلاتها وأشكالها ، ورحبت بمزاياها ، وتوجت كبار مغنيها الخصان واستسلمت لأوبراها الشجية قبل جلوك وعلى الرغم منه وبعده . وأم جلوك وهاسى وموتسارت ومئات غيرهم إيطاليا ليدرسوا موسيقاها ، وليقفوا على أسرار « الغناء الجميل bel canto » (الملعلع) من بوربورا أو يتسلموا مدالية بادرى مارتينى .

يقول بيرنى فى معرض حديثه عن البندقية ، « إذا سار إثنان معاً يتأبط أحدهما ذراع الآخر ، بدا كأنهما لا يتحدثان الا غناء . فكل الأغانى هناك ثنائيات » .[٩] وكتب إنجليزى آخر « فى ميدان القديس مرقص يرفع رجل من عامة الشعب — حذاء أو حداداً مثلا — عقيرته بأغنية ، وللتو ينضم إليه أشخاص على شاكلته ويشدون بهذه الأغنية فى عدة أصوات ، بضبط وذوق ندر أن يصادفهما المرء فى أرقى المجتمعات فى بلادنا الشمالية [١٠] .

وكان العاشق الواقف تحت نافذة حبيبته يداعب أوتار قيثارة أو مندولين كما يداعب قلب عذرائه . وحمل مغنو الشارع أنغامهم إلى المقاهى والحانات ، وفى الجندول كانت الموسيقى تعانق هواء المساء ، والصالونات والأكاديميات

والمسارح تحيي الحفلات الموسيقية ، والكنائس ترجها أصوات الأراغن وفرق المرتلين ، وفى الأوبرا كان الرجال ينتشون طربا والنساء يغبن عن الوعي عند سماع لحن من المغنية الأولى أو الخصي المغني . وفى حفلة سمفونية أحييت فى روما فى مكان لا تغطيه غير نجوم السماء (١٧٥٨) سمع موريلليه عبارات عاطفية مثل (إيه أيها المبارك ! يا للذة الكبرى ! أكاد أموت طربا ! . [١١] ولم يكن من غير المألوف فى دار الأوبرا أن نسمع النشيج يتردد بين جمهور النظارة .

وأحب القوم آلاتهم الموسيقية حبا فوق وفاءهم للجنس الآخر ، وسخوا بالمال ليجعلوا منها تحفا صنعت بدقة من الخشب الثمين وطعمت بالعاج أو الميناء أو رصعت بالأحجار الكريمة ، وربما زين الهارب أو القيثارة بالماس . [١٢] وكان سترايفارى قد ترك فى كريمونا تلاميذ له مثل جوزيبي انطونيو جوارنيرى ودومنيكو مونتانيانا واصلوا العلم بسر صنع الفيولينات والفيولات والفيولنشلات النابضة بالحياة . وظل الهاربسكورد (الذى كان الإيطاليون يسمونه كلافيتشمبالو) إلى نهاية القرن الثامن عشر آلة المفاتيح المفضلة فى إيطاليا رغم أن بارتولوميو كريستوفورى كان قد اخترع البيانو — فورتى بفلورنسه حوالى ١٧٠٩ . وحظى كبار عازفى الهاربسكورد مثل دومنيكو سكارلاتى ، أو الفيولينه مثل تارتيني وجمنيانى ، فى هذا الجيل بشهرة دولية . فكان فرانشسكو جمنيانى بمثابة « لست » الفيولينة ، أو كما لقبه منافسه تارتيني « مجنون » القوس (إلفوريبوندو) . وحين وفد على انجلترة فى ١٧١٤ حظى بشعبية فى الجزر البريطانية أغرته بالإقامة هناك معظم سنيه الثمانى عشرة الأخيرة .

وقد شجع ظهور أمثال هؤلاء العازفين المهرة على إنتاج الموسيقى الآلية ، وكان هذا هو العصر الذهبي للمؤلفات الموسيقية الإيطالية للفيولينة . فاتخذت شكلها الآن — خصوصا فى إيطاليا — الإفتتاحية ، والمتتالية ، والصوناتا ، والكونشرتو ، والسمفونية ، وكلها ركز على اللحن والإيقاع ، لا على الكونترابنط البوليفونى الذى كان آنئذ بالغاً أوجه ثم مختتما حياته مع يوهان سبستيان باخ . وكما أن المتتالية أنبثقت من موسيقى الرقص فكذلك إنبثقت الصوناتا من

المتتالية . لقد كانت شيئا يعزف ، كما كانت الكنتاتا شيئاً ينشد . وأصبحت الصوناتا فى القرن الثامن عشر مسلسلة من ثلاث حركات — سريعة (الليجرو أو بريستو) ، وبطيئة (أندانتى أو أداجو) وسريعة (بريستو أو الليجرو) ويدس فيها أحيانا سكيرتسو (دعابة) تذكر السامع برقصة الجيجة المرحة ، أو منويتة رشيقة تذكره بموسيقى الرقص . وما وافى عام ١٧٥٠ حتى كانت الصوناتا ، على الأقل فى حركتها الأولى ، قد طورت « شكل الصوناتا » — وهو عرض موضوعات متعارضة واطالتها بالتنويع ، ثم تلخيصها عند الختام . وبعد تجارب ج . ب . سامارتينى وريناللدودى كابوا فى إيطاليا ، ويوهان شتامتس فى ألمانيا ، تطورت السموفونية بتطبيق شكل الصوناتا على ما كان فى الماضى إفتتاحية أوبرالية أومصاحبة سردية . وبهذه الوسائل هيأ الملحن اللذة للعقل والحواس معا ، وأعطى الموسيقى الآلية ميزة فنية جديدة هى البنيان المحدد الذى يقيد ويربط اللحن بنظام ووحدة منطقيين . ذلك أنه إذا انعدم البناء فى فن ما — أى العلاقة العضوية بين الأجزاء والكل ، أو العلاقة بين البداية والوسط والنهاية — كان ذلك معناه انحطاط هذا الفن .

أما الكونشرتو (من اللفظ اللاتينى concertare ومعناه يتبارى) فقد طبق على الموسيقى مبدأ الصراع الذى هو روح الدراما . فعارض الأوركسترا بعازف منفرد ، وأدخل الاثنين فى مناظرة هارمونية . وكان شكله المفضل فى إيطاليا الكونشرتو جروسو (الكبير) ، حيث التعارض بين أوركسترا صغير من الوتريات ، و« كونشرتينو » (كونشرتو صغير) من عازفين أو ثلاثة . وكان لفيفالدى فى إيطاليا وهيندل فى انجلترا ، وباخ فى ألمانيا ، الفضل فى صقل شكل الكونشرتو جروسو صقلا مطردا ، وتحدت موسيقى الآلات تفوق الأغنية .

ومع ذلك ، ظل الصوت — خصوصا فى إيطاليا — هو الآلة المحببة التى لا ضريب لها . ففى إيطاليا أتيحت له ميزة لغة عذبة رخيمة ، تغلب فيها الصوت اللين على الساكن ، وتقليد طويل من الموسيقى الكنسية ، وفن بالغ الرقى من فنون التدريب الصوتى . هنا ظهر كبار مغنيات الأوبرا (البريمادونات).

الفاتنات اللائى يرتقين كل عام سلم الثراء والبدانة ، والمغنون الطواشية ذوو الأجسام الريانة الذين كانوا يخرجون من إيطاليا ليأسروا الملوك والملكات . هؤلاء المغنون السوبرانو أك الكونترالتو الذكور جمعوا بين رئات الرجال وحناجرهم ، وبين أصوات النساء أو الغلمان . وكانوا بعد أن يطوشوا فى سن السابعة أو الثامنة ، ويخضعوا لنظام طويل دقيق من التدريب على التنفس والنطق ، يتعلمون ترعيشات الصوت وتحلياته وتهدجاته ، وتعاقب النغمات السريع ووقفات التقاط النفس — إلى آخر هذه الفنون التى جعلت جماهير السامعين الإيطالية تهذى طربا تعبر عنه أحيانا بهتاف هو « ليحى السكين الصغير »[١٣] . ذلك أن معارضة الكنيسة (لاسيا فى روما) فى استخدام النساء على خشبة المسرح ، وسوء تدريب المغنيات فى القرن السابع عشر ، كانا قد خلقا طلبا لباه هذا السكين الصغير الذى كان يقطع القنوات المنوية للذكر . وبلغ من عظم مكانة المغنين المطوشين إذا حالفهم الحظ أن بعض الآباء كانوا — بعد أن يغروا الصبى الضحية بالرضى بمصيره هذا — يسلمونه لهذه العملية بمجرد أن تبدو منه أول بادرة صوت رخيم . ولكن كثيرا ما كانت الآمال تخيب ، فكنت تجد فى كل مدينة بايطاليا كما ذكر بيرنى نفرا من هؤلاء الفاشلين « ولا صوت لهم على الاطلاق »[١٤] وبعد عام ١٧٥٠ اضمحلت بدعة الخصيان هذه ، لأن مغنيات الأوبرا تعلمن أن يتفوقن عليهم فى نقاء النغمة وينافسنهم فى قوة الصوت .

أما أشهر الأسماء فى موسيقى القرن الثامن عشر فلم يكن باخ ولا هيندل ولا موتسارت ، بل فارينللى — وهذا ليس اسمه الأصلى . والظاهر أن كارلو بروسكى اتخذ اسم خاله الذى كان آنئذ معروفا فى دوائر الموسيقى . وإذ كان كارلو قد ولد فى نابلى (١٧٠٥) لأبوين عريقى الأصل ، فما كان لمثله عاده أن يدخل صفوف المطوشين ؛ وروى أن حادثا أصابه وهو راكب جواده اقتضى إجراء العملية التى أثمرت أبدع صوت فى التاريخ . ثم درس الغناء فى على بوربورا ، وصحبه إلى روما ، وظهر هناك فى أوبرا بوربورا المسماة « إيومينى ». وفى أحد الألحان نافس عازفا على الناى فى إطالة نغمة وتضخيمها وغطى عليه

فى طول النفس ، فأتته الدعوات من أكثر من عشر عواصم . وفى ١٧٢٧ فى بولونيا لقى أول هزيمة له ؛ ذلك أنه قاسم أنطونيو برناكى لحنا ، فاعترف له بأنه (ملك المغنين) ، وتوسل إليه أن يكون معلمه . ووافق برناكى ، وسرعان ما بز التلميذ معلمه . وراح فارينللى الآن يحرز نصرا بعد نصر فى البلد تلو البلد — البندقية وفينا وروما ونابلى وفيرارا ولوكا وتورين ولندن وباريس . وكان تفننه الصوتى عجيبة العصر . وكان فن التنفس من أسرار براعته ، فقد عرف أكثر من أى مغن آخر كيف يتنفس بعمق وسرعة وهدوء ، وكان فى استطاعته أن يستمر فى غناء بنغمة ما بعد أن تتوقف جميع الآلات الموسيقية . وفى لحن son qual nave (على أى مركب) بدأ النغمة الأولى مخافتاً لا يكاد يسمع ، ومطها تدريجا إلى ملء حجمها ، ثم هبط بها شيئا فشيئا إلى خفوتها الأول . وكان جمهور السامعين أحيانا ، حتى فى انجلتره — ذلك البلد الرصين — يصفق لهذه العجيبة السعيدة تصفيقاً يمتد خمس دقائق .[١٥] وقد اكتسب قلوب سامعيه كذلك بحنانه وكياسته ورقته ، وكانت هذه الخلال فى فطرته كما كانت فى صوته . وفى ١٧٣٧ قام بزيارة لأسبانيا خالها قصيرة ، ولكن المكث طال به فى مدريد أو قربها ربع قرن .. وسوف نفتش عليه هناك فى فصل لاحق .

وبفضل المغنين الطواشية أمثال فارينللى وسينيزينو ، وكواكب الغناء من النساء أمثال فاوستينا بوردونى وفرنشسكا كوتسونى ، أصبحت الأوبرا صوت إيطاليا ، وبهذه المثابة استمع إليها الناس بابتهاج فى كل بلد أوربى إلا فرنسا حيث اشتعلت نار الحرب . وكلمة « أوبرا » كانت فى الأصل جمع « opus » ومعناها « أعمال » ولكن الجمع أصبح فى إيطاليا مفردا ، واحتفظ بمعناه « العمل » ، وما نسميه الآن أوبرا كان يسمى opera per musica — عملا موسيقيا . ولم تتخذ الكلمة معناها الحالى إلا فى القرن الثامن عشر . وإذ كانت متأثرة بتقاليد الدراما اليونانية ، فقد صممت أصلا على أنها تمثيلية تصاحبها الموسيقى ، ثم ما لبثت الموسيقى أن طغت على التمثيلية فى إيطاليا ، وطغت الأغانى (الآريا) على الموسيقى . وصممت أوبرات تتيح عروضا منفردة لكل

مغنية أولى وكل مغن أول فى الفرقة . وكان السامعون يتجاذبون الحديث فيما بين هذه القمم المثيرة ، وبين الفصول يلعبون الورق أو الشطرنج ، ويقامرون ، ويأكلون الحلوى أو الفاكهة أو العشاء الساخن ، ويتزاورون ويغازلون من مقصورة إلى مقصورة . فى مثل هذه المهرجانات كان النص عادة يغرق فى طوفان معترض فى الأغانى والثنائيات والكوارس والباليهات . وقد ندد المؤرخ لودفيكو موراتورى بطمس الشعر على هذا النحو (١٧٠١) [١٦] ووافقه كاتب النصوص أبوستولوتسينو ، وانتقد المؤلف الموسيقى بنديتو مارتشيللى هذا الاتجاه فى « تياترو على الموضة » (١٧٢١) . وأوقف متاستازيو حينا هذا السيل الجارف ، ولكن فى النمسا لا فى إيطاليا . وناضل جوميللى وترايتا ضده ، ولكن مواطنيهما أنكروا عليهما هذا النضال ، ذلك أن الإيطاليين آثروا فى فى غير مواربة الموسيقى على الشعر ، واتخذوا الدراما مجرد تكئة للأغنية .

وأغلب الظن أنه ما من شكل فنى آخر وعاه التاريخ حظى بالشعبية التى حظيت بها الأوبرا فى إيطاليا . وما من حماسة ضارعت حماسة جمهور إيطالى يرحب بلحن أو قفلة لنغمة يشدو بها مغن مشهور . ولو سعل أحد المستمعين فى حفلة كهذه لعد ذلك منه جريمة إجتماعية كبرى . وكان التصفيق يبدأ قبل أن تختم الأغنية المألوفة ، وتدعمه العصى تدق على الأرض أو على ظهور المقاعد ، وكان بعض المتحمسين يقذفون بأحذيتهم فى الهواء [١٧] . وكان لكل مدينة إيطالية تزهو بنفسها قليلا أو كثيرا (وأيها كانت مبرأة من الزهو ؟) دار للأوبرا ، وبلغ عدد هذه الدور فى الولايات البابوية وحدها أربعين . وبينما كانت الأوبرا فى ألمانيا حفلة رسمية تؤدى فى البلاط ويحرم منها جمهور الشعب ، وبينما حد من مستمعيها فى انجلترة ارتفاع أسعار الدخول ، نجدها فى إيطاليا مفتوحة لكل شخص لائق الهندام نظير رسم متواضع ، وأحيانا دون رسم على الإطلاق . ولما كان الإيطاليون قوما يحبون الاستمتاع بالحياة فقد أصروا على أن يكون لأوبراتهم خاتمة سعيدة مهما كان فى هذه الأوبرات من فواجع . ثم أنهم أحبوا الفاكهة كما أحبوا رقة العاطفة . فيما بينهم تقليد يقضى بدس فاصل هزلى بين فصول الأوبرا . ثم تطورت هذه الفواصل إلى

نوع قائم بذاته حتى لقد نافست (الأوبرا الجادة) فى شعبيها ، وأحيانا فى طولها . والذى فتن باريس فى ١٧٥٢ كان « أوبرا هازلة — opera buffa » هى الخادمة تنقلب ربة البيت la serva padrann لبرجوليزى ، التى أشاد بها روسو دليلا على تفوق الموسيقى الإيطاليا على الفرنسية .

أياً كانت الأوبرا الإيطالية ، هازلة أو جادة ، فإنها كانت قوة فى التاريخ . وكما غزت روما مرة غربى أوربا بجيوشها ، وكما غزتها كنيسة روما مرة ثانية بعقيدتها ، كذلك غزتها إيطاليا مرة ثالثة بالأوبرا . فأزاحت أوابراتها الإنتاج الوطنى فى ألمانيا والدنمرك وانجلترة والبرتغال وأسبانيا بل وروسيا ، وكان مغنوها معبودى كل عاصمة أوربية تقريبا . واتخذ المغنون الوطنيون أسماء إيطالية لكى يحظوا بالقبول فى وطنهم . وسيمضى هذا الغزو الساحر ما بقى للحروف اللينة التفوق فى الغناء على الحروف الساكنة .

٣ — الدين

كانت الطبقة المسيطرة فى إيطاليا هى طبقة الأكليروس بعد البريمادونات والمغنين الخصيان . وراح رجال الدين يمشون أو يركبون فى غفاراتهم المتميزه وقبعاتهم العريضة الحواف فى حرية تخالطها الكبرياء عبر المجتمع الإيطالى عالمين أنهم يوزعون أغلى نعمة عرفتها البشريه — هى نعمة الرجاء . وبينما كانت نسبة رجال الكنيسة إلى الشعب فى فرنسا فى هذا القرن على التقريب واحدا إلى مائتى نفس ، كانت النسبة فى روما واحداً لكل خمس عشرة ، وفى بولونيا واحداً لكل سبع عشرة ، وفى نابلى وتورين واحداً لكل ثمان وعشرين[١٨] . وقد شكا رجل معاصر من أهل نابلى من هذا الوضع ، وهو باعترافه رجل متمسك بالتقاليد :

« لقد إستفحل عدد الأكليروس بحيث أصبح لزاما على الأمراء أن يتخذوا الإجراءات للحد من عددهم وإلا ابتلعوا الدولة بأسرها . فأى

ضرورة لأن يهيمن على أصغر القرى الإيطاليه خمسون قسيسا أو ستون؟... أن العدد الضخم من أبراج الأجراس والأديره يحجب نور الشمس . وهناك مدن يبلغ فيها العدد خمسة وعشرين ديرا لرهبان أو راهبات الدومنكان وسبعة مجامع لليسوعيين ، ومثلها للتياتين ، ونحو عشرين أو ثلاثين ديراً للأخوة الفرنسسكان ، وما لا يقل عن خمسين أخر من طوائف دينية مختلفة من الجنسين ، هذا فضلا عن أربعمائه أو خمسمائة كنيسة ومصلى[١٩] » .

ولعل هذه الأرقام بالغ فيها الكاتب دعما لحجته . ونحن نسمع عن أربعمائة كنيسة فى نابلى ، و ٢٦٠ فى ميلان ، و ١١٠ فى تورين ، على أن هذه دخلت ضمنها المصليات الصغيرة . وكان الرهبان فقراء نسبيا ، أما الأكليروس من غير الرهبان فكانوا فى جملتهم يملكون ثروة تفوق ثروة النبلاء . وكان الأكليروس فى مملكة نابلى يحصلون على ثلث الموارد . وفى دوقية بارما كان نصف الأرض يملكه الأكليروس ، وفى تسكانيا ثلاثة أرباع الأرض تقريباً . وفى البندقية أضافت الوصايا الجديدة فى السنوات الأحدى عشرة من ١٧٥٥ إلى ١٧٦٥ إلى الكنيسه من الأملاك ما قيمته ٣,٣٠٠,٠٠٠ دوقاتية[٢٠] . وكان بعض الكرادلة والأساقفة من أغنى الرجال فى إيطاليا ، ولكن هؤلاء الكرادلة والأساقفه كانوا أولا مديرين وحكاما ، ولم يكونوا قديسين إلا أحيانا . من ذلك أن عدة رجال منهم فى النصف الثانى من القرن نزلوا عن ثروتهم وترفهم وعاشو حياة الفقر الاختيارى .

أما الشعب الإيطالى فلم يبد منه أى احتجاج ذى بال على ثراء الأكليروس ، اللهم إلا قلة من المعلقين والهجائين . لقد كان الشعب فخورا ببهاء كنائسه وأديرته وأحباره وبدت لهم مساهماتهم ثمنا زهيدا يدفعونه لقاء النظام الذى وفره الدين للاسرة والدولة . وكان فى كل بيت صورة أو تمثال للمسيح المصلوب ، وآخر للعذراء ، وأمامهما تركع الأسرة كلها فى صلاة كل مساء — الأبوان والأبناء والخدم . فأى شيء يستطيع الحلول محل التأثير الأخلاقى لتلك الصلوات الموحدة بين القلوب ؟ وكان الأمتناع

عن أكل اللحم أيام الجمع ، وأيام الأربعاء والجمع فى الصوم الكبير ، ضبطا نافعا للشهوة — كما كان نعمة على الصحة وعلى صيادى السمك . أما القساوسة ، الواعون لمفاتن النساء ، فلم يغالوا فى إدانة خطايا الجسد، وأغضوا عن مظاهر التحلل فى الكرنفالات . لا بل أن البغايا كن فى السبوت يوقدن شمعه أيام العذراء ، ويودعن نقودا لترتيل قداس . وقد أدهش دبروس وهو يشاهد تمثيلية فى فيرونا أن يرى التمثيل يتوقف حين دقت أجراس الكنائس معلنة موعد الصلاة (الأنجيلوس) ، وركع كل الممثلين وصلوا ، وقامت ممثله كانت تتصنع الأغماء فى المسرحيه لتشارك فى الصلاة ثم عادت إلى أغمائها[٢١] . حقاً ندر أن أحب الناس دينا من الأديان حباً جما كما أحب الإيطاليون الكثلكة فى إيطاليا . على أنه كان للصورة وجه آخر — هو الرقابة على المطبوعات وديوان التفتيش . وقد طالبت الكنيسة كل إيطالى أو إيطاليه أن يؤدى مرة فى السنة على الأقل « واجب عيد القيامة » — أى يذهب للاعتراف على الكاهن فى سبت النور ، ويتناول القربان فى صباح القيامة . فإذا قصر فى هــذا الواجب — فى كل أرجاء إيطاليا باستثناء أكبر المدن — استوجب التوبيخ من الكاهن ، فإذا لم يجد مع العاصى التوبيخ والنصح سراً عوقب بنشر إسمه على أبواب كنيسة الأبرشيه، فإذا تمادى فى الرفض كان جزاؤه الحرم ، بل السجن فى بعض المدن[٢٢]. على أن ديوان التفتيش كان قد فقد الكثير من قــوته وشرته . وكان فى الأمكان تفادى الرقابة الكنسيه فى المراكز الكبرى ، فخفت الرقابة على المطبوعات ، وكان هناك إنتشار صامت للشك والهرطقه فى أوساط المثقفين لا بل بين رجال الأكليروس أنفسهم — لأن بعضهم كانوا جانسنيين فى دخيلة أنفسهم برغم أوامر البابا .

وإذا كان الكثير من القساوسة والرهبان قد عاشوا حياة الراحة والدعة، ولم يكونوا غرباء على الأثم ، فقد كان هناك أيضاً الكثيرون ممن وفــوا بنذورهم ، واحتفظوا بالإيمان حياً بالأخلاص لواجباتهم . وقامت المؤسسات الدينية الجديدة شاهدا على بقاء نبض الحياة فى الرهبنة . من ذلك أن القديس

الفونسودى لجيورى المحامى العريق الأصل أسس فى ١٧٣٢ جماعة « إتباع الفادى » (أى المسيح) ، كذلك أسس القديس بولس الصليبى (باولوداني)، الذى مارس أقسى ضروب النسك ، فى ١٧٣٧ « طائفة المتألمين » . أى. إتباع صليب المسيح المقدس وآلامه .

وكانت جماعة اليسوعيين فى ١٧٣٠ تضم نحو ٢٣,٠٠٠ عضو . منهم ٣,٦٢٢ فى إيطاليا ، ونصفهم قساوسة[٢٣] . ولم يكن هناك تناسب قط بين سلطانهم وعددهم . فكثيراً ما أثروا فى السياسة الداخليه والدولة بحكم كونهم آباء الاعتراف للملوك والملكات والأسر المرموقة ، وكانوا أحياناً أكثر القوى إلحاحاً — بعد جماهير الشعب — فى اضطهاد الهرطقة . ومع ذلك كانوا أكثر اللاهوتيين الكاثوليك تحرراً ، وقد رأينا فى غير هذا الموضع كم حاولوا فى صبر ان يتوافقوا مع حركة التنوير الفرنسية . وقد تميزت بعثاتهم الخارجيه بمثل هذه المرونة . فنى الصين حولوا مئات الألوف إلى الكاثولكية[٢٤] ، ولكن تنازلاتهم الذكية لعبادة الأسلاف ، وللكنفوشيه ، وللطاوية ، صدمت مبعوثى الطوائف الدينية الأخرى فاقنعوا البابا بندكت الرابع عشر بأن يكبح جماح اليسوعيين ويوبخهم فى مرسوم Ex quo singulari (١٧٤٣) . على أنهم ظلوا برغم ذلك أقدر وأعلم المدافعين على العقيدة الكاثوليكية ضد البروتستنتية والألحاد ، واخلص المؤيدين للبابوات ضد الملوك . وقد وجد الملوك فى جماعة اليسوعيين أثناء صراعات السيادة والسلطة بين الدول القومية والكنيسة التى تعلو على القوميات عدوا هو أشد أعدائهم دهاء والحاحاً . ومن ثم فقد صحت نيتهم على القضاء عليها . ولكن الفصل الأول فى هذه الدرامة مكانه البرتغال .

٤ — من تورين إلى فلورنسه

إذا دخلنا إيطاليا من فرنسا بطريق مون — سنى ، هبطنا جبال الألب إلى بيدمونت التى تسمى « سفح الجبل » ثم مررنا بكروم وحقول للحبوب وبساتين لأشجار الزيتون أو الكستناء حتى نبلغ توبرين ، القصبه القديمة. لبيت ساقوى والتى يرجع عمرها إلى ألفى سنة . وهذا البيت من أقدم الأسر

الملكية الموجودة ، وقد أسسه فى ١٠٠٣ أومبرتو بيانكامانو — هومبرت ذو اليد البيضاء . وكان رأس الأسرة فى الحقبة التى نحن بصددها من أكفأ حكام العصر . فقد ورث فكتور أماديوس الثانى عرش دوقية ساقوى فى التاسعة من عمره (١٦٧٥) وأضطلع بشئون الحكم فى الثامنة عشرة وقاتل من أجل الفرنسيين آنا وضدهم آنا فى حروب لويس الرابع عشر ، وشارك أوجين السافواوى فى طرد الفرنسيين من تورين وإيطاليا ، وخرج من معاهدة أوترخت (١٧١٣) وقد أضاف صقلية إلى تاجه . وفى ١٧١٨ استبدل سردنيا بصقلية ، واتخذ لقب ملك ساردنيا (١٧٢٠) ولكنه احتفظ بتورين عاصمة له . وحكم مملكته بكفاية تشوبها الخشونة ، وأصلح التعليم العام وزاد فى رفاهية الشعب ، وبعد أن حكم خمسة وخمسين عاماً تخلى عن العرش لابنه شارل إيمانويل الأول (حكم ١٧٣٠ — ٧٣) .

كانت تورين خلال هذين الحكمين اللذين إمتدا قرابة قرن كامل مركزا قياديا للحضارة الإيطاليا . وقد وصفها مونتسكيو الذى شاهدها فى ١٧٢٨ بأنها « أجمل مدينة فى العالم[٢٥] » مع أنه أحب باريس . وإمتدح تشسترفيلد عام ١٧٤٩ بلاط سافوى لأنه خير بلاط فى أوربا يربى « أناسا مهذبين لطفاء[٢٦] » . وبعض الفضل فى بهاء تورين راجع إلى فليبو يوفارا ، المعمارى الذى كان لا يزال يتنفس وحى النهضه الاوربية . فعلى تل سوبرجا الشامخ الذى يعلو ٢,٣٠٠ قدم فوق المدينه بنى (١٧١٧ — ٣١) لفكتور أماديوس الثانى فى ذكرى تحرير تورين من احتلال الفرنسيين باسيليقا جميلة بطراز الأروقة والقباب الكلاسيكى إستخدمت مقبرة لأسرة سافوى الملكية قرنا من الزمان . ثم أضاف إلى قصر ماداما العتيق (١٧١٨) سلما فخما وواجهة ضخمة ، وفى ١٧٢٩ صمم قلعة ستوبينجى الهائلة (التى أكملها بنديتو ألفييرى) والتى أبرزبهوها الرئيسى كل فخامة الباروك الحالية . وظلت تورين عاصمة لأدواق سافوى حتى أنتقلوا بعد نصرهم النهائى (١٨٦٠ وما بعدها) إلى روما ليتربعوا على عرش إيطاليا الموحدة .

أما ميلان التى طالما خنقتها السيطرة الاسبانية فقد بعثت من جديد تحت

الحكم النمساوى الأكثر رفقا . فنى ١٧٠٣ أنشأ فرانتزتيفن ، وفى ١٧٤٦ و ١٧٥٥ أستكمل فيليتشى ورووكليريتشى بمعونه الحكومة ، مصانع للنسيج وسعت من إحلال الإنتاج الواسع النطاق الذى يموله ويديره رأس المـــال محل الحرف والنقابات الحرفية . أما التاريخ الثقافى لميلان فقد لمع فيه الآن أسم جوڤانى باتيستا سامارتينى ، الذى نستطيع إلى الأن الاستماع إليه أحيانا على أمواج الأثير المتدفقة . ويلاحظ أنه فى سمفونياته وصوناتاته إستبدل بوقار موسيقى كبار الموسيقيين الإلمان الكونترابنطى تفاعلا ديناميكيا بين الموضوعات والحالات النفسية المتعارضه . وحين وفد الفتى جلوك على ميلان (١٧٣٧) ليشغل وظيفة موسيقى الحجرة للأمير فرانتشسكوملتسى ، أصبح تلميذ سامارتينى وصديقه واتخذ طريقه فى بناء هيكل الأوبرا . وفى ١٧٧٠ صاح المؤلف الموسيقى البوهيمى يوزف مزلفتشلك ، وهو يصغى مع موتسارت الشاب إلى بعض سمفونيات سمارتينى فى ميلان « لقد وجدت الأب الذى أنجب أسلوب هايدن ! [٢٧] » — وهـــو إذن أحد آباء السمفونية الحديثة .

وأما جنوة فقد كابدت خطوبا فى القرن الثامن عشر . كانت تجارتها قد انحطت إثر منافسة المحيطات للبحر المتوسط ، ولكن موقعها الأستراتيجى على ربوة دفاعية تطل على ثغر حسن الاعداد لفت الأنتباه الخطر من الدول المجاورة . ووقعت الحكومة المحصورة بين أعداء من الخارج وشعب غضوب جاهل من الداخل فى أيدى أسر تجارية قديمة تحكم عن طريق مجلس مغلق ودوج مطيع . هذه الأولجركية العاملة على تخليد نفسها فى كراسى الحـــكم أثقلت كاهل الشعب بالضرائب حتى هـــوى إلى درك الفقر الكثيب الفاقد الصبر ، وسيطر عليها وابتزها هى الأخرى بنك سان جورجو . فلما حاصرت قوات سافوى والنمسا المتحالفة جنوه فى ١٧٤٦ لم تجرؤ الحكومة على تسليح الشعب ليقاوم خشية أن يقتل الحكام ، وآثرت أن تفتح أبوابها للمحاصرين الذين فرضوا تعويضات وفديات جرت عليها الخراب المالى . أما العامه الذين فضلوا المستغلين من بنى جلدتهم ، فقد ثاروا على الحامية

النمساوية ، وقذفوها بوابل من البلاط والطوب إنتزعوه من الأسطح والشوارع ، وطردوها طردا مخزيا ثم عاود الطغيان القديم سيرته الأولى .

وشيد نبلاء جنوه القصور الجديدة مثل قصر فيرارى ، وشاركت ميلان فى رعاية مصور بلغ شهرة من المرتبة الثانية فى عصرنا هذا . فتكاد كل صورة باقية من الصور التى رسمها الساندرو ماناسكو تروعنا باصالة أسلوبها القاتمة . فصورة « بنكينللو يعزف على القيثارة » — جسد مستطيل فى بقع مهملة سوداء وبنية ، واللوحة الرشيقة المسماة « فتاة وموسيقى أمام المدفأة[٢٩] » ولوحة « الحلاق[٣٠] » تبدو عليه اللهفة على قطع حلقوم زبونه ، ولوحة « حجرة طعام الرهبان » الضخمة الشاهدة على ازدهار مطبخ الكنيسة ، هذه كلها روائع فنية تذكرنا بالجريكو فى أجسادها النحيلة وحيلها الضوئية ، وترهص بجويا فى فضحها الرهيب لقساوات الحياة ، وتنزع إلى الحداثة فى احتقارها الخشن للتفاصيل المتكلفة المتزمته .

وشهدت فورنسة فى هذا العصر نهاية أسرة من أشهر أسر التاريخ . فقد كان حكم كوزيمو الثالث (١٦٧٠ — ١٧٢٣) الذى طال أمــده أرشيدوقا لتسكانيا نكبة على شعب مازال فخورا بذكريات عظمة فلورنسة تحت حكم آل مديتشى الأسبقين . وقد سمح كوزيمو هذا الذى تسلط اللاهوت على تفكيره للاكليروس بأن يحكموه ويبتزوا من موارده الهزيله منحا سخية للكنيسة . وكان من أثر الحكم المستبد ، والإدارة العاجزة ، والضرائب الباهظة أن فقدت الحكومة التأييد الشعبى الذى حظيت به الأسرة المالكة طوال مائتين وخمسين عاما .

وآثر فرديناند بن كوزيمو الأكبر الغوانى على رجال حاشيته ، ودمر صحته بالافراط فى الملذات ، ومات أبتر لا عقب له فى ١٧١٣ . وكان لكوزيمو إبن كان يدعى جان (يوحنا) جاستونى أولع بالكتب ، ودرس التاريخ والنبات ، وعاش حياة هادئة . وفى ١٦٩٧ أكرهه أبوه على الزواج من آن أميرة ساكس لاونبرج ، وكانت أرملة فقيرة الثقافة . وذهب جان ليعيش معها فى قرية بوهيمية نائية ، واحتمل الملل عاما ،

ثم تعزى بالخيانات الزوجية فى براغ . فلما ساءت صحة فرديناند ، استدعى كوزيمو جان إلى فلورنسا ، ولما مات فرديناند أعلن جان وريثا لتاج الارشيدوقية . ورفضت زوجة جان أن تعيش فى إيطاليا . وخشى كوزيمو أن ينقرض بيت مديتشى ، فامتنع مجلس الشيوخ الفلورنسى بأن يصدر قراراً يقضى عند موت جان جاستونى دون عقب بأن يؤول العرش إلى شقيقة جان المدعوة آنا ماريا لودوفيكا .

وحامت الدول الأوربية فى لهفة حول الأسرة المحتضرة . ففى ١٧١٨ رفضت النمسا وفرنسا وانجلتره وهولنده الإعتراف بترتيب كوزيمو ، وأعلنت أنه يجب عند وفاة جان أن تعطى تسكانيا وبارما لدون كارلوس الابن الأكبر لاليزابث فارنيزى ملكة أسبانيا . واحتج كوزيمو ، وأعاد تنظيم دفاعات لجهورن وفلورنسة الحربية ولكن متأخراً . وخلف موته لإبنة دولة أنهكها الفقر وعرشاً مزعزع الأركان .

وكان جان جاستونى الآن (١٧٣٢) فى عامة الثانى والخمسين . فجاهد ليصلح مساوىء الإدارة والاقتصاد ، وطرد الجواسيس والمتملقين الأذلاء الذين أثروا فى عهد أبيه وخفض الضرائب وأعاد المنفيين ، وأفرج عن السجناء السياسيين ، وعاون على إحياء الصناعة والتجارة ورد لحياة فلورنسة الاجتماعية الأمان والمرح . وبفضل اثراء كوزيمو الثانى وجان جاستونى لقاعة الأوفيتسى للفنون ، وازدهار الموسيقى تحت قيادة كمان فرانسشكو فيراتشينى ، والمراقص التنكرية ، ومواكب العربات المزخرفة ، ومعارك الحلوى والأزهار الشعبية - بفضل هذا كله أصبحت فلورنسة تنافس البندقية وروما فى جذب الزوار الأجانب ، مثال ذلك أنه اجتمع فيها حوالى عام ١٧٤٠ الليدى مارى ورتلى مونتاجو ، وهوراس ولبول ، وتوماس جراى حول الليدى هنرييتا بومفريت فى قصر ريدولفو . إن فى المجتمع المحتضر شيئاً يجذب اليه الناس جذباً حزيناً .

ولما أضنت جان جاستونى جهوده ، أحال فى ١٧٣١ تبعات الحكم إلى وزارئه وانزلق إلى هوة اللذات الحسية . وجردت أسبانيا جيشاً عدته

ثلاثون الف مقاتل لتضمن الخلافة لدون كارلوس . وأرسل شارل السادس النمساوى خمسين الف جندى يرافقوا ابنته ماريا تريزا فى طريقها إلى عرش الأرشيدوقية . وأمكن تفادى الحرب باتفاق (١٧٣٦) ابرم بين النمسا وفرنسا وانجلترة وهولندة يقضى بأن يأخذ كارلوس نابلى ، وأن تأخذ ماريا وزوجها فرانسوا اللوزينى — وتسكانيا . وفى ٩ يوليو ١٧٣٧ قضى آخر المديتشيين نحبه وأصبحت تسكانيا تابعة للنمسا وازدهرت فلورنسة من جديد .

٥ . ملكة الادرياتيك

بين ميلان والبندقية استرخت بعض المدن الصغرى . فبرجامو اضطرت إلى أن تقنع فى نصف القرن الذى نحن بصدده بمصورين مثل جيسلاندى ، وبمؤلفين موسيقيين مثل لوكاتيللى . وقدمت فيرونا الأوبرات فى مسرحها الرومانى ، وكانت محظوظة برجل مرموق هو المركيز فرانشسكو سكيبيونى دى مافى . وقد قلد فولتير مسرحيته الشعرية (ميروبى) (١٧١٣) وأهداه فى كرم مسرحيته (ميروب) باعتباره « أول كاتب أوتى من الشجاعة والعبقرية ما أعانه على المغامرة بكتابة مأساة تخلوا من الغزل ، ، مأساة جديرة بأثينا فى عزها ، حيث تكون محبة الأم هى قوام المؤامرة كلها ، وينبعث أرق ضروب التشويق من أطهر الفضائل [٣٢] » . وهناك عمل آخر لمافى أبرز حتى من مسرحية تلك وهو « فيرونا المصورة » (١٧٣١ — ٣٢) وهو كتاب بدأ تحديد خطى علم الآثار . واعتزت مدينته به فأقامت له تمثالا فى حياته . وكانت فتشنتسا بمبانيها التى شيدها بلاديو كعبة يحج اليها المعماريون الذين يحبون الطراز الكلاسيكى . أما بادوا فكان بها جامعة اشتهرت بكليتى الحقوق والطب ولمع فيها جوزيبى تارتينى . الذى اعترف به الجميع (عدا جمنيانى) إماما لعازفى الفيولينه الأوربيين . ومن الذى لم يستمع إلى موسيقى تارتينى « رعشة الشيطان » ؟

هذه المدن كلها كانت جزءاً من جمهورية البندقية . وكذلك كانت تريفيزو وفريولى . وفلترى ، وباسانو . وأوديني . وبللونو . وترنتو . وبولتسانو

فى الشمال ، واستريا فى الشرق ، وفى الجنوب امتدت دولة فينيتسيا مخترقة كيودجا وروفيجو إلى نهر بو ، وملكت عبر الأدرياريتيك كتارو وبريفيتسا وأجزاء أخرى مما يقع اليوم فى يوغوسلافيا وألبانيا ، وكانت تملك فى الأدرياتيك جزائر كورفو وكفالونيا وزنطه . وسكن هذا الملك المعقد نحو ثلاثة ملايين من الأنفس كل منها يعد نفسه مركز العالم .

١ — الحياة الفينيتسية

أما مدينة البندقية (فينتسيا) ذاتها عاصمة الجمهورية ، فكانت تضم ١٣٧,٠٠٠ — نسمة . وكانت الآن فى فترة اضمحلال سياسى واقتصادى ، بعد أن استولى الترك على امبراطوريتها الأيجية ، وانتزعت دول الأطلنطى الكثير من تجارتها الخارجية . وكان فشل الحروب الصليبية ، وإعراض الحكومات الأوربية بعد انتصارها فى ليبانتو (١٥٧١) عن تقديم المعونة للبندقية فى الدفاع عن مخافر العالم المسيحى الأمامية فى الشرق ، ولهفة تلك الحكومات على أن تقبل من تركيا امتيازات تجارية ضنت بها على أشجع أعدائها[٣٣] — هذه التطورات كلها كانت قد خلفت البندقية فى حال من الضعف أعجزها عن الاحتفاظ ببهائها أيام النهضة ، ومن ثم قررت أن ترعى بيتها هى — فتمنح ممتلكاتها الإيطالية والادرياتية حكومة صارمة فى القانون ، والرقابة السياسية ، والإشراف الشخصى ، ولكنها كفء فى الإدارة ، متسامحة فى الدين والأخلاق ، متحررة فى التجارة الداخلية .

وكانت تحكمها أولجركية شأن غيرها من جمهوريات أوربا فى القرن الثامن عشر . وفى هذا الخليط من حطام السلالات المختلفة — انطونيين وشيلوكيين وعطيليين ، وبين جماهير لم تصب من التعليم حظاً يذكر ، بطيئة التفكير سريعة الحركة ، تؤثر اللذة على السلطة ، كان معنى الديمقراطية — لو استقرت فيها — هو الفوضى المتوجة . ومن ثم قصر الحق فى عضوية المجلس الأعلى على نحو ستمائة أسرة تضمنها « الكتاب الذهبى » ولكن هذه الارستقراطية الوطنية أضيفت لها إضافات حكيمة من صفوف التجار ورجال المال وإن كانوا من دم غريب . وكان المجلس الأعلى يختار السناتو ، الذى

كان يختار مجلس العشرة القوى النفوذ . وكان جيش من الجواسيس يتنقل في صمت بين المواطنين ويبلغ القضاه بأى تصرف أو كلام مريب يصدر من أى بندقى . . حتى من الدوج نفسه. وكان الأدواج الآن عادة حكاماً صوريين وظيفتهم استقطاب الوطنية وتزيين الدبلوماسية .

وكان الاقتصاد يخوض معركة خاسرة ضد المنافسة الأجنبية ورسوم الاستيراد وقيود النقابات الحرفية . ولم تتوسع صناعة البندقية لتبلغ مرحلة المشروعات الحرة والتجارة الحرة والإدارة الرأسمالية ، بل قنعت بشهرة حرفها . ولم يبق في صناعة الصوف التي كانت تشغل ألفاً وخمسمائة عامل في عام ١٧٠٠ غير ستمائة في نهاية القرن .واضمحلت صناعة الحرير في الفترة ذاتها فلم يبق فيها غير ألف واحد بعد أن حفلت بأثنى عشر ألفاً[٣٤] . وقاوم صناع زجاج مورانو كل تغيير في الطرق التي أذاعت في الماضي شهرتهم في طول أوربا وعرضها، وتسربت أسرارهم إلى فلورنسة وفرنسا وبوهيميا وانجلترة، واستجاب منافسوهم لما طرأ من تقدم على الكيمياء ، وللتجارب التي أجريت في الصناعة ، وهكذا ولى زمان المورانو . وبالمثل استسلمت صناعة الدنتللا لمنافسيها وراء الألب ، فلم يحل عام ١٧٥٠ حتى كان البنادقة أنفسهم يلبسون المخرمات الفرنسية . وازدهرت صناعتان : مصايد الأسماك التي استخدمت ثلاثين ألف رجل ، واستيراد العبيد وبيعهم .

ولم يسمح للدين بالتدخل في أرباح التجارة أو لذات الحياة . ونظمت الدولة جميع المسائل المتعلقة بممتلكات الكنيسة وبجرائم رجال الدين . وكان اليسوعيون قد أعيدوا في ١٦٥٧ بعد طردهم في ١٦٠٦ ، ولكن بشروط حدت من نفوذهم في التعليم والسياسة.ووجدت تعاليم فولتير وروسو وهلفتيوس وديدرو طريقها إلى صالونات البندقية ولو بطريق الزوار رغم أن الحكومة حظرت استيراد مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين ، وداعبت الارستقراطية في البندقية كنظيرتها في فرنسا الأفكار التي استنزفت قوتها [٣٥] . وقبل الناس الدين على أنه عادة لاشعورية تقريباً من عادات الشعائر والإيمان ، ولكنهم كانو يلهون أكثر مما يصلون . وقد وصف مثل بندقى أخلاقيات البنادقة

بكل مافى الأبجرام من قصور، « فى الصباح قداس صغير ، وبعد الغذاءلعبة قمار صغيرة ، وفى المساء امرأة صغيرة »[٣٦] . وذهب الشبان إلى الكنيسة لا ليصلوا للعذراء ولكن ليدققوا النظر إلى النساء . وكانالنساء برغم الغضبات الكنسية والحكومية يرتدين « الديكولتيه » الذى يكشف عن نحورهن وظهورهن[٣٧] وكانت الحرب المتصلة بين الدين والجنس تهيء للجنس أسباب النصر .

وأجازت الحكومة البغاء المنظم إجراء واقيا لسلامة الشعب . واشتهرت غوانى البندقية بجمالهن ، ودماثة طباعهن ، وفخامة لباسهن ، وبذخ مساكنهن المشرفة على القناة الكبرى . وكان عـــدد المعروض من هؤلاء الغوانى (cortigiane) كبيرا ، ولكنه رغم ذلك قصر على الوفاء بالطلب . وكان المقتصدون من البنادقة ، والأغراب مثل روسو ، يتجمعون معا اثنين أو ثلاثة لينفقوا على محظية[٣٨] . ولكن النســاء المتزوجات انغمسن فى العلاقات الغرامية الخطرة رغم هذه التسهيلات ، ولم يكتفين بمرافقيهن من « السادة الخدام » ، واختلف بعضهن إلى الكازينوات التى وفرت فيها كل أسباب اللقاءات الغرامية . ووبخت الحكومة علنا عدة نساء نبيلات لسلوكهن المنحل ، وأمرت بعضهن بأن يلزمن بيوتهن ، ونفت بعضهن خارج البلاد . ولكن الطبقات الوسطى كانت أكثر تعقلا ، وكان تعاقب النسل يشغل الزوجة ويشبع حاجتها لتلقى الحب وبذله . ولم تغدق الأمهات على أطفالهن فى أى بلد آخر ما أغدقته فى البندقية من عبارات الاعزاز الحارة . ومن عباراتهن المأثورة : (يا سبع القـــديس مرقص ! يا بهجتى ! يا زهرة ربيعى !) .

أما الجريمة فكانت فى البندقية أقل منها فى أى بلد آخر فى ايطاليا ، فقد كبح جماح العدوان كثرة ضباط الشرطة والأمن ويقظتهم . ولـــكن القوم تقبلوا القمار على أنه عمل من أعمال الإنسان الطبيعية . ونظمت الحكومة يانصيبا فى ١٧١٥ . وافتتح أول ناد للقمار فى ١٦٣٨ ، وسرعان ما كثر عدد هذه الأندية العامة والخاصة التى تهرع إليها جميع الطبقات .

وكان فى استطاعة مهرة المقامرين المخادعين من أمثال كازانوفا أن يعيشوا على مكاسبهم من القمار ، فى حين يخسر غيرهم مدخرات عام بأكمله فى ليلة واحدة . وكان المقامرون ينحنون على مائدة القمار فى حب صامت أحر من عشق الناس . أما الحكومة فكانت تتفرج بعين الرضى (حتى ١٧٧٤) ، لأنها فرضت الضرائب على أندية القمار وبلغ ايرادها السنوى منها نحـــو ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه [٣٩] .

وأقبل العاطلون الأغنياء من شتى الدول لينفقوا مدخراتهم أو سنى شيخوختهم وسط الاسترخاء الخلقى والمرح الطلق فى الميادين والقنوات . وخفت حمى السياسة بعد أن تخلت الجمهورية عن امبراطوريتها . ولم يجر حديث الثورة هنا على أى لسان ، فقد كان لكل طبقة عاداتها وتقاليدها العاملة على الاستقرار ، واستغراقها فى الواجبات التى تقبلتها ، هذا فضلا عن المسرات المتاحة لها . وكان الخدم طيعين أوفياء ، ولكنهم لا يطيقون الأهانة أو الازدراء . وكان ملاحو الجندول فقراء ، ولكنهم ملوك البحيرات ، يقفون على زوارقهم المذهبة فى فخر وثقة بمهارتهم الموروثة عن الأسلاف ، أو يدورون حول المنحنيات وهم يصيحون صيحات قوية غريبة أو يدندنون بأغنية تصاحب تمايل أجسادهم ، وإيقاع مجاديفهم .

واختلطت الجنسيات المختلفة الكثيرة فى الميادين . واحتفظ كل منها بميزة من زى ولغة وتبذل ، وظلت الطبقات العليا ترتدى ما ارتدته فى عز أيام النهضة ، من قمصان من أرق الكتان ، وسراويل من المخمل ، وجوارب حريرية ، وأحذية ذات مشابك ، ولكن البنادقة هم الذين أدخلوا إلى غربى أوربا فى هذا القرن لباسا تركيا هو السراويل الطويلة (البنطولونات) . وكانت الباروكة قد وفدت من فرنسا حوالى ١٦٦٥ . وعنى المتأنقون من الشباب عناية بالغة بلباسهم وشعرهم ورائحتهم حتى لقد صعب تمييز جنسهم؛ أما النساء العصريات فقد رفعن فوق رؤوسهن أبراجا عجيبة من الشعر المستعار أو الطبيعى . وكان الرجال والنساء جميعا يشعرون كأنهم عراة إذا لم يتحلوا بالجواهر والحلى . وكانت المراوح تحفا فنية ، ترسم فى تأنق

وكثيرا ما كانت تغشى بالأحجار الكريمة أو تحوى منظارا لعين واحـــدة (مونوكل) .

وكان لكل طبقة أنديتها ، ولكل شارع مقهاه ، يقول جولدونى « فى ايطاليا نتناول عشرة أقداح من القهوة كل يوم » [٤٠] وازدهرت كل ضروب الملاهى ، من معارك الجوائز (pugni) إلى المراقص التنكرية . وكلمة « بألوان » (balloon) مشتقة من لعبة كانت تسمى باللونى pallone — فيها تنطط كرة منفوخة براحة اليد . وكانت رياضات المـــاء تتكرر بانتظام . فمنذ ١٣١٥ كان يقام سباق regatta فى ٢٥ يناير على القناة الكبرى ، بين زوارق تسير بخمسين مجدافا وتزين كما تزين عرباتنا فى المعارض ، ويبلغ الاحتفال ذروته بلعبة بولو مائية ينقسم فيها مئات البنادقه إلى جماعات متصاحبة متنافسة . وكان الدوج فى عيد الصعود يمخر عباب الماء فى أبهة من « سان ماركو » إلى الليد وعلى متن سفينة الدولة الفاخرة الزينة المسماة « بوتشنتورو » بين مئات من السفن الأخرى ليزف البندقية إلى البحر من جديد .

واتخذت العطلات الكثيرة أسماء وذكريات القديسين والمناسبات السنوية التاريخية ، لأن مجلس شيوخ البندقية وجد أن الخبز والسرك بديل مقبول عن الانتخابات . فى مثل هذه المناسبات كانت المواكب البهية تنتقل من كنيسة إلى كنيسة ومن ميدان إلى ميدان ، وكانت الأبسطة الزاهية الألوان ، وأكاليل الزهر والحرائر تتدلى من النوافذ أو الشرفات على الطريق ، وكان هناك موسيقى سهلة ، وأغنية دينية أوغرامية ، ورقص رشيق فى الشوارع . وألف النبلاء الذين يختارون للمناصب المرموقة أن يحتفلوا بانتصاراتهم بالعروض ، والأقواس ، وتذكارات النصر ، والمهرجانات ، وأعمال البر التى تكلفهم أحيانا ثلاثين ألف دوقاتية . وكان كل عرس مهرجاناً ، ومأتم الوجيه من القوم أفخم حدث فى حياته .

ثم كان هناك الكرنفال — ذلك التراث المسيحى من « ساتورناليـــاً » روما الوثنية . وكانت الكنيسة والدولة تأملان أنهما إذا سمحتا بأجازة

من الأخلاق استطاعتنا التخفيف بقية العام من التوتر القائم بين الجسد والوصية السادسة . وكان الكرنفال فى ايطاليا عادة لايستغرق إلا اسبوعاً واحداً هو الأسبوع السابق للصوم الكبير ، وفى بندقية القرن الثامن عشر امتد من ٢٦ ديسمبر أو ٧ يناير إلى «الثلاثاء السمين» Mardi Gras–Martedi Grasso وربما اتخذ المهرجان اسمه من ذلك اليوم الأخير من الأيام التى يسمح فيها بأكل اللحم Carne Vale أى وداعا للحم ، وكان البنادقة فى كل ليله تقريبا من أسابيع الشتاء تلك ، والزوار المتجمعون من طول أوربا وعرضها — يتدفقون على الميادين ، يرتدون ملابس فاقعة الألوان ، ويخفون سنهم ورتبهم وشخصياتهم وراء الأقنعة . وفى ذلك التخفى هزأ الرجال والنساء بالقوانين ، وراجت سوق البغايا ، وتطايرت قطع الحلوى ، وقذف البيض الصناعى هنا وهناك لينشر ماءه المعطر حين ينكسر . وكانت شخصيات بانتالونى ، وارلكينو ، وكولمبينو ، وغيرها من الشخصيات المحببة من المسرح الكوميدى تتبختر وتثرثر لتسلى الجمع المحتشد ، ورقصت الدمى ، وبهر السائرون على الحبال مئات الأنفاس . وكانت تجلب الحيوانات الغريبة لهذه المناسبه ، كوحيد القرن الذى شوهد لأول مرة بالبندقية فى مهرجانات ١٧٥١ وفى منتصف الليلة السابقة لأربعاء الرماد (Mercoledi della Conoi) تدق أجراس كنيسة القديس مرقص الضخمة مؤذنة بانتهاء الكرنفال ، هنا يعود المعربد المنهك إلى فراشه الحلال ، وبعد نفسه للاستماع إلى القسيس يقول له فى الغد: «Memento, homo, quia pulvis es et in pulverem redieris» « تذكر يا ابن آدم أنك تراب وإلى التراب تعود » .

٢ — فيفالدى

كانت البندقية ونابلى مركزى الموسيقى المتنافسين فى ايطاليا . فاستمعت البندقية فى مسارحها إلى الف ومائتى أوبرا مختلفة فى القرن الثامن عشر . هنالك خاضت أشهر كواكب الغناء فى ذلك العصر ، فرانشسكا كوتزونى

وفاوستينا بوردونى ، معاركهما المشجية فى سبيل التفوق ، وكانت كل منهما تهز العالم من خشبة المسرح . فأما كوتزونى فكانت تغنى أمام فاريللى ى مسرح ، وأما بوردونى فأمام برناكى ڤ مسرح آخر ، وانقسمت البندقية بأسرها بين المعجبين بهؤلاء المغنين . ولوقد غنى أربعتهم معاً لذابت ملكة الأدرياتيكى طربا فى بحيراتها .

ومقابل قلاع الأوبرا والبهجة هذه قامت الملاجىء الأربعة ospedali التى رعت فيها البندقية بعض فتياتها اليتيمات أو غير الشرعيات . ورغبة فى شغل هؤلاء الأطفال المشردات واضفاء المغزى على حياتهن كن يدربن على الموسيقى الصوتية والآلية ، وعلى الغناء فى فرق الانشاد ، وأحياء الحفلات الموسيقية العامة من خلف حواجز ذات قضبان كحواجز الأديرة . وقد قال روسو انه لم يسمع فى حياته شيئاً أثر فيه كأصواتهن الرقيقة وهن يغنين فى إيقاع مدرب [٤١]، وذكر جوته أنه لم يسمع قط سوبرانو بهذا الاتقان ، أو موسيقى « لها هذا الجمال الذى لايوصف[٤٢]» . وكان يعلم فى هذه المعاهد نفر من أعظم الملحنين الايطالين ويؤلفون لهـا الموسيقى ، ويفودون حفلاتها ، أمثال مونتيفردى ، وكافاللى ، ولوتى ، وجالوبى ، ويوريورا ، وفيفالدى . . .

واتجهت البندقية إلى مدن إيطاليا ، وأحياناً النمسا وألمانيا ، لتزود مسارحها بالأوبرات وتمد ملاجئها وأوركستراتها وعازفيها المهرة بالموسيقى الصوتية والآلية . وكانت هى ذاتها الأم أو الحاضنة لانطونيو لوتى ، عازف الأرغن ثم رئيس فرقة المرتلن فى كنيسة القديس مرقص ، ومؤلف أوبرات غير ذات بال ، ولكنه أيضاً ملحن قداس ذرفت له عينا برنى البروتستنتى ، ولبلدا سارى جالوبى الذى اشتهر بأوبراته الهازلة وبهاء الحانه الأوبرالية ورقتها ، ولألساندرو مارتشيللو الذى تتبوأ كونشرتاته مقاما عالياً فى مؤلفات عصره الموسيقية ، ولأخيه الأصغر بنديتو الذى قيل عن تلحينه لخمسين مزمورا أنه « من أبدع المؤلفات الموسيقية قاطبه[٤٣]» ولا نطونيو فيفالدى .

ولقد كان استماع بعضنا لكونشرتو من تأليف فيفالدى أول مرة مفاجأة أشعرتنا بالخزى . فلم جهلناه طوال هذا الزمن ؟ هنا انسياب جليل للنغم ، وتموجات ضاحكة من اللحن ، ووحدة فى البناء، وتماسك للأجزاء كان خليقا بأن يكسب هذا الرجل مدخلا أسبق من هذا إلى علمنا ، ومكاناً أرفع فى تواريخينا الموسيقية (*) .

ولد حوالى ١٦٧٨ لعازف فيولينة فى أوركسترا مصلى الدوجات بكتدرائية القديس مرقص . وعلمه أبوه الفيولينه ؛ وحصل له على وظيفة فى الأوركسترا . وفى الخامسة عشرة كرس تكريسا مبدئياً للدين ، وفى الخامسة والعشرين أصبح قسيساً ولقب « البريتى روسو » لحمرة شعره . ولعل ولعه بالموسيقى تعارض مع واجباته الكهنوتيه . وقال الأعداء إنه « ذات يوم بينما كان فيفالدى يتلو القداس ، خطر له موضوع يصلح لفوجه ، وللتو غادر المذبح . . . وذهب إلى غرفة المقدسات والملابس ليدون الموضوع ، ثم عاد ليكمل القداس[٤٤] » . واتهمه قاصد بابوى بأنه يحتفظ بعدة نساء ، وأخيراً نهاه ديوان التفتيش (كما زعموا) عن تلاوة القداس . وقد روى انطونيو فى سنوات لاحقة قصة تختلف عن هذه تمام الإختلاف . وقال :

« كانت آخر مرة تلوت فيها القداس منذ خمسة وعشرين عاماً ، لابسبب منعى من تلاوته . . . ولكن بناء على قرار منى اتخذته بسبب علة أرهقتنى منذ ولادتى . فبعد أن رسمت قسيساً كنت أتلو القداس عاماً أو أكثر بقليل ، ثم توقفت عن تلاوته لأن هذا المرض اضطرنى ثلاث مرات إلى مغادرة المذبح دون أن أتمه .

(*) خصصت له طبعة ١٩٢٨ من « قاموس جروف للموسيقى والموسيقيين » عمودا واحدا وخصصت له طبعة ١٩٥٤ اثنى عشر عمودا ، وأحكم من هذا على الذيوع الفجائى لشهرة فيفالدى ، فهل الشهرة نزوة من نزوات الصدفة ؟

« ولهذا السبب ذاته أقضى وقتى كله تقريباً فى بيتى ولا أبرحه إلا راكباً زورقاً أو عربة لأننى لم أعد قادراً على المشى بسبب حالة الصدر التى أعانيها ، أو على الأصح شعور الضيق والتوتر فى صدرى (strettzza di petto) ربما كانت هى الربو) ولا يدعوننى أى نبيل لبيتـــه ، لا ولا حتى أميرنا ، لأن الجميع عليمون بمرضى ، وقد كانت أسفارى دائماً غالية النفقة جداً لأننى كنت مضطراً دائماً أن أصحب معى أثناءها أربع نساء أو خمساً ليساعدننى . « ثم أضاف أن هؤلاء النسوة كن نقيات السيرة » يسلم الناس فى كل مكان بعفتهن . . وكن يؤدين الصلاة كل يوم من أيام الأسبوع [٤٥]» .

على أنه حتى لوشاء لما إستطاع أن تغلب الخلاعة على خلقة لأن معهد الموسيقى الملحق بالملجأ الدينى احتفظ به طـــوال سبعة وثلاثين عاماً عازفاً للفيولينه ومعلما وملحنا أو رئيسا للكورس . وقد لحن لتلميذاته البنات معظم أعماله غير الأوبرالية . وتكاثرت الطلبات عليه ، ومن ثم كان يكتب فى عجلة ثم يصحح فيما يتاح له من فراغ ، وقد اخبر دبروس أن فى استطاعته أن « يلحن الكونشرتو بأسرع مما يستطيع ناسخ أن ينسخه[٤٦] » . وبالمثل كانت أوبراته تلحن على عجل ؛ وقد سجلت احداها على صفحة الغلاف عبارة تشى بالفخر (أو الاعتذار) هى (Fatto in cinque giorni) كتبت فى خمسة أيام . وقد وفـــر الوقت كما وفره هندل بالأستعارة من نفسه ، فأقتبس من موسيقاه القديمة ما يلبى حاجاته الحاضرة .

وفى فترات فراغه من عمله فى الملجأ ألف أربعين أوبرا . وأتفق كثير من معاصريه مع تارتينى على أنها متوسطة الجودة ، وقد سخر منها بنديتو مارتشيللو فى (تياترو على الموضة) ولكن جماهير النظارة فى البندقية ، وفتشنتسا ، ومانتوا ، وفلورنسة ، وميلان، وفيينا ، رحبوا به ، وكثيراً ما كان فيفالدى يترك بناته ليسافر مع نسائه مخترقا شمالى إيطاليا ، بل حتى إلى فيينا وامستردام ليعزف الفيولينه أو ليقود أحدى أوبراته أو ليشرف على إخراجها وديكورها . وأوبراته الآن ميتة ، ولكن هذا مصير معظم

ألاوبرات التى ألفت قبل جلوك . فقد تغيرت الأساليب والعادات والإبطال، والأصوات ، والجنسان .

ويعرف التاريخ ٥٥٤ من مؤلفات فيفالدى ، منها ٤٥٤ كونشرتو . وقد قال ناقد ماكر أن فيفالدى لم يكتب ستمائة كونشرتو ، بل هـــو كونشرتو واحد أعاده ستمائه مرة[٤٧] . ويبدو الأمر كذلك أحيانا . ففى هذه القطع قدر كبير من نشر الاوتار ونغمات الأرغن اليدوى المتصلة ، وقياس للوقت أشبه بحركات البندول ، بل أننا نجد حتى فى السلسلة الشهيرة المسماة (الفصول) (١٧٢٥) صحارى من الرتابة ، ولكن فيها أيضاً قمما من الحيوية المشبوبة والعواصف القارسة ؛ وواحات من الصراع الدرامى بين العلزفين المنفردين والأوركستراً ؛ وجداول سائغة من الالحان . فى قطع كهذه[٤٨] ، أبلغ فيفالدى الكونشرتو الكبير مكانة ممتازة لاسبق لها ولايبزها إلا باخ وهيندل .

وكان فيفالدى يعانى كمعظم الفنانين من الحساسية التى غذت عبقريته . وقد عكست قوة موسيقاه طبعه النارى ، وعكست رقة نغماته تقواه . فلما تقدم به العمر استغرق فى واجباتة الدينية حتى لقد وصفته رواية مبالغة بأنه لا يترك مسبحته إلا ليلحن[٤٩] . وفى ١٧٤٠ فقد وظيفته فى الملجأ الدينى أو استقال منها ، ولأسباب نجهلها الآن نزح من البندقيه إلى فيينـــا . ولا نعرف المزيد عنه ؛ اللهم إلا أنه مات هناك بعد سنة ودفن كما يدفن فقراء الناس .

ومرموته دون أن تلحظه الصحف الإيطاليه ، لأن البندقية كانت قد كفت عن الاهتمام بموسيقاه ؛ ولم يقدره أحد قدرا يقرب من قمة فنه لا فى وطنه ولا فى جيله . على أن مؤلفاته لقيت الترحيب فى المانيـــاً . فاستورد كوانتسى الذى كان عازفا للفلوت وملحنا لفردريك الأكبر ؛ كونشرتات فيفالدى ؛ وقبلها بصراحة نماذج تحتذى . وأشتد أعجاب باخ بها حتى نقل تسعه منها على الأقل للهاربسكورد ، وأربعة للارغن ، وواحدا

لأربعة هاربسكوردات ومجموعة وتريات[٥٠] . وواضح أن باخ أخذ عن فيفالدى وكوريللى البناء الثلاثى لكونشرتاته .

وكاد فيفالدى أن يكون نسياً منسيا طوال القرن التاسع عشر إلا من الدارسين الذين تتبعوا تطور باخ . ثم رده إلى مكان مرموق فى ١٩٠٥ أرنولد شيرنج فى كتابه « تاريخ الكونسيرات آلالية » ؛ وفى عشرينات القرن العشرين دافع أرتورو توسكانينى عن قضية فيفالدى بكل عواطفه ومكانته . واليوم يحتل « القسيس الأحمر » مؤقتا أرفع مكان بين الملحنين الإيطاليين فى القرن الثامن عشر .

٣ — ذكريات

من صيف الفن البندقى المؤذن بالأفول يبرز نحو أثنى عشر مصوراً ويلتمسون أن نذكرهم . ونكتفى هنا بتحية نقرئها حبامبتستا بيتونى ؛ الذى لم ترفع البندقية فوقه غير تيبولو وبياتسيتا ؛ ويأكوبو آميجونى الذى أورث بوشيه أسلوبه الشهوانى ؛ وجوفانى أنطونيو بللجرينى ، الذى حمل الوانه إلى انجلترة وفرنسا والمانيا ، وهو الذى زين قلعة كمبولتن وقلعة هوارد، وبنك فرنسا . وألفت للنظر من هؤلاء ماركو ريتشى لأنه قتل أحد النقاد ثم انتحر . ففى عام ١٦٩٩ ، حين كان فى الثالثه والعشرين ، طعن ملاح جندول إستخف بصوره طعنات قضت عليه ، ثم فرالى دلماشيا ، وأغرم بمشاهدها الطبيعية ، وبلغ من حذقه فى التقاطها بالوانه أن غفرت له البندقية جريمته وهللت له كأنه تنتوريتو مبعوثاً من جديد . وصحبه عمه سبستيانو ريتشى إلى لندن ، حيث تعاونا على تصوير مقبرة دوق ويفونشير . وكان ككثيرين جداً من فنانى القرنين السابع عشر والثامن عشر يحب أن يرسم الأطلال الحقيقية أو الخيالية ولا ينسى فى ذلك نفسه . وفى ١٧٢٩ ، وبعد عدة محاولات ، أفلح فى الانتحار . وفى ١٧٣٣ بيعت إحدى لوحاته بخمسمائة دولار ؛ وفى ١٩٦٣ بيعت من جديد بتسعين ألف دولار[٥١] ، وهو مابين مبلغ تقدير قيمة الفن وهبوط قيمة النقود .

وتأمل شخصية روزاليا كاريرا أدعى إلى السرور . فقد بدأت حياتها العملية برسم نماذج للمخرمات الفينيسيه Point de venise ؛ ثم رسمت علب السعوط (كما فعل رينوار الصغير) ثم المنمنمات ، وأخيراً وجدت فى الوان الباستيل قمة تفوقها . ولم يحل عام ١٧٠٩ حتى كانت قد أكتسبت من الشهرة ما جعل فردريك الرابع ملك الدنمرك يدعوها حين أعتلى العرش ليختارها لترسم له لوحات بالباستيل تمثل أجمل سيدات البندقيه أو أبعدهن صيتا . وفى ١٧٢٠ دعاها إلى باريس بيير كروزا جامع التحف المليونير . وهناك لقيت من الترحيب والحفاوة مالم يلقه فنان أجنبى آخر منذ برتينى . وكتب الشعراء فيها الصونيتات ؛ وزارها الوصى فليب أورليان ، وصورها فاتو ، وصورته هى ، وجلس إليها لويس الخامس عشر لتصوره ؛ وانتخبت عضوا فى أكاديمية التصوير ؛ وقدمت لوحة الدبلوم «ربة الفنون» المعروضه فى اللوفر . وبدا للناس كأن روح الروكوك قد تجسدت فيها .

وفى ١٧٣٠ ذهبت إلى فيينا ؛ حيث رسمت صورا بالباستيل لشارل السادس ؛ وإمبراطورتة ، والأرشيدوقة ماريا تريزا . فلما عادت إلى البندقيه أستغرقت فى فنها أستغراقاً إنساها أن تتزوج . وفى أكاديمية البندقية ملء حجرة من اللوحات التى رسمتها ، وفى قاعة الفنون يدرسدن ١٥٧ ، معظمها يتميز بالوجوه الوردية ، والخلفيات الزرقاء ، والبراءة المشرقة ، ورقة الوجوه ذات الغمازات ؛ بل أنها حين رسمت هوراس وليول[٥٢] ، جعلته يبدو كأنه فتاة . وكانت ترضى غرور كل من يجلس إليها لتصوره إلا نفسها ، وصورتها الذاتية المعلقة فى قلعة وندزر تظهرها فى سنها الأخيرة وقد أبيض شعرها وشابها شىء من الاكتئاب كأنها تتوقع أن يكف بصرها بعد قليل . وقد اضطرت طوال الأعوام الأثنى عشر الأخيرة من عمرها البالغ أثنين وثمانين عاماً أن تعيش محرومة من النور واللون اللذين كانا لها بمثابة رحيق الحياة . وقد تركت بصمتها على فن جيلها : ولعل لا تور قد أستلهم الحرارة منها ، وتذكر جروز تمثيلها لشباب النساء فى صورة مثالية ؛ وانحدرت الوانها الوردية — الحياة بلون الورد — إلى بوشيه ورنوار .

أما جوفانى باتستا بياتسيتا فكان فنانا أعظم يسمو فوق العواطف الهشة ويحتقر الزخرف ولا يسعى وراء ارضاء الجمهور بقدر سعيه إلى تذليل صعاب صناعته والتمسك بأرفع تقاليدها . وتبين زملاءه الفنانون هذه النزعة فيه ، ومع أن تيبولو كان له فضل السبق فى تأسيس أكاديمية البندقيـــة للتصوير والنحت (١٧٥٠) ، فإن بياتسيتا هو الذى اختاروه أول رئيس لها . ولوحته المسماة « رفقة عند البئر » (٥٣) جديرة بتتسيانو ، وهى أقل حتى من تتسيانو اكتراثا بمفاهيم الجمال المتعارف عليها . واللوحة تكشف من جسد رفقة قدرا يكفى لاثارة غريزة المتوحش ، ولكن وجهها الهولندى وأنفها الأفطس لم يصورا لينتشى بهما الايطاليون . فالذى يثير عواطفنا هنا هو الرجل ، إنه شخصية جديرة بفن النهضة : وجه قوى ، ولحية ملمعة وقبعة ذات ريش وومضة إغراء ماكر فى عينيه . واللوحة كلها آية من آيات اللون والنسيج والتصميم ، وقد تميز بياتسيتا بأنه كان أكثر المصورين البنادقة احتراما فى جيله ، وأنه مات أفقرهم جميعاً .

وأشهر منه انطونيو كانالى ، الملقب كاناليتو ، لأن نصف العالم يعرف البندقية بفضل مناظره vedute . أما انجلتره فعرفته دما ولحما . وقد نهج حينا نهج أبيه الذى امتهن رسم المناظر للمسارح ، ثم درس العمارة فى روما ، فلما عاد إلى البندقية طبق الفرجار والزاوية على رسمه ، وجعل العمارة ملمحا من ملامح صوره . وفى هذه الصور عرفنا ملكة الادرياتيك كما كانت تبدو فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . ونلحظ من لوحة باتشينودى سان ماركو Baccino بحيرة القديس مرقص (٥٤) مبلغ ازدحام البحيرة الكبرى بالمراكب ، ونبصر سباق الزوارق Regatta على القناة الكبرى (٥٥) ونرى أن الحياة كانت زاخرة مشبوبه شأنها من قبل دائماً ، ويبهجنا أن نجد « جسر الريالتو » (٥٦) وميدان القديس مرقص (٥٧) والميدان الصغير (٥٨) وقصر الادواج (٥٩) وكنيسة سانتا ماريا ديللا سالوتا (٦٠) كما نجدها اليوم تقريباً ، إذا استثنينا البرج الذى أعيد بناؤه . وصور كهذه هى التى احتاج إليهـــا السياح فى الشمال الملبد بالغيوم ليذكروا فى عرفان شمس البندقية الشديدة

الصفاء وسحرها الفتان . وقد اشتروا هذه الصور ودفعوا أثمانها ثم حملوا هذه التذكارات إلى بلادهم ، وسرعان ما طالبت إنجلتره بكاناليتو نفسه ؟ فذهب إليها فى ١٧٤٦ ورسم مناظر مستفيضة لهوا يتهول[٦١] ، « ونهر التيمز من قصر رتشموند » ، واللوحة الأخيرة بجمعها المدهش بين الاتساع والتناسب والتفصيل هى تحفة كاناليتو الرائعة . ولم يعد إلى البندقية إلا فى ١٧٥٥ . وظل هناك عاكفا بهمة على عمله حتى عام ١٧٦٦ حين كان قد بلغ التاسعة والستين . وقد كتب بفخر على لوحته داخل كتدرائية القديس مرقص هذه العبارة « رسمت بدون منظار » . [٦٢] وقد أسلم أساوبه فى القياس الدقيق إلى ابن أخيه برناردو بللوتو كاناليتو ، وولعه بالمناظر إلى « تلميذه الطبيب » فرانشسكو جواردى الذى سنلتقى به ثانية .

وكما ابرز كاناليتو المنظر الخارجي للمدينة الفخمة ، كشف بييترو لنجى عن الحياة داخل جدرانها باستخدامه أسلوب تصوير مناظر الحياة اليومية فى رسم الطبقة الوسطى . فالسيدة التى تتناول فطورها فى ثوبها الفضفاض الطويل ، والأب الراهب يعلم ابنها ، وابنتها الصغيرة تدلل كلبا لعبة ، والخياط يعرض فستانا ، ومعلم الرقص يدرب السيدة على خطوات المنويت ، والأطفال وعيونهم تحملق فى معرض للوحوش ، والصبايا يمرحن فى لعبة « الاستغماية » (الغميضة) ، والتجار فى حوانيتهم ، والمتنكرون بالأقنعة فى الكرنفال ، والمسارح ، والمقاهى ، « والجمعيات » الأدبية ، والشعراء يتلون أشعارهم ، ودجاجلة الطب ، وقارئات البخت ، وباعة السجق والبرقوق ، والتمشى فى الميدان ، وفريق القنص ، وجماعة صيد السمك ، والأسرة فى عطلتها : كل نشاط بورجوازى يستحق الذكر هناك ، وفى إفاضة ، تفوق حتى ما فى كوميديات جولدونى ، صديق لونجى . إنه ليس فنا عظيما ، ولكنه فن يشرح الصدر ، ويرينا مجتمعاً أكثر نظاما وتهذيبا مما كنا نتصوره من ارستقراطى أندية القمار أو أعمال شحن السفن وتفريغها الشتامين السبابين .

٤ — تيبولو

أما البندق الذى أوهم أوربا لحظة أن النهضة قد عادت فهو جامباتستا تيبولو . ومن المشاهد المألوفة فى أى يوم من أيام الصيف أن ترى موكبا من الطلاب والسياح يدخلون مسكن أسقف فورتسبورج ليرى بيت السلم والسقف اللذين رسم تيبولو صورهما الجصيه فى ١٧٥٠ —٥٣ ، هذهالصور هى قمة التصوير الإيطالى فى القرن الثامن عشر . أو تأمل لوحة « الثالوث يظهر للقديس كلمنت » فى متحف الفن القومى بلندن ، ولاحظ تكوينها البارع ، ورسمها الدقيق ، وتناولها الحاذق للضوء ، وعمق لونها وتوهجه، أليس هذا قريباً لفن تتسيانو ؟ ربما ، ولولا أن تيبولو قد طوف كثيرا لكان واحداً من عمالقة التصوير .

أو لعل ثراءه هو الذى عوقه . ذلك أنه كان آخر طفل لتاجر بندقى غنى خلف ثروة كبيرة عند وفاته . ومالبث جان ، الذى كان وسيما ذكيا مرحاً « أن اكتسب الازدراء الارستقراطى لكل ماهو شعبى »[٦٣] . وفى ١٧١٩ حين بلغ الثالثةوالعشرينتزوج تشيشيليا أخت فرانشسكو جواردى ،فولدت له أربع بنات وخمسة أولاد ، أصبح اثنان منهم مصورين وعاشوا جميعاً فى بيت أنيق فى أبرشية سانتا ترينيتا . وكانت موهبتهقد تفتحت . ففى١٧١٦ عرض لوحة « تضحية إسحق »[٦٤] ، وهى لوحة فجة ، ولكنها قوية ، ووضح أنه كان فى تلك الحقبة متأثراً بفن بياتسيتا . وقد درس فيرونيزى أيضاً ، واتخذ أسلوب باولى فى الملابس الفخمة والألوان الدافئة والخطوط الشهوانية . وفى١٧٢٦ دعاه رئيس أساقفة أودينى ليزين كتدرائيته وقصره. واختار تيبولو مواضيعه من قصة إبراهيم ، ولكن التناول لم يكن كتابياً تماماً . فوجه سارة المنبعث من طوق مكشكش من أطواق عصر النهضة ، هو غضون وتجاعيد تكشف عن سنين أثريتين ، ولكن الملاك رياضى إيطالى له ساق فاتنة . ويبدو أن تيبولو أحس أن فى استطاعته ، فى قرن بدأ يسخر من الملائكة والمعجزات ، أن يسمح لمزاجه باللهو بالتقاليد المبجلة ، وقد أتاح له رئيس الأساقفة اللطيف هذا اللهو . ولكن كان على الفنان

أن يكون حذراً ، لأن الكنيسة لم تزل يومها من أهم مصادر تمويل المصورين فى العالم الكاثوليكى .

أما المصدر الآخر فكان العلمانيين أصحاب القصور التى يراد تزيينها بالصور . وقد روى جان فى قصر كازالى — دونيانى بميلان (١٧٣١) قصة سكبيو بالصور الجصية . ولم تكن هذه الصور معبرة عن فن تيبولو النموذجى ، لأنه لم يكن بعد قد شكل أسلوبه المتميز ، أسلوب الأشخاص الذين يتحركون فى يسر وانطلاق فى حيز غير محدد ، ولكنها دلت على براعة أثارت ضجة فى شمالى إيطاليا . ولم يحل عام ١٧٤٠ حتى اهتدى إلى موطن النبوغ فى فنه ، وانجز ماعتبره البعض[٦٥] رائعته الكبرى — وهى سقف قصر كليرتى بميلان وبهو ولائمه . واختار لهذه الرائعة مطايا لخياله « أركان الأرض الأربعة » و « مسيرة الشمس » و « أبوللو والآلهة الوثنية » وأسعده أن يترك عالم الأساطير المسيحية الكابى ويمرح على قمم أولمب حيث يستطيع استخدام الآلهة اليونانية الرومانية شخوصاً فى عالم متحرر من قوانين الحركة واغلال الجاذبية بل من قواعد الرسم الأكاديمية . لقد كان فى صميمه وثنياً كأكثر الفنانين الذين يذوب قاموسهم الأدبى فى حرارة مشاعرهم ، ثم أن الجسم الجميل قد يكون نتاج روح قوية العزيمة قادرة على التشكيل ، ومن ثم يكون هو ذاته واقعاً روحياً . وراح تيبولو الآن يطلق من جعبته على مدى ثلاثين عاما أرباباً وربات رافلين فى غلائل من الشاش ، عراة فى غير اكتراث ، يسرحون ويمرحون فى الفضاء ، أو يطارد بعضهم بعضا بين الكواكب أو يتطارحون الغرام على وسادة من السحب .

فلما قفل إلى البندقية عاد إلى المسيحية ، وكفرت صوره الدينية عن أساطيره الوثنية . فرسم لمدرسة سان روكو لوحة قماشية سماها « هاجر واسماعيل » يلفت النظر فيها جمال الطفل النائم . وفى كنيسة الجزواتى التى سماها الدومنكان من جديد كنيسة « سانتا ماريا ديل روزاريو » رسم لوحة « تأسيس التسبحة » ورسم لمدرسة الرهبان الكرمليين « عذراء جبل الكرمل » وكادت هذه الصورة تضارع تتسيانو « البشارة » . ورسم لكنيسة القديس الفيزى ثلاث

صور ، إحداها المسماة « المسيح حاملا الصليب » تزدحم بشخوص قوية صورت تصويراً نابضاً بالحياة . وهكذا سدد تييولو دينه لعقيدة وطنه .

على أن خياله كان أكثر تحرراً على جدران القصور . فى قصر بربارو رسم « تمجيد فرانشسكو بربارو » — واللوحة الآن فى متحف المتربوليتان للفنون بنيويورك . ورسم لقصر الأدواج لوحة « نبتون يقدم لفينوس خيرات البحر » . وقدم لقصر بابا دوبولى لقطتين مبهجتين للبندقية فى الكرنفال — « المنويته » و « المشعوذ » . ثم توج كل صور القصور التى رسمها فى البندقية بزخرفة قصر لابيا بصور جصية تحكى قصة انطونيوس وكيلوباتره فى مشاهد بهية نفذت تنفيذا رائعا . ورسم زميل له يدعى جيرولامو منجوتسى كولونا الخلفيات المعمارية فى فورة من بهاء الطراز البلاديوى . فعلى جدار ترى لقاء الحاكمين ، وعلى الجدار المقابل وليمتهما ، وعلى السقف حشد جامع من شخوص طائرة تمثل بيجاسوس ، والزمن ، والجمال ، والرياح التى تثيرها عفاريت نفاخه مرحة . وفى لوحة « اللقاء » تهبط كيلوباتره من زورقها فى ثياب تبهر الأبصار ، تكشف عن صدر ناهد لتفتن حاكما مرهقا فى الحكومة الثلاثية ، حتى يسكن إليها فى راحة عطرة . وفى لوحة « الوليمة » وهى أشد تألقا حتى من هذه تسقط كيلوباتره لؤلؤة غالية الثمن فى خمرها ، ويؤخذ انطونيوس بهذا الثراء الذى لايعبأ بشىء . وعلى شرفـــة يعزف الموسيقيون قياثيرهم ليضاعفوا الخطر مرتين والثمل ثلاثا ، وهذه الرائعة التى تذكر بفيرونيزى وتنافسه كانت إحدى الصور التى نسخهـــا رينولدز فى ١٧٥٢ .

هذا الإنتاج الذى تميز بالأسلوب الفخم رفع تييولو إلى قمة ترى من وراء الألب . فاذاع الكونت فرانشسكو الجاروتى صديق فردريك وفولتير اسمه فى أوربا . وفى تاريخ مبكر (١٧٣٦) أبلغ الوزير السويدى فى البندقية حكومته أن تيبولو هو أصلح رجل يرسم القصر الملكى فى أستوكهولم ، « كله ذكاء وغيرة » ، سهل المعاملة ، يتدفق أفكارا ، موهوب فى أختيار الألوان الساطعة ، سريع فى عمله سرعة خارقة ، يرسم صوره فى زمن يقل

عما يستغرقه مصور آخر فى مزج الوانه[٦٦] » . وكانت استوكهولم آنذاك مدينة جميلة ولكنها بدت بعيدة جداً .

وفى ١٧٥٠ جاءته دعوة أقرب ، فقد طلب إليه كارل فليب فون جرايفنكلاو أمير فورتسبرج الأسقف أن يرسم صورا للقاعة الأمبراطورية لقصره الإدارى الذى بناه مؤخراً . وأغرى الأجر المعروض بالحاح الفنان المسن . فلما وصل فى ديسمبر بصحبة أبنيه دومنيكو البالغ أربعة وعشرين عاماً ولورنتسو ذى الرابعة عشرة وجد تحديا لم يتوقعه فى بهاء قاعة القصر التى صممها بلتازار نويمان ، فأنى لأى صورة أن تخطف العين وسط ذلك الضياء الباهر ؟ وكان نجاح تيبولو هنا القمة التى توجت عمله . فقد رسم على الجدران قصة الإمبراطور فردريك بربروسا (الذى كان قد ذهب فى لقاء مع بياتريس أميرة برجنديا فى فورتسبرج عام ١١٥٦) وعلى السقف رسم « أبوللو مصطحبا العروس » ؛ هنا راح يصول ويجول فى مهرجان من الخيول البيضاء والأرباب المرحين والضياء يتألق فوق ملائكة تطفو وغيوم شفافة . وعلى منحدر فى السقف رسم « الزفاف » : وجوه مليحة ، وأجسام مهيبة ، وأغطية وأستار مزدانة بالزهر ، وأثواب تذكر بالبندقية أيام فيرونيزى لا بالطرز الوسيطة . وانشرح صدر الأسقف فوسع العقد ليحتوى سقف بيت السلم الكبير ونقوش مذبحين لكتدرائيته . وعلى طريق السلم الفخم رسم تيبولو القارات وجبل أولمب — مرتع خياله السعيد — وصورة رائعة لأبوللو إله الشمس يجوب السماوات .

وقفل جامباتستا إلى البندقية (١٧٥٣) غنيا مرهقا ، وترك دمنيكو ليكمل المهمة فى فورتسبرج . وما لبث أن انتخب رئيسا للاكاديمية . وكان فيه لطف فى الطبع جعل حتى منافسيه مولعين به ، فلقبوه (تيبولو الطيب) . ولم يستطع مقاومة جميع المطالب التى تكاثرت على وقته المتضائل ، فنحن نجده يرسم فى البندقية ، وترفيزو ، وفيرونا ، وبارما ، فضلا عن لوحة قماشية كبيرة طلبها « بلاط موسكوفيا » . وما كنا لننتظر منه فى هذه الحالة أن ينتج عملا كبيراً آخر ، ولكنه فى ١٧٥٧ ، حين كان فى الحادية

والستين ، أضطلع برسم صور ڤيلا فالمارانا قرب فيتشنتسا . ورسم منجوتسى كولونا الإطار المعمارى ووقـــع دومنيكو على بعض الصور فى المضيفة ، أما جامباتستا فقد نشر الوان فرشاته فى الفيلا ذاتها . واختار موضوعات من ملاحم الالياذه ، والأنياده ، وأورلندو الغاضب ، والقدس المحررة ، وأطلق العنان لخداعيته المرحة فتاه اللون فى الضوء ، والمكان فى اللانهاية ، وترك أربابه ورباته يطفون على هواهم فى جنة سمت فـــوق كل الشواغل والأزمان . وقد أخذ العجب جوته وهو يتأمل هذه الصور الخصبة فقال فى دهشة » :

« غاية فى البهجة والجرأة » ، وكانت هـــذه آخر انتصار مثير لتيبولو فى إيطاليا .

وفى ١٧٦١ طلب إليه شارل الثالث ملك أسبانيا أن يحضر ويرسم صورا فى القصر الملكى الجديد بمدريد . وأعتذر هذا التنسيانو المتعب بشيخوخته ؛ ولكن الملك رجا مجلس شيوخ البندقية أن يستعمل نفوذه . فانطلق على مضض مرة أخرى مع ولديه الوفيين ونموذجه كرستينا ؛ تاركا زوجته مرة أخرى لأنها كانت تحب كازينوات البندقية . وسوف نلقاه راكبا سقالة الرسم فى أسبانيا .

٥ — جولدونى وجوتسى

يبرز فى إدب البندقية فى هذا العصر أربعة اشخاص كل أثنين منهم معا : أبوستولو تسينو وبييترو متاستازيو وكلاهما كاتب نصوص لأوبرات كانت شعرا ؛ ثم كارلو جولدونى وكارلو جوتسى اللذان أقتتلا ليحلا محل الكوميديا البندقية كوميديا أصبحت مأساة جولدونى . وقد كتب جولدونى عن الأثنين الأولين يقول :

« لقد أثر هذان المؤلفان المشهوران فى إصلاح الأوبرا الإيطالية . فقبل مجيئهما لم يكن غير الأرباب والشياطين والآلات والعجائب فى هذه الملاهى المنغمة . وكان تسينو أول من فكر فى أمكان تمثيل المأساة بشعر

غنائى دون أبتذال ، وإنشادها دون أن يرهق الأنشاد السامعين . وقد أنفذ فكرته بطريقة رضى عنها الجمهور رضاء عظيما ، مما حقق له ولأمتـه مفخرة كبرى[٦٧] » .

وحمل تسينو اصلاحاته إلى فيينا فى ١٧١٨ ، ثم اعتزل راضيا ليخلى الجـو لمتاستازيو فى ١٧٣٠ وعاد إلى البندقية وعشرين عاماً من السلام . أما متاستازيو فقد لعب دور راسين لكورنيى تسينو كما قال جولدونى ، فاضاف الصقل إلى القوة ، وأرتفع بالشعر الأوبرالى إلى قمة لم يرتفع إليها من قبل . وقد وضعه فولتير فى مصاف كبار الشعراء الفرنسيين ؛ وعده روسو الشاعر المعاصر الوحيد الذى يصل شعره إلى القلب . وأسمه الأصلى بييترو ترابassى (بيتر كروس) . وقـد سمعه ناقد مسرحى يدعى جان فنتشنتو جرافينا يغنى فى الشوارع ؛ فتبناه ؛ وسماه من جديد متاستازيو (وهو المقابل اليونانى لترا باسى) . وأنفق على تعليمه : وخلف له ثروة عند مماته . وراح بييترو يبدد هذه الثروة فى غير تحرج ، ثم تعاقد مـع محام فرض عليه شرطا هو ألايقرأ أو يكتب بيتا واحداً من الشعر . ومن ثم أخذ يكتب تحت اسم مستعار .

وفى نابلى طلب إليه المبعوث النمساوى أن يكتب غنائيات لكنتاتا ؛ وألف بوريورا الموسيقى ، وغنت الدور الرئيسى ماريانا بولجاريللى المشهورة يومها باسم لا رومانينا ، وسار كل شىء عـلى ما يرام . ودعت المغنية الـكبرى الشاعر إلى صالونها ، وهناك التقى بليو وفنتشى وبرجوليزى وفاريناللى وهاشى والساندرو ودومنيكو سكارلاتى ؛ وتطور متاستازيو سريعا فى تلك الصحبة المثيرة . ووقعت لا رومانينا فى غرامه وكانت فى الخامسة والثلاثين أما هو ففى الثالثة والعشرين . وخلصته من شباك المحاماه واتخذته رفيقا مـع زوجها الكيس المتسامح ؛ وأوحت إليه بكتابة أشهر نصوصه « Didone abandonata ديدونى المهجورة » التى لحنهـا أثنا عشر ملحنا متعاقبا بين ١٧٢٤ و ١٨٢٣ . وفى ١٧٢٦ كتب « سيروى » لحبيبته وبنى عليها فنتشى وهاسى وهندل أوبرات مستقلة . وأصبح متاستازيو الآن أكثر كتاب النصوص رواجا فى أوربا .

وفى ١٧٣٠ قبل دعـــوة إلى فيينا وترك لا رومانينا . وحاولت أن تلحق به . وخاف أن يعرضه وجودها معه للفضيحة ، فحصل على أمر يمنعها من دخول الأراضى الأمبراطورية فطعنت صدرها محاولة الانتحار ، واخفق هذا الجهد الذى بذلته لتلعب دور ديدو ، ولكنها لم تعش أكثر من أربع سنين أخرى .

وعند موتها خلفت لأينياسها الخائن كل ثروتها . ولكن متاستازيو رفض قبول التركة متأثرا بتأنيب ضميره ونزل عنها لزوجها . وكتب يقول « لم يعد لى أى أمل فى أن أوفق إلى السلوى . واعتقد أن ما بقى لى من عمرى سيكون حزينا لا لذة فيه »[٦٧] . وكان يستمتع بالنصر تلو النصر فى حزن حتى قطعت حرب الوراثة النمساوية عروض الأوبرا فى فيينا . وبعد ١٧٥٠ كان يكرر نفسه دون هدف. لقد استهلك الحياة قبل موته (١٧٨٢) بثلاثين عاما .

طردت الأوبرا الدراما التراجيدية من المسرح الإيطالى كما تنبأ فولتير من قبل وتركه للكوميديا . ولكن الكوميديا الإيطالية كانت تسيطر عليها الكوميديا ديللارتى — وهى مسرحية الحديث المرتجل والأقنعة المميزة . وكانت معظم الشخوص قد تقولبت منذ زمن طويل : بنتالونى البورجوازى الطيب ذو السراويل ، وتارتاجليا الخادم النابوليتانى المتهته ، وبريجيللا الدساس الساذج الذى يقع فى شراك دسائسه ، وتروفالدينو الأكول الشهوانى اللطيف ، وأرلكينو — ويقابله هارلكوين (المهرج) عندنا ، وبولتشنيللو — ويقابله عندنا بنش ، وأضافت مختلف المدن والأجيال مزيدا من الشخوص . وترك معظم الحوار والكثير من الأحداث فى الحبكة للاختراع المرتجل . يقول كازانوفا « كان الممثل فى تلك الكوميديات المرتجلة إذا توقف لأن كلمة غابت عنه ، لم يعفه رواد مؤخرة الصالة والشرفات العليا الرخيصة من صياح السخرية والاستهجان[٦٨] » .

وكانت المسارح العاملة فى البندقية عادة سبعة ، كلها مسماه بأسماء قديسين ، ويؤمها جمهور من النظارة شائن السلوك . فكان النبلاء فى

مقاصيرهم لا يهمهم ما يلقونه على العامة تحتهم . وكانت الأحزاب المتخاصمة ترد على التصفيق بالصفير أو التثاؤب أو العطس أو السعال أو صيحات الديكة أو مواء القطط[٦٩] . وفى باريس كان أكثر رواد المسرح من علية القوم ، وأرباب المهن أو المثقفين والأدباء ، أما فى البندقية فكانوا أساسا من الطبقة الوسطى ، يتخللهم هنا وهناك الغوانى المتبرجات ، وملاحو الجندولات البذيئون ، والقساوسة والرهبان متنكرين ، وأعضاء الشيوخ المتغطرسون فى عباءاتهم وباروكاتهم . وكان عسيرا أن ترضى مسرحية هذه العناصر كلها فى مثل هذا الخليط من البشر ، ومن ثم نزعت الكوميديا الإيطالية إلى أن تكون مزيجا من الهجاء والهزل الرخيص والتهريج والتوريات ، وقد أعجز الممثلين عن التنويع والتمييز طول ما دربوا عليه من تصوير شخصيات ثابتة . هذا هو الجمهور وهذا هو المسرح الذى جاهد جولدونى فى رفعه إلى مكانة الكوميديا المشروعة المتحضرة .

ويسر القارىء ما كتبه فى « مذكراته » من استهلال بسيط . قال : « ولدت فى البندقية فى ١٧٠٧ ۰۰۰۰ جاءت بى أمى إلى العالم دون كبير ألم مما زاد حبها لى . ولم تعلن مولدى صيحات كالعادة ، وبدأ هذا اللطف آنئذ دليلا على الخلق الهادىء الذى احتفظت به دائماً منذ ذلك اليوم »[٧٠] .

وكان هذا القول تفاخرا منه ولكنه حق ، فجرلدونى من أحب الرجال فى تاريخ الأدب ، وكان من بين فضائله التواضع رغم هذا الاستهلال — وهى خلة ليست فى طبيعة الكتاب . ولنا أن نصدقه إذ يقول « كنت معبود الأسرة » وذهب الأب إلى روما ليدرس الطب ، ثم إلى بروجيا ليمارسه ، وتركت الأم فى البندقية لتربى ثلاثة أطفال .

وكان كارلو طفلا نابغة . استطاع أن يقرأ ويكتب فى الرابعة ، وألف كوميديا ن الثامنة . واقنع الأب الأم أن تسمح لكارلو بالذهاب إليه والعيش معه فى بروجيا . وهناك درس الغلام على اليسوعيين ، وتفوق ، ودعى للانضمام إلى الجماعة ، ولكنه رفض . ولحقت الأم وابن آخر بالأب ،

ولكن هواء الجبل البارد فى بيروجيا لم يلائمها ، فانتقلت الأسرة إلى ريميني ، ثم إلى كيودجا . ودخل كارلو كية دومنيكية فى ريميني ، ثم إلى كيودجا. ودخل كارلو كلية دومنيكية فى ريميني ، حيث كان يتلقى كل يوم جرعات من كتاب القديس توما الاكويني « قمة اللاهوت » . وإذ لم يجد شيئا يثير مشاعره فى تلك الرائعة من روائع العقلانية فقد قــرأ أرستوفان ، وبلوتس ، وترنس ، فلما قدمت فرقة من الممثلين إلى ريميني انضم إليها فترة طالت إلى حد ادهش أبويه فى كيودجا . فوبخاه ، وعانقاه ، ثم أرسلاه ليدرس القانون فى بافيا . وفى ١٧٣١ نال درجته الجامعية وبدأ ممارسة المحاماه ، ثم تزوج ، « وكان الآن أسعد رجل فى العالم » (٧١) ، اللهم إلا أنه أصيب بالجدرى فى ليلة زفافه .

وجذبته البندقية فعاد إليها ، ونجح فى المحاماة ، وأصبح قنصلا هناك لجنوه . ولكن المسرح ظل يستهويه ، وهفت نفسه للكتابة ، واشتهى أن تخرج مسرحياته . ومثلت مسرحيته « بلزاريوس » فى ٢٤ نوفمبر ١٧٣٤ بنجاح ملهم ، وظلت تعرض يوميا حتى ١٤ ديسمبر ، وضاعف سروره افتخار أمه العجوز به . على أن البندقية لم تكن تستسيغ التراجيديا ، ففشلت مسرحياته التالية التى من هذا النوع ، فانصرف حزينا إلى الكوميديا . ولكنه رفض كتابة الفارصات « للكوميديا ديللارتى » ، وأراد أن يؤلف كوميديات السلوك والأفكار على طريقة موليير ، وألا يعرض على خشبة المسرح شخوصا ثابتة تجمدت فى أقنعة ، بل شخصيات ومواقف مشتقة من الحياة المعاصرة . واختار بعض الممثلين من فرقة كوميديا البندقية ، ودربهم ، واخرج فى ١٧٤٠ « مومولو » رجل البــلاط . « ونجحت التمثيلية نجاحا مدهشا ، وكان فى هذا ما ارضانى » (٧٢) . ولكنه لم يرض تماما ، لأنه كان قد نزل عن بعض أفكاره بتركه الحوار كله دون أن يكتبه إلا للدور الرئيسى ، ويخلفه أدوارا لأربعة من الشخوص المقنعة التقليدية .

وراح يدفع اصلاحاته خطوة خطوة . ففى مسرحية « المرأة الشريفة » كتب لأول مرة الحركة والحوار كاملين . وهبت فرق معادية لتنافس

تمثيلياته أو تسخر منها . وتآمرت عليه الطبقات التى هجاها ، مثل التشيشسبى (مرافقى الزوجات) فحاربها كلها وعقد له النصر . ولكن لم يمكن العثور على مؤلف آخر يزود فرقته بالكوميديات المناسبة . ومن ثم فقدت تمثيلياته هو رضاء الجمهور لكثرة تكرارها . واكرهته المنافسة على أن يكتب ست عشرة تمثيلية فى سنة واحدة .

وبلغ أوجه ن ١٧٥٢ ، وأشاد به فولتير « بوصفه موليير إيطاليا » . ولقيت مسرحيته « لا لوكانديرا » (صاحبة الفندق) فى ذلك العام « نجاحا رائعا حتى ..... فضلت على أى عمل انجز فى ذلك النوع من الكوميديا » . وقد اعتز بأنه راعى « الوحدات الارسطاطاليه فى الحركة والمكان والزمان » وفيما عدا ذلك كان يحكم على تمثيلياته بواقعية ، فيقول « انها جيـــدة » ولكنها لم ترق بعد إلى مستوى موليير »[٧٣] . وكان قد تعجل فى كتابتها تعجلا لا يتيح له أن يجعلها أعمالا فنية ، فكانت ذكية البناء ، مرحة على نحو سار ، مطابقة للحياة بوجه عام ، ولكن أعوزها ما ميز موليير من اتساع الأفكار ، وقوة الحديث ، وبراعة العرض ، ومن ثم ظلت على سطح الشخوص والأحداث . ومنعته طبيعة جمهوره من أن يحاول التحليق فى أجواء العاطفة أو الفلسفة أو الأسلوب ، وكان فى فطرته من البشر ما منعه من سبر الأغوار التى عذبت موليير من قبل .

وقد صدم مرة واحدة على الأقل صدمة أخرجته عن لطفه وجرحته فى الصميم ، وذلك حين تحداه كارلو جوتسى على مكان الصدارة المسرحية فى البندقية وفاز فى المعركة . وكان هناك رجلان باسم جوتسى شاركا فى الضجة الأدبية التى أثيرت فى ذلك العهد ، أحدهما جسبارو جوتسى الذى الف تمثيليات أكثرها مقتبس من الفرنسية ، وكان محررا لدوريتين بارزتين وقد بدأ حركة احياء دانتى . أما الثانى وهو أخوه كارلو فلم يكن فيه هذا اللطف والأنس ، كان رجلا طويل القامة وسيما مغرورا متحفزا للعراك على الدوام . وكان أذكى عضو فى أكاديمية جرانلليسكى « التى شنت حملة لإستعمال الإيطالية التسكانية النقية فى الأدب بدلا من اللهجة التى استعملها

جولدونى فى معظم تمثيلياته . ولعله — وهو العشيق (أو المرافق الخادم) لتيودورا ريتشى — أحس بوخز موجع حين هجا جولدونى مرافقى الزوجات هؤلاء . وقد كتب هو أيضاً « مذاكرات » هى البيان المفصل للحروب التى خاضها . وقد حكم على جولدونى كما يرى مؤلفاً آخر فقال :

« تبينت فى جولدونى وفرة فى الدوافع الكوميدية ، والصدق والطبيعية . ولكنى اكتشفت فيه فقرا وحقارة فى الحبكة » ، وهذه محاسن ومساوىء متنافرة ، والمساوىء كثيراً ما تكون الغالبة ، ثم هناك عبارات سوقية ذات توريات منحطة ··· ونتف وأقوال فيها تنطع ، مسروقة لا أدرى من أين ومجلوبة لتخدع جمهورا من الجهال ، وأخيرا فهو بوصفه كاتباً للايطالية (إلا أنه يكتب باللهجة البندقية التى دل على تمكنه منها) لم يبد غير جدير بأن يوضع فى مصاف أغبى المؤلفين الذين استخدموا لغتنا وأحقرهم وأقلهم دقة وصواباً ··· وعلى أن أضيف فى الوقت ذاته أنه لم يخرج قط تمثيلية دون أن يكون لها سمة كوميدية ممتازة . وقد بدا لعينى أن له دائماً مظهر رجل ولد باحساس فطرى بالطريقة التى يجب أن تؤلف بها الكوميديات الأصيلة ، ولكنه — لعيب فى تعليمه ، ولافتقار إلى التميز ، ولضرورة ارضاء الجمهور وتقديم بضاعة جديدة للكوميديين المساكين الذين يكسب قوته على حسابهم ، وللعجلة التى كان ينتج بها هذا العدد الوفير من التمثيليات كل سنة ليقى نفسه من الغرق — أقول أنه لهذا كله لم يستطع قط أن يبتكر تمثيلية واحدة لاتزخر بالاغلاط [٧٤] » .

وفى ١٧٥٧ أصدر جوتسى ديوان شعر يعرب عن انتقادات مماثلة فى « أسلوب كبار كتاب التسكانية القدامى » . ورد جولدونى بشعر مثلث القافية (على طريقة دانتى) بما معناه أن جوتسى أشبه بالكلب الذى ينبح القمر (Come il cane che abbaja la luno)

ورد عليه جوتسى بالدفاع عن « الكوميديا ديللارتى » ضد انتقادات جولدونى القاسية ، واتهم جولدونى بأن تمثيلياته تفوق كوميديا الأقنعة مائة مرة فى فجورها ونبوها وعدوانها على مكارم الأخلاق ، وصنف معجماً من « العبارات الغامضة ، والتوريات البذيئة . . وغيرها من القذارات »

أخذها من أعمال جولدونى . يقول مولمنتى أن الجدل « آثار فى المدينة ضربا من الهوس ، فكان الخلاف يناقش فى المسارح والبيوت والحوانيت والمقاهى والشوارع[٧٥] » .

وتحدى كاتب مسرحى آخر يدعى (أباتى كيارى) جوتسى أن يكتب تمثيلية خيرا من التمثيليات التى ندد بها ، وكان هذا الكاتب قد لدغه من قبل صل جوتسى التسكانى . ورد جوتسى أن هذا يسير عليه ، حتى عن أتلفه المواضيع وباستخدام كوميديا الأقنعة التقليدية دون غيرها . وفى يناير ١٧٦١ أخرجت فرقة فى تياترو سان صموبلى تمثيليته المسماه « خرافة حب البرتقالات الثلاث » وهى مجرد سيناريو أظهر بنتالونى ، وترتاجليا ، وغيرهما من أصحاب (الأقنعة) يبحثون عن ثلاث برتقالات يعتقد أن لها قدرات سحرية ، وأما الحوار فترك للارتجال . وكان نجاح هذه (الخرافة) حاسما : ذلك أن الجمهور البندقى العاشق على الضحك استعطاب خيال القصة والهجاء الضمنى لحبكات كيارى وجولدونى . وأردفها جوتسى بتسع (خرافات) أخرى فى خمس سنوات ، ولكنه قدم فيها حواراً شعرياً ، وبهذا سلم جزئيا بنقد جولدونى للكوميديا ديللارتى . على أية حال بدا انتصار جوتسى كاملا . وظل جمهور مسرح القديس صموئيل شديد الاقبال عليه ، فى حين هبط الإقبال على مسرح جولدونى (سانت انجيلو) إلى ما يقرب من الإفلاس . وانتقل كيارى إلى بريشا ، أما جولدونى فقبل دعوة إلى باريس (*) .

وتوديعا للبندقية أخرج جولدونى (١٧٦٢) «أمسية من أمسيات الكرنفال الأخيرة » وتروى قصة مصمم منسوجات هو السنيور انتسوليتو الذى كان على وشك أن يفارق وهو حزين فى البندقية النساجين الذين طالما زود أنوالهم بالرسوم . وسرعان ما تبين الجمهور فى هذا رمزاً للكاتب المسرحى الذى يترك آسفا الممثلين الذين طالما زود مسرحهم بالتمثيليات . فلما ظهر انتسوليتو فى المشهد الأخير ضج المسرح (كما يقول جولدونى) « بتصفيق

* حولت « خرافتان » من خرافات جوتسى إلى أوبرات : « رى توراندوت » لفيبر وبوزونى ، و « حب البرتقالات الثلاث » : لبروكوفيف .

كهزيع الرعد تسمع خلاله هتافات . . . (رحلة سعيدة) (عد الينا ثانية) (لا يفتك أن تعود الينا) [٧٦]. وغادر البندقية فى ١٥ ابريل ١٧٦٢ ولم يرها بعد ذلك قط .

وفى باريس شغل عامين بتأليف كوميديات لمسرح الإيطاليين ، وفى ١٧٦٣ رفعت عليه دعوى إغواء[٧٧] ، ولكن بعد سنة كلف بتعليم الإيطالية لبنات لويس الخامس عشر . وقد كتب بالفرنسية ، بمناسبة زفاف مارى انطوانيت والأمير الذى أصبح فيما بعد لويس السادس عشر ، مسرحية من أفضل مسرحياته ، واسمها (الجلف الخير) وكوفىء عليها بمعاش قدره ١٢٠٠ فرنك ، الغته الثورة حين بلغ الحادية والثمانين . وقد واسى فقره باملاء مذاكراته لزوجته (١٧٩٢) — وهى مذكرات غير دقيقه ، خصبة الخيال ، مثيرة ، مسلية ، وفى رأى جولدونى أنها (درامية على نحو أصدق من كوميديانه الإيطالية[٧٨]) ، ومات فى ٦ فبراير ١٧٩٣ . وفى ٧ فبراير ، بناء على اقتراح قدمه الشاعر مارى — جوزف دشنييه ، رد اليه المؤتمر الوطنى معاشه . وإذ لم يجده المؤتمر فى حال تسمح له بتسلمه ، فقد أعطاه لارملته بعد أن خفضه .

كان انتصار جوتسى فى البندقية قصير الأجل . فقبل أن يموت (١٨٠٦) بسنين طويله اختفت (خرافاته) من خشبة المسرح ، وبعثت كوميديات جولدونى فى مسارح ايطاليا . ومازالت تمثل عليها فى كثرة تكاد تقارب كوميديات موليير فى فرنسا . ويقوم تمثاله فى الكامبوسان بارتولوميو بالبندقية ، وفى اللارجو جولدونى (بفلورنسه) . ذلك لأن الإنسانية كما كتب فى مذكراته واحدة فى كل مكان ، والحسد يعلن عن نفسه فى كل مكان ، وفى كل مكان يكسب الرجل الهادىء الطبع فى النهاية محبة الشعب ويبلى خصومه[٧٩] » .

٦ — روما

فى جنوبى نهر بو ، وعلى طول الادرياتيك وعبر الأبنين ، كانت تقوم ولايات الكنيسة — فيرارا وبولونيا وفورلى ورافنا وبروجه وبتفنتو وروما — فتكون بهذا القسم الأوسط والأكبر من الحذاء السحرى .

أما فيرارا فحين أدمجت فى الولايات البابويه (١٥٩٨) جعل أدواقها آل استنسى مودينا مقرا لهم ، وجمعوا فيها محفوظاتهم وكتبهم وفنونهم . وفى ١٧٠٠ أصبح لودوفيكو موراتورى القسيس والباحث وفقيه القوانين أمينا على هذه الكنوز. واستطاع خلال خمسة عشر عاماً من العمل الدءوب، ومن ثمانية وعشرين مجلدا ، أن يصنف « كتاب الشئون الإيطاليه » (١٧٢٣ — ٣٨) ، وأضاف بعد ذلك عشرة مجلدات للآثار والنقوش الإيطاليه . وكان أثرياً أكثر منه مؤرخا ، وما لبث كتابه « الحوليات الإيطالية » الذى أصدره فى أثنى عشر مجلدا أن تقادم . ولكن أبحاثه فى الوثائق والنقوش جعلته الأب والمصدر للتأليف التاريخى الحديث فى إيطاليا .

وكانت بولونيا أكثر هذه الولايات ازدهارا باستثناء روما . وظلت مدرسة تصويرها الشهيرة حية فى عهد جوزيبى كرسبى (الأسبانى) ، وكانت جامعتها لا تزال من خير الجامعات الأوربيه . وكان قصر بفيلاكوا (١٧٤٩) من أعظم أبنية القرن أناقة . وسمت أسرة ممتازه تركزت فى بولونيا بالعمارة والمسرحية ورسم المناظر المسرحية إلى ذرى الأتقان فى العصور الحديثة . فبنى فردينانددو جاللى دابيبينا (التياترو ريالى) فى مانتوا (١٧٣١) وكتب نصوصا شهيرة عن فنه ، وأنجب ثلاثة أبناء وأصلوا مهارته فى الزخرفة الخداعة الفاخرة . وصمم أخوه فرانشسكو المسارح فى فيينا ونانسى وروما ، والتياترو فيلارمونيكا بفيرونا — الذى كثيرا ما يعتبر أجمل مسرح فى إيطاليا . وأصبح الساندرو بن فردينانددو كبير معماريى ناخب البلاتينات . وصمم ابن ثان يدعى جوزيبى مدخل دار الأوبرا فى بايرويت (١٧٤٨) — أجمل بناء موجود من نوعه[٨٠] » . ورسم أنطونيو الأبن الثالث تصميمات « التياترو كومونالى » فى بولونيا .

وقد ترددت فى ذلك المسرح وفى كنيسة سان بترونيو القديمة الضخمه أفضل الموسيقى الآليه التى عزفت فى إيطاليا ، لأن بولونيا كانت المركز الإيطالى الرئيسى للتعليم والنظريه الموسيقيين . فهناك كان بادرى جوفانى بأتستا مارتينى يعقد مجلسه المتواضع الصارم كأجل معلم للموسيقى فى أوربا . وكان يقتنى مكتبة موسيقيه تضم سبعة عشر ألف مجلد ، وقد ألف نصوصا ممتازة فى الكونترابنط وتاريخ الموسيقى ، وراسل عشرات من مشاهير الرجال فى أكثر من عشر دول . وكان وسام الأكاديميا فيلارمونيكا التى ترأسها سنين كثيرة مشتهى جميع الموسيقيين . فإلى هنا سيأتى الصبى موتسارت فى ١٧٧٠ ليواجه الاختبارات المقررة ، وهنا سيعلم روسينى ودونيتسى . وكان المهرجان السنوى للمؤلفات الموسيقية الجديدة ، التى يؤديها أوركسترا الأكاديميه ذو المائة عازف ، فى نظر إيطاليا الحدث الأعظم للسنه الموسيقية .

قدر جيبون سكان روما فى ١٧٤٠ بنحو ١٥٦,٠٠٠ نسمة . وحين تذكر زهوة ماضيها الأمبراطورى وتناسى فقراء هذا الماضى وأرقاءه ، وجد أن سخر العاصمة الكاتوليكية يجافى ذوقه :

« فى داخل الأسوار الأوريلية الفسيحه تغشى القسم الأكبر من التلال السبعة الكروم والأطلال . ولعل جمال المدينه الحديثة وبهاءها راجع إلى مفاسد الحكومة وتأثير الخرافة . فقد تميز كل حكم (إلا فيما ندر) بصعود أسرة جديدة صعودا سريعا ، أثرت بفضل الحبر الذى لا عقب له على حساب الكنيسة والدولة . وقصور أبناء الأخوة والأخوات المحظوظين هؤلاء هى أغلى صروح الأناقة والعبودية ، فقد سخرت لها أسمى فنون المعمار والتصوير والنحت ، وأبهاؤها وحدائقها تزينها أنفس الآثار القديمة التى جمعوها تذوقا أو غرورا[٨١] » .

وقد تميز بابوات هذا العهد بسمو الخلق ، وكانت فضائلهم تسمو كلما هبط سلطانهم . وكانوا كلهم إيطاليين ، لأن احدا من الملوك الكاثوليك أبى أن يسمح لأى من الآخرين أن يقتضى البابويه . وقد برر كلمنت الحادى عشر (حكم ١٧٠٠ — ٢١) أسمه (ومعناه الرحيم) باصلاحه سجون روما .

أما إنوسنت الثالث عشر (١٧٢١ — ٢٤) فهـــو فى رأى رانكى البروتستنتى :

« كان يملك مؤهلات رائعة للحكم الروحى والزمنى معا ، ولكن صحته كانت هشه جداً . وقد وجدت الأسر الرومانية المتصلة به بصلة القرابة ، والتى راودها الأمل فى أن يرفع من شأنها ، أنها واهمة كل الوهم : لا بل إن ابن اخيه لم يستطع الظفر بالأثنى عشر ألف دوقاتيه كل عام (التى أصبحت الآن الدخل العادى لابن الأخ) دون مشقة[٨٢] » .

أما بندكت الثالث عشر (١٧٢٤ — ٣٠) فكان « رجلا ذا تقوى شخصية عظيمه[٨٣] » . ولكنه (كما قال مؤرخ كاتوليكى) سمح بقدر كبير جداً من السلطة لمحاسيب غير جد يرين بعطفه[٨٤] » . وأغرق كلمنت الثالث عشر (١٧٣٠ — ٤٠) روما بأصدقائه الفلورنسيين ، وسمح لنفسه حين شاخ وكف بصره أن ينقاد لأبناء أخيه الذين زاد تعصبهم الصراع بين اليسوعيين والجانسنيين فى فرنسا مرارة فوق مرارة .

وفى رأى ماكولى أن بندكت الرابع عشر (١٧٤٠ — ٥٨) «كان أفضل وأحكم خلفاء القديس بطرس المائتين والخمسين[٨٥] » وهـــو حكم فضفاضى ، ولكن البروتستنت والكاثوليك وغـــير المؤمنين على السواء مجمعون على الثناء على بندكت لأنه كان رجلا واسع العلم، ذا شخصية محببة ونزاهة خلقية . ولم ير وهو رئيس لأساقفة بولونيا أى تناقض بين الاختلاف إلى دار الأوبرا ثلاث مرات فى الأسبوع والاهتمام الصارم بواجباته الاسقفية[٨٦] ، وقد وفق أثناء ولايته منصب البابوية بين حياته الشخصية ومرح الطبع وتحرر الحديث وتذوق الأدب والفن تذوقايكاد يكون وثنيا . وقد أضاف تمثالا لفينوس عارية إلى مجموعته ، وقال للكردينال دتنسان أن أمير وأميرة فورتمبرج خطا إسميهما على جزء فى التشريح جميل الأستداره لا يذكر كثيراً فى المراسلات البابويه[٨٧] . وكاد يشبه فولتير فى حدة الذكاء والظرف ، ولكن هـــذا لم يمنعه من أن يكون إداريا حازما ودبلوماسيا بعيد النظر .

وقد وجد مالية البابوية تشكو الفوضى : فنصف الإيرادات يضيع فى الانتقال من بلد إلى بلد وثلث سكان روما كنسيون يفوق عددهم كثيرا ما تحتاج إليه شئون الكنيسه ، ويكلفونها من النفقة ما لا تطيقه . فأنقص بنديكت موظفيه الشخصيين ، وطرد أكثر جنود الجيوش البابويه ، وأنهى محسوبية الأقارب ، وخفض الضرائب ، وأدخل الاصلاحات الزراعية ، وشجع المشروعات الصناعيه ، ولم يمر طويل وقت حتى أثمرت أمانته واقتصاده وكفائته فائضا للخزانة البابوية . أما سياسته الخارجية فقد قدمت تنازلات ودية للملوك المشاغبين ، فوقع مع سردينيا والبرتغال ونابلى وأسبانيا إتفاقات سمحت لحكامها الكاثوليك بالترشيح لكراسى الأسقفية . وجاهد ليهدىء الضجة العقائدية فى فرنسا ، بالتراخى فى تنفيذ الأمر البابوى unigenitus (الوحيد الجنس) الصادر ضد الجانسنيين ، « ما دام الإلحاد يزداد كل يوم فعلينا أن نسأل إن كان الناس يؤمنون بالله لا إن كانو يقبلون الأمر البابوى[88] » .

وبذل جهودا شجاعة ليعثر على حل وسط مؤقت modus vivendi مع حركة التبرير . وقد لاحظنا تقبله الودى لإهداء فولتير مسرحية (محمد) إليه رغم أن المسرحية كانت تسلط عليها نيران الكنيسة فى باريس (١٧٤٦) . وعين لجنة لمراجعة كتاب الصلوات اليومية ولتخليصه من بعض الأساطير الأبعد تصديقا ، على أن توصيات اللجنة لم تنفذ . واستطاع بنشاطه الشخصى أن يحقق انتخاب دالمبير لمجمع بولونيا[89] . » وكان يثبط التحريم المتعجل للكتب . فلما أشار بعض مساعديه عليه بشجب كتاب لامترى « الإنسان الآلة » أجاب أليس من واجبكم أن تكفوا عن ابلاغى بوقاحات الحمقى ؟ ثم أردف « اعلموا أن للبابا يدا مطلقه لمنح البركات فقط[90] » وقد خلت قائمة الكتب المحرمة التى أصدرها فى ١٧٥٨ عن جميع محاولات تعقب المؤلفات غير الكاثوليكية . واقتصرت ـ فيما عدا استثناءات قليلة على حظر بعض الكتب التى ألفها كتاب كاثوليك . وأمر بألا يدان كتاب قبل أن يعطى مؤلفه أن وجد فرصة للدفاع عن نفسه ، ولا يدان كتاب فى موضوع علمى إلا بعد استشارة الخبراء ، وينبغى أن يؤذن لرجال العلم أو الدرس دون

ابطاء بقراءة الكتب المحرمة[٩١] . واتبعت هذه القواعد فى طبعات القائمة الثالثة ، وأكدها ليو الثالث عشر فى ١٩٠٠ .

وقد ألفى البابوات حكم روما عسيرا عسرا يقرب من عسر حكم العالم الكاثوليكى . ولعل جمهور المدينة كان اشد الجماهير فظاظة وعنفاً فى ايطاليا وربما فى أوربا . فأى سبب يمكن أن يفضى إلى مبارزة بين النبلاء أو إلى صراع دام بين الزمر المتحزبه التى قسمت المدينة المقدسة ، وأما فى المسرح فان حكم النظارة كان يمكن أن يكون قاسياً لارحمة فيه خصوصا إذا أخطأ ، وسنرى مثالا عليه فى حالة برجولينزى . وجاهدت الكنيسة لتهدىء الشعب بالأعياد والمواكب والغفرانات والكرنفال ، وسمحت للناس فى الأيام الثمانية السابقة للصوم الكبير بأن يرتدوا ملابس تنكرية مرحة غريبة الأشكال ، وأن يسرحوا ويمرحوا على (الكورسو) والتمس النبلاء رضى الجماهير باستعراضاتهم على الخيل أو العربات تحمل راكبين مهرة أو نساء حسانا فى أبهى زينة ، وعرضت البغايا بضاعتهن لقاء أجور رفعتها مؤقتا ، وخففت المغازلات المقنعة من ثقل الزواج الأحادى بضع ساعات . فإذا انقضى الكرنفال عاودت روما مسيرتها المتناقضة من التقوى والإجرام .

أما الفن فلم يزدهر وسط العائدات المتناقصة التى يغلها إيمان مضمحل . لقد أسهمت العمارة ببعض الاسهامات الصغيرة : مثال ذلك أن الساندرو جاليلى أضاف لكنيسة سان جوفانى القديمة فى اللاتيرانو واجهة فخمة ، وخلع فرديناند وفوجا على كنيسة سانتا ماريا مادجورى وجها جديداً ، وشيد فرانشسكو دى سانكتيس « السكالا دى سبانيا الفسيحة المهيبة من ميدان أسبانيا إلى مزار « الثالوث الأقدس » فى مونتى . وأضاف النحت أثرا مشهوراً هو « الفونتانا دى تريفى » . . حيث يلقى السائح المسرور قطعة نقود من وراء كتفه فى الماء ليضمن عودته لزيارة روما ثانية . وكان لنافورة المخارج الثلاثة تاريخ طويل . ولعل برنينى ترك رسما تخطيطيا لها ، وافتتح كلمنت الثانى عشر مسابقة لإنشائها ، وقدم التصميمات لها أدمى بوشاردان الباريسى ولا مبر سجبير آدم النانسى ، واختير جوفانى ماينى ليصممها ،

ونحت بييترو براتشى مجموعة نبتون وفريقه الوسطى (١٧٣٢) ، ونحت فليبو ديللافاللى أشكالا تمثل الخصوبة والشفاء ، وقدم نيكولو سالفى الخلفية المعمارية ، وأكمل جوزيبى يانينى العمل فى ١٧٦٢ ، وربما أوحت مشاركة العقول والأيدى الكثيرة على هذا النحو خلال ثلاثين سنة بأنه كان هناك شىء من التخاذل فى الإرادة أو الفقر فى الموارد ، ولكنها تدحض أى فكرة بأن الفن فى روما كان ميتاً . وأضاف براتشى إلى مآثره مقبرة (هى الآن فى كتدرائية القديس بطرس) لماريا كلمنتينا سوبيسكا ، الزوجة التعسة لجيمس الثالث المطالب الاستيوارتى بالعرش ، وخلف ديللافاللى فى كنيسة القديس أغناطيوس نقشاً بارزاً رقيقاً يمثل البشارة ، جديرا بالنهضة الأوربية فى أوجها .

أما التصوير فلم يتمخض عن عجائب فى روما فى هذا العصر ، ولكن جوفانى باتستا بيرانيزى جعل الحفر فناً من الفنون الكبرى . ولد لبناء بالحجر قرب البندقية ، وقرأ باللاديو وحلم بالقصور وأضرحة القديسين . على أن البندقية كانت تحوى من الفنانين أكثر مما تحوى من المال ، أما روما فكان فيها مال أكثر من الفنانين ، ومن ثم نزح جوفانى إلى روما وبدأ عمله معماريا . غير أن الطلب على المبانى كان ضعيفا . ولكنه صمم المبانى على أى حال ، أو على الأصح رسم مبانى غريبة الأشكال تبدو كأن « السلالم الأسبانية » سقطت فوق « حمامات دقلديانوس » . ونشر هذه الرسوم فى ١٧٥٠ باسم « رسوم مختلفة » و « كارتشيرى » (المسجون) ، واشتراها الناس كأنهم يشترون الألغاز أو الأسرار الغامضة . ولكن بيرانيزى وجه مهارته فى حالاته النفسية الأنبل إلى حفر رسومه التخطيطية للآثار القديمة . فقد عشقها كما عشقها بوسان وروبير ، وأحزنه أن يرى هـذه الأطلال الرائعة تزداد تحللا يوما بعد يوم بفعل النهب أو الاهمال ، وظل طوال خمسة وعشرون عاما ، فى كل يوم تقريبا ، يخرج ليرسمها ، ويفوته أحيانا تناول وجباته من الطعام ، بل أنه حتى وهو يموت من السرطان واصل الرسم والنقش والحفر . وقد ذاع مؤلفاه « الآثار الرومانية » و « مناظر

روما ، فى شكل نسخ مطبوعة فى أوربا كلها وشاركت فى الإحياء المعمارى للأساليب الكلاسيكية .

وقد وجد ذلك الاحياء حافزا قويا فى الحفائر التى أجريت فى هركولانيوم وبومبى وهما مدينتان أغرقهما ثوران فيزوف فى ٧٩ م ففى ١٧١٩ أبلغ بعض الفلاحين أنهم وجدوا تماثيل مدفونة فى التراب فى هركولانيوم . وأنقضت تسعة عشر عاما قبل أن يمكن الحصول على المال اللازم لارتياد الموقع على نحو نسقى . وفى ١٧٤٨ بدأت جفائر مماثلة تكشف عن عجائب بومبى الوثنية ، وفى ١٧٥٢ كشف عن معابد بايستوم الضخمة الجليلة بعد اجتثاث الأجمة التى غطتها . وأقبل الأثريون من شتى البلاد ليدرسوا الكشوف ويصفوها ، وأثارت رسوم هذه الآثار اهتمام الفنانين والمؤرخين جميعاً ، وسرعان ما غزا المتحمسون للفن الكلاسيكى روما ونابلى ، وقدموا على الأخص من ألمانيا . فأتى منجز فى ١٧٤٠ ، وفنكلمان فى ١٧٥٥ . وهفت نفس لسنج للذهاب إلى روما ، « لامكث هناك على الأقل سنة ، وإلى الأبد أن امكن »[٩٢] . ثم جوته — ولكن لنرجى هذه القصة الآن .

إما أنطون رفائيل منجز فمن العسير أن نضعه فى مكان واحد ، لأنه ولد فى بوهيميا (١٧٢٨) ، وخص بجهوده إيطاليا وأسبانيا ، واختار روما موطنا له . وسماه أبوه باسم كوريدجو ورفائيل ، وكان رساما للمنمنمات فى درسدن ، ونذره للفن ، وظهرت على الصبى مخايل النجابة فأخذه أبره وهو فى الثانية عشرة إلى روما . ويروى أنه حبسه هناك فى فى الفاتيكان يوما بعد يوم ولا غداء له إلا النبيذ والخبز ، وأخبره أن أراد مزيداً أن يطلع على آثار رفائيل وميكلانجلو والعالم الكلاسيكى . وبعد أن أقام أنطون برهة قصيرة فى درسدن عاد إلى روما واسترعى الأنظار بلوحة رسمها للعائلة المقدسة ، وكانت نموذجه فيها مارجاريتا جواتسى « عذراء فقيرة فاضلة جميلة »[٩٣] وتزوجها فى ١٧٤٩ ، وفى المناسبة ذاتها دخل فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وعاد ثانية إلى درسدن ، وعين مصورا لبلاط أوغسطس الثالث براتب قدره ألف طالر فى العام . ووافق

على أن يرسم لوحتين لكنيسة بدرسدن ، ولكنه أقنع الملك الغاضب بأن يسمح له برسمهما فى روما ، وفى ١٧٥٢ استقر هناك وهو بعد فى الرابعة والعشرين . ولما بلغ السادسة والعشرين عين مديرا لمدرسة الفاتيكان للتصوير . وفى ١٧٥٥ التقى بفنكلمان ، واتفق معه على أن الباروك غلطة ؛ وأن الفن يجب أن يطهر نفسه ويهذبها بأشكال الكلاسيكية الجديدة . ولعله فى هذه الفترة أو نحوها رسم بالباستل صورته الذاتية الموجودة الآن فى متحف فن درسدن — وجه فتاة وشعرها ، ولكن العينين تلمعان بكبرياء رجل واثق من أن فى استطاعته أن يهز العالم .

وحين طارد فردريك الأكبر أوغسطس من سكسونيا (١٧٥٦) توقف راتب منجز الملكى ، وكان عليه أن يعيش على الأجور المتواضعة المعروضة عليه فى إيطاليا . وجرب العمل فى نابلى ، ولكن الفنانين المحليين هددوا حياته باعتباره دخيلا ، وذلك عملا بتقليد نابولتانى قديم ، فقفل منجز إلى روما سريعا . وزين فيللا ألبانى بصور جصية حظيت بالشهرة ذات يوم ، وما زالت ترى هناك لوحته « برناس » (١٧٦١) الممتازة فنيا ، الكلاسيكية هدوءا ، الميتة عاطفيا . ومع ذلك أحس الوزير الأسبانى فى روما أن هذا هو الرجل الذى يصلح لرسم صور يزدان بها القصر الملكى فى مدريد . وأرسل شارل الثالث فى طلب منجز ووعده بألفى دبلون فى العام مضافا إليها مسكن ومركبة ورحلة مجانية على بارجة أسبانية موشكة على الاقلاع من نابلى . وفى سبتمبر ١٧٦١ وصل منجز إلى مدريد .

٧ — نابلى

(أ) الملك والشعب

أصابت مملكة نابلى التى ضمت كل إيطاليا جنوب الولايات البابوية اللطمات الشديدة فى الصراع على السلطة بين النمسا وأسبانيا وانجلترا وفرنسا . ولكن هذا دأب التاريخ فى تمزيقه الكئيب للمنطق ، والتأرجح الدائم بين النصر والهزيمة ، وحسبنا هنا أن نلاحظ أن النمسا استولت على نابلى فى ١٧٠٧ ،

وأن دوس كارلوس ، دوق بارما البوربونى وابن فليب الخامس ملك أسبانيا ، طرد النمساويين فى ١٧٣٤ ، وحكم حتى ١٧٥٩ باسم شارل الرابع ملك نابلى وصقلية . وكانت عاصمته التى ضمت ٣٠٠,٠٠٠ من الأنفس أكبر مدينة فى إيطاليا .

وبلغ شارل النضج فى فن الملك ببطء . ففى أول عهده اتخذ الملكية جوازا للبذخ : فأهمل شئون الحكومة ، وأنفق نصف أيامه فى القنص ، وأسرف فى الأكل حتى أصبح بدينا . ثم حوالى ١٧٥٥ ، وبوحى من وزير العدل والشئون الخارجية المركيز برناردو دى تانوتشى اضطلع بالتخفيف من مظالم الاقطاع القاسى الذى توارى خلف كد الحياه النابولية ونشوتها .

وكانت تحكم المملكة طويلا ثلاث جماعات متشابكة . فالنبلاء يملكون ثلثى الأرض تقريبا ويستعبدون أربعة أخماس الملايين الخمسة الذين يسكنونها ويسيطرون على البرلمان ، ويتحكمون فى نظام الضرائب ، ويعرقلون كل إصلاح . والأكليروس يملكون ثلث الأرض ، ويسترقون الشعب روحيا بلاهوت قوامه الرعب ، وكتب حافلة بالأساطير ، وشعائر تستغل المصلين ، ومعجزات على شاكلة تسييحهم المصطنع كل نصف سنة لدم القديس يانيوارس (حامى نابلى) المتخثر . وكانت الإدارة فى يد قانونيين يدينون بالطاعة للنبلاء أو الأحبار ، ومن ثم ألتزموا بالوضع الموروث من العصر الوسيط . وكانت الطبقة الوسطى الفقيرة المؤلفة أكثرها من التجار عاجزة سياسياً . وعاش الفلاحون والبرولتاريا فى فقر أكره بعضهم على قطع الطريق وكثيراً منهم على التسول ، وكان هناك ثلاثون ألف شحاذ فى نابلى وحدها[٩٤]. وقد وصف دبروس جماهير العاصمة بأنهم « أبغض الرعاع ، وأقذر الحشرات »[٩٥] — وهو حكم أدان النتيجة دون أن يدمغ السبب . على أننا يجب أن نعترف بأن هؤلاء النابوليين المهلهلى الثياب ، المتشبثين بالخرافات ، الخاضعين لسلطان الكهنة ، يبدو أنهم كانوا يملكون من نكهة الحياة وبهجتها أكثر من أى جمهور آخر فى أوروبا .

وكبح شارل قوة النبلاء باجتذابهم إلى بلاطه حتى يكونوا تحت ناظرى الملك ، وبإقامة نبلاء جدد يلتزمون بتأييده. وثبط تدفق الشباب على الأديرة، وانقص جموع الكنسيين من ١٠٠,٠٠٠ إلى ٨١,٠٠٠ ، وفرض ضريبة قدرها اثنان فى المائة على ممتلكات الكنيسة ، وحد من حصانات الاكليروس القانونية . وضيق تانوتشى من سلطة النبلاء القضائية ، وحارب الفساد فى القضاء ، وأصلح الإجراءات القضائية ، وخفف من صرامة قانون العقوبات . وأبيحت حرية العبادة لليهود ، ولكن الرهبان أكدوا لشارل أن افتقاده الوريث الذكر لعرشه هو العقاب الذى أنزله به الله جزاء تسامحه الآثم فسحب الغفران من اليهود [٩٦] .

وكان لونع الملك بالبناء الفضل فى إقامة صرحين شهيرين فى نابلى . وأحدهما هو « التياترو سان كارلو » الشاسع ، وقد أقيم فى ١٧٣٧ ومازال واحداً من أوسع وأجمل دور الأوبرا الموجودة . وفى ١٧٥٢ بدأ لويجى فانفيتلى يبنى الصرح الآخر فى كازوتا على واحد وعشرين ميلا شمالى العاصمة، وهو قصر ملكى هائل صمم لينافس فرساى وليقوم بوظيفته فى إيواء الأسرة المالكة ونبلاء الحاشية وأهم الموظفين الإداريين . وقد اقتضى بناؤه كد العبيد سودا وبيضاً طوال اثنين وعشرين عاماً . وكانت الأبنية ذات المنحيات تقوم على جانبى مدخل فسيح إلى الصرح الأوسط الذى مد واجهته ٣٠ قدماً. وقام فى الداخل مصلى ومسرح وغرف لا حصر لها وسلم مزدوج عريض كانت كل درجة فيه لوحة رخام واحدة . وامتدت وراء القصر على طول نصف ميل الحدائق المنسقة ، وعدد غفير من التماثيل ، ونافورات فخمة تغذيها قناة طولها سبعة وعشرون ميلا .

ولم يكن فى نابلى فن متميز فى هذا العصر غير قصر كازيرتا هذا (لأن القصر أطلق عليه اسم مدينته شأن الأسكوريال وفرساى) ، ولا كان هناك شىء يستحق الذكر فى الدراما أو الشعر . لقد ألف رجـــل كتابا جريئا « التاريخ المدنى لملوك نابلى » (١٧٢٣) وهو هجوم متواصل على جشع الأكليروس ، ومفاسد المحاكم الكنسية ، وسلطة الكنيسة الزمنيه ، ودعوى

البابويه بحقها فى نابلى كأقطاعية بابوية ، أما المؤلف وأسمه بييترو جانونى فقد حرمه رئيس أساقفة نابلى ، وفر إلى فيينا ، وزج به ملك سردانيا فى السجن ، ثم مات فى تورين (١٧٤٨) بعد أن قضى أثنتى عشرة سنة حبيسا(٩٧) . وفقد انطونيو جينوفيزى إيمانه وهو يقرأ لوك ، وحاول فى كتابه « مبادىء الميتافيزيقا » (١٧٤٣) أن يدخل سيكولوجية لوك إلى إيطاليا . وفى ١٧٥٤ أنشأ رجل أعمال فلونسى فى جامعة نابلى أول كرسى أوربى للاقتصاد السياسى بشرطين ، إلا يشغله كنسى أبدا ، وأن يكون أول شاغل له أنطونيو جينوفيزى . ورد جينوفيزى صنيعه (١٧٥٦) بأول بحث اقتصادى نظامى فى اللغة الإيطالية « دروس فى التجارة » ، ردد صرخة التجار ورجال الصناعة المطالبين بالتحرر من القيـــود الاقطاعية والكنسية وغيرها على المشروعات التجارية الحرة . وفى العام نفسه أعرب كزنيه عن هذا المطلب ذاته للطبقه الوسطى الفرنسية فى مقالاته ، التى كتبها لموسوعة ديدرو .

ولعل بعض الاتصال كان قد تم بين جينوفيزى وكزنيه على فرديناندو جاليانى النابولى الباريسى . وقد نشر جاليانى فى ١٧٥٠ « بحثا فى النقود » قرر فيه ببراعة اقتصادى فى الثانية والعشرين من عمره ثمن السلعة حسب تكلفة إنتاجها . وألمع منه كتابه « حوار حول تجارة الغلال » الذى ذكرناه من قبل نقدا لكزنيه . فلما اضطر إلىالعودة إلى وطنه بعد السنين المثيرة التى قضاها فى باريس ، أحزنه إلا يجد فى نابلى صالونات ، ولا امرأة كمدام جوفران تطعمه وتثير ذكاءه وظرفه . على أنه كان فيها على أية حال فيلسوف ترك بصمته على التاريخ .

(ب) جامباتيستا فيكو

تروى ترجمته الذاتية أنه حين كان فى السابعة سقط من على سلم نقالى، فصدم الأرض برأسه أولا ، وظل غائبا عن الوعى خمس ساعات . وأصيب بكسر فى الجمجمة تكون من حوله ورم ضخم . وكان الورم

يخفف بشقه بمبضع المرة تلو المرة . ولكن الصبي فقد من الدم في هذه العملية ما جعل الجراحين يتوقعون موته القريب . ولكنه بقي على قيد الحياة « بفضل الله ، ولكن نتيجة لهــذه البلية شببت بمزاج مكتئب حاد[٩٨] » . كذلك أصيب بالدرن . ولو كانت العبقريه رهنا بمعوق بدنى لكان ڤيكو موفور الحظ .

وحين بلغ السابعة عشرة (١٦٨٥) كسب قوته بإعطاء الدروس الخصوصية فى فاتوللا (قرب سالرنو) لأبناء أخى أسقف اسكيا . ومكث هناك تسع سنين ، ولكنه كان أثناءها عاكفا فى حماسة محمومة على دراسة القانون وفقه اللغة والتاريخ والفلسفة . وافتتن على الأخص بقراءة أفلاطون وأبيقور ولوكريتيوس ومكيافللى وفرانسيس بيكن وديكارت وجروتيوس ، وخرج من هذا كله بشىء من الأذى لإيمانه الدينى . وفى ١٦٩٧ حصل على كرسى أستاذ البيان فى جامعة نابلى ، ولم يؤجر عليه بأكثر من مائة دوقاتيه فى العام ، زادها باعطاء الدروس الخصوصية ، ومن هذا الدخل كان يعول أسرة كبيرة . وماتت إبنة له فى ريعان الصبى ، وظهرت على ابن له ميول شريرة اقتضت إرساله إلى إصلاحية للأحداث ، أما زوجته فكانت أمية عديمة الكفاية ، فكان على فيكو أن يكون الأب والأم والمعلم جميعاً[٩٩] . وفى وسط هذة الشواغل المشتته للفكر كتب فلسفته للتاريخ .

وقد قدم كتابه « مبادىء علم جديد فى الطبيعة المشتركة للأمم » (١٧٢٥) ، وحاول إن يجد فى فوضى التاريخ انتظامات من التعاقب قد تنــير الماضى والحاضر والمستقبل . ورأى فيكو أن فى استطاعته أن يتبين ثلاث فترات رئيسية فى تاريخ كل شعب :

(١) عصر الأرباب الذى إعتقدت فيه الأمم (غير اليهود) انها تعيش فى ظل حكومات إلهيــة ، وان كل شىء كان بأمر الأرباب عن طريق التكهن والوحى .

(٢) عصر الأبطال حين كانوا يسيطرون على جمهوريات ارستقراطية ، بحكم تفوق فى طبيعتهم اعتقدوا أنهم يمتازون به على للعامه ه

(٣) عصر البشر ، وفيه أقر الجميع بأنهم متساوون فى الطبيعة البشرية فأقاموا أولى الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات[١٠٠] .

وقد طبق فيكو الفترة الأولى على التاريخ (الأممى واللاديني) (غير الكتابي) ، فما كان فى استطاعته أن يقول إن يهود العهد القديم إنما « اعتقدوا أنهم) يعيشون فى ظل حكومات إلهية » دون المساس بالتقاليد المقدسة . ولما كان ديوان التفتيش (وهو فى نابولى أشد صرامة منه فى شمال ايطاليا) قد حاكم باحثين نابوليين لأنهم تكلموا على بشر وجدوا قبل آدم، فإن فيكو وفق بجهد بين صيغته وبين سفر التكوين بالافتراض بأن جميع ذرارى آدم ، إلا اليهود ، قد ارتدوا بعد الطوفان إلى حالة أقرب إلى الوحشية فسكنوا الكهوف وتسافدوا دون تمييز فى شيوعية نساء . ومن (حالة الطبيعة) الثانية هذه تطورات الحضارة بطريق الأسرة والزراعة والملكية والأخلاق والدين . وكان يذكر الدين أحيانا على أنه طريقه أرواحية (لتفسير الأشياء والأحداث) وأحيانا يشيد به باعتباره قمة التطور .

ويقابل مراحل التطور الإجتماعى الثلاث ، ثلاث (طبائع) أو طرق لتفسير الكون : اللاهوتية ، والأسطورية والعقلية .

كانت الطبيعة الأولى ، بحكم خداع الخيال (وهو أقوى ما يكون فى أضعف الناس قدرة على التدليل العقلى) ، طبيعة شعرية أو ابداعية ، قد نسميها على سبيل التجوز إلهية ، لأنها تصورت الأشياء المادية على أنها تحيا بقوة الآلهة . . . وكان الناس نتيجة لخطأ خيالهم هذا يخافون خوفاً رهيباً من الأرباب التى خلقوها هم أنفسهم . . . . أما الطبيعة الثانية فهى الطبيعة البطولية ، فقد اعتقد الأبطال أنهم من أصل إلهى . . . . وأما الثالثة فالطبيعة (الطريقة) البشرية ، طبيعة ذكية . ومن ثم متواضعة ، معتدلة، منطقية ، تسلم بأن الضمير والعقل والواجب كلها نواميس[١٠١] » .

وقد حاول فيكو أن يفسح لتاريخ اللغة والأدب والقانون والحكومة

سكاناً ملائماً فى هذا النظام الثلاثى. ففى المرحلة الأولى كان الناس يتواصلون بالإشارات والإيماءات، وفى الثانية بالرموز والتشبيهات والصور ، وفى الثالثة نـ بالكلمات التى اتفق عليها القوم . . . ليحددوا بهذا معنى القوانين . ومر القانون نفسه بتطور مقابل لهذا : فكان أول الأمر إلهياً ؛ منزلا كما كان الحال فى ناموس موسى ، ثم بطولياً كقانون ليكورجوس ، ثم بشريا — أملاه العقل البشرى المكتمل النمو[١٠٢] كذلك مرت الحكومة بثلاث مراحل: التيوقراطية ؛ وفيها زعم الحكام أنهم صوت الله ، والارستقراطية ،وفيها اقتصرت جميع الحقوق المدنية على طبقة الأبطال الحاكمة ، والبشرية ، وفيها يعتبر الجميع سواء أمام القوانين . . . ، وهذه هى الحال فى المدن الشعبية الحرة . . . وكذلك فى الملكيات التى تجعل جميع رعاياها سواء أمام قوانينهم[١٠٣] . وواضح أن فيكو استعـــاد تلخيص أفلاطون للتطور السياسى من الملكية إلى الإرستقراطية إلى الديمقراطية إلى الدكتاتورية (حكم الطغاة) ، ولكنه غير الصيغة لتقرأ : تيوقراطية وارستقراطية،وديمقراطية، وملكية . وقد اتفق مع أفلاطون فى أن الديمقراطية تنزع إلى الفوضى ، واعتبر حكم الرجل الواحد علاجاً ضرورياً للخلل الديمقراطى ، « أن الملكيات هى الحكومات النهائية ، . . التى تصل إليها الأمم لتستريح[١٠٤] .

وقد ينبعث الخلل الإجتماعى من التدهور الخلقى ، أو الترف ، أوتركيز الثروة تركيزاً يمزق الأمة ، أو الحسد العدوانى بين الفقراء . ومثل هذا الخلل يفضى عادة إلى الدكتاتورية ، كما نرى فى حكم أوغسطس الذى كان فيه الشفاء من الفوضى الديمقراطية فى الجمهورية الرومانية . فإذا عجزت حتى الدكتاتورية عن وقف الإنحلال ، فان أمة أشـــد قوة وعنفواناً تدخل فاتحة للبلاد .

« وإذا كان الناس الذين بلغ منهم الفساد هذا المبلغ قد انقلبوا عبيداً لشهواتهم الجامحة . . . فإن العناية الآلهية تقضى بأن يصيروا عبيداً بحكم القانون الطبيعى للأمم ، . . . فيستعبدوا لأمم أفضل منهم يحكمونهم بعد أن يغلبوهم كما يحكم الغالب الأقاليم الخاضعة له . . . وهنا يسطع ضوءان عظيمان من أضواء النظام الطبيعى . أولها أن من يعجز عن حكم نفسه يجب

أن يدع القادر على حكمه أن يحكمه ، والآخر أن العالم يحكمه دائماً من هم بالطبيعة أصلح الحاكمين[١٠٦] .

وفى مثل هذه الحالات يرتد الشعب المغلوب إلى مرحله التطور التى وصل إليها غالبوه . وهكذا إرتد سكان الإمبراطورية الرومانية إلى الهمجية والتخلف بعد غزوات الشعوب الهمجية واضطروا إلى أن يبدأوا بالتيوقراطية (حكم الكهنه واللاهوت) ؛ وتلك كانت العصور المظلمة . ثم جاء عصر بطولة آخر بمجىء الحروب الصليبية ؛ وأمراء الأقطاع يقابلون إبطال هومر . ودانتى هو هومر مكرراً .

ونسمع فى ڤيكو أصداء للنظرية التى تزعم أن التاريخ تكرار دائر ، ولقانون مكيافللى « corsi e ricorsi التطور والتقهقر » وفكرة التقدم تضار فى هــذا التحليل ، فليس التقدم الأنصف حركة دورية نصفها الأخر الانحلال ؛ والتاريخ ، شأنه شأن الحياة ، هــو تطور وإنحلال فى تعاقب وحتمية لا محيص عنهما .

وقدم ڤيكو فى الطريق إلماعات مدهشه . فقد رد الكثيرين من أبطال الاساطير الــكلاسيكية إلى الأسماء البعدية eponyms والتشخيصات التالية لعمليات ظلت طويلا لاشخصيه أو متعددة الشخصيات ، فأورفيوس مثلا كان المدمج الوهمى لموسيقيين بدائيين كثيرين ، وليكورجوس كان التجسيد لسلسلة القوانين والعادات التى جمدت اسبرطة ، وروملس كان ألف رجل جعلوا من روما دولة . [١٠٧] وبالمثل رد ڤيكو هومر إلى الخرافة ، مدللا على ذلك — قبــل كتاب فريدريك ڤولف « مقدمات نقدية لهومر (١٧٩٥) بنصف قرن — بأن الملاحم الهومرية إنمــا هى حصيلة تجمعت وادمجت شيئاً فشيئا لجماعات وأجيال من رواة الملاحم الذين كانوا ينشدون بطولات طرواده وأوديسيوس فى مدن اليونان [١٠٨] . وقبــل قرن تقريباً من صدور كتاب بارتهولد نيبور « تاريخ روما » (١٨١١ — ٣٢) رفض فيكو الفصول الأولى من تاريخ ليفى لأنها أسطورية . « كل تواريخ

الأمم غير اليهوديه كان لهـــا بدايات خرافية[١٠٩] » (وهنا أيضاً يتجنب ڤيكو فى حذر أن يمس تاريخية سفر التكوين) .

وهذا الكتاب الخطير يكشف عن عقل قـسوى تزعجه المضايقات المتصلة ، يكافح لصياغة أفكار أساسيه دون أن يقضى به المسير إلى سجن من سجون ديوان التفتيش . وقد بذل فيكو قصاراه المرة بعد المرة ليعلن ولاءه للكنيسة وأحس أنه جدير بثناء الكنيسة لتفسيره مبادىء القانون بطريقة تتفق واللاهوت الكاثوليكى[١١٠] . ونحن نسمع نغمة أكثر إخلاصا فى رأيه فى الدين دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والفضلية الشخصية : « أن للأديان دون غيرها القوة على جعل الناس يعملون الأعمال الفاضله[١١١]...» ومع ذلك ، ورغم تكرار استعماله للفظ « العناية الألهيه » ، يبدو انه يبعد الله عن التاريخ ويرد الأحداث إلى التفاعل الحربين الأسباب والنتائج الطبيعية. وقد هاجم دارس دومنيكى فلسفة ڤيكو لأنها ليست مسيحية بل لوكريتيه .

ولعل العلمانية المنبعثه من تحليل ڤيكو كان لها بعض الصله بأخفاقها فى أن تظفر بالأسماع إليها فى أيطاليا ، وما من شك فى أن ما شاب عمله من استطراد فوضوى وعاب فكره من اختلاط قد قضى على «علمه الجديد» ، بأن يولد ميتا وأن تكون ولادته مؤلمة . فلم يوافقه أحد على إعتقاده بأنه كتب كتابا عميقا أو مثيراً . وعبثا نأشد جان لكلير ولو ليذكره فى دورية « أخبار عالم الأدب » ، وبعد عشر سنوات من ظهور كتاب العلم الجديد خف شارل الرابع لنجدة ڤيكو ، فعينه مؤرخا رسميا للملك براتب سنوى قدره مائة دوقاتية . وفى ١٧٤١ قرت عين جامباتستا برؤية ولده جنارو يخلفه أستاذا فى جامعة نابلى . وفى سنواته الأخيره (١٧٤٣ — ٤٤) ضعف عقله فتردى فى غيبية أشرفت على الجنون .

وكان فى مكتبة مونتسيكو نسخه من كتابه[١١٢] ، وقد أقر الفيلسوف الفرنسى فى هوامش مذكرات خاصه بدينه لنظرية فيكو فى التطور والأنحلال الدورى ، ويظهر هــذا الدين الذى لم يفصح عنه فى كتاب مونتسيكو « عظمة الرومان وإنحطاطهم » (١٧٣٤) . وفيما عدا هذا ظل فيكو مجهولا

فى فرنسا حتى نشر جول ميشليه (١٨٢٧) ترجمة مختصرة لكتاب العلم الجديد . وقد وصف ميشليه أيطاليا بأنها « الأم الثانيه والحاضنه التى غذتنى فى صباى بفرجل ، وفى شبابى بفيكو[١١٣] » . وفى ١٨٢٦ بدأ أوجست كونت المحاضرات التى أصبحت فيما بعد « مجموعة محاضرات فى الفلسفه الوضعية » (١٨٣٠ - ٤٢) ، وفيها يشعر القارىء بتأثير فيكو فى كل خطوة .

أما الأنصاف الكامل لفيكو فلم يأت إلا على يد رجل نابولى هو بنديتو كروتشى[١١٤] ، الذى ألمع هــو الآخر إلى أن التاريخ يجب أن يتخذ مكانه إلى جوار العلم أساساً ومدخلا للفلسفة .

جـ — موسيقى نابلى

تليت نابلى قول فيثانورس ، قرأت أن الموسيقى أرفــع ضروب الفلسفه . وقد كتب لالاند ، الفلكى الفرنسى ، بعد جولة فى أيطاليا فى ١٧٦٥ — ٦٦ يقول :

« إن الموسيقى هى الأنتصار الأعظم للنابوليين ، وكأن أغشية طبلة الأذن فى ذلك البلد أشد توترا وتناغما ورنينا منها فى أى بلد آخر فى أوربا . فالأمه كلها تغنى . وإيماءات الجسد ، والنبرة ، والصوت ، وإيقاع المقاطع بل والحديث نفسه . . كلها تتنفس الموسيقى . ومن ثم كانت نابلى المصدر الرئيسى للموسيقى الايطاليه ، ولكبار الملحنين ، وللأوبرات الممتازة ، ففيها أخرج كوريللى وفنتشى وريناالدو وجوميللى ودورانتى وليو وبرجولزى . . . وكثير غيرهم من أعلام الملحنين روائعهم[١١٥] » .

على أن نابلى تفوقت فى الأوبرا الألحان الصوتيه فقط ، أما فى الموسيقى الآليه فقد عقدت الزعامة للبندقية ، وشكا هواة الموسيقى من أن أهل نابلى أحبوا جيل الصوت أكثر من لطائف الهارمونى (التوافق) والكونترابنط . هنا ملك نيكولو بورپورا ، « الذى ربما كان أعظم من عاش من معلمى الغناء[١١٦] » . وكان كل شاد أيطالى يصبو إلى أن يكون تلميذه ، فإذا قبله

احتمل فى ذلة شذوذاته العاتية ، روى أنه أبقى جايتانو كفاريللى خمس سنوات فى صفحه تمارين واحدة ، ثم صرفه مؤكدا له أنه الآن أعظم المغنين فى أوربا[١١٧] . وكان هناك معلم غناء آخر يدعى فرانشيسكو دورانتى ، لم يفوقه مرتبة غير يوربورو ، وقد علم الغناء لفنتشى ، وجومللى ، ويرجوليزى ، وبايزيللو ، ويتشينى .

أما ليونارد وفنتشى فقد بدأ معوقا بسبب أسمه ، ولكنه ظفر بالغناء المبكر بتلحينه أوبرا متاستازيو Didone abbandonate. وقال الجاروتى « أن فرجل نفسه كان يبهجه أن يسمع تلحينا فيه هذه الحيويه وهذا التعذيب ؛ تهجم فيه على القلب والروح كل قـوى الموسيقى[١١٨] » . وأشهر منه ليوناردو ليو ، فى الأوبرا الجادة والهازله ، والاوراتوربو ، والقداسات والموتيتات ، وقد ترددت نابلى فترة بين الضحك على أوبراه الكوميديه La finta Fracastana (الضجة المفتعلة) والبكاء على لحن Miserere (ارحمنى) الذى لحنه لخدمات الصوم الكبير فى ١٧٤٤ .

وحين استمع ليو حوالى عام ١٧٣٥ إلى كنتاتا من تلحين نيكولو جوميللى قال فى عجب « لن يمض طويل زمن حتى يغدو هذا الفتى محط عجب أوربا واعجابها . . »[١١٩] وقد حقق جوميللى النبؤة تقريباً . فى الثالثة والعشرين من عمره ظفر باطراء نابلى الحماسى على أوبراه الأولى ، وفى السادسة والعشرين حقق نصرا مماثلا فى روما . وحين مضى إلى بولونيا قدم نفسه على أنه تلميذ لبادرى مارتينى ، ولكن حين سمعه ذلك المعلم المبجل يرتجل فوجيه بكل تطورها الكلاسيكى صاح « إذن فمن أنت ؟ أتراك تسخر منى ؟ إننى أنا الذى يجب أن يتعلم منك »[١٢٠] . وفى البندقية أثارت أوبراته من الحماسة ما حمل مجلس العشرة على تعيينه مديرا للموسيقى فى مدرسة ذوى الأمراض المستعصية ، وهناك كتب قطعا من أفضل موسيقى ذلك الجيل الدينية . وحين انتقل إلى فيينا (١٧٤٨) أخذ يلحن مع متاستازيو الذى ارتبط معه برباط صداقة وثيقة . وبعد أن حقق مزيدا من الانتصارات فى البندقية وروما استقر فى شتوتجارت ولودفجسبرج

(١٧٥٣ — ٦٨) رئيساً لفرقة مرتلى دوق فورتمبرج . وهنا عدل أساوبه الأوبرالى فى اتجاه ألمانى ، فزاد من توافقه تركيبا ، واضفى مزيداً من المادة والثقل لموسيقاه الآلية ، وتخلى عن تكرار الألحان من البداية da capo وأضاف مصاحبة أوكستراليه للسرديات وأحل الباليه محلا بارزا فى أوبراته ، ربما متأثرا بجان جورج نوفير ، أستاذ الباليه الفرنسى فى شتوتجارت ، وقد مهدت هــذه التطورات فى موسيقى جوميللى ، إلى حد ما ، لاصلاحات جلوك .

فلما عاد الملحن المسن إلى نابلى (١٧٦٨) أنكر الجمهور ميوله التيوتونية ، ورفضوا أوبراته رفضا باتا . وقد قال موتسارت بعد أن سمع إحداها هناك فى ١٧٧٠ — « إنها جميلة ، ولكن أسلوبها أرفع وأقدم ممـا يحتمله المسرح » ، (١٢١) ولقى جوميللى حظا أفضل بموسيقاه الكنسية . فرتلت موسيقى لحن « ارحمنى » و « قداسة للموتى » فى العالم الكاثوليكى طولا وعرضا . وقد كتب وليم بكفورد بعد استماعه إلى القداس يرتل فى لشبونه فى ١٧٨٧ « لم أسمع قط ولعلى لن أسمع ثانية مثل هذه الموسيقى المهيبة المؤثرة » . (١٢٢) واعتزل جوميللى فى بلدته أفرسا بعد أن ادخر لمستقبله بحرص تيوتونى ، وأنفق سنواته الأخيرة شيخا بدينا ثريا . وفى ١٧٧٤ شيع جثمانه جميع موسيقيى نابلى البارزين .

ولقد ضحكت نابلى أكثر حتى مما غنت . فبأوبرا كوميدية غــزا برجوليزى باريس بعد أن أبت تلك المدينة المستكبرة دون سائر العواصم الأوربية أن تخضع لأوبرا إيطاليا الجادة . ولم يخض جوفانى باتستا برجوليزى تلك المعوكة بشخصه ، لأنه مات فى ١٧٣٦ فى السادسة والعشرين من عمره . وقد ولد بقرب أنكونا ، ووفد على نابلى وهو فى السادسة عشرة . وما أن بلغ الثانية والعشرين حتى كان قد كتب عدة أوبرات ، وثلاثين صوناتا ، وقد اسين ، حظيت كلها بالاعجاب الشديد ، وفى ١٧٣٣ قدم أوبرا تسمى il prigioniero « السجين » وقدم لها بمقدمة « الخادمة التى تنقلب ســيدة البيت : والنص قصة مرحة تحكى كيف تحتالى الخادمة سربينا على سيدها

حتى يتزوجها ، أما الموسيقى فساعة حافلة بالمرح والألحان الرشيقة . وقد أسلفنا كيف أسر هذا المرح البارع مزاج باريس وقلبها فى « حرب المهرجين » فى ١٧٥٢ ، التى عرضت فى الأوبرا مائة مرة ، ثم ستا وتسعين مرة أخرى فى ١٧٥٣ فى التياتر فرانسيه . وقاد برجولزى أثناء ذلك أوبراه « الأولمبياد » فى روما (١٧٣٥) ، فقوبلت بعاصفة من صفير الاستهجان ، وببرتقالة صوبت بدقة على رأس الملحن . [١٢٣] وبعد سنة ذهب إلى بوتسرولى ليعالج من اصابته بالسل . الذى ازداد فداحة من جراء أسلوب حياته الخليع . وقد كفر موته الباكر عن آثامه ، ودفنه فى الكتدرائية المحلية الرهبان الكبوشيون الذين أنفق معهم أيامه الأخيرة . أما روما التى ندمت على فعلتها فقد بعثت « الأولمبياد » من جديد ، وصفقت لها فى طرب شديد ، واليوم تحفظ له إيطاليا ذكرى مجيدة لا لفواصله المرحة بقدر ما تحفظها له لرقة العاطفة فى « آلام العذراء » التى لم يعش ليكملها . وقد جعل برجولزى نفسه موضوعا لأوبراوين .

وقد أصاب دومنيكو سكاربوتى ما أصاب برجولزى من مبالغة طفيفة نفختها فيه رياح الذوق ، ولكن من ذا الذى يستطيع مقاومة تألق براعته وخفة يده ؛ ولد فى عام العجائب ، عام هندل وباخ (١٦٨٥) ، وكان الطفل السادس لألساندرو سكارلاتى ، الذى كان آنئذ فردى الأوبرا الإيطالية . وقد تنفس الموسيقى منذ ولد . فقد كان أخوه بييترو ، وابن عمه جوزيبى ، وعماه فرانشيسكو وتومازو موسيقيين . وكانت أوبرات جوزيبى تخرج فى نابلى وروما وتورين والبندقية وفيينا . وخشى الأب أن تختنق عبقرية الفتى دومنيكو بهذه الوفرة فى المواهب فبعث به إلى البندقية وهو فى العشرين وقال ، ان ابنى هذا نسر كبر جناحاه ، فيجب ألا يبقى فى العش ، وعلى ألا أعطل طيرانه [١٢٤] .

وفى البندقية واصل الشاب دراساته والتقى بهندل . ولعلهما قصدا روما معا حيث دخلا بتحريض من الكردينال أوتوبونى فى مباراة ودية على الهاربسكورد ثم على الأرغن . وكان دومنيكو يومها أفضل عازف على

الهاريسكورد فى إيطاليا ، ولكن يروى أن هندل لم يكن دونه مهارة عليه ، أما على الأرغن فإن سكارلاتى اعترف بصراحة بتفوق « السكسونى العزيز » عليه . وتوثقت الصداقة بين الرجلين ، وهذا أمر عسير جدا على كبار الممارسين لفن واحد ، ولكن يقول معاصر لهما أن « دومنيكو كان صاحب طبع غاية فى اللطف وسلوك غاية فى النبل »[١٢٥] . أما هندل فكان قلبه كبيرا كهيكله . ومنع الإيطالى تواضعه وحياؤه من عرض براعته فى العزف على الهاريسكورد أمام الجماهير . ونحن نعرفها من أخبار السهرات الموسيقية الخاصة فقط . وقد خيل لأحد سامعيه فى روما (١٧١٤) « أن عشرة آلاف شيطان كانوا يعزفون على الآلة » إذ لم يسمع قط من قبل « مثل هذه الفقرات تنفيذا وتأثيرا »[١٢٦] وكان سكارلاتى أول من طور امكانات لوحة مفاتيح اليد اليسرى بما فى ذلك إمرارها فوق اليد اليمنى . قال « ان الطبيعة منحتنى عشرة أصابع ، وبما أن آلتى تتيح تشغيلها جميعا ، فلست أرى سبباً فى ألا استعملها »[١٢٧] .

وفى ١٧٠٩ قبل وظيفة « مايسترو دى كابللا » لملكة بولندة السابقة ماريا كازيميرا . ذلك أنها بعد موت زوجها جان سوبيكى نفيت لاعتبارها دساسة مثيرة للقلاقل . فلما قدمت إلى روما فى ١٦٩٩ صممت على إنشاء ندوة تحفل بالعبقريات كصالون كرستينا ملكة السويد التى ماتت قبل ذلك بعشر سنين . فجمعت الكثير من رواد صالون كرستينا السابقين فى قصر على ميدان « ترينيتا دى مونتى » وفيهم عدة أعضاء فى الأكاديمية الأركادية . وهناك (١٧٠٩ — ١٤) أخرج سكارلاتى عدة أوبرات . ولما شجعه نجاحها ، قدم « أمليتو » (هاملت) على مسرح الكابرانيكو . ولم تلق قبولا حسناً من الجمهور ، ولم يعد دومنيكو بعدها قط لتقديم أوبرا لجمهور إيطالى . فلعله وضع أبوه مستوى للأوبرا كان أعلى من أن يدركه .

وظل أربع سنين (١٧١٥ — ١٩) يقود الكابيلا جوليا بالفاتيكان ، ويعزف الأرغن فى كتدرائية القديس بطرس ؛ ثم لحن الآن « آلام العذراء » التى حكم الجمهور عليها بأنها « رائعة أصيلة »[١٢٨] وفى ١٧١٩ ، قاد أوبراه

« نار تشيزو » فى لندن . ثم نجده بعد عامين فى لشبونة قائداً لفرقة المنشدين للملك يوحنا الخامس ومعلما لإبنة الملك ماريا بربارة ، التى أصبحت بفضل تعليمه عازفة ماهرة على الهاريسكورد ، ومعظم صوناتاته الباقية ألفهـا لاستعمالها . فلما عاد إلى نابلى (١٧٢٥) تزوج وهو فى الثامنة والأربعين بماريا جنتيلى التى لم تتجاوز السادسة عشرة ، وفى ١٧٢٩ اصطحبها إلى مدريد . فى تلك السنة تزوجت ماريا بربارة من فرديناند ، ولى عهد أسبانيا . فلما انتقلت معه إلى إشبيليه رافقها سكارلاتى وظل فى خدمتها إلى أن ماتت .

وماتت زوجة سكارلاتى فى ١٧٣٩ مخلفة له خمسة أطفال . وتزوج ثانية ، وسرعان ماأصبح الخمسة تسعة . فلما اصبحت ماريا بربارة ملكةعلى أسبانيا (١٧٤٦) جلبت أسرة سكارلاتى معها إلى مدريد . وكان فارنيللى الموسيقى الأثير لدى الملك والملكة ، ولكن المغنى والعازف أصبحا صديقين حميمين . وكانت وظيفة سكارلاتى وظيفة خادم مميز ، يمد البلاط الأسبانى بالموسيقى . وحصل على إذن بالذهاب إلى دبلن فى ١٧٤٠ وإلى لندن فى ١٧٤١ ، ولكنه كان أكثر الوقت يعيش فى قناعة هادئة بمدريد أو قربها ، متوارياً عن العالم تقريباً ، لا يخامره الظن على الأرجح بأنه سيكون أثيراً لدى عازفى البيان فى القرن العشرين .

ولم ينشر سكارلاتى فى حياته سوى ثلاثين صوناتا من بين ٥٥٥ صوناتا تستند الآن إليها شهرته استناداً قلقاً بفضل حلياتها النغمية . وقد دل عنوانها المتواضع (تمارين على الهاريسكورد) على هدفها المحدود ، وهو ارتياد إمكانات التعبير بتقنية الهاريسكورد . وهى ليست صوناتات إلا بالمعنى الأقدم للفظ ، أى قطع آلية « تعزف » ولا تغنى . ولبعضها موضوعات متعارضة ، وبعضها تزاوج فى مقامات كبيرة وصغيرة ، ولكنها كلها فى حركات مفردة لم تبذل فيها أى محاولة لتفصيل الموضوع وتلخيصه . وهى تمثل تحرر موسيقى الهاريسكورد من تأثير الأرغن ، وتلقى التأثيرات من الأوبرا بمؤلفات للوحة المفاتيح . وقد تفوقت على حيوية أصوات السوبرانو والمغنين الخصيان ورقتها ورعشاتها وحيلها بالأصابع الخفيفة الرشيقة الطيعة لخيال لعوب مسرف .

لقد « لعب » سكارلاتى الهاريسكورد بمعنى الكلمة الحرفى . يقول فى هذا : « لا تتوقعوا أى عمق فى العلم ، بل معابثة بارعة بالفن » (١٢٩) . وهناك أثر فى الرقص الأسبانى وما فيه من أرجل طافرة وتنورات مدومة وصاجات رنانة تحسه فى هذه التموجات والتدفقات ؛ وفى كل موضع من الصوناتات تجد استسلام العازف للذة التحكم فى آلته (١٣٠) .

ولا بد أن هذا الفرح بالآلة كان من بواعث السلوى لسكارلاتى فى سنوات خدمته تلك فى أسبانيا . وقد نافسته لذة لعب الميسر الذى أتى على الكثير من معاشه ، واضطرت الملكة إلى سداد ديونه غير مرة . ثم ساءت صحته بعد ١٧٥١ ، وزادت تقواه وورعه . وفى ١٧٥٤ عاد إلى نابلى ومات فيها بعد ثلاث سنين . وتولى فارنيللى الطبيب إعالة اسرته المعوزة .

وقد أرجأنا الكلام على سيرة فارنيللى الغريبة فى أسبانيا حتى فصل لاحق . وقد كان هو ودومنيكو سكارلاتى ، وجامباتستا ودومنيكو تيبولو ، من الإيطاليين الموهوبين الذين كان لهم الفضل ، هم ومنجز المتطلين تقريبا ، فى استخدام الموسيقى والفن الإيطالين فى البعث الأسبانى . وفى ١٧٥٩ لحق بهم ملك نابلى أو سبقهم . ففى ذلك العام مات فرديناند السادس دون عقب ، وورث أخوه شارل الرابع ملك نابلى العرش الأسبانى باسم شارل الثالث . وأسفت نابلى على رحيله عنها . وكان هذا الرحيل فى أسطول من ست عشرة سفينة يوم عطلة حزينة لأهل نابلى ، فاجتمعوا فى حشود كبيرة بطول الشاطئ ليشاهدوه وهو يقلع ، ويروى أن كثيرين منهم بكوا وهم يودعون « ملكاً أثبت أنه أب لشعبه » (١٣١) . وقد كتب له أن يتوج أعمـــاله يبث الشباب فى حياة أسبانيا .

الفصل العاشر

البرتغال وبومبال ١٧٠٦ — ٨٢

١ — يوحنا الخامس : ١٧٠٦— ٥٠

لم اضمحلت البرتغال بعد أيامها المجيدة التى أنجبت ماجلان وفاسكو داجاما وكاموئيس ؟ لقد كان فى جسدها وروحها يوما ما من الهمة ما يكفى لإرتياد نصف الكرة وانشاء المستعمرات الجريئة فى ماديرا ، والأزور، وأمريكا الجنوبية ، وافريقيا ، ومدغشقر ، والهند وملقا ، وسومطرة : أما الآن ، فى القرن الثامن عشر ، فقد باتت نتوءاً ضئيلا لأوربا ، مقيدة إلى انجلترة فى التجارة والحرب ، ويغذيها ذهب البرازيل وماسها اللذان يصلان إليها بإذن الأسطول البريطانى . فهل أنهكت قواها لفرط ما قدمت من الرجال البواسل لتملك هذا العدد العديد من المخافر الأمامية القلقة التوازن على أطراف المعمورة ؟ أم لعل تدفق الذهب عليها نزح الحديد من عروقها وأوهن طبقاتها الحاكمة فانتكست من حياة الأقدام والمغامرة إلى حياة اللين والدعة ؟

أجل ، لابل أنه أوهن من قوة الصناعة أيضاً . فأى جدوى فى محاولة تبذلها لتنافس مهرة الصناع أو ملتزمى الصناعة الإنجليز أو الهولنديين أو الفرنسيين فى الحرف أو الصناعات ، ما دام فى طاقتها شراء ما تستورده من الكساء والغذاء وأسباب الترف والنعيم بالذهب المستورد ؟ فأما الأغنياء اللذين يتاجرون بالذهب فقد أصبحوا أكثر غنى ، وازادوا فخامة ملبس وبهاء زينة ، وأما الفقراء الذين حيل بينهم وبين ذلك الذهب نقد ظلوا يترددون فى فقرهم لايحثهم على الكد والعرق غير حافز الجوع . وأدخل

تشغيل الرقيق فى مزارع كثيرة ، وملأ المتسولون المدن ضجيجا بصيحاتهم. وقد كتب عنهم وليم بكفورد حين سمعهم فى ١٧٨٧ بقول « ليس بين الشحاذين قاطبة من يضارع شحاذى البرتغال قوة رثات ، ووفرة قروح ، وكثرة حشرات ، وتنوع أسماك ، وترتيب خرق ، ومثابرة لانهاب .. أن عددهم لايحصى ، عمى ، صم ، جرب[1] » .

ولم تكن لشبونة يومها هذه المدينة الجميلة التى نعهدها اليوم . لقد كانت الكنائس والأديرة غاية فى البهاء ، وقصور النبلاء فسيحة ضخمة ، ولكن نسبة لاتقل عن عشر السكان بغير مأوى ، وكانت الأزقة الملتوية تفوح منها رائحة القمامة والقذارة[2] . ومع ذلك فهنا ، كما فى سائر بلاد الجنوب ، عوض الفقر بأسباب العزاء من الأيام المشمسة ، والأمسيات المزدانة بالنجوم ، والموسيقى ، والدين ، والنساء المتدينات ذوات العيون التى تعذب الناظرين . وكان القوم يتدفقون فى الشوارع بعد أن تخف وقدوة القيظ لايعوقهم لدغ البراغيث فى أجسامهم ولا طنين البعوض فى الهواء ، فيرقصون ويغنون ويعزفون على القيائر ويقتتلون للفوز بابتسامة من عذراء .

وكانت المعاهدات (١٦٥٤ ، ١٦٦٢ ، ١٧٠٣) قد قيدت البرتغال بانجلترة فى تكافل عجيب حالف بينهما فى الاقتصاد والسياسة الخارجية وابقاهما فى الوقت نفسه أشد ماتكونان تبايناً فى العادات وخصومة فى العقيدة. وتعهدت انجلترة بحماية استقلال البرتغال والسماح باستيراد النبيذ البرتغالى (البورت من أوبورتو) برسم جمركى مخفض جداً . أما البرتغال فتعهدت بالسماح باستيراد المنسوجات الانجليزية معفاة من الرسوم ، وبالوقوف فى صف انجلترة فى أى حرب تنشب . ونظر البرتغاليون إلى الانجليز على أنهم زنادقة هالكون يملكون أسطولا قوياً ، ونظر الانجليز إلى البرتغال على أنهم قوم جهلة متعصبون يملكون الموانى الاستراتيجية . وسيطر رأس المال البريطانى على الصناعة والتجارة البرتغاليتين . كتب بومبال يشكو من هذه الأوضاع فى شىء من المبالغة : —

« فى سنة ١٧٥٤ لم تكد البرتغال تنتج أى شىء يعينها على الاستكفاء .

فتلبثا الضروريات المادية تزودهما انجلترة . وغدت انجلترة السيد المتصرف في تجارتنا كلها، وكان الوكلاء الانجليز يدبرون تجارتنا الخارجية بجملتها . . فهم يملكون كل شحنات السفن المقلعة من لشبونة إلى البرازيل ، ومن ثم يملكون الثروة العائدة بديلا عن هذه الشحنات . فلم يكن شيء برتغالياً إلا بالاسم فقط[٣] » .

ومع ذلك وصل إلى يد الحكومة البرتغالية من ذهب المستعمرات وفضتها وأحجارها الكريمة ما يكفى لتمويل مصروفاتها ولجعل الملك مستقلا عن مجلس الشعب وسلطانه الضريبي . وهكذا عاش يوحنا الخامس ، طوال ملكه الذى امتد أربعة وأربعين عاماً ، يرفل فى رغــد من العيش كأنه أحد سلاطين الشرق ، ويلطف من تعدد نسائه بالثقافة ويجمله بالولاء للكنيسة . فوهب الأموال الطائلــة أو أقرضها للبابوية ، وتلقى نظير ذلك لقب « صاحب الجلالة العظيم الإيمان » بل نال حتى حق تلاوة القداس . . دون حق تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . قال فردريك الأكبر « كانت لذاته فى الوظائف الكهنوتية ، ومبانيه أديرة ، وجيوشه رهباناً وخليلاته راهبات[٤] » .

وأثرت الكنيسة بفضل هذا الملك الذى يدين لهــا بالكثير جدا من الغفرانات . فملكت نصف الأراضى[٥] ، وشغل اتباعها تسعمائة دار دينية . وبلغ عدد الكنسيين من مختلف الرتب أوالملحقين بالمؤسسات الدينية زهاء ٢٠٠,٠٠٠ فى أمة تعد مليونين من الأنفس . واختص اليسوعيون بمكان الصدارة المرموق سواء فى أرض الوطن وفى المستعمرات ، فلقد ساهموا فى الفوز بالبرازيل للبرتغال ، وكان الناس — حتى فولتير — مسرورين بإدارتهم لبارجواى ، ولقى نفر منهم الترحيب فى البلاط ، وتمكن بعضهم التسلط على الملك . وكان الملك فى موكب (عيد القربان) العظيم يحمل أحد أعمدة الظلة التى حمل تحتها بطريرك لشبونة السر المقدس . فلما تعجب الانجليز لمنظر طريق الموكب يصطف على جانبيه الجند والمصلون وكلهم عارى الرأس جاث على ركبتيه ، قيل لهم فى تفسير هذا المشهد أن مثل هذه

المراسم ، وعرض الآنية التفسية والرفات المعجز فى الكنائس ، عامل رئيسى فى حفظ النظام الاجتماعى بين الفقراء .

وكانت محاكم التفتيش خلال ذلك ساهرة على نقاء عقيدة الأمة ودمائها. وقد كبح يوحنا الخامس من سلطان هذه المؤسسة بحصوله على مرسوم من البابا بندكت الثالث عشر يسمح لسجنائها بأن يدافع عنهم المحامون ويشترط مراجعة الملك لجميع أحكامها[٦] . ومع ذلك كان لهـــذه المحكمة من النفوذ والسلطان ما مكنها من إحراق ستة وستين شخصا فى لشبونه على مدى أحد عشر عاماً (١٧٣٢ — ٤٢) من بينهم أنطونيو خوزيه دا سيلفا كبير كتاب العصر المسرحيين البرتغاليين ، الذى أتهم بأنه يضمر اليهودية . وفى يوم إعدامه (١٩ أكتوبر ١٧٣٩) مثلت احدى مسرحياته فى ملهى لشبونى[٧] .

وأحب يوحنا الخامس الموسيقى والأدب والفن . فاستقدم الممثلين الفرنسيين والموسيقيين الايطاليين إلى عاصمة ملكه . ثم انشأ أكاديمية التاريخ الملكية . ومول القناة الكبرى التى تمد لشبونة بالماء . وانفق خمسين مليونا من الفرنكتات ليشيد دير مافرا (١٧١٧ — ٣٢) ، الذى يفوق الأسكوريال سعة ، والذى ما زال من أروع ما تحويه شبه الجزيرة الأيبيرية من صروح . ورغبة فى تزيين داخل الدير استعار من أسبانيا أعظم مصورى القرن البرتغاليين .

وكان هذا المصور — فرانسسكو فيرا — البالغ آنذاك الرابعة والثمانين من عمره يمزج العشق والفن فى شاعرية إفتتنت بها البرتغال بأسرها . ولد بلشبونة فى ١٦٩٩ ، ووقع فى غرام اجنيز إيلينا دى ليما وهما بعد طفلان . وإذ كان مولعا بالتصوير أيضاً ، فقد ذهب إلى روما فى التاسعة ودرس فيها سبع سنين ، ولما بلغ الخامسة عشرة فاز بالجائزة الأولى فى مسابقة قدمتها أكاديمية القديس لوقا . وحين عاد فى ١٧١٥ اختاره يوحنا الخامس لرسم صورة « سر التناول » وروى أنه أتمها فى ستة أيام . ثم إنطلق باحثا عن أجنيز ، فرده عنها أبوها النبيل وحبس الفتاة فى دير للراهبات . فلجأ فرانسسكو إلى الملك ، ولكنه أبى أن يتدخل فى الأمر . فقصد روما وحصل على مرسوم

بابوى يلغى نذور اجنيز الديرية ويصرح بزواجه منها . ولكن السلطات البرتغالية تجاهلت المرسوم . فتنكر فرانسسكو فى زى بناء بعد أن عاد إلى لشبونه ، ودخـــل الدير وخطف حبيبته وتزوجها . فأطلق عليه أخوها الرصاص ، ولكنه شفى من إصابته وغفر لمهاجمه . وعينه يوحنا الخامس مصورا للبلاط . ولم يكتف بتكليفه تزيين دير مافرا بل وكل إليه تجميل القصور الملكية . وبعد موت اجنيز (١٧٧٥) انفق فرانسسكو ما بقى من أجله فى الأعتكاف الدينى وأعمال البر . كم من قصص كهذه تروى مغامرات الروح والدم ضاعت وراء وأجهات التاريخ ؟

٢ - بومبال واليسوعيون

مات يوحنا الخامس عام ١٧٥٠ بعد أن قضى ثمانية أعوام يعانى الشلل والعتة، وبدأ ابنه يوسف الأول (خوزيه مانويل) حكما حافلا بالأحداث فعين فى وزارته وزيراً للحرب والشئون الخارجية يدعى سباستيا وخوزيه دى كارفالو اى ميللو ، الذى يعرفه التاريخ باسم المركيز بومبال ، أعظم وأرهب من حكم البرتغال من الوزراء فى أى عهد من عهودها .

كان قد بلغ الحادية والخمسين من عمره حين ارتقى يوسف العرش . تلقى العلم على أيدى اليسوعيين فى جامعة كويمبرا ، واكتسب أول شهرته رياضياً وزعيما مشاغباً لعصابة « الموهوك » التى عاثت فساداً فى شوارع لشبونة . وفى ١٧٣٣ أغرى النبيلة دونا تريزا دى نورونها بالفرار معه . فتبرأت منها أسرتها ، ثم تبينت موهبته فأعانته على الترقى فى حرفة السياسة . وأتته زوجته بثروة صغيرة ، وورث مالا آخر من عم له . وشق طريقه بالوساطة والالحاح والكفاية الواضحة . وفى ١٧٣٩ عين وزيراً مفوضاً لدى لندن ، واعتكفت زوجته فى أحد الأديرة حيث ماتت فى ١٧٤٥ وخلال السنوات الست التى قضاها بومبال فى لندن درس الاقتصاد ونظام الحكم الانجليزيين ولحظ طاعة الكنيسة الانجلكانية للدولة ،ولعله نفض عنه بعض إيمانه الكاثوليكى . ثم عاد إلى لشبونة (١٧٤٤) ، وأوفد مبعوثاً إلى فيينا (١٧٤٥) ، وهناك تزوج

ابنة أخ للمرشال داون للذى كتب له الظفر بالخلود لأنه هزم فردريك مرة، وقد ظلت عروسه الجديدة وفية له طوال ما أحرز من انتصارات وما منى به من هزائم .

وكان يوحنا الخامس عديم الثقة به لأن له « قلباً فظاً »[٨] .ولأنه « سليل أسرة قاسية محبة للثأر »[٩] ولأن فيه القدرة على أن يتحدى ملكاً . ومع ذلك استدعى بومبال إلى أرض الوطن عام ١٧٤٩ ، ورقى إلى منصب الوزارة بفضل تأييد اليسوعيين . وثبته يوسف الأول فى وظيفته . وسرعان ما أتاح له ذكاؤه المقرون بالجد والاجتهاد أن يسيطر على الوزارة الجديدة . كتب قائم بالأعمال فرنسى يقول « يمكن اعتبار كارفالو الوزير الأول، فهو سريع البت وافر النشاط لا يعتريه كلل . ولقد كسب ثقة مولاه الملك ، ولم يظفر بها أحد أكثر منه فى جميع شئون السياسة »[١٠] .

وظهر تفوقه واضحاً جلياً فى الزلزال الكبير الذى زلزل لشبونة فى أول نوفمبر ١٧٥٥ . ذلك أنه فى الساعة ٩,٤٠ صباح عيد جميع القديسين بينما كان معظم السكان يصلون فى الكنائس ، زلزلت المدينة بهزات أربعة أحالت نصفها أنقاضاً ، وقتلت أكثر من خمسة عشر ألف شخص ، ودمرت أكثر الكنائس ، وأبقت على معظم المواخير[١١] وعلى بيت بومبال . وهرع كثير من السكان فزعاً إلى شواطئ تاجه ، ولكن موجة مد بلغ ارتفاعها خمس عشرة قدماً أغرقت مزيداً من الأنفس ، وحطمت السفن الراسية فى النهر . وحصدت الحرائق التى اندلعت فى أحياء المدينة كلها مزيداً من الأنفس . وفى غمار الفوضى التى ضربت أطنابها بدأ السفلة من الغوغاء يسرقون ويقتلون وهم آمنون . أما الملك الذى لم يفلت هو نفسه من الموت إلا بشق النفس، فقد طلب إلى وزرائه أن يشيروا عليه بما ينبغى صنعه . ويقال أن بومبال أجاب « علينا أن ندفن الموتى ونقدم الغوث للأحياء » . وأطلق يوسف يده ، واستعمل بومبال سلطته بما تميز به من همة وسرعة . فعين الجند لحفظ النظام وأقام الخيام والمعسكرات لإيواء من باتوا بغير مأوى. وأمر بأن يشنق فوراً كل من وجد يسرق الموتى . ثم حدد أسعار المؤن بمالا يزيد على أسعارها

السائدة قبل الزلزال ، وألزم جميع السفن الوافدة أن تفرغ شحناتها من الطعام وتبيعها بتلك الأسعار . وأعانه تدفق الذهب البرازيلي الذى لم ينضب ، فأشرف على إعادة بناء لشبونة سريعاً بطرق مشجرة عريضة وشوارع جيدة الرصف والإضاءة . وقلب المدينة كما نراه اليوم من صنع المعماريين والمهندسين الذين اشتغلوا تحت إشراف بومبال (١٢) .

وكان لنجاحه فى هذه الكارثة التى أضعفت معنوية الأمة الفضل فى ترسيخ قدمه فى الوزارة واضطلع الآن بعملين بعيدى الأثر : أولهما تخليص الحكم من سيطرة الكنيسة ، والآخر تحرير الاقتصاد من سيطرة بريطانيا .وتطلبت المهمتان رجلا أوتى صلابة الفولاذ إلى صفات الوطنية والإباء ومضاء العزيمة التى لا تعرف شفقة أو رحمة .

وإذا كان عداؤه للاكليريكية قد تركز على اليسوعيين فإنما السبب الأول هو أنه توجس منهم إثارة المقاومة لتملك البرتغال للأقاليم البراجوانية التى كان اليسوعيون منذ عام ١٦٠٥ ينظمون فيها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ هندى فى إحدى وثلاثين مستوطنة ، على أساس شبيه بالأنظمة الشيوعية فى خضوع شكلى لأسبانيا (١٣) . وكان الرواد من الأسبان والبرتغال قد سمعوا بوجود الذهب (الأسطورى تماماً) فى تربة براجواى ، وشكا التجار من أن الآباء اليسوعيين يحتكرون تجارة الصادر البراجوية ويضيفون الأرباح إلى أموال طائفتهم . ففى ١٧٥٠ فاوض بومبال لعقد معاهدة نزلت البرتغال بمقتضاها لأسبانيا عن مستعمرة سان سكومنتو الغنية (على مصب الريودى لابلاتا) بديلا عن سبع من المستوطنات اليسوعية المجـــاورة للحدود البرازيلية . واشترطت المعاهدة أن يهاجر الثلاثون ألف هندى المقيمون فى هذه المستوطنات إلى أقاليم أخرى ويتخلوا عن الأرض للبرتغال الوافدين . وأمر فرديناند السادس ملك أسبانيا يسوعيى باراجواى بالرحيل عن المستوطنات وبإصدار الأمر لرعاياهم بالرحيل فى هدوء . وزعم اليسوعيون أنهم امتثلوا لهذه الأوامر ، أما الهنود فقاموا فى إصرار غاضب عنيف اقتضى التغلب عليه جيشا برتغاليا ثلاث سنين . واتهم بومبال جماعة اليسوعيين بتشجيع هذه المقاومة سراً .

فعقد العزم على أن ينهى كل مشاركة لليسوعيين فى الصناعة والتجارة والحكومة البرتغالية . فلما أدرك يسوعيو البرتغال نيته تضافرت جهودهم للإطاحة به .

وكان قائدهم فى هذه الحركة جابرييل مالاجريدا ، الذى ولد بمنادجو (على بحيرة كومو) عام ١٦٨٩ ، وتميز على أقرانه فى المدرسة بما مارس من عض يديه حتى يدميهما ، وكان يقول أنه بهذه الطريقة يعد نفسه لتحمل آلام الاستشهاد . ثم التحق بجمعية اليسوعيين ، وأبحر إلى البرازيل مبعوثاً. وراح يبشر الهنود فى الأدغال بالإنجيل من ١٧٢٤ إلى ١٧٣٥ . وأفلت من الموت عدة مرات — من أكلة لحوم البشر ، ومن التماسيح ، ومن الغرق فى السفينة ، ومن المرض . وابيضت لحيته فى بواكير كهولته . ونسبت إليه قوى خارقة ، وكانت الجموع المترقبة تتبعه أينما ظهر فى مدن البرازيل . وبنى الكنائس والأديرة ، وأسس المدارس اللاهوتية . وفى ١٧٤٧ قدم على لشبونة فى طلب المال من الملك يوحنا . وحصل عليه ، ثم أبحر قافلا إلى البرازيل وأسس المزيد من البيوت الدينية ، وكثيرا ماشارك بيديه فى أعمال البناء . وفى ١٧٥٣ عاد إلى لشبونة ثانية ، لأنه كان قد وعد بأن يعد الملكة الأم للقاء ربها . وقد عزا زلزال ١٧٥٥ لخطايا الشعب ، وطالب بإصلاح الأخلاق ، وتنبأ مع غيره من أفراد طائفته بمزيد من الزلازل إن لم تنصلح الأخلاق . وأصبح بيت خلوته الدينية بؤرة للمؤامرات ضد بومبال .

وكان بعض أسر النبلاء ضالعين فى هذه المؤامرات . واحتجوا بأن ابن مالك أرض ريفى حقير قد سود نفسه على البرتغال ، وقبض على مقاليد حياتهم ومقدراتهم . وكان أحد هذه الأحزاب الأرستقراطية تحت زعامة دوم خوزيه دى ماسكارينهاس ، دوق أفيرو ، وآخر يرأسه ابن أخى الدوق وهو دوم فرانسيسكو دى أسيز ، مركيز طابوره . وكانت زوجة طابوره ، وهى المركيزة دونا ليونور ، إحدى زعيمات المجتمع البرتغالى ، تلميذة شديدة التحمس للأب مالاجريدا كثيرة التردد عليه . وكان أكبر أبنائها ، الدوم لويز برناردو ، « مركيز طابوره الأصغر » متزوجاً من عمته . فلما رحل

رحل لويز إلى الهند جنديا ، أصبحت هذه « المركيزة الصغيرة » الفاتنة الرائعة الجمال خليلة ليوسف الأول ، وهذا أيضا لم ينسه قط أل أفيرو وطابوره . وافقوا اليسوعيين صادقين على أنه لو أزيح بومبال لتحسن الموقف .

ورد بومبال باقناع يوسف بأن جمعية اليسوعيين تشجع سراً المزيد من الثورة فى بارجواى ، وأنها لاتتآمر على الوزرة فحسب بل على الملك أيضاً . ففى ١٩ سبتمبر ١٧٥٧ أقصى مرسوم ملكى عن البلاط أباء اعتراف الأسرة المالكة اليسوعيين . وأمر بومبال ابن عمه ، فرانسيسكو دى المادا أى مندونسا ، المبعوث البرتغالى لدى الفاتيكان ، بألا يضن بالمال فى سبيل تشجيع وتمويل الحزب المناوىء لليسوعيين فى روما . وفى اكتوبر قــدم المادا لبندكت الرابع عشر قائمة بالتهم الموجهة إلى اليسوعيين : اتهموا بأنهم « ضحوا بكل العهود والواجبات المسيحية ، والدينية ، والطبيعية ، والسياسية فى رغبة عمياء ... فى جعل أنفسهم سادة على الحكومة » . وبأن الجمعية مدفوعة « بشره لايشبع لإقتناء الأموال الأجنبية وتكديسها ، بل حتى لإغتصاب أملاك الملوك [١٤] » ، وفى أول ابريل ١٧٥٨ أمر البابا الكردينال دى سالدانها ، بطريرك لشبونة ، بالتحقيق فى هذه التهم . وفى ١٥ مايو نشر سالدانها مرسوما يعلن أن اليسوعيين البرتغال يمارسون التجارة . « مخالفين بذلك جميع القوانين السماوية والبشرية » ، وأمرهم بالكف عنها . وفى ٧ يونيو ، بتحريض من بومبال فى أغلب الظن ، أمرهم بالامتناع عن سماع الإعترافات أو عن الوعظ . وفى يوليو نفى رئيس يسوعى لشبونه إلى مسافة ستين فرسخا عن القصر الملكى : وخلال ذلك (٣ مايو ١٧٥٨) مات بندكت الرابع عشر ، فعين خليفته كلمنت الثالث عشر لجنة تحقيق أخرى ، قررت أن اليسوعيين براء من التهم التى رماهم بها بومبال [١٥] .

وخامر الناس بعض الشك فى أن يوسف الأول سيؤيد وزيره فى هجومه على اليسوعيين ، ولكن تحولا فجائياً فى الأحداث دفع الملك دفعاً تماماً إلى صف بومبال . ذلك أن يوسف كان فى ليلة الثالث من سبتمبر ١٧٥٨ قافلا إلى قصره القريب من بيليم من لقاء غرام سرى مع مركيزة

طابوره فى أغلب الظن[١٦] . وقبيل منتصف الليل انبعث ثلاثة رجال مقنعين من عقد قناة وأطلقو النار على المركبة دون أن يصيبوا هدفهم ، وأطلق السائق لجواده العنان ، وما هى إلا لحظة حتى انطلقت رصاصتان من كمين آخر ، وأصابت الأولى السائق والأخرى الملك فى كتفه وذراعه اليمينين . وقررت محكمة تحقيق لاحقة أن كمينا ثالثاً أعده أفراد من آل طابوره كان ينتظر المركبة على مسافة أبعد على الطريق العام إلى بيليم . ولكن يوسف أمر السائق أن يحيد عن الطريق الرئيسى ويقصد بيت جراح الملك ، الذى ضمد جراح الرجلين . ولعل الأحداث التالية التى أحدثت ضجة فى جميع أرجاء أوربا ، كانت تختلف كل الاختلاف لو نجح الكمين الثالث فى الاغتيال المبيت .

وتصرف بومبال بتدبر ودهاء . فنفيت أشاعات الهجوم رسميا ، وعزى اعتكاف الملك المؤقت إلى كبوة كباها ، وظل جواسيس الوزير ثلاثة أشهر يجمعون الأدلة . فوجدوا رجلا شهد بأن انطونيو فريرا استعار بندقية منه فى ٣ أغسطس وردها اليه فى ٨ سبتمبر . وقيل أن رجلا آخر قال أن فريرا استعار مسدسا منه فى ٣ سبتمبر ورده بعد أيام . وقال الشاهدان أن فريرا فى خدمة دوق أفيرو وشهد سلفادور دوراو ؛ وهو خادم فى بيليم ، بأنه فى ليلة الهجوم، بينما كان فى لقاء خارج بيت أفيرو ، سمع عفوا أفرادا من أسرة أفيرو عائدين من مغامرة ليلية .

وأعد بومبال لقضيته فى حيطة وجرأة . فضرب صفحاً عن الإجراء الذى يتطلبه القانون ، والذى كان سيحاكم الأشراف المشبوهين أمام محكمة من كبار النبلاء ؛ ومحكمة كهذه لن تدينهم أبدا . وبدلا من هذا ، أصدر الملك فى ٩ ديسمبر مرسومين ، وكان هذا الإصدار أول كشف علنى عن الجريمة : فعين المرسوم الأول الدكتور بدرو جونسا لفيس بريرا قاضياً يرأس محكمة خاصة بقضايا الخيانة العظمى ، وأمره الآخر بأن يميط اللثام عن المسئولين عن محاولة قتل الملك ويقبض عليهم ويعدمهم . وخول جونسا لفيس بريرا سلطة أغفال جميع الأشكال المألوفة للمحاكمات ، وأمرت المحكمة

بتنفيذ أحكامها يوم إعلانها . وأضاف بومبال إلى المراسيم بياناً رسمياً علق في جميع أرجاء المدينة ، يروى أحداث ٣ سبتمبر ، ويعد بمكافأة أى شخص يقدم الأدلة التى تعين على القبض على القتلة (١٧) .

وفى ١٣ ديسمبر قبض ١٣ موظفاً حكوميا على دوق أفيرو ، وعلى ابنه المركيز جوفيا البالغ من العمر سته عشر عاما ، وعلى خادم أنطونيو فريرا ، وعلى مركيزى طابوره الأب والابن ، وعلى مركيزة طابورة الأم ، وعلى كل خدم الأسرتين ، وعلى خمسة نبلاء آخرين . وطوق الجند فى ذلك اليوم جميع الكليات اليسوعية ، وأودع السجن مالاجريدا واثنا عشر آخرون من زعماء اليسوعين . وتعجيلا للفصل فى الأمر ، أباح مرسوم ملكى صدر فى ٢٠ ديسمبر (بخلاف ما جرى عليه للعرف فى البرتغال) استعمال التعذيب لإستخلاص الاعترافات من المتهمين . وفحص خمسون سجيناً بالتعذيب أو التهديد بالتعذيب . وورطت عدة اعترافات دوق أفيرو ، واعترف هو نفسه بذنبه تحت وطأة التعذيب ، واعترف أنطونيو فريرا أنه أطلق النار على المركبة ، ولكنه أقسم أنه لم يكن يعلم أن ضحيته المحتمل هو الملك . وتحت وطأة التعذيب عرض عدة خدم تلك الأسرة بجملتها للخطر ، واعترف المركيز الابن باشتراكه ، أما المركيز الأب الذى عذب حتى كاد يلفظ أنفاسه فقد أنكر أنه مذنب . وكان بومبـــال ذاته يحضر فحص الشهود والمسجونين . وكان قد أمر بتفتيش البريد ، فزعم الآن أنه وجد ضمنه أربعا وعشرين رسالة كتبها دوق أفيرو ، وعدة أفراد من أل طابوره . ومالاجريدا وغيره من اليسوعين ، لا حاطة أصدقائهم أو أقربائهم فى البرازيل بالمحاولة الفاشلة ، واعدينهم بمزيد من الجهود لقلب الحكومة . وفى ٤ يناير ١٧٥٩ عين الملك الدكتور أوزيبيوتافاريس دى سكوبرا للدفاع عن المتهمين . ودفع سكوبرا بأن الاعترافات التى انتزعت تحت التعذيب عديمة القيمة فى الدلالة على الجريمة ، وأن جميع النبلاء المتهمين يستطيعون اثبات غيابهم ليلة الجريمة . على أن المحكمة قضت بأن الدفاع غير مقنع . ورأت أن الرسائل المعترضة صحيحه وأنها تؤيد الاعترافات ،وفى ١٢ يناير حكمت المحكمة بأن جميع المتهمين مذنبون .

وأعدم تسعة منهم فى ١٣ يناير فى ميدان بيليم العام . وأول من تقرر إعدامه كان مركيزة طابورة الأم . فانحنى الجلاد ليوثق قدميها وهى على المقصلة فدفعته قائلة « لا تمسنى إلا لتقتلنى » [١٨] وبعد أن أكرهت على رؤية العدة التى سيموت بها زوجها وابناها — وهى دولاب التعذيب ، والمطرقة والحطب — ضرب عنقها . وحطم ولداها على الدولاب ثم شنقاً ، وظلت جثتاهما على المشنقة حين صعد إليها دوق أفيرو ومركيز طابوره الأب . وذاقا مرارة الضربات المحطمة ذاتها ، وترك الدوق ليطول عذابه حتى تم إعدام آخر المتهمين — وهو أنطونيو فريرا الذى أحرق حيا . ثم أحرقت جميع الجثث وذر رمادها فى نهر تاجه . ومازال الجدل قائما فى البرتغال حول هؤلاء النبلاء ، هل تعمدوا حقاً قتل الملك أم لا ؟ هذا مع التسليم بعدائهم لبومبال .

أكان اليسوعيون ضالعين فى تلك المحاولة ؟ لم يكن هناك شك فى أن مالاجريدا فى غضباته المضربه كان قد تنبأ بسقوط بومبال وبموت الملك وشيكا ، [١٩] ولم يكن هناك شك فى أنه هو وآخرون من اليسوعيين كانوا قد اجتمعوا مرات بأعداء الوزير من الأشراف . وكان قد دل ضمنا على علمه بمؤامرة ما بكتابته إلى إحدى نبيلات البلاط يرجوها أن تنبه يوسف إلى الحذر من خطر وشيك . فلما سئل وهو فى السجن كيف علم بهذا الخطر أجاب فى « كرسى الاعتراف » . [٢٠] وفى غير هذا (كما يقول مؤرخ من خصوم اليسوعيين) « ليس هناك دليل إيجابى يربط اليسوعيين بهذا الاعتداء » [٢]. ولكن بومبال اتهمهم بإثارة حلفائهم بوعظهم وتعاليمهم إثارة دفعتهم إلى محاولة الاغتيال . وأقنع الملك أن الموقف يتيح للملكية الفرصة لتعزيز قوتها إزاء الكنيسة . وعليه ففى ١٩ يناير أصدر يوسف مراسيم بضم جميع ممتلكات اليسوعيين فى المملكة ، وبإلزام جميع اليسوعيين بيوتهم أو مدارسهم حتى يفصل البابا فى التهم الموجهة إليهم . واستعمل بومبال أثناء ذلك مطبعة الحكومة ليطبع — ويوزع عماله على نطاق واسع فى الداخل والخارج — كراسات تبسط الحجج التى تدين الأشراف واليسوعيين ، وكانت هذه فيما يبدو أول مرة استخدمت فيها حكومة من الحكومات المطبعة

لتفسر تصرفاتها للأمم الأخرى . وربما كان لهذه المنشورات بعض الأثر فى المعاونة على طرد اليسوعيين من فرنسا وأسبانيا .

وفى صيف ١٧٥٩ استأذن بومبال كلمنت الثالث عشر فى تقديم اليسوعيين المعتقلين للمحاكمة أمام محكمة الخيانة العظمى ، وزاد بالاقتراح بأن يحاكم جميع الكنسيين المتهمين بجرائم ضد الدولة ، منذ الآن ، أمام محاكمة مدنية لاكنسية . وصرحت رسالة شخصية من يوسف إلى البابا بعزم الملك على طرد اليسوعيين من البرتغال ، وأعربت عن الأمل فى أن يوافق البابا على هذا الإجراء بإعتباره إجراء تبرره تصرفاتهم ، وضروريا لحماية الملكية . وصدمت هذه الرسائل كلمنت ، ولكنه خشى أن قاومها صراحة أن يقنع بومبال الملك بقطع الصلات جميعها بين الكنيسة البرتغالية والبابوية . وتذكر مافعله هنرى الثامن عشر فى انجلترة ، وكان يعرف أن فرنسا أيضاً تزداد عداء لجماعة اليسوعيين ، ففى ١١ أغسطس بعث بالإذن بمحاكمة اليسوعيين أمام المحكمة المدنية ، ولكنه قصر بوضوح موافقته على تلك الحالة بعينها . ثم وجه إلى الملك نداء شخصياً يدعو للرأفة بالقساوسة المتهمين ، وذكر يوسف بانجازات هذه الطائفة الماضية ، وأعرب عن رجائه بألا يؤخذ جميع اليسوعيين البرتغاليين بجريرة فئة قليلة منهم .

ولكن نداء البابا فشل . ففى ٣ سبتمبر ١٧٥٩ — وكان اليوم ذكرى الاغتيال المبيت — أصدر الملك مرسوما ضمنه قائمة طويلة بجرائم منسوبة لليسوعيين ، وأمر بما يأتى :

« أن هؤلاء الرهبان ، نظراً إلى فسادهم وسقوطهم المؤسف بعيداً عن رهبنتهم المقدسة ، ولما أصابهم من عجز واضح عن العودة إلى شعائرها بسبب هذه الرذائل البشعة المتأصلة ، يجب أن ينفوا نفياً حقيقياً فعالا . . وأن يحاكموا ويطردوا من جميع أملاك جلالته ، باعتبارهم عصاة سيئى السمعة وخونة ، وأعداء ، اعتدوا على شخصه الملكى وعلى مملكته . . ويقتضى الأمر ألا يقبلهم أى شخص كائناً ماكانت مكانته أو وضعه فى أى

من ممتلكاته وألا يتصل بهم بتاتا سواء بالحديث أو المراسلة ، وإلا كان جزاؤه الموت الذى لا رجوع فيه [٢٢] .

واستثنى من المرسوم اليسوعيون الذين لم ينذروا أنفسهم النذر الوثيق للرهبنة ، والذين يجب عليهم أن يلتمسوا إعفاءهم من نذورهم الأولية . وصادرت الدولة ثروة اليسوعيين كلها ، ومنع المنفيون من أن يأخذوا معهم غير ملابسهم الشخصية[٢٣] . واقتيدوا من جميع أرجاء البرتغال فى مركبات أوسيرا على الأقدام إلى سفن أقلتهم إلى ايطاليا . وتم ترحيلهم على هذا النحو من البرازيل وغيرها من الممتلكات البرتغالية . ووصلت أول شحنة من المنفيين إلى تشيفيتافكيا فى ٢٤ أكتوبر ، ورثى لحالهم حتى ممثل بومبال هناك . كان بعضهم ضعيفا لكبره ، وبعضهم يكاد يتضور جوعا ، وبعضهم مات فى الطريق . ورتب قائد الجماعة ، لورنتسو ريكى ، استقبال الأحياء منهم فى بيوت يسوعية فى ايطاليا ، وشارك الأخوة الدومنيكان فى استضافتهم . وفى ١٧ يونيو ١٧٦٠ أوقفت الحكومة البرتغالية العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان .

وبدا نصر بومبال نصراً مؤزراً ، ولكنه كان عليما بأنه نصر لاتحبه الأمة ، وأفضى به الشعور بعدم الأمان إلى توسيع سلطته إلى الدكتاتورية الكاملة ، فبدأ حكما من الاستبدادية والارهاب حتى عام ١٧٧٧ . وكان جواسيسه يبلغونه بكل ما يكشفونه من ألوان المقاومة لسياساته أو أساليبه ، وسرعان ما اكتظت سجون لشبونة بالمسجونين السياسيين . وقبض على الكثيرين من الأشراف والكهنة لإتهامهم بمؤامرات جديدة على الملك ، أو باشتراكهم فى المؤامرة القديمة . وأصبحت قلعة جنكيرا ، المتوسطة الموقع بين لشبونه وبيليم ، سجناً خاصاً للاشراف زج فيه كثير منهم حتى قضوا نحبهم . وفى سجون أخرى أودع اليسوعيون المجلوبون من المستعمرات والمتهمون بمقاومة الحكومة — وظل بعضهم نزيلها تسعة عشر عاماً .

أما مالاجريدا فقد ظل يذوى فى سجنه اثنين وثلاثين شهرا قبل أن

يمثل أمام المحكمة . وسلى الشيخ سجنه بتأليفه كتاب « حياة القديسة حنه البطولية ، أم مريم ، أملتها القديسة حنه ذاتها للأب المبجل ما لاجريدا » ، وصودر المخطوط بأمر بومبال ، وقد وجد فيه عدة سخافات يمكن أن ترصف بالهرطقه : فقد قال مالاجريدا أن القديسة حنه حبل بها كما حبل بمريم ، دون أن تلوثها الخطيئة الأصلية ، وأنها كانت تتكلم وتبكى فى بطن أمها[٢٤]. وبعد أن عين بومبال أخاه بول دى كارفالو رئيساً لديوان التفتيش فى البرتغال ، أمر بأن يستدعى مالاجريدا للمثول أمامه ، وكتب بيده ورقة اتهام تتهم اليسوعيين بالجشع ، والرياء ، والدجل ، وانتهاك المقدسات ، وبتهديدهم الملك بالتنبؤ مراراً بموته . وإذ كان مالاجريدا — الذى بلغ الآن الثانية والسبعين — قد أصبح نصف مخبول لشدة ما كابد من عذاب ، فقد أخبر قضاة التفتيش بأنه تكلم مع القديس أغناطيوس لويولا والقديسه تريزا[٢٥] . وأراد قاض منهم أن يقف المحاكمة اشفاقاً على الشيخ فنحى بأمر بومبال . وفى ١٢ يناير ١٧٦١ حكمت المحكمة المقدسة بأن مالاجريدا مذنب بالهرطقه ، والتجديف ، والضلال ، وبخداع الشعب بما زعم من اعلانات إلهية له . ومد فى أجله ثمانية شهور أخر . وفى ٢٠ سبتمبر سيق إلى مشنقة فى البراسا روسيو ، فشنق ، وأحرق مشدودا إلى خازوق . وقال لويس الخامس عشر معقبا بعد سماعه بالإعدام « لكأنى أحرقت الشيخ المخبول نزيل مستشفى البتيت (ميزون) الذى يزعم أنه الله الآب[٢٦] . وكان رأى فولتير فى الحادث وهو يسجله « أنه حماقة وسخف مقرونان بشرغاية فى البشاعة[٢٧] .

ولم يرق جماعة الفلاسفة الفرنسيين ما طرأ على بومبال من تطور ، بعد أن كان رأيهم فيه فى ١٧٥٨ أنه « مستبد مستنير » . لقد رحبوا بالاطاحة باليسوعيين ، ولكنهم استنكروا الأساليب التعسفية التى انتهجها الدكتاتور ، والنغمة العنيفة التى سرت فى نشراته ، والوحشية التى لوثت عقوباته . وصدمتهم معاملة اليسوعيين خلال ترحيلهم ، واعدام الأسر العريقة بالجملة ، والمعاملة غير الإنسانية التى لقيها مالاجريدا . على أنه لم

يصلنا أى سجل يثبت احتجاجهم على حبس أسقف كويمبرا ثمانى سنوات لأنه أدان لجنة بومبال للرقابة على المطبوعات التى سمحت بتداول مؤلفات متطرفه ، كقاموس فولتير الفلسفى وعقد روسو الاجتماعى .

بيد أن بومبال نفسه لم يبشر بهرطقات ، وكان يختلف إلى القداس بانتظام . ولم يكن هدفه القضاء على الكنيسة بل اخضاعها للملك ، فلما وافق كلمنت الرابع عشر عام ١٧٧٠ على السماح للحكومة بالترشيح لمناصب الأسقفيه ، اصطلح مع الفاتيكان : وأسعدت يوسف الأول — وقد دنا أجاه — فكرة الظفر بعد هذا كله بكامل البركات الكهنوتية حين يموت ، وبعث البابا بقبعة الكردينالية إلى بول أخى بومبال ، وأتحف بومبال نفسه بخاتم يحمل صورة البابا ، ومنمنمة إطارها من الماس ، ورفات كامل لأربعة قديسين .

٣ — بومبال المصلح

وترك الدكتاتور أثناء ذلك بصمته على اقتصاد البرتغال وإدارتها وحياتها الثقافية . وأعاد تنظيم الجيش بمساعدة الضباط الانجليز والألمان ، وقد صد هذا الجيش غزوا أسبانيا فى حرب السنين السبع . وانتهج ما انتهجه ريشليو فى فرنســة القرن السابع عشر ، فحد من سلطان الارستقراطية الممزق للأمة ، ومركز الحكومة فى ملكية تستطيع أن تمنح هذه الأمة الوحدة السياسية ، والتطور التعليمى ، وبعض الحماية من تسلط الكنيسة وكف النبلاء بعد اعدام آل طابوره عن التآمر على الملك ، وخضع الأكليروس للدولة بعد طرد اليسوعيين . وفى فترة الجفوة مع الفاتيكان كان بومبال يعين الأساقفة ، وكان أساقفته يرسمون القساوسة دون الرجوع إلى روما . وحد مرسوم ملكى من اقتناء الكنيسة للأرض ، وقيد حرية الرعايا البرتغاليين فى تحصــيل تركاتهم بوصايا لإقامة القداديس[١٨] وأغلق الكثير من الأديرة وحظر على الباقى منها قبول رهبان جدد تقــل أعمارهم عن الخامسة والعشرين . وأخضــع ديوان

التفتيش لإشراف الحكومة . وتحولت محكمته إلى محكمة عامة خاضعة للقواعد التي تخضع لها محاكم الدولة ، وجردت من سلطات الرقابة على المطبوعات ، وألغى ما جرت عليه من تمييز بين قدامى المسيحيين وجددهم (أي اليهود أو المغاربة الذين دخلوا في المسيحية وذريتهم) ، لأن بومبال افترض أن في دماء معظم الأسبان والبرتغال الآن عرقا ساميا[٢٩] . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ أصبح جميع الرعايا البرتغال صالحين للاختيار للمناصب المدنية والعسكرية والكنسية[٣٠] ، ولم تحرق محكمة التفتيش انسانا بعد احراق مالاجريدا عام ١٧٦١ [٣١] .

في تلك السنة ألغى بومبال ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة التي كانت تعوق سير القضاء ، ويسرت الطريق إلى المحاكم وجعل التقاضي أقل كلفه . وفي ١٧٦١ أعاد تنظيم الخزانة ، وألزمها بموازنة حساباتها كل أسبوع ، وأمر بأن تراجع ايرادات ومصروفات البلديات كل سنة ، وحقق بعض التقدم في أشد الاصلاحات كلها عسرا — وهو خفض عدد الموظفين في البلاط الملكي والحد من الاسراف في نفقاته . فتخلص من الثمانين طاهيا الذين كانوا يطعمون يوحنا الخامس وبطانته ، واضطر يوسف الأول أن يقنع بعشرين فقط . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ ألغى الرق في الواقع في البرتغال ولكن سمح باستمراره في المستعمرات .

وامتدت يد المصلح إلى كل ركن ، فبذل الدعم الحكومي للزراعة ومصايد الأسماك ، وأدخل دودة القز في المقاطعات الشمالية . وأنشأ الفواخير ، ومصانع الزجاج ، ومصانع القطن والصوف والورق ، لينهي اعتماد البرتغال على استيراد هذه الحاصلات من الخارج . وألغى المكوس الداخلية في انتقال السلع ، وأقام التجارة الحرة بين البرتغال ومستعمراتها الأمريكية ، وأسس كلية للتجارة يدرب فيها الرجال على إدارة الأعمال . ونظم وأعلن بالمال الشركات لتتلقى تجارة البرتغال من الأجانب الذين يتجرون فيها وينقلونها ، وفي هذا فشل — أو فشلت البرتغال — لأن

تجارة البرتغال فى ١٧٨٠ كان أكثرها لايزال فى أيدى الأجانب لاسيما البريطانيين .

واقتضى طرد اليسوعيين بناء التعليم من جديد بناء شاملا . فانتشرت في البلاد المدارس الأولية والثانوية الجديدة التى بلغ عددها ٨٣٧ — وحولت الكلية اليسوعية فى لشبونة إلى كلية للاشراف يديرها العلمانيون . ووسع منهج الدراسة فى كويمبرا وأضيفت إليه مقررات فى العلوم ، وأقنع پومبال الملك بتشييد دار للاوبرا ودعوة المغنين الايطاليين لقيادة الفرق ، وفى ١٧٥٧ أسس « أركاديا لشبونة » لتشجيع الأدب .

وحظى الأدب البرتغالى طوال نصف قرن مثير (١٧٥٥ — ١٨٠٥) بحرية نسبية فى الأفكار والأشكال . وبعد أن حرر نفسه من النماذج الايطالية ، أقر بسحر فرنسا ، وأحس بنسائم تهب عليه من حركة التنوير . وظفر انطونيو دينيز داكروز أى سيلفا بالشهرة فى وطنـه كله بكتابة هجاء سماه « أو هسوپى » (١٧٧٢) ، ووصف فيه فى ثمانية أقسام شجارا بين أسقف وكبير كهنة ، وترجم خواو أنستاسيودا كونها بوب فولتير ، وعلى هذه الترجمة أدانته محكمة التفتيش (١٧٧٨) عقب سقوط بومبال . وأولع فرانسسكو ما نويل دوناسكيمنتو بالكتب ، وكان ابن عامل فى تفريغ السفن وشحنها ، وأصبح قطبا لجماعة تمردت على الاكاديمية الاركادية لأنها عائق لتطور الشعر القومى . وفى ١٧٧٨ أمرت محكمة التفتيش بالقبض عليه (مغتنمة ثانية فرصة سقوط بومبال) متهمة اياه بالولع بالفلاسفة المحدثين من اتباع العقل الطبيعى « ففر إلى فرنسا ، حيث انفق تقريباً كل سنيه الواحدة والأربعين الباقية من عمره ، وهناك كتب معظم قصائده التى تتقد بحب الحرية والديمقراطية ، وفيها قصيده غنائيـة « لحرية الولايات المتحدة واستقلالها » وقد عده أنصاره أماما للشعر البرتغالى لايميزه فيه غير كاموئيس . وحوى مجلد فى قصائد الحب يسمى « أماريليا » أرشق وأرخم شعر العصر ، الذى خلفه توماز أنطونيو جونزاجا الذى عانى السجن (١٧٨٥ — ٨٨) بتهمة التآمر السياسى ومات فى المنفى ، أما خوزيه

أجوستينودى ما سيدو ، الراهب الأوغسطيني الذى جرد لفسقه ، فقد اتخذ فى جرأة ، لقصيدته « أو أورينتى » الموضوع الذى اتخذه من قبل كاموئيس — وهو رحلة فاسكودا جاما إلى الهند . وكان يرى قصيدته أعظم من اللويزياده « والإلياذه » ولكنهم يؤكدون أنها عمل كئيب . وأطرف منها هجاء كتبه فى ستة أقسام « أوس بورروس » شهر فيه ماسيدو صراحة برجال ونساء من جميع المراتب ، الأحياء منهم والأموات . وكان ألد خصومه ما نويل ماريا باربوزا دى بوساجى ، الذى سجنته محكمة التفتيش (١٧٩٧) بتهمة إذاعة الأفكار الفولتيرية فى شعره وتمثيلياته . وقد رده إعدام مارى انطوانيت إلى المحافظة فى الدين والسياسة ، فاستعاد تدينه أيام الشباب ، ورأى فى البعوضة دليلا على وجود الله[٣٢] .

أما الحدث العظيم فى تاريخ الفن فى حكم بومبال فهو التمثال الذى صنع ليوسف الأول ، والذى مازال قائماً فى ميدان الحصان الأسود بلشبونة . وقد صممه يواكيم مكادو دى كاسترو ، وصبه بالبرونز ترتولوميو داكوستا وهو يمثل الملك راكباً جواداً مطهما ، ظافرا فوق أفاعى ترمز إلى القوى الشريرة التى غلبها فى حكمه . وجعل بومبال من إزحة الستار عن هذا الأثر (٦ يونيو ١٧٧٥) احتفالا بوازرته المنتصرة . فاصطف جنود الجيش فى الميدان ، واجتمع رجال السلك السياسى ، والقضاء ، ومجلس الشيوخ وغيرهم من كبار القوم مرتدين الملابس الرسميه ، ثم أقبلت الحاشية ، ثم الملك والملكة ، وأخيراً تقدم بومبال وأزاح الستار عن التماثيل والقاعدة الضخمة التى صورت ميدالية عليها الوزير لابساً صليب المسيح . وفهم الكل إلا الملك أن الموضوع الحقيقى للاحتفال هو بومبال .

وبعد أيام من إزاحة الستار أرسل إلى يوسف الأول وصفا وردى اللون للتقدم الذى حققه بومبال منذ ١٧٥٩ : نشر التعليم والإلمام بالقراءة والكتابة ، ونمو الصناعة والتجارة ، وتطور الأدب والفن ، وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة ، على أن توخى الصدق لابد أن يختزل الكثير من وصفه هذا ، فالصناعة والتجارة كانتا تنموان ، ولكن فى بطء شديد ،

وكلتنا تعانيان المصاعب المالية ، أما الفنون فركدت ، وكان نصف لشبونة لا يزال (١٧٧٤) فى الخرائب التى سببها زلزال ١٧٥٥ . وكان تعلق الشعب الفطرى بأهداب الدين يعيد سلطان الكنيسة إلى سابق عهده . وكان صلف بومبال وأساليبه الدكتاتورية تخلق له أعداء جدداً كل يوم . وكان قد اقتنى لنفسه ولأقربائه ثروة طائلة وبنى لنفسه قصراً غالى التكلفة . ولم تكد توجد أسرة نبيلة فى المملكة بغير عضو محبوب من أعضائها يذوى فى غياهب السجن . وكان الناس فى طول البرتغال وعرضها يصلون ويتضرعون إلى الله سرا بأن يسقط بومبال عن عرشه .

٤ — انتصار المساوى

فى سنة ١٧٧٥ بلغ الملك الستين . وكانت العلل والخليلات قد أشبنه قبل أوانه ، وراح ينفق الساعات متأملا فى الخطيئة والموت . وسأل نفسه أكان على حق فى انتهاج سياسات وزيره ، وهل كان منصفاً لليسوعيين ؟ ثم ماخطب أولئك الأشراف والقساوسة نزلاء السجون ؟ بوده أن يغفر لهم وهو يطلب الآن المغفرة لنفسه . ولكن أنى له أن يذكر فكرة كهذه لبومبال الذى لا تلين له قناة ، وماذا تراه صانعاً بغير بومبال ؟ وفى ١٢ نوفمبر ١٧٧٦ أصيب بنوبة فالج ، وكان البلاط يغتبط توقعاً لحكم ملك جديد ووزارة جديدة . وكانت وريثة العرش ابنته ماريا فرنسسكا التى كانت زوجا لأخيه بدرو . وكانت امرأة صالحة ، وزوجا وأما صالحة ، وإنسانا عطوفاً باراً ، ولكنها كانت إلى ذلك كاثوليكية غيوراً ، كرهت عداء بومبال للأكليروس كرها حملها على ترك البلاط لتعيش فى هدوء مع بدرو فى كيلوز على أميال من العاصمة . وأحاط الدبلوماسيون الأجانب حكوماتهم بأن تتوقع انقلاباً وشيكا فى السياسات البرتغالية .

وفى ١٨ نوفمبر تناول الملك الأسرار المقدسة ، وفى ٢٩ نوفمبر أصبحت ماريا وصية على العرش . وكان من أول أفعالها أنهاء سجن أسقف كويمبرا ، ورد الحبر البالغ من العمر أربعة وسبعين عاما إلى كرسيه وسط مظاهر الفرح

الشاملة تقريباً . ورأى بومبال سلطانه يتضائل ، ولحظ فى نذر قائمة أن أفراد الحاشية الذين كانوا بالأمس اتباعاً أذلاء له، يرونه الآن وقدقضى على نفوذه السياسى . وفى عمل أخير من أعمال الاستبداد انتقم انتقاماً وحشياً من قرية تريفاريا التى عارض أهلها — وكانوا صيادى سمك — تجنيد أبنائهم بالقوة، فأمر فصيلة من الجند بأن يحرقوا القرية : فأحرقوها بإلقاء المشاعل الملتهبة من نوافذ الأكواخ الخشبية فى ظلام الليل (٢٣ يناير ١٧٧٧) .

وفى ٢٤ فبراير مات يوسف الأول ، وأصبحت الوصية الآن الملكة ماريا الأولى (حكمت ١٧٧٧ — ١٨١٦) ، وأصبح زوجها الملك بدرو الثالث (١٧٧٧ — ٨٦) . وكان بدرو رجلا ضعيف العقل ، واستغرقت ماريا فى التقوى وأعمال البر . وسرعان ما استعاد الدين سلطانه ، وقد كان نصف حياة الشعب البرتغالى . واستأنفت محكمة التفتيش نشاطها فى الرقابة وقمع الهرطقة . وأرسلت الملكة ماريا إلى البابوية أربعين ألف جنيه لرد بعض ما أنفقت فى رعاية اليسوعيين المنفيين . وفى غداة دفن يوسف أمرت الملكة بالإفراج عن ثمانمائة سجين ،وكان أكثرهم قد سجنه بومبال لمعارضته سياسته . وكان كثير منهم قد قضى عشرين عاما فى غياهب السجون ، فلما خرجوا لم تحتمل عيونهم ضوء الشمس وكانوا كلهم تقريباً فى أسمال بالية ، وبدا الكثيرون منهم فى ضعفى سنهم ، وكان المئات من السجناء قد قضوا نحبهم فى سجونهم . ولم يبق على قيد الحياه من بين ١٢٤ يسوعيا زج بهم فى السجون قبل ثمانية عشر عاما سوى خمسة وأربعين (٣٣) . ورفض خمسة من الاشراف الذين أدينوا بتهمة الاشتراك المزعوم فى مؤامرة قتل يوسف أن يبرحوا السجن حتى تعلن براءتهم رسمياً .

وكان لمشهد ضحايا عداء بومبال المفرج عنهم ، ولنبأ تحريق تريفاريا، أثرهما فى تفاقم كره الشعب لبومبال إلى حد لم يعد يجرؤ فيه على الظهور علانية . وفى أول مارس أرسل إلى الملكة ماريا كتابا يستقيل فيه من جميع وظائفه ويستأذن فى الاعتكاف فى ضيعته بمدينة بومبال . وطالب

الاشراف المحيطون بالملكة بسجنه وعقابه ، ولكن حين تبين لها أن جميع القوانين التي استنكرتها كان قد وقعها الملك السابق ، قررت أنها لاتستطيع عقاب بومبال دون أن تلطخ أمام الناس ذكرى أبيها. فقبلت استقالة الوزير وسمحت له بالاعتزال فى بومبال ، ولكنها أمرته أن يلزمها وفى ٥ مارس غادر لشبونة فى عربة خفيفة مستأجرة آملا أن يفلت من أنظار الناس ، ولكن بعضهم تبينه فحصبوا عربته ولكنه هرب منهم. ولحقت به امرأته عند مدينة أوبرس ، وكان يومها فى السابعة والسبعين .

والآن وقد غدا مواطنا عاديا تكاثر عليه الهجوم من كل صوب بدعاوى تطالبه بديون أغفل سدادها ، وأضرار أوقعها بالشاكين ، وممتلكات استولى عليها دون تعويض أصحابها تعويضا كافياً . وحاصر المحضرون أبوابه فى بومبال بسلسلة من الأوامر القضائية . كتب يقول « ما من دبور أو بعوضة فى البرتغال إلا طارا إلى هذه البقعة النائية وطنا فى أذنى. وساعدته الملكة بأن واصلت اجراء الراتب الذى كان يتقاضاه وزيراً عليه مدى الحياه وزادت عليه معاشاً متواضعاً . بيد أن اعداء لا حصرلهم الحوا على الملكة فى تقديمه للمحاكمة بتهمتى الانحراف والخيانة . وقد اتخذت اجراء وسطا بسماحها للقضاة بأن يزوروه ويسائلوه فى أمر هذه التهم . فظلوا يحققون معه ساعات كل مرة على مدى ثلاثة أشهر ونصف حتى التمس الدكتاتور العجوز الرحمة . وأجلت الملكة التصرف فى تقرير الفحص ، آملة أن يعفيها موت بومبال من هذا الحرج ، وسعت فى الوقت نفسه إلى تهدئة خصومه بأن أمرت باعادة محاكمة المتهمين الذين أدينو بالاشتراك فى محاولة اغتيال أبيها . وأيدت المحكمة الجديدة الحكم بذنب دوق أفيرو وثلاثة من خدمه ، ولكنها برأت ساحة باقى المتهمين أجمعين وأعلنت براءة الطابوريين . وردت كل ألقابهم وممتلكاتهم للأحيـاء منهم (٣ ابريل ١٧٨١) . وفى ١٦ أغسطس أصدرت الملكة مرسوما يدين بومبال « مذنبا بجرائم شائنة » ويضيف قراراً بتركه آمنا فى منفاه محتفظا بثروته مادام قد التمس الصفح .

وكان بومبال يمضى حثيثا إلى مرض الموت . فقد غشى جسده كله تقريباً قروح صديدية يبدو أن سببها الجذام[٣٥] . ومنعه الآلم من النوم أكثر من ساعتين فى اليوم ، وأضعفته الدوسنتاريا ، وأقنعه أطباؤه بشرب حساء مصنوع من جلد الثعابين ، وكأنما أرادوا أن يزيدوه عذابا على عذاب . وتمنى الموت ، وتناول الأسرار المقدسة ، وانتهت آلامه فى ٨ مايو ١٧٨٢ وبعد خمسة وأربعين عاما ، وقفت بقبره جماعة من اليسوعيين كانت تجتاز المدينة ، وتلت الجماعة ، بشعو الانتصار والرأفة ، صلاة جنائزية تطلب الراحة لنفسه .

* * *

الفصل الحادي عشر

أسبانيا وحركة التنوير

١٧٠٠ — ٨٨

١ — البيئة

أوصى شارل الثانى، آخر الهابسبورجيين الأسبان، عند وفاته عام ١٧٠٠، بأسبانيا وكل امبراطوريتها العالمية لفرنسا البوربونية — العدو القديم لآل هابسبورج، وقد قاتل حفيد لويس الرابع عشر، الذى لقب بفليب الخامس ملك أسبانيا، ببسالة خلال حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٣ — ١٢) للاحتفاظ بوحدة تلك الامبراطورية كاملة، وامتشقت أوربا كلها تقريباً الحسام للحيلولة دون هذا التوسع الخطر فى قوة البوربون. وأخيراً أكرهت أسبانيا على النزول عن جبل طارق ومينورقة لانجلترة، وصقلية لسافوى، ونابلى وسردانيا وبلجيكا للنمسا.

ثم إن فقد أسبانيا لقوتها البحرية لم يترك لها سوى قبضة ضعيفة على المستعمرات التى كانت تغذى تجارتها وثروتها. فقمح أمريكا الأسبانية مثلا كان يعطيها غلة بلغت من خمسة إلى عشرين ضعفاً فى الفدان لقلة الأرض الأسبانية. وجادت تلك الأراضى المشمسة بالزئبق والنحاس والزنك والزرنيخ والأصباغ واللحوم والجلود والمطاط والقرمز والسكر والكاكاو والبن والتبغ والشاى والكينين وكثير من العقاقير الأخرى. وفى ١٧٨٨ صدرت أسبانيا لمستعمراتها الأمريكية بضائع قيمتها ١٥٨,٠٠٠,٠٠٠ ريال، واستوردت منها بضائع قيمتها ٨٠٤,٠٠٠,٠٠٠ ريال ولكن هذا «الخلل فى الميزان التجارى الذى لم يكن فى مصلحة أسبانيا محاه سيل متدفق من الفضة والذهب الأمريكيين. وأرسلت الفلبين شحنات سفن من الفلفل والقطن والنيلة وقصب السكر. وقد بلغ سكان الفلبين فى تقرير الكسندر فون همبولت

فى ختـــام القرن الثانى عشر ١,٩٠٠,٠٠٠ ، وسكان أمريكا الأسبانية ١٦,٩٠٢,٠٠٠ ، أما أسبانيا نفسها عام ١٧٩٧ فقد بلغ سكانها ١٠,٥٤١,٠٠٠ [1]. وأنه لفضل يعزى لحكم البوربون أن هذا الرقم الأخير يعنى تضاعف السكان الذين لم يزيدوا على ٥,٧٠٠,٠٠٠ عام ١٧٠٠ .

لم تسبغ الجغرافيا على أسبانيا إلا بميزة التجارة البحرية . كانت الأرض فى الشمال خصبة تغذرها الأمطار والثلوج الذائبة من جبال البرانس ، وكانت قنوات الرى (وأكثرها خلفه المغاربة للغالبين) قد استصلحت الأراضى الجدباء فى بلنسية ومرسية والأندلس ، ولكن باقى أراضى أسبانيا كان جبليا أو قاحلا إلى درجة مثبطة للهمم . ولم يتح لهبات الطبيعة أن تنمو وتتطور بفضل الإقدام الاقتصادى ، فذهب أكثر الأسبان حباً للمغامرة إلى المستعمرات ، وفضلت أسبانيا أن تشترى المنتجات الصناعية من الخارج بذهب مستعمراتها وماتغله مناجم الفضة أو النحاس أو الحديد أو الرصاص فى أسبانيا ذاتها . وتخلفت صناعاتها التى كانت لاتزال فى المرحلة النقابية أو البيتية تخلفاً شديداً عن صناعات أقطار الشمال النشيطة ، وكان الكثير من مناجمها الغنية تشغله الإدارة الأجنبية لفائدة المستثمرين الألمان أو الإنجليز . واحتكرت «المستا» إنتاج الصوف ، وهى اتحاد من ملاك قطعان الغنم ميزته الحكومة ، ورسخت التقاليد قدمه ، وسيطرت عليه فئة قليلة من النبلاء والأديرة ، وخنقت المنافسة ، وتخلفت أسباب التحسين . وتعفنت برولتاريا ضئيلة فى المدن ، تشتغل خدماً لكبار القوم أو عمال مياومة فى النقابات الحرفية ، وكانت منازل الأثرياء تزدان ببعض العبيد الزنوج أو المغاربة . وعاشت طبقة وسطى صغيرة معتمدة على الحكومة أو الأشراف أو الكنيسة .

وكان ٥١,٥٪ من الأرض الزراعية تملكه الأسر الشريفة فى مساحات شاسعة و ١٦,٥٪ تملكه الكنيسة ، و ٣٢٪ تملكه الكومونات (المـــدن) أو الفلاحون . وتأخر نمو مليكة الفلاحين للأرض بفعل قانون وقف قديم يشترط وقف الأرض كاملة على الإبن الأكبر ويمنع رهن أى جزء منها أو بيعه . وكان ثلاثة أرباع الأرض خلال معظم هذا القرن فيما عدا إقليم

الماسك يفلحه مستأجرون يؤدون ضريبة على صورة إيجار ، أو رسوم ، أو خدمات ، أو عينا للملاك من الأشراف أو رجال الدين الذين ندر أن رأوهم ولما كانت الإيجارات تجبى حسب إنتاجية المزرعة ، فإن المستأجرين افتقدوا الحافز على الابتكار أو الاجتهاد[٢] . ودافع الملاك عن هذا النظام بالزعم بأن الهبوط المطرد فى قيمة العملة يكرههم على رفع الإيجارات لتتمشى مع الأسعار والتكاليف المتصاعدة . ثم أن ضريبة مبيعات فرضت على ضروريات الحياة كاللحم والنبيذ وزيت الزيتون والشموع والصابون كانت أثقل وطأة على الفقراء (الذين أنفقوا معظم دخلهم على الضروريات) وأخف وقعا على الأغنياء . وترتب على هذه الإجراءات ، وعلى الامتيازات الوراثية ، وعلى الفوارق الطبيعية فى القدرة البشرية ، أن تركزت الثروة فى القمة ، وران على القاع فقر كئيب اتصل جيلا بعد جيل ، تخففه وتسرى به التعزيات فوق الطبيعية .

وكانت طبقة النبلاء منقسمه إلى درجات من الشرف انقساما يملؤه التحاسد والتنابذ . ففى القمة (فى ١٧٨٧) ١١٩ من كبار النبلاء (Grandes de Espana) . وقد نحزر مبلغ ثرائهم من تقرير مبالغ فيه على الأرجح كتبه الرحالة البريطانى المعاصر جوزف تاونسند وذكر فيه وأن ثلاثة من كبار النبلاء . وهم دوق أوزونا ، ودوق ألبا ، ودوق مدينا سلى يملكون إقليم الأندلس بجملته[٣] . وكان دخل دوق مدينا من مصايد أسماكه وحدها مليون ريال فى العام ، ودخل دوق أوزنا السنوى ٨,٤٠٠,٠٠٠ ريال . ودخل كونت أراندا قرابة ١,٦٠٠,٠٠٠ ريال فى السنة[٤] . ويلى كبار النبلاء ٥٣٥ من أصحاب الألقاب titulos — وهم رجال منحهم الملك القابا وراثية بشرط أداء نصف دخلهم للتاج . ويلى هؤلاء الفرسان caballeros الذين يعينهم الملك فى عضوية مجزية فى أحدى طبقات أسبانيا الحربيه الأربع : وهى سنتياجو ، والقنطرة ، وكالاترافا ومونتيزا . أما أدنى النبلاء مرتبة فكانوا الـ ٤٠٠,٠٠٠ هيدلج hidalgo الذين يملكون مساحات متواضعه من الأرض ، والذين أعفوا من الخدمه العسكرية ومن

السجن للمدين ، وكان لهم الحق في أن يلبسوا شعار النباله وأن يخاطبوا بلقب « للدون » . وكان بعضهم فقراء ، وبعضهم أنضم إلى المتسولين في الشوارع . وكان معظم النبلاء يعيشون في المدن ، ويعينون موظفي الإقاليم .

أما الكنيسة الأسبانية فقد أدعت الحق في نصيب مريح من جملة الناتج القومى بوصفها الحارس الألهى للوضع الراهن . وقد قدر مصدر أسبانى موثوق أن دخلها السنوى بعد الضرائب يبلغ ١،١٠١،٧٥٣،٠٠٠ ريال ، ودخل الدولة يبلغ ١،٣٧١،٠٠٠،٠٠٠ ريال[٥] . وكان ثلث إيرادها يأتيها من الأرض ، ومبالغ طائله تجمعها من العشور وبواكير الثمار ، ومبالغ صغيرة من مراسيم العماد ، والزيجات ، والجنائز ، والقداديس على أرواح الموتى ، والحلل الديرية تباع للأتقياء الذين ظنوا أنهم أن ماتوا وعليهم هذه الأرواب فقد يتسللون إلى الجنه دون مساءلة . وأتى الرهبان المستجدون بمزيد من المال بلغ ٥٣،٠٠٠،٠٠٠ ريال . على أن أوساط القساوسه كانوا بالطبع فقراء لكثرة عددهم من جهة ، فقد كان في أسبانيا ٩١،٢٥٨ من رجال الكهنوت ، منهم ١٦،٤٨١ كانوا قسسا » و ٢،٩٤٣ رهبانا يسوعيين[٦] . وفي ١٧٩٧ كان ستون ألف راهب وثلاثون ألف راهبة يعيشون في ثلاثة الأف دير . وكان رئيس أساقفة أشبيلية وموظفوه البالغون ٢٣٥ مساعدا يتمتعون بدخل سنوى مقداره ستة ملايين ريال ، أما رئيس أساقفة طليطلة — وكان له ستمائة مساعد — فبلغ دخله تسعة ملايين ريال . وهنا ، كما في إيطاليا والنمسا ، لم تثر ثروة رجال الدين أى احتجاج من الشعب ، فالكاتدرائيه من خلقهم ، وقد أحبوا أن يروها في زينة بهية .

وقد ضرب تدينهم المثل والقدوة للعالم المسيحى . فلم يلق اللاهوت الكاثوليكى في بقعة أخرى في القرن الثانى عشر مثل هذا الإيمان الشامل به ، ولا شهدت الطقوس الكاثوليكية من هـــذا الاحترام الشديد . ونافست الممارسات الدينية السعى وراء العيش ، ولعلها فاقت السعى وراء الجنس ، باعتبارها جزءا من صميم الحياه . وكان أفراد الشعب بما فيهم البغايا ، يرسمون علامة الصليب مراراً وتكراراً كل يوم . وفاقت عبادة العذراء عبادة المسيح

بكثير ، وانتشرت صورها وتماثيلها فى كل مكان ، وكان النساء يخطن الأرواب لتماثيلها فى شغف ، ويتوجن رأسها بالأزهار النضرة ، وفى أسبانيا أكثر من غيرها أرتفع صوت الشعب مطالبا بجعل ، « حملها غير الدنس » — أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية — جزءا من العقيدة المحددة المشترطة. وكان الرجال يساوون النساء تمسكا بإهداب الدين . فكثير من الرجال ، كالنساء ، كانوا يختلفون إلى القداس يومياً . وكان الرجال من الطبقات الدنيا يجلدون أنفسهم فى بعض المواكب الدينيه (حتى حرم هذا الجلد فى ١٧٧٧) بحبال فيها عقد تنتهى بكرات من الشمع تحوى زجاجا محطما ، وزعموا أنهم يفعلون هذا برهانا على حبهم لله أو مريم أو امرأة ما ، ورأى بعضهم أن هذا القصد مفيد للصحه(٧) وأنه يهدىء من شبق إيروس .

وكانت المواكب الدينية كثيرة ، مثيرة ، غنية بالألوان ، وقد شكا ظريف من أنه لم يستطع أن يخطو فى مدريد خطوة دون أن يصادف هذا المشهد المهيب ، وكان فى الأمتناع عن الركوع إذا مر الموكب مجازفة بالأعتقال أو الأعتداء . فحين قام أهل سرقسطة بثورة عام ١٧٦٦ وراحوا ينهبون ويسلبون ظهر موكب دينى على رأسه أسقف يحمل بين يديه القربان المقدس ، فكشف العصاة رؤوسهم وجثوا فى الشوارع ، فلما عبر الموكب استأنفوا سلب المدينة(٨) . وكانت كل مصالح الحكومه تشارك فى موكب « عيد القربان » العظيم ، يتقدمهم الملك أحيانا . وكانت مدن أسبانياً تجلل بالسواد طوال أسبوع الآلام ، والملاهى والمقاهى تغلق ، والكنائس تغص بالعابدين ، والمذابح الأضافية تقام فى الميادين العامة إستجابة لتدفق التقوى والورع . ففى أسبانياً كان المسيح ملكا ، ومريم ملكة ، والأحساس بالحضرة الألهية فى كل لحظة من لحظات اليقظه ، جزءا من صميم الحياة .

وزكت طائفتان دينيتان أكثر من غيرهما فى أسبانياً . فسيطر اليسوعيون على التعليم بفضل علمهم ولباقتهم فى الحديث وأصبحوا آباء الإعتراف للأسرة المالكة . أما الدومنكان فسيطروا على ديوان التفتيش ، ومع أن هذه المؤسسه كانت قد ودعت عصرها الذهبى منذ أمد بعيد ، فقد بقى لها

من القوة ما يكفي لأرهاب الشعب وتحدى الدولة . فلما ظهرت فلـــول لليهوديه بسبب تراخى البوربون قطع ديوان التفتيش دابرهم بإحراقهم علنا ، وعلى مدى سبع سنوات (١٧٢٠ — ٢٧) أدان الديوان ٨٦٨ شخصا ، أتهم ٨٢٠ منهم بأنهم يبطنون اليهودية ، وأحرق ٧٥ ، وزج غيرهم فى سفن تشغيل العبيد أو أكتفى بجلدهم[٩] . وفى ١٧٢٢ أظهر فليب الخامس تبنية لأساليب الحياة الأسبانية إذ ترأس مهرجانا فخما لاحراق المهرطقين ، أحرق فيه تسعه منهم أحتفالا بمقدم أميرة فرنسية إلى مدريد[١٠] . أما خلفه فرديناند السادس فقد أبدى روحا أكثر إعتدالا ، ففى عهده (١٧٤٦ — ٥٩) أحرق عشرة « فقط » أحياء ، وكلهم من اليهود « المرتدين[١١] » .

ومارس ديوان التفتيش رقابة خانقة على كل ضروب النشر . وقد قدر راهب دومنيكى أن المطبوع فى أسبانيا خلال القرن الثانى عشر كان أقل من المطبوع فى القرن السادس عشر[١٢] . وكان أكثر الكتب دينيا ، واحبها الشعب بوصفها هذا . وكانت الطبقات الدنيا أمية ، ولم تشعر بحاجة للقراءة أو الكتابة . وكانت المدارس فى قبضة رجال الدين ، ولكن آلافاً من الأبرشيات كانت خلوا من المدارس . أما الجامعات الأسبانية التى كانت يوما ما جامعات عظيمة فقد تخلفت تخلفا شديداً عن نظيراتها فى إيطاليا أو فرنسا أو انجلترة أو المانيا فى كل ناحية إلا اللاهوت التقليدى . وكانت مدارس الطب فقيرة ، رديئة الإعداد بالأساتذة ، ناقصة الأجهزة ، وأعتمد العلاج على الحجامة ، وأعطاء المسهلات ، والأستعانة ببركات القديسين ، والصلاة . وكان الأطباء الاسبان خطرا على حياة الناس . وكان العلم علم العصر الوسيط ، والتاريخ أساطير ، وزكت الخرافه وكثرت النذر والمعجزات . وظـــل الإيمان بالسحر حيا إلى نهاية القرن ، وظهر بين الأهوال التى صورها الرسام جويا .

تلك كانت أسبانيا التى قدم البوربون من فرنسا ليحكموها .

٢ ـــ فليب الخامس ١٧٠٠ - ٤٦

كان فليب الخامس (Felipe Quinto) رجلا طيبا فى حدود فلسفة حياته التى ضيقها تعليمة . كان إبنا أصغر للدوفان ، فدرب على التواضع ، والتقوى ، والطاعة ، فلم يتغلب قط على هذه الفضائل إلى حد يكفى للتصدى لنصف قرن من التحديات فى الحكم والحرب . وأفضت به تقواه إلى أن يتقبل فى أسبانيا ظلامية دينية كانت تحتضر فى فرنسا ، وجعلته سهولة إنقياده مطواعا لوزرائه وزوجاته .

وكانت ماريا لويزا جابرييلا ، أبنة فكتور أماديوس الثانى ملك سافوى ، لا تعدو الثالثة عشرة يوم تزوجت فليب (١٧٠١) ، ولكنها كانت رغم حداثتها حاذقة لمكر النساء وكيدهن ، وإستطاعت بجمالها وحيويتها وبغضباتها ودموعها ، أن تخضع الملك فيستسلم بعد أرهاق ، بينما تدير هى وكبيرة وصيفاتها سياسة وطنهما الجديد . وكانت هذه الوصيفة ـــ مارى آن دلا تريموال ، أميرة أورسان ، والأرمله الفرنسيه لنبيل أسبانى كبير ، قد أعانت الملكة الصبية على الزواج والقبض على السلطة . ومكنها طموحها الممزوج باللباقة من أن تصبح قوة وراء العرش خلال عشرة أعوام . وما كان فى أستطاعتها أن تعتمد على الجمال لأنها كانت فى التاسعه والخمسين فى ١٧٠١ ، ولكنها إمدت الملكة بما تفتقر إليه من معرفة ودهاء ، وبعد عام ١٧٠٥ كانت تقرر السياسة . وفى ١٧١٤ ماتت ماريا لويزا فى السادسه والعشرين ، وتردى فليب الذى تعلم أن يحبها حباً صادقا فى أكتئاب مرضى. ورأت مدام ديزورسان أن تنقذ سلطانها بترتيب زواجه من إيزابيلا (اليزابيث) فارنيزى ، أبنة أودواردو الثانى دوق بارما وبياسنزا . وذهبت للقاء الملكة الجديدة عند الحدود الأسبانية ، ولكن إيزابيلا أمرتها فى إقتضاب أن ترحل عن أسبانيا ، فاعتزلت فى روما وماتت بعد ثمانى سنوات مغمورة منسية رغم ثرائها .

لم تعترف إيزابيلا بأن النهضة الأوربية قد ولت ، فقد وهبت كل قوة

الإرادة ، وشدة الذكاء ، وحدة الطبع ، واحتقار الوساوس الذى تميزت به النساء كما تميز الرجال الذين هيمنوا على إيطاليا القرن السادس عشر . وقد وجدت فى فليب رجلا عاجزا عن الحسم ؛ عاجزا عن النوم منفردا ، ومن ثم أصبح فراشها عرشها الذى تحكم منه أمة ، وتدير جيوشا ، وتظفر بامارات إيطالية . ولم تكن قد عرفت أى شىء تقريباً عن أسبانيا . ولم تألف قط الخلق الاسبانى ولكنها درست ذلك الخلق ، ونجحت فى التعرف على حاجات البلد ؛ وادهش الملك أن يجدها لا تقل عن وزرائه إطلاعا وسعة حيلة .

وكان فليب فى سنوات حكمه الأولى قد استخدم جان أورى وغيره من المساعدين الفرنسيين لأعادة تنظيم الحكومه على الأسس التى وضعها لويس الرابع عشر : إدارة ومالية ممركزتان مراقبتان ، مع بيروقراطية مدربه ونظار إقليمين ؛ وكلهم خاضعون لسلطة المجلس الملكى التشريعية والقضائية والتنفيذيه ؛ وأسمه هنا « مجلس تشتاله Consejo de Castilla » ؛ فقل الفساد ؛ وحد من الاسراف — إلا فى عمليات البناء الخاصه بالملك . ثم خلف هؤلاء الوزراء الفرنسيين فى ١٧١٤ إيطالى كفء طموح هوالاباتى جوليو البيرونى ، الذى جعل نشاطه الأسبانيين يرتعدون . وكان أبنا لبستانى فى بياتشنزا ، وصل إلى أسبانيا بوصفه سكرتيرا لدوق فندوم . وكان أول من إقترح إيزابيللا فارنيزى زوجة ثانية لفليب . فيسرب وصوله إلى السلطه سرفانا بصنيعه . وقد وفقا معا فى اقصاء الملك عن شئون الدولة . وعن أى مشورة غير مشورتهما . وخططا معاً لبناء قوات أسبانيا المسلحه واستخدامها لطرد النمساويين من إيطاليا وأستعادة النفوذ الأسبانى فى نابلى وميلان ، وإقامة عروش للأدواق يزينها يوما ما أبناء إيزابيللا البعيدة النظر .

وطلب البيرونى خمس سنين للاستعداد ، فأحل فى المناصب الرئيسية رجالا أكفاء من الطبقة الوسطى محل الكسالى من حملة الألقاب ، وفرض الضرائب على الاكليروس وسجن القساوسة المتمردين (١٣) ، وخرد السفن البالية وبنى خيراً منها ، وأقام القلاع والترسانات على طول السواحل

والحدود ، وأعان الصناعة بالمال ، وشق الطرق ، وزاد من سرعة المواصلات وألغى ضرائب المبيعات ومكس المرور . وقد أنذر السفير البريطانى فى مدريد حكومته بأن أسبانيا لن تنقضى عليها بضع سنين أخر من أمثال هذه الخطى حتى تغدو خطرا على غيرها من دول أوربا[١٤] . ورغبة فى تهدئة هذه المخاوف تظاهر البيرونى بأنه يجند القوات ليعين بها البندقية والبابوية على الترك . والواقع أنه أرسل ست سفن كبيرة إلى كلمنت الحادى عشر ، الذى كافأه بقبعة الكردينالة الحمراء (١٧١٧) . كتب فولتير « أن الملكية الأسبانية قد استأنفت حياة جديدة تحت حكم الكردينال البيرونى[١٥] » .

ومنح كل شيء إلا الوقت . كان يرجو أن يكسب رضاء الفرنسيين والانجليز عن الأهداف الأسبانية فى ايطاليا ، وعرض تنازلات قيمة مقابل هذا الرضا ، ولكن الملك المهمل أفسد هذه المناورات بكشفه عن رغبته فى الحلول محل فليب أورليان حاكما لفرنسا . وانقلب هذا على فليب ، وانضم إلى انجلترا والاقاليم المتحدة فى ميثاق للحفاظ على الترتيبات الاقليمية التى حددتها معاهدة أوترخت . وانتهكت النمسا تلك المعاهدة باكراهها سافوى على اعطائها صقلية مقابل سردانيا . واحتج البيرونى بأن هذا يضع عبر البحر المتوسط دولة ما زال رئيسها يطالب بتاج أسبانيا . ولعن تطور الأحداث بهذه العجالة على غير ما يبغى ثم أذعن لدخول حرب قبل الأوان . واستولى أسطوله الوليد على بلرمو (١٧١٨) . وسرعان ما أخضع جيشه صقلية كلها لسلطة أسبانيا وهنا انضمت النمسا إلى انجلترة وفرنسا وهولنده فى حلف رباعى ضد أسبانيا . وفى ١١ أغسطس ١٧١٨ دمر أسطول بريطانى بقيادة الأميرال بنج الأسطول الأسبانى تجاه ساحل صقلية ، وحبس خيرة جنود أسبانيا فى تلك الجزيرة بينما غزت الجيوش الفرنسية أسبانيا . وطلب فليب وايزابيللا الصلح ، فأجيب الطلب شريطة أن ينفى البيرونى . نفر إلى جنوه (١٧١٩) ، وشق طريقه متخفيا إلى روما عبر لومبارديا التى يملكها النمساويون ، وشارك فى مجمع

الكراولة الذى انتخب البابا انوسقت الثالث عشر ، ومات عام ١٧٥٢ وقد بلغ الثامنة والثمانين . وفى ١٧ فبراير ١٧٢٠ وقع مبعوث أسبانى بلندن معاهدة نزل فيها فليب عن كل حق يدعيه فى عرش فرنسا ، ونزلت أسبانيا عن صقلية للنمسا ، ووعدت انجلتره برد جبل طارق إلى أسبانيا ، وتعهدت الحلفاء بأن يكون لنسل ايزابيللا الحق فى وراثة بارما وتوسكانيا .

وفى مجال السياسة الدولية سرعان ما ينقلب الحلفاء أعداء ، ويصبح الخصوم أصدقاء رسمياً . ودعما للسلام مع فرنسا ، كان فليب قد خطب ابنته ماريا أنا فكتوريا التى لم تسلخ من عمرها سوى عامين، للويس الخامس عشر فى ١٧٢١ ، وأرسل بها إلى فرنسا (١٧٢٢) وسط دهشة الجمع . ولكن فى ١٧٢٥ ردتها فرنسا لعل لويس أن يتزوج امرأة تستطيع الاضطلاع فورا بمهمة انجاب وريث له . ورأت أسبانيا فى هذا الرد اهانة ، فتحالفت مع النمسا ، ووعد الإمبراطور شارل السادس بمساعدة أسبانيا على استعادة جبل طارق ، فلما حاول جيش أسبانى الإستيلاء على ذلك المعقل لم يأت العون من النمسا ؛ وفشلت المحاولة ، ولم تصطلح أسبانيا مع انجلتره وحسب ، بل ردت لهـا احتكار الازينتو Asiento الذى يبيح لها بيع العبيد للمستعمرات الأسبانية ، ومقابل هذا تعهدت بريطانيا بأن تجلس الدون كارلوس ، ابن ايزابيللا ، على عرش دوقية بارما . وفى ١٧٣١ اتجه كارلوس وستة آلاف أسبانى إلى ايطاليا فى حراسة أسطول انجليزى . ونزلت النمسا عن بارما وبياتشنزا لكارلوس رغبة فى الحصول على تأييد بريطانيا وأسبانيا لها فى ارتقاء ماريا تريزا للعرش الامبراطورى. وفى ١٧٣٤ رفع كارلوس نفسه إلى عرش نابلى . وهكذا اكتمل نصر ايزابيللا .

على أن فليب أصابته نوبة من الأكتئاب أخذت بعد عام ١٧٣٦ تنحدر أحيانا إلى درك الجنون . فقبع فى ركن من حجرته ، ظانا أن كل الداخلين عليه ينوون قتله ، وعافت نفسه الأكل مخافة أن يدس له السم فيه . وظل

ر دحا طويلا يأبى أن يبرح فراشة أو يحلق لحيته . وجربت إيزابيلا عشرات الوسائل لشفائه أو تهدئته ، ولكنها أخفقت كلها إلا واحدة . ففى ١٧٣٧ أقنعت فارنيللى بأساليب الملاطفة والتملق أن يجيء إلى أسبانيا . وذات ليلة ، فى جناح ملاصق لجناح الملك ، رتبت حفلا موسيقيا غنى فيه « الخصى » العظيم لحنين من تأليف هاسى . ونهض فليب من فراشة لينظر خلال باب ويرى أى قوة أستطاعت أن تشدو بهذه الأصوات الساحرة . وجاءته ايزابيلا بفارينللى ، فأثنى عليه الملك وعانقه وأمره بأن يطلب ما شاء من مكافأة فتوهب له مهما غلت . وكانت الملكه قد أوصت المغنى بما يجيب ، فلم يطلب إلا أن يسمح الملك بأن تحلق لحيته وأن يرتدى ثيابه ويحضر المجلس الملكى . ووافق الملك وخفت مخاوفه . وبدا أنه شفى كأنما بمعجزة . ولكن حين أقبل المساء التالى أرسل فى طلب فارنيللى ورجاه أن يغنى هاتين الأغنيتين ذاتهما ثانية ، إذ لم يكن فى الأمكان تهدئته لينام إلا بهذه الطريقة . وهكذا أستمرت الحال ليلة إثر ليلة طوال عشر سنين . وكان أجر فارنيللى ٢٠٠,٠٠٠ ريال فى العام ، ولكن لم يسمح له بالغناء إلا فى البلاط . وتقبل هو الشرط شاكرا ، ومع أن نفوذه على الملك كان أقوى من نفوذ أى من وزرائه ؛ فأنه لم يستغلة وأستعمله دائماً للخير ؛ وظل بريئا من روح الرشوة وأكتسب أعجاب الجميع[١٦] .

وفى ١٧٤٦ أمر فليب أن يقام ١٠٠,٠٠٠ قداس لخلاص نفسه . فإذا لم يكن ثمة حاجة لهذا العدد الكبير ليدخل به الجنه فليوهب الفائض للنفوس المسكينة التى لم يتح لها مثل هذا الأستعداد[١٧] . فى ذلك العام قضى فليب نحبه .

٣ — فرديناند السادس

١٧٤٦ — ٥٩

وخلفه على العرش ثانى أبنائه من زوجته الأولى ، فأعطى أسبانيا ثلاثة عشر عاماً من الحكم الشافى من عللها . وعمرت إيزابيلا حتى سنة ١٧٦٦ ،

ولقيت من ابن زوجها معاملة رقيقة مجاملة ، ولكنها فقدت سلطانها على التأثير فى الأحداث . وأصبحت زوجة فرديناند ، ماريا بربارة ، تلميذة سكارلاتى ، هى المرأة التى تقف وراء العرش . ومع أنها كانت مفرطة الولع بالطعام والمال ، فإنها كانت روحاً أرق من إيزابيلا ، وبذلت أكثر همتها لتشجيع الموسيقى والفن . وواصل فارنيللى غناءه للحكام الجدد ، ولم يستطع هاريسكورد سكارلاتى أن ينافسه . وعمل الملك والملكة على إنهاء حرب الوراثة النمساوية ، فقبلا معاهدة إكس - لا - شابل (١٧٤٨) ، مع إنها أعطت توسكانيا للنمسا ، وبعد عام أنهيا اتفاق الازينتو الذى عمر ١٣٦ سنة بدفع ١٠٠,٠٠٠ جنيه لشركة بحر الجنوب تعويضاً عن خسارة امتيازاتها فى تجارة الرقيق .

كان فرديناند رجلا حسن النية ، لطيفاً أميناً ، ولكنه ورث جسدا رقيقاً وكان معرضاً لنوبات من الغضب كان يخجل منها خجلا مؤلما . (١٨) وحمله الوعى بعيوبه على ترك الحكم لوزيرين قديرين - دون خوزيه دى كارفاخال وزينون دى سومو ديفللا ، مركيز انسنادا . وحسن انسنادا أساليب الزراعة ، وأعان بالمال التعدين والصناعة ، وشق الطرق والقنوات ، وألغى المكوس الداخلية ، وأعاد بناء البحرية واستبدل بضريبة البيوع البغيضة ضريبة على الدخل والممتلكات ، ونظم المالية من جديد ، وحطم عزلة أسبانيا الفكرية بإيفاده البعوث من الطلبة إلى الخارج . ويرجع بعض الفضل إلى دبلوماسية انسنادا فى إبرام اتفاق مع البابوية (١٧٥٣) احتفظ للملك بحق فرض الضرائب على الأملاك الكنسية وتعيين الأساقفة للكراسى الأسبانية . وقد حد من سلطان الكنيسة ، وأخضع ديوان التفتيش ، وألغيت الاحتفالات العلنية بإحراق المهرطقين .

واختلف الوزيران فى سياستهما الخارجية . فأما كارفاخال فقد أثر فيه لطف السفير البريطانى المخلص ، السير بنجامين كين ، فاستن سياسة مؤيدة للبريطانيين مسالمة لهم ، وأما انسنادا فقد حابى فرنسا ، وتحرك نحو محاربة انجلترة . وطال صبر فرديناند عليه لأنه قدر نشاطه وكفايته ، ولكنه أقاله

فى النهاية . وبينما كانت كل أوربا تقريباً تتردى فى سنوات سبع من الحرب، منح فرديناند شعبه فترة من السلام والرخاء أطول مما حظيت به أسبانيا منذ أيام فليب الثانى .

وفى ١٧٥٨ ماتت ماريا بربارة .وكان الملك يحبها حباً يوحى بأن السياسة لم يكن لها دخل فى زواجهما ، ومن ثم اعترته حالة من الاكتئاب وتشعث الشعر وإطلاق اللحية ذكرت الناس باكتئاب أبيه من قبل ، وأصابته هو الآخر لوثة فى آخر سنة من عمره . وفى أخريات أيامه كان يأبى الذهاب إلى فراشه مخافة ألا ينهض منه أبدا . ومات فى كرسيه فى ١٠ أغسطس ١٧٥٩ وبكى الجميع الملكين الحبيبين لأن حكمهما كان بركة نسدر أن حظيت بها أسبانيا .

٤ — التنوير يدخل أسبانيا

قصة التنوير فى أسبانيا مثال لقوة عرضة للمقاومة تصطدم بجسم ثابت لا يقبل الحركة . فالخلق الأسبانى ، ووفاؤه لإيمانه الوسيط وفاء كتبه بالدم ، كان يصد كل رياح الهرطقة أو الشك عاجلا أو آجلا ، ويرفض كل دخيل من الزى أو العادات أو الاقتصاد . ولم يحبذ الفكر الدخيل غير قوة اقتصادية واحدة — هى التجار الأسبان الذين كانوا يتعاملون مع الأجانب كل يوم ، ويعرفون أى قوة وثراء حققهما ونظراؤهم فى انجلترة وفرنسا . وكانوا راغبين فى استيراد الأفكار إذا استطاعت أن تضعف من السلطة التى ورثها النبلاء والأكليروس على أرض أسبانيا وحياتها وعقلها . وقد علموا أن الدين فقد سلطانه فى انجلترة ، وسمع بعضهم بنيوتن ولوك ، لا بل أن جبون قدر له أن يجد بعض من يقرؤنه فى أسبانيا (١٩) .

وبالطبع هبت أقوى رياح التنوير من فرنسا . وكان النبلاء الفرنسيون الذين تبعوا فليب الخامس إلى مدريد قد مستهم الزندقة التى أخفت رأسها أيام لويس الرابع عشر ، ولكنها استشرت أيام الوصاية . وفى ١٧١٤ أسس

بعض الدارسين الأكاديمية الملكية الأسبانية محاكاة للأكاديمية الفرنسية ؛ وسرعان ما بدأت وضع معجم لغوى ؛ وفى ١٧٣٧ أضطلعت صحيفة « دياريو دى لوس لتراتوس دى أسبانيا » بمنافسة « الجورنال دى سافان » الفرنسية . وكان الدوق ألبا الذى أشرف على الأكاديمية الملكية عشرين عاماً (١٧٥٦ – ٧٦) شديد الأعجاب بجان – جاك روسو [٢٠] . وفى ١٧٧٣ اكتتب بثمانية جنيهات ذهبية (لوى دور) لتمثال فولتير الذى كان يصنعه بيجال . كتب إلى دالامبير يقول « أننى وقد قضى على بتثقيف عقلى سراً أغتنم هذه الفرصه للشهادة علانية بعرفانى وإعجابى بالرجل العظيم الذى كان أول من دلنى على الطريق[٢١] » .

وحظى كتاب روسو « إميل » بإعلان مجانى حين أحرق فى أحتفال رسمى بكنيسة من كنائس مدريد (١٧٦٥)[٢٢] . وعاد شباب من الأسبان الذين عرفوا بلريس كالمركيز دى مورا الذى عشق جولى دلسبيناس إلى أسبانيا يحملون شيئاً من آثار الشكوكية التى التقوا بها فى الصالونات . وهربت إلى أسبانيا نسخ من أعمال فولتير أوديدرو أو رينال ؛ فأيقظت بعض العقول المخدرة . وكتب صحفى أسبانى فى ١٧٦٣ يقول « كان من أثر الكتب المؤذية الكثيرة التى راجت بين الناس ؛ ككتب فولتير وروسو وهلفتيوس ؛ أن كثر فتور الإيمان فى هذا البلد[٢٣] » . وكان بابلو أولافيدى يجهر بالأفكار الفولتيرية فى صالونه بمدريد (حوالى ١٧٦٦) [٢٤] . وحوت رفوف «الجمعية الاقتصادية لأصدقاء السلام» أعمالا لفولتير وروسو وبيل ودالامبير ومونتسكيو وهوبز ولوك وهيوم[٢٥] . وذكر الأبيه كليمان الذى جاب أرجاء أسبانيا عام ١٧٦٨ أنتشار اللامبالاة بالدين أنتشارا واسعا ، لا بل الكفر بالعقيدة ، المستتر وراء مراعاة الطقوس الكاثوليكية فى الظاهر[٢٦] . وقد أبلغ ديوان التفتيش فى ١٧٧٨ أن كبار موظفى البلاط يقرءون لجماعة الفلاسفة الفرنسيين[٢٧] .

وكان من الأهمية بمكان للتاريخ الأسبانى أن يصبح بدرو أباركا ، كونت أراندا ، خلال رحلة قام بها فى فرنسا ، صديقا لفولتير . وقد تحكم

على علاقاته من نشاطه اللاحق سفيراً لأسبانيا لدى فرساي ، وقد اختلط فى غير تحرج بالموسوعيين فى باريس وقامت بينه وبين دالا مبير صداقة ملؤها الأعجاب به ، وعبر فرنسا ليزور فولتير فى فرنيه . وكان يصرح بولائه الكنيسة فى أسبانيا ، ولكنه هو الذى أقنع شارل الثالث بطرد اليسوعيين ، وبإرشاده انضم شارل إلى صفوف « المستبدين المستنيرين » الذين كان يتطلع إليهم جماعة الفلاسفة باعتبارهم خير معوان لهم فى نشر التعليم والحرية والعقلانية .

٥ — شارل الثالث ١٧٥٩ — ٨٨

١ — الحكومة الجديدة

حين وصل من نابلى كان يناهز الثالثة والأربعين . ورحب به الجميع إلا اليسوعيين [٢٨] الذين ساءهم بيع أسبانيا لمستوطناتهم فى برجواى إلى البرتغال (١٧٥٠) ، وفيما عدا هذا كسب جميع القلوب بإعفاء الناس من الضرائب المتأخرة ، ورد بعض الامتيازات التى فقدتها الأقاليم فى ظل سياسة المركزية التى انتهجها فليب الخامس . وقد جلل موت زوجته ماريا أماليا بالحزن سنة حكمه الأولى لأسبانيا . ولم يتزوج بعدها قط وإنه لمما يشرف آل بوربون الأسبان فى القرن الثامن عشر أنهم ضربوا لملوك أوربا المثل فى الوفاء لأزواجهم والثبات على حبهم .

وقد رسم دبلوماسى بريطانى صورة بريطانية لشارل الذى كانت له مواجهات مع الانجليز فى نابلى .

« للملك مظهر غريب سواء شخصه أو زيه . فهو ضئيل القامة ولون بشرته شبيه بلون المحنة ولم يفصل له سترة طوال هذه السنين الثلاثين ، فالملك يبدو فى سترته وكأنها التركيبة ، وصدريته وسراويل ركوبه من الجلد عادة ، وعلى ساقيه طماق يقيهما من البلل . وهو يخرج للرياضة كل يوم من أيام السنة غير عابىء بمطر أو ريح [٢٩] .

ولكن إيرل برستول — أردف فى ١٧٦١ ، « إن للملك الكاثوليكى مواهب جيدة ، وذاكرة مواتية ، وسيطرة غير عادية على نفسه فى جميع المناسبات . وقد بات يتشكك فى الناس لكثرة ما خدعوه . وهو يفضل دائماً أن ينال موافقة الآخرين على رأيه باللين ، وله من طول الأناة ما يجعله ينصح محدثه المرة بعد المرة دون أن يستعمل سلطته .:. ومع ذلك فرغم سيماء اللطف العظيم البادى عليه استطاع أن يبث الرهبة فى قلوب وزرائه وحاشيته . » [٣٠]

ولم يكن فى تقواه الشخصية ما ينذر بأنه سيهاجم اليسوعيين أو يضطلع بالإصلاحات الدينية . كان يختلف إلى القداس كل يوم . وقد أدهش عدوا إنجليزياً « وفاؤه الأمين العنيد بكل معاهداته ومبادئه وارتباطاته » [٣١] وكان يخصص جزءاً كبيراً من كل يوم من أيام الأسبوع (عدا الأحد) لشئون الحكم . يستقيظ فى السادسة ، ويزور أبناؤه ، ويفطر ، ويعكف على العمل من الثامنة إلى الحادية عشرة ، ويجتمع بوزرائه ، ويستقبل كبار القوم ويتناول غداءه مع غيره ، ويخصص عدة ساعات للصيد ، ويتعشى فى التاسعة والنصف ، ويطعم كلابه ، ويتلو صلواته ، ثم يمضى إلى فراشه . ولعل الصيد كان وقاء صحيا قصـــد به أن يصرف عنه الاكتئاب الموروث فى الأسرة .

وبدأ ببعض الأخطاء الخطيرة . ذلك أنه لجهله بأسبانيا التى لم يرها منذ كان فى السادسة عشرة اتخذ اثنين من الايطاليين كانا قد أخلصا فى خدمته بنابلس مساعدين أثيرين لديه : المركيز دى جريمالدى فى السياسة الخارجية ، والمركيز دى سكللاتشى فى الشئون الداخلية .

وقد وصف ايرل برستول سكللاتشى هذا بأنه « غير ذكى . أنه مولع بالعمل ولا يشكو أبدا من كثرته رغم تنوع إدارات الحكومة التى تتركز فيه . . . وأعتقد أنه غير قابل للارتشاء ، ولكننى لا أريد أن أكون مسئولا بهذا القدر عن زوجته » [٣٢] ولم يحب جرائم مدريد ولا روائحها الخبيثة ولا ظلمتها ؛ ومن ثم فقد نظم لها شرطة نشيطة وفرقة لتنظيف شوارعها ، وأنار

العاصمة بخمسة آلاف مصباح . وأباح الاحتكارات لتزويد المدينة بالزيت والخبز وغيرهما من الضروريات . وحدث أن الجفاف رفع الأسعار ، فطالبت الجماهير برأس سكللاتشى . وقد أغضب رجال الدين بلوائح حدت من امتيازاتهم وسلطتهم . وفقد المئات من المؤيدين حين صادر الأسلحة المخبأة . وأخيرا أثار ثائرة الشعب بمحاولته تغيير زى الشعب . فقد أقنع الملك بأن العباءة أو الكاب الطويل الذى يخفى البدن والقبعة العريضة ذات الحافة المقلوبة التى تخفى كثيرا من الوجه ، يسهلان إخفاء السلاح ويعوقان الشرطة عن التعرف على المجرمين . ومن ثم حظرت سلسلة متعاقبة من المراسيم الملكية الكاب والقبعة ، وزود رجال الضبط بالمقصات الكبيرة يقصون بها العباءات المخالفة حتى يصلوا بها إلى الطول القانونى (٣٣) . وكان فى هذا من التحكم فوق ما يطيقه المدريديون الأباة . فثاروا فى أحـد الشعانين ، ٢٣ مارس ١٧٦٦ ، واستولوا على مخازن الذخيرة ، وأطلقوا السجناء ، وتغلبوا على الجنود والشرطة ، وهاجموا بيت سكللاتشى ، وحصبوا جريمالدى ، وقتلوا الحرس الولونى الذين يحرسون القصر الملكى ، وجابوا الشوارع يرفعون رءوس هؤلاء الدخلاء الممقوتين على الرماح متوجة بقبعات عريضة الحواف . وظل الرعاع يومين يواصلون التقتيل والنهب . وهنا أذعن شارل ، وألغى المراسيم ، وأعاد سكللاتشى إلى إيطاليا محروسا . وكان فى غضون ذلك قد اكتشف مواهب الكونت أراندا ، وعينه رئيساً لمجلس قشتاله . فجعل أراندا العبـاءة والصمبريرة Sombrero أى القبعة العريضة الحافة الزى الرسمى للبلاد . وكان فى هذا المعنى الجديد المتضمن ما زهد الناس فى ارى القديم ، ومن ثم اتخذ معظم أهل مدريد الزى الفرنسى .

كان أراندا سليل أسرة عريقة غنية فى أراجون . رأيناه يتشرب التنوير فى فرنسا ، كذلك ذهب إلى بروسيا حيث درس التنظيم العسكرى ثم عاد إلى أسبانيا متشوقا إلى العمل على أن يصل وطنـه إلى مستوى تلك الدول الشمالية . وأفرط أصحابه الموسوعيون فى الجهر باغتباطهم لتقلده السلطة ، وأحزنه أنهم بذلك زادوا مهمته صعوبة ، (٣٤) وود لو أنهم درسوا

الدبلوماسية من قبل . وقد عرف الدبلوماسية السياسية بأنها فن « اعادة تنظيم قوة مختلف السلطات ، ومواردها ، ومصالحها ، وحقوقها ، ومخاوفها وآمالها ، حتى إذا سمحت المناسبة استطعنا أن نهدئ من هذه القوى ، أو نفرق بينها ، أو نهزمها أو نتحالف معها ، وذلك رهن بكيفية خدمتها لمصالحنا وزيادتها لأمننا » (٣٥) .

وكان الملك فى حالة نفسية مواتيه لإصلاحات الكنيسة لتوجسه من أن الاكليروس شجعوا الثورة على سكللاتشى سراً (٣٦). وكان قد أذن للمطبعة الحكومية فى أن تطبع عام ١٧٦٥ مقالا غفــلا من اسم الكاتب عنوانه Tratado de la regalia de l'amortizaction. تشكك فى حق الكنيسة فى جمع الثروة العقارية ، وزعم أن الكنيسة ينبغى أن تكون خاضعة للدولة فى جميع الأمور الزمنية .وكان المؤلف هو كونديه بدرو رودريجر دى كومبومانيس ، وكان عضواً فى مجلس قشتالة . وكان شارل قد أصدر عام ١٧٦١ أمراً يشترط موافقة الملك على نشر الأوامر أو الرسائل البابوية فى أسبانيا ، وفى تاريخ لاحق ألغى هذا الأمر . ولكنه عاد فجدده فى ١٧٦٨ . وأيد الآن أراندا وكومبومانيس فى سلسلة من الإصلاحات الدينية شكلت من جديد وجه أسبانيا الفكرى طوال جيل مثير .

٢ — الإصلاح الدينى الأسبانى

لم يكن فى نية المصلحين الأسبان أن يقضوا على الكاثوليكية فى أسبانيا — ربما باستثناء أراندا . وكانت الحروب الطويلة التى خاضتها البلاد لطرد العرب (كالكفاح الطويل لتحرير إيرلنده) قد جعلت الكاثوليكية جزءاً من الوطنية وكثفتها إلى درجة إحالتها إلى إيمان قدسته تضحيات الأمة تقديساً لا يتيح التحدى الناجح أو التغيير الجذرى. وكان أمل المصلحين أن يخضعوا الكنيسة لإشراف الدولة ، وأن يحرروا عقل أسبانيا من رهبة محكمة التفتيش . وقد بدأوا بمهاجمة اليسوعيين .

كانت جماعة اليسوعيين قد ولدت بأسبانيا فى عقل اغناطيوس لويولا

وتجاربه ، وكان نفر من أعظم قادتها من أسبانا . وكما حدث فى البرتغال ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والنمسا اضطلعت الجماعة بالتعليم الثانوى ، وزودت الملوك والملكات بآباء الاعتراف ، وشاركت فى تشكيل السياسات الملكية . وقد أثار سلطانها المتسع غيرة الأكليروس الكاثوليكى غير الرهبانى ، وأحياناً عداءه .وكان بعض هؤلاء يؤمنون بأن سلطة المجامع المسكونية تعلو على سلطة البابوات ، أما اليسوعيين فقد دافعوا عن سمو سلطة البابوات على سلطة المجامع والملوك . وشكا رجال الأعمال الأسبان من أن اليسوعيين المشتغلين بتجارة المستعمرات يبيعون بأسعار أقل من التجار المحترفين بفضل مايتمتعون به من إعفاءات كنسية من الضرائب ، وقرروا أن هذا يقلل من الإيرادات الملكية . وآمن شارل بأن اليسوعيين مازالوا يشجعون مقاومة هنود براجواى لأوامر الحكومة الأسبانية [٣٧] ؛ وروعه أن يطلعه أراندا وكامبومانيس وغيرهما على خطابات أدعوا أنهم وجدوها بين رسائل اليسوعيين ، وقد صرح أحد هذه الخطابات الذين زعموا أن كاتبه هو الأب ريكي قائدالطائفة اليسوعية ، بأن شارل ابن غير شرعى ويجب أن يحل محله أخوه لويز . وقد رفض الكاثوليك وغير المؤمنين على السواء صحة هذه الخطابات [٣٩] ، ولكن شارل ظنها صحيحة وانتهى إلى أن اليسوعيين يأتمرون لخلعه ، وربما لقتله[٤٠]. ولحظ أن محاولة — زعموا أن اليسوعيين كانوا ضالعين فيها — بذلت لاغتيال يوسف الأول ملك البرتغال (١٧٥٨)، فصحت نيته على أن يحذو حذو يوسف ويطرد الطائفة من مملكته .

وحذره كامبومانيس من أن خطوة كهذه لن يتاح لهـا النجاح إلا بالإستعدادات المستورة تتبعها ضربه فجائيه مدبرة ، وإلا إستطاع اليسوعين الذين كانوا يحظون بتبجيل الشعب أن يثيروا ضجه مؤذية فى الأمه وممتلكاتها جميعا . وعملا بأقتراح أراندا أرسلت رسائل مختومة ممهورة بتوقيع الملك فى مطلع عام ١٧٦٧ إلى الموظفين فى جميع أرجاء الإمبراطورية مشفوعة بالأمر بعدم فضها إلا فى ٣١ مارس فى أسبانيا ، وفى ٢ أبريل فى المستعمرات ،

وألا كان الموت عقاب المخالفين . وفى ٣١ مارس أستيقظ اليسوعيون الأسبان ليجدوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود ، ويجدوا أنفسهم معتقلين. وأمروا بالرحيل فى هدوء ، غير مصطحبين سوى ما يطيقون حمله ، أما سائر ممتلكات اليسوعين فقد صادرتها الدولة . ومنح كل مبعد معاشا صغيرا يوقف أن عارض أى يسوعى فى طرده . ثم أخذوا فى عربات تحت الحراسه العسكرية إلى أقرب ميناء وأركبوا السفن إلى إيطاليا . وبعث شارل بكلمة إلى البابا كلمنت الثالث عشر يخبره أنه « ينقلهم إلى الأراضى الكنسية ليظلوا تحت أشراف قد استه الحكيم العاجل . . . . وأنى أرجو من قد استكم إلا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطا مدنيا لا غنى عنه ، لم أتخذه إلا بعد البحث الناضج والتفكير العميق[41] » .

فلما حاولت أولى السفن التى كانت تحمل سمائة من اليسوعيين ، أن تنزلهم فى تشيفبتافكيا ، رفض الكردينال توريجيانى ، السكرتير البابوى ، السماح لهم بالرسو محتجا بأن إيطاليا لا تستطيع بهذه السرعه المفاجئة أن تعنى بهذا العدد الكبير من اللاجئين[42] . وظلت السفينة الأسابيع تجوب البحر المتوسط باحثة عن ميناء مضياف بينما يعانى ركابها البائسون من رداءة الجو ومن الجوع والمرض . وأخيرا سمح لهم بالنزول فى قورسقه ، وبعد حين أستوعبتهم الولايات البابوية فى جماعات سهلة القيادة . ولقى اليسوعيون فى غضون هذا النفى المماثل من نابلى ويارما وأمريكا الأسبانية والفلبين . وناشد كلمنت الثالث عشر شارل الثالث أن يلغى هذه المراسيم التى سيصعق العالم المسيحى كله لا محالة لما فيها من مباغتة وقسوة . فأجاب شارل « أننى لرغبتى فى أن أعفى العالم من فضيحه كبرى سأظل ما حييت مخبئا فى قلبى سر المؤامرة النكراء التى أقتضت هذه الصرامة . وينبغى لقداستكم أن تصدقوا كلمتى . فسلامة حياتى تفرض على الصمت العميق[43] » .

ولم يفصح الملك قط عن الأدله التى أقام عليها مراسيمه . وفى التفاصيل من التناقض والغموض ما يجعل المرء عاجزا عن الحكم عليها . وقد اعترض

دالامبير على الطريقة التى نفى بها اليسوعيون ، ولم يكن بصديق لهم . فنى ٤ مايو ١٧٦٧ كتب إلى فولتير يقول :

« ما رأيك فى مرسوم شارل الثالث الذى طرد اليسوعين على هذا النحو المفاجىء ؟ ألا ترى ، رغم إقتناعى بأن لديه مبررات كافية ووجيهة ، بأنه كان ينبغى أن يفصح عنها لا أن يحبسها فى « قلبه الملكى » ؟ إلا ترى أنه كان ينبغى له أن يسمح لليسوعيين بتبرير أنفسهم ، لا سيا لأن الجميع واثقون أنهم ما كانوا يستطيعون هذا ؟ وألا ترى أيضا أن من الظلم البين لهم أن يتركوا جميعا ليموتوا جوعا بينما الواجب على أخ علمانى واحد ، ربما يقطع الكرنب الآن فى المطبخ ، أن يقول كلمة بطريقة أو بأخرى فى الدفاع عنهم ؟ . . . إلا يبدو لك أنه كان مستطيعا أن يتصرف بتعقل أكثر فى تنفيذ أمر هو رغم كل شىء أمر معقول[٤٤] » ؟

أكان طردهم اجراء محببا لدى الشعب ؟ بعد عام من إستكمال هذا الطرد وفى عيد القديس شارل ، طلع الملك على شعبه من شرفة قصره ، فلما سألهم جريا على عادة مألوفه عندهم أى منحة يرغبون فى أن يهبهم صاحوا « بصوت واحد » أن يسمح لليسوعيين بالعودة ، وأن يلبسوا رداء الأكليروس غير الرهبانى — فأبى شارل ، ونفى رئيس أساقفة طليطلة متهما أياه بأنه المحرض على الإلتماس الذى أشتبه فى أنه يهدف إلى التوفيق[٤٥] . ولما طلب البابا فى ١٧٦٩ إلى أساقفة أسبانيا رأيهم فى طرد اليسوعيين ، وافق عليه أثنان وأربعون ، وعارضه ستة ، ولم يبد ثمانية رأيا فى الأمر[٤٦] . وأغلب الظن أن الكهنة من غير الرهبان كانوا مغتبطين باعفائهم من منافسة اليسوعيين لهم . ووافق الآخوة الأوغسطينيون فى أسبانيا على الطرد ، ثم أيدوا بعد ذلك مطالبة شارل الثالث بفض جماعة اليسوعيين بجملتها[٤٧] .

أما ديوان التفتيش فلم يكن فى الأمكان إتخاذ إجراء معجل كهذا معه ، فقد كان أعمق من جمعية اليسوعيين تغلغلا فى رهبة وتقاليد الشعب الذى عزا إلى الديوان الفضل فى صيانة الأخلاق والاحتفاظ ببقاء إيمانهم — بل حتى

تقاء دمائهم . وحين ولى شارل العرش كان الديوان يسيطر على عقل أسبانيا برقابة صارمة ساهرة . فأى كتاب تظن به الهرطقه الدينية أو الإنحراف الخلقى يقدم إلى الفاحصين ، فإذا رأوم خطرا بعثوا بتوصياتهم إلى مجلس ديوان التفتيش ، وللمجلس سلطة الأمر بمصادرة الكتاب وعقاب مؤلفه . وكان الديوان يصدر دوريا فهرسا بالكتب المحرمة ، وكان احراز كتاب منها أو قراءته دون إذن كنسى جريمة لا يغفرها إلا ديوان التفتيش ، وقد يعاقب مرتكبها بالجرم . وكان على القساوسة خصوصا فى الصوم الكبير أن يسألوا جميع المعترفين بذنوبهم أن كانوا يملكون أو يعلمون أن أنسانا يملك كتابا محظورا. وكل مقصر فى الإبلاغ عن أنتهاك للفهرس يعتبر مذنبا كمنتهكه ، وما كان لأية روابط أسرية أو علاقات ودية أن تعفيه من العقاب[٤٨] .

ولم ينجز وزراء شارل فى هذا المضمار سوى أصلاحات صغيرة . فى ١٧٦٨ حد من سلطة الديوان فى رقابة المطبوعات باشتراط الحصول على التصديق الملكى على جميع المراسيم المحرمة للكتب قبل تنفيذها . وفى ١٧٧٠ أمر الملك محكمة الديوان بأن تقتصر على الهرطقة والإرتداد دون غيرهما ، وإلا تسجن إنسانا ما لم يثبت ذنبه على نحو قاطع . وفى ١٧٨٤ أمر بأن تعرض عليه اجراءات الديوان الخاصة بكبار النبلاء ، وأعضاء مجلس الوزراء والموظفين الملكيين ، لمراجعتها . ثم عين رئيسا عاما للديوان أبدى موقفا أكثر تحررا بأزاء خلافات الفكر[٤٩] .

وكان لهذه الاجراءات المتواضعة بعض الأثر ، لأن الرئيس العام لديوان التفتيش قرر فى حزن أن الخوف من اللوم الكنسى على قراءة الكتب المحرمة يكاد يصبح فى خبر كان[٥٠] ، وكان وكلاء الديوان بعد ١٧٧٠ بوجه عام أقل غلوا ، وعقوباته أرحم من ذى قبل . ومنح التسامح الدينى للبروتستنت فى عهد شارل الثالث ، وللمسلمين فى ١٧٧٩ ، وأن لم يمنح لليهود[٥١] . وفى عهد شارل الثالث أحتفل بأحراق المنحرفين أربع مرات ، آخرها عام ١٧٨٠ فى أشبيلية حين أحرقت عجوز أتهمت بالسحر ، وأثار إعدامها

هذا من النقد فى كل ارجاء أوربا[٥٢] ما مهد الطريق لالغاء ديوان التفتيش الأسبانى فى ١٨١٣ .

ومع ذلك ظلت حرية الفكر إذا أعرب صاحبها عنها حتى فى عهد شارل الثالث تعاقب قانونا بالموت . ففى ١٧٦٨ أتهم بابلو أولافيدى أمام ديوان التفتيش بحيازته صورا بذيئه فى بيته بمدريد ، وربما كانت نسخا من عرايا بوشيه ، لأن أولافيدى كان قد جاب فرنسا حتى فرنيه . ثم رمى بتهمه أخطر فى ١٧٧٤ ، هى أنه لم يسمح بأقامة أديرة فى القرى النموذجيه التى أنشأها فى سيبرا مورينا ، وأنه حظر على الكهنه تلاوة القداس فى غــير يوم الأحد أو طلب الصدقات . وأحاط ديوان التفتبش الملك بأن هذه الجرائم وغيرها قد أثبتت بشهادة ثمانين شاهدا . وفى ١٧٧٨ أستدعى أولافيدى لمحاكمته وأتهم بتأييده نظرية كوبرنيق الفلكية وتراسله مع فولتير وروسو . فرجع الرجل عن أخطائه وتصالح مع الكنسيه ، وصودرت كل أملاكه ، وحكم عليه بالحبس فى دير ثمانية أعوام . وفى ١٧٨٠ تداعت صحته ، وسمح له بالأستشفاء بمياه منتجع معدنى فى قتلونيه ، ومنها فر إلى فرنسا . حيث أستقبله أصحابه الفلاسفة فى باريس استقبال الأبطال . ولكنه لم يقض فى منفاه بضع سنوات حتى أستبد به الحنين إلى مغانيه الأسبانيه . فألف كتابا مشربا بروح التقوى عنوانه « الإنجيل المنتصر أو الفيلسوف المهدى » وعليه أذن ديوان التفتيش بعودته[٥٣] .

ونلاحظ أن محاكمة أولافيدى جرت بعد سقوط أراندا من رآسة مجلس قشتالة وفى أخريات حكم أراندا أنشأ مدارس جديدة يقوم بالتدريس فيها أكليروس غير رهبانى لملء الفراغ الذى خلفه اليسوعيون ، وأصلح العمله باحلال نقود من نوع جيد وتصميم أرقى محل العملات المملوقه (١٧٧٠). على أن إحساسه بأستنارته الفائقة جعله بمضى الزمن نزقا متغطرسا وقحا . فبعد أن جعل سلطة الملك مطلقة سعى إلى تقييدها بزيادة نفوذ الوزراء . وفقد القدرة على الرؤية المتناسية وتقدير الأمور فى أوضاعها الصحيحة ، وحلم باخراج أسبانيا بعد جيل واحد من كتلتها المطمئنه إلى تيار الفلسفه

الفرنسية . وأعرب فى جرأة مغالية عن أفكاره المهرطقة ، حتى لكاهن اعترافه . ومع أن الكثير من رجال الأكليروس غير الرهبان أيدوا بعض إصلاحاته الكنسيه لمـا فيها من نفع للكنسيه(٥٤) ، فأنه أخاف عددا أكبر بالكشف عن أمله فى حل ديوان التفتيش جملة(٥٥) . وأشتد كره الناس له حتى أنه لم يجرؤ على الخروج من قصره دون حرس . وراح يكثر من الشكوى من ثقل أعباء وظيفته حتى أخذه شارل آخر الأمر عند كلمته فأوفده سفيرا إلى فرنسا (١٧١٣ — ٨٧) وهناك تنبأ بأن المستعمرات الانجليزيه فى أمريكا ، التى بدأت ثورتها آنذاك ، ستصبح فى الوقت المناسب من أعظم دول العالم(٥٦) .

٣ — الاقتصاد الجديد

سيطر على الوزارة بعد رحيل أراندا ثلاثة من الرجال الاكفاء . فخلف خوزيه موئينو ، كونت فلوريدا بلانكا ، جريمالدى وزيراً للشئون الخارجية (١٧٧٦) ، وسيطر على مجلس الوزراء حتى عام ١٧٩٢ . وقد تأثر بالفلاسفة الفرنسيين كما تأثر أراندا ولكن بدرجة أقل . وأرشد الملك فى اجراءات لتحسين الزراعة والتجارة والتعليم والعلوم والفنون ، ولكن الثورة الفرنسية أخافته فانتكس محافظا ، وقاد أسبانيا إلى أول تحالف ضد فرنسا الثورة (١٧٩٢) . أما بدرو دى كامبومانيس فقد ترأس مجلس قشتالة خمس سنين ، وكان المحرك الأول فى الاصلاح الاقتصادى . وأما جسبار ملكور دى خوفللانوس ، أرفع الأسبان فى جيله(٥٧) ، فقد عرفته الجماهير أول ما عرفته قاضيا رحيما نزيها فى أشبيلية (١٧٦٧) ومدريد (١٧٧٨) . وجاء أكثر نشاطه فى الحكومة المركزية تاليا لعام ١٧٨٩ ، ولكنه أسهم إسهاما قوياً فى السياسية الاقتصادية أيام شارل الثالث بكتاب ألفه فى الاصلاح الزراعى (١٧٨٧) . وقد أذاع اقتراحه مراجعة القانون الزراعى ،وهو الاقتراح الذى كتبه برشاقةأسلوب كاد يدانى بها رشاقةأسلوب شيشيرون ، شهرته فى أوروبا طولا وعرضا . هؤلاء الثلاثة ، بالاضافة إلى أراندا، كانوا أباء التنوير الأسبانى والاقتصاد الجديد . ويرى دارس انجليزى، بوجه عام ، أن النتيجة الطيبة التى حققوها تضارع ما تحقق فى مثل هذا

الزمن القليل فى أى بلد آخر ، ولا ريب فى أن تاريخ أسبانيا لا يحوى فترة يمكن مقارنتها بحكم شارل الثالث[٥٨] .

كانت العقبات التى اعترضت الاصلاح فى أسبانيا لاتقل خطرا فى الاقتصاد عنها فى الدين . فقد بدأ تركيز الملكية الثابته فى الأسر الشريفه أو الجماعات الكنسية ، واحتكار « المستا » لإنتاج الصوف ، حاجزين فى وجه التغيير الاقتصادى لاسبيل إلى التغلب عليهما . وكان ملايين الأسبان يفخرون بحياة الكسل التى يحيونها ، ولا يخجلون من التسول ، وكانوا لايثقون فى التغيير لأنه خطر يهدد التبطل(*). وكان المال يختزن فى خزائن القصور والكنائس بدلا من استثماره فى التجارة أو الصناعة. وكان طرد المغاربة واليهود والموريسكو قد أزال كثيرا من مصادر تحسين الزراعة وتطوير التجارة . وقد نجم عن صعوبات الاتصال والنقل الداخليين أن تخلف داخل البلاد قرنا عن برشلونه واشبيلية ومدريد .

على أن فريقا من صادق النية — نبلاء وقساوسه وأفرادا من طبقة العامة رجالا ونساء — كونوا رغم هذه المعوقات « جمعية اقتصادية لأصدقاء السلام » لدراسة وتشجيع التعليم والعلوم والصناعة والتجارة والفنون . فأنشأوا المدارس والمكتبات ، وترجموا الأبحاث الأجنبية وقدموا الجوائز على المقالات والأفكار ، وجمعوا المال لمشروعات وتجارب اقتصادية تقدمية. وقد أدانوا تكديس الأمة للذهب باعتباره أثراً مذكراً بالركود ، وذلك اعترافاً منهم بتأثير الطبيعيين الفرنسيين وآدم سمث . وأكد واحد منهم : « ان الأمة التى تملك معظم الذهب هى أفقر الأمم ... كما أثبتت أسبانيا[٦٠]». ورحب خوفللانوس بـ « علم الاقتصاد المدنى » باعتباره « علم الدولة الحقيقى». وكثرت المقالات الاقتصادية . وكان مقال كامبومانيس عن الصناعة الشعبية إلهاما للآلاف ومنهم الملك .

(*) قرر قانون أراجونى أن يزود كل نبيل من طبقة الهيدلج كلا من أبنائه بمعاش لأنه « لا يليق بالنبيل أن يشتغل » (٥٩) .

وبدأ شارل باستيراد الغلال والبذور للأقاليم التي اندثرت فيها الزراعة. وحث المدن على أن تؤجر أراضيها المشاع غير المزروعة للفلاحين بأقل إيجار عملي . وأنشأ فلوريدا بلانكا ببعض إيرادات التاج من دخول الرتب الكنسية الشاغرة أرصدة دينية في بلنسية وملقا لاقراض المال للمزارعين بفائدة منخفضة . ولكي يحد شارل من ازالة الغابات وتعرية التربة أمر جميع الكومونات بأن تزرع كل سنة عدداً محدداً من الاشجار . ومن هنا ذلك الاحتفال السنوى بـ « يوم الشجرة » الذى ظل فى نصفى الكرة تقليداً صحياً أيام شبابنا . وقد شجع اغفال الأوقاف القديمة ، وثبط وقف الجديد منها ، وبهذا يسر تجزئة الضياع الكبيرة إلى ملكيات للفلاحين . ثم اختزلت امتيازات إحتكار أغنام المستا اختزالا حاداً وأبيح زرع مساحات كبيرة من الأرض كانت من قبل حكرا للرعى . واستقدم المستعمرون الأجانب لتعمير المناطق الخفيفة السكان . مثال ذلك أن أولافيدى انشأ (١٧٦٧ وما بعدها) فى اقليم سيرا مورينا بجنوب غربى أسبانيا ، الذى كان إلى ذلك الحين متروكا للصوص والوحوش ، أربعا وأربعين قرية وإحدى عشرة مدينة مأهولة بالوافدين الفرنسيين أو الألمان ، وأصبحت هذه المستوطنات مشهورة برخائها . وشقت القنوات الطويلة لربط الأنهار ورى مساحات واسعة من الأرض كانت من قبل جرداء قاحلة . ثم شقت شبكة من الطرق الجديدة كانت فى فترة خير الطرق فى أوربا (٦٢) ، فربطت القرى والمدن فى تيسير يعين على سرعة المواصلات والنقل والتجارة .

ومدت الحكومة يد العون للصناعة . ورغبة فى إزالة الوصمة التى ألصقتها التقاليد بالعمل اليدوى ، أعلن مرسوم ملكى أن لاتعارض بين الأعمال الحرفية وشرف المكانة الاجتماعية ، وأن الحرفيين يصح منذ الآن اختيارهم للوظائف الحكومية . وانشئت المصانع النموذجية : للمنسوجات فى وادى الحجارة وسقوبية ، وللقبعات فى سان فرناندو ، وللحرائر فى طلبيره ، وللصينى فى بوين رتيرو ، وللزجاج فى سان إلدفونسو ، وللزجاج والأثاث الخشبى الفاخر وقطع النسيج المرسوم فى مدريد . وشجعت المراسيم الملكية تطور

الإنتاج الرأسمالى على نطاق واسع ، لاسيما فى صناعة النسيج . فكان فى وادى الحجارة عام ١٧٨٠ ثمانمائة نول تستخدم أربعة آلاف نساج ، وأدارت شركة واحدة فى برشلونه ستين مصنعا تضم ١٦٢ر٢ نولا نساج القطن ، وكان فى بلنسيه أربعة آلاف نول تنسج الحرير ، وأخذت تنافس تجارة ليون فى الحرير لما حظيت به من امكانات التصدير . وفى ١٧٩٢ كان فى برشلونة ثمانون الف نساج ، ولم يفقها فى انتاج الأقمشة القطنية غير أقاليم إنجلترة الوسطى .

وكانت أشبيلية وقادس تتمتعان منذ عهد بعيد باحتكار تحميه الدولة للتجارة مع الممتلكات الأسبانية فى الدنيا الجديدة ، فانهى شارل الثالث هذا الامتياز وسمح لمختلف الثغور بالاتجار مع المستعمرات ، ثم أبرم بعد التفاوض مع تركيا معاهدة (١٧٨٢) فتحت الموانى الإسلامية للسلع الأسبانية . وكانت النتائج مجزية لجميع الأطراف . وازداد ثراء أمريكا الأسبانية سريعا ، وارتفع دخل أسبانيا من أمريكا ثمانمائة فى المائة فى عهد شارل الثالث ، وتضاعفت تجارة صادرها ثلاث مرات(٦٣) .

وتطلبت أنشطة الحكومة المتسعة دخـــولا أكبر . وقد أمكن الحصول عليها إلى حد ما باحتكار الدولة لبيع البراندى ، والتبغ ، وورق اللعب ، والبارود ، والرصاص ، والزئبق ، والكبريت ، والملح . وفى بداية العهد كانت هناك ضرائب مبيعات نسبتها خمسة عشر فى المائة فى قتلونيا ، وأربعة عشر فى قشتاله . وقد وصف خوفللانوس ضرائب المبيعات بحق إذ قال « إنها تفاجىء ضحيتها ... عند ميلادها ، وتطاردها وتعترضها حين تدور ، ولا تغفل عينها عنها أبدا أو تدعها تفلت منها حتى تقضى عليها . »(٦٤) وفى عهد شارل الثالث الغيت ضريبة المبيعات فى قتلونيا ، وفى قشتالة خفضت إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة فى المائة(٦٥). وفرضت ضريبة متدرجة معتدلة على الدخول . وضمانا للمزيد من المـــال بتشغيل مدخرات الشعب ، أقنع فرانسسكو دى كاباروس الخزانة بأن تصدر سندات حكومية تغل فائدة . فلما هبطت هذه السندات إلى ثمانية وسبعين فى المائة من قيمتها الأسمية ،

أسس (١٧٨٢) أول مصرف قومى أسبانى — بنكو دى سان كارلوس — استهلك السندات بقيمتها الأسمية وأعاد الثقة المالية بالدولة .

وأثمر حسن الإدارة وروح الأقدام زيادة محسوسة فى ثروة الأمة فى جملتها . وكان أكثر الطبقات انتفاعا هى الوسطى ، لأن منظماتها هى التى أعادت تشكيل الاقتصاد الأسبانى . ففى مدريد كون ٣٧٥ من رجال الأعمال خمس نقابات تجارية كبرى سيطرت على معظم تجارة العاصمة . ونستطيع الحكم على مبلـــغ ثرائها من استطاعتها أن تقرض الحكومة عام ١٧٧٦ ثلاثين مليون ريال (٦٦) .

وقد حبذت الحكومة بوجه عام ظهرر طبقة رجال الأعمال هذا باعتباره أمراً لاغنى عنه لتحرير أسبانيا من الاعتماد الاقتصادى والسياسى على دول ذات اقتصاد أرقى . ولم تحظ البرولتاريا الناشئة ، هنا شأنها فى تلك الدول ، بنصيب مذكور فى الثراء الجديد . وارتفعت الأجور لاسيما فى قتلونيه حيث شكا الأغنياء من صعوبة العثور على الخدم والاحتفاظ بهم (٦٧) ، ولكن يمكن القول بوجه عام أن الأسعار ارتفعت بأسرع من ارتفاع الأجور ، وإن الطبقات العاملة كانت فقيرة فى ختام العهد فقرها فى مطلعه . وقد لاحظ إنجليزى حساب بلنسيه فى ١٧٩٧ ذلك التناقض بين (ثراء . . التجـــار ، وأصحاب المصانع ،ورجال الدين ، والعسكريين ، والسادة من ملاك الأرض و « الفقر ، والبؤس ، والأسمال » التى ترى فى كل شارع (٦٨). وعليـــه فقد رحبت الطبقات الوسطى بالتنوير Luees الآتى من فرنسا وإنجلترة فى حين كان موظفوهم الذين ملأوا الكنائس ولثموا المزارات يعزون أنفسهم بالنعمة الآلهية وبآمال الفردوس .

واتسعت المدن فى ظل الاقتصاد الجديد . وكان يعيش فى المراكز البحرية الكبرى — برشلونه وبلنسيه واشبيليه وقادس — سكان يتفاوتون من ٨٠٫٠٠٠ إلى ١٠٠٫٠٠٠ (١٨٠٠). وكان يسكن مدريد (فى ١٧٩٧) ١٦٧٫٦٠٧ ، بالإضافة إلى ٣٠٫٠٠٠ من الأجانب . وحين ولى شارل الثالث العرش كانت المدينة تشتهر بأنها أقذر عواصم أوربا . وكان الناس من سكان

الأحياء الفقيرة لا يزالون يفرغون قمامتهم فى الشوارع معتمدين على الريح أو المطر لتبديدها ، فلما حظر شارل هذه العادة رموه بالطغيان . قال « إن الأسبان أطفال يبكون حين يحممون[٦٩] » . وقد أقام موظفوه رغم هذا نظاما لجمع القمامة وللصرف ، ونظم الزبالون لجمع النفاية لاستخدامها سمادا[٧٠] ، وبذل جهد لمنع التسول ولكنه باء بالفشل ، ورفض الشعب السماح للشرطة بالقبض على المتسولين — لا سيما المكفوفين منهم الذين شكلوا نقابة قوية فيما بينهم .

وأصلح شارل من أمر عاصمته عاما بعد عام . فجيء لها بالماء من الجبال إلى سبعمائة نافورة ، حمله منها ٧٢٠ سقاء فى مشقة وعناء لتوزيعه على بيوت المدينة . وأضيئت الشوارع بمصابيح الزيت من الغسق إلى نصف الليل طوال شهور ستة فى الخريف والشتاء ، وكان أكثر الشوارع ضيقا ملتويا يتبع دروبا عتيقة متعرجة ويتوارى من شمس الصيف ، ولكن بعض الشوارع المشجرة العريضة الجميلة شقت ، وتمتع الشعب بالبساتين الفسيحة والمماشى الظليله . وكان أحبها إلى الناس (باسيوديل برادو) أو متنزه المرج ، الذى لطفت هواءه النوافير والأشجار ، وفضله العشاق للاستطلاع ولقاءات الغرام . وهناك فى ١٧٨٥ بدأ خوان دى فيللا نوفا تشـــييد متحف البرادو . وهناك فى أى يوم تقريبا كانت تجرى أربعمائة مركبة ، وفى أى عشية كان يتجمع ثلاثون ألف مدريدى . وحظـــر عليهم التغنى بالأغانى البذيئة ، أو الاستحمام عراة فى النوافير ، أو عزف الموسيقى بعد منتصف الليل ، ولكنهم كانوا يستمتعون بأصوات النساء الرخيمة وهن ينادين على البرتقال والليمون والبندق . ذكر الرحالة أن المشهد الذى كان يرى كل يوم على البرادو فى أخريات القرن الثامن عشر كان يعدل ما يرى فى مدن أخرى فى الفترة نفسها فى الآحاد والعطلات فقط [٧١] ، وأصبحت مدريد آنئذ ، كما عادت فى عصرنا هذا ، من أجمل مدن أوربا .

لم ينجح شارل الثالث فى السياسة الخارجية نجاحه فى الشئون الداخلية . وبدا أن ثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا تتيح فرصة الانتقام للخسائر التى منيت بها أسبانيا فى حرب السنين السبع ، فحث أراندا شارل على تقديم

العون للثوار ، فبعث لهم الملك سرا بمليون جنيه (يونيو ١٧٧٦) . وأفضت هجمات القراصنة الإنجليز على السفن الإسبانية آخر الأمر إلى إعلان أسبانيا الحرب على إنجلترا (٢٣ يونيو ١٧٧٩) . واستعادت قوة أسبانية مينورقه ، ولكن محاولة الأسبان الاستيلاء على جبل طارق باءت بالفشل . واتخذت العدة لغزو إنجلترا ، ولكن الغزو عطلته العواصف (البروتستنتية) وفى صلح فرساى (١٧٨٣) سحبت أسبانيا مطالبتها بجبل طارق ولكنها استعادت فلوريدا .

وأحـــزن الملك فى سنيه الأخيرة إخفاقه فى استرداد وحدة الأراضى الأسبانية وكانت الحروب قد أتت على شطر كبير من الثروة التى انتجها الاقتصاد الجديد . ولم يستطع وزراؤه الأكفاء أن يتغلبوا قط على قوتين شديدتين من قوى المحافظة — كبار النبلاء بضياعهم الشاسعة ، والاكليروس بما لهم من مصلحة راسخة فى سذاجة الشعب . أما شارل نفسه فندر أن تذبذب فى ولائه الأصيل للكنسية . ولم يعجب به شعبه قط إعجابه حين يراه — وقد لقى موكبا دينيا — يعطى مركبته للأسقف حامل القربان ثم ينضم إلى الموكب سائراً على قدميه . وأكسبه ورعه المحبة التى افتقدها من الشعب وهو الغريب الوافد من إيطاليا — فى العقد الأول من حكمه . فلما وافته منيته (١٤ ديسمبر ١٧٨٨) ، بعد أربعة وخمسين عاما حكم فيها نابلى وأسبانيا ، كان كثيرون يرون فيه أبر ملوك أسبانيا إن لم يكن أعظمهم . وقد تجلت فطرته الطيبة الرقيقة حين سأله الأسقف القائم على خدمته وهو على فراش الموت هل غفر لأعدائه جميعاً ، فقال متسائلا « كيف انتظر جواز المرور هذا قبل أن أغفر لهم ؟ لقد غفرت لهم أجمعين فى اللحظة التالية للإساءة [٧٢] » .

٦ — الخلق الأسبانى

أى طراز من الناس كان أسبان القرن الثامن عشر هؤلاء ؟ الأجماع على أنهم كانوا قوما أفاضل إذا قيسوا بنظرائهم فى إنجلتره أو فرنسا . وكان لهم من تدينهم الشديد ، ومن شجاعتهم وإحساسهم بالشرف ، ومن تماسكهم ونظامهم الأسريين ، عوامل تصحيح قوية لحساسيتهم الجنسية وكبريائهم

العدوانية ، حتى مع تكريسهم شوفينية مشبوبة فى مسائل العرق والدين . وقد أعاق الانتخاب الجنسى الشجاعة لأن النساء الأسبانيات وهن يطلبن الحماية كن يمنحن أرق ابتساماتهن للرجال الذين يواجهون الثيران فى الحلبة أو الشوارع ، أو الذين يبادرون برفض الإهانة والثأر لأنفسهم ، أو الذين يعودون من الحرب مكللين بغار الانتصار .

ولانت الفضائل الجنسية بتدفق الأفكار والعادات الفرنسية . وكانت الصبايا يحرسن حراسة مشددة ، وكان رضا الوالدين (بعد١٧٦٦) شرطاً قانونياً للزواج ، ولكن النساء فى المدن الكبيرة كن بعد الزواج ينغمسن فى الغزل والمعابثة وأصبح« الفارس التابع » ملحقا ضرورياً للسيدة العصرية ، وازداد الفجور [٧٣] . وابتدعت جماعة صغيرة تدعى « الماخو » و« الماخا » مظهراً فذا من مظاهر الحياة الأسبانية . وكان الماخو رجالا من الطبقة الدنيا يلبسون كالغنادير ، ويرتدون العباءات الطويلة ، ويطيلون شعورهم ، ويغطون رؤوسهم بقبعات عريضة الحافة ، ويدخنون السيجار الكبير ، وكانوا على استعداد دائم للعراك ، يعيشون عيشة بوهيمية على نفقة خليلاتهم — الماخا — كلما أمكن ذلك . ولم يعبأوا بالقانون فى اتصالاتهم الجنسية ؛ وكان للماخا فى كثير من الحالات زوج يعولها بينما تعول هى خليلها الماخو ، ويعرف نصف العالم الماخا ، كاسية أو عارية من فرشاة جويا .

أما الفضيلة الاجتماعية فكانت عالية المستوى نسبياً . لقد وجد الفساد السياسى والتجارى ، ولكن ليس على النطاق الواسع المعروف آنئذفى فرنسا أو انجلترة ، ذكر رحاله فرنسى أن « الأمانة الأسبانية مضرب الأمثال وتتجلى واضحة فى العلاقات التجارية » [٧٤] . فكانت كلمة السيد الأسبانى مستنداً أدبياً سارى المفعول من اشبونة إلى سانت بطرسبرج . وكثيراً ما كانت الصداقة فى أسبانيا أبقى من الحب . أما البر بالفقراء فموفور . ففى مدريد وحدها كانت المؤسسات الدينية توزع كل يوم ثلاثين ألفاً من قصاع الحساء المغذى على الفقراء [٧٥] . وأسس الكثير من المستشفيات والملاجىء الجديدة ،

ووسع الكثير من القديم منها أو حسن . وكان جل الأسبان كرماء رحماء إلا مع المهرطقين والثيران .

وكان قتال الثيران ينافس الدين والجنس والشرف والأسرة محلا لحب الأسبان . وكان الدفاع عن هذه المعارك ، شأنه شأن العاب المجالدة فى روما القديمة ، يقوم على أساسين ، أن الشجاعة يجب أن تربى فى الرجال ، وأن الثيران لا بد أن تموت قبل أن تؤكل . وقد حرم شارل هذه المعارك ، ولكنها استؤنفت بعد موته بقليل . وكان مهرة المصارعين الفرسان ومغامروهم معبودى الطبقات كلها. وكان لكل منهم أنصاره ، فدوقة ألبا تؤثر كوستللاريس ودوقه أوزونا تؤثر روميرو ، وقسم الحزبان مدريد كما قسم جلوك ويتشينى باريس . وراهن الرجال والنساء بأرزاقهم على مصير الثيران ، وعلى كل شيء آخر تقريباً .وكان القمار محرماً بالقانون ولكنه شائع ، لا بل كانت البيوت الخاصة تدير أمسيات للقمار وكانت المضيفات يقبضن رسوم اللعب .

وتخلت ملابس السادة شيئاً فشيئاً عن العباءة السوداء المقبضة والياقة الصلبة التى تزيا بها الجيل السابق ، واستبدلت بها الزى الفرنسى — وهو السترة الملونة والصدرة الطويلة من الساقان أو الحرير ، وسراويل الركوب ، والجوارب الحريرية الطويلة ، والحذاء ذو المشبك ، يتوج هذا كله باروكة وقبعة مثلثة الأركان . أما المرأة الأسبانية فألفت أن تجعل من مفاتنها سراً غامضاً مقدسا تلفها فى صدرات من الدنتللا وتنورات طويلة ، ذات أطواق موسعة أحياناً . وتستعمل براقع من قماش الطرح إخفاء لعيونهن التى يود المعجب الأسبانى لو أغرق روحه فى أعماقها المظلمة. وكانت السيدة فى القرن السابع عشر نادراً ماتكشف عن قدميها لأنظار الرجال . أما الآن فقد قصرت الجونلة إلى بضع بوصات فوق الأرض ، واستعيض عن الخفين المستويين بحذاء مدبب عالى الكعب . وقد أنذر الوعاظ بأن تعرية النساء لأقدامهن على هذا النحو غير المهذب إنما يزيد نار الرجال المتقدة اشتعالا . ولكن النساء ابتسمن ، وزين أحذيتهن ، ونشرن تنوراتهن ، وروحن بمراوحهن

حتى فى أيام الشتاء . وكانت ازابيللا فارنيزى تملك ذخيرة من ١٦٢٦ مروحة زين بعضها برسوم لرسامين ذوى شهرة قومية .

وكانت الحياة الاجتماعية مقيدة فى كل شيء إلا المراقص . فاجتنبت المجتمعات فى الأمسيات النقاش الجاد مؤثرة عليه الألعاب والرقص والغزل . وكان الرقص غراماً كبيراً فى أسبانيا ، وقد أفرخ ألواناً أشتهرت فى أوربا . فكانت « الفاندانجو » ترقص على ميزان ثلاثى بالصاجات . أما السجيديللا فيؤديها زوجان أو أربعة أزواج من الراقصين ، بمصاحبة الصاجات وبالغناء عادة ، وقد اتخذت رقصة مشتقة منها تسمى البوليرو شكلها حوالى ١٧٨٠ ، وسرعان ما اكتسبت شعبية مجنونة . وفى رقصة الكونترادانزا كان صف من الرجال يواجه صفاً من النساء فى تقدم وتأخر متناوبين ، وكأنما يرمز هذا إلى تكتيك الحرب الأبدية بين المرأة والرجل ، أو كان أربعة أزواج يؤلفون ويحيطون مربعاً فى رقصة فخمة تدعى الكونترا دانزا كوادرادا — أى الكدريل . وكانت حفلات الرقص المقنع تجتذب أحياناً ٣,٥٠٠ من الراقصين المتحمسين ، وكان القوم فى المرافع يرقصون حتى مطلع الفجر .

وجعلت هذه الرقصات الحركة شعرا حيا وحافزاً جنسيا. قيل إن المرأة الأسبانية التى ترقص السجيديللا كان فى رقصها من الإغراء ما يخرج البابا ومجمع الكرادلة بأسره عن وقارهم [٧٦].وقد وجد كازانوفا نفسه شيئاً يتعلمه فى أسبانيا فقال :

« حين أوشك الليل أن ينتصف بدأت أعنف الرقصات وأكثرها جنونا . . . وهى الفندانجو ، التى ظننت فى سذاجتى انى طالما شهدتها ، والتى فاقت (هنــا) أشد تصوراتى جموحا . . . ففى إيطاليا وفرنسا يحرص الراقصون على تجنب الايماءات التى تجعل هـــذه الرقصة أكثر الرقصات شهوانية . ويخطو الزوجان — راقص وراقصة — ثلاث خطوات فقط ، ثم يرتميان فى مختلف الأوضاع الفاجرة وهما يصاحبان الموسيقى بالمصاحبات ويعرضان قصة العشق كلها من مولده إلى ختامة ومن أول تنهيده إلى آخر نشوه . فلم أملك لشدة انفعالى إلا أن أصيح عاليا . »[٧٧]

وقد عجب من سماح ديوان التفتيش برقصة مثيرة إلى هذا الحـــد ، فقيل له أنها « محرمة تحريما باتا ، ولولا أن الكونت ارانذا اذن بها لما جرؤ أحد على رقصها » .

وارتبطت بالرقص ألوان من الموسيقى الأسبانية كانت من أحبها إلى الشعب ، مثال ذلك أن الكانتى فلامنكو أو الغناء الغجرى (الفلمنكى) استخدم نغمة شاكية عاطفية كان كل المغنين الغجـــر يصاحبون بها « السجيديللا جيتانا » . ولعل هذه الأغانى الشجية كانت أصداء لألحان مغربية ، أو لعلها عكست النوعية المكتئبة للدين والفن الأسبانيين ، أو العجز المسخط عن الوصول إلى جسد المرأة ، أو انقشاع الوهم عقب الوصال . وقد وفدت نغمة أبهج بوفود الأوبرا الإيطالية (١٧٠٣) وأغانى فازينللى . ولكن « الخصى » العجوز فقد الحظوة فى عهد شارل الثالث بعد أن ظل يشدو بأغانيه طوال عهدين ، وقد أنزله شارل عن عرشه بهذا السطر « أن الديوك المخصية لا تصلح إلا للأكل [٧٨] » . واتصل النفوذ الإيطالى بمجىء سكارلاتى ، وانتصر مرة أخرى بمجىء بوكيرينى الذى قدم فى ١٧٦٨ ، وسيطر على موسيقى البلاط على عهد شارل الثالث وشارل الرابع ، ومكث بأسبانيا حتى وافاه الأجل (١٨٠٥) .

وبحركة عكس هذه الحركة وفق فنشنثى مارتن أى سولار ، بعد أن حقق لنفسه الشهرة فى أسبانيا ، فى أن يخرج الأوبرا الإيطالية فى فلورنسه ، وفيينا ، وسانت بطرسبرج ونافست صوناتات أنطونيو ســـولر على الهاربسكورد صونتات سكارلاتى ، وحول دون لويز ميسون « التونادا » أو السولو الصوتية ، إلى « التوناد يللو » فاصلا من الغنـــاء بين فصول المسرحية . وفى ١٧٩٩ أنهى أمر ملكى حكم الموسيقى الإيطالية فى أسبانيا بحظر أداء أى تمثيلية ما لم تكتب باللغة القشتالية ويمثلها ممثلون أسبان[٧٩] .

والخلق الأسبانى لا يمكن صبه فى قالب متماثل واحد . فالروح الأسبانية تتفاوت بتفاوت المشهد الطبيعى من ولاية إلى ولاية ، وكان الأسبان المتفرنسون الذين تجمعوا فى مدريد طرازا يختلف كل الاختلاف عن المواطنين الذين

تجمدوا فى العادات الأسبانية . ولكننا قد نستطيع بعد أن نغض النظر عن الأقليات الدخيلة أن نتبين فى الشعب الأسبانى طبعا أصيلا متفردا . فقد كان فى الأسبانى كبرياء ولكن فى قوة صامته لا تستمد الكثير من الشوفينية أو القومية ، كانت كبرياء الفردية ، واحساسا مصمما بالكفاح المنفرد ضد الأذى الدنيوى أو الإهانة الشخصية أو الهلاك الأبدى . ولمثل هذه الروح كان يمكن أن يتبدى العالم الخارجى أمرا ذا أهمية ثانوية لا يستحق القلق أو الكد فى سبيله ، فلا أهمية إلا مصير النفس فى الصراع مع الإنسان والبحث عن الله . إذن فما أتفه مشكلات السياسة ، والسباق على المال ، والاعلاء من قدر الشهرة أو المنصب ، وحتى انتصارات الحرب لا مجد يكللها ما لم تكن انتصارات على أعداء الدين . اما وقد ضربت جذور الأسبانى فى صميم هذا الدين ، فقد كان فى استطاعته أن يقابل الحياة بهدوء رواقى ، وبإيمان بالقضاء والقدر ينتظر فى اطمئنان ثواب الجنة بعد الممات .

٧ — العقل الأسبانى

حين قبل لويس الرابع عشر ما عرضه آخر ملوك الهابسبورج فى أسبانيا من الايصاء بتاجه لحفيد الملك العظيم ، صاح سفير أسبانى بفرساى فى ابتهاج « لم يعد الآن وجود لجبال البرانس ! » ولكن تلك الكتل الرهيبة لم تتزحزح عن موقفها عقبة كؤودا فى سبيل التنوير الفرنسى ، ورمزا للمقاومة التى ستلقاها محاولة قلة مخلصة أن تصبغ العقل الأسبانى بالصبغة الأوربية .

وقد فاجأ كامبومانيس الشيوخ بمقال فى التعليم الشعبى (١٧٧٤— ٧٦) ، جعل من التوسع فى التعليم الشعبى أساسا لا غنى عنه لحيوية الأمة ونموها . ولم ير بعض كبار رجال الدين وملاك الأرض معنى لإزعاج الشعب بمعرفة لا لزوم لها قد تفضى فى النهاية إلى الهرطقة الدينية أو الثورة الاجتماعية . ولكن خوفيللانوس الذى لم يثنه هذا الاعتراض كافح لنشر الإيمان بالتعليم ، وكتب يقول « كثيرة هى الجداول المؤدية إلى الرخاء الاجتماعى ، ولكنها كلها تنبع من منبع واحد هو التعليم العام . »[٨١] وكان يعلل نفسه بأن التعليم

سيعلم الناس أن يفكروا ، وإن التفكير سيحررهم من سلطان الخرافة والتعصب ، وإن العلم الذى يطوره أمثال هؤلاء سيستخدم موارد الطبيعة لقهر المرض والفقر . وتقبل بعض كرائم النبيلات هذا التحدى ، والفن Junta de Damas لتمويل المدارس الإبتدائية . وانفق شارل الثالث مبالغ كبيرة فى إنشاء المدارس الأولية المجانية . وشارك أفراد غير رسميين فى تأسيس الأكاديميات لدراسة اللغات أوالأدب أو التاريخ أو الفن أو القانون أوالطب .

وكان طرد اليسوعيين ملزماً بإعادة تشكيل المدارس الثانوية وميسراً لها . وأمر شارل بتوسيع مقررات العلوم فى هذه الكليات ، وبتحديث كتبها المدرسية ، وبالسماح للعلمانيين بالتدريس فى أقسامها . وأعان الكليات بالمنح والهبات ، وقرر المعاشات للبارزين من المعلمين[٨١] » . ونصحت الجامعات بتدريس فيزياء نيوتن وفلسفة ديكارت وليبنتز فى مناهجها . ورفضت جامعة سلمنقه النصيحة بحجة أن « مبادىء نيوتن ... وديكارت لاتشابه الحقيقة الموحى بها بالقدر الذى تشابهها به مبادىء أرسطو[٨٢] » ، ولكن معظم الجامعات الأسبانية قبلت التوجيه الملكى ، وكانت جامعة بلنسيه الآن (١٧٨٤) ، بطلابها البالغ عددهم ٢٫٤٠٠ ، أكبر المراكز التعليمية وأكثرها تقدماً فى أسبانيا . وأدخلت عدة طوائف دينية « الفلسفة الحديثة» فى كلياتها . وحث قائد الرهبان الكرملين الحفاة ، المعلمين الكرمليين على قراءة أفلاطون وأرسطو وشيشرون وفرنسيس بيكن وديكارت ونيوتن وليبنتز ولوك وفولف وكوندياك . هنا لم يكن للقديسين حكم . ودرست جماعة من الرهبان الأوغسطينيين هوبز ، وأخرى هلفيتوس . وكانت مثل هذه الدراسات تلحق دائماً بردود تفندها ، ولكن كثيراً من المؤمنين الغيورين فقدوا إيمانهم وهم يفندون دعاوى أعدائه .

من ذلك « حداثة » راهب فذ اشتهر يوم كان شارل لا زال شاباً ، ذلك هو بنيتو خيرونيمو فيخواى مونتنجرو الذى انفق الأعـوام السبعة والأربعين الأخيرة من عمرة (١٧١٧ — ٦٤) فى دير بندكتى باوفيدو،

ولمغ ذلك استطاع أن يدرس بيكن وديكارت وجاليليو وبسكال وجاسندى ونيوتن وليبنتز ، ورأى فى عجب وخجل كيف عزلت أسبانيا بعد سرفانتس عن التيارات الكبرى للفكر الأوربى . فأرسل من قلايته ، بين عامى ١٧٢٦ و١٧٣٩ ، سلسلة من ثمانية مجلدات سماها Teatro critico وهو لايعنى نقد المسرح ، بل الامتحان الدقيق للافكار . وقد هاجم فيها المنطق والفلسفة اللذين يدرسان فى أسبانيا فى أيامه ، وامتدح دفاع بيكن عن العلم الاستقرائى ، ولخص كشوف العلماء فى كثير من المجالات ، وهزأ بالسحر والكهانة والمعجزات الزائفة ، والجهل بالطب ، والخرافات الشعبية ، ووضع قواعد للوثوق بالتاريخ نسفت الأساطير القومية الساذجة فى غير رحمة ، وطالب بنشر التعليم بين جميع الطبقات ،ودافع عن حياة أكثر حرية وعلنية للنساء فى التعليم والمجتمع .

واجتمع حول كتبه شرذمة من الإعداء يتهمون وطنيته ويندون باقتحاماته . واستدعاه ديوان التفتيش أمام محكمته . ولكنها لم تهتد إلى هرطقه صريحة لا فى شخصه ولا فى كتابه . وفى ١٧٤٢ استأنف حملته باول مجلدات خمس عنوانه « رسائل متفقهة مستطلعة » . وكان يكتب بأسلوب جيد . مقرا بالتزام كل مؤلف التزاما إدبيا بأن يكون واضحا . ٥ استطاب الجمهور تعليمه وشجاعته فتكاثر الطلب على « التياترو » و « الرسائل » حتى بلغ ما طبع منهما خمس عشرة طبعة حتى عام ١٧٨٦ . ولكنه لم يستطع قطع دابر الخرافة فى أسبانيا ، فظلت الساحرات والعفاريت والشياطين تملأ الجو وتخيف العقول ، ولكن كان جهده بداية السير على الدرب . ومن مفاخر طائفته أن يقوم بهذا الجهد راهب لزم قلايته المتواضعة دون أن يزعجه أحد حتى أوفته منيته وهو فى الثامنة والثمانين (١٧٦٤) .

وأكليريكى آخر هو الذى كتب أشهر كتاب نثرى فى أسبانيا فى القرن الثامن عشر . وكما حرص البندكتيون على إلا يلحق بفيخواى أذى ، فكذلك حمى اليسوعيون قسيسا منهم كان أهم إنتاج له نقدا لاذعا للمواعظ . وكان خوزيه فرانسسكو ذى ايزلا هو نفسه وأعظا بليغا ، ولكن أضحكته

أول الأمر ، ثم أزعجته ، الحيل الخطابية والأوهام الأدبية ، والتمثيل والتهريج الذى يجلب به بعض الوعاظ أنتباه الشعب ودراهمه فى الكنائس والميادين العامة . وفى ١٧٥٨ سخر سخرية لاذعة بهؤلاء المبشرين فى « قصة عن الراهب جيروندو الواعظ المشهور » . يقول الأب ايزلا إن الراهب جيروندو :

« ألف أن يبدأ عظاته بمثل أو نكته سوقيه أو شذرة غريبة أنتزعت من سياقها فبدت لأول وهلة غير منطقيه أو تجديفا أو كفرا حتى إذا ترك جمهوره لحظة مترقبا فى عجب أنهى عبارته وطلع بتفسير أحال كل ما قاله إلى ضرب من التفاهة الحقيرة . من ذلك أنه كان يعظ ذات يوم عن سر الثالوث فاستهل عظته بقوله « أنى أنكر إن الله موجود كوحدة فى الجوهر وثالوث فى الذات » ثم توقف لحظه . وتلفت السامعون بالطبع حولهم . . متسائلين ما عسى أن تكون خاتمة هذا التجديف المهرطق . واخيرا ، وبعد أن ظن الواعظ أنه قبض على ناصيتهم ، وأصل الحديث قائلا : « كذلك يزعم الأبيونيون ، والمارسيونيون ، والاريوسيون ، والمانويون ، والسوسينيون ، ولكنى أثبت ضلالهم كلهم من الأسفار المقدسة ، والمجامع ، وآباء الكنيسه[٨٣] » .

وبيعت ثمانمائه نسخة من كتاب « الراهب جيروندو » خلال يوم من صدوره . وهاجمه الرهبان الوعاظ زاعمين أنه يشجع على احتقار رجال الدين . وأستدعى أيزلا أمام محكمة التفتيش ، وأدين كتابه (١٧٦٠) ، أما هو فلم يعاقب . ثم أنضم إلى أخواته اليسوعيين فى المنفى ، وأصيب فى الطريق بالشلل . وقضى ختام عمره فى بولونيا عائشا على المعاش الضئيل الذى منحته أياه الحكومه الأسبانية .

أما الشعر فكان يقرضه كل أسبانى ملم بالكتابه . وقد اجتمع فى ١٧٢٧ فى مباراة شعرية (عام ١٧٢٧) ١٥٠ متنافسا . واضاف خوفيلانوس الشعر والدراما لضروب نشاطه الأخرى فقيها ومربيا ورجل دولة . وأصبح بيته

فى مدريد ماتبقى لرجال الأدب وقد ألف الهجائيات على طريقة جوفينال ، موبخا الفساد الذى وجده فى الحكومة والقانون ، وتغنى بمناهج الحياة الريفية الآمنه المطمئنه شأن كل ساكن للمدن . ونظم نقولا فرنانديز دى موراتن شعرا ملحميا تناول مغامرات كورتيز ، ويقول العارفون أن — هذه القصيدة « أرفع قصيدة من نوعها أنجبتها أسبانيا فى القرن الثامن عشر[٨٤] » .

وكانت الأشعار المرحة المهذبة التى نظمها دييجو جونزالز ، الراهب الأوغسطينى ، أحب إلى الشعب من قصيدته التعليمية « مراحل الإنسان الأربع » التى إهداها إلى خوفيللانوس . كذلك اتخذ دون توماس دى أيريارتى إى أوروبيزا إتجاها تعليميا فى قصيدته « فى الموسيقى » ، وكان خيرا منها « قصصه الخرافية » (١٧٨٢) التى طعنت مغامز العلماء وأكسبته شهرة لم تزل حية إلى اليوم . وترجم بعض مآسى فولتير وملاهى موليير . وسخر من الرهبان « الذين يتسلطون على السماوات وعلى ثلثى أسبانيا » ، وقد حاكمه ديوان التفتيش فانكر آراءه ، ومات بالزهرى وهو فى الحادية والأربعين (١٧٩١)[٨٥] .

وفى ١٧٨٠ أعلنت الأكاديمية الأسبانية عن جائزة تمنح لقصيدة تمجد الحياة الرعوية . فقال إيريارتى الجائزه الثانية ولم يغفر قط لصاحب الجائزة الأولى ، لأن خوان ميلانديز فالديس مضى قدما ليصبح كبير الشعراء الأسبان فى ذلك العهد . وتودد خوان إلى خوفيلانوس ، وحصل بنفوذه على كرسى الأنسانيات فى جامعة سلمنقه (١٧٨١) وهناك إقنع الطلاب أولا ، ثم الكلية ، بدراسة منهج أكثر إقتحاما ، بلغ إلى حد قراءة لوك ومونتسكيو . وألف فى أوقات فراغه فيما بين المحاضرات مجلدا من الأغانى والشعر الرعوى — هو أستحضارات حية لمشاهد الطبيعة فى أبيات بلغت من الرقة وكمال الصقل مالم تقرأه أسبانيا منذ أكثر من قرن . وكان للرضى الذى أسبغه عليه خوفللانوس الفضل فى ترقيته إلى منصب القضاء بسرقسطه وإلى محكمة القضاء العالى فى بلد الوليد ، وأضرت السياسة بشعره . فلما نفى خوفيللانوس (١٧٩٨) أقصى ميلانديز أيضاً . فجرد قلمه للتنديد بغزاة

أسبانيا الفرنسيين ، وخص منهم جوزف بونابرت ، ولكنه عاد إلى مدريد فى ١٨٠٨ ، وقبل وظيفة تحت رآسة جوزف بونابرت ، وصدم أسبانيا بقصائد يتملق بها سادته الأجانب . وفى حرب التحرير التى خلعت جوزف نهب الجنود الفرنسيون منزل الشاعر . وهاجمه هو نفسه الغوغاء الغاضبون، فهرب لحياته من أسبانيا . وقبل أن يعبر البيداسوا إلى فرنسا قبل آخر بقعه من التراب الأسبانى (١٨١٣) . وبعد أربع سنوات مات فقيرا مغمورا فى مونبلييه .

وكان ينبغى أن يكون لأسبانيا كتاب مسرح أكفاء فى هذا العهد ، لأن الملوك البوربون كانوا ميالين للمسرح . وقد عملت على أضمحلاله ثلاثة عوامل : إيثار إيزابللا فارنيزى القوى للأوبرا ، وفليب الخامس لفارينالى ، ومن ثم اعتماد المسرح على الجمهور الذى كان أكثر ما يستحسنه هو « الفارص » ، والمعجزات ، والأساطير والشقشقات اللفظية ، وجهد كتاب الدراما الجادون لحبس تمثيلياتهم داخل « الوحدات الارسطاطالية » فى الحركة والمكان والزمان . وكان أحب كتاب المسرحية إلى الشعب فى ذلك القرن هو رامون فرانسسكودى لاكروز ، الذى كتب نحو أربعمائة فارص صغير يهجو فيها عادات الطبقتين الوسطى والدنيا وأفكارهما وحديثهما ، ويصور مع ذلك ذنوب الجماهير وحماقاتهم بعطف غافر . أما خوفيللانوس ، « رجل أسبانيا الجامع » فقد جرب الكوميديا ، وظفر باستحسان الجمهور والنقاد جميعا بملهاته « المجرم المكرم » (١٧٧٣) : وفحواها أن سيداً أسبانيا يرفض مرارا وتكراراً أن يبارز غريما ثم يقبل التحدى أخيرا بعد الحاح ، ويقتله فى معركة عادلة ، ثم يحكم عليه بالاعدام قاض يتبين أنه أبوه . وقد أستهدف خوفيللانوس ، وهو المصلح على الدوام ، من تمثيليته هذه الوصول إلى التخفيف من القانون الذى اعتبر المبارزه جريمة كبرى .

أما الحملة الداعية إلى الوحدات الارسطاطالية فقد تزعمها الشاعر نيقولا فرنانديزدى موراتن : وواصلها حتى تكللت بالنجاح ابنه لياندرو . وقد أبهجت خوفللانوس أشعار هذا الفتى الباكرة ، فحصل له على وظيفة فى

السفارة الأسبانية بباريس . وهناك صادق جولدونى ، فوجهه إلى كتابة التمثيليات . وأغدق الحظ هباته على صوراتين الابن : فأوفد على نفقة الدولة ليدرس المسارح فى المانيا وإيطاليا وانجلتره . وحين عاد إلى أسبانيا منح وظيفة شرفية أتاحت له الفراغ اللازم للعمل الأدبى . وقدمت ملهاته الأولى لمسرح فى مدريد عام ١٧٨٦ ، ولكن عرضها عطل أربع سنوات ريثما يفرغ المديرون والممثلون من الجدل فى استطاعة تمثيلية تتبع قواعد أرسطو والتمثيلية الفرنسية أن تجتذب جمهوراً أسبانياً . وقد نجحت نجاحاً معتدلا . وانقلب موراتين مهاجما ، فنى تمثيليته الكوميديا الجديدة (١٧٩٢) سخر من الملاهى الشعبية سخرية تقبل الجمهور بعدها الدرامات التى تدرس الخلق وتنير الحياة . وأشاد القوم بموراتين موليرا أسبانيا ، وسيطر على مسرح مدريد حتى غزا الفرنسيون أسبانيا عام ١٨٠٨ . وقادته ميوله الفرنسية وسياسته التحزرية كما قادت ميلانديز وجويا إلى التعاون مع حكومة جوزف بونابرت ، فلما سقط جوزف لم ينج موراتين من السجن إلا بشق النفس . ولجأ إلى فرنسا . ومات أخيراً بباريس فى ١٨٢٨ — وهى السنة التى مات فيها ببوردو الرسام جويا الذى نفى نفسه عن وطنه مختارا .

٨ — الفن الأسبانى

ما الذى يمكن توقعه منه بعد اجتياح أسبانيا فى حرب الوراثة لأسبانية الطويلة ؟ لقد سلبت الجيوش الغازية الكنائس ، ونهبت المقابر ، وأحرقت الصورة ، وربطت خيولها فى المزارات المقدسة . ثم جاء غزو جديد بعد الحرب ، وخضع الفن الأسبانى طوال نصف قرن للنفوذ الفرنسى أو الايطالى فلما انشئت أكادتمية سان فرناندو عام ١٧٥٢ لإرشاد شباب الفنانين ومساعدتهم ، جاهدت لتقر فى أذهانهم مبادىء كلاسيكية جديدة غريبة كل الغرابة عن الروح الأسبانية .

وكافح الباروك كفاحا عنيفاً فى سبيل البقاء ، وكان له ما أراد فى المعمار

والنحت . فانتصر فى الأبراج التى أضافها فرناندو دى كازيس أى نوفا (١٧٣٨) إلى كتدرائية سنتياجودى كومبو ستيلا ، وفى الواجهة الشمالية التى شيدها فنتورا رودريجز (١٧٦٤) لهذا الصرح ذاته تذكاراً للقديس يعقوب حامى أسبانيا وقد زعمت إحدى الأساطير المحببة الشعب أن تمثالا للعذراء مقاماً على عمود فى سرقسطه دبت فيه الحياة وتكلم مع القديس يعقوب . فى ذلك الموقع شيدت التقوى الأسبانية « كنيسة عـذراء العمود » ، ولتلك الكنيسة صمم رودريجز هيكلا هو مقصورة من الرخام والفضة يضم تمثال العذراء .

وأقيم قصران مشهوران فى عهد فليب الخامس . فقد اشترى على مقربة من سقوبية أرض دير ومزرعته الملحقة ، ووكل إلى فليبو يوفارا التورينى أن يشيد على هذه البقعة قصر سان الدفونسو (١٧١٩ وما يليها) ، وأحاط المبانى بحدائق وست وعشرين نافورة تنافس نافورات فرساى . وعرفت هذه المجموعة بلاجرانغا ، وقد كلفت الشعب ٤٥ر٠٠٠ر٠٠٠ كراون . ولم تكد تكتمل حتى دمرت النار ليلة ميلاد عام ١٧٣٤ « القصر » الذى كان المقر الملكى بمدريد منذ عهد الأمبراطور شارل الخامس وانتقل فيليب إلى بوين رتيرو التى شيد فيها فليب الثانى قصرا فى ١٦٣١ . فظل هذا المقر الرئيسى للملك طوال ثلاثين عاما .

وصمم يوفارا قصرا ملكيا آخر عوضا عن « القصر » المحترق — يضم المساكن والمكاتب وحجرات الاجتماع ومصلى ومكتبة ومسرحا وحدائق — لو شيد لفاق فى فخامته أى قصر ملكى عرف يومها ، وكان النموذج وحده يحوى من الخشب كمية تكفى لبناء بيت . ولكن يوفارا عاجلته المنية قبل أن يبدأ البناء (١٧٣٦) . ورفضت إيزابلا فارنيزى تصميمه لفداحة تكاليفه ، فشيد خلفه جوفانى باتستا ساكيتى التورينى القصر الملكى (١٧٣٧ — ٦٤) القائم بمدريد اليوم — وطوله ٤٧٠ قدما ، وعرضه ٤٧٠ قدما ، وارتفاعه ١٠٠ قدم . هنا حل طراز النهضة المتأخرة محل الباروك : فكانت الواجهة ذات أعمدة دورية وايونية ، يتوجها درابزين انتشرت عليه تماثيل ضخمة

لملوك أسبانيا القدامى . وحين صحب نابليون أخاه جوزف ليملك فى هذا القصر قال وهما يصعدان السلم الفخم « ستكون أفضل منى منزلاً[٨٦] » . وقد انتقل شارل الثالث إلى هذا الصرح الهائل عام ١٧٦٤ .

أما النحت الأسبانى ففقد بعض صرامته وجموده متأثراً بالفنين الفرنسى والإيطالى ، وخلع الضحاك على ملاكه (السيرافيم) والرشاقة على قديس أو قديسين . وكانت موضوعاته دينية على الدوام تقريباً ، لأن الكنيسة كانت تدفع للنحاتين أعلى الأجور . من ذلك أن رئيس أساقفة طليطلة أنفق ٢٠٠،٠٠٠ دوقاتية على حجاب المذبح الشفاف الذى أقامه نارسيسوتومى (١٧٢١) خلف خورس الكتدرائية : وهو مجموعة ملائكة من رخام يطفون على سحب من رخام ،وكان فى ممشى الكنيسة المسقوف فتحة جعلت الرخام وضاء ومنه اتخذ حجاب المذبح اسمه . وعاشت الواقعية القديمة فى تمثال « جلد المسيح [٨٧] » الذى نحته لوزيز كارمونا — وهو تمثال من الخشب ، رهيب بما فيه من آثار ضرب وجروح دامية . وأجمل منه تماثيل الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ، التى نحتها فرانسسكو فرجارا الإبن لكتدرائيات كوينسا (١٧٥٩) . وقد عدها سبان — برموديز ، فازارى أسبانيا ، أروع ما انتجه الفن الأسبانى .

وأعظم الأسماء فى فن النحت الأسبانى فى القرن الثامن عشر كان اسم فرانسسكو زاركيللو إى الكراز . مات أبوه ومعلمه ، وكان نحاتا فى كابوا ، وفرانسسكو فى العشرين وخلفه العائل الأول لأمه وأخته وستة إخوه . وكان الفتى أفقر من أن يستأجر الموديلات ، لذلك كان يدعو المارة ، بل المتسولين ليشاركوه غداءه وليرسمهم ، وربما كانت تلك هى الطريقة التى عثر فيها على الأشخاص لرائعته « العشاء الأخير » المحفوظة الآن فى « دير يسوع » بمرسيه . وبمساعدة أخته اينيس التى كانت ترسم وتعمل نموذجاً له ؛ وأخيه خوزيه ، الذى كان ينحت التفاصيل ، وأخيه القسيس باتريسيو ، الذى كان يلون الأجسام والثياب ، انتج فرانسسكو فى سنى عمره الأربع والسبعين ١،٧٩٢ تمثالا فيها الكبير وفيها الصغير ، بعضها ذو حيل لاطعم لها كعباءة

من المخمل المطرز فوق تمثال للمسيح ، بعضها مؤثر بتقواه البسيطة تأثيرا حمل مدريد على أن تعرض عليه مهام مجزية لتزيين القصر الملكى . ولكنه فضل البقاء فى وطنه مرسيه الذى شيعه عند وفاته عام ١٧٨١ فى مشهد جليل .

أما التصوير الأسبانى فى القرن الثامن عشر فكان يرزح تحت كابوس أجنبى مزدوج لم يفق منه حتى حطم جويا كل القيود بفنه الجارف الذى لم يسبق له نظير . جاءت أول الأمر موجة فرنسية بمجىء ران ورينيه وميشيل — آنج هواس ، ولوى — ميشيل فانلو . وقد أصبح هذا مصور البلاط لفليب الخامس ، ورسم لوحة هائلة للأسرة المالكة كلها ، بالبواريك والجونلات المطوقة ، وغيرها [٨٨] . ثم أقبل قطيع من الإيطاليين الذين يفيضون حيوية فانفينللى ، واميجونى ، وكورادو .

ووصل جامباتستا تيبولو وأبناؤه إلى مدريد فى يونيو ١٧٦٢ . وعلى سقف غرفة العرش فى القصر الملكى الجديد رسموا صورة جصيه شاسعة « تمجيد أسبانيا » : احتفالا بتاريخ الملكية الأسبانية وقوتها وفضائلها وتقراها وأقاليمها : فيها الأجسام الاسطورية الرمزية متوازنة فى الهواء ، والنيريدات والتريتونات والزفيرات ، والجن المجنح ، والأطفال السمان ، والفضائل الرذائل محلقة فى الفضاء المنور ، وأسبانيا ذاتها متربعة على العرش وسط ممتلكاتها ، ممجدة بكل صفات الحكومة الصالحة . وعلى سقف غرفة الحرس رسم تيبرلو « اينياس تقوده فينوس إلى معبد الخلود » . وعلى سقف الحجرة الملحقة بمخدع الملكة رسم ثانية « انتصار الملكية الأسبانية » . وفى ١٧٦٦ كلف شارل تيبولو بأن يرسم سبع لوحات لمذبح كنيسة القديس بسكال بأرانخيز ، واستخدم المصور فى احداها وجه حسناء أسبانية ليمثل حمل العذراء غير المدنس ، ولا تزال الصورة تتألق فى البرادو . وأدان كاهن الملك ، الأب خواكين دى إلكتا ما فى فن تيبولو من وثنية وفجاجات لأنها دخيلة على روح أسبانيا . وتاب تيبولو ، ورسم صورة قوية سماها انزال المسيح عن الصليب » [٨٩] ، وهى تأمل فى الموت تنيره الملائكة

الواعدة بالقيامة وأرهقت هذه الجهود الجبار الهرم ، فمات فى مدريد عام ١٧٧٠ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وبعد قليل ازيلت لوحات مذبح ارانجنيز وكلف أنطون روفائيل منجز برسم لوحات بدلها .

وكان منجز قد وفد على مدريد فى ١٧٦١ وهو فى الثالثة والثلاثين ، فنى قوى واثق من نفسه آمر ناه . ولم يكن شارل يشعر قط بارتياح لمرأى غيوم تيبولو المنورة — فآنس الآن فى هذا الألمانى المقحام الرجل المطلوب لتنظيم العمل الفنى اللازم للقصر . وفى ١٧٦٤ عين منجز مديرا لأكاديمية سان فرناندو ، وسيطر على التصوير الأسبانى فى فترات اقامته بأسبانيا . وقد أساء ترجمة الطراز الكلاسيكى إلى سكون لا دم فيه ولا حياة ، وأغضب بذلك تيبولو الشيخ وجويا الشاب . ولكنه كافح كفاحا نافعا لينهى اسراف الزخرفة الباروكية وشطحات خيال الروكوك . ومن أقواله أن الفن يجب أن يسعى أولا إلى « أسلوب طبيعى » بمحاكاته الأمينة للطبيعة ، وعندها فقط يستهدف الأسلوب السامى « الذى انتهجه الاغريق . فكيف السبيل إلى هذا التسامى ؟ بإقصاء الناقص وغير المتصل بالموضوع ، بالربط بين الكمالات الجزئية التى توجد هنا وهناك فى أشكال مثالية يتصورها خيال مدرب مع تجنب كل ضروب الاسراف .

وافتتح منجز انتاجه برسم أرباب أولمب على سقف مخدع الملك ، وزين مخدع الملكة بصورة مماثلة . وربما ادرك منجز أن صاحبى الجلالة ، لم يتبعاه تماما حتى جبل أولمب ، لذلك رسم رافدة مذبح للمصلى الملكى ، « ميلاد المسيح » و « انزال المسيح من الصليب » . وكان يضنى نفسه فى العمل ، ولا يأكل إلا قليلا ، وبات عصبى المزاج ، وانهارت صحته ، وخيل اليه أنه واجد البرء فى روما . ومنحه شارل أجازة مدها منجز إلى أربعة أعوام . وفى فترة اقامته الثانية بأسبانيا أضاف مزيدا من الرسوم الجصية إلى القصور الملكية فى مدريد وارانجيز . ولكن صحته تداعت مرة أخرى ، فالتمس من الملك الاذن له بالتقاعد فى روما . ومنحه الملك الطيب طلبته ، وأجرى عليه معاشا متصلا من ثلاث آلاف كراون فى العام .

ولكن ألم يكن فى أسبانيا آنئذ فنانون وطنيون يرسمون ؟ أجل كانوا كثيرين ولكن اهتمامنا الذى تضاءل مع بعد الشقة والزمان خلفهم على هامش الشهرة الخابية . كان هناك لويز ميلنديز الذى كاد يعدل شاروان فى صور الطبيعة الصامتة (الطيــور والفواكه) ويحتفظ متحف البرادو بأربعين منها ، ومتحف بوسطن بمثال منها فاتح للشهية ، ولكن اللوفر يبزهما جميعا بصورة ذاتية رائعة . وهناك لويز باريت أى الكازار ، الذى بارى كاناليتو فى تصــوير مناظر المدينة كما ترى فى لوحته Puerta de Sol — أكبر ميادين مدريد ، وأنطونيو فيلادامات ، الذى شهد له منجز بأنه أكفأ مصورى العصر الاسبان ، وفرانسسكو بايو إى سوبياس ، الرقيق المتجهم المخلص لفنه ، الذى نال الجائزة الأولى فى الأكاديمية عام ١٧٥٨ ، وصمم قطع النسيج لمنجز ، وأصبح صديقا ، وعدوا ، وصهرا لجويا .

٩ — فرانسسكو دى جويا أى لوسيينتس

أ — نشأته

اتخذ فرانسسكو اسم قديس حام شأن جميع الصبيان الايبريين ، ثم اسم أبيه خوزيه جويا ، واسم أمه أورجاسيا لوسيينتس — أى ربة اللطف والنور . وكانت تنتمى إلى طبقة الهيدلج (أدنى طبقات النبلاء) ومن هنا إضافة « دى » التى أدخلها فرانسسكو على اسمه . ولد فى ٣٠ مارس ١٧٤٦ بفونتيتودوس ، وهى قرية ارجونية يسكنها ١٥٠ من الأنفس ولا يزينها شجر — إنما هى تربة حجرية ، وصيف قائظ ، وشتاء قارس ، يأتى على الكثيرين ، ويصيب الاحياء بالاكتئاب والخشونة .

وراح فرانسسكو يتلهى بفرشاة الرسم ، فرسم فى صباه لكنيسة القرية صورة للعذراء « سيدة العمود » ، حامية أرجون . وفى ١٧٦٠ انتقلت الأسرة إلى سرقسطة ، حيث اشتغل الأب بالطلاء بالذهب ، وأتاح له دخله أن يوفد ابنه لدراسة الفن على يد خوزيه لوزان . ومع هذا الفنان وخوان راميريز نسخ جويا صور كبار الرسامين القدامى ، وقلد تلوين تيبولو الناعم ،

وتعلم من التشريح قدرا يكفى لرسم صور العرايا المحرمة . وفى رواية أنه شارك — ثم تزعم بعد قليل — فريقا من الشباب الجموح الذين دافعوا عن قريتهم ضد قرية أخرى ، وكيف أن بعض الفتيان قتلوا فى إحدى المعارك ، وكيف فر فرانسسكو إلى مدريد مخافة أن يقبض عليه .

وفى ديسمبر ١٧٦٣ دخل امتحاناً للالتحاق بالأكاديمية فرسب . وتصف الأسطورة حياته الصاخبة فى العاصمة ، ولكن لا نعلم على التحقيق إلا أن جوياً كان بينه وبين القوانين حب مفقود . وعاد إلى دخول امتحان المسابقة فى ١٧٦٦ ورسب . وربما كان هذا الرسوب المتكرر من حسن حظه : فقد أفلت من وصاية منجز الأكاديمية ، ودرس الصور التى كان تيبولو يرسمها فى مدريد ، ثم أرسى أسس أسلوب فذ تغلب عليه شخصيته . وتروى الأسطورة بعد ذلك أنه انضم إلى فريق من مصارعى الثيران وسافر معهم إلى روما فى تاريخ مجهول . ولقد كان دائماً شديد التحمس لمصارعى الثيران الراكبين (التوريادور) ومرة وقع باسم دى لوس تورس . كتب إلى موارتين فى شيخوخته يقول « كنت فى شبابى مصارع ثيران ، لا أرهب شيئاً وسيفى فى يدى »[٩١]. وربما قصد بهذا أنه كان من أولئك الصبية المغامرين الذين يصارعون الثيران فى الشوارع . على أية حال وصل إلى إيطاليا ، لأنه فى ١٧٧٠ فاز بالجائزة الثانية فى مسابقة بأكاديمية الفنون الجميلة فى بارما . وتحكى الأسطورة أنه تسلق قبة كاتدرائية القديس بطرس وسطا على دير ليخطف راهبة . وأكثر من هذا احتمالا أنه كان يدرس صور ما ناسكو الذى ربما كان لتلوينه القاتم ، وأجساده المعذبة ، ومناظر محكمة تفتيشه ، من الأثر العميق فى نفسه ما فاق الأوضاع الهادئة الكلاسيكية التى أوصى بها منجز فى أسبانيا .

وفى خريف ١٧٧١ نلتقى به فى سرقسطة التى عاد إليها ليزين مصلى فى الكتدرائية « الكنيسة الكبرى لسيدة العمود » .

وقد أجاد التصوير ، وكوفئ بخمسة عشر ألف ريال نظير جهد استغرقه ستة أشهر ، واستطاع الآن أن يعول زوجه إذا تزوج . وعامل القرب

فى تقرير اختيارنا شريك الحياة ، وهكذا تزوج (١٧٧٣) خوزيفاً بايو ، وكان فيها ريعان الشباب ، ولها شعر ذهبى ، ومكانها فى متناوله . وقد استخدمها نموذجاً ، ورسم صورتها مراراً ، وصورتها المعلقة فى البرادو تظهرها متعبة بتكرار الحمل ، أو محزونة لخيانات فرانسسكو لها [٩٢] .

ثم نقل إلى مدريد (١٧٧٥) . وكلفه منجز (١٧٧٦) — بتوصية من من بايو على الأرجح — بأن يرسم لوحات قماشية كبيرة تصلح رسوماً تخطيطية (كرتونات) للمصنع الملكى للنسجيات الذى أنشأه فليب الخامس على غرار مصنع الجوبلان . وغامر جويا الآن برفض خطير ، فاتخذ قرارا شكل مستقبله . ذلك أنه أغفل ميل منجز إلى الميثولوجيا الكلاسيكية وتاريخ الأبطال ، فرسم على اتساع كبير وبألوان ناصعة الناس الذين ينتمون إلى طبقته وعصره — رسم كدهم وحبهم ، ومهرجاناتهم وأعيادهم ، مصارعاتهم مع الثيران ولعبهم بطائرات الورق ، أسواقهم ورحلاتهم الخلوية وألعابهم ، وإلى هذه الواقعية أضاف فى جرأة أشياء تخيلها ولكنه لم يرها قط . أما منجز فقد ارتفع إلى مستوى الموقف : فلم يذم هذا الخروج على التقاليد الأكاديمية ، وشعر بنبض الحياة يسرى فى الأسلوب الجديد ، وأعطى هذا المتمرد مزيدا من التكليفات . وأنتج جويا خلال خمسة عشر عاما خمسة وأربعين كرتوناً أساسيا لعماله ، بينما راح ينتقل إلى مجالات أخرى بثقة متزايدة . واستطاع الآن أن يأكل ويشرب مطمئناً . كتب إلى صديقه زاباترا « أن دخلى يتراوح بين إثنى عشر ألفاً وثلاثة عشر ألف ريال فى السنة » .

على أن نوعا من البكتريا تطفل على هذا النجاح الذى أصابه ولسنا نعرف مصدر الزهرى الذى إبتلى به جويا ، ولكنا نعرف أنه مرض مرضا خطيرا فى أبريل ١٧٧٧[٩٣] . وأبلى منه شيئا فشيئا ، ولكن لعل المرض كان له بعض الأثر فى التشاؤم الذى شاب فنه ، وربما فى فقده السمع فى ١٧٩٣ . على أنه تمالك صحته فى ١٧٧٨ بالقدر الذى أتاح له المشاركة فى مشروع وضعه شارل الثالث ليذيع فى خارج أسبانيا بالنسخ المطبوعة عن الكلشيهات ذخائر الفن الأسبانى . ولهذا الغرض نسخ جويا ثمانى عشرة

لوحة لفيلاسكيذ ، ومن هذه النسخ صنع محفورات ، وكانت هذه مهارة جديدة عليه . وظل منقاشه حينا متّرددا فجا . ولكن من هذه البداية تطور ليصبح من أعظم الحفارين بعد رمبرانت . وسمح له بأن يقدم نسخه بشخصه إلى الملك ، وفى ١٧٨٠ سجل واحدا من مصورى البلاط . وقبل الآن فى الأكاديمية آخر الأمر . وحوالى ١٧٨٥ رسم لوحة شارل الثالث الشهيرة . التى بدا فيها الملك لابسا حلة الصيد . مهيأ للقتل ، ولكنه هرم . مكدود ، متقوس الساقين محدودب الظهر ، هنا ضحى جويا كعادته بالرضى فى سبيل الصدق .

واستقدم جويا أمه وأخاه كاميلو بعد موت أبيه ليعيشا معه ومع خوزيفا والأطفال . وقبل شتى التكليفات ليعول هذه الأسره المتكاثرة : فرسم لوحة جصية فى كنيسة سان فرانسسكو الجراندى ، وصورا دينية لكلية كالاترافا بسامنقه ، ومشاهد من الحياة اليوميه لمنزل دوق أوزونا الريفى . ثم رسم لوحات للأشخاص لكونها أربح فرع فى مهنته . فرسم عدة لوحات لاوزونا[٩٤] . واحدة للدوق وأسرته — يبدو فيها الاطفال شديدى التصلب وأخرى لدوقه أوزونا بثلاثة أرباع طولها[٩٥] — وهى معجزة من الوان الزيت تستحيل حريرا ومخرمات .

وربما كان جويا سعيدا عام ١٧٨٤ . ففى ذلك العام ولد له خافيد ، وهو الأبن الوحيد الذى قدر له أن يبقى حيا بعد موت أبيه . وأزيح الستار عن الصور الجصية التى رسمها لكنيسة القديس فرنسيس الكبير فى احتفال رسمى . وأثنى عليها مشاهدوها كأروع لوحة فى ذلك العهد . وكان الملك وكل حاشيته حضورا ، وقد شاركوا فى الثناء . وحوالى ١٧٨٧ رسم جويا لوحة المركيز دى بونتيخوس . وهى الآن من أنفس ما تملكه قاعة الصور القومية فى وأشنطن . وبعد عام عاد إلى رسم الطبيعة فى لوحته La Pradera de San Isidro[٩٦] — وتمثل حقلا غص بالمتنزهين يحتفلون بعيد القديس حامى مدريد العظيم بالركوب والتمشى والجلوس والأكل والشرب والغناء

والرقص على شواطىء ما نزاناريس المعشبة . وهى لا تعدو أنتكون تخطيطا، ولكنها آية من آيات التصوير .

ولم يزد عمر جويا على الثالثة والأربعين حين مات شارل (١٧٨٨) ولكنه حسب نفسه قد شاخ . وكان قد كتب فى ديسمبر من العام إلى زاياتر يقول « لقد شخت ، وملأت التجاعيد وجهى حتى أنك لن تستطيع التعرف على « لولا أنفى الأفطس وعيناى الغائرتان(٩٧) » . وما كان فى إستطاعته التنبؤ بأنه مازال أمامه فسحة فى الأجل تمتد أربعين سنة ، وبأن أكثر مغامراته شططا وأروع إنتاجه مستكنان فى مستقبل أيامه . لقد تطور فى بطء والآن سيكرهه الغرام والثورة على أن يتابع السير وإلاكان من المغرقين . فارتفع مع الأحداث ، وأصبح أعظم فنان فى جيله .

(ب) غرام

وقد شغله ١٧٨٩ رسم صور للملك والملكه الجديدين احتفالا بدخولهما مدريد رسميا فى ٢١ سبتمبر . وكان « فيليبى » بن شارل الثالث البكر ، قد أقصى عن وراثة العرش لعتهه ، فآل العرش للأبن الثانى الذى وصفه مؤرخ غير متعاطف بأنه « نصف معتوه(٩٨) » لا أكثر . وكان شارل الرابع ساذجا حسن الظن بالناس ، فيه من الطيبه ما يكاد يغرى الأشرار بالشر . وكان قد انصرف إلى حياة القنص والأكل والأنجاب لافتراضه أنه مقصى عن وراثة العرش ، بحكم كونه الأبن الثانى . أما وقد بات الأن بدينا لين العريكه ، فأنه أستسلم راضيا لزوجته ماريا لويز البارمية ، وتجاهل — أو جهل — فسقها مع عشاقها ، ورقى عشيقها ما نويل دى جودوى رئيسا للوزارة (١٧٩٢ — ٩٧) .

وكانت الملكه الجديده قد داعبت الأفكار التحرريه قبل ولايتها للعرش، وقد شجع شارل الرابع فى أول سنى حكمه فلوريدا بلانكا ، وخوفيللانوس، وكامبومانيس (وكلهم رسمهم جويا) على المضى فى برنامج أصلاحاتهم . غير أن سقوط الباستيل روع شارل الرابع وفلوريدا بلانكا فارتدت الحكومة

إلى رجعية سياسية أعادتها إلى التعاون الكامل مع الكنيسه بأعتبارها أقوى معقل للملكية . وأهمل الكثير من القوانين التقدمية التى سنت فى عهد شارل الثالث ، وأستعاد ديوان التفتيش بعض سلطاته ، وأوقف إستيراد الأدب الفرنسى ، وحظرت جميع الصحف إلا صحيفة مدريد اليومية الرسمية ، وأقصى عن البلاط خوفيللانوس وكامبومانيس وأراندا . وابتهج الشعب بانتصار إيمانهم الذى يعتزون به . وفى ١٧٩٣ أنضمت أسبانيا إلى الحرب التى خاضتها الملكيات ضد فرنسا الثائرة .

فى وسط هذا المعمعان حالف الحظ جويا . ففى أبريل ١٧٨٩ عين « رساما للحجرة » فلما مرضت خوزيفا وأشار الطبيب بهواء البحر علاجا لها صحبها جويا إلى بلنسيه (١٧٩٠) حيث كرمه القوم كأنه فيلاسكويز أسبانيا الجديد . ووأضح أن الطلب أشتد عليه من أقصى أسبانيا إلى أقصاها ، لأننا نجده فى ١٧٩٢ فى قادس ضيفا على سبستيان ما رتينيز . وفى طريق عودته أصيب فى أشبيلية بالدوار والشلل الجزئى ، فعاد إلى صديقه فى قادس ، وظل نهبا للقلق طوال فترة نقاهة غير قصيرة .

فأى مرض هذا الذى شكا منه ؟ لقد وصفه بايو وصفا غامضا يقوله أنه « ذو طبيعه رهيبة جدا » . وخامره الشك فى أن جويا سيبرأ منه يوما ما[٩٩]. وكتب رياتر صديق جويا الوفى فى مارس ١٧٩٣ : « لقد جلب على جويا هذا المأزق إفتقاره إلى التدبر . ولكن لأبد من مواساته بكل الشفقة التى يتطلبها مصابه[١٠٠]. » وقد فسر دارسون كثيرون هذا المرض بأنه من أعقاب الزهرى[١٠١] ولكن آخر تحليل طبى رفض هذا الرأى وشخصه بأنه التهاب أعصاب تلافيف الأذن[١٠٢] . أياكان الأمر فأن جوياكان فاقد السمع حين عاد إلى مدريد فى يوليو ١٧٩٣ ، وكذلك ظل إلى يوم مماته . وفى فبراير ١٧٩٤ كتب خوفيللانوس فى يوميته « كتبت إلى جويا ، فرد بأنه كان عاجزا حتى عن الكتابه نتيجة السكته الدماغيه التى أصيب بها [١٠٣] » . ولكن الشلل زال شيئا فشيئا ، وما وافى عام ١٧٩٥ حتى كان فى جويا من العافيه ما أغراه بالوقوع فى الحب .

وكانت تريزا كاتيانا ماريا ديل بيلار الدوقة الثالثة عشرة من سلالة ألبا الشهيرة . وكان أبوها قد تشرب الفلسفة الفرنسية ، فرباها على مبادىء متحررة ، وتلقت تعليما هيأ لها عقلا يقظا وإرادة عنيدة . فلما بلغت الثالثة عشرة تزوجت الدوق خوزيه دى توليدو أوزوريو ، ذوق ألبا البالغ من العمر تسعة عشر ربيعا . وكان الدوق رقيق الجسد معلولا ، فلزم بيته أكثر الوقت وأغرق نفسه فى الموسيقى . ورسمه جويا جالسا إلى البيانو أمام نوتة لهايدن . وكانت الدوقة متغطرسة جميلة شهوانية . وقد لاحظ رحالة فرنسى أنه « ليس فى رأسها شعرة لا تثير الشهوة[١٠٤] » ، وكانت تشبع رغباتها دون قيد من فضيلة أو نفقة أو طبقة . وأقتنت فى بيتها شخصا معتوها ، وراهبا أعور ، وزنجية صغيرة أصبحت ربيبتها المفضلة . ولكن كان وراء هذه المغامرات الجريئة نفس سمحة كريمة ، ولعلها أنعطفت نحو جويا لأنه كان أصم تعسا بقدر ما مالت إليه لأنه يستطيع أن يخلدها بفرشاته .

ولا بد أنه رآها مرارا قبل أن تقف ليرسمها . لأنها كانت تحوم داخل البلاط وخارجه وتثير الأقاويل بمغازلاتها وبعدائها الجرىء للملكية. وأول صورة تحمل تاريخا رسمها لها تبدو فيها بطولها كله . وقد لفت قسماتها النحيلة الحارة فى لمة من الشعر الأسود . ويمناها تشير إلى شىء على الأرض . فإذا تأملنا الصورة قرأنا عليها بوضوح هذه العبارة « إلى دوقة ألبا دى جويا ١٧٩٥[١٠٥] ». وهنا إيماءة إلى صداقة قائمة فعلا . وليست الصورة من روائع جويا . ويفضلها كثيرا تلك التى رسمها فى العام نفسه لفرانسسكو بايو الذى كان قد مات لتوه . وفى نوفمبر خلفه جويا مديرا لمدرسة التصوير بالأكاديمية .

ومات دوق ألبا فى يونيو ١٧٩٦ . وأعتكفت الدوقة فترة حداد وجيزة فى ضيعتها الريفيه بسانلوكار ، بين أشبيلية وقادس. وليس من المؤكد أن جويا رافقها ، ولا علم لنا إلا بغيابه عن مدريد من أكتوبر ١٧٩٦ إلى إبريل ١٧٩٧ . ويبدو أنه فى كراستين رسوما لبعض ما رأى فى سانلوكار . ومعظم الرسوم تبدو فيها الدوقة تستقبل الضيوف ، أو تربت الزنجية ، أو تشد شعرها فى نوبة غضب ، أو تتقيل (بينما تنقل الخادمة المبولة)[١٠٦] ، أو يغشى

عليها فى نزهة ، أو تعبث مع منافس أو آخر ممن ينافسون جويا على يديها الملاطفتين . وتدل الرسوم التخطيطية على غيرته المتصاعدة ، وتبدو فيها أيضا امرأة أخرى — تخرج عارية من الحمام ، أو ترقد على الفراش نصف كاسية أو تضع الرباط على ساق بديعة التكوين ، ولعل جويا انغمس كالدوقة فى إنحرافات الحب . ومع ذلك فالراجح أنه فى سانلوكار رسم أعظم ما يفخر به من صورها[١٠٧] — فى زى « ماخا » وقحة ترتدى ثوبا أسود فى صفرة ، بحزام من القرمز والذهب حول خصرها النحيل ، وطرحة سوداء فوق رأسها ، وفى يمناها (وهى فى حد ذاتها من آيات التصوير) خاتمان يحمل أحدهما اسم « ألبا » والآخر « جويا » ، وتشير سبابتها إلى أسمه ، وتاريخ ١٧٩٧ ، مكتوبين على التربة الرملية تحت قدميها . وكان يرفض دائما بيع هذه اللوحة .

وكانت مغامرة غرامه المزدهر قد صورت حين رجع جويا إلى مدريد . وتهمها بعض رسومه « الكابريكو » (١٧٩٧) بالأستسلام الفاجر لأشتات من ذكور يفتقرون إلى اللياقة . وقد أتهمها جودوى باغواء وزير الحربية وكتب إلى الملكة يقول أن ألبا وكل إنصارها ينبغى أن يدفنوا فى حفرة كبيرة[١٠٨] » . وحين ماتت الدوقه (٢٣ يوليو ١٨٠٣) وهى بعد فى الأربعين ، أرجفت مدريد أنها سممت ، وعطف الناس عليها لأنها خلفت قدرا كبيرا من ثروتها الضخمه لخدمها . كذلك أوصت براتب سنوى يبلغ ٣،٦٠٠ ريال لحافيد بن جويا . وأمر الملك بالتحقيق فى موتها — وعين جودوى رئيسا للمحققين -- وزج بالطبيب وبعض أتباع الدوقة فى السجن ، وألغيت وصيتها ، وحرم خدمها من أنصبتهم التى أوصت لهم بها ، وسرعان ما تزينت الملكة بأجمل جواهر ألبا[١٠٩] .

(ج) قمة المجد

كان جويا قد إستقال عام ١٧٩٧ من منصبه مديرا للتصوير فى الأكاديمية ، فقد أعجزته كثرة شواغله الآن عن التدريس . وفى ١٩٧٨

أختير لزخرفة قبة كنيسة سأن أنطونيودى لا فلوريدا وقلب قوصراتها ، ومع أنه أثار غضب الأكليروس بتصويره الملائكة بأطراف شهوانيه ، إلا أن الكل تقريباً أجمعوا على أنه نقل إلى تلك الفراغات المقدسة ، فى صورة الهام ، حياة شوارع مدريد ودمها . وفى ٣١ أكتوبر ١٧٩٩ عين « مصور البلاط الأول » براتب قدره خمسون ألف ريال فى العام . ورسم فى (١٨٠٠) أشهر لوحاته قاطبة وهى « شارل الرابع وأسرته[١١٠] » — وهى كشف قاس عن بلاهة الأسرة المالكة ، ونحن نقشعر حين نتخيل منظر هذه المجموعة من الأبدان المنتفخة والأرواح القميئه إذا جردوا من ثيابهم البراقة — وتلك براعة فى الأشعاع والتألق ندر أن بزها رسام فى تاريخ الفن . ويروى التاريخ أن الضحايا أعربوا عن كامل الرضى عن اللوحة[١١١] .

وفى ركن من اللوحة رسم جويا نفسه . وعلينا أن نغفر أنانية صوره الذاتية الكثيرة ، ولا ريب فى أن بعضها كان دراسات تجريبيه استخدم فيها مرآة ، شأنه فيها شأن ممثل يتدرب على التعبير بسحنته أمام المرآة ، وأثنتان منهما رائعتان . وخيرها (اللوحة الأولى من الكابريكو) يبدو فيها فى الخمسين ، أصم ولكن فى كبرياء ، له ذقن عدوانى ، وشفتان شهوانيتان وعيون فظة ، وشعر ينمو فوق أذنية ويكاد يصل إلى ذقنه ، وتتوج هذا كله قبعه حريرية فأخرة تعلو رأسه الضخم كأنها تحد لجميع نبلاء الدنيا المحظوظين . وبعد تسعة عشر عاماً من رسمه هذه اللوحة ، وبعد أن نجا من ثورة ، رمى القبعة ، وفتح قميصه عند عنقه ، وكشف عن نفسه فى مزاج ألطف . لم تزل له كبرياؤه ، ولكن فيه من الثقة الكبيرة بنفسه ما يربأ به عن التحديات[١١٢] .

وكان رسم الأشخاص أقوى نواحى فنه . ومع أن معاصريه كانوا يعلمون بأنه لن يتملقهم ، فأنهم خضعوا فى لهفة لحكم فن راودهم الأمل فى أنه سيحمل ذكراهم قرونا طوالا سواء كانت الذكرى مبعث صيت ذائع أو عار يخزيهم . ولدينا علم بثلاثمائة نبيل وثمانية وثمانين عضوا فى الأسرة المالكة جلسوا أمامه ليرسمهم ، وقد بقيت من هذه الصور مائتان . ومن أفضلها صورة لفردينان جيمارويه ، السفير الفرنسى ، وقد أتى بها صاحبها إلى

باريس ، وإقتناها اللوفر فى ١٨٦٥ ، وإليها يرجع بعض الفضل فى بعث شهرة جويا فى فرنسا . وأروع ما رسم من صور الأطفال صورة دون ما نويل أوزوريو دى زونيجا ، المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ، هنا إدرك جويا فيلاسكيز . وقد ضارع فيلاسكيز ثانية فى كوكبة النساء اللآتى صورهن ، وأنتظمت صوره لهن أشتاتا ، فيها النحيلات مثل « الطفلة الملكية ماريا يوزيفا » ، وفيهن المرأة الساحرة الخلابة مثل السنيورا جارثيا[١١٣]، والممثلة المكتهلة « لا تيرانا[١١٤] » .. جمال مصور ولكنه يخلى مكانه للشخصية .

أما أكثر نساء جويا سفورا فهى « الماخا » الوقحة التى رقدت حوالى (١٧٩٨) خالية من كل زينة يرسم لها « الماخا العارية »؛ ثم كاسية فى اغراء نيرسم لها « الماخا فى ثيابها » وهاتان اللوحتان الصنوان تجتذبان من رواد البرادو عددا غفيرا كالذى تجتذبه الموناليزا من رواد اللوفر . والماخا العارية ولوحة فيلاسكويز « فينوس فى المرآة » هما الصورتان العاريتان الوحيدتان فى التصوير الأسبانى ، لأن رسم العرايا فى الفن الأسبانى كان عقابه السجن سنة ومصادرة المنقولات والنفى . وقد غامر به فيلاسكويز فى حماية فليب الرابع ، وجويا فى حماية جودوى الذى وافق جويا على تفضيل الثديين الكبيرين والخصر النحيل والشفاه الممتلئة . « وماخا » جويا لم تكن صورة لدوقة ألبا رغم ما تواتر عنها ، كذلك لم تكن الكاسية التى رسمها جويا لتحل محل العارية حين جاء الدوق الغاضب (كما تروى الأسطورة) وفى عينيه نذير المبارزة . ولكن اللوحتين اشترتهما الدوقة أو أعطيتا لها ، وانتقلتا بعد وفاتها إلى مجموعة جودوى .

وبينما كان جويا يمد أسرته بالمال الذى يكسبه من تصوير الأشخاص ، راح يتسلى (١٧٩٦ -- ٩٧) بمحفورات وصور مائية نشرها فى ١٧٩٩ على أنها « نزوات » -- ثلاث وثمانون صورة لعقل أرزن فيه خشونة وغضب ، تعصف فى هجاء قاتم وعناوين ساخرة عادات جيله وأخلاقه ونظامه . وألمع هذه السلسلة هى رقم ٤٣ : وهى تصور

رجلا استسلم للنوم على مكتبه بينما العفاريت تحوم حول رأسه : وعلى المكتب عبارة تقول « حلم العقل يبعث العفاريت » . وقد فسر جويا هــذا بأن » الخيال إذا هجره العقل أفرخ العفاريت ، وإذا اتحد بالعقل كان خالق الفنون ومبدع أعاجيبها [١١٤] » . وهــذه طعنة للخرافات التى أظلمت عقل أسبانيا ، ولكنها كذلك وصــف لنصف فن جويا . فلقد كانت الأحلام المرعبة لاتبرحه ، « ونزواته » على الأخص تمتلىء بمناظرها المروعة . هناك ترى جسد الإنسان وقد انحط إلى عشرات الأشكال الوارمة ، العجفاء ، الكسيحة ، الوحشية ، والبوم والقطط تنظر إلينا شزرا ، والذئاب والنسور تجوس خلسة ، والساحرات يطرن فى الهواء ، والأرض تبعثرت فيها الجماجم وعظام السيقان وجثث الأطفال حديثى الولادة حديثى الموت . وكأنما تقفز خيال هيرونيموس بوش المريض عبر فرنسا متخطيا القرون ليدخل عقل جويا ويشيع فيه الفوضى .

أكان جويا عقلانيا ؟ كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه فضل العقل على الخرافة . ففى أحد رسومه صور شابة مكللة بالغار ممسكة بميزان تطارد طيورا سوداء بالسوط ، وتحت الصورة كتب جويا « أيها العقل المقدس لاتبق على أحد[١١٦] » . وفى رسم آخر رهبان يجردون أنفسهم من أرديتهم[١١٧] ؛ وقد ركب على جسد راهب يصلى وجه مجنون[١١٨] . وصور « محكمة ديوان التفتيش[١١٩] » مشهداً كئيباً من ضحايا مساكين تحاكمهم سلطة باردة الشعور . وصور يهودياً مقيداً بالاغلال فى زنزانة التفتيش ، وكتب هذا التعليق « أى زاباتا ، أن مجدك سيدوم إلى الأبد [١٢٠] » . أكان هذا صدى لكتاب فولتير « أسئلة زاباتا » ؟ وقد رسم تسعاً وعشرين لوحة لضحايا التفتيش يعانون شتى العقوبات [١٢١] . وفى آخرهم رسم إنسانا مبتهجاً فوق هذا العنوان « الحرية المقدسة ! »[١٢٢] ومع ذلك ظل إلى يوم مماته يرسم علامة الصليب على وجهه فى ورع . ويدعو المسيح والقديسين ويتوج رسائله برسم الصليب ، وربما كانت هذه كلها أثارا متخلفة من عادات كونها فى صباه .

د — ثــورة

أكان جويا ثائراً ؟ كلا . لابل أنه لم يكن حتى جمهوريا . وليس فى فنه أو كلامه علامة تدل على أنه يرغب فى الاطاحة بالملكية الأسبانية . وقد ربط شخصه وحظه بشارل الثالث ، وشارل الرابع ، وجودوى ، وجوزف بونابرت ، وعاشر نبلاء البلاط فى سرور وابتهاج . ولكنه خبر الفقر من قبل ، وما زال يراه من حوله ، ونفره إملاق الجماهير وماترتب عليه من جهل وخرافه ، وتقبل الكنيسة للفقر الجماعى نتيجة طبيعية لطبيعة البشر وفوارقهم . وقد خلد نصف فنه الأغنياء ، أما النصف الآخر فكان صرخة تطالب بانصاف الفقراء ، واحتجاجا على همجية القانون وديوان التفتيش والحرب . كان مواليا للملكية فى لوحاته الشخصية ، كاثوليكيا فى صوره ، متمرداً فى رسومه ، ففيها أعرب بقوة تكاد تكون وحشية عن مقته للظلامية والظلم والحماقة والقسوة . ويمثل رسم منها رجلا ممدداً فوق مخدعه وعنوان الرسم « لأنه اكتشف حركة الأرض » . ورسم آخر يصور امرأة وضعت فى المقطرة لأنها « أبدت عطفها على قضية التحرير » .

ومن هؤلاء الأسبان الذين سموا أنفسهم تحرريين ؛ يبدو أنهم كانوا أول حزب سياسى استعمل ذلك الاسم . وقد عنوا به التدليل على شوقهم إلى الحرية — حرية العقل من الرقابة ، وحرية الجسد من الانحطاط ، وحرية الروح من الطغيان . وكانوا قد تلقوا فى عرفان « التنوير » الوافد من حركة التنوير الفرنسية . ورحبوا بدخول قوة فرنسية فى أسبانيا (١٨٠٧) ، والواقع أن نصف السكان رحبوا بها جيشاً للتحرير ؛ ولم يسمع احتجاج حين استقال شارل الرابع وتوج ولده فرديناند السابع تحت حماية جنود مورا . وقد رسم جويا صورة للحاكم الجديد .

ولكن مزاج الشعب ومزاج جويا تغيرا حين استدعى نابليون شارل الرابع وفرديناند السابع إلى بايون وخلعهما ؛ ونفى أحدهما إلى ايطاليـــا

والآخر إلى فرنسا ، ونصب أخاه جوزف ملكا على أسبانيا . وتجمع حشد غاضب أمام القصر الملكى . وأمر مورا جنده بأن يخلو الميدان ، ففر الجمع ، ولكنه عاد إلى الاحتشاد حتى بلغوا عشرين الفا فى ميدان مايور . فلما زحف الجنود الفرنسيون والمماليك نحو الميدان أطلقت عليهم النيران من النوافذ والبواكى ، فاشتد غضبهم ، واقتحموا البيوت وراحوا يقتلون أهلها دون تمييز . ودارت بين الجند والجماهير معركة امتدت طوال النهار ، هو يوم مايو الأشهر (٢ مايو ١٨٠٨) ، وسقط مئات الرجال والنساء صرعى ، وشهد جويا من موضع قريب موت شطراً من المذبحة[١٢٣] . وفى ٣ مايو أعدم ثلاثون من السجناء الذين قبض عليهم الجند بواسطة فرقة لإطلاق النار ، وأعدم كل أسبانى أمسك متلبساً ببندقية فى يده . وهبت أسـبانيا الآن كلها تقريبا ثائرة على الفرنسيين ، وسرت « حرب تحرير » من أقليم لأقليم ، ولطخت الطرفين بما اقترفا من فظائع وحشية وشهد جويا بعضها ولم تبرحه ذكراها حتى يوم مماته . وفى ١٨١١ كتب وصيته مخافة أن يتفاقم سوء الحال . وفى ١٨١٢ ماتت خوزيفا . وفى ١٨١٣ استولى ولنجتن على مدريد ، وعاد فرديناند السابع إلى عرشه .

واحتفل جوياً بانتصار أسبانيا برسم لوحتين من أشهر لوحاته(١٨١٤)[١٢٤] . إحداهما « يوم مايو » أعاد فيها بناء ما رأى أو سمع أو تخيل من المعركة الناشبة بين جماهير مدريد وجنود الفرنسيين والمماليك . فوضع المماليك فى القلب ، لأن اشتراكهم فى القتال هو الذى أثار أبلغ استنكار فى الذاكرة الأسبانية . ولا داعى للسؤال هل كانت الصورة تاريخا صحيحاً ، فهى فن رائع قوى ، ابتداء من تدرجات الألوان التى تومض على جواد المملوك المجند وانتهاء بوجوه الرجال الذين روعهم ووحشهم الاختيار بين أن يقتلوا أو يقتلوا . وأنصع حتى من هذه اللوحة اللوحة الأخت « الرمى بالنار فى الثالث من مايو » — وفيها فرقة لحملة البنادق الفرنسيين يعدمون السجناء الأسبان . وليس فى فن جويا ماهو أبلغ وقعاً فى النفس من التباين بين الرعب والتحدى فى الشخصية الوسطى فى تلك المذبحة .

والآن وقد بات جويا أرملا ، أصم ، مكرها على الصمت ، فقد انكفأ إلى فنه وهو مايزال « مصور الحجرة الملكية » ذا المعاش المقرر ، ولكنه لم يعد أثيراً لدى البلاط . ولعل أقوى محفوراته قد حفرها فى ١٨١٢ ، وهى « العملاق »[١٢٥] — وتمثل هرقول بوجه كاليبان ، جالساً على حافة الكرة الأرضية ، كأنه مارس يستريح بعد حرب ظافرة . وكان طوال الفترة من ١٨١٠ برسم رسوماً تخطيطية صغيرة ثم يحفرها ويطبعها ، وقد سماها «العقابيل القتالة لحرب أسبانيا الدموية مع بونابرت ، وغيرها من النزوات ». ولم يجرؤ على نشر هذه الرسوم الخمسة والثمانين ، ولكن أوصى بها لولده ، الذى باعها ابنه لأكاديمية سان فرناندو ، والتى نشرتها عام ١٨٦٣ بعنوان «كوارث الحرب » .

وهذه الرسوم التخطيطية ليست مشاهد عادية للمعارك يستخفى القتل فيها فى ثوب البطولة والمجد ، إنما هى لحظات من الرعب والقسوة تنسى خلالها ضوابط الحضارة الهزيلة فى حميا الصراع ونشوة الدماء . هنا بيوت تحترق وتنهار على ساكنيها ، ونسوة يهرعن إلى المعركة بحجارة أو رماح أو بنادق ، هنا نساء تهتك أعراضهن ، ورجال يشدون إلى أعمدة أمام فرق ضرب النار ، ورجال طاحت سيقانهم أو أذرعهم أو رؤسهم ، وجندى يجب الأعضاء التناسلية لرجل[١٢٦] وجثث تخوزق فوق جذوع أو أطراف الشجر الحادة ، ونساء ميتات مازلن قابضات على أطفالهن الرضع ، وأطفال يرقبون فى هلع قتل آبائهم ، وأكداس من الموتى يقذف بهم فى الحفر ، والنسور تستمتع بالتهام الموتى من الآدميين . وتحت هذه الصور أضاف جويا تعليقات ساخرة . « هذا ماولدت له »[١٢٧] ، « هذا رأيته »[١٢٨] ، « لقد حدث هكذا »[١٢٩] ، « ليدفنوا الموتى ويلزموا الصمت »[١٣٠] . وفى النهاية أعرب جويا عن يأسه وأمله . فالصورة رقم ٧٩ تمثل أمرأة تموت بين الحفارين والكهنة ، وعنوانها « الحق يموت » ، ولكن الصورة رقم ٨٠ تظهرها وهى تشع ضياء ، وتسأل « أتبعث حية مرة أخرى ؟ » .

ﻫ — الجدار

فى فبراير ١٨١٩ اشترى بيتاً ريفياً على الضفة الأخرى لنهرمانزاناريس . كانت الأشجار تظلله ، ومع أنه كان عاجزا عن سماع شدو الغدير الذى حف به ، فإنه استطاع أن يحس الدرس المستفاد من جريانه الهادىء المطمئن. وكان جيرانه يسمون بيته « بيت الأصم » . ولما كان خافير قد تزوج واستقل ببيته ، فقد صحب جويا معه دونا لوناديااوايس ، خليلة ومديرة لبيته . وكانت امرأة سليطة اللسان قوية البدن . ولكن جوياً كان فى حصن حصين من لسانها السليط . وأتت معها بطفلين — صبى هو جيبرمو . وفتاة صغيرة مرحة تدعى ماريا ديل روزاريو . وقد أصبحاعزاء لحياة الفنان فى شيخوخته .

ولقد كان فى أمس الحاجة لهذا الحافز الصحى لأن عقله كان على شفا الجنون . على هذا النحو فقط نستطيع أن نفهم « الرسوم الزنجية » التى غطى بها كثيرا من جدران البيت الذى كان مستشفاه . وراح يرسم بالأسود والأبيض فى الأغلب ، وكأنه يعكس ظلام عقله . ولم يعط حدودا معينة للأجساد التى رسمها وكأنه وفى لغموض رؤاه . ولكنه استعمل ألوانا جصية حسنة ليثبت بسرعة على الحائط صور حلم سريعة الزوال . وقد رسم على جدار جانبى طويل « رحلة سان ايزيدرو » وهو العيد الذى رسمه مبهجاً عام ١٧٨٨ قبل احدى وثلاثين سنة ولكنه الآن أصبح مشهداً كئيباً لمتعصبين متوحشين مخمورين . وجمع على الجدار المقابل أشخاصا أفظع حتى من هؤلاء فى « سبت الساحرات » وهن يتعبدن لتيس أسود ضخم على نحو رهيب لأنه شيطانهن وإلاههن الآمر . وفى أقصى الحجرة ارتفعت أبشع صورة فى تاريخ الفن ، صورة ساترن يفترس ابنه — مارد يفترس طفلا عاريا ، أكل رأسه وذراعه وأخذ يلتهم الذراع الباقية وهو يرش الدم من حوله[١٣١]. وربما كانت الصورة رمزاً مجنونا لأمم مجنونة تأكل بنيها فى الحرب . هذه رؤى رجل تعذبه أطياف الموت المروعة فهو يرسمها فى جنون ليطردها من ذاته ويثبتها على الجدار .

وفى ١٨٢٣ هربت ليوثاديا إلى بوردو بولديها لخوفها من الاعتقال

بسبب نشاطها الماسونى . وقرر جويا أن يلحق بهم بعد أن ترك وحيداً مع الجنون الذى رسمه على جدرانه . ولكنه لو رحل بغير إذن من الملك لفقد حقه فى الراتب الرسمى الذى كان يتقاضاه بوصفه عصور الحجرة ، فالتمس أجازة شهورا للاستشفاء بمياه بلومبير ، فمنح الأجازة . ونقل ملكية بيته لحفيده ماريانو ، وفى يونيو ١٨٢٤ يمم شطر بوردو ، وليوثاريا، وماريا ديل روزاريو .

وبات حبه لحفيده ماريانو العاطفة المشوبة المتسلطة عليه كلما دنت منيته . فأوصى بمعاش سنوى للصبى وعرض دفع النفقات إذا أتى خافيير بماريانو إلى بوردو . ولم يستطع خافيير الحضور ولكنه أرسل زوجته وابنه ، فلما وصلا عانقهما جويا فى انفعال انهار بسببه واضطر إلى ملازمة الفراش . وكتب إلى ابنه يقول : « يا عزيزى خافيير ، إنما أردت أن أخبرك بأن هذه الفرحة كلها كانت فوق ما احتمل . . . أدعو الله أن يتيح لك أن تأتى وتأخذهما وعندها تفيض كأس سعادتى(١٣٢) » . وفى صباح الغد احتبس صوته وشل نصف بدنه . وطال احتضاره ثلاثة عشر يوما وهو ينتظر بصبر نافذ مجىء خافيير دون جدوى . ومات فى ١٦ ابريل ١٨٢٨ . وفى ١٨٩٩ نقل رفاته من بوردو إلى مدريد ودفن أمام مذبح كنيسة سان انطونيو دى لافلوريدا ، حيث رسم قبل مائة عام تحت القبة آلام الحياة الأسبانية وأحزانها وأفراحها وقصص حبها .

* * *

الفصل الثاني عشر

وداعا ايطاليـــا

١٧٦٠ — ١٧٨٩

(١) جولة وداع

لو سمحنا لأنفسنا بنظرة واحدة أخرى إلى إيطاليا لوجدناها حتى فى هذه القيلولة الظاهرية دافئة بالحياة . فسنرى تورين تحتضن الفيرى ، ولوكا تنشر موسوعة ديدرو ، وفلورنسة تزدهر ثانية تحت حكم الدوق الكبير ليوبولد ، وميلان تصلح القانون بفضل بيكاريا وبافيا وبولونيا تهتزان طربا لتجارب فولتا وجلفانى ، والبندقية تعانى من سلوك كازانوفا ، ونابلى تتحدى البابوية ، وروما متورطة فى مأساة اليسوعيين ، وعشرات من مرابى الموسيقى تصدر الأوبرا ومهرة العازفين ليهدئوا صدر الأقطار المتوحشة عبر الالب . وسنلتقى فى إيطاليا بمائة ألف أجنبى قدموا إليها ليدرسوا كنوزها وليصطلوا بشمسها . ففى هذا العهد وفد عليها جوته بعد أن أرهقه نبلاء فيمار ليجدد شبابه ويروض ربة شعره .

كان انطباع جوته الأول وهو منحدر من الالب إلى فينتسيا ترد نتينا (سبتمبر ١٧٨٦) تأثره بالهواء المعتدل والجو المشرق الذى « يضفى غاية البهجة على مجرد الوجود بل حتى على الفقر »[1] ثم هذه الحياة الطليقة : «فالأهالى دائماً خارج بيوتهم وهم خلاو بالهم لا يفكرون فى شىء . إلا فى أن يحيوا » . وظن أن التربة المثمرة لا بد أن تجود على هولاء القوم البسطاء بحاجاتهم المتواضعة دون ابطاء ، ولكن الفقر وعدم وجود الوسائل الصحية فى المدن الصغيرة افزعاة :

« حين سألت النادل عن مكان (لقضاء الحاجة) أشار لى على الفناء قائلا « ممكن ، تحت ، فى الحوش». فسألته « آين ؟ فقال فى لهجة ودية « فى أى

مكان ، كما تشاء » . . . فكل الافنية الأمامية والأعمدة تلوثها الأقذار ، لأن القوم يقضون حاجاتهم بطريقة طبيعية جدا »[٢] .

على أن التكيف الحسي جعله يسلم بالأمر الواقع شيئا فشيئا .

وكانت البندقية تستمتع بانحلالها اللطيف ، فحوالى ١٧٧٨ وصف كارلو جوتسى فى مبالغة تغار على الفضيلة ما بدا له أنه انحلال عام فى الأخلاق :

« إن منظر النساء وقد انقلبن رجالا ، والرجال نساء ، وكلهم نسانيس ، وكلهم غارقون . . . فى دوامة الموضة ، يفسدون ويغوون بعضهم بعضا بلهفة كلاب الصيد تجرى وراء رائحة الفريسة ، ويتنافسون فى شهواتهم وسرفهم المــــدمر . . . ويحرقون البخور . . . لبريابوس[٣] . (إله الشهوة) »

وفى ١٧٩٧ ألقى اللوم على الفلسفة فى هذا الانهيار :

« أن الدين ، ذلك الكابح الصحى لشهوات البشر . . . قدأصبح هزؤا بين الناس . ولست أملك إلا الإيمان بأن المشنقة مفيدة للمجتمع ، لأنها أداة لعقاب الجريمة وردع من تحدثه نفسه بالإجرام . ولكن فلاسفتنا العصريين ندددوا بالمشنقة زاعمين أنها تحيز ظالم وهكذا زادوا جرائم القتل على الطريق العام والسرقات وأعمال العنف مائة ضعف .

« وقد أكدوا لنا أن ابقاء النساء فى بيوتهن لرعاية بنيهن وبناتهن . . . والأشراف على خدمة الأسرة واقتصادها ، إنما هو تحيز بال وهمى . وللتوانطلقت النساء من بيوتهن معربدات كالباخوسيات ، صائحات « الحرية ... الحرية ... » وغصت الشوارع بهن . . . وأسلمن أثناء ذلك عقولهن الطائشـــة إلى الموضات والبدع التافهة ، والملاهى ومغامرات الحب ومظاهر الدلال وسائر السفاسف . . . أما الأزواج فلم يؤتوا من الشجاعة ما يمكنهم من مقاومة هذا التدمير لشرفهم ومالهم وأسرهم ، وخافوا من أن يشهر بهم ويرموا بهذه الكلمة الرهيبة ، كلمة « التحيز » . . . فقد وصفت مكارم الأخـــلاق ،

والحشمة ، والعفة ، بأنها تحيز . . . وحين أكرهت جميع هذه التحيزات المزعومة على الهروب . . . ظهر الكثير من النعم الكبرى والبركات العظمى. كالكفر ، والاطاحة بالاحترام والتوقير ، وقلب العدالة رأساً على عقب... وتشجيع المجرمين والرثاء لهم ، والخيالات الملتهبة ، والأحاسيس المرهفة ، والغرائز البهيمية ، والانهماك فى جميع اللذات والشهوات ، والترف العاتى . . . والتفاليس . . . والخيانات الزوجية[٤] » .

ولكن أسباب الانحلال الرئيسية كانت بالطبع اقتصادية وحربية ؛ ذلك أن البندقية فقدت ثراءها الذى أتاح لها الدفاع عن قوتها وعلى النقيض منها ازدادت قوة غريمتها النمسا البشرية ازديادا مكنها من السيطرة على كل المداخل البرية إلى بحيرات البندقية ، ومن خوض بعض حملاتها الحربية على أرض الجمهورية المحايدة العاجزة .

وفى ٩ مارس ١٧٨٩ انتخب لودوفيكومانن لرئاسة الجمهورية — وكان بذلك آخر الأدواج المائة والعشرين الذين تعاقبوا على كرسى رئاسة البندقية فى استمرار رائع منذ عام ٦٩٧ . وكان رجلا ذا ثراء طائل وشخصية هزيلة ، ولكن ما كان فى طوق الفقر أو الشجاعة أن يردا عنه مأساته . ذلك أن الباستيل سقط بعد أربعة أشهر ، وتسلطت عبادة الحرية على خيال فرنسا ، وحين أقبل هذا الدين مع فيالق نابليون اكتسح كل ايطاليا تقريباً تحت رايته وبقوة نشوته . وفرض الكورسيكى الظافر بظاهرة ثمانون ألف جندى على ملكة الادرياتيكى حكومة مؤقتة أملاها بنفسه (١٢ مايو ١٧٩٧) محتجاً بأن القوات النمساوية قد استعانت عليه بأرض البندقية ، ومتهما البندقية بأنها ساعدت أعداءه سراً . فى ذلك اليوم أعطى الدوج مانن قلنسوة الرئاسة لأحد أتباعه بعد أن استقال ، وأمره قائلا « خذها بعيداً عنى فان نحتاج اليها ثانية[٥] » وبعد أيام مات . وفى ١٦ مايو احتلت الجنود الفرنسية المدينة . وفى ١٧ أكتوبر وقع بونابرت فى كامبوفورميو معاهدة نقلت البندقية وكل الأقاليم التى تمتلكها تقريباً إلى النمسا فى مقابل تنازلات من النمسا لفرنسا فى البلجيك وضفة الرين اليسرى . وحدث هذا بالضبط

بعد ألف ومائة عام من انتخاب أول دوج لحـكم بحيرات البندقية والدفاع عنها .

أما بارما فكانت محمية أسبانية ، ولكن دوقها ، الدون فيليبى ، ابن فيليب الخامس وايز ابيالا فارنيز ى ، تزوج لويزا اليز ابث ابنة لويس الخامس عشر ، وقد عود نفسه عاداتها المسرفة وجعل بلاطه فرسايا مصغرة . وأصبحت بارما مركزاً للثقافة تختلط فيه أساليب الحياة العالمية فى بهجة ومرح . يقول كازانوفا « لقد خيل إلى اننى لم أعد عائشاً فى ايطاليا ، فكل شىء بدا منتميا للجانب الآخر من الألب . ولم يكن المارة يتكلمون إلا الفرنسية والأسبانية[٦] » . وقام وزير مشتنير يدعى جيوم دوتيـو باصلاحات حافزة للدوقية . هنا كانت تنتج مصنوعات من أبدع أنواع النسيج والبللور والقاشانى .

أما ميلان فقد شهدت توسعا صناعيا ينبىء فى تواضع بما بلغته من تفوق اقتصادى فى إيطالية اليوم . ذلك أن الحكم النمساوى أرخى قبضته على قدرات الأهالى وإقدامهم . وتعاون الكونت كارل يوزف فون فرميان ، حاكم لومبارديا ، مع الزعماء الوطنيين على تحسين الإدارة ، وحد من السلطة الظالمة التى كان يمارسها البارونات الأقطاعيون والإوليجركيون فى المدن . وظهرت طائفة من أحرار الاقتصاد يتزعمهم بيترو فرى ، وتشيزارى بونيزانا دى بيكاريا ، وجوفانى كارلى ، أعتنقت مبادىء الفزيوقراطيين ، وألغوا المكوس على التجارة الداخلية ، وأنهوا نظام الالتزام الضرائبى ، ووزعوا العبء بفرض الضرائب على الأملاك الكنسية . ونمت صناعة النسيج حتى أنتظمت فى ١٧٨٥ تسعا وعشرين شركة تشغل ١٣٨٤ نولا . ومسحت الأراضى ، ومولت الدولة مشروعات الرى ، وأشتغل الفلاحون بهمة صادقة . وفى السنوات الإحدى والعشرين فيما بين ١٧٤٩ و ١٧٧٠ إرتفع سكان الدوقية من ٩٠,٠٠٠ إلى ١٣٠,٠٠٠[٧] . فى فترة انتعاش ميلانو هذه بنى مجتمعها التياترو الاسكالا (١٧٧٦ — ٧٨) ، الذى إتسع لـ ٣,٦٠٠ متفرج تحيط بهم زخارف فاخرة كزخارف القصور ، وأحتوى تسهيلات

للموسيقى ، والسمر ، والأكل ، ولعب الورق ، والنوم . وفوق هذا كله صهريجاً للمياه صمم لاطفاء أى حريق . هنا ظفر تشيا روزا وكيروبينى بأنتصارات مدوية .

وكان العصر عصر البطولة لكورسكا . لقد كانت تلك الجزيرة الجبلية الصغيرة مثقلة بأحداث التاريخ . فالفينيقيون القادمون من آسيا الصغرى أقاموا مستعمرة فيها حوالى ٥٦٠ ق . م . ثم قهرهم الأثروريون ، الذين قهرهم القرطاجنيون ، الذين قهرهم الرومان ، الذين قهرهم الروم البيزنطيون ، الذين قهرهم الفرنجة ، الذين قهرهم المسلمون ، الذين قهرهم إيطاليوتسكانيا ، الذين قهرهم البيزاويون ، الذين قهرهم الجنويون (١٣٤٧) . ومات فى ذلك القرن ثلثا السكان من الطاعون الأسود . وفى ظل الحكم الجنوى إنحدر الكورسيكيون الذين أرهقهم الوباء وغارات القراصنة ، والذين حرمت عليهم المناصب الكبرى وأثقلت كواهلهم بضرائب لا يطيقونها ، وانقلبوا إلى حال أشبه بالتوحش لم يحترم فيها قانون غير قانون الثورات العنيفة . . وأخفقت الثورات التى إندلعت بين الحين والحين لما أبتلى به القوم من عداوات طاحنة وما أفتقدوا من العون الأجنبى . أما جنوه ففى سبيل الدفاع عن حياتها ضد الجيوش النمساوية استنجدت بفرنسا لتعينها على حفظ النظام فى كورسكا . واستجابت فرنسا مخافة أن يستولى البريطانيون على الجزيرة ويستخدموها قلعة يتسلطون منها على البحر المتوسط ، فاحتلت الجنود الفرنسية أياتشو وغيرها من الحصون الكورسيكية (١٧١٩ — ٤٨) . ولما بدا أن الأمن قد أستتب إنسحب الفرنسيون ، وعاد سلطان جنوة إلى سابق عهده ، وبدأت ثورة باولى التاريخية .

وقد سبق بأسكالى دى باولى هذا بطولات غاريبالدى بقرن كامل . وقد وصفه اللورد شاتام بأنه « واحد من هؤلاء الرجال الذين لم يعد الناس يعثرون عليهم إلا فى صفحات بلوتارخ[٨] » . ولد (١٧٢٥) أبنا لثائر كورسيكى وتبع أباه إلى المنفى ، ودرس فى نابلى على يد الاقتصادى المتحرر جينوفيزى ، وخدم فى جيش نابلى ، ثم عاد إلى كورسيكا (١٧٥٥)

وأختير ليقود تمردا على جنوه . وبعد عامين من القتال أفلح فى طرد الجنويين من الجزيرة إلا بعض مدنها الساحلية فلما ولى رئاسة الجمهورية الجديدة بالأنتخاب (١٧٥٧ — ٦٨) أظهر فى ميدان التشريع والإدارة نبوغا لا يقل عن نبوغه فى إستراتيجية الحرب وتكتيكها . فقد وضع دستورا ديمقراطيا ، وقمع الثورات ، وألغى حقوق أمراء الأقطاع الظالمة ، ونشر التعليم ، وأسس جامعة فى عاصمته كورتى .

وأضطرت جنوه لعجزها عن قهره إلى بيع الجزيرة لفرنسا (١٥ مايو ١٧٦٨) بمليونى فرنك . ووجد باولى الآن نفسه يقاتل جنودا فرنسيين يعززون بالأمداد المرة بعد المرة . وكان سكرتيره ومساعده فى ذلك الوقت كارلو بونابرتى ، الذى ولد له ابن سماه نابليونى باياتشو فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ . فلما قهر الفرنسيون باولى فى بونتيونوفو (مايو ١٧٦٩) طلق هذا النضال الذى لا أمل فيه ولجأ إلى انجلتره ، وهناك منحته الحكومة معاشا ، وأذاع بوزوبل أسمه ، وكان جونسون واحداً من أصدقائه . على أن الجمعية الوطنية لفرنسا الثورة استدعته من منفاه ، وأشادت به « بطلا وشهيدا للحرية » وعينته حاكما على كورسيكا ، (١٧٩١) . ولكن المؤتمر الفرنسى حكم بأن فى ميوله اليعقوبية قصورا ، فأرسل لجنة لخلعة ، وخف الجنود البريطانيون لنجدته ، ولكن القائد البريطانى أستولى على الجزيزة وأعاد باولى إلى انجلتره (١٧٩٥) . ثم جرد نابليون قوة فرنسية لتطرد البريطانيين (١٧٩٦) ، ورحب أهل الجزيرة بالفرنسيين بأعتبارهم موفدين من قبل « الكورسيكى » ، وإنسحب البريطانيون ، وخضعت كورسيكا لفرنسا .

أما توسكانيا فقد إزدهرت تحت حكم كبار الأدواق الهابسبورج الذين خلفوا آل مديتشى (١٧٣٨) . وبعد أن إتخذ حاكمها الأسمى فرانسوا اللورينى النمسا مقرا له لزواجه من ماريا تريزا ، فوض الحكم إلى مجلس وصاية يرأسه زعماء وطنيون نافسوا الميلانيين الأحرار فى أصلاحاتهم الاقتصادية ، فقد حققوا حرية التجارة الداخلية فى الغلال (١٧٦٧) قبل أن يبذل طورجو محاولة كمحاولتهم فى فرنسا بسبع سنين . وحين مات فرانسوا

(١٧٦٥) خلفه دوقا أكبر أبنه الأصغر ليوبولد ، الذى تطور حتى أصبح واحدا من أجرأ وأشجع « المستبدين المستنيرين » . كبح الفساد فى المناصب ، وأصلح القضاء والإدارة والمالية ، وسوى بين الناس فى الضرائب ، وألغى التعذيب والمصادرة وحكم الإعدام ، وأعان الفلاحين ، وجفف المستنقعات وأنهى الأحتكارات ، ونشر حرية التجارة وحرية المؤسسات التجارية ، وسمح للكومونات بالحكم الذاتى ، وتطلع إلى وضع دستور شبيه بالدساتير الديمقراطيه للدوقيه . وقد راع جوته ما شهده من نظافة المدن التوسكانية النسبية وصلاحية الطرق والكبارى ، وجمال الأشغال العامة وفخامتها[٩] . وحين أصبح يوزف أخو ليوبولد امبراطورا أوحد ، أعان ليوبولد على الغاء معظم الأمتيازات الإقطاعية فى تسكانيا ، وأغلاق كثير من الإديرة ، والحد من سلطة الأكليروس .

وفى ميدان الاصلاحات الكنسية تلقى ليوبولد تعاونا صادقا من سكيبيونى دى ريكى أسقف بستويا وبراتو . وكان فى تسكانيا عرف قاسى يقضى على جميع الفتيات اللاتى لا مهور لهن بالرهبنة ، وأنضم ريكى إلى الدوق الكبير فى رفع السن الدنيا لنذر الرهبنه وتحويل الكثير من الإديرة إلى مدارس للبنات . واتخذت التدابير لنشر التعليم غير الدينى بأحلال المدارس العلمانية محل مدارس اليسوعيين . وكان ريكى يتلو القداس بالأيطاليه ، ويقاوم الخرافات ، الأمر الذى أساء كثيراً إلى جماهير الشعب . فلما شاع أنه ينوى إزالة « حزام العذراء مريم » الشهير فى براتو لأنه زائف ، أحدث الشعب شغبا ونهبوا قصر الأسقف . على أن ريكى دعا رغم ذلك مجمعاً أسقفيا أنعقد فى بستويا عام ١٧٨٦ وأعان مبادىء تذكر بـ « المواد الغالية » الصادرة فى ١٦٨٢ . ومفادها أن السلطة الزمنيه مستقلة عن السلطة الروحية (أى أن الدولة مستقلة عن الكنيسة) ، وأن البابا عرضة لخطأ حتى فى الأمور المتصلة بالعقيدة .

وكان ليوبولد يحيا حياة البساطة ، وأحبه الناس لطباعه الفطرية غير المتكلفة . ولكن حين امتد حكمه وأرهقته خصومة السنين بات ظنونا معتزلا للناس ، واستخدم عدداً غفيرا من الجواسيس ليكونوا له عيوناً على مساعديه

وأعدائه على السواء . وقد أسدى له يوزف النصيحة من فيينا قائلا : « دعهم يغشونك أحيانا ، فهذا خير من أن تعذب نفسك عذابا متصلا لا غناء فيه ».[١٠] فلما غادر ليوبولد فلورنسه ليخلف يوزف امبراطوراً (١٧٩٠) انتصرت قوى الرجعية فى تسكانيا وأدان البابا بيوس السادس ريكى فى ١٧٩٤ وأودعه السجن (١٧٩٩ — ١٨٠٥) حتى سحب هرطقاته . ورد قدوم حكومة نابليون (١٨٠٠) الأحرار إلى سابق سلطانهم .

وهرول جوته إلى روما عبر تسكانيا . استمع إليه وهو يكتب فى أول نوفمبر ١٧٨٦ :

« وأخيراً وصلت إلى عاصمة العالم العظيمة هذه . . وكأنما طرت طيرانا فوق جبال التيرول . إن شوقى لبلوغ روما كان شديدا . . حتى كان التفكير فى التخلف فى أى مكان ضربا من المحال ، وحتى فلورنسا لم أمكث فيها سوى ثلاث ساعات . والآن ، كما أخالنى سأظفر بالهدوء مدى الحياة ، فلنا أن نقول إن حياة جديدة تبدأ حين يرى الإنسان بعينيه كل مالم يسمع أو يقرأ عنه من قبل إلا قليلا . وأنا الآن أرى جميع أحلام شبابى تتحقق أمام عينى » .

وأى خليط يدير الرؤوس كانت روما القرن الثامن عشر وهى تشغى بالشحاذين والنبلاء ، بالكرادلة والخصيان المغنين ، بالأساقفة والبغايا ، بالرهبان والتجار ، باليسوعيين واليهود ، بالفنانين والمجرمين ، بالفتاك والقديسين ، وبالسياح يبحثون عن الآثار نهارا وعن الغوانى ليلا . وهنا ، وعلى إثنى عشر ميلا من أسوار المدينة ، مدرجات وثنية وأقواس نصر ، وقصور ونافورات من عهد النهضة ، وثلاثمائة كنيسة وعشرة آلاف قسيس و ١٧٠,٠٠٠ نسمة . ومن حول الفاتيكان قلعة المسيحية الكاثوليكية ، عاش صنف من الرعاع كانوا أشد ما عرف العالم المسيحى صخباً وتمرداً وعداءاً للأكليروس . وكانت الكراسات البذيئة المهاجمة للكنيسة يطاف بها فى الشوارع ، والمهرجون يقلدون فى سخرية فى الميادين العامة أقدس مراسم القداس . ولعل فنكلمان وهو الرجل الحى الرقيق كان يبالغ قليلا حين قال :

« فى النهار يسود روما هدوء معتدل ، أما فى الليل فإن الشيطان ينطلق من عقاله . ونتيجة للحرية الكبيرة التى تسود هنا ، ولعدم وجود أى نوع من أنواع الشرطة ، يتصل الشجار وضرب النار وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية فى جميع الشوارع الليل كله . . والجماهير عاصية لا تخضع لسلطان ، وقد أعيا الحاكم كثرة النفى والشنق [١١] » .

كانت روما مدينة تتسم بطابع العالمية أكثر حتى من باريس .. يختلط فيها الفنانون والطلاب والشعراء والسياح بالأحبار والأميرات فى الصالونات وقاعات الفن والمسارح .

هنا كان فنكلمان ومنجز يبشران بإحياء الطراز الكلاسيكى ، وهنا كان البابوات المرهقون المحاصرون يكافحون لتهدئة ثائرة الجماهير التى طحنها الفقر بالخبز والبركات الروحية ، ولتعطيل السفراء الذين يلحون فى إلغاء الطائفة اليسوعية والحفاظ على صرح المسيحية المعقد بأسره من الأنهيار تحت وطأة التقدم العلم وهجمات الفلسفة .

ولكن لنمضى قدما مع جيته إلى نابلى . لقد خيل إليه أنه لم يشهد قط مثل هذه الفرحة بالحياة :

« إذا كان فى استطاعة المرء وهو فى روما أن يعكف من فوره على الدراسة ، فليس فى استطاعته هنا أن يفعل شيئا إلا أن يعيش . فأنت تنسى نفسك والعالم ، وأنا عن نفسى أجده شعورا غريبا أن أتنقل مع قوم لا يفكرون إلا فى الاستمتاع بالحياة . . . هنا لا يعرف الناس شيئا بعضهم عن بعض . وقلما يلحظون أن غيرهم يسيرون أيضا فى طريق سيرهم جنبا إلى جنب معهم . وهم يجرون سحابة نهارهم خلفا وأماما فى فردوس دون أن يتلفتوا حولهم ، ولو بدأ فكا الجحيم المجاوران ينفتحان ويثوران ، فإنهم يستنجدون بالقديس يتيواريوس [١٢] » .

وكان الدون كارلوس بعد رحيله عن نابلى قاصدا أسبانيا فى ١٧٥٩

قد أوصى بمملكة نابلى وصقلية إلى ابنه فرديناند الرابع البالغ من العمر ثمانية أعوام ، بوصاية المركيز دى تانوكى وواصل تانوكى حرب الكنيسة التى بدأها على عهد كارلوس . فألغى الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ولم يتردد فى اتباع تعليمات شارل الثالث ملك أسبانيا بطرد اليسوعيين . فما أن انتصف ليل ٣ — ٤ نوفمبر ١٧٦٧ حتى قبض الجند على جميع أعضاء الطائفة فى المملكة ، وقادوهم — وهم لا يحملون من مقتنياتهم سوى الثياب التى عليهم — إلى أقرب ثغر أو نقطة حدود ، ومن هناك رحلوا إلى الولايات البابوية .

ولما بلغ فرديناند الرابع عامه السادس عشر (١٧٦٧) أنهى وصاية تانوكى . وبعد عام تزوج ماريا كارولينا ، الابنة التقية لماريا تريزا . وسرعان ما سيطرت على زوجها وتزعمت حركة رجعية ضد سياسات تانوكى المناهضة لرجال الدين . وكانت اصلاحات المركيز قد قوت ملكية نابوكى ضد نبلاء الاقطاع والكنيسة ، ولكنها لم تحقق شيئا يذكر فى تخفيف الفقر الذى لم يترك للجماهير أملا إلا فى الآخرة .

وانتهجت صقلية نهجا مماثلا . فكان بناء كتدرائية بلرمو (١٧٨٢ — ١٨٠٢) أهم وأخطر فى نظر الشعب من محاولة دومنيكو دى كاراكولى ترويض أمراء الإقطاع الذين سيطروا على البلاد . وكان قد عمل سنوات كثيرة سفيرا لنابلى فى لندن وباريس ، واستمع إلى البروتستنت والفلاسفة . فلما عين واليا على صقلية (١٧٨١) فرض الضرائب الباهظة على كبار ملاك الأراضى ، واختزل حقوقهم الاقطاعية على أقنانهم ، وأنهى ما كان لهم من امتيازات اختيار القضاة المحليين . ولكنه حين تجاسر على حبس أمير يحمى قطاع الطرق ، وأمر بانقاص يومين من العطلات التى تمنح تكريما للقديس روزاليا حامى بارمو ، ثارت عليه جميع الطبقات ، وقفل إلى نابلى مهزوما (١٧٨٥) . [١٣] فالفلاسفة لم يكونوا قد برهنوا بعد على أنهم يفهمون حاجات الإنسان وطبيعته خيرا مما تفهمها الكنيسة .

٢ – البابوات والملوك واليسوعيون

استندت قوة الكنيسة الكاثوليكية على إيمان بالخوارق ركب فى فطرة البشر ، والتسليم بالدوافع الحسية والمخلفات الوثنية والتسامى بها ، وتشجيع الخصوبة الكاثوليكية ، وغرس لاهوت غنى بالشعر والأمل ، نافع للتهذيب الخلقى والنظام الاجتماعى . كذلك كانت الكنيسة فى إيطاليا المصدر الرئيسى للدخل القومى ، ورادعا معترفا بقيمته لشعب يؤمن إيمانا شديدا بالخرافات ، وثنى النزعة مشبوب العاطفة . وقد كثرت الخرافات بين الايطاليين ، فحتى (١٧٨٧) أحرقت الساحرات فى بلرمو – وقدمت المرطبات للنبيلات العصريات اللاتى حضرن هـذا المشهد . [١٤] وعاشت المعتقدات والعادات والمراسم الوثنية فى ظل موافقة الكنيسة عليها عن طيب خاطر . كتب جوته يقول « لقد انتهيت إلى الاعتقاد القاطع بأن كل آثار المسيحية الأصلية قد انقرضت هنا فى روما [١٥] » . على أنه بقى فى العالم المسيحى الكثير من المسيحيين الحقيقيين ، حتى فى إيطاليا . ومن هؤلاء الكونت كايسوتى دى كيوزانو ، أسقف أستى ، الذى نزل عن ميراثه الكبير ، وعاش فى فقر اختيارى ، وكان لا يسافر إلا راجلا . كذلك كان تستا أسقف مونريالى ينام على القش ، ولا يأكل إلا ما يمسك رمقه ولا يحتفظ من دخله إلا بثلاثة آلاف ليرة لحاجاته الشخصية ، ويخصص ما بقى منه للاشـغال العامة وللفقراء [١٦] .

وإستجابت الكنيسة لحركة التنوير إلى حد ما . وبالطبع أدرجت أعمال فولتير وروسو وديدرو وهلفتيوس ود ولباخ ولا متري وغيرهم من أحرار الفكر فى قائمة الكتب المحرمة ، ولكن أبيح الحصول على إذن بقراءتها من البابا . وكان المونسنيور فنتمليو أسقف قطنيا (١٧٥٧ – ٧٣) يقتنى فى مكتبته طبعات كاملة من فولتير وهلفتيوس وروسو [١٧] . وألغيت محكمة التفتيش فى تسكانيا وبارما عام ١٧٦٩ ، وفى صقليه عام ١٧٨٢ ، وفى روما عام ١٨٠٩ . وفى ١٧٨٣ نشر قسيس كاثوليكى يدعى تابعورنى ، تحت اسم صديقه تراوتما نسدورف ، مقالا « فى التسامح الكنسى والمدنى »

أدان فيه محكمة التفتيش وحكم على كل ضروب الأكراه للضمير بأنها منافيه للمسيحية ، ودافع عن جميع أنواع اللاهوت إلا الإلحاد[١٨] .

وكان من سوء طالع البابوات فى نصف القرن الثامن عشر هذا أن يضطروا إلى مواجهة مطالبة الملوك الكاثوليك بحل جمعية اليسوعيين كلية . وكانت الحركة المناهضة لليسوعيين جزءا من صراع على القوة بين قومية الدولة الحديثة الظافرة ، ودولية بابوية أضعفتها حركة الأصلاح البروتستنتى وحركة التنوير وصعود طبقة رجال الأعمال . ولم يلح أعداء الجمعية الكاثوليك الحاحا سافرا بأعتراضهم الرئيسى عليها ، وهو أنها دأبت على تأييد سلطة البابوات بأعتبارها فوق سلطة الملوك ، ولكنهم كرهوا أشد الكره أن يشكل قيام منظمة لا تعترف برئيس غير رئيسها ، والبابا فى الواقع داخل كل دولة عميلا لسلطة أجنبية . وقد سلموا بغزارة علم اليسوعيين وتقواهم ، وبإسهاماتهم فى العلوم والأدب والفلسفة والفن ، وبتربيتهم المثابرة الفعالة للشباب الكاثوليكى ؛ وببطولتهم فى البعثات الأجنبية وباستعادتهم كثيرا من الأرض التى فقدتها الكاثوليكية وأستولت عليها البروتستنتية . ولكن التهمة التى وجهوها إلى الجمعية هى أنها كانت تتدخل المرة بعد المرة فى الشئون العلمانية ؛ وأنها أشتغلت بالتجارة طمعا فى الربح المادى ؛ وأنها غرست مبادىء الفتاوى التى تغتفر الفساد الخلقى والجريمة ، وأغضت حتى عن قتل الملوك ، وأنها سمحت للعادات والمعتقدات الوثنية بأن تعيش بين أتباعها المزعومين فى آسيا ؛ وأنها أساءت إلى الطوائف الدينية الأخرى وإلى كثير من الكهنة غير الرهبان ، بحدتها فى الجدل ونغمتها المشربة بالاحتقار . وأصر سفراء ملوك البرتغال وأسبانيا ونابلى وفرنسا على إلغاء الترخيص البابوى الخاص بالجمعية وعلى حل المنظمة رسميا وفى كل مكان .

على أن طرد اليسوعيين من البرتغال فى ١٧٥٩ ومن فرنسا فى ١٧٦٤ — ٦٧ ، ومن أسبانيا ونابلى فى ١٧٦٧ ، ترك الجمعية تواصل نشاطها فى وسط وشمالى إيطاليا ، وفى سيليزيا وبولنده . وفى ٧ فبراير ١٧٦٨ طردوا من دوقية بارما البوربونية ، وأضيفوا إلى حشد اللاجئين اليسوعيين فى ولايات

الكنيسة . واحتج البابا كلمنت الثالث عشر بأن بارما إقطاعة بابوية ، وهدد الدوق فرد يناند السادس ووزراءه بالحرم إذا نفذ مرسوم الطرد . فلما أصروا أصدر مرسوما أعلن فيه مصادرة رتبة الدوق ولقبه والغاءهما . وبدأت الحكومات الكاثوليكية فى أسبانيا ونابلى وفرنسا حربا على البابوية . واستولى تانوتشى على مدينتى بنيفنتو وبونتيكورفو البابويتين واحتلت فرنسا أفنيون . وفى ١٠ ديسمبر ١٧٦٨ قدم السفير الفرنسى فى روما باسم فرنسا ونابلى وأسبانيا إلى البابا مطلبا بسحب المرسوم الموجه ضد بارما وبإلغاء جمعية اليسوعيين . وانهار الحبر الأعظم تحت وطأة هذا الانذار النهائى . وكان يبلغ من العمر آنذاك ستة وسبعين عاما ، فدعا لعقد مجمع من المطارنة والمبعوثين فى ٣ فبراير ١٧٦٩ لدراسة الأمر . وفى ٢ فبراير خر صريعا بانفجار عرق فى دماغه .

وانقسم الكرادلة الذين دعوا لاختيار خلف له فريقين : الغيورين الذين اقترحوا تحدى الملوك ، والمهدئين الذين آثروا التسويات الهادئة . ولما كانت الكثرة العظمى من الكرادلة الإيطاليين من فريق الغيورين الذين اجتمعوا سريعاً فى روما ، فقد حاولوا افتتاح المجمع قبل أن يصل فريق الكرادلة المهدئين من فرنسا وأسبانيا والبرتغال. واحتج السفير الفرنسى ، فأجل المجمع . وفى غضون هذا عرض لورنتسو ريكى قائد اليسوعيين قضيتهم للخطر إذ أصدر كراسة اعترضت على سلطة أى بابا فى إلغاء الجمعية [١٩] . وفى مارس وصل الكردنيال دبيرنى من فرنسا وبدأ طوافه على الكرادلة بهدف ضمان انتخاب بابا راغب فى ارضاء أصحاب الجلالة الكاثوليك . وقد رفض المؤرخون ، سواء منهم الكاثوليك [٢١] . وخصوم الكاثوليك [٢٢] ، الشائعات التى زعمت بعد ذلك [٢٠] أنه هو أو غيره رشوا أو أغرو بوسيلة ما الكردينال جوفانى جانجانللى بأن يعد بهذا إذا اختير لكرسى البابوية . وكان جانجانللى باجماع الكل رجلا عظيم الثقافة والتقوى والنزاهة ، بيد أنه كان ينتمى إلى طائفة الفرنسسكان التى طالما خاصمت اليسوعيين سواء فى ميدان البعثات التبشيرية أو اللاهوت [٢٣] .

وفى ١٩ مايو ١٧٦٩ انتخب باجماع أراء الكرادلة الأربعين ، واتخذ اسم كلمنت الرابع عشر ، وكان يومها فى الثالثة والستين .

ثم ألفى نفسه واقفاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية . ففرنسا ونابلى تتشبثان بالأقاليم البابوية التى استولتا عليها ، وأسبانيا وبارما تتخذان موقف التحدى ، وهددت البرتغال باقامة بطريركية مستقلة عن روما ، بل أن ماريا تريزا التى كانت حتى ذلك الحين حارة الولاء للبابوية واليسوعيين ولكنها الآن فقدت سلطانها الذى انتزعه منها ابنها حر التفكير جوزف الثانى ، ردت على نداء البابا بطلب معونتها بأنها لاتستطيع مقاومة الإرادة الموحدة لمثل هذا للعدد الكبير من الملوك والحكام . وأصدر شوازيل الذى كان مسيطرا على حكومة فرنسا آنذاك تعلياته لبيرنى بأن يخبر البابا أنه « إذا لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ففى استطاعته أن يعتبر كل علاقاته بها منتهية[٢٤] » .

وكان شارل الثالث ملك أسبانيا قد أرسل مثل هذا الانذار النهائى فى ٢٢ ابريل . أما كلمنت ، الذى حاول كسب الوقت ، فقد وعد شارل بأنه عن قريب « سأرفع إلى حكمة جلالتكم وذكائكم خطة للقضاء المبرم على الجمعية[٢٥] » . وأمر مساعديه بالرجوع إلى السجلات وتلخيص تاريخ جمعية اليسوعيين وانجازاتها وجرائمها المزعومة . ورفض التسليم بما طالب به شوازيل من الفصل فى النزاع خلال شهرين . وقد اقتضاه الفصل ثلاث سنين ، ولكنه أذعن فى النهاية .

ففى ٢١ يوليو ١٧٧٣ وقع الرسالة البابوية التاريخية ، وقد بدأت بقائمة طويلة من الجماعات الدينية التى حظرها الكرسى البابوى المقدس على مدى الأيام ، وذكرت الشكاوى الكثيرة التى رفعت ضد اليسوعيين ، والجهود الكثيرة التى بذلها مختلف البابوات لعلاج المساوىء المزعومة . « وقد لاحظنا ببالغ الحزن أن هـــذه العلاجات وغيرها مما استعمل بعد ذلك لم يكن لها من الفاعلية أو القوة ما يضع حداً لهذه المتاعب والتهم

والشكاوى [٢٦] » . واختتمت الرسالة بهذه العبارات « وإذ تبين لنـا أن جمعية اليسوعيين لم تعد قادرة على أن تؤتى الثمرات الوفيرة والخير العظيم اللذين من أجلهما أسست ووافق عليها العدد الكبير من البابوات أسلافنا الذين شرفوها بالكثير من المزايا الجديرة بالإعجاب ، وإذ رأينا أنه من المستحيل تقريباً — بل أنه مستحيل إطلاقاً — على الكنيسة أن تتمتع بسلام صادق متين ما بقيت هذه الطائفة . . . فاننا بعد الفحص المتأنى ، ونتيجة لمعرفتنا الخاصة وبحكم كمال سلطتنا الرسولية ، نحل ونلغى بمقتضى هذه الرسالة البابوية جمعية اليسوعيين . ونبطل ونلغى كل مناصبها ووظائفها وإداراتها ، ودورها ، ومدارسها ، وكلياتها وخلواتها ، وملاجئها وسائر المؤسسات التى تخصها على أى وجه كائنا ما كان وفى أى إقليم أو مملكة أو دولة لها وجود فيها [٢٧] » .

ثم وعدت الرسالة البابوية بصرف معاشات لليسوعيين الذين لم يرسموا بعد ويريدون العودة لحياة العلمانيين ، وأذن للكهنة اليسوعيين بالانضمام إلى الأكليروس غير الرهبان أو بأى طائفة دينيه يوافق عليها الكرسى البابوى . وسمح لليسوعيين المقبولين فى الرهبنه والذين نذروا أنفسهم نذرا نهائيا مطلقا بأن يبقوا فى بيوتهم السابقة شريطة أن يلبسوا رداء الكهنة غـير الرهبان ويخضعوا لسلطة الأسقف المحلى .

وفى معظم الحالات ، وبأستثناء بعض المبعوثين فى الصين ، تقبل اليسوعيون حكم الإعدام هذا الذى أصدره البابا على جمعيتهم بامتثال ونظام ظاهرين .. بيد أن كراسات غفل من اسم المؤلف طبعت ووزعت دفاعا عن قضيتهم ، وقبض على ريتشى وعدد من معاونيه بتهم لم تثبت عليهم قط بأنهم يتراسلون مع خصوم المرسوم . ومات ريتشى فى السجن فى ٢٤ نوفمبر ١٧٧٥ بالغا الثمانية والسبعين .

ولم يعش كلمنت الرابع عشر إلا عاما واحدا أو يزيد بعد المرسوم . وكثرت الشائعات بأن عقله اختل فى شهوره الأخيرة . وقد اجتمعت عليه

الأسقام ، ومنها الأسكربوط والبواسير ، لتجعل كل نهار وليل فى حياته شقاء تعاسة له . وأصابته فى إبريل ١٧٧٤ نزلة برد لم تبرحه قط ، ولم تحل نهاية أغسطس حتى كان الكرادلة يناقشون مسألة خلافته ، وفى ٢٢ سبتمبر قضى كلمنت نحبه .

وبعد الكثير من التأجيلات والدسائس أجلس مجمع الكرادلة على كرسى البابوية (١٥ فبراير ١٧٧٥) جوفانى براسكى الذى إتخذ اسم بيوس السادس . وكان رجلا مثقفاً أكثر منه سياسياً ، يجمع التحف الفنية ، ويسحر الجميع برقته ، وقد حسن إدارة الكوريا (الإدارة البابوية) وأستصلح بعض المستنقعات البونتيه . ورتب حلا وسطا موقتا مسالما لليسوعيين مع فردريك الأكبر . وفى ١٧٩٣ أنضم للحلف المعادى لفرنسا الثائرة . وفى ١٧٩٦ غزا نابليون الولايات البابوية ، وفى ١٧٩٨ دخل الجيش الفرنسى روما ، وأعلنها جمهورية ، وطالب البابا بالتخلى عن كل سلطاته الزمنية . ولكنه أبى ، فأعتقل ، وظل فى أماكن وحالات مختلفة من السجن حتى وفاته (٢٩ أغسطس ١٧٩٩) . أما خليفته بيوس السابع فقد جعل رد جمعية اليسوعيين إلى سابق عهدها (١٨١٤) جزءا من أنتصار التحالف على نابليون .

٣ — القانون وبيكاريا

ظلت أخلاق إيطاليا وسلوكها مزيجاً من العنف والتراخى ، من الثأر والحب . كتب موتسارت من بولونيا عام ١٧٧٠ ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره « إن إيطاليا بلد ناعس »[٢٨] ، ولم يكن قد تعلم فلسفة القيلولة . أما أبوه فكان رأيه فى ١٧٧٥ أن « الإيطاليين أوغاد فى كل أنحاء العالم»[٢٩].

وقد علق موتسارت وجوته كلاهما على الجريمة الإيطالية . كتب موتسارت يقول إن فى نابلى « زعيما للشحاذين يتقاضى من الملك خمساً وعشرين دوقاتيه كل شهر مقابل تهدئتهم لا أكثر»[٣٠]. وكتب جوته يقول « إن أكثر ما يلفت نظر الغريب هو كثرة الاغتيالات . واليوم كان الضحية فناناً ممتازا هو

شفندمان . . وقد طعنه القاتل الذى اشتبك معه عشرين طعنة ، فلما أقبل الحارس طعن الوغد نفسه . وليس هذا مايجرى به العرف هنا عموماً ، فالقاتل عادة يقصد أقرب كنيسة ، فمتى بلغها أصبح فى مأمن تام »[٣١]. وكانت كل كنيسة تعطى المجرم الأمان فى حرمها — أى الحصانة من الإعتقال مابقى تحت سقفها .

وحاول القانون كبح الجريمة بتشديد العقوبة أكثر مما حاولها بكفاية الشرطة . فقد نصت قوانين بندكت الرابع عشر الرحيم على عقوبات التجديف بالجلد ، فإذا تكررت الجريمة ثلاث مرات كان عقابها التشغيل خمس سنوات فى سفن الأسرى والعبيد . وكان السطو على دير للراهبات ليلا جناية كبرى ، إما مغازلة امرأة شريفة أو معانقتها علانية فعقابه التشغيل المؤبد على هذه السفن . وكان تشويه السمعة الخلقية ، حتى إذا لم يحتو غير الصدق يعاقب بالإعدام ومصادره الممتلكات .(ومع ذلك لم يقلل هذا من المقطوعات الهجائية) . ومثل هذه العقوبة فرضت على حمل الطبنجات المخبأة . على أن الجناة كانوا فى كثير من المناطق يتفادون هذه الأوامر بالفرار إلى دولة مجاورة أو بفضل رحمة القاضى ، أو الاحتماء بالكنيسة . ولكن العقوبات كانت تنفذ بصرامة فى حالات عديدة . من ذلك أن رجلا شنق لإدعائه أنه كاهن ، وآخر لسرقته ثوباً كهنوتيا باعه بفرنك وربع ، وثالث ضرب عنقه لكتابته خطابا اتهم البابا كلمنت الحادى عشر بعلاقة غرامية مع ماريا كلمنتينا سوبيسكا[٣٢]. وإلى تاريخ متأخر (١٧٦٢) كان السجناء تحطم أجسادهم على دولاب التعذيب ، عظمة بعد عظمة ، أو يسحلون على الأرض فى ذيل حصان مهموز . على أن من واجبنا أن نضيف جانباً أكثر إشراقاً على الصورة ، هو أن بعض الجمعيات الخيرات كانت تجمع المال لدفع غرامات السجناء وتحريرهم . وغدا إصلاح القانون ، سواء من حيث الإجرات أو من حيث العقوبات ، جزءاً طبيعياً من الروح الرحيمة التى أنجبها أبوان — حركة تنوير إنسانية ، وأخلاقيات مسيحية تحررت من لاهوت قاس .

ومن مفاخر إيطاليا أن يصدر أقوى نداء يدعو لإصلاح القانون فى هذا

القرن عن شريف ميلانى . وقد كان هذا الشريف — تشزاوى بونيزانا ، مركيز بكاريا ، نتاج اليسوعيين والفلاسفة الفرنسيين . ومع أنه وهب من الثراء مايسمح له بحياة التبطل فإنه كرس نفسه بغيرة لا تفتر لحياة التأليف الفلسفى والإصلاح العملى . وقد أمسك عن مهاجمة دين الشعب ؛ ولكنه تصدى رأساً للظروف الفعلية للجريمة والعقاب . وقد صدمه أن يرى قذارة السجون الميلانية التى كانت مرتعاً للأمراض، وأن يسمع من السجناء كيف ولم اعتادوا الإجرام وكيف حوكموا على جرائمهم . وأفزعه أن يكتشف مخالفات صارخة فى الإجراءات القضائية ، وألواناً من التعذيب الوحشى للمشبوهين والشهود ، وضروبا من التعسف فى الأحكام سواء بالتشديد أو التخفيف ، وألواناً من القسوة الضارية فى العقاب . وحوالى ١٧٦١ انضم إلى بييتر وفيرى فى جمعية سمياها « البونيات » (قبضات الأيدى) — نذرت نفسها للعمل والفكر معاً . وفى ١٧٦٤ بدءا بمجلة « المقهى» محاكاةلمجلة أديسون « سيكتيتر» . وفى ذلك العام نشر بيكاريا بحثه التاريخى « بحث فى الجرائم والعقوبات » .

وفى مستهل كتابه أعلن فى تواضع أنه يتأثر بخطى « روح القوانين » الذى ألفه « الرئيس الخالد » لبرلمان بوردو ، فالقوانين يجب أن ترسى على العقل . ورائدها الأساسى ليس الانتقام من الجريمة بل حفظ النظام الاجتماعى ، وينبغى أن تستهدف دائماً « أوفر سعادة موزعة على أكبر عدد[٣٣] » . هنا قبل بنتام بخمسة عشر عاما ، نجد المبدأ الشهير لأخلاقيات مذهب المنفعة . واعترف بكاريا بصراحته المعهودة بتأثره بهلفتيوس ، الذى أورد هذه الصيغة ذاتها فى كتابة « فى الروح» (١٧٥٨) . (وكان قد صدر فى سلسلة فرانسس هتشسن « أفكار فى الجمال والفضيلة » (١٧٢٥). وقال بكاريا أن توسيع التعليم وتعميقة أملا فى الحد من الجرائم أصوب لمصلحة المجتمع من الالتجاء إلى عقوبات قد تحول شخصا أجرم عرضا من مخالطته المجرمين إلى مجرم عريق . فالواجب أن يكون لكل متهم الحق فى محاكمة عادلة وعلنية أمام قضاة أكفاء يتعهدون بالحياد والنزاهة . ويجب أن تقفو المحاكمة الإتهام سريعاً ؛ وأن يكون العقاب متناسباً مع

الضرر الواقع على المجتمع لامع نية الفاعل . فضراوة العقوبة تولد ضراوة الخلق ، حتى فى الجمهور غير المجرم . أما التعذيب فيجب عدم الإلتجاء إليه اطلاقاً ، فالمذنب الذى تعود على الألم قد يحتمله فى تجلد وتفترض براءته ، فى حين قد يكره الألم بريئاً مرهف الأعصاب على الإعتراف بأى شىء فيحكم بأنه مذنب . ويجب ألا يسمح بعد بحماية الكنيسة للمجرمين ، ويجب إلغاء عقوبة الإعدام .

وطبع الكتيب ست طبعات فى ثمانية عشر شهراً ، وترجم إلى اثنتين وعشرين لغة أوربية . وأشاد بكاريا بالترجمة الفرنسية التى قام بها مورلليه وقال أنها أفضل من الأصل . وقد شارك فولتير بمقدمة غفل من الاسم لتلك الترجمة ، وأقر المرة بعد المرة بأثر بكاريا فى جمهوره لإصلاح القانون . وبادرت معظم الدويلات الإيطالية إلى اصلاح قوانين عقوباتها . ولم يحل عام ١٧٨٩ حتى كانت أوربا كلها تقريباً قد ألغت التعذيب . وتأثرت كاترين ببكاريا كما تأثرت بفولتير فى الغاء التعذيب فى أملاكها . أما فردريك الأكبر فكان قد أنهاه فعلا فى روسيا (١٧٤٠) إلا فى حالات الخيانة .

وفى ١٧٦٨ عين بكاريا فى كرسى للقانون والاقتصاد أنشىء خصيصاً له فى كلية البالاتين بميلان . وفى ١٧٩٠ عين فى لجنة لإصلاح القضاء فى لمباردیا . وقد سبقت محاضراته عدة أفكار أساسية لآدم سمث ومالتاس فى تقسيم العمل والعلاقة بين العمال ورأس المال ، وبين السكان وكمية الطعام . وفيه بعثت «انسانية» النهضة الأوربية من جديد فى صورة التنوير فى ايطاليا .

٤ — مغامرات

١ — كاليوسترو

ولد جوزيبى بلسامو لصاحب متجر ببلرمو فى ١٧٤٣ . ونضج مبكرا وسرعان ما أصبح لصاً بارعاً . وفى الثالثة عشرة قيد تلميذا فى دير

البنفراتيللى . وعين هناك مساعدا لصيدلى الدير ، فتعلم من قواريره ومحابيره وكتبه من الكيمياء والخيمياء ما يكفى لاعداد نفسه لاحتراف الشعوذة الطبية . . . ولما كلف بأن يقرأ حياة القديسين على الرهبان وهم يتناولون طعامهم ، استبدل بأسماء القديسين أسماء أشهر مومسات بلرمو. وجلد عقاباً له ، فهرب من الدير وانضم إلى عالم المجرمين السفلى ، ودرس فن الأكل دون بذل العرق . واشتغل قواداً ومزوراً ومزيفاً للنقود ، وقارئاً للبخت ، وساحراً ، ولصا ، وأفلح عادة فى إخفاء آثاره بمهارة عجزت معها الشرطة عن إدانته إلا بالوقاحة .

فنما رأى نفسه مشبوها على نحو يضايقه ، أنتقل إلى مسينا ، وعبر إلى ريدجو كالأبريا ، وجرب الفرص التى تتيحها نابلى وروما . وتكسب فترة بادخال لمسات على نسخ الصور وبيعها على أنها من صنعه . ثم تزوج لورنتسا فيلكيانى ، وأثرى ببيع جسدها . وأنتحل اسم المركيز دى بللجرينى ، وأخذ نبيلته المكسبة إلى البندقية ومرسليا وباريس ولندن . ثم دبر أن تمسك زوجته بين ذراعى كويكرى ثرى ، وعاشا على المال الذى ابتزاه نتيجة للخطة شهورا . ثم غير أسمه إلى الكونت دى كاليوسترو ، وتنكر بشوارب ولبس حلة كولونيل بروسى ،وسمى زوجته من جديد بالكونتيسه سيرافينا . ثم عاد إلى بلرمو ، وقبض عليه بتهمة التزوير ، ولكن أفرج عنه تحت الحاح منذر بالشر من أصحابه الذين روعوا القضاء .

وإذ بليت مفاتن سيرافينا لكثرة تداولها . فقد أخذ يطبق ما تعلم من كيمياء فجهز وباع العقاقير التى ضمن إزالتها التجاعيد وتأجيجها لنار العشق . ولما عاد إلى إنجلتره أتهم بسرقة قلادة من الماس وقضى فترة فى السجن ثم انضم إلى جماعة الماسون وانتقل إلى باريس ، وادعى أنه الرئيس الأكبر للماسون المصريين . وأكد لعشرات السذج أنه عثر على الأسرار القديمة لاعادة الشباب ، الذى يمكن تحقيقة بعلاج يمتد أربعين يوما تستعمل فيه المسهلات والمعرقات وغذاء من الجذور ، والحجامة ، والتيوصوفية(٣٤). وكان كلما أفتضح أمره فى مدينة مضى إلى غيرها ؛ واتصل بأسرها الفنية

بفضل طريقة المصافحة وخاتمه الماسونيين . وفى سانت بطرسبرج أشتغل طبيبا ، وعالج الفقراء مجانا ؛ وأستقبله بوتمكين ، ولكن طبيب كاترين الكبرى ، وكان اسكتلنديا حاذقا ، حلل بعض أكاسير هذا الطبيب ووجدها فارغة لاقيمة لها . فسمح لكاليوسترو بيوم وأحد يحمل فيه بضاعته ويرحل . وفى وارسو أفتضح أمره ثانية على يد طبيب آخر فى كتيب سماه « نزع القناع عن كاليوسترو » (١٧٨٠) ، ولكن قبل أن يدركه كان قد إنطلق إلى فيينا وفرانكفورت وستراسبورج . وهناك سحر الكردينال الأمير لوى — رينيه — إدوارد روهان ، الذى وضع فى قصره تمثالا نصفيا لزعيم الماسون الأكبر كتب عليه « كاليوسترو المقدس » وأتى به الكردينال إلى باريس ، وتورط النصاب الكبير على غير قصد منه فى قصة القلادة الماسية. فلما أنكشفت هذه الخدعة زج بكاليوسترو فى الباستيل ؛ ولكن سرعان ما أفرج عنه لبراءته . ولكنه أمر بمغادرة فرنسا (١٧٨٦) . فوجد زبائن جددا فى لندن . وزار جوته أثناء ذلك أم كاليوسترو فى صقلية وأكد لها أن ولدها الذائع الصيت قد أطلق سراحه وأنه فى مأمن[٣٥] (*) .

وفى لندن حيث تكاثر المتشككون فى أمره انتقل الكونت والكونتيسة إلى بازل وتورين وزوفبريتو وترنت ، يشتبه فيهما فى كل بلد ثم يطردان . وتوسلت إليه سيرافينا ان يأخذها إلى روما لتصلى عند قبر أمها ، فوافق الكونت . وفى روما حاولا أن يقيما محفلا لماسونيته المصرية ، فقبضت عليهما محكمة التفتيش (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩) ، واعترفا بأنهما دجالان نصابان ؛ فحكم على كاليوسترو بالسجن مدى الحياة ، وأنهى أيامه فى قلعة سان ليو قرب بيزارو فى ١٧٩٥ وقد بلغ الثانية والخمسين . وهكذا كان هو أيضا جزءاً من صورة القرن المستنير .

٢ — كازانوفا

أضاف جوفانى يا كوبو كازانوفا لقب « دى سينجالت » الفخم لاسمه

(*) أنهى جوته بحياة كاليوسترو وجعلها موضوعا لتمثيلية متوسطة الجودة سماها « زعيم الماسون الأكبر » .

بتفنيط عشوائى للأبجدية ، باعتبار هذا اللقب تشريفا يفيد فى أبهر الراهبات وتحدى حكومات أوربا . ولد لممثل وممثلة فى البندقية عام ١٧٢٥ ، وظهرت عليه منذ طفولته امارات النشاط الذهنى . تتلمذ لاحتراف القانون ، وزعم أنه نال الدكتوراه فى جامعة بادوا وهو فى السادسة عشرة . وعلينا فى كل خطوة من « مذكراته » الشائقة أن نكون على حذر من شطط خياله ، ولكنه يقص قصته بصراحة يدين بها نفسه إدانة تحملنا على تصديقه حتى ونحن نعلم أنه يكذب .

وبينما كان فى بادوا حقق أول غزواته — وهى بتينا ، « فتاة جلوة فى الثالثة عشرة » وأخت لمعلمه الكاهن الطيب جوتسى . فلما مرضت بالجدرى عنى بها كازانوفا وأصيب بالمرض . ويزعم فى روايته أن أعمال الرحمة التى كان يقوم بها كانت تعدل غزواته الغرامية . وحين ذهب فى شيخوخته إلى بادو لآخر مرة ، « الفيتها عجوزا ، مريضة ، فقيرة ، وقد ماتت بين ذراعى » . [٣٧] وكل عشيقاته تقريبا يصورهن مغرمات به إلى النهاية .

على أنه عانى من فقر مذل رغم درجته القانونية . مات أبوه ، وكانت أمه تمثل فى مدن بعضها وصل فى بعده حتى سانت بطرسبورج ، وتنساه عادة . وكسب بعض المال من عزف الكمان فى الحانات والشوارع . ولكنه وهب القوة كما وهب الوسامة والشجاعة . فلما أصيب السناتور البندقى زوان براجادينو (١٧٤٦) بالنقطة وهو يهبط السلم ، احتمله ياكوبو بين ذراعيه وأنقذه من سقطة فجائية . وبعدها بسط عليه السناتور حمايته فى مآزق كثيرة وزوده بالمال لزيارة فرنسا وألمانيا والنمسا . وفى ليون انضم إلى الماسون الأحرار ، وفى باريس « أصبحت رفيقا ، ثم رئيسا للطائفة » . (ونحن نلحظ فى شىء من الدهشة قوله « فى زمنى لم يكن فى فرنسا من يعرف كيف يبالغ فى الأسعار ») [٣٨] .

وفى ١٧٥٣ عاد إلى البندقية ، وسرعان ما لفت نظر الحكومة باحترافة حكمة السحر والتنجيم . وبعد عام أبلغ محقق رسمى مجلس الشيوخ عنه فقال :

لقد أفلح فى التسلل إلى قلب الشريف زوان براجادينو . . . . وابتز ماله ابتزازا باهظا . . . . . وقد أخبرنى بنديتو بزانو أن كازانوفا بسبيله إلى أن يصبح فيلسوفا قبلانيا وأنه يحاول التكسب بالحجج الزائفة يموه بها فى مهارة على عقول ضحاياه . . . . . وقد أمكنه . . . . . اقناع براجادينو بأن فى استطاعته استحضار ملاك النور لينفعه .[٣٩]

ويضيف التقرير أن كازانوفا قد بعث إلى أصحابه بكتابات تشى بحقيقته مفكرا ملحدا . ويقول كازانوفا « لقد وقر فى نفسى سيدة تدعى مدام ممو أننى أعلم ولدها مبادىء الإلحاد[٤٠] » .

« أن التهم التى وجهت إلى تتعلق بالكرسى (البابوى) المقدس ، والكرسى المقدس وحش ضار من الخطر أن تمسه . وكانت هناك ظروف معينة . . . جعلت من الصعب عليهم حبسى فى السجون الكنسية التابعة لمحكمة التفتيش ، ولهذا السبب تقرر فى النهاية أن تناط محكمة تفتيش الدولة « بمحاكمتى[٤١] » .

ونصحه براجادينو بالرحيل عن البندقية ، ولكن كازانوفا أبى . وفى الغداة قبض عليه ، وصودرت أوراقه ، وحبس دون محاكمة فى البيومبى « ألواح الرصاص » وهو اسم أطلق على سجن الدولة البندقى نسبة إلى ألواح الرصاص المسقوف بها .

« حين جن الليل استحال على أن أغمض عينى لأسباب ثلاثة : أولها الفيران ، وثانيها الطنين الرهيب الذى تحدثه ساعة كتدرائية القديس مرقس التى كانت تدق وكأنها فى حجرتى ، وثالثها ألوف البراغيث التى أغارت على بدنى تعضنى وتلدغنى وتسمم دمى بحيث أصابتنى انقباضات عنيفة بلغت حد التشنجات »[٤٢] .

وحكم عليه بالسجن خمس سنين ، ولكنه هرب بعد أن ظل رهين محبسه خمسة عشر شهرا (١٧٥٧) بفضل سلسلة معقدة من الحيـــل

والمخاطرات والأهوال أصبحت روايته لها جزءا من « عدة نصبه » فى كثير من الأقطار .

فلما عاد ثانية إلى باريس اشتبك فى مبارزة مع فتى يدعى الكونت نيكولا دلانور دوقرن وأصابه بجرح ، ثم شفاه بمرهم « سحرى » ، وكسب صداقته . فقدمه إلى عمة له غنيه تسمى مدام دورفيه ، كانت شديدة الإيمان بقوى السحر ، مؤملة أن تستعين بها على تغيير جنسها . واستغل كازانوفا سذاجتها ، ووجد فيها وسيلة خفية للاثراء .

« إنى لا أستطيع وقد شخت الآن أن أرجع ببصرى إلى هذا الفصل من حياتى دون أن أحمر خجلا» [٤٣] . وهذا اتصل على مدى فصول كثيرة أخرى من كتابه . وأضاف إلى دخله بالغش فى لعب الورق ، وتنظيم يانصيب للحكومة الفرنسية ، وبالحصول على قرض لفرنسا من الأقاليم المتحدة . وفى الرحلة من باريس إلى بروكسل « قرأت كتاب هلفتيوس « فى الروح » طول الطريق » . [٤٤] (وسيقدم للمحافظين مثالا مقنعا من إنسان حر التفكير انقلب رجلا فاسقا وان كانت المرحلة التالية هى العكس فى أغلب الظن) . وكان فى كل محطة يلتقط خليلة ، وفى كثير من المحطات يجد خليلة سابقة ، وبين الحين والحين يقع مصادفة على ذرية له لم يقصد انجابها .

وزار روسو فى مونمورنسى ، وفولتير فى فرنيه (١٧٦٠) وقد سبق أن استمتعنا بشطر من ذلك الحديث الخاص بينهما . وإذا جاز لنا أن أن نصدق كازانوفا ، فانه اغتنم الفرصة ليوبخ فولتير على فضحه سخافات الميثولوجيا الشعبية :

كازانوفا : هبك نجحت فى القضاء على الخرافة ، فماذا تحل محلها ؟

فولتير . يعجبنى هذا ! حين أخلص البشرية من وحش ضار يفترسها ، أتسألنى ماذا أحل محله ؟

كازانوفا : ان الخرافة لا تفترس البشرية ، بل انهـا على العكس ضرورية لوجودها .

فولتـير : ضرورية لوجودها ! ذلك تجديف مخيف . انى أحب البشر ، وأود أن أراهم أحرارا سعداء مثلى . والخرافة والحرية لا يمكن أن يسيرا يدا بيد . أتظن أن العبودية تؤدى إلى السعادة ؟

كازانوفا : ان ما تريده إذن هو سيادة الشعب ؟

فولتـير : معاذ الله ! يجب أن يكون للجماهير ملك يحكمها .

كازانوفا : فى هذه الحالة تكون الخرافة ضرورية ، لأن الشعب لن يعطى رجلا هو مجرد إنسان حق حكمه . . .

فولتـير : أريد ملكا يحكم شعبا حرا ، ويلتزم قبله بشروط متبادله تمنع أى ميل من جانبه للاستبداد .

كازانوفا : يقول أديسون أن هذا الملك . . . يستحيل وجوده . وأنا متفق مع هوبز . فعلى المرء أن يختار من الشرين أقلهما ضررا . والأمة التى تحررت من الخرافة هى أمة من الفلاسفة ، والفلاسفة لا يعرفون كيف يطيعون . . وما من سعادة ترجى لشعب لا يسحق ويذل ويظل مصفدا بالقيود .

فولتـير : هذا شنيع ! وأنت فرد فى الشعب ! . . .

كازانوفا : ان العاطفة المسيطرة عليك هى حبك للبشرية . . وهذا الحب يعميك . أحب البشرية ، ولكنى أحبها كما هى . فالبشرية ليست قابلة للمزايا التى تود أن تغدقها عليها ، فهذه المزايا لن تزيدها إلا تعاسة وانحرافا . . . . .

فولتـير : يؤسفنى أن يكون لك هـذا الرأى السيء فى اخوانك فى الإنسانية (٤٥) .

وكان كازانوفا يشق طريقه أينما ذهب إلى بيت من البيوت الارستقراطية ،

لأن الكثير من النبلاء الأوربيين كانوا ماسونا ، أو روزيكروشيين أو مدمنين على علوم السحر . وهو لم يقتصر على ادعاء العلم الغيبي فى هذه الميادين ، بل أضاف إلى دعواه القوام الممشوق . والوجه المتميز (وإن لم يكن وسيما) والتمكن من اللغات . وتأكيد الذات الخداع ، ومعينا من القصص والفكاهات ، وقدرة خفية غامضة على الكسب فى لعب الورق أو ألعاب الكازينوات . وكان حيثما ذهب يساق عاجلا أو آجلا إلى السجن أو حدود البلاد . واضطر بين الحين والحين إلى الاشتباك فى مبارزة ، ولكنه كالأمة فى مراحل تاريخها لم يخسر قط .

وأخيرا غلبه الحنين إلى وطنه . وكان حرا فى السفر أينما شاء فى إيطاليا إلا فى البندقية . والتمس الاذن مرارا بالعودة ، وأخيرا منحه ، وفى ١٧٧٥ عاد إلى البندقية . واستخدمته الحكومة جاسوسا ، وكان نصيب تقاريره الإهمال لاحتوائها على الكثير جدا من الفلسفة والقليل جدا من المعلومات ، فرفت . وانتكس إلى عادات صباه وكتب هجاء للشريف جريمالدى ، فأمر بأن يبرح البندقية وإلا واجه السجن مرة أخرى فى « ألواح الرصاص » ، ففر إلى فينا (١٧٨٢) . ثم إلى سبا ، ومنها إلى باريس .

وهناك التقى بالكونت فون فالدشتين . الذى أحبه فدعاه إلى العمل أمينا لمكتبته فى قلعة دوكس ببوهيميا . وكانت فنون كازانوفا فى العشق والسحر وخفة اليد قد وصلت إلى نقطة تقلصت فيها عائداتها ، فقبل الوظيفة براتب ألف فلورن فى العام . فلما وصل وتسلم منصبه ، أحزنه أن يكتشف أنه اعتبر خادما . وأن يتناول غداءه فى قاعة الخدم . وفى دوكس انفق أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره . وهناك كتب « تاريخ حياتى » « أولا لتخفيف هـــذا الركود المميت الذى يقتلنى فى بوهيميا الخاملة هذه . . . وقد استطعت بالكتابة عشر ساعات أو اثنتى عشرة كل يوم أن أمنع الحزن الأسود من نهش قلبى المسكين واتلاف عقلى » [٤٦] . وقد زشم الصدق المغناق فى روايته . وهى فى كثير من الحالات تتفق والتاريخ فى الجزء والسخرية . بيد أننا كثيرا ما نفتقر إلى إثبات صحة روايته ،

ولعل ذاكرته تداعت بينما قوى خياله . ولا نملك إلا القول بأن كتابه من أكثر مخلفات القرن الثامن عشر فتنة واستهواء للقارئين .

وقد عمر كازانوفا حتى ناح على موت النظام القديم فقال : « إيه يا فرنسا العزيزة الجميلة ! — البلد الذى كانت الأمور فى تلك الأيام تجرى فيه رخاء رغم أوامر الاعتقال الملكية ، ورغم السحرة ورغم فقر الشعب ! أى فرنسا العزيزة ، إلام انتهى أمرك اليوم ؟ لقد أصبح الشعب ملكا عليك ، الشعب الذى هو أشرس الحكام قاطبة وأشدهم طغيانا »[٤٧] .

وهكذا فى آخر أيامه ، وهو ٤ يونيو ١٧٩٨ ، اختتم حياته فى تقوى أتته فى أوانها . « لقد عشت فيلسوفا ، وهأنذا أموت مسيحيا »[٤٨] . لقد حسب الفسق فلسفة ، ورهان بسكال مسيحية .

٥ — فنكلمان

ولننظر الآن إلى رجل مثالى على سبيل المقابلة بين الاضداد .

وهذا الرجل الذى كان أعظم الشخصيات أثرا فى تاريخ الفن فى هـــذا العهد لم يكن فنانا بل دارسا كرس حياته الناضجة لدراسة تاريخ الفن ، وحرك موته الغريب روح أوربا المثقفة . ولد فى ٩ ديسمبر ١٧١٧ بمدينة ستندال فى براندنبورج . وكان أبوه الاسكاف يأمل فى أن يحترف ابنه حرفته ، ولكن يوهان رغب فى درس اللاتينية . وقد أدى نفقات تعليمه الباكر بالغناء . ثم تقدم سريعا مدفوعا بشوقه واجتهاده . فكان يعلم التلاميذ الذين تنقصهم الكفاية ، ويشترى الكتب والطعام . فلما كف بصر معلمه كان يوهان يقرأ له ، وراح يلتهم مكتبة أستاذه . وأجاد تعلم اللاتينية واليونانية ، ولم يكن ميالا إلى اللغات الأجنبية الحديثة . وحين سمع بأن مكتبة يوهان ألبرت فابريكوس الدارس الكلاسيكى الشهير ستباع بالمزاد لوفاته ، سار ١٧٨ ميلا من برلين إلى همبرج ، واشترى روائع الكتب اليونانية واللاتينية ، وحملها على كتفه عائدا إلى برلين[٤٩] . وفى ١٧٣٨ دخل جامعة هاله طالب لاهوت ، ولم يكن به شغف باللاهوت ، ولكنه اغتنم الفرصة

لدراسة العبرية . وبعد أن تخرج كسب قوته بتعليم التلاميذ الخصوصيين وقرأ مرتين كل قاموس بيل « القاموس التاريخي والنقدى » . ولعل هذه القراءة خلفت بعض الأثر على إيمانه الدينى . وفى عام واحد قرأ الالياذة والاوديسة ثلاث مرات من أولهما لآخرهما باليونانية .

وفى ١٧٤٣ قبل دعوة ليكون مديرا معاونا لمدرسة بزيهاوزن فى ألتمارك ، بمرتب قدره ٢٥٠ طالرا فى العام . وكان فى النهار يعلم «أطفالا جرب الرءوس أبجديتهم ، بينما كنت ... أتحرق شوقا لمعرفة « الجميل » ، وأردد تشبيهات من هومر » (٥٠) . وكان فى المساء يدرس لتلاميذه الخصوصيين ليحصل على نفقات مسكنه وطعامه ، ثم يعكف على الروائع الكلاسيكية حتى منتصف الليل وينام حتى الرابعة ، ثم يعود إلى روائعه الكلاسيكية ثانية ، ثم يخرج متعبا ليدرس . وقبل بابتهاج دعوة وجهها إليه الكونت فون بون بوناو ليكون مساعدا لأمين المكتبة فى قصره الريفى بنوتهنتز ، قرب درسدن ، لقاء السكن وخمسين إلى ثمانين طالرا فى العام (١٧٤٨) . هناك ألفى المتعة البالغة فى مجموعة من أضخم مجموعات الكتب فى ذلك العصر .

وممن كانوا يختلفون إلى هـذه المكتبة الكردينال أركنتو ، القاصد البابوى فى بلاط ناخب سكسونيا . وقد راعه علم فنكلمان وحماسته ، ونحوله وشحوبه . فقال له « ينبغى أن تذهب إلى إيطاليا » . وأجاب يوهان أن هذه الرحلة غاية مشتهى قلبه ، ولكن موارده تعجز عن نفقتها . ودعاه القاصد لزيارته بدرسدن ، فذهب إليه مرات . وقد أبهجه تفقه اليسوعيين الذين التقى بهم فى بيت القاصد وأدبهم . وعرض عليه الكردينال باسيونى — وكان يقتنى ٣٠٠ر٠٠٠ مجلد فى روما — وظيفة أمين مكتبته هناك ، لقاء السكن والمعيشة وسبعين دوقاتية ، ولكن الوظيفة لا يمكن أن يشغلها غير كاثوليكى . ووافق فنكلمان على الدخول فى الكاثوليكية . وإذا كان قد أعرب من قبل عن إيمانه بأنك « بعد الموت ليس هناك ما يخيفك ، ولا ما تؤمل فيه » (٥١) فإنه لم يجد صعوبات لاهوتية فى هذا التحول ، وكل صعوباته كانت اجتماعية . وقد كتب إلى صديق لأمه يقول « ان حب

المعرفة ، وهذا الحب وحده ـ هو الذى يستطيع إغرائى بالاستماع إلى الاقتراح الذى عرض على »[٥٢] (*) .

وفى ١١ يوليو ١٧٥٤ . فى مصلى القاصد بدرسدن ، أعلن إيمانه الجديد ، واتخذت الترتيبات لرحلته إلى روما . ولاسباب شتى مكث فى درسدن عاما آخر ، ساكنادارسا مع الرسام — النحات — الحفارآدماويزن . وفى مايو ١٧٥٥ نشر فى طبعة محدودة لم تتجاوز خمسين نسخة أول كتبه « خواطر فى تقليد الآثار اليونانية فى الرسم والنحت » . وقد وصف فيه الآثار التى جمعت فى درسدن ، ورأى بالإضافة إلى هذا الوصف أن فهم اليونان للطبيعة كان أسمى من الفهم العصرى لها . وهذا هو السر فى التفوق الهلينى فى الفن . ثم اختتم بقوله « إن سبيلنا الوحيد إلى العظمة ، بل إلى العظمة التى لا تحاكى . . . هو بمحاكاة القدماء » .[٥٦] ومن رأيه ان رفائيل دون جميع الفنانين المحدثين هو الذى حقق هذا الهدف الاسمى . وكان هذا الكتيب علامة بداية للحركة الكلاسيكية الجديدة فى الفن الحديث . وقد لقى قبولا طيبا ، وأجمع كلويشتوك وجوتشيد على الاشادة بعلمه وأسلوبه . وحصل الأب راوخ . كاهن الاعتراف الخاص بفردريك أوغسطس ، لفنكلمان من الملك الناخب على معاش من مائتى طالر لكل من العامين التاليين ، وأعانه بثمانين دوقاتية لرحلته إلى روما . وأخيرا ، فى ٢٠ سبتمبر ١٧٥٥ ، انطلق فنكلمان إلى إيطاليا فى صحبة يسوعى شاب . وكان قد بلغ السابعة والثلاثين .

(*) أنظر « باتر » فى مقاله الرائع عن فنكلمان « لعله كان يحس بعراقة ما وبشئ أشبه بالفخامة الوثنية فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وهو فى انصرافه عن البروتستنتينة لمعقدة التى كانت مبعث سأم له فى شبابه ، قد يدور بخلده أنه بينا كانت روما قد راضت نفسها على النهضة ، فان المبدأ البروتستنتى فى الفن قد عزل ألمانيا عن تقليد الجمال المظلم » (٥٣) . وكتب جوته فى كتيب عن فنكلمان (١٨٠٤) « ان المزج الوثنى يشع من جميع تصرفاته وكتاباته . . . ولا بد أن نذكر بعده عن كل أسلوب مسيحى فى التفكير ، لا بل كرهه العام لهذا الأسلوب ، حين نحاول الحكم على هذا التحول المزعوم فى مذهبه . فالفريقان اللذان انقسم إليهما الدين المسيحى كانا فى نظره أمرا لا أهمية له على الاطلاق » (٥٤) . « ولا تعنى كلمة « وثنى » بالضرورة الالحاد . فطالما أكد فنكلمان إيمانه بالله ، ولكن « باله جميع الالسنه والامم والمذاهب » . (٥٥)

فلما بلغ روما لقى عنتا فى جمرك المدينة الذى صادر عدة مجلدات لفولتير من حقائبه ، على أنها أعيدت له بعد ذلك . ووجد سكنا مع خمسة مصورين فى بيت على التل اليِنسى — الذى قدسته ظلال نيقولا بوسان وكلود لوران . والتقى بمنجز ، الذى أعانه بشتى الطرق الكثيرة . واطلق له الكردينال باسيونيي الحرية فى العمل بمكتبته ، ولكن فنكلمان كان إلى الآن يرفض أى وظيفة ثابته لرغبته فى ارتياد فن روما . فحصل على إذن بزيارات متكررة لبلفيدير الفاتيكان وأنفق الساعات أمام تماثيل أبوللو ، وهرقول النصفى ، واللاوكون ، واتخذت أفكاره شكلا أوضح بعد تأمله فى هذه المنحوتات . وزار تيفولى وفراسكاتى وغيرهما من الضواحى ذات الاطلال القديمة . وأكسبه حبه للفن القديم صداقة الكردينال الساندرو البانى ، وأعطاه الكردينال أركنتو مسكنا فى البلاتسو ديللا كانسللبريا — وهو المقر البابوى ، وفى مقابل هذه المنحة أعاد فنكلمان تنظيم مكتبة القصر . وأصبح الآن فى سعادة غامرة . قال « لقد كان الله مدينا لى بهذا ، فانى قاسيت كثيراً جداً فى شبابى » (٥٧) . وكتب إلى صديق فى ألمانيا كما كان يكتب عشرات الزوار الكبار :

« كل شىء صفر إذا قورن بروما ! لقد ظننت فيما مضى أننى درست كل شىء دراسة كاملة ، وهأنذا ادرك بعد مجيئى أننى لم أعرف شيئا . لقد أصبحت هنا أصغر مما كنت يوم خرجت من المدرسة إلى مكتبة بوناو . فإذا شئت أن تتعلم كيف تعرف الرجال ، فهذا مكانك ، هنا رؤوس ذات مواهب لا حد لها ، رجال أوتوا قدرات فائقة ، وآيات فى الطابع الرفيع الذى خلعه اليونان على تماثيلهم . . . وكما أن الحرية التى يتمتع بها الناس فى الدول الأخرى ليست إلا ظلا إذا قيست بحرية روما — وهو ما قد تخاله مفارقة — كذلك تجد فى هذه المدينة أسلوبا مختلفا فى التفكير . فروما فى اعتقادى هى المدرسة العليا للعالم ، وأنا أيضا امتحنت فيها وهذبت » (٥٨) .

وفى أكتوبر ١٧٥٧ غادر روما قاصدا نابلى مزودا بخطابات تعريف .

وسكن هناك ديرا ولكنه كان يتناول طعامه مع رجال كتانوكي وجاليانى ٥ وزار مدنا عابقة باريج التاريخ القديم — بوتسولى ، وبايا ، وميزينوم ، وكاوماى — ووقف مدهوشا أمام هياكل بايستوم المهيبة . وفى مايو ١٧٥٨ قفل إلى روما محملا بذخائر العلم بالآثار . فى ذلك الشهر استدعى إلى فلورنسه ليصنف ويوصف المجموعة الضخمة من الجواهر ، والمحفورات ، والخرائط ، والمخطوطات التى خلفها البارون فليب فون ستوش . وشغلته المهمة قرابة عام وكادت تهدم صحته . ومات أركنتو أثناء ذلك ، واجتاح فردريك الأكبر أرض سكسونيا ، وفقد فنكلمان مسكنه فى الكانسلبريا ومعاشه من الملك الناخب التعس . وخف ألبانى لنجدته إذ قدم له أربع حجرات وعشرة أسكوزات فى الشهر لقاء العناية بمكتبته . وكان الكردينال نفسه أثريا متحمسا ، وفى كل أحد كان يركب مع فنكلمان لتصيد التحف القديمة .

وأضاف فنكلمان جديدا إلى سمعته باصداره كتيبات عميقة فى هذه الموضوعات المفردة « فى جمال الأعمال الفنية ، ملاحظات على عمارة القدماء ، وصف لتمثال هرقول النصفى فى البلفدير ، دراسة الآثار الفنية » . وفى ١٧٦٠ حاول ترتيب رحلة إلى اليونان مع الليدى أورفورد ، زوجة أخى هوراس ولبول ، ولكن الخطة أخفقت . كتب يقول « ما من شىء فى الدنيا تقت إليه بحرارة كهذه الرحلة . وما كنت لاضن بأصبع من أصابعى تقطع ، لا بل وددت أن أجعل من نفشى كاهنا لسيبيل (إلاهة الطبيعة) لو استطعت أن أشهد هذا البلد فى فرصة كهذه » [٥١] أما كهنة سيبيل فكان الشرط فيهم أن يكونوا خصيانا ، ولكن هذا لم يمنع فنكلمان من التنديد بأمر قديم للحكومة الرومانية يشترط تغطية الأعضاء الداخلية لابوللو واللاردكون وغيرهما من التماثيل فى البلفدير بمآزر من المعدن ، وقد أعلن فى « إنه لم يشرع فى روما طوال عهدها مثل هذه السنة الغبية » .

وكان للاحساس بالجمال من السلطان عليه ما ألغى تقريبا كل وعى فيه بالجنس . فإذا شعر بتفضيل جمالى فإن تفضيله يؤثر جمال جسم الذكر المكتمل

الرجولة عن حلاوة المرأة الهشة العابرة . ويبدوا أن تمثال هرقول النصفى (التورسو) قد أثر فيه أكثر مما أثرت خطوط جسد فينوس مديتشى الناعمة الملفوفة . وقال كلمة طيبة فى الخنائى — على الأقل فى التمثال الذى شهده فى فيللا بورجيزى [٦٠] . وقال مؤكدا « لم أكن فى حياتى عدوا للجنس الآخر ، ولكن أسلوب حياتى أبعدنى عن كل اتصال به . ولعلى كنت أتزوج ، وأكبر ظنى انه كان واجبا على أن أفعل ، لو أننى عدت إلى زيارة وطنى الأول ، أما الآن فإن هذا لا يكاد يخطر لى ببال » [٦١] . وفى زيهاوزن كانت صداقته لتلميذه لامبريشت تقوم مقام التعلق بالمرأة ، وفى روما عاش مع رجال الكنيسة ، وندر أن التقى بالشباب من النساء . وذكروا « إنه كان يتناول العشاء فى السبوت فترة طويلة مع فتى من روما ، نحيل وسيم الطلعة ، فارع القامة ، يتحدث معه عن الحب . » [٦٢] وقد « رسمت بناء على طلبه صورة لمغن جميل من الخصيان » [٦٣] ثم إنه أهدى للشريف الفتى البارون فريدرش راينهولد فون برج « رسالة فى القدرة على الاحساس بالجمال » ، « وقد وجـــد القراء فيها وفى خطاباته لبرج لغة الحب لا لغة الصداقة ، وهى فى الواقع كذلك » [٦٤] .

وفى ١٧٦٢ و ١٧٦٤ عاد إلى زيارة نابلى . وقد قدم للدارسين الأوربيين فى « خطاب عن آثار هوكولانيوم » (١٧٦٢) و « تقرير عن أحدث كشوف هوكولانيوم » (١٧٦٤) أول معلومات منظمة وعلمية عن الكنوز التى تم الحفر عنها فى تلك المدينة وفى بومبى . وكان الآن معترفا به أعظم حجة فى الفن الكلاسيكى القديم . وفى ١٧٦٣ عين بالفاتيكان فى وظيفة « أثرى الحجرة الرسولية » وأخيرا ، فى ١٧٦٤ ، نشر المجلدات الضخمة التى كان يؤلفها ويحليها بالصور طوال سنوات سبع Geschichte der Kunst des Alterthums «تاريخ الفن القديم» . وقد احتوى الكتاب على أخطاء كثيرة رغم ما أنفق فى إعداده من وقت وجهد ، واثنان من هذه الأخطاء كانا خدعتين قاسيتين . ذلك أن صديقه منجز كان قد درس رسمين هما وليدا خيال منجز وزعم

إنهما نسختان دقيقتان لصور أثرية . وأدرج فنكلمان الصورتين فى كتابه ، واستعمل الرواسم وأهدى الكتاب كله لمنجز . وتضمنت المترجمات التى ظهرت سريعا فى الفرنسية والإيطالية كل الأخطاء تقريبا ، مما أشعر فنكلمان بالخزى . فكتب إلى بعض أصحابه « إننا اليوم أحكم مما كنا بالأمس . ليتنى أستطيع أن اريك كتابى « تاريخ الفن » وقد نقح تنقيحا كاملا ووسع توسيعا كبيراً ! لم أكن قد تعلمت الكتابة بعد حين شرعت فى تأليفه فلم تكن الأفكار مترابطة بدرجة كافية ، وفى مواضع كثيرة افتقار إلى الانتقال من السابق إلى اللاحق — وهو ملاك الفن الأسمى . »[٦٥] ومع ذلك أنجز الكتاب عملا غاية فى العسر — هو إجادة الكتابة فى الفن . وقد رفعه حبه الشديد لموضوعه إلى مستوى الأسلوب الجميل .

ولقد اتجه حرفيا إلى تاريخ الفن لا إلى تاريخ الفنانين ، وهو موضوع أيسر مأخذا بكثير . وبعد أن مسح مسحا متعجلا الفن المصرى والفينيقى واليهودى والفارسى والاتروري ، أطلق العنان لحماسته الفياضة فى ٤٥٠ صفحة تناولت فن اليونان القديم . وفى فصول ختامية ناقش الفن اليونانى فى عهد الرومان . وكان توكيده دائماً على اليونان لأنه كان مقتنعا بأنهم عثروا على أسمى صور الجمال : فى رهافة الخط لا فى لمعة اللون ، فى تمثيل الأنماط لا الأفراد ، فى طبيعية الأجسام ونبلها ، فى انضباط التعبير العاطفى ، فى هدوء المظهر وصقله ، فى اطمئنان القسمات حتى فى الحركة ، وفوق هذا كله فى النسبة والعلاقة المتسقتين بين الأجزاء المتميزة فى كل موحد توحيداً منطقياً . لقد كان الفن الإغريقى فى رأى فنكلمان هو عصر العقل مجسما .

وقد ربط تفوق الفن الإغريقى بالاحترام العظيم الذى كان الإغريق يكنونه لامتياز الجسد فى الجنسين . « كان الجمال امتيازا يفضى إلى الشهرة ، لأننا نجد تواريخ الإغريق تذكر أولئك الذين تميزوا به »[٦٦] ، على نحو ما تفعل التواريخ الآن فى ذكر كبار الساسة والشعراء والفلاسفة . وكانت هناك مباريات فى الجمال عند الإغريق كما كانت مباريات للألعاب الرياضية . وعند فنكلمان أن الحرية السياسية ، وتزعم اليونان لعالم البحر المتوسط

قبل حرب البلوبونيز ، هذان أفضيا إلى مركب من العظمة والجمال ، وانتجا « الطراز الفخم » فى فيدياس وبوليكليتس ، ومبرون . وفى المرحلة التالية أخلى الطراز الفخم الطريق للطراز « الجميل » أو طراز « الرشاقة» ، فأخلى فيدياس مكانه لبراكستليس ، وبدأ الاضمحلال . وكانت حرية الفن جزءاً من الحرية اليونانية ، وتحرر الفنانون من القواعد الصارمة وجرءوا على خلق أجساد مثالية لاتوجد فى الطبيعة . فلم يقلدوا الطبيعة إلا فى التفاصيل ، وكان العمل الفنى كله مجموعة كمالات لاتوجد فى أى شىء طبيعى إلا جزئيا . لقد كان فنكلمان رومانتيكيا يبشر بالشكل الكلاسيكى .

ولقى كتابه القبول فى أوربا بأسرها باعتباره حدثاً فى تاريخ الأدب والفن . وأرسل إليه فردريك الأكبر دعوة (١٧٦٥) للحضور إلى برلين مشرفاً على المكتبة الملكية وإدارة الآثار . ووافق فنكلمان نظير ألفى طالر فى العام ، وعرض فردريك ألفاً فقط ، وأصر فنكلمان على موقفه ، وذكر فردريك بقصة المغنى الخصى الذى طالبه بمبلغ ضخم نظير أغانية ، فشكا فردريك من أنه يطلب أكثر مما يكلفه خير قواده ، فكان رد المغنى « إذن فليكلف قائده بالغناء » .

وفى ١٧٦٥ عاد فنكلمان لزيارة نابلى ، هذه المرة فى صحبة جون ولكز الذى كان قد جعل أوربا تدوى بتحديه للبرلمان ولجورج الثالث . وبعد أن جمع المزيد من المعلومات عاد إلى روما وأكمل كتابه الهام الثانى « آثار قديمة غير منشورة » (١٧٦٧) . وكان أصدقاؤه من الأحبار قد شكوا من كتابته « تاريخه » بالألمانية التى لم تكن إلى ذلك الحين أداة كبرى من أدوات الدرس فأبهجهم الآن باستعماله الإيطالية ، وانتشى المؤلف السعيد ، الجالس بين كردينالين ، بقراءة جزء من كتابه فى كاستل جاندولفوا على كلمنت الثالث عشر وجمع غفير من الأعيان . على أنه أتهم بحيازته كتبا مهرطقة وابدائه ملاحظات مهرطقة . [٦٨] ولم يحصل من البابوية قط على المنصب الذى شعر بأنه جدير به .

وقرر أن يزور ألمانيا (١٧٦٨) ربما مؤملا أن يحصل فيها على مورد يمكنه من رؤية بلاد اليونان . ولكن استغراقه الشديد فى الفن الكلاسيكى وأساليب الحياة الإيطالية أفقده اللذة فى وجوده بأرض الوطن ، فتجاهل مناظرها الطبيعية وساءه معمارها وزخارفها الباروكية . وكان يردد مائة مرة لرفيق رحلته «[٦٩] « لنعد إلى روما »وقد احتفى به القوم فى ميونيخ ، وأهدوه جوهرة أثرية رائعة . وفى فيينا أعطته ماريا تريزا مداليات غالية ، ودعته الامبراطورة والأمير فون كاونتز للإقامة هناك ، ولكنه مالبث أن قفل إلى إيطاليا فى ١٨ مايو وهو لم يكد يغيب عنها شهرا واحدا .

وفى تريستا تعطل انتظاراً لسفينة يستقلها إلى انكونا . وأثناء أيام الانتظار هذه تعرف إلى مسافر آخر يدعى فرانشسكو اركانجيلى . وكانا يتمشيان معاً ويشغلان حجرتين متجاورتين فى الفندق . وسرعان ما أراه فنكلمان المداليات التى تلقاها فى فيينا . على أنه — على قدر علمنا — لم يره كيسه المملوء بالذهب . وفى صبيحة ٨ يونيو ١٧٦٨ دخل أركانجيلى حجرة فنكلمان ، ووجده جالساً إلى منضدة ، فألقى أنشوطة حول عنقه ، ونهض فنكلمان واشتبك معه ، فطعنه أركانجيلى خمس مرات وفر هارباً . وضمد طبيب جروحه ولكنه قال أنها مميتة . وتناول فنكلمان الأسرار المقدسة ، وأملى وصيته ، وأعرب عن الرغبة فى أن يرى مهاجمه ويصفح عنه ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة فى الرابعة بعد الظهر . وقد خلدت تريستا ذكراه بتمثال جميل .

وقبض على أركانجيلى فى ١٤ يونيو . فاعترف بجريمته ، وفى ١٨ يونيو صدر عليه هذا الحكم : « عقابا على جريمة القتل التى اقترفتها على جسد يوهان فنكلمان . . قضت محكمة الجنايات الامبراطورية بأن . . . تحطم حيا على دولاب التعذيب ، من رأسك إلى قدميك حتى تفارق روحك بدنك » وكذلك صنع به فى ٢٠ يوليو .

كانت عيوب فنكلمان وثيقة الصلة بالجغرافيا . فلأنه لم يحقق قط أمله فى زيارة اليونان فى ظروف كانت ستتيح له الدرس المستفيض للآثار القديمة ،

كان يفكر فى الفن اليونانى وكأنه الفن اليونانى الرومانى كما وجده فى المتاحف والمجموعات والقصور فى ألمانيا وإيطاليا ، وفى اطلال هركو لانيوم وبومبى . وتفضيله النحت على التصوير ، وتمثيل الأنماط لا الأفراد ، والهدوء لا التعبير عن العاطفة ، وايثاره النسبة والتناسق ، ومحاكاة القدامى دون الابتكار والتجريب . كل هذا فرض على الدوافع الخلاقة فى الفن عدة قيود أسفرت عن الانتقاص الرومانتيكى على ما فى الأشكال الكلاسيكية من الصرامة الباردة . وقد أعماه التركيز على اليونان والرومان عن حقوق الطرز الأخرى وإمكاناتها ، وكان يرى — كما رأى لويس الرابع عشر — إن رسوم الحياة اليومية التى انتجتها الأراضى الواطئة ليست إلا من قبيل « الجروتسك » .

ومع ذلك كان انجازه رائعا . فقد أحدث انتفاضة فى كل دنيا الفن والأدب والتاريخ الأوربى بتمجيده لليونان . ولقد جاوز حدود النزعة الشبيهة بالكلاسيكية التى نزعت إليها إيطاليا النهضة وفرنسا لويس الرابع عشر إلى الفن الكلاسيكى ذاته . ونبه العقل الحديث إلى ما فى النحت اليونانى من كمال ناصع مطمئن . وجعل من فوضى مئات التحف الرخامية والبرونزية والصور والجوهرات والعملات آثار علمية . وكان تأثيره على أفضل العقول فى الجيل التالى هائلا . فقد ألهم لسنج ، ولو بالاعتراض على أرائه ، وشارك فى انضاج هيردر وجوته ، ولعله لولا الالهام الذى انبعث من فنكلمان لما توج بيرون شعره بالموت فى بلاد اليونان . وقد أعان هذا الهلنستى الغيور على تشكيل مبادىء منجز ونورفالدسن الكلاسيكية الحديثة ، وتصوير جاك — لوى دافيد الكلاسيكى الحديث . يقول هيجل « يجب أن يعد فنكلمان واحدا من أولئك الذين عرفوا فى ميدان الفن كيف يخلقون أداة جديدة للروح الإنسانية »[٧٠].

٦ — الفنانون

لم تكن إيطاليا فى حاجة إلى حث يأتيها من فنكلمان ، لأنها كانت تكرم أربابها ، وكان فيها المتراكم يقوم فى كل جيل بمهمة المدرسة التى تدرب مئات الفنانين من أقطار كثيرة . من ذلك أن كارلو ماركيونى صمم فيللا

البانى الفخمة (١٧٥٨) التى جمع فيها الكردينال البانى بارشاد فنكلمان مجموعة عالمية الشهرة من المنحوتات القديمة — لا تزال غنية رغم طول العدوان عليها . (فقد سرق نابليون ٢٩٤ من تحفها لفرنسا ، وربما كان هذا هو العلة فى قول إيطالى مأثورة فى تلك الأيام : ليس كل الفرنسيين لصوصا ، بل عدد عديد منهم) .

وانجبت البندقية أكثر كبار المصورين الإيطاليين فى تلك السنين ، وقد ورث ثلاثة منهم أسماء مشهورة . أولهم أليساندرو لونجى بن بييترو ، الذى أبرز عبقرية قومه بصور شخصية رقيقة منها صورتان لجولدونى . [٧١] ولقد رأينا من قبل دومنيكو تيبولو يصحب أباه إلى أوجزبورج ومدريد ، ويعرض فى تواضع تخصصه على عامة الشعب . ففى مضيفة فيللا فالمارنا استهل إنتاجه المستقل بصور المشاهد اليومية فى حياة الريف ، فصورة « الفلاحين يستجمون » أشبه بالقصيدة الرعوية ، تصور أدواتهم وقد سقطت عنهم ، وتصور استرخاءهم فى دعة واطمئنان . وبعد أن مات أبوه فى أسبانيا عاد دومنيكو إلى البندقية وأطلق العنان لأسلوب الواقعية الساخرة الذى اتخذه لنفسه . [٧٢]

وثالث هؤلاء هو فرانشسكو جواردى ، صهر جامباتستا تيبولو ، الذى تعلم التصوير من أبيه ، وأخيه ، وكانا ليتو . وقد فاته التقدير فى جيله ، ولكن لوحته « فيدوتى » لفتت أنظار النقاد ببراعتها فى التقاط ونقل لطائف الضوء وتقلبات الجو ، وربما أوحى ببعض الإلماعات للتأثريين الفرنسيين . ولم ينتظر تحذير كونستابل الذى قال « تذكر أن الضوء والظل لا يقفان ساكنين أبدا » [٧٣] . ولعل أحب الساعات إليه كانت ساعة الشفق ، حين تمحى الخطوط وتختلط الألوان وتغيم الأطياف ، كما فى صورته « الجوندول على البحيرة » [٧٤] وكأنما صممت أجواء البندقية ومياهها لتهيىء هذه المناظر المضببة المنصهرة . وقد ذكروا أن جواردى كان أحيانا يحمل مرسمه فى زورق ويسير به على القنوات الصغرى ليلتقط مناظر لم تبتذل بطول إلف الناس لها . وكان يرسم الناس بغير عناية ، وكأنه شعر بأنهم ليسوا سوى

تفاصيل سريعة الزوال إلى جوار المعمار المكين والبحر والسماء الدائمين رغم ما يطرأ عليهما من تغير . ولكنه كان قادرا على تصوير الناس أيضاً ، فتراهم يزحمون البياتسيتا فى لوحة « المهرجان[٧٥] » ، أو يسيرون فى ثياب فاخرة فى « صالة فيلارمونيتشى[٧٦] » الكبرى . وكان أخوه جوفانى يعد أثناء حياتهما مصوراً أفضل منه • وكاناليتو أعظم من كليهما ، أما اليوم فان جواردى يعد بالبقاء بعد ان تخبو شهرة الاثنين .

وعاد انطون روفائيل منجز من أسبانيا عام ١٧٦٨ ،وسرعان ما أصبح قطب التصوير فى روما . ولم يشك أحد فى تفوقه على معاصريه من الفنانين. كانت الرؤوس المتوجة تسعى إلى ريشته • وتسعى إليها دون جدوى أحيانا. وكان فنكلمان يلقبه برفائيل عصره، وأشاد باوجته الرهيبة « جبل بارناس » « رائعة » خليقة بأن ينحنى أمامها حتى رفائيل[٧٧] » ، وضمن كتابه « تاريخ الفن القديم » تقديرا عظيما لصديقه[٧٨] .

وأروع الصور التى رسمها منجز فى هذه الفترة صورته الذاتية(١٧٧٣؟)[٧٩] ويبدو فيها وهو ما يزال قوياً وسيما أسود الشعر معتزاً بنفسه فى الخامسة والأربعين . وبعد أن أقام فترة ثانية فى أسبانيا عاد (١٧٧٧) ليقضى ما بقى له من أجل فى ايطاليا . وواصل نجاحه،ولكن موت زوجته(١٧٧٨) حطم روحا كانت من قبل شديدة المرح . واجتمعت عليه شتى الأسقام فأضعفته ، وأجهز عليه التجاؤه إلى المشعوذين والعـلاجات السحرية . ومات عام ١٧٧٩ وهو فى الحادية والخمسين . وأقام تلاميذه لذكراه نصبا فى البانتيون ، إلى جوار تمثال رفائيل . واليوم لا تجد من يجل ذكراه من النقاد مهما صغر شأنه .

٧ — الموسيـقى

كانت موسيقى الكنيسة قد اضمحلت مع تحول الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الدين ، ووصلتها العدوى من الأشكال الأوبرالية . وكانت موسيقى الآلات تزكو ، من جهة بفضل التحسين الطارىء على البيانو ، ولكن أهم

من ذلك لشعبية الكمان (الفيولينه) المتزايدة . وغزا كبار العازفين من أمثال يوفيانى وفيوتى وناردينى أوربا بقوس الكمان . وطاف موتزيو كلمنتى ، الذى غادر ايطاليا ليعيش فى انجلتره عشرين سنة ، بالقارة عازفا على الأرغن والبيانو ، ونافس موتسارت فى فيينا ، ولعله أفاد من قول موتسارت تعليقاً على عزفه أن هذا العزف آلى أكثر مما يجب . وكان أنجح معلم للبيانو فى القرن الثامن عشر ، وقد أرسى أسلوب القرن التاسع عشر فى تكنيك البيانو بسلسلة تمارينه ودراساته الشهيره « خطوات إلى بارناس » موطن ربات الفنون Muses اللاتى اشتقت منهن الموسيقى اسمها . وورث جاتيانو بونيانى تفنن أستاذه تارتينى فى عزف الكمان وأسلمه إلى تلميذه جوفانى باتستا فيوتى ، الذى عبر أوربا من أولها لآخرها ظافرا . ومازال فى استطاعة أذاننا المؤثرة للقديم أن تستمتع بكونشرتو كمان فيوتى فى مقام الصغير .

أما لويجى بوكيرينى فقد رحل كما رحل الكثير من الايطاليين عن بلد اكتظ بالموسيقين ليلتمس جمهورا من المستمعين فى الخارج . وقد سحر أسبانيا من ١٧٦٨ حتى مماته فى ١٨٠٥ بآلة التشيللو كما سحرها من قبل فارنيللى بصوته وسكارلاتى ببيانه القيثارى (الهاريسيكورد) . وعلى مدى جيل كامل كانت مؤلفاته الآلية تنافس مؤلفات موتسارت فى ظفرها بالاشادة والاطراء من شتى الدول ، وكان فردريك ولیم الثانى ملك بروسيا ، وهو نفسه عازف تشيللو ، يفضل رباعيات بوكيرينى على رباعيات موتسارت(٨٠) . وقد ألف خلال سنيه الاثنتين والستين خمسا وتسعين رباعيه وترية ، وأربعا وخمسين ثلاثية ، وأثنتى عشرة خماسية للبيانو ، وعشرين سمفونية ، وخمسة كونشرتوات للتشيللو ، وأوراتوريوين ، وبعض الموسيقى الدينية . ويعرف نصف العالم حركته « المنويت » وهى حركة من احدى خماسياته . ولكن يجب أن يعرف العالم كله الكونشرتو بمقام B الشديد الانخفاض الذى ألفه للفيولونشيللو والأوركسترا .

واستسلمت أوربا دون مقاومة (فيما عدا باريس مرة أخرى) للغناء الايطالى الجميل « الملعلع » (البيل كانتو) . فمن أكثر من عشر من مدن

الحذاء السحرى تدفقت مغنيات الأوبرا من أمثال كاترينا جابر بيللى والمغنين الخصيان أمثال جسبارو باكيروتى عبر الألب إلى فيننا وميونخ وليبزج ودرسدن وبرلين وسانت بطرسبورج وهمبورج وبروكسل ولندن وباريس ومدريد . وكان باكيروتى آخر الخصيان المشهورين فى عالم الغناء ، وقد نافس فون فارنيللى جيلا بأكمله . واسترق أسماع لندن أربعة أعوام ، ومازال اطراء الانجليز له يتردد فى « يومية » (٨١) فانى بيرنى ، وفى كتاب أبيها « تاريخ الموسيقى العام(٨٢) .

وتبع المولفون الموسيقيون وقادة الأوركسترا الايطاليون المغنين . فألف بييترو جوليمى مانتى أوبر ، وتنقل بين نابلى ودرسدن وبرنزويك ولندن ليقودها . وقد انحدر اليناذكر موسيقى آخرمن نابلى هو نيكولابيتشينى ، ولكنه ذكر شوهته منافسة لم يرغب فيها مع جلوك فى باريس ، ولكن جاليانى وصفه بأنه « رجل شريف جداً (٨٣) » . وقد ظلت أوبراته الهازلة عقدا كاملا للبدعة السائدة فى نابلى وروما ، لا بل إن أوبرا برجوليزى «الخادمة التى انقلبت ربة البيت» لم تحظ بمثل الشعبية التى حظيت بها أوبرا بيتشينى (١٧٦٠) . وكان جوميللى ، وبرجوليزى ، وليو ، وجالوبى قد لحنوا « أولمبيادى» التى ألفها متاستازيو ، فبهج بتشينى نهجهم وبزهم كلهم باجماع الرأى . وفى ١٧٧٦ قبل دعوة إلى باريس ، أما الحرب الضارية التى تلت ذهابه إلى هناك فلابد أن تنتظر دورها الجغرافى ، ولكن بتشينى سلك من أولها لآخرها مسلكا غاية فى المجاملة ، مبقيا على صداقته مع منافسيه جلوك وساكينى رغم أن المتشيعين لها هددوا حياته .(٨٣) فلما أغرقت أحداث الثورة الفرنسية هذه الأوبرا الهازلة عاد بتشينى إلى نابلى . وهناك حددت اقامته فى منزله أربع سنوات لتعاطفه مع فرنسا ، وكانت أوبراته تقاطع بصيحات السخرية حتى توقف تمثلها ، وعاش فى فقر يشين وطنه . وبعد أن فتح نابليون ايطاليا دعى إلى باريس مرة أخرى ١٧٩٨ ، ومنحه القنصل الأول وظيفة شرفية متواضعة ، ولكن أصابته بالشلل حطمته جسداً وروحاً ، ومات فى باريس عام ١٨٠٠ .

أما أنطونيو ساكيني فقد ولد لأب كان صياد سمك في بوتسولى ، وكان يدرب ليحلف أباه حين سمعه فرانشسكو دورانتى يغنى ، فانطلق به إلى نابلى تلميذا ومحسوباً له. وقد احتفى الجمهور بأوبراه «سمير اميدى» فى التياترو أرجنتينو بروما احتفاء أبقاه مع ذلك المسرح سبع سنين مؤلفاً للأوبرات. وبعد أن أقام ردحاً فى البندقية خرج ليغزو ميونخ وشتوتجارت ... ولندن ١٧٧٢ . وصفق الجمهور لأوبراته هناك ، ولكن الدسائس المعادية أضرت بشعبيته ، وأتلفت عاداته الفاجرة صحته . ولما انتقل إلى باريس أخرج رائعته Oedipe a Colone (١٧٨٦) التى احتلت خشبة الأوبرا طوال ٥٨٣ عرضاً فى السنوات السبعة والخمسين التالية ، وفى وسعنا أن نسمعها إلى اليوم على الهواء من حين لحين . وقد اقتبس عدة اصلاحات مما أدخله جلوك ، وأقلع عن أسلوب الايطاليين فى جعل الأوبرا تلفيقاً من الألحان ، وفى أوديبى تسيطر القصة على الألحان ، وتضفى الكوارس التى استلهمها من أوراتوريوات هندل الجلال والعظمة على الموسيقى والموضوع كليهما .

واتصل الغزو الغنائى بأنطونيو ساليبرى ، عـدو موتسارت وصديق بيتهوفن الشاب . ولد قرب فيرونا ، وأرسل وهو فى السادسة عشرة إلى فيينا (١٧٦٦) ، وبعد ثمانى سنوات عينه يوزف الثانى مؤلفاً موسيقيا للبلاط ، وفى ١٧٨٨ رئيسا لفرقة المنشدين . فى هذه الوظيفة فضل مؤلفين آخرين على موتسارت ، ولكن القصة التى زعمت أن هذه المعارضة سببت إنهيار موتسارت ليست إلا خرافة[٨٥] . فبعد موت موتسارت صادق ساليبرى الأبن وأعان على تطوره الموسيقى . وقد قدم بيتهوفن عدة مؤلفات لساليبرى ، وقبل إقتراحاته بتواضع لم يعهد فيه .

أما « ألمع نجم فى سماء الأوبرا الإيطالية خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر[٨٦] » فهو جوفانى بانيزيللو . كان أبنا لجراح بيطرى فى تارانتو ، وقد أعجب معلموه اليسوعيون بصوته أعجابا حملهم على إقناع أبيه بأن يوفده إلى معهد دورانتى الموسيقى فى نابلى (١٧٥٤) . فلما إتجه إلى تلحين الاوبرات وجد جماهير نابلى شديدى الحب لبتشينى ، لذلك قبل دعـوة وجهتها إليه كاترين الكبرى . وفى سانت بطرسبرج ألف (١٧٨٢) Il barbiere di Siviglia

(حلاق أشبيلية) ، وقد كتب لها من النجاح الخالد فى أوربا كلها ما جعل الجمهور يلعن أوبرا عرضها فى نفس الموضوع بروما (٥ فبراير ١٨١٦) الموسيقى روسينى لأنها تطفل غير كريم على أرض حرام لبايزيللو الذى كان لا يزال على قيد الحياه . وتوقف بايزيللو بفيينا فى طريق عودته من روسيا عام ١٧٨٤ فترة أتاحت له تأليف إثنتى عشرة « سمفونية » ليوزف الثانى ، واخراج أوبرا Il ne Teodoro تيودور الملك » سرعان ما ظفرت بقبول عم كل أوربا . ثم عاد إلى نابلى رئيسا لفرقة المرتلين لفرديناند الرابع . وأقنع نابليون فرديناند بأن «يعيره» بايزيللو ، فلما وصل المؤلف إلى باريس (١٨٠٢) أستقبل أستقبالا بلغ من الفخامة والبهاء ما أثار عليه عداء الكثيرين . وفى ١٨٠٤ قفل إلى نابلى تحت حماية جوزف بونابرت ومورا .

ويجب أن نلاحظ فى مرورنا مبلغ الصبر والأناة التى كان هـؤلاء الايطاليون يعدون بهما مستقبلهم المهنى . فبايزيللو درس تسع سنين فى معهد دورانتى الموسيقى « دى سان أو نوفريو » ، وتشيماروزا درس أحدى عشرة سنة فى معهد سانتا ماريا دى لوريتو ، ثم فى نابلى . وبعد أن تتلمذ دومنيكو تشيماروزا طويلا على يد ساكينى وبتشينى وغيرهما ، أخرج أول أوبرا له « rtravaganze del conte «إسراف الكونت» وسرعان ما استمع الناس لأوبراتة فى فيينا وذ درسدن وباريس ولندن . وفى ١٧٨٧ ذهب بدوره إلى سانت بطرسبورج حيث أبهج قلب القيصرة المزواج بأوبرا كليوباتره . وحين دعاه ليوبولد الثانى ليخلف ساليرى رئيسا للمرتلين بفينا ، أخرج هناك أشهر أوبراته وهى « الزواج السرى » (١٧٩٢) . وقد بلغ سرور الأمبراطور بها حدا جعله يأمر بعد أنتهائها بتقديم العشاء لجميع الحاضرين ، ثم أمر باعادة الاوبرا كلها[٨٧] . وفى ١٧٩٣ دعى ثانية إلى نابلى « رئيسا للمرتلين » لفرديناند الرابع . فلما خلع جيش من جيوش الثورة الفرنسية الملك (١٧٩٩) رحب تشيماروزا بالحدث ترحيبا حماسياً ، فلما رد فرديناند إلى عرشة حكم على تشيماروزا بالاعدام . ثم خفف الحكم إلى النفى . ويمم المؤلف شطر سانت بطرسبرج ، ولكنه مات فى الطريق بالبندقية (١٨٠١) . واحتوت مخلفاته التى تركها بالأضافة إلى العديد من الكنتاتات ، والقداسات ،

والاوراتوريوات ، نحو ست وستين أوبرا كانت تلقى استحسانا أكثر بكثير ما ظفرت به أوبرات موتسارت ، وهى حتى فى وقتنا هذا يجب أن تعد فى مرتبة تالية لاوبرات موتسارت فقط فى أوبرا القرن الثامن عشر الهازلة .

وإذا كانت الميلوديا هى لب الموسيقى ، فالموسيقى الإيطالية إذن إسمى الموسيقات . كان الألمان يفضلون التناغم متعدد الأصوات (الهارمونيا البوليفونيه) على الخط الميلودى البسيط . وفى هذه الناحية ظفرت إيطاليا بنصر آخر على ألمانيا حين أخضع الالمانى موتسارت البوليفونيه للميلودية . ولكن الايطاليين غلبوا الميلوديا تغليبا جعل أوبراتهم أقرب إلى أن تكون سلسلة من الأغانى الرخيمة أكثر منها درامات موسيقية كالتى قصد إليها أوائل مؤلفى الاوبرا الأيطاليين (حوالى ١٦٠٠) فى محاولتهم منافسة فن الأغريق الدرامى . وهكذا نرى دلالة الحركة فى الأوبرا الايطاليه ، بل دلالة الكلمات فى حالات كثيره ، تضيع وسط بهاء الأغنية وروعتها وكان هذا جميلا ، ولكن إذا كان الفن كما اعتدنا أن نراه هو استبدال النظام بالفوضى للكشف عن المغزى أو الدلالة ، فإن الاوبرا فى الأيدى الايطالية قصرت دون بلوغ أسمى إمكاناتها ، وقد إعترف بهذا بعض الايطاليين مثل جوميللى وترايتا ، وجهدوا لصب الموسيقى والتمثيلية فى كل موحد ، ولكن ذلك الأنجاز كان عليه أن ينتظر أوبرات جلوك ليحقق أنصع صوره . وهكذا توقف فى بندول الحياة الغزو الأيطالى لأوربا بالميلوديا ، حين أخرج جلوك عام ١٧٧٤ فى باريس « افحيينى فى أوليدى » التى أخضعت الموسيقى للتمثيلية . ولكن الصراع بين الميلوديا والدراما أتصل ، وكسب فاجنر معركة للدراما ، وأستولى فردى على غنائم جديده للميلوديا . وليت النصر الكامل لا يتحقق لأى من الفريقين .

٨ — الفيـــيرى

لم ينجب هذا العصر رجالا على شاكلة دانتى ، ولكن كان هناك بارينى فى الشعر وفيلانجيبرى فى النثر ، وألفييرى فى الدراما والنثر والشعر .

ولقد شق جوزيبى بارينى طريقه صعداً من الفقر ، وكسب قوته بنسخ

المخطوطات ، ودخل دنيا النشر (١٧٥٢) بديوان صغير من « الشعر المنثور » واحترف القسوسية وسيلة للعيش ، وحتى بعد هذا اضطر لكسب قوته بأعطاء الدروس الخصوصية لأن إيطاليا أكتظت بالقساوسه . وأرهف الفقر قلمه فاتجة إلى الهجاء . تأمل فى حياة الكثير من نبلاء الايطاليين العاطلة المترفة فخطر له أن يصف يوما نموذجيا فى حياة شريف ذى « دم أزرق » . وفى ١٧٦٣ أصدر أول جزء سماه (الصباح)، وبعد عامين أضاف (الظهيرة) ، ثم أكمل الجزء الثالث الذى لم يعش لينشره (المساء) و (الليل) ، وهى فى مجموعها تؤلف هجائية ضخمة سماها «اليوم» Il giorno وأبدى الكونت فونى فيرميان نبلا حقيقيا بتعيينه القس الشاعر محررا لجازيته ميلان ، واستاذا للآداب البحته فى « السكولا بالاتينا » ورحب باريني بالثورة الفرنسية ، وكافأه نابليون بعضوية مجلس مدينة ميلان . والقصائد الغنائية التى نظمها بين ١٧٥٧ و ١٧٩٥ تعد من عيون الأدب الايطالى الصغيرة . ولايصلنا بالترجمة إلا صوت خافت منه ، كما نسمعه فى هذه السوتينته التى توحى بأن كاتبها عاشق لا قسيس :

إيه أيها الكرى الرحيم ، يامن تشق بجناحك الرقيق
طريقك الهادىء متعجلا فى الليل البهيم
وتتراءى بالأحلام الكثيرة السريعة
للنفس المضناة على فراشها الساكن :
اذهب إلى حيث تضع « فيليس » رأسها اللطيف
وخدها النضر على الوسادة الهادئة ،
وبينما يرقد جسدها روع روحها
برؤيا جسم كئيب خلقته بسحرك ،
وليكن شديد الشبه بى ،
شوه الشحوب وجهه ،
حتى تستيقظ وقد هزها الحنان على .

إنك لو تفضلت على بهذا الصنيـع
لجدلت لك إكليلا مزدوجا من الزهر
ووضعته فى سكون على مذبحك (٨٨)

ولنضف إلى هذه الباقة من الزهر زهرةمن التنوير الإيطالى هى فقرةمن كتاب جايتانو فيلانجييرى « على التشريع » La scienza della Legislazione (١٧٨٠ — ٨٥) ، استوحاها من بكاريا وفولتير .

« ماينبغى أن يكون الفيلسوف مخترعاً للمذاهب بل رسولا للحقيقة ، ومادامت الشرور التى ابتليت بها البشرية قائمة بغير شفاء ، ومادام مسموحاً للخطأ والتحيز بأن يخلدا هذه الشرور ، ومادامت الحقيقة مقصورة على القلة وعلى المميزين ، محجوبة عن معظم النوع الإنسانى وعن الملوك ، فسيظل واجب الفيلسوف أن يبشر بالحقيقة ، وأن يحافظ عليها ويشجعها ، وينيرها . وحتى إذا كانت الأضواء التى ينشرها لا تفيد فى جيله وقومه ، فإنها لاشك ستفيد فى بلد وجيل آخرين . فالفيلسوف — ذلك المواطن فى كل مكان وزمان — أمامه الدنيا كلها وطناً ، والأرض مدرسة ، والأجيال القادمة تلاميذ . » (٨٩)

وقد لخص العهد كله فى الفييرى : فالانتقاض على الخرافة ، وتمجيد الأبطال الوثنيين ، والتنديد بالاستبداد ، والاشادة بالثورة الفرنسية ، والنفور من شططها والصيحة المطالبة بتحرير إيطاليا — كل هذا مضافاً إلى قصة غرام حرام ووفاء نبيل . وقد سجل هذه الحياة المشبوهة فى « حياة فيتوريو الفييرى . . . مكتوبة بقلمه ، موصولة إلى ماقبل موته بخمسة أشهر . وهى من أعظم التراجم الذاتية ، لا تقل كشفاً عن نفس صاحبها عن « اعترافات » روسو . ويستهلها بعبارة يلقى القارىء أمامها السلاح : « إن حديث المرء عن نفسه ، وأكثر منه الكتابة عن نفسه — إنما هو دون أدنى شك وليد المحبة الفائقة التى يحبها المرء لذاته ، وبعدها لا يتوارى الكاتب خلف قناع من التواضع ولا تند عنه أمارة على عدم الأمانة :

« ولدت فى مدينة أستى بييدمونت فى ١٧ يناير ١٧٤٩ لأبوين شريفين ثريين محترمين . وأنا أذكر هذه الظروف على أنها ظروف سعيدة للأسباب التالية . فقد خدمنى شرف المولد خدمة كبرى ، . . لأنه مكننى من أن أذم النبالة لذاتها دون أن أتهم بالدوافع الدنيئة أو بدافع الحسد ، وأن أميط اللثام عن حماقاتها ، ورذائلها ، وجرائمها . . . أما الثراء فعصمنى من قبول الرشوة ، وأطلق حريتى فى خدمة الحق دون سواه » [٩٠] .

ومات أبوه وهو طفل ، وتزوجت أمه ثانية . وانطوى الغلام على نفسه ، وأطال التفكير ، وفكر فى الانتحار فى الثامنة ولكنه لم يهتد إلى أى طريقة مريحة . وتكفل به خال له وأرسله وهو فى التاسعة ليتلقى العلم فى أكاديمية تورين . وهناك تولى خادم خاص خدمته والسيطرة عليه بالعنف . وحاول معلموه أن يحطموا إرادته كأول مرحلة فى تنشئته رجلا ، ولكن طغيانهم ألهب كبرياءه وشوقه إلى الحرية « إن درس الفلسفة . . . كان من النوع الذى ينوم الطالب وهو واقف منتصباً » [٩١] . على أن موت خاله تركه المتصرف فى ثروة عريضة وهو بعد فى الرابعة عشرة .

وبعد أن حصل على موافقة ملك سردينيا التى كانت شرطا للسفر خارج البلاد بدأ فى ١٧٦٦ جولة فى أوربا استغرقت ثلاثة أعوام . ووقع فى غرام نساء شتى ، وعشق الأدب الفرنسى والدستور الإنجليزى . ودمرت قراءته لمونتسكيو وفولتير ورسو لاهوته الموروث ، وبدأت كراهيته للكنيسة الرومانية — مع أنه بالأمس فقط لثم قدم كلمنت الثالث عشر « شيخ لطيف ذو جلال ووقور » . [٩٢] وفى لاهاى شغف حباً بامرأة متزوجة ، فابتسمت ثم انصرفت عنه ، وعاد يفكر فى الانتحار ، وكان العهد عهد فرتر ، والانتحار فكرة شائعة فى الجو . ثم عاد ليكتشف أن الفكرة أشد جاذبية تطلعاً منها تنفيذا ، فرجع إلى بيد مونت ولكنه شقى فى جو ملؤه الخضوع السياسى والدينى شقاء حمله على استئناف أسفاره (١٧٦٩) .

وجاب الآن أرجاء ألمانيا والدنمرك والسويد — حيث أحب الطبيعة كما يقول وأحب الناس وحتى الشتاء . ومنها إلى روسيا ، فاحتقرها لأنه لم ير فى

كاترين الكبرى إلا مجرمة متوجة ، ورفض أن يقدم لها . ولم يسغ بروسية فردريك خبرا من إساغته روسيا ، فهرول إلى هولنده التى انتهجت نهج الجمهورية فى بسالة ، وإلى إنجلتره التى كانت تحاول أن تعلم جورج الثالث أن يخلى بينه وبين شئون الحكم . وقد أغوى زوجة رجل إنجليزى ، وبارز ، وجرح . ثم أصيب بعدوى الزهرى فى أسبانيا [٩٣] ، وعاد إلى تورين للعلاج (١٧٧٢) .

وفى ١٧٧٤ تماثل للشفاء بالقدر الذى أتاح له الدخول فى ثانى مغامراته الغرامية الكبرى ، مع امرأة تكبره بتسع سنين . وتشاجرا ثم افترقا . وأزاحها من أحلامه بكتابة تمثيلية سماها « كليوبطرة » ، وأى شىء أكثر إثارة من عضوية فى حكومة ثلاثية ، وملكة ، ومعركة ، وصل ؟ وأخرجت التمثيلية بتورين فى ١٦ يونيو ١٧٧٥ « وسط تصفيق الاستحسان ليلتين متعاقبتين » ، ثم سحبها لإجراء تعديلات فيها . وأخذ الآن يتحرق شوقاً إلى الشهرة غاية فى النبل والسمو . واعاد الآن قراءة بلوتارخ وعيون الأدب اللاتينى ، ودرس اللاتينية من جديد ليغوص فى مآسى سنيكا ، وفى هذه القراءات وجد موضوعات وأشكالا لدراماته . وعزم على استعادة الأبطال والفضائل القديمة كما استعاد فنكلمان الفن القديم .

وفى غضون هذا (١٧٧٧) كان يكتب رسالته « فى الطغاة » . ولكنها احتوت من التهم الحادة للدولة والكنيسة ما جعله ينكص عن نشرها ، فلم تر النور إلا فى ١٧٨٧ . فقد كانت ملتهبة بغيرة أشبه بالغيرة الدينية :

« ليس الفقر الطاحن . . . ولا عطل الأرقاء الذى تتردى فيه إيطاليا ، كلا ، فما هذه هى الدوافع التى وجهت عقلى إلى الشرف الرفيع الحق ، شرف تجريد قلمى للهجوم على الامبراطوريات الزائفة . ذلك أن الماضار بالها مجهولا ، ظل يسوط ظهرى منذ نعومة أظفارى . . . ان روحى الحرة لن تجد سلاما أو راحة حتى أكتب صفحات قاسية لهدم الطغاة » [٩٤] .

وهذا تعريفه للطغاه :

« كل الذين توسلوا بالقوة أو الحيلة — أو حتى بإرادة الشعب أو النبلاء — إلى القبض التام على أطراف الحكم ويعتقدون أنهم فوق القانون ، أو هم كذلك . . . والطغيان هو الصفة التى يجب أن تنعت بها . . . أى حكومة يستطيع فيها الشخص المنوط بتنفيذ القوانين أن يضعها أو يقضى عليها أو ينتهكها أو يفسرها أو يعرقل سيرها أو يوقفها وهو فى مأمن من العقــاب » (٩٥) .

وعند الفيرى أن الحكومات الأوربية كافة مستبدة باستثناء الجمهورية الهولندية والملكيتين الدستوريتين فى إنجلتره والسويد . وقد أشاد بالجمهورية الرومانية متأثرا فى ذلك بمكيافيللى ، وراوده الأمل فى أن الثورات ستقيم جمهوريات فى أوربا عما قليل . ورأيه أن خير ما يستطيع أى وزير لطاغيه مستبد أن يفعاه هو أن يشجعه على ألوان من الطغيان تبلغ من الشطط ما يسوق الشعب إلى الثورة (٩٦). والثورة فى سنيها الأولى معذورة إذ لجأت إلى العنف. لتمنع عودة الاستبداد إلى الحياة :

« وبما أن الآراء السياسية كالآراء الدينية لا يمكن تغيرها تغييراً كاملا أبدا دون استعمال الكثير من العنف ، لذلك كانت كل حكومة جديدة مضطرة لسوء الحظ إلى أن تعنف إلى حد القسوة ، بل تظلم أحيانا حتى تقنع أو ربما تكره أولئك الذين لا يرغبون فى التجديد ولا يفهمونه ولا يحبونه ولا يرتضونه » (٩٧) .

ومع أن الفيرى نفسه كان نبيلا ، ولقبه الكونت دى كورتيميليا ، فأنه أدان الارستقراطية الوراثية لأنها شكل من أشكال الطغيان أو أداة من أدواته . وأدان بالمثل جميع الأديان المنظمة ذات السلطان . وقد سلم بأن « المسيحية أسهمت بقدر غير قليل فى تلطيف العادات الشائعة بين جميع الناس » ، ولكنه أشار إلى « الكثير من أعمال الوحشية الغبية الجاهلة » التى

ارتكبها الحكام المسيحيون « من قسطنطين إلى شارل الخامس »[٩٨] .
ويمكن القول عموما :

« إن الدين المسيحى يكاد لا يتفق والحرية . . . فالشعب ، ومحكمة التفتيش والمطهر ، والاعتراف ، والزواج الذى لا انفصام له ، ورهبانية الكهنة — هـــذه هى الحلقات الست فى السلسلة المقدسة التى تقيد السلطة الزمنية (الدولة) بقيود أوثق حتى لتزداد على الأيام ثقلا وامتناعا على التحطيم »[٩٩] .

وبلغ من مقت الفييرى للاستبداد أنه نصح باجتناب الخلف أو الزواج اطلاقا فى الدولة المستبدة . وبدلا من أن ينجب أطفالا ، أخرج فى خصوبة إيطاليه مماثلة أربع عشرة مأساة بين ١٧٧٥ ، و ١٧٨٣ ، كلها بالشعر المنثور ، وكلها كلاسيكية بناء وشكلا ، وكلها يشجب الطغيان بسخط خطابى ، ويمجد الحرية باعتبارها أشرف من الحياة . فترى ميوله فى « البازى » مع محاولة المتآمرين الأطاحة بلورنتسو وجوليانودى مديتشى ، وفى « بروتس الأول » و « بروتس الثانى » لم يعف من اللوم تاركوين وقيصر ، وفى « فليبو كان بكل قلبه مع كارلوس ضد ملك أسبانيا ، ولكنه فى « ماريا ستواردا (مارى ستيوارت) وجد فى رؤساء العشائر الاسكتلندية من الطغيان أكثر مما فى الملكة الكاثوليكية . فلما انتقد على اخضاعه التاريخ لفكرته دافع عن نفسه بقوله :

« سيسمع الناس أكثر من لسان خبيث يقول . . . أننى لا أصور شيئاً إلا الطغاة فى صفحات مفرطة الطول لا لطف فيها ، وأن قلمى الدموى المنقوع فى السم يضرب دائماً على نغمة واحدة رتيبة ، وأن ربة شعرى الفظة لا تنهض نساناً من العبودية الشريره ، بل تثير ضحك الكثيرين . ولكن هذه الشكاوى لن تحول روحى عن هدف بمثل هذا السمو ، ولا تعوق فنى مهما كان ضعيفاً غير كفء لتلبية حاجة بهذه الشدة . لا ولن يكون نصيب كلامى أن تبدده الرياح إذا ولد رجال صادقون بعدنا يؤمنون بأن الحرية لا غنى عنها للحياة[١٠٠] » .

وقد أولع بكونتيسة ألبانى ولعا لم يفقه إلا ولعه بالحرية وكانت ابنة جوستاف أدولف - أمير شتولبرج - جديرن فتزجت (١٧٧٣) الأمير تشارلز ادوارد ستيوارت ، المطالب الشاب بعرش بريطانيا ، الذى سمى الآن نفسه كونت ألبانى . وقد انغمس هذا الذى كان فتى أنيقا جداً يوم كان « الأمير الحلو تشارلى » فى الشراب ومصاحبة الخليلات لينسى هزائمه . ولم يعقب هذا الزواج الذى رتبه البلاط الفرنسى ، وكان زواجا شقياً . ويبدو أن الكونتيسة ذاتها لم تكن مبرأة من العيوب . وقد التقى بها الفيبرى فى ١٧٧٧ ، ورثى لها ، ثم أحبها . ولكى يكون قريباً منها ، حراً فى مساعدتها وتتبع تقلبات حظها دون أن يتكبد مشقه الحصول على إذن ملكى لكل خطوة عبر الحدود ، تخلى عن مواطنه بيدمونت ، ونزل عن معظم ثروته وضيعته لأخته ، ثم انتقل إلى فلورنسه ١٧٧٨ . وكان الآن فى التاسعة والعشرين من عمره .

واستجابت الكونتيسه لغرامه برقه وحذر مراعيه كل أصول اللياقة العامة . وفى ١٧٨٠ حين أمست حياتها فى خطر من جراء عنف زوجها السكير ، اعتكفت فى دير ، ثم فى بيت زوج أختها فى روما . كتب الفيبرى يقول « بقيت فى فلورنسه كأنى يتيم مهجور ، وعندها اقتنعت كل الاقتناع اننى بدونها لم أكن أوجد ولو نصف وجود ، لأننى الفيتنى عاجزا كل العجز تقريباً عن القيام بأى عمل جيد[١٠١] » . وما لبث أن ذهب إلى روما ، حيث سمح له برؤية محبوبته بين الحين والحين ، ولكن زوج أختها قاوم جهوده فى الحصول على قرار بابطال زواجها ، مسترشدا فى ذلك برأى القساوسه . (ومن هنا دفاعه الملتوى عن الطلاق « ديللا تيرانيدى[١٠٢] ») . وأخيرا منعه زوج أختها من زيارة الكونتيسه ، فغادر روما ، وحاول أن يرفه عن نفسه بالأسفار والخيل - التى كانت « غرامه الثالث » بعد الفنون و « سيدتى النبيلة » . وفى ١٧٨٤ حصلت على انفصال شرعى ، فانتقلت إلى كولمار فى الالزاس . وهناك لحق بها ألفيبرى ، وبعدها عاشا

فى رباط غير زوجى حتى أتاح لهما موت زوجها أن يتزوجا . وقد كتب ألفييرى عن حبه فى نشوة تذكرنا بما كتبه دانتى فى « الحياة الجديدة » .

« هذا الحب المحموم — الحب الرابع والأخير ، . . كان يختلف عن علاقاتى الغرامية الثلاث السابقة . ففيها لم أجد نفسى منفعلا بأى عاطفة ذهنية توازن وتمتزج بعاطفة القلب . نعم كان هذا الحب أقل عنفاً وحرارة ولكنه كان أكثر استمرارا وأعمق تغلغلا فى الشعور والوجدان . وبلغ من قوة عاطفتى انها . . . سيطرت على كل انفعال وخاطر فى ، ولن تنطفىء فى داخلى أبداً إلا بانطفاء الحياة نفسها . وقد وضح لى . . . اننى وجدت فيها امرأة حقه ، لأنها بدلا من أن تصبح كسائر النساء العاديات عقبة فى طريقى إلى الشهرة الأدبية — امرأة تقدم الاهتمامات النفعية وترخص . . . أفكار المرء — وجدت فيها التشجيع والعزاء والقدوة الحسنة فى كل عمل صالح . وإذ تبينت هذا الكنز الفريد وقدرته حق قدره ، فانى بذلت لها ذاتى باستسلام مطلق . ولا ريب فى أننى لم أكن مخطئا فى هذا ، لأننى الآن وقد مضى على حبى لها أكثر من اثنى عشر عاما . . . يزداد حبى لها كلما ذبلت تلك المفاتن العابرة (وهى ليست نفسها الباقية) بحكم الزمن . ولكن عقلى وقد تركز فيها يسمو ويرق ، ويزداد حسنا كل يوم ، وأما عقلها هى فاننى أجرؤ على القول بأن هذا يصدق عليها ، وأن من حقها أن تستمد منى العون والقوة[١٠٣] .

وبهذا الحافز مضى يكتب المزيد من المآسى ، وبعض الملاهى ، وشيئاً من الشعر بين الحين والحين . وكان قد كتب خمس قصائد غنائية بعنوان America libra . وفى ١٧٨٨ انتقل الحبيبان إلى باريس ، حيث أشرف الفييرى على نشر مطبعة بومارشين فى كيل على الراين لأعماله . وحين سقط الباستيل هلل ألفييرى للثورة وكله حماسة متقدة للحرية وقال أنها فجر عصر أسعد للبشر . ولكن سرعان ما فزز شطط الثورة وسرقها روحاً كان تصورها للحرية أرستقراطياً ، روحاً تطالب بالتحرر من الغوغاء والأغلبيات ومن البابوات والملوك على حد سواء . ففى ١٨ أغطس ١٧٩٢ غادر هو والكونتيسه

باريس بما استطاعا حمله من مقتنياتهما فى مركبتين فأوقفهما عند أبواب المدينة حشد يسألها عن حقهما فى مغادرتها . يقول ألفيرى « قفزت من المركبة بين الغوغاء ، ملوحاً بجوازات سفرى السبعة وأخذت أصيح وأحدث ضجة . . وهو دائماً السبيل إلى التغلب على الفرنسيين[١٠٤] » . وواصلا الرحلة راكبين إلى كاليه وبركسل ، وهناك نمى إليهما أن السلطات الثورية فى باريس أمرت بالقبض على الكونتيسه . فهرعا إلى ايطاليا ، واستقرا فى فلورنسه . وكتب ألفيرى الآن Misogallo مضطرماً بنار الحقد على فرنسا و « حشد عبيدها أبناء السفاح »[١٠٥] .

وفى ١٧٩٩ استولى جيش الثورة الفرنسية على فلورنسه فلجأ ألفيرى والكونتيسه إلى فيللا فى ضاحية حتى رحل الغزاة . وقد أضعفه وأشابه انفعال هذه السنين ، فأعتقد فى ختام ترجمته الذاتيه التى كتبها عام ١٨٠٢ وهو بعد فى الثالثة والخمسين أنه شاخ . وأوصى بكل ممتلكاته للكونتيسه ثم مات بفلورنسه فى ٧ أكتوبر ١٨٠٣ ودفن فى كنيسة سانتا كروتشى . وهناك أقامت له الكونتيسه أثرا ضخما من صنع كانوفا ، وقد مثلت فيه ايطاليا تنوح فوق المقبرة . وقد ضمت إلى حبيبها هناك فى ١٨٢٤ .

وتكرم ايطاليا ألفيرى باعتباره Il Vate d'Italia نبى الأحياء الذى حررها من الأغلال الأجنبية والكنيسية . وكانت دراماته على ما فيها من حدة ورتابة تقدما منشطا خلف وراءه المآسى العاطفية التى كانت تقدم للمسرح الإيطالى قبله . ومن تمثيلياته « فلبيو » و « شاول » و « ميرا » أعدت روح ايطاليا نفسها لماتزينى وجاريبالدى .

ولم يقتصر نشر الطغاة Della tirannide فى الخارج على كيل (١٧٨٧) وباريس ، بل طبع فى ميلانو (١٨٠٠) وغيرها من المدن الايطالية فى ١٨٠٢ و ١٨٠٣ و ١٨٠٥ و ١٨٠٩ و ١٨٤٨ و ١٨٤٩ و ١٨٦٠ ، وأصبح لإيطاليا ما كان لفرنسا وانجلترا وأمريكا كتاب بين « حقوق الانسان » (١٧٩١) . وكان ألفيرى بداية الحركة الرومانسية فى ايطاليا ، بيرونا قبل بيرون ، يبشر بتحرير العقول والدول من أغلالها . وبعده كان لزاما على ايطاليا أن تتحرر .

الفصل الثالث عشر

حركة التنوير فى النمسا

١٧٥٦ — ٩٠

١ — الامبراطورية الجديدة

إذا توخينا الدقة فى التعبير قلنا أن كلمة « النمسا » إنما تدل على أمة ، وقد تدل تجاوزا على الامبراطورية التى تزعمتها النمسا . فمن الناحية الشكلية كانت هذه الامبراطورية حتى عام ١٨٠٦ هى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى انتظمت ألمانيا وبوهيميا وبولنده والمجر وأجزاء من إيطاليا وفرنسا . بيد أن الأهداف القومية أضعفت من الولاء للامبراطورية إلى حد لم يبق معه الآن (١٧٥٦) من هذه الأقطار سوى إمبراطورية نمساوية مجرية تضم النمسا وستيريا وكارنتيا وكارنيولا والتيرول والمجر وبوهيميا ومطرانيات كولونيا وترير وماينز الكاثوليكية ، وأشتاتا متباينة من إيطاليا ، ثم منذ ١٧١٣ الأراضى الواطئة النمساوية — التى كانت أسبانية فيما مضى — وهى على التقريب بلجيكا الحالية .

أما المجر التى كان يسكنها قرابة خمسة ملايين من الأنفس فكان يسودها نظام إقطاع فخور . فأربعة أخماس الأرض يملكه النبلاء المجريون ويفلحه الأقنان ، ولم يقع عبء الضرائب إلا على الفلاحين وأهل المدن الألمان أو الصقالبة . وكانت الامبراطورية الجديدة قد ولدت شرعياً فى ١٦٨٧ ، حين تخلى النبلاء المجريون عن حقهم القديم فى اختيار ملكهم واعترفوا بأباطرة الهابسبورج ملوكا عليهم . ودعت ماريا تريزا كبار النبلاء المجريين إلى بلاطها متبعة استراتيجية البوربون ، وأعطتهم المناصب والألقاب والأنواط ، وهدأتهم حتى قبلوا القانون الإمبراطورى قانوناً لأملاكهم وفيينا عاصمة لهم . وكلفت الامبراطورة فى استجابة سمحة لوكاس فون هالد برانت بعمل

تصميمات للمبانى الحكومية فى بودا ؛ وبدىء العمل فى ١٧٦٩ ، ثم جدد فى ١٨٩٤ ، فأعطى العاصمة القديمة بناء من أروع المبانى الملكية فى العالم . وشيد أغنياء النبلاء المجريين القصور الريفية الفخمة على الدانوب أو فى خلواتهم الجبليه منافسين فى ذلك الملكة ؛ فبنى الأمير بال استرهاتى مقراً لأسرته فى ايزنشتات (١٦٦٣—٧٢) وبنى الأمير ميكلوس يوزف استرهاتسى بطراز النهضة على نحو ثلاثين ميلا قاعة استرهاتسى الجديدة (١٧٦٤ — ٦٦) التى ضمت ١٢٦ حجرة للضيوف ، وردهتين كبيرتين للاستقبالات وحفلات الرقص ، ومجموعة غنية من التحف ، وعلى مقربة منها مكتبة بها ٧,٥٠٠ مجلد ومسرح به أربعمائة مقعد . ومن حول القصر حول مستنقع شاسع إلى حدائق زينت بالمغارات والمعابد والتماثيل ، وجهزت بالصوبات وأشجار البرتقال والأرض المخصصة للوحوش والطيور البرية . يقول رحالة فرنسى « هذه القلعة لا يضارعها أى مكان فى فخامتها — ربما باستثناء فرساى » . وإليها أقبل المصورون والمثالون والممثلون والمغنون والعازفون ، وهنا ظل هايدن جيلا كاملا يقود فرقته ويؤلف موسيقاه ويتوق للانطلاق إلى عالم أرحب .

أما بوهيميا — وهو اليوم القسم التشيكى من تشيكوسلوفاكيا — فلم تحظ بمثل هذا التوفيق فى عهد ماريا تريزا . وكانت قد انسحبت من التاريخ بعد حرب الثلاثين وقد حطم روحها القومى حكم أجنبى وعقيدة كاثوليكية فرضت على شعب عرف يوما يان هوس وجيروم البراغى . وعانت الملايين الثمانية التى تسكنها من جراح الحرب فى الصراع المتكرر الذى دارات رحاه بين بروسيا والنمسا ، وانتقلت عاصمتها التاريخية من يد إلى يد مراراً وتكراراً ، إذا كانت ملكتها الغربية تنتقل من هزيمة إلى نصر إلى هزيمة . واضطرت بوهيميا إلى أن تقنع باستقلال فى الثقافة والذوق ، فنشأت مؤلفيها الموسيقيين أمثال جيورج بندا ، وتفردت براغ باستقبالها الحار لأول عرض لأوبرا موتسارت « دون جوفانى » (١٧٨٧) ، التى لم تصب بعد ذلك فى فيينا غير إطراء فاتر كان أشبه بالذم منه بالمديح .

وأما فى الأراضى الواطئة النمساوية فقد كان كفاح النبلاء المحليين

للاحتفاظ بسلطتهم التقليدية أنجح منه فى بوهيميا، وسكيدر أيام « الامبراطور الثائر » الأخيرة . وقد كان لتلك الأقاليم السبعة – باربانت (التى ضمت بروكسل ، وأنتورب ، ولوفان) ، ولكسمبورج ، وفلاندر ، وهاينوت ، ونامور ، وجلدرز – تاريخ عريق جليل ، وكان النبلاء الذين حكموا رعاياهم الملايين الأربعة شديدى الحرص على الامتيازات التى ثبتت لامتحان قرون كثيرة . وعرض المجتمع العصرى أزياءه ، وقامر بمكاسبه ، وشرب أحيانا المياه المعدنية كما شرب الأنبذة فى سبا فى أسقفية ليبج المجاورة . وكان زهرة ذلك المجتمع فى هذا العصر الأمير شارل–جوزف دلين ، الذى وهبته بروكسل للعالم فى ١٧٣٥ . وقد قام على تعليمه عدة آباء من الرؤساء الكاثوليك « لم يؤمن بالله منهم غير واحد » ؛ أما هو نفسه فكان « متديناً أسبوعين »[1] فى هذا البلد المغرق فى الكثلكة . وقد أبلى بلاء حسنا فى حرب السنين السبع وخدم يوزف الثانى مستشارا وصديقاً حميما ، والتحق بالجيش الروسى فى ١٧٨٧ ؛ ثم رافق كاترين الكبرى فى « مسيرتها » إلى القرم ، وبنى لنفسه قصراً ريفياً فاخراً وقاعة للفنون قرب بروكسل ، وكتب أربعة وثلاثين مجلدا من « المنوعات » ؛ وأثار الاعجاب فى النفوس – حتى نفوس الفرنسيين – بطباعه المهذبة ، وأضحك أندية أوربا العالمية الطابع بظرفه وخفة دمه المشربة بالفلسفة . *

هذه الإمبراطورية المعقدة ؛ الممتدة من الكربات إلى الرين ؛ هى التى دانت أربعين سنة لإمرأة من عظيمات نساء التاريخ .

٢ – ماريا تريزا

رأيناها من قبل فى الحرب ، وفيها لم تسلم إلا لفردريك وأبلت فى السياسة الحربية ، وفى اتساع النظرة والحاح الهدف ، وفى الشجاعة تواجه الهزيمة .

(*) « كانت مدام دى لوكزنبى . . . قادرة على الاصغاء ، وهو أمر ليس بالسهولة التى يحسبها الكثيرون ، ولم يعرف أحمق قط كيف يفعله »(٢) .

قال فردريك عنها فى ١٧٥٢ « إذا استثنينا ملكة المجر وملك سرينيا (شارل إيمانويل الأول) الذى انتصرت عبقريته على تعليمه الردىء ، لم نجد فى ملوك أوربا وأمرائها كلهم غير معتوهين مشهورين [٣]. لقد فاقتها فى فن الحكم إلزابث الأولى ملكة إنجلتره من قبلها ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا من بعدها ، ولم يفقها ملكات غير هاتين . وكانت فى رأى فردريك « طموحا محبة للثأر »[٤]. ولكن أكان يتوقع منها ألا تحاول استرجاع سيليزيا التى اغتصبها ؟ أما الأخوان جونكور فرأيا فيها « ذهنا متوسطا جـيداً يرافقه قلب محب ، واحساسا سليما بالواجب ، وقدرات مذهلة على العمل ، وحضورا قويا وجاذبية غير عادية . . . أماً حقيقة لشعبها » [٥] ؛ وكانت غاية فى اللطف مع كل من لم يهاجم امبراطوريتها أو إيمانها ؛ وعلى سبيل المثال نذكر استقبالها الحار لأسرة موتسارت فى ١٧٦٨ [٦] . وكانت أماً فاضلة ، ورسائلها لأبنائها نماذج فى الرقة والمشورة الحكيمة ، ولو استمع إليها يوزف لما مات إنسانا فاشلا ، ولو اتبعت مارى أنطوانيت نصيحتها لكان من الجائز أن يعفى رأسها من الجيلوتين .

لم تكن ماريا تريزا ملكة « مستبدة مستنيرة » . فهى لم تكن مستبدة . وفى رأى فولتير « أنها وطدت ملكها فى جميع القلوب بدماثة طبع وشعبية لم يؤتهما غير قلة من أسلافها ، وقد ألغت المراسم والقيود من بلاطها . . . ولم ترفض مقابلة إنسان ، ولم يبرح شخص حضرتها غير راض » [٧]. ولم تكن قط مستنيرة بالمعنى الذى يقصده فولتير ، فقـد أصدرت المراسيم المتعصبة ضد اليهود والبروتستنت ، وظلت كاثوليكية صادقة إلى النهاية . وشهدت فى هلع تسرب الشكوك الدينية إلى فيينا من لنـدن وباريس ، وحاولت أن تصد هذا التيار بتشديد الرقابة على الكتب والدوريات ، ومنعت تدريس الإنجليزية « لطابع هـذه اللغة الخطر من حيث مبادؤها الدينية والخلقية المفسدة » [٨] .

ومع ذلك لم تنج تماما من تأثير ذلك العداء للاكليروس الذى كان يكنه مستشاروها وابنها . فقد ذكروا لها أن ممتلكات الاكليروس الاقليمية

وغيرها من أسباب الثراء تتزايد بسرعة نتيجة لتلميح الكهنة للمرضى المشرفين على الموت بأن فى استطاعتهم التكفير عن آثامهم واسترضاء الله بالايصاء ببعض الثروة للكنيسة ، فإذا سارت الأمور على هذا المنوال فلا بد أن يأتى قريباً ذلك اليوم الذى تصبح فيه الكنيسة — التى هى فعلا دولة داخل الدولة — سيدة على الحكومة . وكانت أديرة الراهبات والرهبان تتكاثر فتقصى الرجال والنساء عن الحيـــاة الناشطة وتعفى المزيد من الثروة من الضرائب. وكانت الصبايا يغرين بنذر أنفسهن للرهبنة قبل أن يبلغن السن التى يدركن فيها مغزى التكريس مدى الحياة وقد بلغ تسلط الاكليروس على التعليم حدا تشكل معه كل عقل نام على أن يدين بولائه الأعلى للكنيسة لا للدولة . واستسلمت الملكة لهذه الحجج استسلاما حملها على الأمر ببعض الاصلاحات الهامة . فحظرت وجود الكنسيين عند كتابه الوصايا . وانقصت عدد المؤسسات الدينية ، وأمرت بفرض الضرائب على جميع الثروة الدينية . وحرمت النذر للرهبنة قبل سن الحاديه والعشرين . وحظرت الكنائس والاديرة إيواء المجرمين بمقتضى « حق اللجوء » . وأمرت بألا يعترف بأى منشور بابوى فى المملكة النمساوية قبل أن يحصل على تصديق الامبراطورة . وأخضع ديوان التفتيش لاشراف الحكومة، لا بل انه فى الواقع ألغى. وأعيد تنظيم التعليم تحت إدارة جرهارت فان سفيتن (طبيب الملكة) والأب فرانتس راوتنشراوخ ، وأحل العلمانيون محل اليسوعيين فى كثير من كراسى الأساتذة [٩] ، وأخضعت جامعة فيينا للادارة العلمانية وإشراف الدولة ، وروجع المنهاج فيها وفى غيرها بهدف التوسع فى تعليم العلوم والتاريخ [١٠] . وهكذا سبقت الأمبراطورة التقية إلى حد ما الاصلاحات الكنسية التى سيقوم بها ابنها الشكاك .

وكانت مثلا فى الفضيلة فى زمن نافست فيه قصور الدول المسيحية الآستانة فى تعدد الزوجات . ولعل الكنيسة كانت مستخدمة اياها حجة وبرهاناً على فضل التمسك بالعقيدة لولا أن أغسطس الثالث ملك بولنده ولويس الخامس عشر ملك فرنسا وكلاهما كاثوليكى كان أشره العشاق

استكثارا من النساء . ولم تقتد ارستقراطية فيينا بها . فقد فر الكونت اركو إلى سويسره مع خليلته ، وهربت الكونتيسة إسترها تسى إلى فرنسا مع الكونت فون در شولنبورج ، وكان الأمير فون كاونتز يصحب خليلاته فى تلك الفترة فى مركبته ، فلما عاتبته الامبراطورة قال لها « سيدتى ، لقد أتيت لأتحدث عن شئونك لا عن شئونى [11] » ونظرت ماريا تريزا باشمئزاز إلى هذا التحلل ، وأصدرت مراسم قاسية لفرض الوصية السادسة على الشعب ، وأمرت بتطويل تنانير النساء فى أسفلها وقمصانهن فى أعلاها[12]. ونظمت جيشاً من ضباط العفة خولت لهم القبض على أى امرأة يشتبه فى احترافها البغاء ،وشكا كازانوفا من أن « تعصب الأمبراطورة وضيق عقلها جعل الحياة شاقة على الأجانب بوجه خاص [13] » .

ويرجع الفضل فى كثير من نجاحها إلى وزرائها الأكفاء . فقد قبلت ارشادهم وكسبت اخلاصهم . وظل الأمير فون كاونتز منوطا بالشئون الخارجية رغم فشل سياسته فى « قلب الأحلاف » ، وقد أخلص فى خدمة الأمبراطورية أربعين عاماً . وغير لودفج هاوجفتز من الإدارة الداخلية، وأعاد رودلف شوتك تنظيم الاقتصاد ، هؤلاء الرجال الثلاثة أدوا للنمسا ما أداه ريشليو وكولبير من قبل لفرنسا ، والواقع أنهم خلقوا دولة جديدة ، أقوى بمـــا لا يقاس من المملكة المختلة النظام التى ورثتها ماريا تريزا .

بدأ هاوجفتز بإعادة بناء الجيش الإمبراطورى ، وكان يعتقد أن هذا الجيش انهار أمام الانضباط البروسى لأنه كان مؤلفا من وحدات مستقلة يجمعها ويقودها نبلاء شبه مستقلين ، واقترح وأنشأ جيشاً ثابتاً قوامه ١٠٨،٠٠٠ محارب يخضعون لتدريب موحد واشراف مركزى ، ولكى يمول هذا الجيش أوصى بفرض الضرائب على النبلاء والكهنة كما تفرض على العامة ، واحتج النبلاء والكهنة ، وتصدت لهم الأمبراطورة بشجاعة وفرضت عليهم ضريبة ملكية وضريبة دخل . وامتدح فردريك عدوته إدارية كفئاً ، « لقد نظمت ماليتها تنظيما لم يبلغه أسلافها قط ، ولم تقتصر على تعويض

تعويض ما فقدته بالنزول عن أقاليم الملكى بروسيا وسردينيا بالإدارة الحسنة بل أنها زادت من دخلها زيادة كبيرة[١٤] » . وواصل هاوجفتز جهوده لتنسيق القانون ، وتحرير القضاء من تسلط النبلاء ، ولاخضاع أمراء الاقطاع لإشراف الحكومة المركزية . وأذيع فى ١٧٦٨ قوانين موحدة .

وكان شوتلك يجاهد أثناء ذلك ليبث النشاط فى الاقتصاد الخامل. فالصناعة كانت تعرقل مسيرتها الاحتكارات التى حابت النبلاء ، ولوائح النقابات الحرفية التى ظلت سارية حتى ١٧٧٤ ، على أن لنتز كان بها رغم هذا مصانع للصوف تضم ٢٦,٠٠٠ عامل ، وتفوقت فيينا فى صناعة الزجاج والخزف والصينى ، وتصدرت بوهيميا سائر أقطار الامبراطورية فى عمليات التعدين . وكان فى النمسا والمجر مناجم منتجة ، فنى غاليسيا رواسب ملحية كبيرة ، وكانت المجر تستخرج من الذهب كل عام ما قيمته سبعة ملايين جولدن . وحمى شوتلك هذه الصناعات بالرسوم الجمركية ، لأنه كان لزاما أن يتحقق للنمسا ، المشتبكة فى حروب متكررة ، اكتفاء ذاتى فى السلع الضرورية ، فالتجاره الحرة كالديمقراطية ترف لايتأتى إلا فى الأمن والسلام .

ومع ذلك ظلت الامبراطورية زراعية إقطاعية . ذلك أن الامبراطورة شأنها فى ذلك شأن فردريك ، لم تجرؤ وهى تواجه الحرب على المجازفة بالتفسخ الاجتماعى الذى قد يحدث نتيجة لمهاجمة الاشراف الراسخين فى امتيازاتهم . وقد ضربت المثل الطيب بالغاء القنية فى أراضيها ؛ وفرضت على أعيان المجر المتغطرسين مرسوما يخول للفلاح أن يتنقل ويتزوج ويربى أبناءه كما يشاء ، وأن يستأنف أحكام سيده الاقطاعى أمام محكمة المقاطعة[١٥] . على أن طبقة الفلاحين فى المجر وبوهيميا كانت رغم هذه المسكنات فى فقر قريب من فقر فلاحى روسيا . وكانت الطبقة الدنيا فى فيينا تعيش فى فقر تقليدى ، بين القصور الباذخة والأوبرات المتقنة والكنائس الضخمة توزع الأمل على البشر .

وكانت فيينا بادئة فى منافسة باريس وضواحيها فى الأبهة الملكية . فكان قصر شونبرون (الربيع الجميل) الواقع خارج المدينة مباشرة يحوى ٤٩٥ فدانا من الحدائق ، مخططة (١٧٥٣ — ٧٥) على غرار فرساى ، بسياجات شامخة مستقيمة ، ومغارات غريبة وبرك متناسقة ، وتماثيل بديعة من نحت دونر وبيير ومعرض وحوش وحديقة نباتات ، وعلى رابية فى خافية « جلورييت » بناها فى ١٧٧٥ يوهان فون هوهنبرج — مبنى مقنطر معمدفى طراز رومانيسكى خالص . أما قصر شونبرون ذاته ، وهو مجمع ضخم من ١٤٤١ حجرة ، فقد صممه يوهان برنهارت فشر فون أرلاخ فى ١٦٩٥ ، ولكنه ترك ناقصاً فى ١٧٠٥ . فكلفت ماريا تريزا نيكولوباكاسى بتصميمه من جديد ، واستؤنف العمل فيه عام ١٧٤٤ وأكمل عام وفاة الامبراطورة (١٧٨٠) . وكان فى داخله قاعة كبرى طولها ١٤١ قدماً لها سقف روكوكى الطراز رسمة جريجوريو جوليبيامى (١٧٦١) . وكان قصر شونبرون مقراً للبلاط من الربيع إلى الخريف .

وبلغ عدد أفراد الحاشية الآن ٢٤٠٠ . واقتضت رعاية الخيل والمركبات استخدام مائتين وخمسين سائسا وخادما . وبلغت جملة نفقة صيانة القصر وملحقاته ٤،٣٠٠،٠٠٠ جولدن فى العام[١٦] . أما الملكة ذاتها فقد مارست القصد فى النفقة واعتذرت عن بهاء قصرها بضرورته لمراسم الحكم الملكى . وعوضت عن بذخ حاشيتها بسخائها فى أعمال البر . ذكرت مدام دستال فى معرض حديثها عن النمسا بعد جيل « إن عناصر البر هناك تنظم بكثير من الترتيب والسخاء ، فالإحسان الخاص والعام يصرف بروح سامية من العدل . . . وكل شىء فى هذا البلد يحمل طابع حكومة أبوية حكيمة متدينة[١٧] » .

ولم يكد يوجد أثر للتسول رغم فقر الشعب ، وكانت الجرائم قليلة نسبيا . [١٨] ووجد أفراد الشعب مسراتهم البسيطة فى التزاور ، واللقاء والاختلاط فى الميادين ، والابتراد فى البساتين الوارفة الظلال والتمشى فى

طريق البراتر الذى يحفه الشجر ، والتنزه فى الريف ، أو — فى أدنى طبقاتهم — الطرب لمرأى المعارك الضارية تنظم بين حيوانات تتضور جوعا . وأجمل من هذا الرقصات لا سيما المنويت التقليدية ، ففى هذه الرقصة نادرا ما كان الرجل والمرأة يتلامسان ، فكل حركة تحكمها التقاليد والقاعدة ، وتؤدى بانضباط ورشاقة . أما الموسيقى فكان نصيبها فى حياة فيينا من الكبر بحيث تطالبنا بتناولها فى فصل خاص بها .

وبالقياس إلى هذا كله كان الأدب ضعيفا فجا . فلم يكن للنمسا التى سيطرت عليها المقدسات نصيب فى حركة « شتورم فوند درانج » التى أثارت ألمانيا . ولم تكن ماريا تريزا راعية للعلم ولا للأدب البحت . ولم يكن فى فيينا صالونات أدبية ، ولم يختلط المؤلفون والفنانون والفلاسفة بالنساء والنبلاء والساسة كما فى فرنسا . لقد كان مجتمعا ساكنا ، فيه ما فى أساليب العيش القديمة المحسوبة من سحر وراحة ، أنقذ من ضجيج الثورة وعجيجها ولكن أعوزته فتنة الأفكار المتحدية . وكانت صحف فيينا الخاضعة لرقابة دقيقة عوائق غبية للفكر ، ربما باستثناء « الفيينر تسايتونج » التى أسست فى ١٧٨٠ . أما مسارح فيينا فكان ديدنها الأوبر للارستقراطية والبلاط ، أو الملاهى الغليظة لعامة الشعب . كتب ليوبولد موتسارت يقول إن « شعب فيينا فى جملته لا يشعر بالحب لأى شىء جاد أو معقول ، بل ان أفراده لا يفهمونه . وفى مسارحهم البراهين الوفيرة على أن الهراء المطلق دون غيره هو الذى يرضيهم — كالرقصات والمنوعات المسرحية الخفيفة (البرلسك) والتهريجيات وحيل الأشباح وألاعيب الشيطان » [١٩] . ولكن بابا موتسارت كان قد خيب أمله استقبال فيينا لولده .

هذا الخليط من الممثلين والموسيقيين والعامة والأقنان والبارونات ورجال البلاط والكنيسة حكمته الأمبراطورة العظيمة بسهر الأم واهتمامها الشديد . وكان زوجها فرانسوا اللورينى قد توج إمبراطورا فى ١٧٤٥ ، ولكن مواهبه وجهته إلى التجارة لا الحكم . فنظم الصناعات ، وزود الجيوش النمساوية بالحلل والخيول والسلاح ، وباع الدقيق والعلف لفردريك

بينما كان هذا مشتبكا فى حرب مع النمسا (١٧٥٦) [٢٠]، وترك إدارة الامبراطورية لزوجته . على أنه فى الأمور الزوجية كان يتشبث بحقوقه ، وقد أنجبت له الامبراطورة التى أحبته رغم خياناته ستة عشر طفلا [٢١] . وربتهم فى محبة وصرامة ، وأكثرت من تعنيفهم ، وأعطتهم من جرعات الفضيلة والحكمة ما جعل مارى أنطوانت تبتهج بالفرار إلى فرساى ، أما يوزف فكان يتسلى بالفلسفة . ودبرت الخطط بمهارة لتحصل على مراكز مريحة لأبنائها الآخرين ، فجعلت ابنتها ماريا كارولينا ملكة على نابلى ، وابنها ليوبولد دوقا أكبر لتسكانيا ، وابنها فرديناند حاكما على لمبارديا . وكرست نفسها لاعداد ولدها البكر يوزف للاضطلاع بالتبعات الجسام التى ستخلفها له ، وراقبت فى قلق تطوره أثناء التعليم والزواج ، وزعازع الفلسفة وخطوب الحب ، حتى أتى الوقت الذى رفعته فى نشوة من المحبة والتواضع وهو فى الرابعة والعشرين ليتربع بجوارها على عرش الامبراطورية .

٣ — يوزف فى مرحلة النمو :

١٧٤١ — ٦٥

كانت قد وكلت اليسوعيين بتعليمه ، ولكنها فى سبق لأفكار روسو طلبت أن يعلم كما لو كان يلهو . [٢٢] فلما ناهز الرابعة شكت من أن « ولدى يوزف لا طاقة له على الطاعة » [٢٣] ولا غرو فالطاعة ليست لهوا . ذكر السفير البروسى حين كان يوزف فى السادسة « لقد كون فكرة مغرورة عن منصبه » ولجأت ماريا تريزا إلى التهذيب وفرض التقوى ، ولكن الصبى وجد الطقوس الدينية مملة ، وأنكر الأهمية التى يعلقها الناس على العالم فوق الطبيعى . فحسبه العالم الذى يعيش فيه ويرث جزءا منه . وما لبث أن سئم اتباع العقائد السنية واكتشف ما فى فولتير من فتنة . وفيما عدا ذلك لم يكن يهتم اهتماما يذكر بالأدب ، ولكنه شغف بالعلوم والاقتصاد والتاريخ والقانون الدولى . ولم يتخلص قط مع الزمن من غطرسة صباه

وكبريائه ، ولكنه ترعرع وأصبح فتى وسيما يقظا لم تباعد أخطاؤه بعد بينه وبين أمه . فكان فى أسفاره يكتب لها رسائل تفيض رقة بنوية حارة .

فلما بلغ العشرين عين عضوا فى مجلس الدولة (شتاتسرات) . ولم يلبث (١٧٦١) أن وضع ورقة تحمل أفكاره فى الاصلاح السياسى والدينى وقدمها إلى أمه ، وظلت هذه الأفكار جوهر سياساته إلى نهاية حياته . وقد أشار على الامبراطورة بأن تنشر التسامح الدينى فى ربوع مملكتها ، وتقلص سلطة الكنيسة ، وتخفف عن الفلاحين أعباء الاقطاع ، وتسمح بحرية أكبر فى انتقال السلع والأفكار . [٢٤] وطلب إليها أن تقلل من نفقة البلاط ومواسمه ، وتزيد من نفقة الجيش . وقال إن على كل عضو فى الحكومة أن يعمل ليستحق راتبه ، وان من الواجب فرض الضرائب على الاشراف شأنهم شأن سائر الشعب . [٢٥]

وكان أثناء ذلك يتعلم جانبا آخر من الحياة . ذلك أن لويس الخامس عشر كان قد عرض حفيدته ايزابللا البارسية عروسا تصلح للدوق الأكبر ، كجزء من اتفاق عكس الاحلاف . وبدا أن الحظ حالف يوزف : فايزابللا فتاة فى الثامنة عشرة جميلة ذات خلق طيب باستثناء ميلها للاكتئاب . وفى ١٧٦٠ جاءت عبر الألب فى قافلة يجرها ثلاثمائة جواد . واحتفل بالزفاف فى مهرجان باذخ ، وسعد يوزف بأن يجد بين ذراعيه مخلوقا بهذا الحسن . ولكن ايزابللا كانت عميقة الإيمان باللاهوت الذى تلقته ، ولم تجد لذة فى كل الهبات التى حبتها بها الحياة ، بل تاقت إلى الموت . كتبت إلى أختها فى ١٧٦٣ تقول « أن الموت رحيم ، ولم أفكر فيه يوما أكثر مما أفكر فيه الآن . وكل شىء يوقظ فى الرغبة فى أن أموت سريعا . علم الله كيف أتمنى أن أترك حياة تهينه تعالى كل يوم . . ولو كان مسموحا للمرء أن يقتل نفسه لما ترددت فى ذلك . » [٢٦] وفى نوفمبر ١٧٦٣ أصيبت بالجدرى ، ولم يبد منها أى تشجيع للأطباء الذين حاولوا شفاءها ، فما انقضت خمسة أيام حتى ودعت الحياة . أما يوزف الذى أحبها حبا عميقا فلم يفق قط من هذه اللطمة :

وبعد شهور أخذه أبوه إلى فرانكفورت — على — المين ليتوج ملكا على الرومان — وهى الخطوة التقليدية إلى العرش الامبراطورى . وهناك انتخب فى ٢٦ مارس ١٧٦٤ (وكان الشاب جوته بين الجمع الحاضر) ، وفى ٣ أبريل توج . ولم يستمتع بالمراسم المطوله ، والخدمات الدينية ، والخطب ، وشكا فى خطاب لأمه من « الهراء والحماقات البالية التى كان لزاما علينا أن نستمع إليها طول اليوم . انه يقتضينى جهودا جبارة أن أمنع نفسى من مصارحة هؤلاء السادة بمبلغ ما فى عملهم وكلامهم من بلاهة . » ولم يكف خلال هذا كله عن التفكير فى الزوجة التى فقدها . « على أن أبدو فى غاية الابتهاج رغم ما يعتصر قلبى من ألم . . . اننى أحب الوحدة . . ومع ذلك يجب أن أعيش بين الناس . . وعلى أن أثرثر طوال النهار وأفوه بأحاديث كلها لغو وتفاهة[٢٧] » . ولابد أنه أحسن إخفاء مشاعره ، لأن أخاه ليوبولد قرر أن « ملكنا — ملك الرومان — ساحر دائما ، رائق المزاج دائماً ، مرح ، كيس ، مؤدب ، وهو يكسب جميع القلوب[٢٨] » .

فلما عاد إلى فيينا أبلغ بضرورة زواجه ثانية ، ذلك أن استمرار الحكومة المنتظم اقتضى فيما يبدو استمرار أسرة هابسبورج . واختار كاونتز زوجة له هى يوزيفا البافاريه ، لأن كاونتز كان يأمل أن يضيف بافاريا إلى ملك النمسا . ووقع يوزف مشروع الزواج الذى وضعه له كاونتز ، وبعث به ، وكتب إلى دوق بارما (والد ايزابيلا) وصفا ليوزيفا قال فيه « إنها مخلوق صغير قصيرة بدينة ، تجردت من سحر الشباب ، على وجهها دمامل وبقع حمراء وأسنان منفرة . . فاحكم بنفسك ماكلفنى هذا القرار . ألا رفقاً بى ، ولا يفتر حبك لابن لك قد دفن فى قلبه إلى الأبد صورة معبودته رغم أن له زوجة ثانية »[٢٩] . وقد زف يوزف إلى يوزيفا فى بواكير عام ١٧٦٥ . وحاولت أن تكون له زوجة صالحة ، ولكنه زهد فيها سرا وعلانية . وقاست فى صمت ، ثم ماتت بالجدرى فى ١٧٦٧ . ورفض يوزف أن يتزوج مرة أخرى . وكرس الآن مابقى من حياته للحكم وفيه مزيج محزن من الفتور والاخلاص ، من المثالية والغرور .

٤ — الأم وولدها (١٧٦٥ — ٨٠)

ظلت ماريا تريزا فترة محطمة الجسد والعقل بعد موت الأمبراطور فرانسو الأول (١٨ أغسطس ١٧٦٥) . وشاركت خليلته الحزن عليه ، وقالت لها : « ياعزيزتى الأميرة ، لقد فقدنا كلتانا الكثير » . [٣٠] وقصت شعرها ، وتصدقت بصيوانثيابها ، ونبذت كل أنواع الحلى ولبست السواد إلى يوم مماتها . وسلمت شئون الحكم ليوزف ورددت حديث الإعتكاف فى أحد الأديرة . على أنها عادت إلى الحياة العامة لخشيتها من أن يكون وريثها الطائش غير كفء للحكم ؛ ثم وقعت فى ١٧ نوفبر إعلانا رسمياً بالمشاركة فى الحكم . واحتفظت بالسلطة العليا فى الشئون الداخلية للنمسا والمجر وبوهيميا ؛ أما يوزف فتقرر باعتباره إمبراطورا أن يناط به الشئون الخارجية والجيش ؛ ثم الإدارة والمالية بسلطة أقل ؛ ولكنه فى الشئون الخارجية قبل إرشاد ،كاونتز ، وفى جميع الميادين خضعت قرارته لمراجعة الامبراطورة . وقد خفف احترامه وحبه لأمه من حـــدة شغفه بالسلطة . فلما أشرفت على الموت تقريباً بالجدرى فى ١٧٦٧ لزم سريرها إلا نادراً ؛ وأذهل الحاشية بعمق قلقه وحزنه . وأخيراً أقنعت هذه الهجمات الثلاث التى أصاب بها المرض الأسرة المالكة الأطباء النمساويين بإدخال التطعيم ضد الجدرى .

وأقلق الإبن المحب أمه بالحاح أفكارة المطالبة بالإصلاح . فنى نوفمبر ١٧٦٥ أرسل إلى مجلس الدولة مذكرة لابد أنها أفزعت قراءها :

« رغبة فى الاحتفاظ بالمزيد من كفاءة الرجالالقادرين على خدمة الدولة سأصدر أمراً — مهما قال البابا وجميع الرهبان فى العالم— يحرم انقطاع أىمن رعاياى للعمل الكنسى قبل . . . سن الخامسة والعشرين . فالعواقب الوخيمة — للجنسيين — التى كثيرا ماتنجم عن النذور المبكرة خليق بها أن تقنعنا بنفع هذا الترتيب ، فضلا عن المبررات المتصلة بالدولة .

« وينبغى أن يكون التسامح الدينى والرقابة المعتدلة على المطبوعات ،

والكف عن المحاكمة على الأخلاق وعن التجسس فى خصائص الناس — ينبغى أن يكون هذا كله من مبادىء الحكم الأساسية . إن الدين والأخلاق هما ولا شك من بين أهداف الملك الرئيسية » . ولكن غيرته يجب ألا تتجاوز الحد إلى عقاب الأجانب وتحويلهم عن دينهم . فالعنف لا جدوى منه فى مسائل الدين والأخلاق ، إنما الحاجة إلى الاقناع . أما عن الرقابة فينبغى أن نكون شديدى التنبه لما يكتب ويباع ولكن تفتيش جيوب الناس وحقائبهم لاسيما الأجانب إجراء متطرف فى الغيرة . ومن اليسير أن نثبت أن كل كتاب محرم يوجد الآن فى فيينا رغم الرقابة الصارمة على المطبوعات الآن ، وفى وسع أى إنسان يغريه هذا التحريم أن يشتريه بمثلى ثمنه . .

« ويجب دفع الصناعة والتجارة قدماً بحظر جميع البضائع الأجنبية فيما عدا التوابل ، وبإلغاء الاحتكارات ، وإنشاء مدارس تجارية ، وبالقضاء على الوهم الذى يزعم أن الاشتغال بالتجارة لايتفق مع النبالة .

وينبغى تقرير حرية الزواج ، حتى ماندعوه الآن بالزواج غير المتكافىء . فلا القانون الإلهى ولا الطبيعى يحرمه . فالتحيز وحده هو الذى يوهمنا بأننى أعظم قدراً لأن جدى كان كونتاً ، أو لأننى أملك رقاً وقع عليه شارل الخامس . أننا لانرث من آبائنا غير الوجود البدنى ، إذن فالملك أو الكونت أو البورجوازى أو الفلاح كلهم سواء[31] » .

ولابد أن ماريا تريزا ومستشاريها قد شموا ريح فولتير أو « الموسوعة » فى هذه المقترحات . وكان على الأمبراطور الشاب أن يسير الهوينا ، ولكنه تقدم . فنقل إلى الخزانة عشرين مليون جولدن — نقداً وسندات وأملاكا — خلفها له أبوه فى وصيته ، ثم غير الدين القومى بفائدة أربعة فى المائة بدلا من ستة . وباع أراضى الصيد والقنص التى كانت للأمبراطور المتوفى ، وأمر بذبح الخنازير البرية التى كانت هدفا للصيادين وأداة تدمير لمحاصيل الفلاحين . وفتح البراتر وغيره من البساتين للشعب رغم احتجاجات النبلاء ولكن بموافقة أمه[32] .

وفى ١٧٦٩ صدم الإمبراطورة والبلاط بذهابه إلى نايسى فى سيليزيا وقضائه ثلاثة أيام (٢٥ — ٢٧ أغسطس) فى مناقشات ودية مع فردريك الأكبر أعدى أعداء النمسا . وكان قد أخذ عن ملك بروسيا فكرة الملك « الخادم الأول للدولة » . وأعجب باخضاع فردريك الكنيسة للدولة ، والتسامح مع شتى المذاهب والديانات ، وحسد بروسيا على تنظيمها العسكرى واصلاح شرائعها . وقد شعر كلا الرجلين أن الوقت حان لإغراق خلافاتهما فى اتفاق وقائى ضد قوة روسيا الصاعدة . وكتب يوزف لأمه يقول « بعد العشاء . . . دخنا ودار حديثنا حول فولتير[٣٣] » ولم يكون الملك البالغ من العمر آنئذ سبعة وخمسين عاما فكرة طيبة عن الإمبراطور ذى الثمانية والعشرين . كتب يقول « لقد اتخذ الملك الشاب مظهر الصراحة الذى ناسبه تماما . . . انه رغب فى أن يتعلم ، ولكنه لم يؤت من الصبر ما يتيح له أن يعلم نفسه ، ومنصبه الرفيع يجعله سطحيا والطمع الذى لا حد له ينهش قلبه . . وله من الذوق ما يكفى لقراءة فولتير وتقدير مزاياه[٣٤] .

وقد حمل النجاح المنذر بالخطر ، الذى حققته كاترين الثانية فى روسيا ، كاونتز على ترتيب اجتماع ثان مع فردريك . والتقى الملك والإمبراطور والأمير فى نويشتات بمورافيا فى ٣ - ٧ سبتمبر ١٧٧٠ . ولابد أن يوزف تطور تطورا كبيرا خلال ذلك العام ، لأن فردريك كتب الآن إلى فولتير يقول « أن الإمبراطور الذى نشيء فى بلاط متعصب قد نبذ الخرافة ، واتخذ العادات البسيطة رغم أنه ربى فى جو مترف . وهو متواضع رغم ما يحرق له من بخور ، وهو مع شوقه للعظمة والمجد يضحى بأطماعه فى سبيل واجبه البنوى[٣٥] .

وكان هذان اللقاءان جزءا من تربية يوزف السياسية . وقد أضاف إليها بزيارة ممتلكاته وفحصه مشكلاتها وامكاناتها بنفسة . ولم يزرها بوصفه إمبراطورا بل مسافرا من عامة الناس يركب جوادا . وتجنب

المراسم ونزل فى الفنادق بدلا من قصور الريف . وحين زار المجر فى ١٧٦٤ و ١٧٦٨ لاحظ فقر الأقنان المدقع وصعق حين رأى فى أحد الحقول جثث أطفال ماتو جوعا . وفى ١٧٧١ — ٧٢ رأى مثل هذا فى بوهيميا ومورافيا وكان حيثما ذهب يسمع أنباء أو يشهد الأدلة على وخشية الاقطاعيين وجوع الاقنان . وكتب يقول « إن الموقف الداخلى لايصدق ولا يوصف ، أنه يفطر القلوب[٣٦] » . فلما عاد إلى فيينا سخط على التحسينات التافهة التى ينويها مستشارو الأمبراطورة فقال « ان الاصلاحات الصغيرة لن تجدى فتيلا ، إذ لابد من تغيير الكل » . واقترح البدء بالاستيلاء على بعض الأراضى الكنسية فى بوهيميا ليبنى فوقها مدارس وملاجىء ومستشفيات . وبعد نقاش طويل اقنع المجلس بأن يصدر (١٧٧٤) قانونا ميسرا يقلل وينظم حجم تشغيل الأقنان (الذى كان البوهيميون يسمونه روبوتا) الواجب عليهم للسيد الاقطاعى وقاوم اقطاعيو بوهيميا والمجر ، وهب الاقنان البوهيميون فى ثورة غير منظمة ، فأخضعتهم قوات الجيش . ولامت ماريا تريزا ابنها على هذه الضجة الكبرى فكتبت لعاملها فى باريس مرسى دارجنتو :

« ان الأمبراطور الذى يسرف فى شعبيته قد أفرط فى الحديث خلال رحلاته المختلفة . . . حول الحرية الدينية وتحرير الفلاحين . وقد أحدث هذا كله الاضطراب فى جميع ولاياتنا الألمانية . . . فليس الفلاح البوهيمى وحده هو الذى يخشى منه ، بل المورافى والستيرى والنمسوى أيضاً ، لا بل أنهم فى قسمنا يجرؤن على التمادى فى أشد الوقاحات[٣٧] » .

وزاد توتر العلاقات بين الابن والأم (١٧٧٢) حين انضم يوزف إلى فردريك وكاترين الثانية فى التقسيم الأول لبولنده . فاحتجت على اغتصاب أمة صديقة وكاثوليكية . وبكت حين أقنعها يوزف وكاونتز بعد إلحاح باضافة توقيعها إلى الاتفاق الذى أعطى شطراً من بولنده للنمسا . وقد علق فردريك بخبث « أنها تبكى ، ولكنها تأخذ[٣٨] » . على أنها كانت مخلصة فى أسفها كما نرى من خطابها لولدها فرديناند « كم من مرة جاهدت لاتجنب اشتراكى فى عمل يلوث ملكى

كله ؟ ليت الله يمنحنى الاعفاء من تبعته فى عالم آخر . إنه يثقل قلبى ، ويعذب ذهنى ، ويشيع المرارة فى أيامى[٣٩] .

وقد تأملت خلق ولدها فى خوف ومحبة . « انه يحب الاحترام والطاعة ، ، ويرى المعارضة شيئاً كريها لايكاد يحتمل . . . وكثيرا ما يكون غير مراع لشعور الآخرين . . . وحيويته الكبيرة المتزايدة تفضى إلى رغبة عاتية فى أن ينال ما يريد بكل دقائقه . . . أن لولدى قلباطيبا . ومرة أنبته بمرارة :

« حين أموت أخادع نفسى بأننى سأظل حية فى قلبك ، بحيث لاتخسر الأسرة والدولة بموتى . . . أن تقليدك (لفردريك) ليس بالأمر السار . فهذا البطل . . . « هذا الفاتح — أله صديق واحد ؟ . . . أية حياة هذه التى تنعدم فيها الإنسانية . أياكانت مواهبك فليس ممكنا أن تكون جربت كل شىء . حذار من الوقوع فى خطيئة الحقد ؟ ان قلبك ليس شريرا إلى الآن ، ولكنه سيكون كذلك . لقد حان الوقت للكف عن التلذذ بكل هذه الملاحظات الظريفة ، هذه الأحاديث الذكية البارعة التى لا هدف لها إلا السخرية من الغير . . . إنك عابث تتظاهر بالعقلانية وأنت فى الواقع لست إلا مقلدا عديم التفكير حين تحسب نفسك مفكرا مستقلا[٤٠] » .

وكشف يوزف عن جانبه من الموقف فى خطاب إلى ليوبولد :

« لقد بلغت شكوكنا وعدم ثقتنا هنا قمة لاتستطيع تخيلها . فالواجبات تتراكم كل يوم ولاشىء يعمل . وأنا أكدح كل يوم حتى الخامسة أو السادسة لايتخلل ذلك غير ربع ساعة أتناول فيها الطعام وحيداً ، ومع ذلك لاشىء يحدث . فان أسباباً تافهة ، ودسائس طالما كنت ضحيتها تسد الطريق ، وكل شىء أثناء ذلك يذهب إلى الشيطان. انى أهديك منصبى بوصفى الابن البكر[٤١] » .

وقد احتقر الرجال الذين شاخوا فى خدمة أمه . ولم يؤيده غير كاونتز ، ولكن فى حذر يغيظة .

وأما الأمبراطورة المسنة فقد استمعت إلى أفكار ابنها الثورية فى ذعر. وصارحته برأيها :

« إن أهم مبادئك الأساسية هى : ١ — إطلاق الحرية فى ممارسة الدين، وهو ما لا يستطيع ملك أو أمير كاثوليكى السماح به دون أن يتحمل تبعة ثقيلة. ٢ — القضاء على طبقة النبلاء بانهاء القنيه . . . ٣ — الدفاع عن الحرية فى كل شىء وهو مبدأ يتردد كثيرا جدا . . . اننى بلغت من الشيخوخة حداً لا أستطيع معه تقبل أفكار كهذه . وأسأل الله ألا يجربها خلفى أبداً . أن التسامح الدينى . وعدم الاكتراث واللامبالاه هما بالضبط أداة تقويض كل شىء . فاذا لم يوجد دين غالب فأى ضابط يكبح الجماح ؟ لا ضابط ولا المشنقة ولا دولاب التعذيب . . إننى أتكلم سياسياً لا كمسيحية . فما من شىء ألزم وأنفع من الدين . أتريد السماح لكل إنسان بأن يسلك على هواه ؟ وإذا لم يكن هناك عادة ثابتة ، وخضوع للكنسية ، فأين ترانا نكون ؟ ستكون النتيجة قانون القوة . . . ليس لى من أمنية إلا أن أسطيع حين أموت الانضمام إلى أسلافى متعرية بأن ابنى سيكون عظيما تقيا كأجداده ، وأنه سيقلع عن حججه الباطلة ،وعن الكتب الشريرة ، وعن الاتصال بأولئك الذين أغووا روحه على حساب كل شىء ثمين مقدس ، لا لشىء إلا لاقامة حرية موهومة لا يمكن . . أن تفضى لغير الخراب الشامل [٤٢] » .

ولكن إذا كان ثمة شىء يتوق إليه يوزف فهو حرية الدين . ربما لم يكن ملحداً كما خاله بعضهم[٤٣] ، ولكنه كان قد تأثر تأثرا عميقاً بأدب فرنسا . وكانت جماعة من رجال الفكر النمساويين قد ألفت فعلا فى ١٧٧٢ حزب التنوير [٤٤] . وفى ١٧٧٢ نشر جورجى بيسينيى المجرى فى فيينا مسرحية تردد أفكار فولتير ، وقد قبل الدخول فى الكاثوليكية ارضاء لماريا تريزا ، ولكنه ارتد إلى العقلانية بعد موتها[٤٥] . ولا ريب أن يوزف كان على علم بهذا الكتاب المشهور المسمى « الوضع الكنسى والقانونى لبابا روما » (١٧٦٣) ، الذى أكد فيه أسقف كاثوليكى بارز تخفى تحت اسم فيرونيوس ، من جديد سمو المجامع

العامة على البابوات ، وحق كل كنيسة قومية فى أن تحكم نفسها . ورأى الأمبراطور الشاب فى ثروة الكنيسة النمساوية الموطدة الأركان عقبة كؤوداً فى طريق التطور الاقتصادى ، وفى سيطرة الكنيسة على التعليم ، المعوق الأكبر لنضج العقل النمساوى . وفى يناير ١٧٧٠ كتب إلى شوازيل :

« أما عن خطتك للتخلص من اليسوعيين فأنا موافق عليها موافقة تامة... ولا تسرف فى الاعتماد على أمى ، فان التعلق الوثيق باليسوعيين صفة موروثة فى أسرة الهابسبورج . . . على أن لك صديقا فى كاونتز ، وهو ينفذ مايشاء مع الأمبراطورة[٤٦] » .

ويبدو أن يوزف استعمل نفوذه فى روما ليوصل كلمنت الرابع عشر إلى الخطوة النهائية ، وقد أبهجه إلغاء البابا للطائفه ١٧٧٣ [٤٧] .

ولو عرفت ماريا تريزا من خطابات ولدها مبلغ انحرافه إلى معسكر « الفلاسفة » لصعقت . لقد بذلت قصاراها لتمنع حل جمعية اليسوعيين ، ولكن كاونتز أقنعها بالامتثال لرأى سائر الدول الكاثوليكية . كتبت إلى صديقة لها تقول « انى مغمومة يائسة لما أصاب اليسوعيين . لقد أحببتهم وأكرمتهم طوال حياتى ، ولم أر قط فيهم غير كل شىء بناء للروح[٤٨] » . وقد عطلت تنفيذ الأمر البابوى بتعيين لجنة لدراسته . وأتيح لليسوعيين النمساويين الوقت لنقل أموالهم ومقتنياتهم الغالية وأوراقهم من البلد . وصودرت أملاك اليسوعيين ، ولكن الأمبراطورة حرصت على أن يتلقى أعضاء الطائفة المعاشات والثياب وشتى العطايا .

ووسع اغتباط يوزف الواضح بحل جماعة اليسوعيين الهوة بين الأم وولدها . ففى ديسمبر ١٧٧٣ انهار تحت وطأة التوتر وتوسل إليها أن تعفيه من كل مشاركة فى شئون الحكم . وأفزعها اقتراح مذهل كهذا ، وكتبت إليه نداء مؤثرا للمصالحة :

« يجب أن أعترف بأن قدراتى ، ووجهى ، وسمعى ، وحذقى — كلها

تتدهو سريعا وبأن الضعف الذى ارتعت منه طوال حياتى — وهو التردد فى اتخاذ القرارات — يرافقه الآن، تثبيط الهمة والافتقار إلى الخدام الأوفياء فالجفوة منك ومن كاونتز وموت مستشارى المخلصين، والمزوق عن الدين، وتدهور الأخلاق ، والرطانة التى تجرى على كل لسان ، والتى لا أفهمها — كل هذا يكفى لسحقى . انى أقدم لك كامل ثقتى ، وأسألك أن تنبهنى لأى خطأ ارتكبه . . أعن أما . . . تعيش فى وحدة ، وسيقضى عابها أن ترى كل جهودها وأحزانهـا ذهبت أدراج الرياح . قل لى ما تريد أفعله لك [٤٩] » :

وتصالح معها ، ووافقت المرأة التى حاربت يوما فردريك وأوقفت تقدمه ، مؤقتا على أن تتعاون مع تلميذ فردريك المعجب به . واستخدما معا ثروة اليسوعين المصادرة فى الاصلاح التعليمى . وفى ١٧٧٤ أصدرا « نظاما عاما للتعليم » أحدث تنظيما جديدا. أساسياً للمدارس الإبتدائية والثانوية . ؤوفرت مدارس متدرجة للتعليم الإلزامى لجميع الأطفال ، وسمحت بدخول البروتستنت واليهود طلابا ومعلمين ، وقدمت لتلاميذها التعليم الدينى فى كل دين . ولكنها وضعت الاشراف فى أيدى موظفين حكوميين . وسرعان ما أصبحت مدارس الشعب Voikschulen هذه تعد خير المدارس فى أوربا . وانشئت مدارس لتدريب المعلمين ، وتخصصت المدارس العليا Hauptschulen فى العلوم والتكنولوجيا ، وعلمت المدارس الثانوية Gymnasien اللاتينية والعلوم الإنسانية ، وخصصت جامعة فيينا إلى حد كبير للقانون والعلوم السياسية والإدارة ، وأدت وظيفة دار الحضانة لموظفى الدولة . واستبدل باشراف الكنيسة على التعليم إشراف من الدولة لايقل عنه صرامة ودقة .

واستمر التعاون بين الأم وولدها فألغى التعذيب (١٧٧٦) . ولكن الاتفاق بينهما حطمته أحداث السنة التالية . ذلك ان يوزف كان ينوى منذ زمن زيارة باريس . لا ليرى «الفلاسفة» ويستدفء فى الصالونات ، بل ليدرس موارد فرنسا وجيشها وحكومتها ، وليرى مارى انطوانيت ،

وليقوى الروابط التى ربطت ربطا واهيا جدا بين الأعداء القدامى فى حلفهما الهش . فلما مات لويس الخامس عشر ، وبدا أن فرنسا على شفا التمزق ، كتب يوزف إلى ليوبولد يقول : « انى قلق على أختى فسيكون عليها أن تلعب دورا شاقاً [٥٠] ». ووصل إلى باريس فى ١٨ ابريل ١٧٧٧ ، وحاول أن يتكتم زيارته فتخفى تحت اسم الكونت فون فلكشتين وأشار على الملكة الشابة المرحة بأن تقلع عن الاسراف والطيش ، وصبغ وجنتيها وشفتيها ، وأصغت إليه فى ضجر . وحاول ولكنه فشل فى كسب لويس السادس عشر إلى حلف سرى لكبح توسع روسيا [٥١] . وتحرك بسرعة فى أرجاء العاصمة و « لم تمضى أيام حتى عرف عنها أكثر مما سيعرف لويس السادس عشر طوال حياته [٥٢] » . وزار الأوتيل ديو ولم يخف دهشته لسوء الإدارة غير الإنسانية لذلك المستشفى . وفتن أهل باريس ، وذعرت حاشية فرساى ، حين وجدت أرفع ملوك أوربا يمشى فى زى مواطن بسيط ، يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها . ويلتقى بجميع الطبقات دون تكلف . أما عن نجوم الأدب فقد التمس أولا لقاء روسو وبوفون . وحضر أمسية عند مدام نكير ، والتقى بجبون ، ومارمونتيل ، والمركيزه دودفان ، ومما يشرفه أن رباطة جأشها وشهرتها أربكتاه أكثر مما أربكها مقامه الرفيع ، فالعمى يسوى بين الناس لأن الشالات يتكون نصفها من الثياب . وحضر جلسة لبرلمان باريس وأخرى للأكاديمية الفرنسية . وأحس الفلاسفة أنهم وجدوا فى النهاية الحاكم المستنير الذى تطلعوا إليه أداة لثورة سلميه . وبعد أن قضى يوزف شهرا فى باريس تركها فى جولة بالأقاليم فسافر شمالا إلى نورمنديه ، ثم على الساحل الغربى إلى بايون ، ثم تولوز ، فونيليه فرسليا ، ثم صعد مع الرين إلى ليون وشرق إلى جنيف . ومر بفرنيه دون أن يزور فولتير ، إذ لم يشأ أن يغضب أمه أو يرتبط جهارا برجل خاله الشعب النمساوى والملك الفرنسى شيطانا مجسما .

وكان حريصا على استرضاء أمه ، لأن عشرة آلاف مورافى هجروا

الكثلكة فى غيبته إلى المذهب البروتستنى ، وكان رد الفعل من جانب ماريا تريزا — أو مجلس الدولة — على هذه الكارثة اتخاذ اجراءات تذكرنا بغارات الفرسان على بيوت الهجونوت أيام لويس الرابع عشر . فقبض على زعماء الحركة وشتتت اجتماعات البروتستنت وجند المتحولون العنيدون فى الجيش وفرضت عليهم الأشغال الشاقة وأرسلت نساؤهم إلى الملاجىء . فلما عاد يوزف إلى فيينا قال لأمه محتجا « أن السبيل لإعادة هؤلاء الناس إلى الكثلكة أن تجعلى منهم جنودا أو ترسليهم إلى المناجم أوتستخدميهم فى الأشغال العامة . . . يجب أن أعلن صراحة . . . أن المسئول عن هذا الأمر ، أياكان ، هو أحقر خدامك ، وهو لايستحق منى غير الازدراء ، لأنه أحمق وقصير النظر [٥٣] » . وأجابت الأمبراطورة بأنها ليست مصدرة هذه المراسيم بل مجلس الدولة ، ولكنها لم تسحبها . وجاء وفد من المورافيين البروتستنت لمقابلة يوزف ، فأمرت ماريا تريزا بالقبض على أفراده . وكانت الأزمة بين الأم وولدها تسير إلى طريق مسدود حتى أقنعها كاونتز بسحب المراسيم . فأوقفت الاضطهادات ، وسمح لمعتنقى البروتستنتيه بممارسة عبادتهم الجديدة شريطة أن يكون ذلك فى هدوء ببيوتهم.. وتوقف صراع الجبابرة برهة .

ثم استؤنف لما مات مكسمليان يوزف ناخب بافاريا فى ٣٠ ديسمبر ١٧٧٧ دون أن يعقب بعد حكم طويل رخى . وفى الصراع على وراثة دولته أيد يوزف الثانى ناخب بالاتين شارل (كارل) تيودور شريطة أن ينزل للنمسا عن جزء من بافاريا ، وأيد فردريك الأكبر شارل دوق تزفا يبروكن ، وأعلن أنه سيقاوم أى محاولة من النمسا لتملك أرض بافاريه . وحذرت الامبراطورة ولدها من تحدى ملك بروسيا الذى لم يزل منيعا لم يقهر بعد . ولكن يوزف تجاهل نصيحتها ، وأيده كاونتز ، وجردت قوة نمساوية على بافاريا . وأمر فردريك جيشه بدخول بوهيميا والاستيلاء على براغ مالم يجل النمساويون عن بافاريا . وقاد يوزف جيشه الرئيسى ليدافع عن براغ ، واقترب الجيشان العدوان ، ولاح أن حربا نمساوية بروسية أخرى وشيكة على سفك

دماء الاخوة . أما فردريك فقد تجنب خوض المعركة منتهكاً بذلك السوابق والتوقعات ، واكتفى باطلاق جنوده على المحاصيل البوهيمية ليأتوا عليها ، وأما يوزف فقد تردد فى الهجوم لعلمه بشهرة فردريك قائدا للجيوش . وكان يأمل أن تخف فرنسا لنجدته ، وأرسل على وجه السرعة نداءات لمارى أنطوانيت . فأرسل له لويس السادس عشر خمسة عشر مليون جنيه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هذا ، لأن فرنسا كانت قد وقعت (٦ فبراير ١٧٧٨) حلفاً من المستعمرات الأمريكية الثائرة ، وكان عليها أن تعد نفسها لخوض حرب مع انجلترة . وأقام يوزف فى معسكره نهبا للغيظ والقلق بينما نهبته البواسير فى طرف ودمل ضخم فى الطرف الآخر .

وهنا قبضت ماريا تريزا على أزمة الأمور فى انتفاضة أخيرة من انتفاضات الإرادة ، وأرسلت إلى فردريك سرا عرضا للصلح (١٢ يوليو) . ووافق فردريك على التفاوض ، وأذعن يوزف لأمه ، وتوسط لويس ملك فرنسا وكاترين قيصرة روسيا فى النزاع . وانتهى الأمر بمعاهدة تشن (١٣ مايو ١٧٧٩) التى عزت يوزف بأربعة وثلاثين ميلا مربعاً من بافاريا ، ولكن شارل تيودور استأثر بكل مابقى من تلك الإمارة الناخبة ، وهكذا توحدت بافاريا وبالاتينات ، واتفق على أن تحصل بروسيا على بايرويت وانسباخ بعد موت حاكمهما الأبتر . وادعى كل فريق أنه المنتصر .

هذه الأزمة الثالثة بين فردريك المسن والإمبراطورة المسنة قضت عليها . وكانت لا تتجاوز الثالثة والستين عام ١٧٨٠ ، ولكنها كانت بدينة مصابة بالربو ، أضعف قلبها حربان وستة عشر حملا فضلا عن الهم القسيم . وفى نوفمبر حاصرها مطر غزير وهى راكبة عربة مكشوفة ، فأصابها سعال خبيث ، ولكنها أصرت على أن تقضى الغد تعمل فى مكتبها . وقد قالت مرة « إننى ألوم نفسى على الوقت الذى أنفقه فى النوم » (٥٤) وقضت أيام مرضها الأخيرة جالسة على كرسى إذ استحال عليها تقريبا أن تتنفس وهى راقدة . واستدعى يوزف أخوته وأخواته إلى جرارها ، وقام على رعايتها فى محبة . وطلق الأطباء كل أمل فى شفائها فارتضت أن تتناول الأسرار الأخيرة . وفى ساعاتها

الأخيرة قامت وتعثرت من كرسيها إلى سريرها . وحاول يوزف أن يريحها فقال « إن جلالتك فى سيئ » . فأجابت « نعم ، ولكنه وضع مناسب للموت فيه . » وماتت فى ٢٩ نوفمبر ١٧٨٠ .

٥ — المستبد المستنير : ١٧٨٠ — ٩٠

بعد أن حزن يوزف حزناً صادقاً على أم أدرك الآن مبلغ عظمتها ، شعر بأنه حر فى أن يكون نفسه ، وأن يبدأ بتنفيذ أفكاره المتفتحة فى الإصلاح . كان الحاكم المطلق للنمسا والمجر وبوهيميا والأراضى الواطئة الجنوبية ، وكان أخوه ليوبولد مطيعاً له فى تسكانيا ، وأخته مارى أنطوانيت معينة له فى فرنسا . وأحس احساسا عميقاً بالفرص التى واتته فى قمة حياته وذروة سلطته .

فأى رجل كان يومئذ ؟ لقد بلغ الأربعين ، ومازال فى ربيع الحياة وكان وسيما جدا حين يغطى رأسه الأصلع بباروكة . وقد وهب عقلا يقظاً نشيطاً نشاط شبه محموم ، متمشياً مع جيله ، ولكن هدأه شيئاً إلمامه بالتاريخ وخلق البشر . وكان دائم الإحساس بشح الوقت ، لذلك لم يخطئ إلا بسبب التسرع والعجلة ، وقلما أخطأ عن سوء قصد . وتروى القصص الكثيرة عن رفاهة حسه بخطوب غيره واستعداده لرفع المظالم التى يمكن رفعها (٥٥) . وقد أباح للشعب الالتقاء به على قدر ماسمحت به واجباته . وكان يعيش عيشة البساطة ويرتدى من الثياب مايرتديه أى جندى ، ويتجنب الظهور فى ثياب الملوك الفاخرة . وكان مبرأ كفردريك من مخالة الخليلات ، ولم يكن له « أصدقاء إغريق » ، وكان عمله غرامه الذى استغرقه . وكان كفردريك يبذل من الجهد فى عمله أكثر مما يبذل أى مساعد له . وكان قد أعد نفسه إعداداً صادقاً أميناً للقيام بتبعاته . فلم يسافر للمتعة والظهور ، بل للملاحظة والدراسة وفحص صناعات الكثير من الاقطار وفنونها وبيوتها الخيرية ومستشفياتها ومحاكمها ومؤسساتها البحرية والحربية ، ، ونظر بعينيه هو إلى شعوب مملكته وطبقاتها ومشكلاتها . فصحت نيته الآن ، على قدر ما وسع رجلا واحداً ،

على تحقيق أحلام الفلاسفة . « مادمت قد ارتقيت العرش ، ولبست أعظم تاج فى العالم ، فقد جعلت الفلسفة المشرع لإمبراطوريتى » (٥٦) ونظر الفلاسفة فى كل أرجاء أوربا إلى المغامرة الخطيرة وكلهم تطلعات صادقة .

وكانت أولى الصعوبات فى اختيار الأعوان الذين يشاركونه حلمه. فأكثر الذين آلوا إليه بالوراثة كانوا من الطبقات العليا التى اختزلت اصلاحاته امتيازاتهم . لقد أيده كاونتز وفان شفيتن ، وشجعه اثنان من المستشارين الخصوصيين — هما كوالتنبورج وجيار واثنان من اساتذة جامعة فييناهما — مارتيني وزوننفيلس — ، ولكن الأعوان الأدنى مرتبة من هؤلاء لم يكونوا سوى بيروقراطيين تجمدوا فى المألوف من العادات، واستراحوا إلى الموروث من التقاليد ، وقاوموا التغيير تلقائياً . وراح يوزف فى عجلة لاتسمح بالمجاملة يعامل هؤلاء الأعوان معاملة الخدم ، ويربكهم بحشد من الأوامر ، ويطلب إليهم إبلاغه عن أى خطأ جسيم يرتكبه مساعدوهم (٥٧)، ويغرقهم بالاستبيانات ويطالبهم بجهد لا يفتر كجهده . ووعدهم هم وأراملهم بمعاشات يستحقونها بعد خدمة عشر سنين ، فشكروه ، وأنكروا أساليبه،وسدروا فى كبريائهم. وأفضت ثقة يوزف بعدالة أهدافه إلى ضيقه بكل نقد أو نقاش . وكتب إلى شوازيل (الذى كان الآن ينعم بالتقاعد) « عش أسعد ما أستطيع إننى لم أكد أعرف السعادة ، وسوف أشيخ قبل أن أكمل الطريق الذى رسمته لنفسى » (٥٨). ولكن أجله قصر عن أن يدرك سن الشيخوخة .

وقد نبذ كل تفكير فى الديمقراطية ، فقد أحس أن أفراد شعبه غير مستعدين لإصدار الحكم الصائب فى السياسة ،وأنهم باستثناءات قليلة سيعتنقون أى آراء يتسلمونها من سادتهم أو كهنتهم . وحتى الملكية الدستورية بدت له غير مبشرة بخير ؛ فبرلمان كالبرلمان الانجليزى سيكون مجتمعاً مغلقاً من كبار ملاك الأرض والأساقفة الذين يتحدون أى تغيير جذرى . وكان من المسلمات فى رأى يوزف أن الملكية المطلقة دون غيرها هى القادرة على تحطيم جدار العادات وكسر أغلال التعصب وحماية الضعفاء السذج من الأقوياء الماكرين.

ومن ثم تناول كل مشكلة بشخصه ، وأصدر توجيهات نظمت كل مناحى الحياة . ورغبة فى تشجيع الامتثال لأوامره أنشأ نظام جاسوسيه أفسدت عليه حسناته . وكان من مقومات حكمه المطلق أن يجند بالإلزام جيشا دائما كبيرا لا يعتمد على أمراء الأقليم ، يغذيه بالتجنيد الإلزامى العام ، ويخشنه بالتدريب البروسى . وراوده الأمل فى أن يقوى هذا الجيش من صوته فى المسائل الدولية ، وأن يلزم فردريك حدوده ، وربما أعانه على التهام بافاريا وطرد الترك من البلقان المجاورة (ولاعجب فقد كان فى نفس فيلسوفنا شئ من شهوة التملك) . ثم عين لجنة من الفقهاء لإصلاح القوانين وتنسيقها ، وبعد أن قضت اللجنة ست سنوات من العمل الشاق نشرت قانونا مدنيا جديداً للإجراءات القضائية . فخففت العقوبات ، وألغيت عقوبة الإعدام . (فى انجلترة المعاصرة كانت مائة جريمة لا تزال تعتبر من الجرائم الجسيمة). ولم تعد الشعوذة ولا السحر ولا الارتداد جرائم يعاقب عليها القانون . وحرمت المبارزة ؛ واعتبر قضاء المبارز على غريمه فى مبارزة جريمة قتل . وجعل الزواج عقداً مدنيا ، وأحل الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين، وقضى بإمكان الحصول على الطلاق من السلطة المدنية . أما القضاة فلا يعينون إلا بعد تدريب خاص وبعد اجتيازهم امتحانات عسيرة ، وألغى الكثير من المحاكم الكنسية . وتقررت مساواة جميع الأشخاص أمام القانون ، وصعق النبلاء حين عرض أحد أفرادهم فى المشهرة وحكم على آخر بكنس الشوارع .

وألغيت القنيه بسلسلة من المراسيم ، ١٧٨١ — ٨٥ . وكفل للجميع حق تغيير المسكن أو المهنة ، وحق التملك ، وحق الزواج بالرضى المتبادل ، وأعد محامون خصوصيون لحماية الفلاحين فى حرياتهم الجديدة . وفقدالبارونات حق محاكمة مستأجريهم جنائيا ، ولكن تحاشيا لضعف الإنتاج فى ضياع البارونات ، أجيز للسادة أن يقتضوا أقنانهم السابقين بعض الخدمات المألوفة .

وشجع يوزف الصناعة الرأسمالية لاقتناعه بأن لوائح الطوائف الحرفية معطلة للتطور الاقتصادى ، ولكنه عارض فى الاستكثار من الآلات مخافة (أن تحرم الألوف من أرزاقهم)[٥٩]. وأعفى العمال الصناعيين من التجنيد ،

ولكنهم تذمروا من انقاصه أيام العطلات المقدسة . ثم رفع من مقام التجار ورجال الصناعة والمصارف وخلع عليهم ألقاب الشرف وأسباب التكريم القومى . وألغى المكوس الداخلية أو خففها ، ولكنه أبقى على رسوم الحماية الجركية المرتفعه على الوارادات . ورفع رجال الصناعة الوطنيون الأسعار بعد أن حصلوا على هذا التحصن من المنافسة الأجنبية وانتجوا السلع الرديئة[٦٠]. وساء بروسيا وسكسونيا وتركيا فرض هذه التعريفات فأوصدت أبوابها فى وجه حاصلات الأمبراطورية .وفقد الإلب والاودر والدانوب بعض تجارتها . وحاول يوزف أن يزيد حركة التجارة البرية مع ثغور الادرياتيكى بشق طريق جديد هو طريق يوزفينا الذى اخترق جبال الالب الكرنيوليه ، وأسس شركة هند شرقية وراوده الأمل فى تطوير التجارة مع الشرق وافريقيا وأمريكا بطريق ثغرى فيوى وتريسته الحرين . وفى ١٧٨٤ أبرم معاهدة تجارية مع تركيا ، ولكن بعد ثلاث سنوات أغلقت حربة مع تركيا منافذ الدانوب إلى البحر الأسود وأفلس تجار الدانوب الواحد تلو الآخر .

وتشجيعاً لتداول رأس المال ألغى من القوانين التحريم القديم للفائدة ، وأحل القروض بفائدة ٥٪ ورقى مصرفيا يهودياً إلى رتبة البارونية . وقدم القروض الحكومية والاحتكارات الموقوتة إلى المشروعات الجديدة . واقتبس فكرة الفزيوقراطيين فى فرض ضريبة واحدة تقع على الأرض فقط ، وتتفاوت حسب الموقع والخصوبة ، ويؤديها ملاك الأرض كبارهم وصغارهم واقتضى المشروع مسح جميع أراضى الأمبراطورية ، فتم هذا بنفقة بلغت ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جولدن دفعها الملاك . وقضى القانون الجديد بأن يحتفظ الفلاح بسبعين فى المائة من محصوله أو دخله ، ويعطى للدولة اثنى عشر فى المائة ، ويقسم الباقى بين الفروض الاقطاعية والعشور الكنيسية ، وكان قبل ذلك يدفع للدولة أربعا وثلاثين فى المائة وللمالك تسعا وعشرين فى المائة ، وللكنسية عشرة فى المائة ، ولايحتفظ لنفسه إلا بسبعة وعشرين فى المائة[٦١]. واحتج النبلاء بأن هذا التقسيم الجديد سيجلب عليهم الخراب ، وفى المجر قاموا بثورة .

وزاد عدد سكان النمسا والمجر وبوهيميا من ١٨,٧٠٠,٠٠٠ فى ١٧٨٠ ٢١,٠٠٠,٠٠٠ فى ١٧٩٠ [٦٢] . وقرر كاتب معاصر أن الأكواخ المبنية بالآجر أخذت تحل محل الزرائب الريفية العتيقة ، وأن الآجر يأخذ مكان الخشب فى منازل المدن [٦٣] . وظل الفقر جاثما على الصدور ، ولكن مرسوما امبراطوريا صدر فى ١٧٨١ أنشأ « مؤسسات للفقراء ، يستطيع أى شخص عاجز عن التكسب أن يطالب بالمعونة منها دون أن يريق ماء الوجه .

ومع أن يوزف كان من الناحية الرسمية « نائب المسيح » والمدافع عن الكنيسة المسيحية و « حامى فلسطين . . . والايمان الكاثوليكى » ، فقد شرع بمجرد تقلده زمام السلطة المطلقة فى تقليص دور الكنيسة فى أراضيه « الموروثة » — أى النمسا والمجر وبوهيميا . ففى ١٢ أكتوبر ١٧٨١ أصدر مرسوم التسامح ، وبمقتضاه تقررت حرية البروتستنت والروم الارثوذكس فى أن يكون لهم معابدهم ومدارسهم واجتماعاتهم ، وفى تملك الأملاك وامتهان المهن الراقية ، وشغل المناصب السياسية والحربية . وحث الأمبراطور الشعب على تجنب كل دواعى النزاع بسبب الخلافات المذهبية . . . . ومعاملة من ينتمون لطائفة دينية أخرى بالود واللطف [٦٤] . وفى توجيه أصدره يوزف إلى فان زفيتن كشف فى صراحة عن مصادر إلهامه : « إن التعصب قضى عليه فى امبراطوريتى التى قد يسعدها أنها لم تضح بأشخاص مثل كالاس وسرفن . . . أن التسامح هو ثمرة انتشار التنوير (Les lumieros) الذى شاع الآن فى جميع أرجاء أوربا . وهو قائم على الفلسفة ، وعلى عظماء الرجال الذين أسسوها . . . إن الفلسفة دون غيرها هى التى يجب أن تكون رائد الحكومات » [٦٥] .

على أنه كان لهذا التسامح حدود كما كان فى مقال فولتير « عن التسامح » (١٧٦٣) ، فقد نبه بعض المستشارين يوزف إلى أن إزالة جميع الضوابط والقيود ستسفر عن نمو العقائد الجامحة نموا مفرطا ، لا بل الإلحاد السافر ، وأن هذا سيفضى إلى المذاهب المتناحرة والفوضى الاجتماعية وامتهان كل سلطة . فلما نما إليه أن بضع مئات من البوهيميين جاهروا بالربوبية (١٧٨٣) أمر بأن أى رجل يجهر بعقيدته هذه « يجب » دون مزيد من التحقيق أن

يجلد أربعا وعشرين جلدة على ردفيه بسوط من الجلد ثم يصرف » . وتكرر هذه العملية كلما تجدد الجهر بهذه العقيدة[٦٦] . ورحل بعض الغلاة من الزبوبيين إلى المستعمرات العسكرية . وسترى فى مكان لاحق إلى أى حد بلغت جهود يوزف فى تحرير اليهود .

وكان من نتائج مرسوم التسامح الزيادة السريعة فى عدد من جهووا بالبروتستنتية فى المملكة ، من ٧٤,٠٠٠ فى ١٧٨١ إلى ١٥٧,٠٠٠ فى ١٧٨٦ . ونمت حرية الفكر ، ولكنها ظلت محصورة فى الدوائر الخاصة . أما الماسون الأحرار الذين رسخت أقدامهم فى النمسا فقد نظموا فى فيينا (١٧٨١) محفلا انضم اليه الكثير من المواطنين البارزين ، وقد حماه الأمبراطور نفسه (رغم ربوبيته المفهومه ضمنا) . قال أحد أعضائه «كان هدف الجماعة إعمال حرية الضمير والفكر التى احتضنتها الحكومة هذا الاحتضان الموفق ، ومكافحة الخرافة والتعصب فى . . . طوائف الرهبان التى هى أهم سند لهذه الشرور[٦٧] . وتكاثرت المحافل الماسونية حتى بلغت ثمانية فى فيينا وحدها ، وأصبح من مجاراة العصر أن ينتمى شخص إليها ، وارتدى الجنسان الشعارات الماسونية ، وألف موتسارت الموسيقى للحفلات الماسونية . وبمضى الوقت اشتبه يوزف فى اشتغال هذه المحافل بالتآمر السياسى . ففى ١٧٨٥ أمر بأن تندمج محافل فيينا فى محفلين فقط ، ولم يسمح بأكثر من محفل واحد فى عاصمة اقليمية .

وعين يوزف لجنة لتراجع قوانين الرقابة على المطبوعات . وفى ١٧٨٢ نشر النتائج التى انتهت اليها فى مدونة جديدة . فحظرت الكتب التى دأبت على مهاجمة المسيحية أو المحتوية على « عبارات لا أخلاقية وبذاءات قذرة » ، ولكن حظرت أيضاً الكتب « المحتوية على أخبار المعجزات والأشباح والرؤى الخرافية وما إلى ذلك مما قد يقضى بعامة الناس إلى الايمان بالخزعبلات ويثير الاشمئزاز فى نفوس الدارسين »[٦٨] . وسمح بالمطبوعات المحتوية على انتقادات أو هجائيات ساخرة حتى لو هاجمت الأمبراطور ، شريطة أن تحمل اسم المؤلف الحقيقى ، وأن تخضع لقانون القذف . وأبيح للدارسين أن يقرءوا فى المكتبات الكتب المدرجة فى فهرس الكتب التى حرمتها الكنيسة

الرومانية . وتعفى الكتب العلمية من الرقابة كلية ، وكذلك الكتب الثقافية ، شريطة أن تؤكد طابعها الثقافى سلطة معترف بها . وأبيح استيراد الكتب المؤلفة بلغت أجنبية وبيعها دون معوق . ووسعت الحرية الأكاديمية . فلما اتهم أربعة عشر طالباً بجامعة انزبروك معلمهم أمام السلطات لأنه زعم أن العالم أقدم من ستة آلاف سنة ، حسم يوزف الأمر بهذه العبارة السريعة الموجزة « يجب أن يطرد الطلاب الأربعة عشر ، لأن أدمغة فى فقر أدمغتهم لن تفيد من التعليم[٦٩] » . وأثارت النظم الجديدة الاحتجاجات الغاضبة من الكهنوت ، فرد يوزف باعطاء فيينا حرية النشر الكاملة (١٧٨٧) . وحتى قبل هذا التحرير أفاد ناشرو فيينا من التراخى فى تنفيذ قانون ١٧٨٢ : فاغرقت النشرات والكتب والمجلات النمسا بالفحش أو ما يقرب من الفحش ، وبكشف أسرار الراهبات ، وبالهجمات على الكنيسة الكاثوليكية أو على المسيحية ذاتها .

وأحس يوزف أن واجبه أيضا أن ينظم الشؤن الكنسية . ففى ٢٩ نوفمبر ١٧٨١ أصدر مرسوماً أغلق عددا كبيراً من أديرة الرهبان والراهبات التى «لاتدير مدارس ولاتعنى بمرضى ولا تشتغل بدراسات» . فأغلق ٤١٣ بيتا دينيا من ٢١٦٣ بيتاً دينيا فى الأقاليم الألمانية (النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا) . وأفرج عن ٢٧,٠٠٠ من شاغليها البالغ عددهم ٦٥,٠٠٠ وقررت لهم معاشات ، وأجرى مثل هذا الخفض فى بوهيميا والمجر . قال يوزف « أن المملكة أشد فقرا وتخلفاً من أن تسمح لنفسها بترف الانفاق على العاطلين[٧٠] » . أما ثروة هذه المؤسسات المنحلة — التى بلغت نحو ستين مليون جولدن — فقد أعلن أنهـــا ملك للشعب ، وصادرتها الدولة .

وأعلن أن الأديره الباقية لايجوز لها أن ترث أملاكا . أما طوائف الرهبان المتسولين فأمرت بأن تكف عن التسول ومنعت من قبول رهبان جدد . وألغيت جماعات الاخوان الدينية . وتقرر أن تسجل جميع الممتلكات الكنسية لدى الحكومة ، التى حرمت بيعها أو تبادلها .

ثم واصل يوزف جهوده ليخضع الأساقفه الكاثوليك لاشراف الدولة. فاشترط على الأساقفة الجدد أن يقسموا يمين الطاعة للسلطات العلمانية. وتقرر ألا تجاز أى لائحة أو موسوم بابوى فى النمسا إلا بإذن الحكومة. أما الأوامر البابوية الصادرة فى ١٣٦٢ و ١٧١٣، التى دانت المهرطقين أو الجانسنيين فتهمل. على أن يوزف نظم أبرشيات جديدة، وبنى الكنائس الجديدة، وقد الرواتب لإعانة طلاب القسوسية، وفتح مدارس لاهوتية جديدة ووضع لها برنامجا يؤكد على العلوم والمعارف العلمانية كاللاهوت والطقوس سواء بسواء.

وأثارت هذه القوانين الاكليروس الكاثوليكى فى كل أرجاء أوربا. ورجا أحبار كثيرون يوزف أن يلغى مراسيمه المعادية للاكليروس. فلما لم يلق اليهم بالا هددوه بالجحيم، فابتسم ومضى فى طريقه. وأخيراً اتخذ البابا بيوس السادس بشخصه، وكان رجلا وسيما مثقفا رقيقاً مغروراً، خطوة غير مألوفة، إذ غادر إيطاليا (٢٧ فبراير ١٧٨٢) وعبر الابنين والألب فى الشتاء ووصل إلى فيينا (٢٢ مارس) وقد عقد النية على الاتجاه برجاء شخصى للإمبراطور، وكانت هذه أول مرة منذ ١٤١٤ تطأ فيها أقدام أحد البابوات أرض ألمانيا. أما يوزف فقد خرج من المدينة مع رفيقه فى الشكوكية كاونتز ليرافقا الحبر الأعظم إلى الأجنحة التى كانت تشغلها ماريا تريزا. وخلال إقامة البابا كانت الجموع تحتشد كل يوم تقريباً أمام القصر الملكى التماساً لبركته. وقد وصفهم بعد ذلك يوزف بهذه العبارات:

غصت جميع ممرات القصر وسلالمه بالناس، واستحال على الإنسان رغم مضاعفة عدد الحراس أن يحمى نفسه من كل الأشياء التى أتو بها اليه ليباركها: أوشحة كتفيه، ومسبحات، وصور. وكان يتجمع لنيل البركة التى يمنحها من الشرفة سبع مرات فى اليوم حشد من الناس لا يمكن أن يكون المرء فكرة عن ضخامته إلا إذا رآه. وليس من المبالغة القول أنه تجمع مرة ستون ألفا على الأقل. وكان المنظر غاية

فى الجمال ، فقد أقبل الفلاحون وزوجاتهم وأبناؤهم من مناطق تبعد عشرين فرسخاً . وبالأمس ديست امرأة تحت نافذتى مباشرة [٧١] .

وكان تأثر يوزف بمناشدات البابا البليغة أقل من تأثره بهذا الدليل على سلطان الدين على العقل البشرى ، ومع ذلك واصل إغلاق الأديرة حتى « حينما كان بيوس فى ضيافته [٧٢] . » وحذره البابا تحذير المتنبىء . أنك إن مضيت فى مشروعاتك المدمرة للايمان وقوانين الكنيسة فإن يد الرب ستكون ثقيلة الوطاة عليك ، ستعطلك فى مسيرتك ، وستحفر من تحتك هوة تبتلعك وأنت بعد فى عنفوانك ، وستضع حدا للملك الذى كان فى وسعك أن تجعله ملكا عظيما مجيداً [٧٣] . وبعد شهر من أسباب التكريم والاخفاق عاد بيوس حزينا إلى روما . وعقب ذلك عين الأمبراطور رئيسا لأساقفة ميلان رجلا يدعى فسكونتى غير مقبول من الإدارة البابوية ، ورفض البابا أن يصدق على التعيين ، وأشرفت الكنيسة والأمبراطورية على القطيعة . ولم يكن يوزف مستعدا لمثل هذه الخطوة العنيفة ، فهرول إلى روما (ديسمبر ١٧٨٢) وزار بيوس وأعلن ولاءه للكنيسة وكسب موافقة البابا على تعيين الدولة للأساقفة — حتى فى لمبارديه . وافترق الملك والحبر الأعظم على ود . ونثر يوزف ثلاثين ألف سكودى على جماهير روما ، وهتف له القوم بصيحات الشكر « يحيى إمبراطورنا » .

فلما عاد إلى نيينا واصل حركته الاصلاحية الدينية القائمة على فرد واحد . وبعد أن تحدى البابا كما تحداه لوثر (الذى شبهه به الكثير من البروتستنت وهم معترفون بفضله) ، وبعد أن هاجم الأديرة كما هاجمها هنرى الثامن ، شرع مثل كلفن فى تطهير الكنائس ، فأمر بازالة لوحات النذور ومعظم التماثيل ، وبكف المصلين عن لمس الصور وتقبيل الرفات وتوزيع التمائم . . . ونظم طول الخدمات الدينية وعددها ، والملابس التى تغطى تماثيل العذراء ، وطابع الموسيقى الكنسية ، وتقرر أن تتلى الابتهالات مستقبلا بالألمانية لا باللاتينية ، وأن تحصل رحلات الحج

والمواكب الدينية على موافقة السلطات المدنية ، وانتهى الأمر بعدم التصريح إلا بموكب واحد — لعيد القربان المقدس ، وأحيط الشعب رسمياً بأنه لا داعي للركوع فى الشوارع أمام أى موكب دينى حتى ولو حمل القربان المقدس ، ويكفى فى هذه المناسبات خلع القبعات . وأخبر أساتذة الجامعات بأنه لاحاجة تدعوهم بعد اليوم إلى أن يقسموا بأنهم يؤمنون بعقيدة حمل العذراء غير المدنس .

ولم يستطع أحد أن يتشكك فى إنسانية أهداف يوزف . فالثروة التى أخذها من الأديرة المستغنى عنها خصصها لإعانة المدارس والمستشفيات والمبرات ، ولصرف معاشات الرهبان والراهبات الذين أخرجوا من أديرتهم ، ولصرف اعانات اضافية لكهنة الأبرشيات الفقراء . وأصدر الأمبراطور سلسلة طويلة من الأوامر للنهوض بالتعليم ، فكان على كل الجماعات المحتوية على مائة طفل بلغوا سن الالتحاق بالمدارس أن تمول مدارس أولية لهم . وتقرر أن يكون التعليم الأولى إلزاميا وعاما . ووفرت الأديرة أو الدولة مدارس للبنات وأعينت الجامعات فى فيينا وبراغ ولمبرج وبست ولوفان ، أما جامعات انزبروك وبرون وجراتز وفرايبورج فحولت إلى معاهد Lycées لتعليم الطب أو القانون أو الفنون العملية . وأنشئت مداس للطب من بينها « اليوز فينوم » للطب والجراحة العسكريين . وأخذت فيينا تشق طريقها لتصبح من أرقى المراكز الطبية فى العالم .

٦ — الإمبراطور والإمبراطورية

تضاعفت المصاعب فى وجه مشروعات يوزف الثورية بسبب تنوع ملكه . لقد كان يعرف النمسا جيد المعرفة ، ولكنه لم يدرك رغم أسفاره الشاقة مبلغ تغلغل السادة المجريين فى حياة أمتهم الاقتصادية والسياسية ، ولا أدرك كيف تستطيع وطنية الجماهير المجرية أن تتغلب على المصالح الطبقية . ولقد رفض عند تقلده الملك أن يتبع تقليدا جرى عليه السلف فيذهب إلى برسبورج ليتوج ملكا على المجر ، لأنه سيطالب فى ذلك الحفل

بأن يقسم يمين الولاء للدستور المجرى الذى يكرس أنظمة المجتمع الاقطاعية . ثم أغضب كل مجرى حين أمر بنقل تاج القديس اسطفانوس حامى المجر من بودا إلى فيينا (١٧٨٤) . وكان قد أحل الألمانية لا المجرية محل اللاتينية لغة للقانون والتعليم فى المجر . وأغضب رجال المال والأعمال المجريين حين عطلت رسومه الجمركية تصدير محاصيلهم إلى النمسا . ثم أنه صدم الكنيسة الكاثوليكية بتدخله فى طقوسها التقليدية وبسماحه للجماعات البروتستنتية المجرية بالتكاثر من ٢٧٢ إلى ٧٥٨ فى عام واحد (١٧٨٣ - ٨٤) . ووقعت المجر فى فوضى اصطرعت فيها الطبقات والقوميات واللغــات والمذاهب .

وفى ١٧٨٤ قام فلاحو قلاشيا (بين الدانوب والألب الترنسلفانية) بثورة عنيفة ضد سادتهم الاقطاعيين ، وأشعلوا النار فى ١٨٢ قصرا ريفيا للاشراف وستين قرية ، وقتلوا ٤٠٠٠ مجرى ، وأعلنوا أنهم يفعلون هذا كله برضى الامبراطور . وعطف يوزف على كرههم للظلم الطويل(٧٥)، ولكنه كان يحاول إنهاء الإقطاع سلميا بالتشريع ، وما كان فى وسعه أن يسمح للفلاحين بتعجل الأمور بالتحريق والتقتيل . وعليه فقد أرسل جنوده لقمع الثورة ، وأعدم مائة وخمسون من زعماء الثورة ، وهدأت الثورة. ولامه النبلاء على الثورة ، ولامه الفلاحون على فشلها . وتهيأ المسرح لثورة قومية على الامبراطور فى ١٧٨٧ .

وفى نوفمبر ١٧٨٠ ذهب يوزف بشخصه ليدرس مشكلات الأراضى الواطئةالنمساوية . فزار تامورومونز وكورتراى وابيير ودنكرك وأوستند وبروج وغنت وأودنارد وانتوب ومالين ولوفان وبروكسل . وقام برحلة جانبية إلى الأراضى الواطئة المتحدة . . إلى روتردام ، ولاهاى ولايدن وهارلم وأمستردام وأوترخت وسبا (حيث تغدى مع الفيلسوف رينال) . وقد راعه التناقض بين رخاء هولنده والركود النسبى فى الاقتصاد البلجيكى . وعزا هذا إلى نشاط رجال الأعمال الهولنديين وفرصهم ، وإلى إقفال نهر الشلت فى وجه تجارة المحيط نتيجة لمعاهدة مونستر (١٦٤٨) فعاد إلى

بروكسل وعقد عدة اجتماعات لمحاولة تحسين التجاوة والإدارة والمالية والقضاء . وفى يناير ١٧٨١ عين أخته ماريا كرستينا وزوجها ألبرت دوق ساكستشن حاكمين على الأراضى الواطئة النمساوية .

وأدرك الآن لأول مرة مبلغ التضارب بين اصلاحاته والامتيازات الموروثة التى تمتعت بها الطبقات العليا فى هذا البلد التاريخى . فكان إقليم من أقاليمها مثلا ، وهو برابانت ، يملك مرسوما للحريات يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ويعرف بـ « المدخل البهيج » . وكان يتوقع من من كل حاكم يدخل بروكسل أن يقسم يمين الولاء لهذا المرسوم ، وجاء فى إحدى مواده إنه لو انتهك الحاكم أى مادة منه كان لرعاياه الفلمنكيين الحق فى أن يمتنعوا عن أداء أى خدمة له وأن يرفضوا طاعته . وطالبت مادة أخرى الملك بأن يحافظ على الكنيسة الكاثوليكية ، فى جميع امتيازاتها وممتلكاتها وسلطاتها الراهنة ، وان يطبق جميع قرارات مجمع ترنت . وأشباه هذا الدستور كان يتعلق بها الأشراف والاكليروس الأقاليم الأخرى . وعقد يوزف النيـة على ألا يسمح لهذه التقاليد بأن تتحدى إصلاحاته . وبعد أن قام بزيارة قصيرة لباريس (يوليو ١٧٨١) قفل إلى فيينا .

وفى نوفمبر بدأ يطبق مرسوم التسامح الدينى على هذه الأقاليم . فجعل الأديرة البلجيكية مستقلة عن البابا ، وأغلق عددا منها وصادر إيراداتها . واحتج أساقفة بروكسل وانتورب ومالين ، ولكن يوزف واصل مسيرته ففرض على « باجيكا » لوائحه الخاصة بلوحات النذور والمواكب والطقوس الدينية . ثم سحب من الأساقفة حقهم فى الاشراف على المدارس قائلا «إن أبناء لاوى (أى الكهنة) ينبغى أن يكفوا عن احتكار عقول البشر»[٧٦]. ثم ألغى الامتيازات الخاصة التى طالما تمتعت بها جامعة لوفان . وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية جديدة محررة من السيطرة الأسقفية ، وأمر بأن يدرس فيها كل طالب بلجيكى للقسوسية خمس سنين[٧٧] . وإذ كان تواقا إلى تحسين حكومة الأقاليم ، فقد استبدل بالمجالس الاقليمية والمجالس الخاصة

الارستقراطية القديمة (يناير ١٧٨٧) مجلسا واحدا للادارة العامة يرأسه مفوض يعينه الامبراطور ، ثم أحل هيئة قضائية موحدة علمانية محل المحاكم القائمة إذ ذاك ، من اقطاعية وإقليمية وكنسية . وأعلن أن جميع الأشخاص أيا كانت طبقتهم سواسية أمام القانون .

وانضم الاشراف وكثير من البورجوازيين إلى الأكليروس فى مقاومة هذه القوانين . ولم يلطف من عدائهم تلك الجهود العقيمة التى بذلها يوزف لإعادة فتح الشلت أمام تجارة المحيط . فقد رفضت هولندة الأذن بها ، وشاركتها الرفض فرنسا رغم توسلات مارى أنطوانيت . وفى يناير ١٧٨٧ أخطر مجلس برابانت يوزف بأن لا سبيل إلى إحداث تغييرات فى دستور الإقليم القائم إلا بموافقة المجلس ، ومعنى ذلك فى الواقع أنهم أخبروه أن حكمه للأراضى الواطئة النمساوية يجب أن يكون ملكية دستورية لا مطلقة . وتجاهل هو الإعلان ، وأمر بتنفيذ مراسيمه . ورفض المجلس الموافقة على الضرائب ما لم تلق اعتراضاتهم الاهتمام . ثم تفجر الهياج فى عنف اتسع نطاقه بحيث اضطرت ماريا كرستينا إلى الوعد بإلغــاء الاصلاحات البغيضة (٣١ مايو ١٧٨٧) .

أين كان الامبراطور خلال هذا الجو الهائج المائج ؟

كان يغازل كاترين الثانية دبلوماسيا ، مؤمنا بأن التحالف مع روسيا سيعزل بروسيا ويشد أزر النمسا فى حربها مع الترك . وكان يوزف حتى قبل موت أمه قد زار القيصرة فى موجيليف (٧ يونيو ١٧٨٠) ومن هناك مضى إلى موسكو وسانت بطرسبرج . وفى مايو ١٧٨١ وقعت النمسا وروسيا تحالفا تعهد فيه الطرفان بأن يخف الواحد لنجدة الآخر إذا هوجم .

فلما خيل إليه أن هذا الاتفاق سيشل حركة الملك السبعينى فردريك ، عاد من جديد (١٧٨٤) يعرض الأراضى الواطنة النمساوية على الأمير الناخب شارل تيودور بديلا عن بافاريا . وكان العرض مغريا للأمير ، ولكن فردريك استنفر كل طاقاته ليفسد هذه الخطة . فحرك ثورة على

الامبراطور فى المجر وبلجيكا ، وحرض دوق تزفايبروكن — الوريث لعرش بافاريا — على مقاومة هذا البدل ، وبعث عملاءه ليقنعوا الأمراء الألمان بأن استقلالهم يتهدده التوسع النمساوى . وأفلح فى أن ينظم (٢٣ يوليو ١٧٨٥) بروسيا وسكوسونيا وهانوفر وبرونزيك وماينز وهسى كاسل وبادن وساكسى فيمار وجوتا ومكلنبورج وانزباخ وأنهالت فى حلف أمراء Furstenbund تعهدوا فيه بمقاومة أى توسع للنمسا على حساب أى دولة ألمانية . واستنجد يوزف ثانية بشقيقته فى فرساى ، وألقت مارى انطوانيت تعويلتها على لويس السادس عشر لتكسب تأييده لشقيقها ، ولكن فرجين وزير خارجية فرنسا حذر لويس من الموافقة ، واعترف يوزف بهزيمته أمام الثعلب العجوز الذى كان يوما ما معبود شبابه . ولما تلقى فى أغسطس ١٧٨٦ نبأ موت فردريك أعرب عن أسف مضاعف : « بوصفى جندياً يؤسفنى رحيل رجل عظيم كان صانع جيل فى فنون الحرب ، وبصفتى مواطناً يؤسفنى أن موته تأخر ثلاثين عاماً »[٧٨] .

أصبح الآن أمل الأمبراطور الوحيد فى توسيع ملكه معقوداً على الإنضمام إلى كاترين فى حملة لتقسيم أملاك تركيا الأوربية فيما بينهما . فلما خرجت قيصرة الروسيا فى يناير ١٧٨٧ لتزور وترهب فتوحها الجديدة فى الجنوب دعت يوزف ليلتقى بها فى الطريق ويرافقها إلى القرم . ولكنه لم يوافق لتوه على اقتراحها بشن حرب صليبية موحدة ، وقال « إنما أريد سيليزنيا ، والحرب مع تركيا لن تنيلنيها »[٧٩] . ومع ذلك فحين أعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٥ أغسطس ١٧٨٧) وجد يوزف نفسه مكرها على خوضها ، فقد ألزمه تحالفه مع كاترين أن يعينها فى حرب « دفاعية » . يضاف إلى هذا أن الفرصة أتيحت الآن للنمسا بسبب اشتباك تركيا فى الحرب اشتباكا حرجاً لاسترداد الصرب والبوسنة ، وربما أيضاً لحصول على ثغر على البحر الأسود . وعليه ففى فبراير ١٧٨٨ أرسل جنوده إلى الحرب وأمرهم بأن يستولوا على بلغراد .

ولكن السويديين اغتنموا هذه الفرصة ليرسلوا قوة تهاجم سانت

بطرسبورج . واستدعت كاترين الجيش من الجنوب ليدافع عن عاصمتها . فلما خف على الترك ضغط الروس ركزوا قوتهم على النمساويين. وحين ذهب يوزف ليقود جيشه رآه وقد أضعفته اللامبالاة وفرار الجند ومرضهم، فأمر بالتقهقر وعاد إلى فيينا يملؤه اليأس ويجلله العار . وسلم القيادة إلى لاودن ، وهو من أبطال حرب السنين السبع وأنقذ المارشال العجوز شرف الجيش النمساوى باستيلاءه على بلغراد (١٧٨٩) . ولما فشل هجوم السويد على روسيا عاد جنود كاترين يتدفقون على الجنوب وتباروا مع الأتراك فى مذابح رهيبة تركت الأحياء منهم أكثر قليلا من أعدائهم . وكان يوزف مغتبطاً بأمل النصر العسكرى الذى طال ارتقابه ، وإذا ببروسيا وانجلترة والسويد وهولندة تتدخل لمساعدة الترك خوفاً من توسع الروس . ووجد يوزف فجأة أن جميع أوربا البروتستنتية تقريباً قد اتحدت وأخذت تمتشق الحسام ضده . وعاد ثانية يستنجد بفرنسا ، ولكن فرنسا كانت فى ١٧٨٩ مشغولة بالثورة . ووقعت بروسيا التى كان يملك عليها فردريك وليم الثانى حلفاً مع تركيا (يناير ١٧٩٠) وأرسلت العملاء لإذكاء الثورة على الامبراطور فى المجر والأراضى الواطئة النمساوية .

ورحبت المجر بهذه الدسائس لأنها كانت فى ثورة سافرة على مراسيم يوزف فى التجنيد الإجبارى والضرائب وتغيير اللغة والإصلاح الدينى . وفى ١٧٨٦ دعا إمريش مالونجى المجريين إلى انتخاب ملك خاص بهم . وفى ١٧٨٨ دبر رميجيوس فرانيو مؤامرة لجعل فردريك وليم ملكا على المجر ، وأفشى الكونتان استرهاتسى وكارولبى سر المؤامرة للأمبراطور فحكم على فرانيو بالسجن ستين عاماً . وفى ١٧٨٩ وجه مجلس الطبقات المجرى إلى بروسيا نداء لتحرير المجر من سلطان النمسا . ولما بلغ نبأ الثورة الفرنسية للمجر دوت صيحات المطالبة بالاستقلال فى أرجاء البلاد . أما يوزف الذى شعر بالموت يسرى فى عروقه فلم يعد له من القوة ما يمكنه من الثبات على موقفه. وحثه أخوه ليوبولد على الاستسلام . وفى يناير ١٧٩٠ أعلن ما يأتى :

« لقد قررنا أن نرد إدارة المملكة — أى المجر — إلى وضعها فى ١٧٨٠

لقد أرسينا [الاصلاحات] بدافع الغيرة على الصالح العام مؤمنين أنكم بعد التجربة ستجدونها مبعث سرور لكم ، بيد أننا الآن أقنعنا أنفسنا بأنكم تؤثرون النظام القديم . . . ولكننا نريد أن يظل قانون التسامح نافذا . . . وكذلك قانون الاقنان ومعاملتهم وعلاقتهم بسادتهم » (٨٠) .

وفى فبراير رد تاج القديس اسطفانوس إلى بودا وكان يلقى الترحب والابتهاج من الجماهير فى كل خطوة على الطريق . وهدأت الثورة .

أما الثورة فى الأراضى الواطئة النمساوية فقد انطلقت بكل قوتها لأنها شعرت هناك بحرارة الحركة الثورية فى فرنسا المجاورة .وأبى يوزف المصادقة على الوعد الذى قطعته شقيقته لمجلس برابانت بإلغاء الإصلاحات التى كرهوها. فأصدر الأمر بتنفيذها وأمر جنوده باطلاق النار على أى حشود تقاومها ، ففعلوا وقتل ستة من القائمين بالشغب فى بروكسل (٢٢ يناير ١٧٨٨) وعدد غير معروف فى أنتورب ولوفان . ودعا محام من بروكسل يسمى هنرى فان دن نوت أفراد الشعب إلى التسلح والتطوع فى جيش استقلال . وأيد الأكليروس النداء تأييداً إيجابيا ، وأضيف إليه حافز لم يكن فى الحسبان هو نبأ سقوط الباستيل ، وسرعان ما احتشد فى الميدان عشرة آلاف من الوطنين وعلى رأسهم قادة أكفاء . وفى ٢٤ أكتوبر أذاع إعلان« للشعب البرابانتى » خلع يوزف الثانى من منصب الحاكم عليهم . وفى ٢٦ أكتوبر هزمت قوة من الوطنين الجنود النمسويين . واحتل الثوار المدينة تلو المدينة . وفى ١١ يناير ١٧٩٠ أذاعت الأقاليم السبعة قرار استقلالها ، وأعلنت قيام جمهورية الولايات المتحدة البلجيكية . واتخذت اسمها هذا من القبائل البلجيكية التى دوخت قيصر قبل ثمانية عشر قرنا . وأسعد انجلترة وهولندة وبروسيا أن تعترف بالحكومة الجديدة . واستنجد يوزف بفرنسا ، ولكن فرنسا ذاتها كانت مشغولة بخلع ملكها . وبدا أن كل العالم القديم الذى عرفه يوزف يتمزق وينهار . ثم إن الموت كان يدعوه إليه .

٧ — الموت الأسود

كانت مرارة تلك الأشهر الأخيرة كاملة . فقد كانت المجر وبلجيكا تضطرمان بالثورة ، والأتراك يتقدمون ، وجيشه متمرداً ، وشعبه من النمسويين الذين أحبوه يوما ما انقلبوا عليه منتهكاً لحرمة تقاليدهم ومعتقداتهم المقدسة . وندد به القساوسة ملحداً ، وكرهه النبلاء لأنه حرر أقنانهم ،وتصايح الفلاحون مطالبين بمزيد من الأرض ، وكان فقراء المدن يتضورون جوعاً ، ولعنت جميع الطبقات الضرائب والأسعار المرتفعة التى سببتها الحرب . وفى ٣٠ يناير ١٧٩٠ ألغى يوزف جميع الاصلاحات التى أمر بها منذ وفاة ماريا تريزا بعد أن ألقى السلاح مستسلما ، ولم يبق منها إلا على إلغاء القنية .

ترى لم فشل ؟ لقدقبل بملء الإيمان وبصادق الثقة نظرية جماعة الفلاسفة القائلة بأن الملك الذى يتوافر له التعليم الجيد والنية الحسنة هو خير أداة للتنوير والإصلاح . وقد أوتى التعليم الجيد ، أما النية الحسنة فقد شوهها حبه للسلطة ، وأخيرا غلبت لهفته على أن يكون فاتحاً حماسته لإجلاس الفلسفة على العرش . كان يفتقر إلى قدرة الفيلسوف على الشك،وكان من المسلمات لديه صواب وسائله كصواب غاياته . وقد حاول إصلاح الكثير جداً من الشرور فى وقت واحد ، وفى عجلة كبيرة، ولم يستطع الشعب أن يستوعب تعدد قرارته المربك . ولقد كان يأمر بأسرع مما يستطيع أن يقنع ، وحاول أن يحقق فى عشر سنين مايحتاج تحقيقه إلى قرن من للتعليم والتغيير الاقتصادى . والشعب أساساً هو الذى خذله . فقد تعمقت جذوره وترسخت فى امتيازاته وأهوائه ، فى تقاليده وكنائسه ، إلى حد منعه من أن يعطيه التفهم والتأييد اللذين أصبح حكمه المطلق بدونهما عاجزا لاحول له فى مثل هذه الإصلاحات العسيرة . وآثر أفراده كنائسهم وقساوستهم وعشورهم على ضرائبه وجواسيسه وحروبه . ولم يستطيعوا وضع ثقتهم فى رجل يهزأ بأساطيرهم الحبيبة ، ويضايق أساقفتهم ، ويذل باباهم .

وطوال هذه السنوات المرهقة بعد ١٧٦٥ كان بدنه متمردا على إرادته .

فلم تقو معدته على هضم سرعة عدوه ، وقد حذرته مرارا ودون جدوى بحاجته إلى الراحة . وأنذره الأمير دلين بأنه يقتل نفسه، وكان عليما بهذا ، ولكنه قال « وما الذى أستطيعه ؟ أننى أقتل نفسى لأننى لا أستطيع أن أستنفر الآخرين ليعملوا »(٨١). وكانت رئتاه مريضتين ، وصوته ضعيفاً مكتوماً ، وكان يشكو الدوالى وتدميع عينيه ، والحمرة ، والبواسير . . وقد عرض نفسه لكل الأجواء فى حربه مع الترك ، وأصابته حمى الربيع كما أصابت الألوف فى جيشه . وكان لا يقوى على التنفس أحياناً ؛ « أن قلبى يخفق لأقل حركة »(٨٢) وفى ربيع ١٧٨٩ بدأ يتقيأ دماً — تقريبا ثلاث أوقيات فى الدفعة كما كتب لأخيه ليوبولد . وفى يونيو أصيب بآلام عنيفة فى كليتيه . « إننى أتبع أشد نظم التغذية صرامة فلا آكل لحما ولاخضراً ولا مستحضرات ألبان، وغذائى الحساء والأرز»(٨٣) ثم طلع له خراج شرجى وكان لا بد من شقه هو وبواسيره بمبضع الجراح . وأصيب بالاستسقاء . فدعا ليوبولد ليحضر ويتسلم شئون الحكم . وقال : لست آسف على التخلى عن العرش . كل مايحزننى أن يكون عدد الناس السعداء قلة قليلة كهذه » (٨٤) . وكتب إلى الأمير دلين « لقد قتلنى وطنك . كان الاستيلاء على غنت عذابى وخسارة بروكسل هى موتى . . اذهب إلى الأراضى الواطئة وأعدها إلى ملكها ، فإن لم تستطع فابق هناك. لاتضح بمصالحك من أجلى فأنت أب لأطفال»(٨٥). ثم كتب وصيته وترك الهبات السخية لخدمه وللـ « سيدات الخمس اللاتى أطقن عشرتى»(٨٦). وألف قبريته التى قال فيها : « هنا يرقد يوزف، الذى لم يستطع أن ينجح فى شيء »(٨٧). وتناول فى استسلام أسرار الكنيسة الكاثوليكية الأخيرة وطلب الموت وفى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ استجابت السماء وكان يومها فى الثامنة والأربعين . واغتبطت فيينا برحيله وقدمت المجر الشكر لله .

أكان إنسانا فاشلا ؟ فى الحرب نعم، بلا جدال . وقد وجد ليوبولد الثانى (١٧٩٠ — ٩٢) أن من الحكمة رغم انتصارات لاودن أن يبرم الصلح مع تركيا (٤ أغسطس ١٧٩١) على أساس الوضع السابق للحرب . وإذ عجز عن تهدئة الأشراف المحربين فقد ألغى منح الحرية للأقنان . أما فى بوهيميا والنمسا فقد احتفظ بمعظم الاصلاحات ولم تلغ مراسيم التسامح ، ولم تفتح

الأديرة التي أغلقت ، وظلت الكنيسة خاضعة لقوانين الدولة . وكان التشريع الاقتصادى قد حرر التجارة والصناعة وحفزهما . وانتقلت النمسا دون ثورة عنيفة من دولة وسيطة إلى أخرى عصرية ، وشاركت فى حيوية القرن التاسع عشر الثقافية المنوعة .

وكان يوزف قد كتب إلى كاونتز يقول « إننى لإقتناعى العميق بنزاهة نياتى أرجو أن يبحث الخلف بعد موتى أعمالى وأهدافى قبل أن يحكم على وسيكون أميل وأنزه ومن ثم أكثر انصافاً لى من معاصرى »[٨٨] .

وقد اقتضى هذا البحث الخلف ردحا طويلا ، ولكنه تعلم فى النهاية أن يرى فيه — رغم أسفه على أو تقراطيته وتعجله — أكثر « المستبدين المستنيرين » جرأة وتطرفاً وإن كان أقلهم حكمة . . وبعد أن ولى رد الفعل الذى جاء فى عهد مترنيخ ، أعيدت إصلاحات يوزف الثانى واحداً بعد الآخر . ووضع ثوار ١٨٤٨ إكليلا من الزهور على قبره اعترافاً بفضله .

* * *

الفصل الرابع عشر

إصلاح الموسيقى

إننا لانتصور بسهولة يوزف الثانى موسيقيا وهو الرجل المتأهب للمعارك ومع ذلك يقال لنا أنه تلقى« تعليماً موسيقيا دقيقا شاملا » وإنه كان صاحب صوت جهير رخيم، وكان يستمع إلى حفلة موسيقية كل يوم تقريبا ، وكان عازفاً ماهراً على الفيولنشللو والفيولا والكلافير [1] . وكان كثير من النبلاء موسيقيين ، وأكثر منهم رعاة للموسيقى . وحذت الطبقات الوسطى حذوهم ، فكان فى كل بيت بيان قيثارى (هاربسيكورد) وتعلم كل إنسان أن يعزف على آلة موسيقية ، وعزفت الثلاثيات والرباعيات فى الشوارع ، والحفلات الموسيقية فى المتنزهات ومن زوارق مضاءة على قناة الدانوب فى عيد القديس يوحنا . وازدهرت الأوبرا فى البلاط وفى مسرح الأوبرا القومى الذى أنشأه يوزف الثانى فى ١٧٧٨ .

وارتقت فيينا إلى مقام الصدارة فى مطالع القرن التاسع عشر بوصفها العاصمة الموسيقية لأوربا لأنها جمعت فى أخريات القرن الثامن عشر بين تقاليد ألمانيا وإيطاليا الموسيقية المتنافسة . فن ألمانيا جاءت البوليفونية ، ومن إيطاليا الميلوديا ، ومن ألمانيا جاءت الزنجشبيل — وهو مزيج من الدراما الهزلية والحوار المنطوق والموسيقى العارضة والأغانى الشعبية ، ومن إيطاليا جاءت الأوبرا الهازلة ، وتحالف الشكلان فى فيينا كما نرى فى أوبرا موتسارت «الاختطاف من السراى» . ويمكن القول عموماً أن التأثير الإيطالى غلب الألمانى فى فيينا ، فلقد غزت إيطاليا النمسا بالألحان كما غزت النمسا شمالى إيطاليا بالسلاح . وفى فيينا كانت الأوبرا الجادة إيطالية فى أكثرها . إلى أن جاء جلوك . وجلوك نشىء على الموسيقى الإيطالية .

١ — كرستوفر فليبالت جلوك ١٧١٤ — ٨٧

ولد فى إيرازباخ من أعمال البالاتينات العليا ، لحراج كاثوليكى انتقل بأسرته فى ١٧١٧ إلى نويشلوس ببوهيميا . وتلقى كرستوفر فى المدرسة اليسوعية بكوموتاو تعليما فى الدين واللاتينية والآداب القديمة والترتيل والكمان والأرغن والبيان القيثارى . فلما رحل إلى براغ ١٧٣٢ تلقى دروسا فى الفيولنشللو ، وتعيش بالترتيل فى الكنائس ، والعزف على الكمان فى المراقص ، وإحياء الحفلات الموسيقية فى المدن المجاورة .

وكان كل صبى ذكى فى بوهيميا ينجذب إلى براغ ، واستطاع نفر من ألمعهم شق طريقهم إلى فيينا . واستهدف جلوك الحصول على وظيفة فى أوركستر الأمير فرديناند فون لوبكوفتز . وفى فيينا استمع إلى الأوبرات الإيطالية وأحس جاذبية إيطاليا القوية . وأعجب الأمير فرانشسكو ملتزى بعزمه ، فدعاه إلى ميلان (١٧٣٧) . ودرس جلوك التأليف الموسيقى على يد سامارتينى ، وتعلق بالأساليب الإيطالية فى الموسيقى ، وانتهجت أوبراته الأولى (١٧٤١—٤٥) نهج الطرائق الإيطالية ، وقاد حفلاتها الافتتاحية فى إيطاليا . وأتته هذه الخطوات الموفقة بدعوة لتأليف وإخراج أوبرا لمسرح هيماركت فى لندن .

وهناك قدم أوبرا La caduta degiganti (سقطة العملاق) (١٧٤٦) . ورفضت مصحوبة بمديح هزيل ، وقال هندل العجوز الفظ أن جلوك لا يعرف « عن الكونترابنط أكثر مما يعرف طباخى »[٢] ولكن الطباخ كان صاحب صوت باص — جهير — حسن ، ولم يكتب لجلوك أن تعتمد شهرته على الكونترابنط . والتقى برنى بجلوك وقال فى وصفه « إن له مزاجاً فى شراسة مزاج هندل . .ويشوهه الجدرى تشويها رهيبا . . وله جهمة كريهة».[٣] وأذاع جلوك على الجماهير — ربما لموازنة ميزانيته — أنه سيقدم « كونشرتو على ست وعشرين كأس شراب ضبطت (بملئها إلى مستويات مختلفة) بماء نبع تصاحبها فرقه موسيقية كاملة (أوركسترا) ، لأن هذه آلة موسيقية جديدة من اختراعه يعزف عليها كل ما يمكن عزفه على كمان أو بيان قيثارى » . ومثل هذه

« الهارمونيكا الزجاجية أو الكؤوس الموسيقية» كانت قد أدخلت فى دبلن قبل سنتين . واستحضر جلوك الأنغام بلمس حواف الكؤوس بأصابعه المبللة ؛ واستهوى الحفل (٢٣ ابريل ١٧٤٦) أصحاب الفضول ، فكرر بعد أسبوع .

وغادر جلوك لندن قاصدا باريس فى ٢٦ ديسمبر وهو مبتئس بهذا النجاح . وهناك درس أوبرات رامو الذى كان قد اتجه إلى الإصلاح بادماج الموسيقى والباليه بالحركة . وفى سبتمبر قاد الأوبرات فى همبورج واتصل فى علاقة غرام مع مغنية إيطالية وأصيب بالزهرى . وكان شفاؤه بطيئا جدا ، حتى إنه حين ذهب إلى كوبنهاجن كان عاجزاً عن قيادة الأوركسترا . ثم عاد إلى فيينا ، وتزوج ماريان برجيا (١٥ سبتمبر ١٧٥٠) ابنة تاجر غنى . وقد منحه صداقها الأمن المالى فاتخذ بيتا فى فيينا ، واختفى عن الأنظار فى استجمام طويل .

وفى سبتمبر ١٧٥٤ عينه الكونت مارتشالو دوراتزو قائدا للأوركسترا نظير ألفى فلورن فى العام ليلحن للبلاط . وكان دوراتزو قد مل الأوبرا الإيطالية التقليدية ، فتعاون مع جلوك فى دراما موسيقية سميت L'innocenza giustificata (البراءة المبررة) لم تكن فيها القصة مجرد تكئة للموسيقى ، ولا الموسيقى مجرد تجميع الألحان ، إنما الموسيقى تعكس الحركة ، والألحان حتى الكوارس — تدخل فى الحبكة دخولا فيه شىء من المنطق . وهكذا كانت حفلة الافتتاح (٨ ديسمبر ١٧٥٥) البشير والنتاج الأول للاصلاح الذى يقرن التاريخ بينه وبين اسم جلوك . وقد رأينا فى موضع سابق مساهمات بنديتو مارتشللو وجوملى وترايتا فى هذا التطوير ، والنداء الذى وجهه روسو وفولتير والموسوعيون لربط أوثق بين الدراما والموسيقى . وكان مناستازيو قد أعان عليه باصراره فى إباء على أن الموسيقى يجب أن تكون خادمة للشعر(٤) . وربما تأثر جلوك بشغف فنكلمان بأحياء المثل الإغريقية فى الفن ، وكان الملحنون يعرفون أن الأوبرا الإيطالية بدأت كمحاولة لإحيـــاء الدراما الكلاسيكية التى أخضعت موسيقاها للتمثيلية وكان جان — جورج نوفير أثناء ذلك ينادى (١٧٦٠) بالتسامى بالباليه من مجرد الرقص الإيقاعى إلى الإيماء

الدرامى المعبر عن « عواطف كل شعوب الأرض وعاداتهم وتقاليـــدهم ومراسمهم وأزيائهم[٥] » . ونسج جلوك هذه العناصر كلها فى شكل أوبراوى جديد بفضل ما أوتى من كيمياء العبقرية العجيبة .

ان من أسرار نجاح المرء أن يغتنم الفرصة إذا سنحت . فما الذى حدا بجلوك إلى هجر نصوص أوبرات متاستازيو ويتخذ رانيرو دا كالتسابيجى شاعرا لأوبرا « أورفير وأورديتشى » ؟ لقد ولد الرجلان فى سنة واحدة (١٧١٤) ولكن فى مكانين مختلفين — فقد ولد كالزابيجى فى ليفورنو . وبعد مغامرات فى الحب والمال وفد على على باريس ونشر هناك ترجمة لـ « الشعر الدرامى » لمتاستازيو (١٧٥٥) وقدم لها بـ « رسالة » أعرب فيها عن أمله فى ظهور نوع جديد من الأوبرا — « كل مبهج يكون خلاصة التفاعل بين كورس كبير وبين الرقص والحركة التمثيلية التى يتحد فيها الشعر والموسيقى بطريقة رائعة[٦] » . فلما انتقل إلى فيينا أثار اهتمام دوراتزو بأفكاره عن الأوبرا ، ودعاه الكونت ليكتب نصا لأوبرا ، فكتب . «أورفيو وأورديتشى». وعرض دوراتزو القصيدة على جلوك ، فرأى فى الحبكة البسيطة الموحدة موضوعا يمكن أن يبتعث كل طاقاته .

وقدمت النتيجة لفيينا فى ٥ اكتوبر ١٧٦٢ . واستطاع جلوك أن يجند لدور أورفيوس أكبر المغنين الخصيان ذوى الصوت الكونترالتو وهو جاتيانو جوادينى . أما القصة فقديمة قدم الأوبرا ، وقد استعملها أكثر من عشرة كتاب لنصوص الأوبرا بين ١٦٠٠ ، ١٧٦١ ، واستطاع جمهور السامعين تتبع الحركة دون أن يفقهوا الايطالية . واستغنت الموسيقى عن السرد الذى لايصاحبه العزف ، والألحان الأساسية المعاده ، (da capo) ، والزخارف والمحسنات ، وفيما عدا ذلك نهجت نهج الأسلوب الإيطالى ولكنها سمت الى آفاق غنائية فيها من النقاء ما ندر أن بلغه أحد من قبل ولا من بعد . وصرخة اليأس المنبعثة من أورفيوس بعد أن أفقده الموت حبيبته مرة ثانية ؟ Che faro sanz Euridice «ماذا أفعل بدون أورديتشى» ؟ ما تزال أجمل الحان الأوبرا قاطبه ، ونحن

حين نسمع هذا اللحن ، ولحن الفلوت الحزين فى «رقصة الأرواح المباركة» تعجب كيف وجد هذا البوهيمى العاصف هذه الرهافة فى روحه .

ولم تلق أورفيو استقبالا حارا فى فيينا ، ولكن ماريا تريزا تأثرت بها تأثراً عميقا وأرسلت الى جلوك صندوق سعوط محشوا بالدوقاتيات . وما لبث أن اختير لتعليم الغناء للارشيدوقة ماريا انطونيا . وكان أثناء ذلك مكباً هو وكالزابيجى على تأليف أوبرا عدها البعض أكمل ما ألفاه من أوبرات ، وهى « السيست » . وقد اعلن المؤلف فى مقدمة النسخة المنشورة كتبها كلزابيجى لجلوك مبادىء اصلاحه للاوبرا . قال :

« حين اضطلعت بكتابة الموسيقى لألسيست صممت على أن أجردها تماما من كل تلك المساوىء . . التى طالما شوهت الأوبرا الإيطالية . . وقد جهدت لأقصر الموسيقى على وظيفتها الحقيقية وهى خدمة الشعر بالتعبير وبمتابعة مواقف القصة دون قطع الحركة المسرحية أو خنقها بحشو لا غناء فيه من التعليقات . ولم أر ان من واجبى ان أمر مرور الكرام بالقسم الثانى من لحن ما ، ربما كانت كلماته آخر وأهم الكلمات — لكى اعيد بانتظام . . . كلمات القسم الأول . . . وقد احسست أن الإفتتاحية يجب ان تحيط المتفرجين بطبيعة الحركة التى ستقدم لهم وتكون — إن شئت — خلاصتها . . وأن الآلات الأوركسترالية يجب ان تدخل متناسبة مع أهمة الكلمات وقوتها ولا تترك ذلك التناقض الحاد بين اللحن والسرد فى الحوار . . . الذى يشوه بشكل غشوم قوة الحركة وحرارتها... وقد آمنت بأن جهدى الأعظم يجب ان ينصرف الى البحث عن البساطة الجميلة[٧] » .

وباختصار ، يجب ان تخدم الموسيقى الدراما وتزيد من حدتها ، لا أن تجعل منها مجرد تكئة للعروض الصوتية أو الأركسترالية . وقد عبر جلوك عن الأمر تعبيرا فيــه غلو بقوله « انى أحاول أن انسى اننى موسيقى[٨] » . وأن عليه ان يندمج مع كاتب النص فى تأليف « دراما

بالموسيقى » . « وقصة السست تمتنع قليلا على التصديق ، ولكن جلوك أنقذها بافتتاحية قاتمة سبقت بتصوير الحركة المأسوية وأفضت اليها ، وبمشاهد عاطفية مؤثرة بين السست وأطفالها ، وبدعائها لآلهة العالم السفلى فى لحن «أرباب ستاكس» ، وبالكورالات الجليلة والمجموعات الفخمة . واستمع جمهور فيينا لهذه الأوبرا فى ستين حفلة بين الافتتاح فى ١٦ ديسمبر ١٧٦٧ و١٧٧٩ . ولكن النقاد وجدو فيها اخطاء كثيرة ، أما المغنون فشكوا من انها لم تفسح لهم المجال الكافى لعرض فنهم .

وبذل الشاعر والمؤلف محاولة ثانية فى أوبرا «باريز وهيلانه» (٣٠ نوفمبر ١٧٧٠) . وقد اقتبس كلزابيجى الحبكة من أوفيد الذى جعل من قصة باريز وهيلانه مغامرة غرامية شخصية بدل أن تكون فاجعة دولية . وعرضت الأوبرا عشرين مرة فى فيينا ، ومرة فى نابلى ، ولم تعرض فى غيرهما . وتحمل كالزابيجى تبعة هذا الفشل النسبى ، وطلق كتابة النصوص للاوبرات . وراح جلوك يبحث عن تربة أخرى يلقى فيها بذرته . وأشار عليه صديق فى السفارة الفرنسية فى فيينا يدعى فرانسوا دوى رولليه أن يقدم لجماهير باريس تحية يرحبون بها ، فى صورة أوبرا فرنسية يضع موسيقاها مؤلف ألمانى . وعملا باقتراحات لديدرو وألجاروتى أشارا فيها بأن تمثيلية راسين « إفجيينى » تتيح موضوعا مثالياً للاوبرا صاغ دوررولليه التمثيلية نصا لأوبرا وقدمها لجلوك . . ورأى جلوك مادتها متفقة تمام الاتفاق مع ذوقه فعكف على العمل من فوره .

ورغبة فى تمهيد الطريق إلى باريس وجه دوررولليه خطابا إلى مدير دار الأوبرا نشر فى المركيز دفرانس أول أغسطس ١٧٧٢ — ذكر فيه أن «مسيو جلوش» كان ساخطا أشد السخط على الزعم بأن اللغة الفرنسية لاتتلاءم مع الموسيقى ، وأنه اقترح اثبات العكس بـ «إفجيينى فى أوليد» . ولطف جلوك من غضب روسو المتوقع (وكان يومها يعيش منزويا فى باريس) بأن أرسل إلى المركيز خطاباً (أول فبراير ١٧٧٣) أعرب فيه عن أمله فى التشاور مع روسو حول « الوسيلة التى أنوى اتخاذها لإخراج مرسيقى

صالحة لجميع الأمم ، وإزالة فوارق الموسيقى الوطنية السخيفة[٩] . واستكمالا لهذا الإعلان الذى يبلغ الغاية فى البراعة ، استعملت مارى انطوانيت — التى لم تنس استاذها القديم — نفوذها فى دار الأوبرا . ووافق مديرها على اخراج «إفجينى» ، وحضر جلوك إلى باريس ، وألزم المغنين والأوركسترا ببروفات بلغت من الشدة والانضباط حداً ندر ان عرفوه من قبل . وتبين ان صوفى أرنو كبيرة المغنيات متمردة على أوامره فهدد بالإقلاع عن المشروع . وبدا ان جوزف لجرو قد أضعفه المرض إلى حد منعه من تمثيل دور الجبار أخيل : « أما جانتان فسترى» إله الرقص وقتها ، فأراد ان يكون نصف الأوبرا باليها[١٠] . وشد جلوك شعره ، أو قل باروكته ، وأصر على موقفه ، وانتصر . وكانت حفلة الافتتاح (١٩ ابريل ١٧٧٤) حدث العالم الموسيقى المثير . وقد نحس بما كانت عليه العاصمة الجياشه من هياج إذا قرأنا خطاب مارى انطوانيت لأختها ماريا كرستينا فى بروكسل . قالت :

« انه نصر عظيم ياعزيزتى كرستين ، إن الحماسة تجرفنى ، ولم يعد الناس يتكلمون على شىء غير هذا . وكل الرؤس تجيش نتيجة لهذا الحدث . . . فهناك انشقاقات ونزاعات أشبه بالنزاع الدينى . ومع انى أعلنت فى البلاط أننى فى صف هذا العمل الملهم ، فان هناك تحريات ومناقشات شديدة الحيوية . أما فى المدينة فيبدوا ان الحال أسوأ من هذا[١١] . »

ورد روسو تحية جلوك باعلانه أن « أوبرا مسيو جلوك قلبت كل أفكاره رأسا على عقب ، وقد اقتنع الآن أن اللغة الفرنسية تستطيع أن تنسجم كأى لغة أخرى مع الموسيقى القوية المؤثرة الحساسة[١٢] . وكانت الإفتتاحية رائعة حتى ان الجمهور فى الليلة الأولى طالب باعادتها ووجه النقد للالحان لأنها مسرفة فى الطول ، ولأنها تقطع سير الدراما ، ولكنها تميزت بعمق مركب فى الشعور تفردت به موسيقى جلوك . وقد قال الأبيه أرنو عن أحدها وهو «أجاممنون» «بمثل هذا اللحن قد يؤسس المرء دينا[١٣]».

ونافس جلوك الآن لويس الخامس عشر المحتضر محوراً لحديث باريس. وكان بدنه الضخم القوى ووجهه الأحمر وانفه الكبير يشار اليها كلها حيثما ذهب. واصبح طبعه الغضوب موضوعا لعشرات النوادر . ورسم له جروز صورة ظهرت فيها طبيعته الطيبة المرحة من خلف خطوط النضال والتوتر. وراح يأكل كما يأكل الدكتور جونسون ، ويسرف فى الشراب إسرافا لايبزه فيه غير بوزويل ، ولم يتظاهر باحتقار المال ، وكان يبادر للاشتراك فى الثناء على عمله . وقد عامل الحاشية وعامة الناس معاملة واحدة باعتبارهم أدنى منه قدرا ، وكان ينتظر من كبار النبلاء ان يناولوه باروكته ومعطفه وعصاه ، ولما قدم اليه أحد الأمراء فلم يبرح جلوك مـ ه علل سلوكه هذا بقوله « لقد ألف الناس فى المانيا إلا يقوم الواحد منهم إلا لمن يحترمه[١٤] . »

وكان مدير الأوبرا قد أنذره بأنه فى حالة نجاح « إفجينى وأوليد » ، فسيضطر جلوك إلى كتابة خمس أوبرات اخرى فى تعاقب سريع ، لأن افجينى ستطرد جميع الأوبرات الأخرى من المسرح . ولم يرهب الانذار جلوك لأنه اعتاد ان يقتطع اجزاء من مؤلفاته القديمة ويحشرها فى الجديدة وترجمت له «اورفيو واوريديتشى» إلى الفرنسيه ، ولما لم يجد مغنيا كفؤا ذا صوت رنان « كونترالتو » فى متناوله ، اعاد كتابة دور اورفيو لليجرو ذى الصوت الصارخ (التينور) . اما صوفى أرنو التى لا نت عريكتها الآن فقد لعبت دور اوريديتشى . ونجحت حفلة الافتتاح الباريسية نجاحا ادفأ صدره . وجادت مارى انطوانيت ، ملكة فرنسا الآن ، بمعاش قدره ستة آلاف فرنك لـ « عزيزى جلوك »[١٥] . وقفل إلى فيينا ورأسه يطاول النجوم .

وفى مارس ١٧٧٦ عاد إلى باريس بترجمة فرنسية لألسست ، أخرجت فلم تلق غير استحسان متوسط فى ٢٣ ابريل . أما جلوك الذى تعود النجاح فقد استجاب لهذه النكسة بكبرياء غاضبة وقال « ليست ألسيست من نوع الأعمال التى تسر الجمهور سرورا مؤقتاً ، أو التى تسرهم لجدتها .

فليس للزمن عليها سلطان . وأنا أزعم أنها ستسر السامعين نفس السرور بعد مائتى عام إذا لم يطرأ على اللغة الفرنسية تغيير »[١٦] . وفى يونيو عاد إلى فيينا ، وسرعان ما بدأ يلحن النص الذى كتبه مارمونتيل من جديد لمسرحية «رولان» التى سبق ان كتب نصها كينو .

وبدأت الآن أشهر المعارك فى تاريخ الأوبرا . ذلك أن إدارة الأوبرا كانت أثناء هذا قد كلفت نيكولوبتشينى النابولى بتلحين النص ذاته ، وأن يحضر إلى باريس ويخرجه . وحضر (٣١ ديسمبر ١٧٧٦) ، فلما انبىء جلوك بهذا التكليف أرسل إلى درولليه الذى كان بباريس آنذاك خطابا يضطرم بغضبة أو لمبية :

«لقد تلقيت للتو خطابك الذى . . . ناشدتنى فيه مواصلة تلحين أوبرا «رولان» . ولكن هذا لم يعد ممكنا، لأنى حين سمعت ان إدارة الأوبرا التى لم تجهل انى كنت ألحن رولان كلفت بهذا العمل ذاته مسيوبتشينى ، أحرقت كل ما كتبت منه ، ولعله لم يكن يساوى الكثير . . وأنا لم أعد رجلا يدخل فى منافسة ، وسكون للمسيو بيتشينى ميزة كبيرة جدا على لأنه بغض النظر عن كفايته الشخصية وهى بلاشك عظيمة جدا — سيكون له ميزة الجدة . . . وانا واثق ان سياسيا معينا من معارفى سيقدم الغذاء والعشاء لثلاثة ارباع باريس ليكسب له انصارا[١٧] .

ولأسباب ليست الآن واضحة نشر هذا الخطاب .. الذى كان من الواضح انه خطاب خاص — فى «الأنية ليتّرير» عدد فبراير ١٧٧٧ فأصبح عن غير قصد إعلاناً للحرب .

ووصل جلوك إلى باريس فى ٢٩ مايو ومعه اوبرا جديدة هى « أرميد » والتقى المؤلفان الغريمان على الغداء ، فتعانقا وتحدثا حديثاً ودياً . وكان بتشينى قد حضر إلى فرنسا دون ان يخطر له انه سيكون بيدقاً فى موامرة حزبية قذرة وتجارة اوبرالية ، وكان هو شخصياً شديد الاعجاب بفن جلوك . ولكن الحرب مضت فى الصالونات والمقاهى ، وفى الشوارع

والبيوت ، رغم ما بين الغريمين من مودة ؛ وروى تشارلز برنى أنه « ما من باب فتح لزائر دون أن يوجه اليه هذا السؤال قبل يسمح له بالدخول: سيدى أأنت من أنصار بتشينى أم من انصار جلوك[١٨] ؟» أما مارمونتيل ودالامبير ولاهارب فقد تزعموا الحزب المناصر لبتشينى والأسلوب الايطالى، وأما الأبيه أرنو فقد دافع عن جلوك فى «اعلان للايمان بالموسيقى» ، وأما روسو ، الذى كان قد افتتح الحرب بمقاله المناصر للموسيقى الإيطالية « فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) ، فقد ناصر جلوك .

وأخرجت أرميد فى ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ . وكان موضوعها وموسيقاها رجوعا إلى أشكال رسخت قبل اصلاح جلوك ، وقد اقتبست القصة من تاسو ، ومجدت رينالد والمسيحى وأرميدا الوثنية ، وكانت الموسيقى موسيقى لوللى معادة برقة رومانسية ، وأما الباليه فباليه نوفير فى أروعه ، واعجب هذا المزيج الجمهور فاستقبل الأوبرا استقبالا حسنا ، ولكن انصار بيتشينى نددوا بأرميدا قائلين إنها ليست سوى صقل للوللى ورامو . وانتظروا فى شوق أوبرا رولان الذى كان يلحنها حامل لوائهم . وأهداها بيتشينى إلى مارى انطوانيت مشفوعة باعتذاراته : لقد كنت فى حاجة لكل شجاعتى وأنا مزدرع ومعزول فى بلد كل شىء فيه جديد على تفت فى عضدى مئات العقبات المعترضة عملى ، ولقد فارقتنى شجاعتى[١٩] . وكان أحيانا يوشك ان يكف عن النضال ويعود إلى ايطاليا . ولكنه ثابر ، ووجد عزاء فى نجاح حفلة العرض الأولى (٢٧ يناير ١٧٧٨) . وبدا أن الانتصارين يلغى أحدهما الآخر . وواصلت الحرب السافرة احتدامها . وقد رأتها مدام فيجيه لبرون رأى العين فقالت «كانت ساحة القتال العادية هى حديقة الباليه رويال . فهناك كان انصار جلوك وبيتشينى يتشاجرون مشاجرات بلغ من عنفها انها أفضت إلى مبارزات كثيرة .

وعاد جلوك إلى فيينا فى مارس ، وتخلف فى فرتية ليرى فولتير . ثم صحب معه إلى بيته نصين أولها كتبه نيكولا — فرانسوا جيار وبناه على مسرحية أوربيدس « افجينى فى تاورس » . أما الثانى فكتبه البارون

جان — باتيست وتشودى عن موضوع الصدى ونارسيس . وعكف على الكتابين فما حل خريف ١٧٧٨ حتى شعر أنه على استعداد لخوض معركة أخرى . وهكذا نجده فى نوفمبر فى باريس مرة أخرى ، وفى ١٨ مايو ١٧٧٩ قدم فى دار الأوبرا أوبرا « افجينى فى تاوريد » التى يعدها معظم الطلاب أعظم مؤلفاته الموسيقية . وهى قصة قاتمة ، وكثير من موسيقاها شكاة رتيبة ، ونحن نمل أحيانا لنواح افجينى العالى . ولكن حين ينتهى العرض ويسكت سحر الموسيقى والأبيات عقلنا الشكاك ندرك اننا استمعنا إلى دراما عميقة قوية . وقد لاحظ معاصر ان فيها فقرات كثيرة رائعة ، أما الأبيه أرنو فقال «ان فيها فقرة رائعة واحدة فقط ، هى العمل كله[٢١]». واستقبل الجمهور العرض الأول للاوبرا بحماسة بالغه .

على ان جلوك تحدى الآلهة ، فتعجل بتقديم أوبراه الثانية «الصدى ونارسيس» (٢١سبتمبر ١٧٧٩) . ولكنها فشلت ، فغادر المايسترو باريس فى غضبة مضرية معلنا أنه شبع من باريس وأنه لن يكتب مزيدا من الأوبرات . ولوأطال مكثه فيها لسمع « أفجينى فى تاورند » . أخرى أخرجها بتشينى بعد عامين من الجهد الشاق . واستقبل الجمهور العرض الأول (٢٣ يناير ١٧٨٠) استقبالا حسنا ، ولكن فى الليلة الثانية كانت الآنسة لاجير التى غنت دور افجينى مخمورة بصورة واضحة ، حتى لقد حطمت صوفى أرنو العرض بتلقيبها الأوبرا « أفجينى فى شمبانيا[٢٢]» . وانهى هذا الحادث المؤسف الحرب الأوبرالية ، واعترف بيتشينى بهزيمته إعترافا جميلا .

أما جلوك فقد حلم فى فيينا بانتصارات أخرى . ففى ١٠ فبراير ١٨٨٠ كتب إلى كارل أوجست دوق ساكسى — فيمار راعى جوته : لقد شخت كثيرا ، وقد بعثرت خير طاقات ذهنى على الأمة الفرنسية . ولكنى أشعر بدافع باطنى يدفعنى لكتابة شىء لبلدى[٢٣] . ثم لحن بعض أناشيد كلوبشتوك التى مهدت الطريق لأجمل الليدات . وفى ١٧٨١ أصيب بالنقطة ، ولكن كان عزاء له استقبال فيينا لأفجينى فى تاورس واحياء

«أورفيو والسست» . وفى ١٥ نوفمبر ١٧٨٧ بينما كان يستضيف جماعة من أصدقائه تعاطى فى جرعة واحدة قدحا من مسكر قوى كان محظورا عليه . وأصابته تشنجات لم تمهله غير ساعات . وحاول بتشينى وهو فى نابلى دون جدوى جمع المال لأحياء حفلات موسيقية سنوية تذكارا لمنافسه[٢٤]. ذلك ان ايطاليا التى كانت تحبذ الميلوديا لم تأبه باصلاحات جلوك : ونهج موتسارت نهج الإيطاليين ، ولابد أنه صعق لفكرة تسخير الموسيقى للشعر . أما هردر الذى جاء فى ختام هذه الفترة الخلاقة والذى رجع البصر اليها بمعرفة محدودة بباخ وهايدن وموتسارت فقد وصف جلوك بأنه أعظم ملحنى القرن قاطبة [٢٥] .

٢ – يوزف هايدن : ١٧٣٢ -- ١٨٠٩

من الأيسر علينا أن نحب هايدن ، فهاهنا رجل لم يتشاجر مع إنسان غير زوجته ، رجل يشيد بمنافسيه كأنهم أصدقاؤه ، رجل أشرب موسيقاه بالمرح ، وكان بمزاجه الفطرى عاجزا عن المأساة .

ولم يحبه الحظ شرف المولد . فقد كان أبوه صانع عربات ونقاشا فى روراو ، وهى مدينة صغيرة على الحدود بين النمسا والمجر . أما أمه فكانت طاهية لأشراف هاراش وكان أبواه كلاهما من أصل سلافى كروانى لا ألمانى . وكثير من ألحان هايدن تردد صدى الأغانى الكرواتية . وكان الثانى بين اثنى عشر طفلا مات ستة منهم فى مستهل طفولتهم . وقد عمـــد باسم فرانتس يوزف هايدن ، ولكن كان من المألوف يومها أن ينادى الأطفال باسمهم الثانى .

فلما ناهز السادسة أرسل ليعيش مع قريب يدعى يوهان ماتياس فرانك ، صاحب مدرسة فى هاينبورج . هناك كان يومه يبدأ بدروس فى الفصل من الساعة السابعة إلى العاشرة ، ويلى ذلك القداس ، ثم الرجوع للبيت لتناول الغداء ، ثم دروس من الثانية عشرة إلى الثالثة ، ثم دروس فى الموسيقى . وقد درب على التدين ولم يفقده قط . وكانت أمه تتوق إلى

تجربه قسيساً ، وأحزنها حزناً عميقاً اختياره حياة الموسيقى التى لا ضمان لاستقرارها . على أن فرانك شجع ميل الطفل للموسيقى وعلمه كل ما فى طاقته أن يعلمه ، وألزمه نظاما صارما للدرس . وقد ذكر هايدن فى شيخوخته هذا الرجل وغفر له قائلا « سأكون ما حييت شاكراً لذلك الرجل أنه الزمنى العكوف على العمل وإن إعتدت أن أنال من الجلد أكثر مما أنال من الطعام[٢٦] » . وبعد أن قضى يوزف عامين مـع فرانك أخذه إلى فيينا جبورج رويتر ، مدير فرقة المرتلين فى كتدرائية القديس اسطفانوس ، ورأى رويتر إن صوته « الضعيف الحلو » قد يجد مكانا متواضعاً فى فرقة المرتلين . وهكذا ذهب الغـلام الحيى المشتاق ليعيش فى مدرسة المرتلين « الكانتورى » الملحقة بالكاتدرائية . وهناك كان يتلقى دروسا فى الحساب والكتابة واللاتينية والدين والترتيل والكمان . ورتل فى الكتدرائية وفى المصلى الامبراطورى ، ولكنه كان لا ينال إلا أتفه الغذاء ، فكان يرحب بدعوات للغناء فى البيوت الخاصة حيث يستطيع أن يمـلأ معدته فضلا عن إنشاد أغانيه .

وفى ١٧٤٥ انضم إليه فى مدرسة المرتلين أخوه ميخائيل الذى كان يصغره بخمس سنين . وحوالى هذا التاريخ بدأ صوت يوزف يصبح أجش ، فعرض عليه أن يخصى ليحتفظ بصوته السوبرانو ، ولكن أبويه لم يوافقا . واحتفظ به رويتر أطول ما يستطيع ، واخيراً فى ١٧٤٨ وجد يوزف نفسه وهو فى السادسة عشرة حراً ومفلسا ، لم يؤت من حسن السمت وجاذبيته ما يكسبه رضى الحظ عنه . فقد نقر الجدرى وجهه ، وكان أنفه بارزاً ، وساقاه أقصر مما يناسب جسمه ، ولباسه رثا ، ومشيته لا رشاقة فيها ، ومسلكه خجولا مترددا . ولم يكن بعد قد حذق العزف على أى آلة ، ولكنه كان فى تلك الآونه يقلب الألحان فى رأسه .

وعرض عليه زميل فى صف المرتلين حجرة على السطح ، وأقرضه أنطون بوخهولتز ١٥٠ فلورينا ردها إليه هايدن الأمين فيما بعد . وكان عليه أن يجلب الماء صعداً إلى حجرته العليا كل يوم ، ولكنه حصل على

كلافير (لوحة مفاتيح) قديم ، وبدأ يعلم بعض التلاميذ ، فأعانه هذا على الحياة . وكان فى أكثر الأيام يعمل ست عشرة ساعة بل أكثر ، ويعزف على الكمان فى كنيسة ، ثم على الارغن فى مصلى خاص للكونت هاوجفتز وزير ماريا تريزا ، ويغنى بصوت التينور بين آن وآخر فى كتدرائية القديس اسطفانوس . وكان لمناستازيو الشهير شقة فى البناء ذاته فحصل لهايدن على وظيفة معلم موسيقى لأبنة صديق له ، وعن طريق مناستازيو ألتقى هايدن ببوربورا ، ووافق هايدن على أن يخدم أمير معلمى الغناء هذا على أى وجه شاء مقابل تعليمة التأليف الموسيقى. ثم تلقى دروس التأليف الثمينة ، وكان ينظف حذاء المايسترو ومعطفه وباروكته ويقوم بمصاحبة بوربورا وتلاميذه على الكلافير . وقد قال هايدن وهـــو يذكر تلك الأيام فيما بعد « يستطع الشباب أن يتعلموا منى أن شيئا يمكن أن يخرج من لا شىء . فكل ما أنا عليه الآن إنما هو ثمرة أوقات الشدة التى عانيتها(٢٧) » .

وعن طريق أصدقائه الجدد تعرف إلى جلوك ودترزدورف وعدة أفراد من النبلاء . وأخذه كارل يوزف فون فورنبرج (١٧٥٥) ليمكث معه طويلا فى بيته الريفى — فيتزيرل — بقرب ملك ، هناك وجد هايدن أوركسترا من ثمانية عازفين واتسع بعض الفراغ للتأليف . فكتب الآن أولى رباعياته . ثم إضاف إلى هيكل الصوناتا المكون من ثلاث حركات والذى نقله عن كارل فيليب إيمانويل باخ منويتاً ، ودون الحركات الأربع لقطع أربع ، ثم أعطى الرباعيه الآلية شكلها الحديث . وعاد إلى فيينا فى ١٧٥٦ ولفت أنظار نفر من التلاميذ النبلاء مثل الكونتيسة فون تون . ثم قبل (١٧٥٩) وظيفة مدير الموسيقى للكونت مكسمليان فون مورتزن الذى كان أوركستراه الخاص المؤلف من إثنى عشر إلى ستة عشر عازفا يعزف فى فيينا شتاء ، وفى فيللا الكونت بلوكافيك ببوهيميا صيفا . ولهذه المجموعة كتب هايدن أولى سمفونياته (١٧٥٩) .

وإذ كان يكسب الآن مائتى فلورين فى العام يضاف إليها المسكن والمأكل ، فقد رأى أن فى وسعه المغامرة بالزواج . وكان من بين تلاميذه

إبنتان لصانع باروكات ، فأغرم بالصغرى ولكنها ترهبت ، وأقنع الأب هايدن بأن يتزوج شقيقتها ماريا أنا (١٧٦٠) . وكانت فى الحادية والثلاثين وهو فى الثامنة والعشرين . وتبين أنها مشاغبة متعصبة مسرفة عقيم . يقول هايدن « لا يهمها مثقال ذرة أن كان زوجها فنانا أو إسكافاً[٢٨] » . وبدأ ينظر إلى غيرها من النساء .

وكان يختلف إلى بيت مورتزن إحيانا للاستماع إلى الموسيقى الأمير بال أنطون استرهاتسى . فلما حل مورتزن أوركستراه إستخدم الأمير هايدن (١٧٦١) مساعداً لمدير الموسيقى فى مقره الريفى بأيزنشتات فى المجر . ونص العقد على أن يتقاضى هايدن أربعمائة فلورن فى العام بالأضافة إلى مكان على مائدة الموظفين ، و « يلاحظ بصفة خاصة أنه حين يدعى الأوركستر للأداء أمام جمهور أن يبدو الموسيقيون فى بزة رسمية مرتدين الجوارب الطويلة البيضاء والقمصان البيضاء . . وضفيرة أوباروكة[٢٩] » . وفى أيزنشتات كان رئيس فرقة المرتلين جريجور فرنر عاكفا على الموسيقى الكنسية ، فجهز هايدن الحفلات وألف لها الموسيقى . وكان يترأس على أربعة عشر موسيقيا وسبعة مغنين وكورس أختير من بين خدم الأمير . وقد شارك حجم الاوركسترا الصغير ، وطابع المستمعين ، فى تقرير نوع الموسيقى الخفيف اللطيف الذى كتبه هايدن لأسرة إسترهاتسى . وأكسبته طبيعته الطيبة محبة الموسيقيين ولم يمض على مجيئه إلى ايزنشتات كثير حتى راحوا يلقبونة « بابا هايدن » رغم إنه لم يجاوز وقتها التاسعة والعشرين[٣٠] . وألف لهم الصوناتات والثلاثيات والرباعيات والكونشرتوات والاغانى والكنتاتات ونحو ثلاثين سمفونية . وكثير من هذه المؤلفات وإن كانت ملكا للأمير حسب نص العقد نشر أو تداولة الناس مخطوطا فى فيينا وليبزج وإمستردام وباريس ولندن ، ولم يحل عام ١٧٦٦ حتى كان اسم هايدن ذائعاً دوليا .

فلما مات بال أنطون (١٨ مارس ١٧٦٢) خلفة فى رآسة أسرة إسترهاتسى أخوه ميكلوس يوزف الذى كاد يحب الموسيقى حبه لحلته

المرصعة بالماس . وكان يحسن العزف على « الفيولادى بوردونى» . (وهى شكل مختلف من أشكال الفيولادا جامبا) ، وكان سيدا لطيفا لهايدن طوال عشرتهما التى إمتدت قرابة ثلاثين عاماً . يقول هايدن« كان أميرى على الدوام راضيا عن إعمالى فلم احظ منه بمجرد تشجيع الاستحسان الدائم ، ولكن بوصفى قائدا للاوركستر إستطعت أن أجرى التجارب وألاحظ ما يحدث منها أثراً وما يضعف هذا الأثر ، وهكذا كنت فى وضع إتاح لى إن احسن ، وأغير . . وأغامر كما أشاء . لقد كنت مقطوع الصلة بالعالم وما من أحد يشوش على أو يعذبنى ، فاكرهت على الابتكار[٣١] .

ومات فرنر فى ٥ مارس ١٧٦٦ ، واصبح هايدن رئيسا لفرقة المرتلين. وسرعان ما انتقلت الأسره إلى القصر الجديد « قلعة استرهاتسى » التى كان ميكلوس قد بناها فى الطرف الجنوبى لنويزيدلر زى فى شمال غربى البحر . وكان الأمير شديد التعلق بهذا القصر حتى إنه كان يسكنه من مطلع الربيع حتى آخر الخريف ، ثم ينتقل شتاء إلى فيينا مصطحباً موسيقييه احيانا . وكان العازفون والمغنون يكرهون هـــذه العزلة الريفية لاسيا لأنها كانت تفصلهم عن زوجاتهم وابنائهم ثلاثة فصول فى العام ، ولكنهم كانوا يتعاطون اجوراً حسنة ولم يجرؤا على الشكوى . وذات مرة إراد هايدن أن يلمح لميكلوس بأن موسيقييه مشتاقون إلى أخذ اجازة ، فألف « سمفونية الوداع » (رقم ٥) وفى ختامها كانت الآلة تلو الأخرى تختفى من المدونة والعازف يطفىء شمعته ويتناول موسيقاه وآلته ثم يغادر المسرح . وفطن الأمير إلى القصد فرتب رحيل الفرقة إلى فيينا فى وقت قريب .

وسمح لهايدن على سبيل الاستثناء بأن يصحب معه زوجته إلى إسترهاتسا، ولكنه لم يقدر هذا الامتياز . ففى ١٧٧٩ وقع فى غرام لويجا بولتسللى ، وكانت مغنية وسطا استخدمتها استرهاتسا مع زوجها عازف الكمان أنطونيو. ويبدو أن هايدن أحس أنه مادامت الكنيسة الكاثوليكية لم تسمح له بتطليق زوجته المتعبة فإن عليها من قبيل الرأفة أن تسمح له بانحرافة أو اثنتين ، ولم يبذل كثيراً من الجهد فى اخفاء علاقته الغرامية هذه . أما أنطونيو فقد بلغ

من الكبر والمرض ما منعه من الاحتجاج الفعال ، وكان يعلم أن الفضل فى بقائه فى وظيفته راجع إلى إن رئيس فرقته يستطب لويجا . وكانت قد قدمت إلى استرهاتسا بغلام فى الثانية ، وفى ١٧٨٣ ولدت صبيا اخر نسبته الشائعات إلى بابا هايدن ، وتعلق قلب هايدن بالغلامين جميعاً وكان عونا لهما طوال حياته .

وخلال تلك السنوات الحافلة بالشواغل فى استرها تسا لم يتطور هايدن فى فن التلحين إلا تطورا بطيئا لأنه افتقد الحافز والمنافسة الخارجيين ، فلم ينتج شيئا يستحق أن يذكر به إلى أن بلغ الثانية والثلاثين — وهى سن كان موتسارت قد أكمل فيها « أعماله الكاملة» باستثناء «الناى السحرى » و « القداس الجنائزى » . وقد أنتج هايدن أبدع أعماله بعد بلوغه الخمسين ، وأولى سمفونياته الكبرى حين قارب الستين ، و « الخليقة » حين كان فى السادسة والستين . وكتب عدة أوبرات تؤدى فى استرهاتسا ، ولكن حين دعته براغ لتقديم أوبرا فيها ، ضمن سلسلة تقــرر أن تحتوى على زواج فيجارو ودون جوفانى ، أحجم فى رسالة كلها تواضع نبيل (ديسمبر ١٧٨٧) ، قال :

« تريد منى أوبرا هازلة . . . فإذا كان قصدك إخراجها فى براغ فانى لا استطيع أن اسدى إليك هذا الصنيع . ذلك أن أوبراتى لا تنفصل عن المجتمع الذى كتبت له ، وان تحدث التأثير المقصود منها إذا عزلت عن بيئتها الأصلية . ولكن يكون أمرا آخر أن أشرف بتكليفى بكتابة أوبرا جديدة لمسرحكم . على أنه حتى فى هذه الحالة ، سيكون من المغامرة أن أضع نفسى منافسا لموتسارت العظيم . ولو اننى استطعت فقط أن الهم كل عاشق للموسيقى ، خصوصا بين العظماء ، بمشاعر تبلغ فى عمقها مشاعرى ، وفهم واضح كفهمى ، وهم يستمعون إلى أعمال موتسارت الممتنعة على التقليد ، إذن لتبارت الأمم على حيازة هذه الجوهرة الكريمة داخل حدودها . وعلى براغ أن تجاهد للاحتفاظ بهذا الكنز فى قبضتها ، ولكن بمكافأته المكافأة اللائقة . واغفال هذا الجزاء كثيراً ما يكون مصدر حزن فى حياة عبقرى

عظيم ، وتثبيط للمزيد من الجهود ولمستقبل الأيام . وانى لأشعر بالسخط لأن موتسارت لم يستخدم إلى الآن فى أى بلاط امبراطورى أو ملكى . عفوا ان كنت قد خرجت عن الموضوع ، فموتسارت رجل عزيز على جداً » [٣٢] .

وكان هايدن نفسه يتوق إلى بلاط تنشر فيه موهبته جناحيها على نطاق أوسع ، ولكن كان عليه أن يقنع بالمجاملات الملكية . ووصلته الهدايا من فوديناند الرابع ملك نابلى وفردريك وليم الثانى ملك بروسيا وماريا فيودروفنا الأرشيدوقة الروسية . وفى ١٧٨١ بعث إليه شارل الثالث ملك أسبانيا علبة سعوط ذهبية مرصعة بالماس ، وسافر السفير الأسبانى لدى فيينا إلى استرهاتسا ليقدم إليه هذا الكنز الصغير بشخصه . ولعل لبوكيرينى يداً فى هذه اللفتة ، وكان يومها يقيم فى مدريد ، لأنه اقتبس أسلوب هايدن بحماسة شديدة حتى لقد لقب بـ « زوجة هايدن » [٣٣] . ولما قرر مجلس الكتدرائية فى قادس تكليف موسيقى بوضع الاطار الموسيقى لـ « كلمات مخلصنا السبع الأخيرة » رسا التكليف على هايدن ، فاستجاب بأوراتوريو (١٧٨٥) لم يلبث أن أدى فى أقطار كثيرة — فى الولايات المتحدة الأمريكية فى تاريخ مبكر (١٧٩١) . وفى ١٧٨٤ طلب مخرج باريسى ست سمفونيات ، فأتحفه هايدن بست « سمفونيات باريسية » . ووصلته عدة دعوات ليقود الحفلات الموسيقية فى لندن . وشعر هايدن بأنه مربوط باسترهاتسا برباط الولاء كما هو مربوط برباط التعاقد ، ولكن خطاباته الخاصة تشى بشوقه المتزايد إلى مسرح أرحب لفنه .

وفى ٢٨ سبتمبر ١٧٩٠ مات الأمير نيكلاوس يوزف . ولم يكن الأمير الجديد انطون استرهاتسى ولوعا بالموسيقى ، ففصل كل الموسيقيين تقريبا ، ولكنه احتفظ بهايدن اسميا فى خدمته ، ومنحه معاشا سنويا قدره ألف وأربعمائة فلورين ، وسمح له بأن يسكن حيث يشاء . وانتقل هايدن إلى فيينا لتوه تقريبا ، وتلقى الآن عدة عروض ، أعجلها من يوهان بيتر سالومون ،

الذى صرح له بهذه العبارة « لقد جئت من لندن لآخذك معى ، وسنبرم اتفاقنا غدا » . وعرض عليه ٣٠٠ جنيه لقاء أوبرا جديدة ، و ٣٠٠ أخرى نظير ست سمفونيات ، و ٢٠٠ أخرى نظير حق تأليفها ، و ٢٠٠ أخرى نظير عشرين حفلة موسيقية فى إنجلتره ، و ٢٠٠ أخرى نظير حفلة موسيقية تحيا فيها لصالح هايدن — ومجموعها كلها ١٢٠٠ جنيه . وكان هايدن يجهل الانجليزية ويخشى عبور المانش . وتوسل إليه موتسارت ألا يضطلع بهذه الأعباء والمغامرات قائلا « يا أبت ، إنك لم تتلق أى تعليم يؤهلك للعالم الواسع ، وأنت لا تتكلم إلا القليل جدا من اللغات ! » وأجاب هايدن « ولكن لغتى مفهومة فى العالم كله . » [٣٤] وباع البيت الذى منحه إياه الأمير ميكلوس يوزف فى أيزنشتات ، ودبر معاش زوجته وخليلته ، ثم انطلق إلى مغامرته الكبرى . وأنفق مع موتسارت الأيام الأخيرة قبل الرحيل ، وبكى موتسارت حين رآه يرحل (إنى أخشى يا أبتاه أن يكون هذا آخر وداع لنا) .

وغادر هايدن وسالومون فيينا فى ١٥ ديسمبر ١٧٩٠ ، ووصلا إلى لندن فى أول يناير ١٧٩١ . وكانت أولى حفلات هايدن الموسيقية (١١ مارس) انتصارا له . وختمت صحيفة « المورننج كرونكل» تقريرها عنها بهذه العبارة « لا نستطيع أن نخفى أملنا الوطيد فى أن يكون فى هذا الترحيب البالغ الذى لقيه منا أعظم عباقرة الموسيقى فى جيلنا هذا ما يغريه بأن يتخذ مقامه فى إنجلتره . » [٣٥] ونجحت كل الحفلات الموسيقية ، وفى ١٦ مايو أبهجت قلب هايدن حفلة أحييت لصالحه بـ ٣٥٠ جنيه . وفى ذلك الشهر حضر حفلة تذكارية لهندل فى كنيسة وستمنستر . واستمع إلى (المسيا) وبلغ به التأثر حد البكاء ، وقال فى تواضع (هندل ، أستاذنا جميعا .) [٣٦] واقترح بيرنى على جامعة أكسفورد أن تمنح هندل الجديد درجة فخرية ، وقبل الاقتراح ، وذهب هندل إلى الجامعة فى يوليو ، وأصبح دكتورا فى الموسيقى ، وقاد هناك سمفونيته فى مقام G الكبير (رقم ٩٢) وكان قد ألفها قبل ثلاث سنوات ، ولكن التاريخ يعرفها منذ ذلك الوقت بسمفونية

أكسفورد . . وتذكرنا حركتها البطيئة الجميلة بالاغنية الشعبية الانجليزية القديمة « لورد راندول » .

ولقد اتيح لهايدن أن يستمتع بمشهد الريف الانجليزى الذى رأى فيه تمجيدا سماويا للنبات والمطر ؛ لذلك قبل مغتبطا عقب عودته إلى لنـــدن دعوات لبيوت ريفية . وهناك وفى لندن كسب الكثير من الأصدقاء بترحيبه بالعزف والغناء فى حفلات خاصة . واتخذ له تلاميذ متقدمين فى الموسيقى ليعلمهم التأليف ، ومن بينهم أرملة وسيمة غنية تدعى يوهانا شروتر . ومع أنه كان فى الستين ، فان هالة شهرته أدارت رأسها فعرضت عليه حبها . وقد ذكر هذا الحديث فيما بعد فقال « أغلب الظن أنى كنت متزوجها لوكنت عزبا . » (٣٧) وفى غضون هذا كانت زوجته تلح عليه فى العودة . وفى خطاب أرسله إلى لويجا بولتسيللى قال متذمرا (إن زوجتى — الوحش الجهنمى — كتبت لى أشياء بلغت من الكثرة ما أكرهنى على الجواب بأنى لن أعود أبدا .) (٣٨)

وراح يشتغل بهمة رغم ما أثقل ضميره وجيبه من النسوة الثلاث ، فألف الآن ستا (رقم ٩٣ — ٩٨) من سمفونياته اللندنية الأثنى عشرة . ونرى فيها تطوراً ملحوظا من إنتاجه فى إيزنشتات واسترهاتسا . ولعل سمفونيات موتسارت قد شحذت فنه ، أو لعل احتفاء انجلتره به قد أخرج خير ما فيه ، أولعل إستماعة إلى هندل حرك فيه أعماقا لم تمسها بيئته الساكنة الهادئة فى ربى المجر ، أو لعل علاقاته الغرامية قد رفعته إلى العواطف الرقيقة كما بعثت فيه الفرحة البسيطة . وشق عليه إن يبرح انجلتره ؛ ولكنه كان مرتبطا بعقد مع الأمير أنطون استرهاتسى الذى أصر الآن على عودة هايدن ليشارك فى المهرجانات الممهدة لتتويج الأمبراطور فرانسيس الثانى . ومن ثم نراه يقتحم المانش ثانية فى أواخر يونيو ١٧٩٢ ، وينتقل من كاليه إلى بروكسل إلى بون ، ويلتقى ببيتهوفن (الذى كان آنئذ فى الثانيه والعشرين) ، ويحضر التتويج فى فرانكفورت ، ثم يصل إلى فيينا فى ٢٦ يونيو .

ولم تشر صحيفة واحدة إلى عودته ، ولا نظمت له حفلات موسيقية ، ولا حفل به البلاط . ولو كان موتسارت موجودا لاحتفى بمقدمه ، ولكن موتسارت كان قد قضى . وكتب هايدن إلى أرملته ، ونطوع باعطاء دروس مجانية لابنه ؛ وحث الناشرين على طبع المزيد من موسيقى موتسارت . ثم ذهب ليعيش مع زوجته فى المنزل المحتفظ به الآن متحفاً لهايدن (هايدن — جاسى ١٩) . وأرادته الزوجة إن يكتب لها البيت فرفض . وازدادت مشاجراته معها حدة . وقدم بيتهوفن فى ديسمبر ١٧٩٢ ، ليدرس عليه . ولكن العبقريين لم ينسجما معا ، فقدكان بيتهوفن متكبراً مسيطراً ، وكان هايدن يلقبه « المغولى الأكبر » (٣٩) . وقد شغله استغراقه فى عمله هو عن تصحيح تمرينات تلميذه بأمانة ، ووجد بيتهوفن سراً معلما آخر ، ولكنه واصل تلقى الدروس عن هايدن . قال الجبار الصغير «لم أتعلم منه شيئا(٤٠)» ، ومع ذلك فكثير من قطعه الأولى تنهج نهج هايدن ، وقد أهدى بعضها لمعلمه الشيخ .

وازداد تقدير القوم لهايدن فى النمسا وفى روراو ، فأقام الكونت فون هاراخ فى روراو ، عام ١٧٩٢ ، تمثالا لابن البلدة الذى غدا الآن ذائع الصيت ، ولكن ذكرى إنتصاراته وصداقاته فى إنجلترا كانت لا تزال حارة ، ومن ثم لم يتردد الموسيقى فى الموافقة على العرض الثانى الذى قدمه له سالومون بالذهاب إلى لندن وتكليفه كتابة ست سمفونيات جديدة . فغادر فيينا فى ١٩ يناير ١٧٩٤ ووصل إلى لندن فى ٤ فبراير . وكانت إقامته هذه التى إمتدت ثمانية عشر شهراً فى إنجلترا نصراً مؤزراً شدد عزمه كنصره الأول . وظفرت المجموعة الثانية من « السمفونيات اللندنية » (أرقام ٩٩ — ١٠٤) باستقبال طيب ، وخرج هايدن من حفلة أحييت لصالحه بدخل صافى قدره ٤٠٠ جنية . وكان تلاميذه يدفعون له جنيها انجليزيا فى الدرس ، وكانت السيدة شروتر تسكن بقربة ، وعاد الأثير المقرب للطبقة الارستقراطية ، فاستقبله الملك وأعداء الملك على السواء ، وأمير ويلز ، وعرضت عليه الملكة مسكنا فى ونزر طوال الصيف إذا أطال مقامه فى إنجلترا موسما آخر . ولكنه إعتذر بأن

أمير استرهاتسى الجديد يدعوه للعودة ، وأنه لا يستطيع الغياب عن زوجته فترة طويلة كهذه (!) . وكان الأمير أنطون قد مات ، وأراد خلفه الأمير ميكلوس الثانى أن يعيد الحفلات الاوركسترالية فى ايزنشتات . وهكذا غادر هايدن لندن فى ١٥ أغسطس ١٧٩٥ بعد أن حزم حقائبه وجيوبه عامرة بالنقود وبهم شطر وطنه .

وبعد أن زار تمثاله فى روراو قدم نفسه لميكلوس الثانى فى أيزنشتات ونظم الحفلات الموسيقية لشتى المناسبات هناك . على أنه كان يقيم فى بيته فى أطراف فيينا باستثناء الصيف والخريف . وفى عامى ١٧٩٦ — ٩٧ كان نابليون يسوق النمساويين أمامه فى إيطاليا ، وهدد تصاعد المشاعر الثورية فى النمسا نظام هابسبورج الملكى ، وتذكر هايدن كيف شدت الحماسة التى أثارها إنشاد النشيد الإنجليزى « حفظ الله الملك » إزر اسرة هانوفر فى إنجلتره ، وساءل نفسه إلا يمكن أن يفعل نشيد قومى مثل هذا فى شد أزر الامبراطور فرانسيس الثانى ؟ وتقدم صديقه البارون جوتفريد فان زفيتن (ابن طبيب ماريا تريزا) بهذا الإقتراح إلى الكونت فون زاوراو وزير الداخلية . وعين زاوراو ليوبولد هاشكا ليؤلف نصا للنشيد ، وإستجاب الشاعر بنشيده «حفظ الله الإمبراطور فرنسيس ، إمبراطورنا الصالح فرانسيس»

ووفق هايدن لهذه الكلمات لحنا لأغنية كرواتية قديمة ، وكانت النتيجة نشيداً قومياً مؤثر، رغم بساطته . وأنشد علانية فى عيد ميلاد الإمبراطور فى ١٢ فبراير ١٧٩٧ فى جميع المسارح الكبرى فى مملكة النمسا والمجر . وقد ظل مع بعض التغيير فى الفاظه — النشيد القومى النمساوى حتى ١٩٣٨ . وطور هايدن اللحن ، مع تنويعات ، ليصبح الحركة الثانية فى رباعيته الوترية (٧٦ رقم ٣) .

ثم حاول أن ينافس « المسيا » وهو ما يزال أسيراً لسحر هندل . وكان

سالومون قد قدم له نصا مصنفا من قصيدة لمتن « الفردوس المفقود » ، وترجم فان زفيتن النص إلى الألمانية ، ولحن هايدن الأوراتوريو الضخم « دى شويفونج » (الخليقة) . وأدى أوراتوريو « الخليقة » أمام جمهور دعى إلى قصر الأمير فون شفارتسنبرج فى ٢٩ — ٣٠ إبريل ١٧٩٨ . وبلغ احتشاد الجمهور خارج القصر مبلغا إقتضى معه حفظ النظام إستخدام خمسين شرطيا من الخيالة (كما يؤكدون)[٤١] . ومول الأمير حفلة عامة فى المسرح القومى فى ١٩ مارس ١٧٩٩ ، ونفح مؤلف الموسيقى بكل دخلها (الذى بلغ أربعة آلاف فلورن) . وحيا السامعون الموسيقى بحماسة أشبة بالحماسة الدينية ، وما لبث الاوراتوريو أن أستمع إليه الناس فى كل مدينة كبرى تقريباً فى العالم المسيحى . وأدانت الكنيسة الكاثوليكية اللحن لأنه أخف وأجذل من إن يصلح لموضوع جليل كهذا ، ووافق شيلر بيتهوفن فى السخرية من تقليد هايدن لحيوانات جنة عدن ، أما جوته فقد أشاد بالعمل ، وظفر اللحن فى بروسيا بعروض فى القرن التاسع عشر فاقت فى كثرتها أى لحن كورالى آخر .

وقدم فان زفيتن نصا آخر إقتبسه من قصيدة جيمس طومسن «الفصول». وعكف هايدن عليه بهمة قرابة عامين (١٧٩٩ — ١٨٠١) ، مما أضر كثيراً بصحته . وقد قال « أن « الفصول » قصمت ظهرى » . وحظيت حفلة العرض الأولى باستقبال طيب ، ولكن اللحن لم يثر حماسة واسعة أو دائمة . وبعد أن قاد هايدن «كلمات المسيح السبع الأخيرة » لصالح احد المستشفيات اعتزل حياته النشيطة .

وكانت زوجته قد ماتت فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، ولكنه كان الآن قد بلغ من الكبر حداً لا يتيح له الأستمتاع بحريته وإن لم يمنعه من الاستمتاع بشهرته . فقد إعترف به الناس إماما للمؤلفين الموسيقيين ، وتكاثرت عليه أسباب التشريف من شتى المدن ، ووفد عليه مشاهير الموسيقيين — أمثال كيروبينى ، وآل فيبر ، واجناز بلييل ، وهوميل — لتقديم واجب الاحترام والأجلال له . ولكن الروماتزم والدوار وغيرهما من الأوصاب أورثته

الاكتئاب وسرعة الغضب والتشبث الرهيب بأهداب الدين . وحين زاره كاميل بلييل فى ١٨٠٥ وجده « ممسكا بمسبحة فى يديه ، وأعتقد أنه يقضى أكثر يومه فى الصلاة ، وهو لا يفتأ يقول أن نهايته قد دنت . . . ولم نطل المكث معه لأننا رأينا أنه يريد أن يصلى[٤٢] . فى ذلك العام انتشرت شائعة كاذبة زعمت أن هايدن مات . وكتب كيروبينى كنتاتا عن موته ، وخططت باريس لحفلة موسيقية تذكارية يعزف فيها قداس موتسارت الجنائزى ، ثم وصل نبأ بان الشيخ ما زال على قيد الحياة . فلما سمع هايدن بالأمر قال معقباً « إذن لسافرت إلى باريس لأقود القداس الجنائزى بنفسى »[٤٣] .

وظهر آخر مرة أمام الجمهور فى ٢٧ مارس ١٨٠٩ حين رتلت «الخليقة» فى جامعة فيينا احتفالا بعيد ميلاده السادس والسبعين الوشيك . وأرسل الأمير استرهاتسى مركبته لنقل الرجل العاجز إلى الحفلة الموسيقية . وحمل هايدن على كرسى ذى مسندين إلى القاعة بين جمهور من النبلاء ومشاهير القوم ، ولفت الأميرات شيلانهن حول جسده المرتعش . وجثا بيتهوفن وقبل يده . وغلب التأثر المؤلف العجوز ، ولم يكن بد من اعادته إلى بيته فى فترة الاستراحة .

وفى ١٢ مايو ١٨٠٩ بدأت مدفعية نابليون تقصف فيينا . وسقطت قنبلة على مقربة من بيت هايدن فهزته هو وسكانه ، ولكن هايدن قال ليطمئنهم « ياأبنائى لاتخافوا ، فحيث يوجد هايدن لن يصيبكم سوء» . وصدق قوله إلا عن نفسه ، فقد حطم القصف جهازه العصبى . فلما استولى الفرنسيون على المدينة أمر نابليون بأن يرابط حرس شرف أمام بيت المؤلف . ورتل ضابط فرنسى عند دخوله لحنا من « الخليقة » بطريقة فيها كثير من الرجولة والسمو حتى أن هايدن عانقه وفى ٣١ مايو قضى نحبه وهو فى السابعة والسبعين ، وأقامت كبرى مدن أوربا كلها الصلوات تذكارا له .

يقتصر انجاز هايدن التاريخى على تطوير الأشكال الموسيقية . وقد أضفى على الأوركستر حيوية جديدة بما أوجده من توازن بين الأوتار وآلات النفخ والنقر . وإذ بنى فوق جهود سامارتينى وشتامنز وكارل

فليب ايمانويل باخ : فانه أرسى شكل الصوناتا بلاعتبارها عرضا وتفصيلا وتلخيصا لموضوعات متعارضة وأعد لموتسارت الموسيقى الخفيفة المسلية المسماة « ديفرتمنتو » باعتبارها أقل شكليةمن المتتالية وأنسب القاعات الاجتماعية. وأعطى الرباعية الوترية صورتها الكلاسيكية باطالتها إلى أربع حركات ، وباعطاء الحركة الأولى «شكل الصوناتا» . وهنا كان على خلفائه أن يستخدموا عدد ونوع الآلات التى استخدمها هايدن ، وقد حقق فى كثير من الحالات جمالا مشرقاً رقيقاً يعود إليه بعضنا متخففاً من التعقيدات العسيرة التى نجدها فى رباعيات بيتهوفن الأخيرة .

ولاتزال على قيد الحياة تسمع سمفونيات أو عشر من سمفونيات هايدن المائة والأربعة . ولم تكن الأسماء التى تحملها من اختياره ولكنها من وضع المعلقين أو الناشرين . وقد لاحظنا فى مكان سابق تطور «السنفونية» (أى الأصوات المجمعة) من المقدمة بفضل تجارب سامرتينى وشتامتز . وقد سبق كثيرون هايدن فى صياغة بناء السمفونية «الكلاسيكية» فلماخرج من استرهاتسا إلى عالم أرحب لم يكن قد بلغ من الكبر حداً يعجزه عن أن يتعلم من موتسارت كيف يملاء البناء مغزى وعاطفة . وتحدد « سمفونية أكسفورد » مرحلة صعوده إلى مدى أبعد وقوة أعظم،وترينا « السمفونيات اللندنية » هايدن فى قمة آفاقه السمفونية . والسمفونيـــة رقم ١.١ (سمفونية الساعة) مبهجة ، ورقم ١٠٤ لا يقل مستواها عن سمفونيات موتسارت .

ويمكن القول بوجه عام إننا نحس فى موسيقاه طبيعة لطيفة سمحة ربما لم تشعر قط بأعماق الحزن أو الحب ، طبيعة اضطرت إلى الانتاج فى عجلة لم تسمح بإنضاج الفكرة أو الموضوع أو الجملة . لقد كان هايدن أسعد من أن يبلغ العظمة العميقة ، ولقد تكلم أكثر مما يتيح له التعبير عن الكثير . ومع ذلك فـن فى هذه الانغام اللعوب ذخيرة من البهجة الصافية الهادئة ، فهنا كما قال « قد يستمتع المتعبون المكدودون ، أو الرجل الذى أثقلته هموم الحياة ، ببعض السلوى والانتعاش [٤٤] » .

وعقب موت هايدن انصرف العصر عن موسيقاه . فلقد عكست أعماله عالما اقطاعيا ثابتا وطيد الأركان ، وبيئة من الأمن والدعة الارستقراطيين ، وكان فى هذه الأعمال من المرح والرضى عن النفس ما لا يشبع قرنا ملؤه الثورات والأزمات والنشوات الرومانسية واليأس . ولكن الناس عادوا يقبلون عليه حين امتدحه براهز وكتب دبوسى « تحية اجلال لهايدن » (١٩٠٩) . عندها أدرك الناس أنه إذا كان رفائيل وميكلانجلو الموسيقى اللذان جاء بعده قد سكبا فكرا أعمق مع تمكن أرهف فى مؤلفاتهما الموسيقية ، فانهما لم يستطيعا ذلك إلا لأن هايدن ومن سبقوه صاغوا الأشكال التى تلقاها فنهما الرائع . قال هايدن « انى أعلم أن الله منحنى موهبة ، وأنا شاكر له هذه المنحة وأحسبنى قمت بواجبى وكنت ذا نفع . . فليصنع الآخرون كما صنعت . » (٤٥)

الفصل الخامس عشر

موتسارت

١ — الصبي العجيب : ١٧٥٦ — ٦٦

كانت سالزبورج مخفرا موسيقيا أماميا لفيينا ، شأنها فى ذلك شأن براغ وبرسبورج واسترهاتسا ، لها طابعها الخاص أولا بسبب مناجم ملحها التى تعلل اسمها ، وثانيا بسبب جبالها المجاورة ونهر زالتساخ الذى يشطرها شطرين ، وثالثا بسبب نموها حول الدير والكرسى الاسقفى اللذين أنشأهما هناك القديس روبرت الفورمزى حوالى عام ٧٠٠ م . وقد رقى رئيس أساقفتها لرتبة (الأمير الامبراطورى) فى ١٢٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٠٢ ظل حاكم المدينة المدنى والدينى جميعا . وفى ١٧٣١ — ٣٢ أكره نحو ثلاثين ألف بروتستنتى على الهجرة ، مخلفين سالزبورج كاثوليكية خالصة محكومة كلها بحكومة من رجال الدين الكاثوليك . وفيما عدا ذلك كان نير رئيس الاساقفة خفيفا على سكان سنيى العقيدة ، أقبلوا على المتع الجسدية وغيرها من مباهج الدنيا بعد أن أطمأنوا إلى حقائق الأبدية المؤكدة . وكان زيجسموند فون شراتنباخ رئيس الاساقفة أيام صبى موتسارت ، وجلا يتحلى بقدر كبير من الطيبة والشفقة إلا مع المهرطقين .

إلى هذه البلدة الجميلة إذن قدم ليوبولد موتسارت فى ١٧٣٧ وهو فى الثامنة عشرة من وطنه أوجزبورج ، ربما ليدرس اللاهوت ويمتهن القسوسية . ولكنه أسلم قلبه للموسيقى ، وخدم ثلاث سنين موسيقيا وتابعا فى بيت أحد النبلاء ، وفى ١٧٤٣ أصبح رابع عازفى الكمان فى أوركسترا رئيس الاساقفة . فلما تزوج آنا ماريا بيرتل (١٧٤٧) عدهما القوم أجمل عروسين فى سالزبورج . وقد ألف الكونشرتوات والقداسات والسمفونيات ، كما ألف كتابا مدرسيا لتقنية الكمان حظى طويلا بالتقدير . وفى ١٧٥٧ عين مؤلفا موسيقيا لبلاط رئيس الاساقفة . ولم يبق الموت إلا على اثنين من

أطفاله السبعة جاوزا سن الطفولة : ماريا آنا (ماريانا « نانيرل ») المولودة فى ١٧٥١ ، وفولفجانج أماديوس المولود فى ٢٧ يناير ١٧٥٦ (واسم الغلام الكامل — الذى تشفعت به الأسرة لدى قديسين عديدين — كان يوانس خريسوستومس فولفجانجس تيوفيلوس موتسارت ، وقد ترجم تيوفيلوس من اليونانية إلى اللاتينية بأماديوس أى محب الله .) وكان ليوبولد زوجا وأبا طيبا ، مخلصا ومجتهدا . وخطاباته لوالده تفيض محبة ولا تعوزها الحكمة . وكان بيت موتسارت — إذا أغضينا عن قليل من نابى الحديث يدور فيه — مرفأ للحب المتبادل ، والتقوى الأبوية ، والدعابات الطفلية ، والموسيقى التى لا تنقضى .

كان القوم يتوقعون من كل طفل ألمانى أن يصبح موسيقيا إلى حدما ، يعزف على إحدى الآلات . وعلم ليوبولد أطفاله الموسيقى مع مبادىء القراءة . فكانت ماريانا قد اتقنت فى الحادية عشرة العزف على الكلافيكورد . أما فولفجانج فقد عكف على الكلافير فى شغف بعد أن حفزته قدوتها ، فأستطاع فى الثالثة أن يميز بين الأوتار ، وفى الرابعة أن يعزف عدة قطع من الذاكرة ، وفى الخامسة ابتكر ألحانا سجلها أبوه أثناء عزفها . وأمتنع ليوبولد عن إتخاذ تلاميذ آخرين يلقنهم الموسيقى ليفرغ بجملتة لطفلية وإن كلفة ذلك بعض التضحية . ولم يرسل « فولف » إلى المدرسة ، لأنه نوى أن يكون معلمه فى كل شىء . ولعل هذا التعليم إقتضى شيئاً من الضبط الألمانى ، ولكن لم تكن الحاجة لكثير منه فى هذه الحالة ، ذلك أن الغلام كان يلزم لوحة المفاتيح من تلقاء نفسه ساعات طوالا إلى أن يجبر على مبارحتها[1] . وقد كتب إليه ليوبولد بعد هذه الفترة بسنوات يقول :

« لقد كنت فى مرحلة الطفولة والصبى تسلك مسلكا جاداً يختلف عن مسلك سائر الأطفال ، وحين كنت تعزف الكلافير ، أو تعكف على الموسيقى ، لم تكن تسمح بأقل مزاح معك . لا بل إن سحنتك ذاتها كانت تتسم بطابع الجد الشديد ، حتى لقد تنبأ الكثيرون ممن راقبوك بأنك ستموت قبل أوانك بسبب نبوغك المبكر ومظهرك الجاد[2] » .

وفى يناير ١٧٦٢ ، حين كانت ألمانيا مازالت تمزقها الحرب ، إصطحب ليوبولد إبنته وإبنه إلى ميونخ ليعرض على الأمير الناخب مكسمليان يوزف براعتهما فى العزف ، وفى سبتمبر إستصحبهما إلى فيينا . ودعيا إلى شونبرون ، وإبتهجت ماريا تريزا وفرانس الأول بالطفلين ، وقفز ڤولفجانج إلى حجر الأمبراطورة ، وضمها إليه وقبلها ، ولما تحداه الأمبراطور عزف على الكمان بأصبع واحدة ، وعزف على الكلافيكورد دون أن يخطىء رغم حجب المفاتيح بقطعة من قماش . وفيما كان فولفجانج يمرح وهو يجرى مع الأميرات ، زلت قدمه وسقط ، فالتقطته الأرشيدوقة ماريا أنطونيا — وكانت فى السابعة — وراحت تسرى عنه . فقال لها « أنت طيبة » ، ثم أضاف شاكراً « سوف أتزوجك[٣] » . وفتح الكثير من النبلاء بيوتهم لآل موتسارت وهتوا للموسيقى التى سمعوها وأثابوا ثلاثتهم بالمال والهدايا . ثم ألزم الغلام الفراش أسبوعين لأصابته بالحمى القرمزية — وكان هذا أول الأمراض الكثيرة التى ستنغص عليه رحلاته . وفى ١٧٦٣ عادت الفرقة إلى سالزبورج .

وأغضى رئيس الأساقفة المتسامح عن تجاوز ليوبولد فترة أجازته ، لا بل رقاه نائبا لرئيس فرقة المرتلين ولكن فى ٩ يونيو شد ليوبولد رحالة مرة أخرى مضحيا بالمزيد من الترقيات ، مصطحباً هذه المرة زوجته ، ليعرض ولديه على أوربا ، إذ لم يكن ممكنا أن يظلا أبد الدهــر طفلين معجزين . وقدم الطفلان حفلتين موسيقيتين فى ماينز وأربعاً فى فرانكفورت وقد استعاد جوته بعد ستين عاماً ذكرى استماعة إلى إحداها ، وكيف تعجب من « الرجل القصير ذى الباروكة والسيف » — لأنه هكذا ألبس ليوبولد إبنه فولفجانج كأنه عجيبة من عجائب السيرك . ففى إعلان نشر فى جريدة فرانكفورتية بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٧٦٣ وعد المتفرجون فى حفلة ذلك المساء بالآتى :

« ستعزف الفتاة الصغيرة ذات الأحدى عشرة سنة أعسر مؤلفات كبار الموسيقيين ، أما الصبى الذى لم يبلغ السابعة بعد فسيعزف على الكلافيكورد

أو الهاربسيكورد . كذلك سيعزف كونشرتو للفيولينه ، ويصاحب سمفونيات على الكلافير ولوحة المفاتيح مغطاة بالقماش فى يسر بالغ كأنه يبصر المفاتيح. وسيسمى جميع النغمات التى تعزف عن بعد ، سواء مفرده أو متوافقة ، على الكلافير أو على اية آلة أخرى — جرسا كانت أو كأسا أو ساعة . وأخيراً سيرتجل على الهاربسيكورد والأرغن طوال ما يراد له أن يعزف ، وفى أى مقام(٤) » .

وربما أضرت هذه المطالب المرهقة التى فرضت على مواهب الصبى بعض الضرر بصحته أو أعصابه ، ولكن يبدو أنه استمتع بتصفيق الجمهور إستمتاع أبيه بدنانيره .

وقد عزفوا فى كوبلنتز ، وخاب أملهم فى بون وكواوينا ، ولكنهم أحيوا حفلة فى آخن . وفى بروكسل توقعوا أن يشرف الحاكم العام الأمير شارل اللورينى الحفل بحضوره ، ولكنه كان مشغولا . كتب ليوبولد غاضباً :

« لقد إنقضى علينا الآن قرابة ثلاثة أسابيع فى بروكسل . . دون أن يحدث شىء . . . وما من شغل لسموه غير الصيد والتهام الطعام والشراب ، وقد يتبين لنا فى النهاية أنه مفلس ... صحيح أننا تلقينا العديد من الهدايا هنا، ولكنا لانريد أن نحولها إلى نقود . . . وسيكون فى إستطاعتنا بعد قليل أن نفتح متجراً بكل هذه الهدايا من علب النشوق والحقائب الجلدية وما إليها من توافه رخيصة(٥) » .

وأخيرا وافق الأمير على الحضور فأحييت الحفلة ، وجمعت الدنانير ، وركبت الفرقة ميممة باريس .

وفى ١٥ نوفمبر ١٧٦٣ بلغوا باريس بعد معاناة ثلاثة أيام من السفر على طريق وعرة تملؤها الحفر . وكانوا يحملون خطابات تقديم إلى كثير من الأعيان ، ولكن تبين أن أثمنها خطاب إلى ملشيور جريم ، الذى رتب أن يستقبل آل موتسارت مدام ديمبادور ، والأسرة المالكة ، وأخيرا لويس الخامس عشر والملكة مارى لسزنسكا . وفتحت الآن أفخم البيوت للزائرين ،

وحالف التوفيق حفلاتهم الخاصة والعامة ، وكتب جريم إلى قرائه فى حماسة يقول :

« إن المعجزات الحقيقية نادرة ، ولكن ما أعجب أن تتاح لنا الفرصة لرؤية واحده منها ! لقد قدم لتوه رئيس فرقة مرتلين من سالزبورج أسمه موتسارت بصحبة إثنين من أجمل الأطفال فى العالم فى فاماً إبنتة البالغة من العمر أحد عشر ربيعاً فتعزف على البيان أروع عزف ، وتؤدى أطول المقطوعات وأصعبها بدقة مذهلة . وأما أخوها الذى سيبلغ السابعة فى فبراير القادم فظاهرة خارقة بحيث لا تكاد تصدق ما تراه بعينيك . . . فيداه صغيرتان جداً . . . وهـــو يرتجل ساعة ، مستسلما لوحى عبقريته ، بذخيرة من الأفكار المبهجة . . . وليس لدى أكفأ رئيس لفرقة موسيقى ما لهذا الطفل من المعرفة العميقة بتآلف الألحان والتنقل بين النغمات . . . وليس أيسر عنده من حل أى رموز تضعها أمامه . وهو يكتب ويؤلف بيسر مدهش ، ولا يجد ضرورة للذهاب إلى البيانو واختبار الأوتار التى يريدها . وقد كتبت له « منويتا » وطلبت إليه أن يضع باصاً لها . فأمسك بقلم وكتب الباص دون أن يذهب إلى البيان . . . أن الطفل سيدير رأسى إن استمعت إلى المزيد من عزفه . . . ومن أسف أن الناس فى هذا البلد لا يفقهون عن الموسيقى إلا أقل القليل[٦] » .

وبعد أن حققت الأسرة الكثير من الأنتصارات فى باريس غادرتها إلى كالية (١٠ أبريل ١٧٦٤) . وفى لندن استقبلهم جورج الثالث . وفى ١٩ مايو ، أمام الملك والحاشية ، طوال أربع ساعات عزف فولفجانج موسيقى هندل وباخ ، غيرهما من كبار الموسيقيين بمجرد النظر إلى المدونة وصاحب غناء الملكة شارلوت ، وارتجل لحنا جديداً لباص أغنية لهندل . أما يوهان كرستيان باخ ، الذى كان قد إتخذ لندن مقاماً له فى ١٧٦٢ ، فأجلس الصبى على ركبتة وعزف معه صوناتا ، وكان كل منهما يعزف فاصلة بدوره « فى دقة بالغة ما كان فى استطاعة أحد معها أن يحسب العزف من عازفين لا من عازف واحد[٧] » . وبدأ باخ « فوجة » ، وتابعها

فولفجانج ، كما لو كان العازفان العبقريان عازفا واحداً هنا أيضاً . وبعدها طلت مؤلفات موتسارت سنوات عديدة متأثره بيوهان كرستيان باخ . وفى ٥ يونيو أحيا الطفلان حفلة أبهجت قلب ليوبولد بمائة جنية انجليزى خالصة . ولكن الأب أصيب بالتهاب شديد فى الحلق ، واعتكفت الأسرة فى تشلسى للاستجمام أسابيع عدة ، ألف فيها فولفجانج سمفونيتين (ك١٦ و ١٩) ، وكان الآن يناهز الثامنة .

وفى ٢٤ يوليو ١٧٦٥ غادروا لندن إلى هولنده ، ولكن فى مدينة ليل مرض الوالد وولده ، وأرجئت الجولة شهرا ، وإن كان رئيس الأساقفة فون شراتنباخ قد طلب إلى ليوبولد أن يعود منذ زمن . ووصلوا إلى لأهاى فى ١١ سبتمبر ، ولكن فى الغد مرضت ماريانا بدورها ، ولم تلبث أن تدهورت حالها حتى أنها فى ٢١ أكتوبر تناولت الأسرار المقدسة الأخيرة . وفى ٣٠ سبتمبر أحيا فولفجانج حفلة بدون مساعدة أخته . وما إن تماثلت للشفاء حتى دهمته الحمى ، واضطرت الأسرة إلى تعطل كلفها غاليا حتى يناير ١٧٦٦ . وفى ٢٩ يناير و ٢٦ فبراير أحيوا حفلات فى امستردام ، وعزفت الآن لأول مره سمفونية لموتسارت (ك ٢٢) أمام الجمهور . وكان الصبى خلال هذه الشهور يؤلف فى نشاط محموم . وفى مايو قفلوا إلى باريس حيث كانوا قد تركوا كثيراً من حقائبهم . وهيأ جريم لهم مسكنا مريحا ، وعادوا يعزفون فى فرساى وفى حفلات عامة ، ولم يقتلعوا أنفسهم من العاصمة الفاتنة إلا فى ٩ يوليو .

وأطالوا المكث فى ديجون ضيوفا على أمير كونديه ، وأنفقوا أربعة أسابيع فى ليون ، وثلاثة فى جنيف ، وأسبوعا فى لوزان ، وآخر فى برن ، واثنين فى زيورخ ، واثنى عشر يوما فى دوناوشنجن ثم وقفات قصيرة فى بيبراخ ، وأولم ، وأجزبورج ، وفترة أطول فى ميونخ ، حيث مرض فولفجانج مرة أخرى . وأخيراً ، فى آخريات نوفمبر ١٧٦٦ ، وبعد غيبة ثلاث سنين ونصف ، وصلت الأسرة إلى سالزبورج . وصفح عنهم رئيس الأساقفة الشيخ ، واستطاعوا الآن أن ينعموا بأسباب الراحة المتاحة فى

بيتهم . وبدا أن كل شيء على ما برام ، ولكن موتسارت لم يستعد بعدها صحة موفورة قط .

٢ — مرحلة المراهقة : ١٧٦٦ — ٧٧

كان ليوبولد رب عمل صارما لا يعرف هوادة ولا تلين له قناة . درب ولده تدريبا شاقا على دراسة الكونترا بنظ ، والباص الدقيق الكامل ، وغير ذلك من عناصر التأليف الموسيقى التي تلقاها من الموسيقى الألمانية والايطالية. وحين سمع الأسقف أن فولفجانج يؤلف الموسيقى تساءل ألم يتعاون معه أبوه فى هذا التأليف . ولكى يقطع الشك باليقين دعا الغلام ليقيم معه أسبوعا ثم عزله عن كل معونة خارجية ، ودفع إليه ورقا وقاما وأعطاه هاربسيكوردا وطلب إليه أن يؤلف قسما من أوراتوريو عن الوصية الأولى . وفى ختام الأسبوع قدم إليه موتسارت نتيجة عمله ، وقيل لرئيس الأساقفه . إنها جديره بالثناء . وكلف رئيس أوركستراه ميخائيل (أخا يوزف) هايدن بأن يؤلف قسما ثانياً ، وعازف أرغنه أن يؤلف قسما ثالثاً ، ثم عزف الكل فى قصر رئاسة الأسقفية فى ١٢ مارس ١٧٦٧ ، ورؤى أنه يستحق الأعادة فى ٢ أبريل . وقسم موتسارت وارد الآن تحت رقم ٣٥ فى كتالوج كوشل(*)

وبلغ ليوبولد أن الأرشيدوقة ماريا يوزفا ستزف قريباً إلى فرد يناند ملك نابلى ، فخطر له أن الاحتفالات التى ستقام فى القصر الأمبراطورى ستتيح فرصة جديدة لولدية . وعليه قصدت الأسرة فيينا فى ١١ سبتمبر ١٧٦٧ . فأستقبلوا فى القصر ، وكانت النتيجة إصابة فولفجانج وماريانا كليهما بالجدرى الذى التقطا عدواه من العروس . وأخذ الأبوان التعسان طفليهما المعجزين إلى أولموتز بموراقيا ، حيث قدم لهما الكونت بوتستاتسكى

(*) صدر هذا أصلا فى ليبزج عام ١٨٦٢ تحت اسم Chronologisch-thematisches Verzeichniss sammtlicher Tonworke W,A. Mozarts ونحن نستعمل الطبعة المنقحة من عمل ألفريد أينشتين فى كتابه « موتسارت شخصيته وآثاره (لندن ١٩٥٧) ، ٤٧٣ - ٨٣

المأوى والرعاية وظـــل موتسارت أعمى تسعة أيام . وفى ١٠ يناير عادت الأسرة إلى فيينا . واحتفلت بهم الأمبراطوره ويوزف الثانى ، ولـكن البلاط كان فى حداد على وفاة العروس ، ولم يكن هناك محل لأحياء حفلات موسيقية .

وبعد غياب طويل لا نفع فيه عادت الأسرة إلى سالبزبورج (٥ يناير ١٧٦٩) وواصل موتسارت دراساته مع أبيه ، ولـكن فى أو اخر ذلك العام قـ ر ليوبولد أنه علم الصبى كل ما يستطيع أن يعلمة ، وأن ما يحتاج إليه فولفجانج الآن هو الألمام بحياة ايطاليا الموسيقية . ومن ثم حصل الأب وابنه على خطابات تقديم لـكبار الموسيقيين الأيطاليين من يوهان هاسى وغيره ، ثم انطلقا فى رحلتهما فى ١٣ ديسمبر ١٧٦٩ تاركين ماريانا وأمها ليحتفظا بموطىء قدم فى سالزبورج . وفى الليلة التالية أحيا موتسارت حفلة فى انزبروك ، وعزف بمجرد الاطلاع على النوتة كونشرتو غير مألوف وضع أمامة إمتحانا لمهارتة ، وهللت الصحافة المحلية لـ « معلوماتة الموسيقية الخارقة[٨] » . وفى ميلان التقيا بسامارتينى وهاسى وبتشينى ، وحصل الكونت فون فرميان لفولفجانج على تكليف بتأليف أوبرا ، وهذا معناه مائة دوقاتية تدخل خزانة الأسرة . وفى بولونيا استمعا إلى صوت فارينللى الذى لم يزل معجزا ، وكان قد عاد من انتصاراته فى أسبانيا ، ورتبا مع بأدرى مارتينى أن يعود فولفجانج ليدخل الاختبارات المؤهلة للدبلوم « الأكاديميا فيلارمونيكا » المرموق . وفى فلورنسة ، فى قصر الأرشيدوق ليوبولد ، عزف موتسارت على الهاربسيكورد مصاحباً فيولينة ناردينى . ثم هرع الأب وولده إلى روما ليلحقا موسيقى أسبوع الآلام .

ووصلا فى ١١ أبريل ١٧٧٠ ، أثناء عاصفة رعدية برقية ، فحق لليوبولد أن يكتب أنهما « استقبلا استقبال عظماء الرجال بإطلاق المدافع[٩] » . وكان وصولهما بالضبط فى وقت سمح لهما بالذهاب إلى كنيسة السستين والاستماع إلى « ميزريرى » (لحن المزمور الخمسين « أرحمنى ») الذى ألفه جريجوريو الليجرى ، والذى كان يرتل هناك كل عام . وكان من العسير

الحصول على نسخ من هـــذا الـكورال الأشهر المكتوب لأربعة أصوات أو خمسة أو تسعة ، فأصغى إليه موتسارت مرتين ثم كتبه من الذاكرة . ومكثا فى روما أربعة أسابيع ، وأحييا حفلات موسيقية فى بيوت النبلاء مدنيين وكنسيين . وفى ٨ مايو انطلقا فى رحلتهما إلى نابلى . وكان الطريق خطرا لانتشار اللصوص فيه ، فسافر موتسارت وأبوه مع أربعة رهبان أو غسطينين لينالا الحماية الدينية أو يظفرا بتناول القربان قبل الموت فى هذه الضرورة الملحة . واستبقتهما نابلى شهرا بأكملة لأن النبلاء ابتداء من تانوتشى فتازلا دعوهما لأمسيات ووضعوا كل أسباب الترف تحت تصرفهما. فلما عزف فولفجانج فى « الكونسرفاتوريو ديللا بييتا » عزا الجمهور المؤمن بالخرافات براعته لضرب من السحر كامن فى خاتم يلبسه . وأدهشهم أنه واصل العزف بالبراعة ذاتها بعد أن خلع خاتمة .

وبعد أن استمتعا بالمقام فى روما مره أخرى عبرا الأبنين ليصليا للعذراء فى كنيستها « سانتا كازا » بلوريتا ، ثم اتجها شمالا لينفقا ثلاثة أشهر فى بولونيا . وكان موتسارت يتلقى كل يوم تقريبا دروسا من بادرى مارتينى فى أسرار التأليف الموسيقى . ثم تقدم لاختبار القبول فى « الأكاديميا فيلارمونيكا » ، فأعطى قطعة من ترنيمة بسيطة جريجورية ، طلب إليه أن يضيف إليها وهـــو محبوس وحده فى حجرة نوتات عليا ثلاثا بالأسلوب التقليدى الدقيق « stile osserrato » وأخفق فى المحاولة ، ولكن البادرى الطيب صحح إجابته ، وقبل المحلفون الصورة المنقحة « نظرا إلى الظروف الخاصة » — ربما لصغر سن موتسارت .

وفى ١٨ أكتوبر كان الوالد والولد فى ميلان . هناك حقق فولفجانج أول إنتصاراته مؤلفاً موسيقيا ، ولكن بعد الجهد الجهيد والمعاناة الكثيرة وكان موضوع الأوبرا التى كلف بها «متر داتى ، ملك بنطس» ، وقد أخذ النص من راسين . وراح الفتى الذى لم يجاوز الرابعة عشرة يكد ويكدح تأليفاً وعزفاً وتنقيحا حتى كلت أصابعه واستحالت حماسته ضربا من الحمى ، فاضطر أبوه إلى أن يحدد ساعات عملة ويهدىء من اضطرابه بنزهة على

الأقدام بين الحين والحين . وأحس موتسارت أن هذا الاختبار ، وهو أول أوبرا جاده يؤلف موسيقاها ، أشد خطرا له من ذلك الامتحان العتيق الذى أداه فى بولونيا . فقد يكون مستقبله مؤلفا لموسيقى الأوبرا رهنا بنتيجته . وترسل الآن إلى أمه واخته ان يصليا من أجل نجاح هذه المغامرة رغم انه لم يكن شديد الميل إلى التقوى والورع ، « حتى ننعم كلنا بالعيش معا مرة أخرى »[١٠]. وأخيرا حين كادت تضنيه كثرة البروفات ، قدمت الأوبرا للجمهور (٢٦ ديسمبر ١٧٧٠) ، وقادها مؤلفها، وكان انتصاره كاملا . وقوبلت كل أغنية هامة بالتصفيق الحاد ، وبعضها بهتافات يحى المايسترو يحى المايسترو الصغير . وأعيد عرض الأوبرا عشرين مرة . كتب الأب الفخور التقي « بهذا نرى كيف نعمل قوة الله فينا حين لاندفن المواهب التى منحنا إياها فضلا منه »[١١] .

واستطاعا الآن أن يعودا إلى موطنهما برؤس مرفوعه . ففى ٢٨ مارس ١٧٧١ وصلا إلى سالزبورج . وما إن بلغاها حتى تلقيا طلبا من الكونت فون فرميان ، باسم الأمبراطورة ، يرجو أن يكتب فولفجانج سرنياتا أو كنتاتا ، ويحضر إلى ميلان فى أكتوبر ليقودها جزءا من الاحتفالات التى ستقام بمناسبة زفاف الأرشيدوق فرديناند إلى أميرة مودينا . ووافق رئيس الأساقفة زجسموند على أن يتغيب ليوبولد مرة أخرى عن أعماله ، وفى ١٣ أغسطس يمم الوالد والولد من جديد شطر ايطاليا ، فلما وصلا إلى ميلان وجدا فيها هاسى يعد أوبرا للاحتفالات ذاتها . وقد رتب المديرون — ربما عن غير عمد منهم — لقاء للعبقرية يتنافس فيه أشهر مؤلفى الأوبرا الايطالية الأحياء ، البالغ آنذاك ثلاثة وسبعين عاما ، مع غلام الخامسة عشرة الذى لم يكد يفرغ من اختبار جناحيه فى التحليق الأوبرالى . وأديت أوبرا هاسى المسماة « رورجيرو» فى ١٦ اكتوبر فقوبلت بتصفيق حار وفى الغد رتلت كنتاتا موتسارت المسماة (Ascanio in Alba) تحت عصا قيادته ، وكان التصفيق خارقا . وكتب ليوبولد لزوجته « يؤسفنى ان سرنياتا فولفجانج طمست أوبرا هاسى طمسا تاما[١٢] . وكان هاسى

كريما سمح النفس ، فشارك فى الثناء على موتسارت ، وفاه بنبوءة مشهورة « ان هذا الفتى سيلقينا كلنا فى زوايا النسيان »[١٣] .

وعاد الوالد والولد إلى سالزبورج (١١ ديسمبر ١٧٧١) . وبعد خمسة أيام مات زجسموند الطيب . وكان خلفـــه فى رئاسة الأسقفية ، وهو هيرونيموس فون باولا ، كونت كوللوريدو رجلا عقلانى الثقافة ، معجبا بروسو وفولتير ، مستبدا مستنيرا يتوق إلى تنفيذ الاصلاحات التى كان يعدها يوزف الثانى . ولكنه فاق حتى يوزف فى استبداده مع استنارته : فكان يشترط الانضباط والطاعةولايطيق المعارضة . ولم يقنع من موتسارت إسهاما فى حفل تنصيبه فى ٢٩ ابريل ١٧٧٢ بأقل من أوبرا يؤلفها لهذه المناسبة . واستجاب الفتى الذى ذاع صيته الآن سريعا بأوبرا «حلم سكيبيو» ، وقد وفت بالغرض منها ثم نسيت . واغتفرها كوللوريدو ، وعين فولفجانج رئيسا لفرقة الموسيقى براتب سنوى قدره ١٥٠ فاورينا . وعكف الفتى شهورا على تأليف السمفونيات والرباعيات والموسيقى الدينية ، ولكنه أكب أيضا على أوبرا « لوتشيو سيللا » التى طلبتها ميلان لتعرض فى ١٧٧٣ .

ولم يحل ٤ نوفمبر ١٧٧٢ حتى كان ليوبولد وصانع ثروته فى عاصمة لومبارديا مرة أخرى ، وراح فولف بعد قليل يكد ويكدح ليوفق بين أفكاره الموسيقية ونزوات المغنين وقدراتهم . وبدأت مغنية الأوبرا الأولى « البريمادونا » بالغطرسة والبرم بكل شيء ، وكان « المايسترينو » صبورا طويل الأناة معها ، وانتهت بحبه وصرحت بأنها « قد فتنتها المعاملة الفذة التى عاملها بها موتسارت »[١٤] . ولم تلق حفلة الافتتاح (٢٦ فبراير ١٧٧٢) النجاح الأكيد الذى لقيته « متريداتى » قبل عامين ، فقد مرض المغنى التينور أثناء البروفات ، واقتضى الأمر إحلال مغن آخر محله لم يكن له سابق خبرة على خشبة المسرح ، ومع ذلك احتملت الأوبرا تسعة عشر عرضا . وكانت موسيقاها صعبة ، والأغانى منشودة بالانفعالات فوق ما ينبغى . ولعـــل أثرا من الحركة الأدبية الألمانيـــة المسماة

Sturm und Drang (أى الدفع والجهاد ، وهى ثورة على التنوير الفرنسى) وقد دخل هنا دخولا معارضا إلى الأوبرا الايطالية[١٥] . على موتسارت جلب معه نظير هذا وضوح الغناء الايطالى الجميل (البيل كانتو) ، وزادت أجواء ايطاليا المشرقة وحياة هوائها الطلق من إشراق روحه السعيدة بفطرتها . وتعلم فى ايطاليا أن الأوبرا الهازلة ، كما سمعها فى أعمال بتشينى وبايزييللو ، يمكن أن تكون فنا رفيعا ، فدرس شكلها ، وأبلغه الكمال فى « فيجارو » و « دون جوفانى » . لقد كانت كل تجربة يمر بها تعلها للذهنه اليقظ وأذنيه المرهفتين .

وشهد ١٣ مارس ١٧٧٣ الوالد والولد مرة أخرى فى سالزبورج . ولم يكن رئيس الأساقفة الجديد متسامحا فى فترات غيابهما الطويل كما كان زجسموند ، ولم ير مبررا لمكافأة ليوبولد بترقيته ، وعامل فولفجانج كأنه مجرد فرد فى حاشيته الخاصة . وتوقع من موتسارت وأبيه أن يزودا كورسه وأوركستراه بالموسيقى فورية ، جديدة ، جيدة . فظلا يشقيان عامين ليرضياه . ولكن ليوبولد لم يدركيف يستطيع أن يعول أسرته دون هذه الجولات الاضافية ، أما فولفجانج الذى تعود على سماع تصفيق الاستحسان له فلم يستطع تقبل وضعه خادماً موسيقيا . ثم أنه أراد أن يكتب الأوبرات ، وكان مسرح سالزبورج ، وكورسها ، وأوركسترها وجمهورها — كل أولئك أصغر من أن يسمح لهذا الفرخ الألمعى بأن يرفرف جناحيه النامين .

ثم إنقشعت السحب فترة حين كلف مكسمليان يوزف أمير بافاريا الناخب موتسارت بأن يكتب أوبرا هازلة لكرنفال ميونخ لعام ١٧٧٥ ، وحصل على موافقة رئيس الأساقفة ، بمنح المؤلف وأبيه أجازة من العمل . فغادرا سالزبورج فى ٦ ديسمبر ١٧٧٤ . وعانى فولفجانج من البرد القارس الذى ابتلاه بوجع فى الاضراس أقسى من إن تخفف منه الموسيقى أو الفلسفة ولكن حفلة الافتتاح لأوبرا « البستانية المزعومة » التى قدمت فى ١٣ يناير ١٧٧٥ حملت كرستيان شوبارت — وكان مؤلفا مرموقا — على التنبؤ بأنه

« ما لم يثبت موتسارت فى النهاية أنه نبات ربى فى مستنبت زجاجى [أى عجلت بنموه العناية البيتية المكثفة] ، فلست أشك فى أنه سيصبح من أعظم المؤلفين الموسيقيين حتى يومنا هذا »[١٦] وعاد موتسارت إلى سالزبورج ورأسه يدوم بنشوة النجاح ليقوم بخدمة أحس أنهـا ضرب حقير من العبودية .

وأمر رئيس الأساقفة بدراما موسيقية احتفالا بزيارة الأرشيدوق مكسمليان ابن ماريا تريزا الأصغر ، وأخذ موتسارت نصا قديما لمتاستازيو وألف « الملك الراعى » . وقد أديت فى ٢٣ أبريل ١٧٧٥ . والقصة سخيفة ، أما الموسيقى فرائعة ، ومازالت مقتطفات منها تظهر فى ريبرتوار الحفلات الموسيقية . وكان موتسارت فى غضون هـذا يتدفق بالصوناتات والسمفونيات والكونشرتوات والسرينادات ، والقداسات ، ومن مؤلفات هذه الأعوام التعسة قطع تعد من روائعة الخالدة — مثل كونشرتو البيانو فى مقام E الخفيض (ك ٢٧١) والسريناده فى مقام B (ك ٢٥٠) . على أن رئيس الاساقفة قال له إنه لا يفقة شيئاً فى فن التأليف الموسيقى ، وإن عليه أن يذهب ليدرس فى كونسرفتوار نابلى[١٧] .

وطلب ليوبولد الأذن بأن يأخذ ابنه فى جولة بعد أن عجز عن احتمال الموقف فوق ما احتمل ، فرفض كوللوريدو وقال إنه لا يسمح بأن يظل أفراد من موظفيه « يستجدون الرحلات » فلما عاود ليوبولد الطلب فصله رئيس الاساقفة هو وابنه من وظيفتيهما . واغتبط فولفجانج ، ولكن ليوبولد روعته فكرة القذف به وهو فى السادسة والخمسين فى خضم عالم لا يميز الطيب من الخبيث . ولانت قناة رئيس الاساقفة ورده إلى منصبه ، ولكنه لم يسمح له بأى غياب عن عمله . فمن تراه يصحب فولفجانج الآن فى الغزوة البعيدة التى اختطت له ؟ لقد بلغ موتسارت الحادية والعشرين ، وهى سن المغامرة الجنسية والقيود الزيجية ، ولقد كان الآن أحوج إلى الأرشاد منه فى أى وقت مضى . ومن ثم تقرر أن تصحبه أمه . أما ماريانا التى حاولت أن تنسى أنها هى أيضاً كانت فيما مضى فتاة عبقرية فقد مكثت لتبذل لأبيها

أكرم الرعاية والمحبة . وفى ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ غادرت الأم وأبنها سالزبورج ليغزوا ألمانيا وفرنسا .

٣ — الموسيقى والزواج : ١٧٧٧ — ٧٨

كتب موتسارت لابيه — من ميونيخ فى ٢٦ سبتمبر يتغنى بما ظفر به من تحرر : « إننى فى أفضل حالاتى النفسية ، فرأسى تخفف من الأثقال كأنه الريشة منذ إنطلقت بعيداً عن ذلك الهراء ، وفوق ذلك أصبحت أسمن من ذى قبل»[١٨]. ولا بد أن هذا الخطاب تقاطع مع خطاب آخر من ليوبولد ، الذى قد يذكرنا انفعاله مرة أخرى بأن أحداث التاريخ كتبت على أجساد البشر :

« بعد أن رحلتما كلاكما صعدت سلمنا فى غاية التعب ، وألقيت بنفسى على مقعد . وحين تبادلنا عبارات الوداع بذلت جهودا كبيرة لأتماسك حتى لا أجعل فراقنا شديد الأيلام ؛ وفى غمرة الزحام والأضطراب نسيت أن أمنح ولدى بركة الأب . فعدوت إلى النافذة وأرسلت بركتى خلفك ولكنى لم أرك . . . وقد بكت نانيرل بكاء مرا . . . وكلانا نرسل التحيات لأمك ونقبلك أنت وهى ملايين المرات »[١٩] .

وعلمت ميونيخ فولفجانج إنه لم يعد معجزاً فى عالم الموسيقى ، إنما هو موسيقى فرد فى بلد يفوق فيه المعروض من مؤلفى الموسيقى وعازفيها عدد المطلوب منهم . وكان الأمل قد راوده فى الحصول على وظيفة طيبة فى حاشية الناخب الموسيقية ، ولكن كل الوظائف كانت مشغولة . فمضت الأم وولدها إلى أوجزبورج ، حيث أفنيا نفسيهما فى زيارة أصدقاء ليوبولد أيام شبابه إستجابة لألحاح ليوبولد ، ولكن الأحياء منهم كان أكثرهم الآن يشكو السمنة والركود ، ولم يجد فولفجانج فيهم ما يثير إهتمامه اللهم إلا ابنة عم مرحة تدعى ماريا أنا تكلا موتسارت سوف يخلد اسمها بعبارات بذيئة . وكان ادنى إلى غرضه صانع بيانات يدعى يوهان إندرياس شتاين ، هنا

ولأول مره بدأ موتسارت الذى كان إلى الآن يعزف على الهاربسيكورد يقدر إمكانات الآلة الجديدة ، وما إن بلغ باريس حتى كان قد تم إنتقاله إلى البيانو . وفى حفلة موسيقية فى أوجزبورج عزف على البيانو والفيولينة فظفر بتصفيق شديد وربح ضئيل .

وفى ٢٦ أكتوبر مضت الأم وابنها إلى مانهايم . هناك استمتع موتسارت بالصحبة والتشجيع من موسيقيين بارعين ، ولكن الأمير الناخب كارل تيودور لم يستطع أن يجد له وظيفة ، وأكتفى بأن أثابه على أدائه فى البلاط بساعة ذهبية لا أكثر . وكتب موتسارت إلى أبيه يقول « كان أصلح لى أن ينفحنى بعشرة كارولينات . . . إن النقود هى ما يحتاج إليه المرء وهو فى رحلة ، واعلم أننى الآن أملك خمس ساعات . . . وأنا أفكر جدياً فى عمل جيب للساعات فى كل سروال من سراويلى ، وحين أزور شريفاً كبيراً سألبس ساعتين . . . حتى لا يخطر له أن ينفحنى بساعة[٢٠] » . ونصحه ليوبولد أن يبادر بالرحيل إلى باريس حيث يتلقى المساعدة من جريم ومدام دبينيه ، ولكن فولفجانج أقنع أمه بأن الرحلة أشق من أن تطيقها فى شهور الشتاء . وإذ إفترض ليوبولد أنهما راحلان عما قليل إلى باريس ، فقد حذر فولفجانج من نسائها وموسيقيها ، وذكره بأنه الآن الأمل المرجو فى أعالة الأسرة . وقال ليوبولد إنه إستدان سبعمائة جولدن ، وإنه يعطى دروساً خصوصية فى شيخوخته .

« وهذا أيضاً فى بلدة يبخس فيها أجر هذا العمل المرهق . . . إن مستقبلنا رهن بفطنتك الكبيرة . . . وأنا عليم بأنك تحبنى ، لا بوصفى أباك فحسب ، بل أصدق أصدقائك وأوفاهم ، وأنك تفهم وتقدر أن سعادتنا وشقاءنا ، وأكثر من ذلك طول أجلى أو التعجيل بموتى ، كلها . . . فى يديك أنت بعد الله . وإذا كنت قد أصبت فى قراءة أفكارك ، فإنى لا أتوقع منك غير الفرح والاغتباط ، وهذا وحده خليق أن يعزينى وأنا محروم لغيابك من بهجة الأب وأنا أسمعك وأبصرك وأضمك بين ذراعى.. من صميم قلبى أمنحك بركتى الأبويه[٢١] » .

وفى أحد خطابات ليوبولد (٩ فبراير ١٧٧٨) أضافت « نانيرل » التى بلغت الآن السادسة والعشرين والتى كانت لعدم توفر المهر تواجه مستقبل العوانس ، سطورا تكمل صورة هذه الأسرة المتحابة :

« إن بابا لايترك لى أبداً متسعا لأكتب لماما ولكن . . إنى أتوسل إليها إلا تنسانى ... وأتمنى لكما رحلة سارة إلى باريس مقرونة بالصحة السابغة . على أننى أرجو صادقة أن أستطيع عناقكما سريعاً . والله وحده عليم متى يحدث هذا. كلانا تواق لأن تحقق لنفسك الثراء ، فهذا معناه سعادتنا جميعاً . إنى أقبل يدى ماما وأعانقك ، وآمل أن تذكرنا وتفكر فينا دائماً . ولكن عليك إلا تفعل إلا إذا كان فى وقتك متسع ، ولو ربع ساعة تتخفف أثناءه من التأليف والتدريس »[٢٢] .

فى هذا المزاج من التفاؤل العظيم والثقة المشربة بالحب تلقى ليوبولد خطاباً كتبه فولفجانج فى ٤ فبراير يعلن إليه فيه وصول كيوبيد . ذلك أن رجلا من صغار الموسيقيين فى مانهايم يدعى فريدولين فيبر ، حباه الحظ وأثقل كاهلة بزوجة وخمس بنات وولد . وكانت السيدة فيبر تلقى شباكها لتقتنص الازواج، لاسيما لكبرى بناتها يوزيفا ذات التسعة عشر ربيعاً ، التى بلغت سن الزواج وخيف إن تفوتها سوقه. ولكن موتسارت تعلق بألويسيا ذات الستة عشر ربيعاً ، التى جعلها صوتها الملائكى ومفاتنها الرائعة حلماً يراود خيال الموسيقى الشاب . ولم يكد يلحظ كونستانتسى ذات الأربعة عشر ربيعاً التى قدر لها أن تكون زوجته . وقد ألف لألويسيا بعضاً من أرق أغانيه . فلما غنتها نسى مطامحه وفكر فى مرافقتها — مع يوزيفا وابيهما — إلى ايطاليا حيث تستطيع الحصول على تدريب صوتى وتتاح لها فرص أوبراليه ، بينما يعينهم هو على العيش باحياء الحفلات الموسيقية وتأليف الأوبرات . كل هذا شرحه العاشق الصغير الشجاع لأبيه قال :

« لقد أحببت هذه الأسرة التعسة حبا جعل أعز أمانى أن أسعدهم .... ونصيحتى إليهم أن يقصدوا ايطاليا . والآن أود أن تكتب لصديقنا الطبيب

لوجاتى ، وخير البر عاجله ، وتستفسر منه عن أفضل الشروط التى تعطى للمغنية أوبرا أولى فى فيرونا . . . أما عن غناء ألويسيا فأنى أراهن بحياتى أنها ستجلب لى الشهرة . . فإذا نجحت خطتنا — فاننا — الهر فيبر ، وابنتاه وأنا — سنشرف بزيارة أختنا العزيزه أسبوعين فى طريقنا مرورا بسالزبورج . . . وسيسرنى أن أكتب أوبرا لفيرونا لقاء خمسين تسكينى (٦٥٠ دولارا) ولو لتتاح لها فرصة الشهرة . . . وسوف تكون الابنة الكبرى نافعة جداً لنا ، لأنها تستطيع أن تدير شئون بيتنا ، فهى خبيرة بالطهو . وبالمناسبة ، لا تدهش كثيرا إذا عرفت أنه لم يبق معى سوى اثنين وأربعين جولدينا من السبعة والسبعين ، وليس هـــذا إلا نتيجة أبتهاجى لوجودى مرة أخرى فى صحبة قوم شرفاء على شاكلتى فى التفكير . . .

« وافنى برد سريع . ولا تنس مبلغ شوقى لكتابة الاوبرات . وأنا أحسد أى إنسان يؤلف أوبرا . وأكاد أبكى غيظا حين أسمع . . . لحنا (آريا) . ولكن أوبرا أيطالية لا ألمانية ، وجادة لاهازلة . . والآن قد كتبت كل ما يثقل صدرى . وأمى راضية تمام الرضى عن أفكارى . . . وفكرة مساعدة أسرة فقيرة دون الأضرار بى تبهج نفسى فى الصميم . إنى أقبل يديك ألف مرة ، ومازلت حتى الموت ولدك المطيع جداً[٢٣] »

ورد ليوبولد فى ١١ فبراير :

« ياولدى العزيز : لقد قرأت خطابك المؤرخ ٤ الجارى بدهشة ورعب . . لقد جفانى النوم الليل كله . . . يا إلهى الرحيم ! ... لقد ولت تلك اللحظات السعيدة حين كنت وأنت طفل أو غلام لا تمضى إلى فراشك دون أن تقف على كرسى وترتل لى . . . وتقبلنى المرة بعد المرة على طرف أنفى وتقول لى إننى حين أشيخ ستضعنى فى صندوق زجاجى وتحمينى من كل نسمة هواء ، حتى تحتفظ بى دائماً معك وتكرمنى . أصغ إلى إذن وتذرع بالصبر ! . . .

ومضى يقول إنه كان يأمل أن يؤجل فولفجانج زواجه حتى يؤمن

لنفسه مكانا مكينا فى عالم الموسيقى ، وعندها يبنى بزوجة صالحة ، وينجب أسرة طيبة ، ويعين أبويه وشقيقته . ولكن هذا الأبن ينسى الآن أبويه بعد أن فتنته « سيرانة » شابة ، ولا يفكر إلا فى أن يتبع فتاة إلى ايطاليا كأنه فرد فى بطانتها . فياله من هراء لايصدق !

« إنطلق إلى باريس ، ومن فورك ، وابحث عن مكانك بين عظماء القوم ، فأما أن تكون شيئاً عظيما أو لا شيء إطلاقا » ، فن باريس يدوى اسم الرجل ذى الموهبة العظمى وشهرته ويجلجلان فى أرجاء الدنيا بأسرها . هناك يعامل النبلاء العبقريين بأعظم إحترام وتقدير ومجاملة ، وهناك سترى أسلوبا مهذباً من الحياة هـــو النقيض المذهل لخشونة رجال حاشيتنا الألمان ونسائهم ، وهناك تستطيع التمكن من اللغة الفرنسية »[٢٤] .

وأجاب موتسارت فى تواضع بأنه لم يأخذ مأخذ الجد الشديد خطة مرافقة آل فيبر إلى ايطاليا ، ثم ودع الأسرة وداعا باكيا ، ووعد بأن يراهم فى طريقه إلى أرض الوطن . وفى ١٤ مارس ١٧٧٨ اتخذ هو وأمه طريقهما إلى باريس مستقلين المركبة العامة .

٤ — فى باريس ١٧٧٨

وبلغاها فى ٢٣ مارس ، وصادف وصولهما بالضبط حركة تمجيد فولتير التى طغت على نبأ قدومهما . واتخذا لهما مسكنا بسيطا ، وانطلق موتسارت باحثا عن عمل يكلف به . واستجمع جريم ومدام دبينيه جهدهما ليلفتا بعض النظر إلى الشاب الذى هللت له باريس عجيبة موسيقية قبل أربعة عشر عاما . فعرضت عليه فرساى وظيفة عازف أرغن البلاط لقاء ألفى جنيه لخدمة ستة أشهر كل سنة ونصحه ليوبولد بقبول العرض ، وعارض جريم ، ورفض موتسارت الوظيفة لأن الأجر بخس ، وربما لأنها لاتناسب موهبته . وفتحت له بيوت كثيرة إن قبل العزف على البيانو لقاء وجبة غداء أوعشاء . ولكن حتى الوصول إلى هذه البيوت اقتضى رحلة غالية فى عربة تشق طرقا موحلة . ولاح بصيص من الأمل

فى أحد النبلاء المدعو الدوق دجين ، والف موتسارت له ولإبنتهالكونشرتو الرائع فى مقام (C) للفلاوته والهارب (ك٢٩٩)،وأعطى الشابة النبيلة دروسا فى التأليف الموسيقى لقاء أجر طيب، ولكنها لم تلبث أن تزوجت ولم يدفع الدوق سوى ثلاثة جنيهات ذهبية « لوى دور» (٧٥ دولارا) لكونشرتو كان خليقا بأن يطرح باريس تحت قدمى موتسارت . ولأول مرة فى حياته فارقته شجاعته . فكتب إلى أبيه فى ٢٩ مايو يقول « انى فى صحة لا بأس بها ولكننى كثيرا ما أتساءل هل الحياة تستحق أن يعيشها المرء » . وانتعشت روحه المعنوية حين كلفه لجرو ، مدير الكونسير سبرتيويل بكتابة سمفونية (ك ٢٩٧) أديت بنجاح فى ١٨ يونيو .

ثم ماتت أمه فى ٣ يوليو . وكانت قد بدأت حياتها الجديدة بالاستمتاع بتخففها من متاعب سالزبورج وعناء الزوجية ، ولكن سرعان ماحنت إلى بيتها وواجباتها واتصالاتها اليومية التى تضفى على حياتها غنى ومغزى . وحطمت صحتها رحلة الأيام التسعة إلى باريس فى مركبة مهتزة ورفقة منفرة ومطر غزير ، وألقى فشل ابنها فى أن يجد له وظيفة فى باريس ظلا من الكآبة على روحها المرحة عادة . وراحت تقضى الأيام وحيدة وسط بيئة غريبة وألفاظ لاتفهمها ، بينما يذهب ابنها إلى تلاميذه وإلى الحفلات الموسيقية والأوبرات... ورآها موتسارت الآن تذبل فى هدوء ، وانفق الأسابيع الأخيرة بجوارها يرعاها ويحنو عليها ولايكاد يصدق أنها قد تموت بهذه السرعة .

وقدمت له مدام دبينيه حجرة فى منزلها مع جريم ، ومكانا على مائدتها ، وحرية استعمال بيانها . ولم ينسجم تماما مع جريم فى هذه الجيرة ، القريبة فلقد كان جريم يمجد فولتير وموتسارت يحتقره ، وصدمه زعم مضيفيه وأصدقائهم بأن المسيحية ليست سوى أسطورة نافعة فى ضبط المجتمع . وأراده جريم أن يقبل التكليفات الصغيرة سبيلا إلى الكبيرة ، وأن يعزف دون أجر الأسر ذات النفوذ ، بيد أن موتسارت أحس أن عملا كهذا سينضب قوته التى يؤثر أن يدخرها للتأليف . وحكم

جريم بأنه كسلان ، وأخبر ليوبولد بحكمه هذا فأمن عليه[٢٥] . وزاد الموقف سوءاً اقتراض موتسارت المرة بعد المرة من جريم مبالغ بلغت جملتها خمسة عشر جنيها ذهبيا (٣٧٥ دولارا) . وأخبره جريم أن فى امكانه تأجيل السداد إلى أجل غير مسمى . وكذلك كان[٢٦] .

وحسم الموقف خطاب (٣١ أغسطس ١٧٧٨) من موتسارت الأب يقول إن رئيس الأساقفة كوللوريدو عرض أن يرقى الأب رئيسا للمرتلين إذا عمل فولفجانج عازفا على الأرغن ورئيسا للموسيقيين ، على أن يعطى كل منهما خمسمائة فلورين فى العام ، يضاف إلى هذا « أن رئيس الأساقفة صرح أنه على استعداد لأن يسمح لك بالسفر حيث تشاء ان أردت كتابة أوبرا » . ثم أضاف ليوبولد طعما قدر أن موتسارت لابد مبتلعه . فقال ان ألويسيا فيبر ستدعى على الأرجح للانضمام إلى كورس سالزبورج ، وفى هذه الحالة « لابد ان تعيش معنا »[٢٧] . ورد موتسارت (١١ سبتمبر) حين قرأت خطابك هزنى الطرب لأننى شعرت بأننى أصبحت فعلا فى حضنك . صحيح أن العرض لا يحمل أملا كبيرا لى فى المستقبل كما إخالك معترفا ، ولكن حين أتطلع إلى لقائك وعناق أختى العزيزة جدا لا أفكر فى أى أمل آخر » .

وعليه ففى ٢٦ سبتمبر استقل المركبة إلى نانسى . وفى ستراسبورج كسب بضعة جنيهات لقاء حفلات شاقة فى مسارح كادت تخلو من روادها . وتلبث فى مانهايم أملا فى تعيينه قائدا للأوبرا الألمانية ، ولكن هذا الأمل أيضاً خاب كغيره ومضى إلى ميونخ وهو يحلم بألويسيا فيبر . ولكنها كانت قد وجدت مكانا فى كورس الأمير الناخب ، ربما فى قلبه ، فاستقبلت موتسارت بهدوء لم يبد فيه أى رغبة فى أن تكون عروسا له . فألف وغنى أغنية مره ، ثم راض نفسه على قبول سالزبورج .

٥ — سالزبورج وفيينا : ١٧٧٩ — ٨٢

وصل إلى البيت فى منتصف يناير ، واستقبل باحتفالات ألقى عليها ظلا من الحزن إدراكه الأليم الآن لحقيقة موت الأم . وسرعان ما شد إلى

نبره عازفا للأرغن ورئيسا لفرقة الموسيقى ، وسرعان ما أصابه القلق والتبرم وقد تذكر هذه الأيام فيما بعد :

« فى سالزبورج كان العمل عبئاً على ، ولم أكد أستطيع إن أسكن إليه قط . فلم ذلك ؟ لأننى لم أكن قط سعيداً . . . فليس فى سالزبورج — من وجهة نظرى على الأقل — تسلية لها أى قيمة . وأنا أرفض الاختلاط بأشخاص كثيرين هناك — أما غيرهم فأكثرهم لا يروننى صالحا لصحبتهم . أضف إلى ذلك إنه ليس هناك من حافز لموهبتى . وكأن الجمهور خشب مسندة لا تستجيب حين أعزف أو حين تؤدى قطعة من تأليفى . أتمنى لو كان فى سالزبورج ولو مسرح واحد متوسط الجودة[٢٨] » .

وتاقت نفسه إلى كتابة الأوبرات ، ورحب بطلب الأمير الناخب كارل تيودور أن يكتب أوبرا لمهرجان ميونخ التالى . فشرع يكتب « إيدومنيو ملك كريت » فى أكتوبر ١٧٨٠ ، وفى نوفبر ذهب إلى ميونخ لعمل البروفات . وفى ٢٩ يناير ١٧٨١ أخرجت الأوبرا بنجاح رغم طولها غير العادى . ومكث موتسارت فى ميونخ ستة أسابيع أخرى ، يستمتع بحياتها الاجتماعية ، حتى أستدعاه رئيس الأساقفة كولوريدو ليلحق به فى فيينا . هناك سره أن يسكن القصر الذى يسكنه رئيسه ، ولكنه كان يأكل مع الخدم . « يجلس التابعان على رأس المائدة ، وأنا أحظى بشرف الجلوس مقدما على الطباخين[٢٩] » . وكان هذا عرفا شائعا فى ذلك العصر فى بيوت النبلاء ، وقد احتمله هايدن باستياء مكظوم ، أما موتسارت فقد تمرد عليه فى علانية متزايدة . وقد سره أن تعرض موسيقاه وموهبته فى بيوت أصدقاء رئيس الأساقفة ، ولكنه استشاط غيظاً حين رفض كوللوريدو معظم توسلاته أن يأذن له بقبول ارتباطات خارجية قد تأتيه بدخل إضافى وشهرة أوسع . « حين أفكر فى أننى سأغادر فيينا دون أن يكون فى حوزتى ألف فلورين على الأقل يغوص قلبى فى باطنى[٣٠] » .

وصحت نيتة على أن يترك خدمة كوالوريدو . ففى ٢ مايو ١٧٨١ ذهب ليسكن نزيلا مع آل فيبر الذين كانوا قد أنتقلوا إلى فيينا . فلما أرسل

إليه رئيس الأساقفة تعليماته بالعودة إلى سالزبورج ، أجاب بأنه لن يستطيع الرحيل قبل ١٢ مايو . وتلا ذلك لقاء مع رئيس الأساقفة ، روى موتسارت مادار فيه لأبيه فقال :

« إنه رماني بأقذع الشتائم — أوه ! إنني فى الحق لا أستطيع حمل نفسى على أن أكتبها كلها لك ! وأخيراً ، حين أحسست بالدم يغلى فى عروقى ، لم أطق أن أحتمل أكثر مما احتملت ؛ فقلت له « إذن فسموك لست راضيا عنى » ماذا ! أتريد أن تهددنى . أيها الوغد ، أيها النذل ؟ دونك الباب إذن ، لن يكون لى صلة بعد اليوم برجل تعس مثلك ! « وأخيرا قلت » ولا أنا بك . « إذن فأخرج ! » وفيما أنا خارج قلت « فليكن ، وغدا سيصلك منى خطاب » . قل لى يا أبى العزيز أما كان لزاما على أن أقول هذا عاجلا أو آجلا ؟ . . .

« اكتب لى سراً بأنك مسرور — لأن لك الحق فى أن تسر حقيقة — وانتقدنى إنتقادا قاسيا علانية ، حتى لا يقع عليك أى لوم أو تثريب . ولكن إذا نالك من رئيس الأساقفة أى اهانة فتعال إلى فورا فى فيينا . ففى وسعنا نحن الثلاثة أن نعيش على دخلى[٣١] » .

ودفع بليوبولد فى أزمة أخرى . وبدا أن منصبه تعرض للخطر ، وكان لأبد أن ينقضى بعض الوقت حتى تصلة تأكيدات من كوللوريدو . وافزعه نبأ مساكنة ابنه لآل فيبر . فقد مات رب الأسرة ، وتزوجت اليوسيا الممثل يوزف لانجى ، ولكن كان للأرملة بنت أخرى تدعى كونستانتسى تنتظر زوجاً . أفهذا طريق مسدود آخر أمام فولفجانج ؟ وتوسل إليه ليوبولد أن يعتذر لرئيس الأساقفة ويعود . ورفض موتسارت لأول مرة أن يطيع أباه . « إننى فى سبيل رضاك يا أبى مستعد لأن اتخلى عن سعادتى وصحتى بل وحياتى ذاتها ، ولكن شرفى فوق كل شىء عندى ، وكذلك يجب أن يكون عندك . يا أعز الآباء وأكرمهم ، طالبنى بما شئت إلا هذا[٣٢] » . وفى ٢ يونيو بعث إلى ليوبولد بثلاثين دوقاتية عربونا لمساعدته المقبلة .

وتوجة ثلاث مرات إلى مسكن رئيس الأساقفة بڤيينا ليقدم إستقالتة الرسمية . ورفض حاجب كوللوريدو أن ينقلها لسيده ، وفى المرة الثالثة « ألقى بموتسارت خارج حجرة الأنتظار وأردف ذلك بركلة فى ظهره » — وهى العبارة التى وصف بها موتسارت المشهد فى خطابه المؤرخ ٩ يونيو[٣٣]. ولكى يرضى أباه أنتقل من بيت فيبر إلى مسكن آخر . واكد لليوبولد أنه إنما كان « يمزح » فقط مع كونستانتسى . « ولو كان على أن أتزوج كل من ضحكت معهن لكان لدى على الأقل مائتا زوجة[٣٤] » . على أنه كتب لأبية فى ١٥ ديسمبر يقول إن كونستانتسى غاية فى اللطف والسذاجة وحب البيت ، وهو لذلك يريد أن يتزوجها » .

« أترعبك الفكرة ؟ ولكنى أتوسل إليك يا أعز أب وأحبه أن تصغى إلى . . . إن صوت الطبيعة يتكلم فى باطنى عالياً كما يتكلم فى غيرى — بل ربما أعلى مما يتكلم فى رجل ضخم قوى غليظ . إننى ببساطة لا أستطيع أن أعيش كما يعيش معظم الشباب فى هذه الأيام . أولا لأننى متدين جداً ، وثانياً لأننى أشد حباً للجار وأرفع احساساً بالشرف من أن أغوى فتاة بريئة ، وثالثا لأن بى من الرعب والتقزز ، ومن رهبة الأمراض والخوف منها ، ومن الرعاية لصحتى ، ما يعصمنى من العبث مع النسوة الفاجرات . وفى وسعى أن أقسم أنه لم يكن لى قط علاقات من هذا النوع مع أى امرأة ... وأراهن بحياتى على صدق ما قلتة لك . . .

« ولكن من هى موضوع حبى ؟ . . أليست إحدى بنات فيبر ؟ بلى.. إنها كونسانتسى . . . أرقهن كلهن وأذكاهن وأفضلهن جميعاً . . . قل لى هل فى إستطاعتى أن أتمنى لنفسى زوجة خيراً منها .. قصارى ما أطمع فيه أن يكون لى دخل مضمون صغير (وهذا رجائى الوطيد بحمد الله) ، وعندها لن أكف عن رجائك بأن تسمح لى أن أنقذ هذه الفتاه المسكينة وأن أحقق لى — ولنا جميعاً إن جاز لى القول — السعادة الكاملة . فلا أشك ن أن سعادتى تسعدك ؟ وستحظى بنصف دخلى الثابت . . . أرجوك أن تشفق على ولدك ! [٣٥] »

ولم يعرف لوبولد ماذا يصدق . فقد بذل كل جهد ليثنى ولده المفلس تقريباً عن الزواج ، ولكن موتسارت أحس بأنه بعد أن قضى ستة وعشرين عاماً من الطاعة لأبيه آن الأوان لينفذ مشيئته ويحيا حياته . وظل سبعة أشهر يلتمس عبثاً موافقة أبيه ، وأخيراً ، فى ٤ أغسطس ١٧٨٢ ، تزوج دون هذه الموافقه . وفى ٥ أغسطس وصلت الموافقة ، وأصبح موتسارت الآن حراً فى إن يكتشف إلى أى حد يستطيع المرء إن يعول أسرة بتأليف حشد من أكثر أنـــواع الموسيقى الرائعة تنوعاً فى تاريخ الإنسان .

٦ — المؤلف الموسيقى

كان له عذره فى الثقة بنفسه ، لأنه كان قد أشتهر عازفاً على البيان ، وحصل على دروس خاصة لتلاميذ يدفعون أجورا مجزية ، وأخرج أوبرات ناجحة ، فلم يمض شهر على تركه خدمة رئيس الاساقفة حتى تلقى من الكونت أورسينى — روزنبرج مدير مسارح بلاط يوزف الثانى ، تكليفا بتأليف (دراما منطوقة) تتخللها الأغانى . وعرضت النتيجة فى ١٦ يوليو ١٧٨٢ ، فى حضرة الامبراطور ، تحت اسم (الاختطاف من السراى) . وأداها فريق من خصومه ، ولكن كل السامعين تقريبا فتنتهم الأغانى المرحة التى ازدان موضوع عتيق : حسناء مسيحية يأسرها القراصنة ، ويبعوتها لحريم تركى ، ثم ينقذها حبيبها المسيحى بعد دسائس لا تصدق . وكان تعليق يوزف الثانى على الموسيقى « انها يا عزيزى موتسارت أجمل مما تحتمله آذاننا ، وأنغامها كثيرة جدا » . وهو تعليق أجاب عنه المؤلف المتهور « انها بالضبط يا صاحب الجلالة بالكثرة التى يقتضيها المقام » . [٣٦] وأعيد عرض الأوبريت ثلاثا وثلاثين مرة فى فيينا فى سنيها الست الأولى . وقد أطراها جلوك ، وإن أدرك أنها أغفلت تماما « إصلاحه » للأوبرا ، وأعجب بالتأليفات الآلية لهذا الشاب العنيف ، ودعاه لتناول الغداء معه .

وقد استمد موتسارت الهامه من إيطاليا لا من ألمانيا ، وآثر اللحن والتوافق البسيط على البوليفونية « تعدد الأصوات » المعقدة المتعمقة . ولم

يشعر بتأثيرات قوية من هندل ويوهان سبستيان باخ إلا فى عقده الأخير . وفى ١٧٨٢ انضم إلى الموسيقيين الذين كانوا يحيون الحفلات تحت رعاية البارون جوتفريد فان زفيتن ، وأكثرها من تأليف هندل وباخ ، فى المكتبة القومية أو فى بيت فان زفيتن . وفى ١٧٧٤ كان البارون قد جلب من برلين إلى فيينا كتاب (فن الفوجة) و(الكلافورد الحسن الضبط) وغيرهما من أعمال ى . س . باخ . واستنكر الموسيقى الايطالية لأنها تفتقر إلى الاتقان الشديد ، ورأى أن الموسيقى الحقة تتطلب الالتفات الدقيق للفوجة ، والبوليفونية ، والكونترابنط . أما موتسارت فهو وإن لم يسمح قط للبناء أو القاعدة أو الشكل بأن تكون غاية فى ذاتها ، فقد أفاد من نصيحة فان زفيتن وموسيقاه ، ودرس هندل وآل باخ الكبار بعناية . وبعد ١٧٨٧ قاد موسيقى هندل فى فيينا ، وسمح لنفسه بشىء من الحرية فى توفيق مدونات هندل لأوركسترات فيينا . وفى موسيقاه الآلية اللاحقة زواج بين الميلوديا الايطالية والبولفونية الألمانية فى وحدة متسقة .

والنظرة العجلى إلى كتالوج كوشل لمؤلفات موتسارت هى إحدى التجارب الشديدة الوقع فى النفس . فهناك قائمة ضمت ٦٢٦ عملا — وهى أكبر حجم من الموسيقى خلفه أى مؤلف عدا هايدن ، وكلها أنتج فى حياة صاحبها التى لم تتجاوز ستا وثلاثين سنة ، وتحوى روائع من شتى الأشكال : ٧٧ صوناتا ، و ٨ ثلاثيات ، و ٢٩ رباعية و٥ خماسيات ، و ٥١ كونشرتو ، و ٩٦ قطعة خفيفة (ديفرتمنتى) أو رقصات أو سرينادات ، و ٥٢ سمفونية ، و ٩٠ لحنا أو أغنية ، و ٦٠ مؤلفا دينيا ، و ٢٢ أوبرا . وإذا كان بعض من كانوا قريبين من موتسارت حسبوه كسولا ، فربما كان السبب أنهم لم يدركوا تماما أن عناء الروح قد يضنى الجسد ، وأن العبقرية إذا حرمت فترات الكسل انزلقت إلى الجنون . وقد قال له أبوه (إن التأجيل خطيئتك التى لا تفتأ محدقة بك) [٣٧] . وكان موتسارت فى كثير من الحالات يؤجل إلى آخر ساعة تدوين الموسيقى التى كانت تتخلق فى رأسه . قال « إننى — إن شئت — منقوع فى الموسيقى . فهى فى عقلى طوال اليوم ، وأنا أحب أن أحلم بها ، وأدرسها ، وأتأملها . » [٣٨] وقد روت زوجته « كان دائم النقر على شىء ما — على قبعته ، أو كاتينة

ساعته — أو المائدة أو المقعد وكأنها لوحة المفاتيح . »[٣٩] وكان أحيانا يواصل هذا التأليف الصامت حتى وهو يبدو مصغيا لاحدى الأوبرات . وكان يحتفظ بقصاصات من ورق تدوين الموسيقى فى جيوبة أو فى جيب العربة الجانبى وهو مسافر ، ثم يدون عليها نوتات متناثرة ، وقد ألف أن يحمل علبة من الجلد تتلقى هذه الاشتات . فإذا تأهب للتأليف لم يجلس إلى لوحة المفاتيح بل إلى منضدة . تقول كونستانتسى « كان يكتب الموسيقى كما يكتب الخطابات ، ولم يحاول قط عزف حركة حتى تكتمل . » أو قد يجلس إلى البيان ساعات بأكملها يرتجل ويترك خياله الموسيقى حرا طليقا فى الظاهر ولكنه فى نصف وعى يخضعه لبناء متميز — كشكل الصوناتا ، أو الآريا ، أو الفوجة . . . وكان الموسيقيون يستمتعون بارتجالات موتسارت لأنهم كانوا يستطيعون أن يتبينوا فى ابتهاج خفى النسق المتوازى خلف أنغام تبدو عفوية فى ظاهر الأمر . قال نيمتشك فى شيخوخته « لو جرؤت على أن أصلى طلبا لفرحة أرضية أخرى لكانت أن أسمع موتسارت يرتجل»[٤٠]

وكان فى إستطاعة موتسارت أن يعزف أى موسيقى تقريباً بمجرد الاطلاع نوتتها لأن طول خبرته بارتباطات النوتات وتعاقباتها المعينة أتاح له قراءتها كأنها نوتة واحدة ، وكانت أنامله المدربة تعزفها كأنها جملة أو فكرة موسيقية واحدة ، تماماً كما يستوعب القارىء المدرب سطرا كأنه كلمة ، أو فقرة كأنها سطراً . واقترنت ذاكرة موتسارت بهذه القدرة على إدراك الكليات ، والأحساس بالمنطق الذى يلزم الجزء بالدلالة على الكل . وفى السنوات اللاحقة كان يستطيع أن يعزف أيا من كونشرتواته تقريباً عن ظهر قلب . وفى براغ كتب أجزاء الطبلة والبوق للخاتمة الثانية فى « دون جوفانى » دون أن تتاح له نوته الآلات الأخرى ، وكان قد حفظ تلك الموسيقى المعقدة فى ذاكرته . وذات مرة دون جزء الفيولينه فقط من صوناتا للبيانو والفيولينه ، وفى الغد ، ودون بروفا ، عزفت رجينا سترينا زاكى جزء الفيولينه فى حفلة ، وعزف موتسارت جزء البيانو من مجرد ذكرى تصوره دون أن يتسع له الوقت لتدوينها على الورق[٤١] . ولعل صحائف التاريخ لا تحوى ذكرى رجل آخر استغرقته الموسيقى إلى هذا الحد .

ونحن ننظر إلى صوناتات موتسارت على إنها أقرب إلى الخفة والمعابثة ، وأنها لا تقف فى صف مع ألحان بيتهوفن المشبوبة القوية من نفس النوع ، وقد يكون السبب أنها كتبت لتلاميذ محدودى المهارة فى العزف ، أو لها ربسيكوردات ذوات تصويت محدود ، أو لبيانو لم يؤت وسيلة لمواصلة نغمة[٤٢] . والصونات فى مقام A (ك ٣٣١) . وما حوت من « منويته » ممتعة ، و « الروندو اللاأتوركا » مازالت (١٧٧٨) بأسلوب الهاربسيكورد .

ولم يكن موتسارت أول الأمر يهتم بموسيقى الحجرة ، ولكن فى ١٧٧٣ وقع على رباعيات هايدن المبكرة ، وحسد ما فيها من براعة كونترابنطية ، وقلدها تقليدا قارب النجاح فى الرباعيات الست التى ألفها فى تلك السنة . وفى ١٧٨١ نشر هايدن سلسلة أخرى ، وحرك هذا موتسارت ثانية للمنافسة فأصدر (١٧٨٢ — ٨٥) ست رباعيات (ك ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ — ٦٥) يعترف الجمع الآن بأنها من أرفع الأمثلة فى بأبها . وشكا العازفون من صعوبتها الهائلة ، وانتقد النقاد الرباعية السادسة على الأخص لتنافراتها المتعارضة ومزجها الصاخب بين المفاتيح الكبيرة والصغيرة ورد موسيقى ايطالى النوتة للناشر محتجا بأن من الواضح أنها تزخر بالأخطاء الفظيعة . ومزق أحد المشترين أوراقها وقد استشاط غضباً حين وجد إن التنافرات متعمدة . ومع ذلك فإن هايدن قال لليوبولد موتسارت بعد عزفة الرباعيات الرابعة والخامسة والسادسة مع موتسارت وديترسدورف وغيرهما « أمام الله ، وبصفتى رجلا صادقا ، أقول لك إن إبنك أعظم من عرفت من المؤلفين قاطبة سواء شخصيا أو بالأسم . فهو ذواقة ، وأكثر من ذلك يملك أعمق معرفة بالتأليف الموسيقى[٤٢] » . فلما نشرت الرباعيات الست (١٧٨٥) أهداها موتسارت إلى هايدن بخطاب يتألق بتفرده حتى وسط ما تبادلا من رسائل كلها رائع :

« إن أبا قرر أن يدفع بأبنائه إلى الدنيا الواسعة فرأى من واجبه أن يكلهم إلى رعاية وارشاد رجل كان ذائع الصيت فى ذلك الحين ، واتفق فوق ذلك إنه كان أصدق أصدقائه . وبالمثل أدفع بأبنائى السته إليك ، أيها الصديق

الأعز الأشهر . حقاً أنهم ثمرة درس طويل شاق ، ولكن الأمل الذى عللنى به أصدقاء كثيرون بأن تعبى فيهم سيعوضة بعض الجزاء . . . يملؤنى زهواً بهــذه الفكرة ، وهى أن أبنائى هؤلاء سوف يكونون يوما ما مبعث عزاء لى .

« لقد اعربت لى أثناء مقامك بهذه العاصمة . . . عن استحسانك لهذه المؤلفات ، ويشجعنى تقديرك لها على أن اهديها إليك ويغرينى بالأمل بأنك لن تراها غير جديرة برضائك . فأرجو أن تتفضل بقبولها ، وكن لها بمثابة الأب والمرشد والصديق . ومنذ هذه اللحظة أنزل لك عن جميع حقوقى عليها . على أننى ألتمس منك أن تعفو عن الأخطاء التى ربما غابت عن عين مؤلفها المتحيزة ، وان تواصل برغمها صداقتك الكريمة لرجل يقدر هذه الصداقه اسمى تقدير[٤٤] » .

وكان لموتسارت ولــع خاص بخماسياته . وكان يرى أن خماسيته بمقام E المنخفض للبيانو والأوبوا والكلا رنيت والهورن والباصون (ك٤٥٢) « خير ما ألفت قاطبة[٤٥] » . ولكن هذا كان قبل أن يكتب أوبراته الكبرى . وكانت قطعة Einekleine Nachtmusik « موسيقى ليلية صغيرة » فى الأصل (١٧٨٧) مؤلفة كخماسية ، ولكن سرعان ما تلقتها الأوركسترات الصغيرة ، وهى الآن تصنف بين سرنادات موتسارت . وكان يقدر السرينادة بمقام E المنخفض (ك ٣٧٥) لأنها مكتوبة « بشىء من العناية » ، وهى القطعة التى عزفت له هو نفسه ذات أمسية فى ١٧٨١ ، ولكن الموسيقين يؤثرون عليها فى المرتبة السرنادة بمقام C الصغير (ك ٣٨٨) — التى تعدل فى قتامتها ألحان بتهوفن وتشايكوفسكى الحزينة (الباتتيك) .

ووجة موتسارت الأوركستر بعد أن اكتشفه إلى عشرات التجارب : افتتاحيات ، وموسيقات حالمة ، ومتتاليات ، وكاسا سيونات cassations (وهى تنويعات للمتتالية) وموسيقات راقصة ، وأخرى خفيفة (ترفيهية) divertimenti ، وقصد بالأخيرة عادة إن تخدم هدفا عابرا لا أن يتردد

صداها فى أبهاء التاريخ ، وعلينا أن نستمتع بها لا أن نزنها . وحتى مع هذا ، فإن القطعة الخفيفة رقم ١٥ (ك ٢٨٧) ورقم ١٧ (ك ٣٣٤) عملان قيمان ، وأبعث للبهجة من معظم السمفونيات .

واستعمل موتسارت كما استعمل هايدن لسمفونياته « فرقة » من خمسة وثلاثين عازفا ، ومن ثم فهى تقصر دون توصيل قيمتها الكاملة لآذان ألفت الجهورية المضاعفة فى أوركسترات القرن العشرين ويطرى النقاد السمفونية رقم ٢٥ (ك ١٨٣) لأنها « مشبوبة العاطفة[٤٦] » و « آية فى التعبير العنيف .. [٤٧] » ولكن أقدم سمفونيات موتسارت المشهورة هى « باريس » (رقم ٣١ ك ٢٩٧) التى طوعها موتسارت لحب الفرنسيين للرقة والفتنة . أما سمفونية هافنر (رقم ٣٥ ك ٣٨٥) فقد ألفت أصلا على عجل لتزدان بها المهرجانات التى أعدها زجسموند هافنر ، عمدة سالزبورج السابق ، لزفاف ابنته (١٧٨٢) ، وفى تاريخ لاحق أضاف موتسارت إليها أدوارا للفلاوته والكلارنيت ثم قدمها فى فيينا (٣ مارس ١٧٨٣) فى حفلة حضرها يوزف الثانى « وصفق لى الأمبراطور تصفيقا حارا » ، ونفحة بخمس وعشرين دوقاتية[٤٨] . وفى هذه السمفونية ورقم ٣٦ ، التى كتبها فى لنتز فى نوفمبر ١٧٨٣ ، ظل موتسارت محافظا على الشكل والطابع — المبهجين دائماً ، العميقين فيما ندر — اللذين طبع بهما هايدن السمفونية ، وفى السمفونيتين تقع الحركة البطيئة من الآذان المسنة موقع الاغتباط والعرفان . وعلينا أن نتكلم باحترام أكثر على السمفونية رقم ٣٨ التى ألفها موتسارت لبراغ فى ١٧٨٦ ، هنا تبهج الحركة الأولى الموسيقى بمنطقها البنائى ومهارتها الكونترابنطية ، أما حركتها المعتدلة البطء (الأندانتى) التى أضافت التأمل إلى اللحن ، فقد حملت الخبراء على الاشادة بـ « كما لها الخالد[٤٩] » و « عالمها السحرى[٥٠] » .

وهناك إجماع على أن أعظم سمفونيات موتسارت قاطبة هى الثلاث التى سكبها فى سيل متدفق من الالهام فى صيف ١٧٨٨ ، فى حقبة من حياته ألم به فيها فقر كئيب وأثقلته ديون متفاقمة . والأولى مؤرخة ٢٦ يونيو ،

والثانية ٢٥ يوليو ، والثالثة ١٠ أغسطس — ثلاثة أطفال أنجبت فى ثلاثة أشهر . وعلى قدر علمنا لم تعزف واحدة منها فى حياته قط ، ولم يسمعها قط ، بل ظلت فى ذلك العالم الخفى الغامض الذى كانت فيه البقع السوداء المسطورة على فرخ من الورق فى نظر مؤلفها — « قصائد معدة للغناء لا صوت لها » — علامات وايقاعات لا يسمعها غـير الذهن . والثالثة التى تسمى خطأ « جوبيتر » (رقم ٤١ بمقام C ك ٥٥١) تعد عادة خيرها ، ويرى شومان أنها تعدل أعمال شكسبير وبيتهوفن(٥١) ، ولكنها لا تصلح لتذوق الهواة . والسمفونية رقم ٤٠ فى مقام G الصغير (ك ٥٥٠) تبدأ بقوة ترهص بموسيقى Eroica ثم تتطور تطوراً دعا المعلقين — فى نضالهم للتعبير عن الموسيقى بالألفاظ دون جدوى — إلى إن يقرؤا فيها « ليرا » أو « مكبثا » من المأساة الشخصية(٥٢) ، ولكنها للاذان الأبسط تبدو مبهجة بهجة ساذجة تقريباً . وهذه الآذان نفسها تجد أن أعظم السمفونيات إشباعا لها هى رقم ٣٩ فى مقام E المنخفض (ك ٥٤٣) ، فهى لا يثقلها كرب ، ولا تعذبها التقنية ، إنما هى الايقاع واللحن ينسابان فى غدير هادىء مطمئن ، وهى من نوع الموسيقى التى قد تبهج قلوب الآلهة فى أجازة ريفية من الأعباء السماوية .

و « السنفونية كونشرتانتى » هى هجين بين السمفونية والكونشرتو ، وقد نبتت من الكونشرتو جروسو بمقابلة آلتين أو أكثر للأوركستر فى حوار بين الميلوديا والموسيقى المصاحبة . وقد ارتفع موتسارت بهذا الشكل إلى ذروته فى « السنفونية كونشرتانتى » فى مقام E المنخفض (ك ٣٦٤) للفلاوته والفيولينه والفيولا (١٧٧٩) ، وهى لا تقل روعة عن أى من سمفونياته الأخرى .

وكل الكونشرتوات مبهجة ، ففيها تعيين فقرات العزف المنفرد الأذن غير المدربة على تتبع مواضيع وانغام قد يحجبها فى السمفونيات التعقيد التقنى أو التفنن الكونترابنطى . والحوار فيها طريف ، ويزداد طرافة اذا كانت المناظرة بين واحد والكل « Solo contra tutti » كما نرى فى شكل الكونشرتو كما اقترحه كارل فليب ايمانويل باخ وطوره موتسارت . ولما كان موتسارت

يستطيب هذه المواجهات الهارمونية ، فانه كتب معظم كونشرتواته للبيانو ، ففيها كان يعزف دور العازف المنفرد بنفسه مضيفا عادة فى أواخر الحركة الأولى قفلة تتيح له ان يسرح ويمرح ، وان يتألق عازفا بارعا لآلته .

وأول ما بدأ يتفوق فى هذا الضرب كان فى كونشرتو البيانو رقم ٩ فى مقام E المنخفض (ك ٢٧١) . وأول كونشرتواته التى ما زالت محببة للسامعين هى رقم ٢٠ فى مقام D الصغير (ك ٤٦٦) الشهيرة بـ « الرومانتسى » الطفلية الطابع تقريبا . ويجوز لنا أن نقول انه فى هذه الحركة البطيئة بدأت الحركة الرومانسية فى الموسيقى . وسواء كان السبب هو الكسل أو الشواغل ، فان موتسارت لم يكمل تدوين موسيقى هذا الكونشرتو إلا قبل ساعة من الزمن المحدد لأدائه (١١ فبراير ١٧٨٥) ، ووصلت نسخة العازفون وأدى موتسارت دوره أداء خبير صناع ، حتى لقد طلبت اعادة الكونشرتو مرات كثيرة فى السنوات التالية .

وقدم موتسارت موسيقى رفيعة لآلات منفردة أخرى . ولعل الكونشرتو الرخيم فى مقام A للكلارينت (ك ٦٢٢) يصلنا مذاعا مرارا أكثر من أى من مؤلفاته الأخرى . وفى شبابه المرح (١٧٧٤) كان يستمتع أيما استمتاع بكونشرتو فى مقام B المنخفض للباصون . وكانت كونشرتوات الهورن فقاعات تنفخ فى مرح على النوتة — التى كانت أحيانا تحوى تعليمات مضحكة للعازف . « da brava l corraggio l bestia l » لأن موتسارت كان خبيرا بأكثر من آله نفخ واحدة . ثم يرفعنا كونشرتو الفلاوته والهارب (ك ٢٩٩) إلى السماء الأعلى .

وفى ١٧٧٥ حين كان موتسارت فى التاسعة عشرة ألف خمسة كونشرتوات للفيولينه وكلها رائع ، وثلاثة منها ما زالت تحتويها ربرتوارات حية إلى اليوم . والكونشرتو رقم ٣ فى مقام G (ك ٢٢٦) فيه حركة بطيئة (أداجو) انتشى لها رجل كأينشتين (٥٣) ، ورقم ٤ فى مقام D من روائع الموسيقى ، ورقم ٥ فى مقام A فيــه حركة غنائية معتدلة البطء تنافس معجزة صوت المرأة .

لا عجب إذا كان موتسارت قد أنتج بعضا من ألذ الألحان فى التأليف الموسيقى قاطبة ، لا سيما فى سنوات حبه لألويسيا فيبر . وهى ليست أغانى (ليدات) مكتملة التفتح كالتى حققت تطويرها الناجح على يد شوبرت وبرامز ، إنما هى أبسط وأقصر ، تزين فى الغالب كلمات سخيفة ، ولكن موتسارت إذا وجد شعرا بمعنى الكلمة كقصيدة جوته (البنفسجية) « ارتفع إلى ذرى الشكل (ك ٤٧٦) . فها هنا بنفسجة مرتعشة فرحا باقتراب راعية حسناء تقول فى نفسها ما أحلى الرقاد على صدرها ؟ ولكن بينما كانت الراعية تمشى وهى تغنى فى جذل إذا هى تسحقها تحت قدمها دون أن تلحظها . (٥٤) أكانت هذه ذكرى ألويسيا القاسية ؟ لقد كتب لها موتسارت من قبل لحنا من أرق ألحانه Non so d'onde viene . ولكنه لم يلق بالا إلى مثل هذه الأغانى المنعزلة ، فقد احتفظ بموارد فنه الصوتى الخفية لألحان أوبراته وللمؤلفات التى وضعها للكنيسة .

على أنه قل أن سمعت موسيقاه الدينية خارج سالزبورج ، لأن الكنيسة الكاثوليكية لم ترض عن المحسنات الأوبرالية التى كان رؤساء الأساقفة الذين خدمهم موتسارت يتوقعونها منه فيما يبدو . فالقداس المطول فى سالزبورج كان يرتل فى مصاحبة الأرغن ، والوتريات ، والأبواق ، والترمبونات ، والطبول ، وكانت فقرات من المرح تنطلق فجأة فى أكثر المواضع وقارا ورهبة فى قداسات موتسارت . ومع ذلك فان الروح الدينية لا بد تحركها «وتينات نسجد لك (ك . ٣٢٧) و « القديسة مريم أم الرب » (ك ٣٤١ ب) ، وأبدع نغم يفوق جماله الموصول كل أنغام موتسارت يظهر فى « سبحوا الرب » فى القسم الرابع من تسبيحة الاعتراف المسائية (ك ٣٣٩) (٥٥) .

ويمكن القول عموما ان موسيقى موتسارت هى صوت عصر أرستقراطى لم يسمع بسقوط الباستيل ، وحضارة كاثوليكية لم يكدر إيمانها مكدر ، حرة فى الاستمتاع بمباهج الحياة دون أن تسعى هذا السعى الحثيث لتجد مضمونا جديدا لحلم أفرغ من مضمونه القديم . وهذه الموسيقى فى جوانبها الأخف تتسق مع رشاقة الزخرف الروكوكى ، ومع رومانسيات فاتو التصويرية ،

وأولمب تيبولو الطافى فى هدوء ، وابتسامات مدام دبومبادور وأروابها وخزفها . وهى فى عمومها موسيقى هادئة صافية ، تشوبها بين الحين والحين لمسات من الألم والغضب ، ولكنها لا ترفع صلاة متذللة ولا تحديا بروميثيا للآلهة . لقد بدأ موتسارت موسيقاه فى طفولته ، وكانت تكمن فى مؤلفاته خصيصة طفلية حتى اتضح له أن القداس الجنائزى الذى كان يكتبه لرجل غريب كان قداسا لجنازته هو .

٧ - الروح والجسد

لم يوهب موتسارت فتنة الجسد . فقد كان قصير القامة ، رأسه أكبر مما يناسب جسمه ، وأنفه أضخم من أن يلائم وجهه ، وشفته العليا راكبة على السفلى ، وحاجباه الكثيفان يحجبان عيناه القلقتين ، لا يروع الناظر إليه غير شعره الأشقر الغزير . وفى سنى عمره اللاحقة حاول التعويض عن عيوب قامته وقسماته باللباس البهى : قميص من الدنتلا ، وسترة زرقاء ، ذات ذيول ، وأزرار ذهبية وسراويل تصل إلى الركبة ومشابك فضية فوق حذائه . (٥٦) ولم يكن الناظر إليه ينسى مظهره إلا وهو يعزف على البيانو ، عندها تضطرم عيناه بالتركيز الشديد ، وتخضع كل عضلة فى بدنه نفسها لحركة ذهنه ويديه .

وكان فى صباه متواضعا طيب القلب ، واثقا بالناس محبا لهم ، ولكن ما ظفر به من شهرة مبكرة ، وما اغتذى عليه كل يوم تقريبا من التصفيق والاستحسان ، أحدث عيوبا فى خلقه . وقد حذره ليوبولد (١٧٧٨) قائلا « انك يا بنى سريع الغضب مندفع . . . شديد التحفز للرد فى لهجة ساخرة على أول تحد » (٥٧) . واعترف موتسارت بهذا وبأكثر منه . فكتب يقول « لا بد أن انتقم لنفسى إن أساء إلى إنسان ، فاذا لم أرد اعدوى الصاع صاعين أرانى إنما جازيته صاعا بصاع ولم أعاقبه . » (٥٨) ثم كان أشد الناس غلوا فى تقدير عبقريته . « إن الأمير كاونتز أخبر الارشيدوق بأن أمثالى لا يجود بهم الزمان إلا مرة كل مائة عام (٥٩) .

وكان يسود خطاباته ويظهر في موسيقاه روح الفكاهة حتى آخر سني عمره . وكان هذا الروح عادة ضاحكا معابثاً في براءة ، يشتد أحيانا فيصبح هجاء جادا ، وفي شبابه كان بين الحين والحين ينحرف إلى فحش القول وهجره . وقد مر بمرحلة من الافتتان بالغائط . وحين كان في الحادية والعشرين كتب لابنة عمه ماريا أنا تكلا موتسارت تسعة عشر خطابا تلوثها سوقية لاتصدق(٦٠) . وأشاد خطاب كتبه لأمه بالتطبل [أي إمتلاء البطن بالغازات] نثراً وشعراً(٦١) ولم تكن أمه شديدة الأحتشام ، فقد نصحت زوجها في خطاب كتبته له فقالت « اعتن بصحتك ياحبيبي ، وادفع عجزك إلى فمك » ويبدو أن هذه العبارات « القذرية » كانت عرفا سائداً في أسرة موتسارت وبيئتها ، ولعلها كانت ميراثاً من جيل أشد شبقا . على أنها لم تمنع موتسارت من أن يكتب لأبوية وشقيقته خطابات تفيض بأرق الحب . وكان في زعمه عريساً بكراً . فهل كان زوجا وفيا ؟ لقد إتهمته زوجته بـ « مغازلات الخدم(٦٣) » ويقول كاتب سيرته المخلص :

« انتشرت الشائعات بين الجمهور وفي الصحف ، وبولغ في وصف لحظات نادرة من الضعف عنده ، فجعلت سمات مميزة لخلقه . فنسبت إليه مغازلة كل تلميذة من تلاميذه وكل مغنية كتب لهـا أغنيه ، وكان يعد من الفكاهات إن يلقب بالسلف الأول لدون جوان(٦٤) » .

وقد نجم عن كثرة لزوم زوجته الفراش للوضع ، وتكرار أسفارها إلى المنتجعات الصحية ، وغيابه عنها في جولاته الموسيقية ، وحساسيته لكل مفاتن النساء ، واختلاطه بالمغنيات الفاتنات والممثلات المتحررات — نجم عن هذا كله موقف كانت فيه المغامرة لا مفر منها تقريباً . وقد روت كونستانتسى كيف أنه إعترف لها بـ « حماقة » من هذا النوع ولم غفرتها له — « لقد كان طيباً جداً بحيث يستحيل على الإنسان أن يغضب منه » ولكن أختها تقص أنباء تفجرات عنيفة بينهما بين الحين والحين(٦٥) . ويلوح إن موتسارت كان شديد التعلق بزوجته ، وقد احتمل عيوبها ربة للبيت ، وكان يكتب لهـا أثناء فراقهما خطابات تفيض إعزازا كاعزاز الأطفال(٦٦) .

ولم يكن موفقا فى الناحية الاجتماعية . من ذلك إنه قسا فى الحكم على بعض منافسية « إن صوناتات كلمنتى عديمة القيمة . . . فهو مشعوذ ككل الايطاليين[٦٧]. » « بالأمس أسعدنى الحظ بالأستماع إلى الهر فريهولت يعزف كونشرتوا من تأليفه التعس . ولم أجد فيه إلا القليل جداً ممـا يستحق الأعجاب[٦٨] » . ولكنه إمتدح الرباعيات التى نشرها مؤخراً اجنازبلييل وإن نافست رباعياته . ووبخة أبوه لأنه يبغض الناس فيه بصلفه[٦٩]، وأنكر موتسارت الصلف ، ولكن لا نكران فى أنه لم يكن له إلا قله ضئيلة من الأصدقاء بين موسيقى فيينا ، وأن روحه المتكبرة ألقت العقبات فى طريق تقدمة . ذلك إن حظ الموسيقى فى النمسا وألمانيا كان يعتمد على الطبقة الارستقراطية ، وقد رفض موتسارت إن يقدم النبالة على العبقرية .

ثم إنه عانى من معوق آخر هو أنه لم يختلف قط إلى المدرسة أو الجامعة . ولم يكن أبوه قد أتاح له متسعا من الوقت للتعليم العام . وقد اقتنى موتسارت فيما إقتنى من كتب قليلة دواوين شعر لجسنر وفيلاند وجلليرت ، ولكن يبدو أنه إستعملها فى الكثير الغالب مصدرا لنصوص ممكنة للاوبرات . وكان قليل الإكتراث للفن أو الأدب . وكان فى باريس حين مات فولتير ، فلم يستطع أن يفقه لم ضجت المدينة هذا الضجيج الكثير بسبب زيارة الثائر الهرم وموته . كتب لأبية يقول « إن هذا الوغد الكافر فولتير قد نفق كأنه كلب ، كأنه حيوان ! وهذا جزاؤه الحق[٧٠]. » وقد تشرب بعض العداء لرجال الدين من اخوانه الماسون ، ولكنه شارك فى موكب لعيد القربان المقدس وهو يمسك شمعة فى يده[٧١] .

ولعل سذاجة عقله هى التى جعلته محبوباً رغم أخطائه . فالذين لم ينافسوه فى الموسيقى وجدوه انيس المعشر بشوشاً رفيقا هادىء الطبع عادة . كتبت أخت زوجته صوفى فيبر « لم أر موتسارت طوال حياتى هائج الطبع ، ولا حتى غاضباً[٧٢]. » ، ولكن هناك روايات تناقض هذه . وكان بمثابة الحياة لكثير من الحفلات الخاصة ، دائم الرغبة فى العزف ، دائم الاستعداد لنكتة أو لعبة . وكان يحب البولنج ، والبليارد ، والرقص ، ويبدو أحيانا فخوراً

برقصه أكثر من موسيقاه . (٧٣) وإذا لم يكن كريما سمح النفس مع منافسيه ، فإنه كان أريحيا دون تفكير تقريبا مع كل من عداهم . وندر أن رد سائلا . فاقترض منه ضابط أوتار البيانو المرة بعد المرة دون أن يرد قروضه . وكان موتسارت لا يخفى احترامه الشديد للمال ، ولكن مرد ذلك انه كان يفتقر أشد الافتقار إلى الوقت أو الميل للتفكير فى المال ، حتى انه كثيرا ما أعوزه هذا المال . وإذ اضطر إلى الاعتماد على وسائله فى كسب المال ، واضطر إلى أن يعول أسرة بمنافسة عشرات الموسيقيين الغيورين منه فقد أهمل شئون ماله ، وسمح لمكاسبه ان تتسرب من بين أصابعه دون اكتراث منه ، وانحدر إلى درك الأملاق اليائس وهو يكتب أروع موسيقى جيله فى سمفونياته الثلاث الأخيرة وأوبراته الثلاث الأخيرة .

٨ — الأوج : ١٧٨٢ — ٨٧

لقد بدأ حياة الاحتراف موسيقيا مستقلا فى فيينا بنجاح قرت به عينه . فكان يتقاضى أجرا طيبا على الدروس التى يعطيها ، وأتاه كل كونشرتو عزف فى ١٧٨٢ — ٨٤ بنحو خمسمائة جولدن . (٧٤) ولم ينشر من مؤلفاته فى حياته سوى سبعين ، ولكنه تقاضى عنها ثمنا معقولا . وأعطاه الناشر أرتارين مائة دوقاتية نظير الرباعيات الست المهداة إلى هايدن — وكان ثمنا طيبا فى تلك الأيام . (٧٥) وخسر ناشر آخر يدعى هوفمايستر بطبعه رباعيات موتسارت للبيانو فى مقام G الصغير (ك ٤٧٨) و E الخفيض (ك ٤٩٣) ، فقد وجدها الموسيقيون عسيرة جدا (وهى الآن تعد سهلة) ، وأنذر هوفمايستر موتسارت قائلا : « اكتب بشعبية أكثر وإلا فلن استطيع أن أطبع المزيد من مؤلفاتك أو أنقدك عنه » (٧٦) . وكان موتسارت يتقاضى الأجر العادى عن أوبراته ، وهو مائة دوقاتية ، ولكنه تقاضى عن « دون جوفانى » ٢٢٥ دوقاتية مضافا إليها حصيلة حفلة موسيقية أحييت لصالحه . واجتمع له فى هذه السنين « دخل طيب جدا » (٧٧) كتب أبوه وقد زاره فى ١٧٨٥ يقول « إذا لم يكن على ولدى ديون مستحقة ففى ظنى أنه يستطيع الآن أن يودع فى المصرف ألفى جولدن . (٧٨)

ولكن موتسارت لم يودع ذلك المال فى المصرف ، بل أنفقه على مصروفاته الجارية ، وعلى الترفيه ، والملابس الفاخرة ، وعلى تلبية حاجات الأصدقاء المتسولين . لهذه الأسباب وغيرها من أسباب أكثر غموضا وقع فى هوة الدين فى ذروة الطلب على خدماته ومؤلفاته . وفى تاريخ مبكر (١٥ فبراير ١٧٨٣) كتب إلى البارونة فون فالدشتيتن يقول إن أحد دائنيه هدده بأن « يقاضينى . . . وأنا فى هذه اللحظة لا أستطيع الوفاء بالمبلغ — ولا حتى بنصفه . . . أتوسل إليك يا سيدتى بحق السماء أن تعينينى على الاحتفاظ بشرفى وسمعتى . [٧٩] وجاءه الفرج المؤقت من نجاح حفلة موسيقية أحييت لصالحه فى مارس ، إذ أتته بألف وسمائة جولدن . وقد أهدى بعض هذا المال لأبيه .

وفى مايو ١٧٨٣ انتقل إلى منزل حسن فى رقم ٢٤٤ بميدان يودن . هناك ولد له طفله الأول (١٧ يونيو) « صبى جميل قوى ، ملفوف كالكرة . » ولان جانب الأب بفضل هذا الحدث والهدية بعد أن ساءه زواج ابنه ، واستغل فولفجانج وكونستانتسى هذا اللين ليزورا ليوبولد ونانيرل فى سالزبورج ، بعد أن تركا الطفل فى فيينا مع مربية . وفى ١٩ أغسطس مات الطفل . وبقى أبواه فى سالزبورج لأن موتسارت كان قد رتب أن يعزف فيها قداسه فى مقام C الصغير الذى سترتل فيه كونستانتسى . وأطال فولفجانج وكونستانتسى مكثهما فوق أصول الضيافة ، لأن ليوبولد كان عليه أن يحسب حساب كل درهم ، ورأى ان زيارة ثلاثة أشهر أطول مما يحتمل . وفى طريق عودتهما إلى فيينا تخلفا فى لنتز ، حيث كلف الكونت فون تون موتسارت بكتابة سمفونية .

فلما عاد إلى بيته عكف بهمة على التدريس والتأليف والعزف والقيادة . ففى ثلاثة أشهر (٢٦ فبراير إلى ٣ ابريل ١٧٨٤) أحيا ثلاثة حفلات موسيقية وعزف فى تسع عشرة حفلة أخرى. [٨٠] وفى ديسمبر انضم إلى أحد المحافل الماسونية السبعة بفيينا ، واستمتع باجتماعاتهم ، ولم يتردد فى الموافقة على تأليف الموسيقى لأعيادهم . وفى فبراير قدم أبوه فى زيارة طويلة بعد أن

ألانه مولد ولد آخر لكونستانتسى . وفى ١٧٨٥ دخل لورنتسودا بونتى حياة موتسارت .

وقد عاش لورنتسو هذا حياة فيها من المغامرة ما يقرب من مغامرة صديقه كازانوفا . كان قد ولد فى ١٧٤٩ ابنا لدباغ جلود فى حى يهود تشينيدا . فلما بلغ الرابعة عشرة أخذ أبو ايمانويلى كونليانو وأخوان له الأطفال إلى لورنتسودا بونتى ، أسقف تشينيدا ، ليعمدهم أتباعا للكنيسة الكاثوليكية . واتخذ ايمالويلى اسم الأسقف ، وأصبح كاهنا ، واتصل فى البندقية بامرأة متزوجة ، فنفى ، وانتقل إلى درسدن ، ثم إلى فيينا ، وفى ١٧٨٣ استخدمه المسرح القومى شاعرا وكاتبا لنصوص الأوبرات .

واقترح عليه موتسارت إمكان تأليف نص لأوبرا يؤخذ من كوميديا « زواج فيجارو » الحديثة التى ألفها بومارشيه . وكانت الكوميديا قد ترجمت إلى الألمانية لتمثيلها فى فيينا ، ولكن يوزف الثانى حظر عرضها بحجة احتوائها على نزعات ثورية تسيئ إلى بلاطه . فهل فى الامكان إقناع الامبراطور ، الذى لم يكن هو نفسه مفتقرا إلى النزعة الثورية ، بأن يسمح بأوبرا تستخلص من التمثيلية بحكمة وحصافة ؟ وكان يونتى معجبا بموسيقى موتسارت ، وسيبدى فيه الرأى التالى فى تاريخ لاحق ، وهو أنه رجل « لم يستطع حتى الآن ، برغم ما أوتى من مواهب تفوق مواهب أى مؤلف موسيقى فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، أن يستغل عبقريته السماوية فى فيينا بسبب دسائس خصومه »(٨١) . ثم حذف من التمثيلية الحواشى المتطرفة التى كتبها بومارشيه ، وحول ما بقى إلى نص إيطالى يضارع خير نصوص متاستازيو .

كانت قصة «زواج فيجارو» هى المتاهة القديمة التى تتشابك فيها الاستخفاءات والمفاجآت والاكتشافات وإستغفال الخدم الذكى لسادتهم : وكل هذا مألوف فى الكوميديا منذ عهد ميناندر وبلوتس . وسرعان ما أحب موتسارت الموضوع ، وألف الموسيقى بسرعة تكاد تبلغ سرعة تشكل النص ، فتم الأثنان

فى ستة أسابيع . وفى ٢٩ إبريل ١٧٨٦ كتب موتسارت الافتتاحية ، وفى أول مايو حالف النجاح العرض الأول للأوبرا . وربما كان بعض الفضل فى نجاحها لبنوتشى ، الباصو المرح الجهورى الصوت ، الذى غنى دور فيجارو ولكن لابد أن الفضل الأكبر لحيوية الموسيقى وملاءمتها للمناسبة ، وللألحان رائعة مثل شكاة كيروبينو « ما الذى تعرفونه (Voi che sapete)» ، وتوسل الكونتيسة توسلا حارا فيه ضبط للنفس إلى إله الحب فى لحن الحب « Porgi amor» وقد إستعيدت الألحان غير مرة حتى إستغرق العرض مثلى الوقت العادى ، وفى نهايته طلب الجمهور موتسارت مرات ليظهر على خشبة المسرح .

كانت حصيلة أخراج « فيجارو » فى فيينا وبراغ خليقة بأن تعين موتسارت على الوفاء بديونه عاماً لولا اسرافه ولولا تكرار مرض زوجته وحملها . وفى إبريل ١٧٨٧ إنتقلا إلى بيت أقل تكلفة ، فى رقم ٢٢٤ شارع لاند شتراسى . وبعد شهر مات ليوبولد مخلفا لولده ألف جولدن .

وكلفته براغ بأوبرا أخرى . واقترح بونتى مغامرات دون جوان الجنسية موضوعاً لها . وكان ترسو دى مولينا قد عرض « الدون » الأسطورى على المسرح بمدريد فى ١٦٣٠ تحت اسم « مخادع أشبيليه » ، وروى موليير القصة فى باريس وسماها « وليمة الحجر » (١٦٦٥) وقدمها جولدونى فى البندقية باسم «دون جوفانى تنوريو » (١٧٣٦) وكان فنتشنتى ريجينى قد عرض « وليمة الحجر » فى فيينا عام ١٧٧٧ ، وفى عام ١٧٨٧ هذا نفسه كان جوزيبى جاتسانيجا قد أخرج بالعنوان ذاته أوبرا سطا بونتى على أسطر كثيرة منها ، ومن بينها قائمة مرحة بخطايا جوفانى .

وعرفت « أعظم الاوبرات قاطبة » (كما سماها روسينى) أول مرة فى براغ فى ٢٩ أكتوبر ١٧٨٧ . وذهب موتسارت وكونستانتسى إلى العاصمة البوهيمية ليشهدا هـــذا الحدث ، وكثرت الحفاوة بهما إلى حد دعاه إلى تأجيل تأليف الافتتاحية حتى عشية العرض الأول ، وفى منتصف الليل

« بعد قضاء أبهج أمسية يمكن تصورها[٨٢] » ألف قطعة أقرب ما تكون إلى موسيقى فاجنر فى إيدانها بالعناصر التراجيدية والكوميدية للتمثيلية . ووصلت نوتة الافتتاحية إلى الاوركستر بالضبط فى الوقت المحدد للأداء[٨٣] . كتبت جريدة فيينا تسايتونج تقول « مثلت يوم الأثنين أوبرا الموسيقار موتسارت « دون جوفانى » التى طال أنتظارها . . . . . ويجمع الموسيقيون وأهل الخبرة على أن مثل هذا العرض لم ير فى براغ قط من قبل . وقاد الهر موتسارت بشخصه الموسيقيين ، وكان ظهوره فى الاوزكستر إيذانا بترديد الهتاف الذى تكرر عند خروجه[٨٤] » .

وفى ١٢ نوفمبر عاد الزوجان السعيدان إلى فيينا . وبعد ثلاثة أيام مات جلوك ، وعين يوزف الثانى موتسارت ليخلفه رئيس موسيقى الحجرة للبلاط . وبعد معاناة شديدة مع المغنين أخرجت « دون جوفانى » بفيينا فى ٧ مايو ١٧٨٨ دون أن تلقى إستحسانا يذكر . وأدخل موتسارت وبونتى عليها المزيد من التغيير والتبديل ، ولكن الأوبرا لم تحظ قط فى فيينا بالنجاح الذى حظيت به فى براغ ومانهايم وهامبورج . وشكا ناقد برلينى فقال أن « التمثيلية الهازلة » عدوان على الفضيلة . ولكنه أردف « إن كان لأمة من الأمم إن تفخر بأحد أبنائها ، فإن لألمانيا أن تفخر بموتسارت مؤلف هذه الأوبرا[٨٥] » . وبعد تسع سنوات كتب جوته إلى شيلر « إن آمالك التى ترجوها للأوبرا تحققت بوفرة فى دون جوفانى[٨٦] » وتحسر على أن موتسارت لم يعش ليكتب موسيقى فاوست .

٩ — الحضيض : ١٧٨٨ — ٩٠

لم تلبث حصيلة دون جوفانى أن نفدت ، ولم يكف راتب موتسارت المتواضع لشراء الطعام إلا بالجهد . وقبل إعطاء بعض التلاميذ دروسا خصوصية ولكن التدريس كان عملا مرهقا مضيعا للوقت . وعليه فقد إنتقل إلى مسكن أرخص فى ضاحية فيرنجر شتراسى . ومع ذلك تكاثرت عليه الديون . فاقترض أينما أستطاع — خصوصا من تاجر كريم وأخ فى الماسونية يدعى

ميخائيل بوشبرج . وقد كتب إليه موتسارت فى يونيه ١٧٨٨ يقول : »

« ما زلت مدينا لك بثمانى دوقاتيات . ورغم أنى فى هذه اللحظة لست فى وضع يمكننى من سداد هذا المبلغ لك ، فان ثقتى فيك لا حد لها ، بحيث أجرؤ على التوسل إليك بأن تسعفنى بمائة جولدن حتى الأسبوع القادم وهو الموعد المحدد لبدء حفلاتى الموسيقية فى الكازينو . عندئذ سأكون بالتأكيد قد تسلمت نصيبى الذى وعدت به فاستطيع بغاية السهولة أن أرد لك ١٣٦ جولدنا مقرونة بأحر عبارات شكرى . (٨٧) »

وأرسل إليه بوشبرج المائة جولدن . وشجع هذا موتسارت ، فرجاه (١٧ يونيو) فى إقراضه « ألف جولدن أو ألفين لمدة عام أو عامين بفائدة مناسبة » وكان قد ترك متأخرات من إيجار بيته القديم دون أن يدفعها ، فهدده المالك بحبسه ، فاستدان موتسارت ليؤدى له دينه . والظاهر أن بوشبرج لم يوافه بكل ما طلب ، لأن المؤلف اليائس أرسل إليه توسلات جديدة فى يونيو ويوليو . فى تلك الشهور النكدة المزعجة ألف موتسارت « السمفونيات الكبرى » الثلاث .

ثم رحب بدعوة أتته من الأمير كارل فون لشنوفسكى ليركب معه إلى برلين . واقترض لتلك الرحلة مائة جولدن من فرانتز هوفدميل . وغادر الأمير والصعلوك فيينا فى ٨ ابريل ١٧٨٩ . وفى درسدن عزف موتسارت أمام الأمير الناخب فردريك أغسطس فظفر بمائة دوقاتية . وفى ليبزج عزف فى حفلة عامة على أرغن باخ ، وتأثر بترتيل فرقة « توماستولى » لموتيته باخ « أنشدوا للرب » Singet dem Herron . وفى بوتسدام وبرلين (٢٨ أبريل إلى ٢٨ مايو) عزف لفردريك وليم الثانى ، فنفحه بسبعمائة فلورين ، مع تكليف بست رباعيات وست صوناتات . ولكن مكاسبه انفقت بسرعة عجيبة ، وقد عزت شائعة غير مؤكدة بعض هذا الانفاق إلى صلة غرام بمغنية برلينية تدعى هنرييته بارونيوس . (٨٨) وفى ٢٣ مايو كتب إلى كونستانتسى يقول « أما عن عودتى فعليك أن تتطلعى إلى أنا أكثر من التطلع إلى النقود (٨٩) » ووصل أرض الوطن فى ٤ يونيو ١٧٨٩ .

واحتاجت كونستانتسى ، التى كانت حاملا مرة أخرى ، إلى الأطباء والعقاقير وإلى رحلة غالية للاستشفاء بمياه بادن - باى - فين : وفزع موتسارت إلى بوشبرج مرة أخرى :

« يا إلهى العظيم ! لست أتمنى لأعدى أعدائى أن يكون فى موقفى الراهن . إنك لو تخليت عنى يا أعز صديق وأخ (ماسونى) لقضى علينا قضاء مبرما - نفسى التعسة البريئة وزوجتى المريضة المسكينة وأطفالى : : : فكل شىء رهن . . . بموافقتك على إقراضى خمسمائة جولدن أخرى ، وإلى أن تسوى أمورى أتعهد بأن أرد لك عشرة جولدنات كل شهر ، ثم أسدد لك المبلغ كله . يا إلهى ! لا أكاد أقوى على حمل نفسى على إرسال هذا الخطاب ، ومع ذلك لابد مما ليس منه بد ! اغفر لى بالله ، فقط اغفر لى ! (٩٠) » .

وأرسل له بوشبرج ١٥٠ جولدنا أنفق أكثرها فى سداد فواتير كونستانتسى فى بادن . وفى ١٦ نوفمبر ، ولدت فى بيتهم بنتا ماتت فى اليوم نفسه . وأعانه يوزف الثانى بأن كلفه هو وبونتى بكتابة « مسرحية هازلة » عن موضوع قديم (إستخدمه ما ريفو فى لعبة الحب والحظ ١٧٣٠) : خلاصتها إن رجلين يتنكران لاختبار وفاء خطيبتيهما فيجدان فيهما لينا ورخاوة ، ولكنهما يغفران لهما على أساس أن كل النساء هكذا «cosi fan tutte» ومن هنا اسم الأوبرا «هكذا يفعلن جميعاً». ولم يكن الموضوع بالذى يتفق ومزاج موتسارت المأسلوى آنئذ (إذا استثنينا قليلا من العبث بدر من كونستانتسى فى بادن) ، ولكنه قدم للنص البارع الظريف موسيقى هى التجسيد الكامل للبراعة والظرف ، وندر أن نجد هراء بمثل ما نجد به هذا الهراء . وقد لقى عرض الأوبرا الأول فى ٢٦ يناير ١٧٩٠ نجاحا لا بأس به ، وأعيد العرض أربع مرات فى شهر واحد ، وكانت الحصيلة مائة دوقاتية لموتسارت . ثم مات يوزف الثانى (٢٠ فبراير) ، وأغلقت مسارح فيينا أبوابها حتى ١٢ أبريل .

وراود موتسارت الأمل فى أن يجد له الأمبراطور الجديد عملا ، ولكن

ليوبولد الثانى تجاهاة . وكذلك تجاهل بونتى فرحل إلى انجلتره وأمريكا ، وانتهى به المطاف (١٨٣٨) مدرسا الايطالية فى ما هو الآن جامعة كولومبيا بنيويورك[٩١] . واستنجد موتسارت بيوشبرج من جديد (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩ ، ٢٠ يناير ، ٢٠ فبراير ، ١ ، ٨ ، ٢٣ إبريل ١٧٩٠) ، ولم يرده خائبا قط ، ولكن ندران تلقى منه كل ما طلب . وفى أوائل مايو طلب سمائة جولدن ليؤدى ما استحق عليه من إيجار . فأرسل إليه يوشبرج مائة . واعترف ليوشبرج فى ١٧ مايو « إننى مضطر للألتجاء إلى المرابين » وفى ذلك الخطاب ذكر أنه لم يبق له من تلاميذه سوى اثنين ، ورجا صديقه « أن يذيع بين الناس أننى مستعد لإعطاء الدروس[٩٢] » على أن ما به من توتر الأعصاب وضيق الخلق كان يحول بينة وبين إجادة التعليم . وكان أحيانا يخلف مواعيده مع تلاميذه وأحيانا يلعب معهم البليارد بدلا من أن يعطيهم درسا[٩٣]. ولكنه كان إذا وجد طالبا ذا موهبة مبشرة بذل له نفسه دون تحفظ . وهكذا نراه يعلم يوهان هومل فى اغتباط وبنجاح ، وقد تتلمذ له (١٧٨٧) وهـــو لا يزال فى الثامنة ، وأصبح عازفا شهيرا للبيان فى الجيل التالى .

وأضافت الأمراض الخطيرة آلاما إلى أحزان موتسارت . وقد شخص طبيب أوجاعة بأنها « التهاب مفرز لحويصلة الكلية مصحوب بتقيح ، وتضررات بؤرية كامنة . تفضى بالضرورة إلى عجز كلوى تام[٩٤] » . وهذا معناه التهاب فى الكلى صديدى مضعف . كتب إلى بوشبرج فى ١٤ أغسطس ١٧٩٠ يقول « إننى اليوم فى منتهى التعاسة . لم يغمض لى جفن فى الليله البارحة لشدة الألم . . . تصور حالى — عليل تتوشنى الهموم والمنغصات . . . . ألا تستطيع إعانتى بمبلغ تافه ؟ إننى أرحب جداً بأقل مبلغ . » وأرسل له بوشبرج عشرة جولدنات .

واتخذ موتسارت رغم سوء حالته الصحية خطوة يائسة ليعول أسرته . ذلك أنه تقرر تتويج ليوبولد بفرانكفورت فى ٩ أكتوبر ١٧٩٠ . وكان فى حاشية الإمبراطور صبعة عشر موسيقيا للبلاط ، ولكن موتسارت لم يدع . ومع ذلك ذهب بصحبة فرانتز هوفر زوج أخته وعازف الفيولينه . ورهن موتسارت آنية الأسرة الفضية ليغطى نفقة الرحلة . وفى فرانكفورت عزف

وقاد فى ١٥ أكتوبر كنشرتو البيانو فى مقام D (ك ٥٣٧) ، الذى ألفه قبل ثلاث سنوات ، ولكن شاءت نزوة من نزوات التاريخ أن تسمية « كونشرتو التتويج » — وهو ليس من أفضل موسيقاه . كتب لزوجته يقول « لقد نجح نجاحاً باهرا من حيث الشرف والمجد ، ولكنه أخفق من حيث المال[٩٥] » . وقفل إلى فيينا دون أن يزيد ما كسبة عما أنفق إلا قليلا ، وفى نوفمبر أنتقل إلى مسكن أرخص فى راوهنشتاينجاسى حيث قدر له أن يلقى منيته .

١٠ — القداس الجنائزى : ١٧٩١

وأعانته على الحياة عاماً آخر ثلاثة تكليفات وافته فى تتابع سريع . ففى مايو ١٧٩١ عرض عليه إيمانويل شيكانيدر ، الذى كان يخرج الاوبرات والتمثيليات الألمانية فى مسرح بإحدى الضواحى ، مخططاً لنص يدور حول ناى سحرى ، ورجا أخاه فى الماسونية أن يؤلف موسيقى للنص ، فقبل موتسارت . ولما ذهبت كونستانتسى وهى حبلى مرة أخرى إلى بادن — باى فيين فى يونيو ، قبل دعوة شيكانيدر أن ينفق نهاره فى بيت وسط حديقة قرب المسرح حيث يستطيع تأليف « الناى السحرى » تحت حث المدير وإلحاحه . أما الأمسيات فقد صحب فيها شيكانيدر فى حياة الليل بالمدينة . يقول يان «كانت الحماقة والسرف الرفيقين الحتميين لمثل هذه الحياة ، وسرعان ما وصلت أنباؤهما إلى إذان الجماهير . . . فلوثت اسمه شهورا بقدر من القدح فوق ما يستحق[٩٦] » . ووسط هـــذه الاسترخاءات وجد موتسارت وقتا للركوب إلى بادن (على أحد عشر ميلا من فيينا) ليزور زوجته التى ولدت له فولفجانج موتسارت الثانى فى ٢٦ يوليو .

فى ذلك الشهر وافاه طلب من غريب مجهول الاسم ، يعرض عليه مائة دوقاتية يؤلف لقاءها سراً قداسا جنائزيا ، ثم يرسله إليه دون أى اعلان لاسم المؤلف . وتحول موتسارت من مرح « الناى السحرى » إلى موضوع الموت ، وإذا هو يتلقى فى أغسطس تكليفا من براغ بتأليف أوبرا « La clemenza di Tito » « شفقة تيتو» تمثل هناك فى مناسبة وشيكة هى تتويج ليوبولد الثانى ملكا على بوهيميا . ولم يتح له غير شهر واحد لوضع موسيقى جديدة لنص متاستازيو القديم . وعكف عليه فى مركبات مهتزة

وفنادق صاخبة أثناء رحلته مع زوجته إلى براغ . وغنيت الأوبرا فى ٩ سبتمبر دون أن تحظى إلا باستحسان وسط . وكانت الدموع تترقرق فى عينى موتسارت وهو يغادر المدينة الوحيدة التى ناصرته من قبل ، ويدرك أن الإمبراطور شهد فشله . ولم يكن له من عزاء إلا أجر المائتى دوقاتية ، والنبأ اللاحق بأن إعادة عرض الأوبرا فى براغ فى ٣٠ سبتمبر لقى كل نجاح .

فى ذلك اليوم قاد من البيانو أول عرض للناى السحرى . والقصة كانت فى بعضها من قصص الجان ، وفى بعضها تمجيدا لشعائر الدخول فى الماسونية . وأفرغ موتسارت خير فنه فى تأليف موسيقاها وإن أتبع معظم الألحان نمط ميلودى بسيط يناسب جمهوره المؤلف من الطبقة الوسطى . وقد أسقط فيضا من الزوقات (الكولوراتورا) على « ملكة الليل » ، ولكنه كان بينه وبين نفسه يسخر من غناء الكولوراتورا ويشبهه بـ « الشرائط المقطعة » . [٩٧] ومارش الكهنة الذى يفتتح الفصل الثانى موسيقى ماسونية ، ولحن كبير الكهنة « in diesen Leiligen Hallen » « فى هذه القاعات المقدسة لا نعرف شيئاً عن الانتقام ، ومحبة الداخلين فى الإيمان لإخوانهم من البشر هو المبدأ الهادى » — هذا اللحن هو زعم الماسونية بأنها ردت أخوة البشر التى بشرت بها المسيحية من قبل . (قارن جوته بين الناى السحرى والجزء الثانى من فاوست ، الذى بشر هو أيضا بالأخوة) ، وإذ كان هو نفسه ماسونيا فقد قال عن الأوبرا إن لها « معنى أسمى لن يغيب عن أعضاء الجماعة . » [٩٨] ولقى العرض الأول نجاحا قلقا ، وصدم النقاد ذلك المزج بين الفوجة والمرح[٩٩] ، على أن الناى السحرى ما لبث أن أصبح أحب أوبرات موتسارت إلى الناس ، وأحب الأوبرات قبل فاجنر وفردى . وقد أعيد أداؤه مائة مرة خلال أربعة عشر شهرا من العرض الأول .

وجاء هذا النصر الأخير وموتسارت يشهر بيد الموت تمسه . وكأن القدر أراد أن يؤكد سخريته ، إذ تلقى الآن من جماعة من نبلاء المجريين تعهدا باشتراك سنوى قدره ألف فلورين ، ثم عرض عليه ناشر أمستردامى مبلغا أكبر حتى من هذا نظير اختصاصه بحق طبع بعض أعماله . ثم تلقى فى سبتمبر دعوة إلى لندن من بونتى ، فرد عليه قائلا « كان بودى أن أتبع نصيحتك ، ولكن كيف أستطيع ؟ ... إن حالتى تنبئنى بأن ساعتى قد

حانت ، فأنا موشك على فراق الحياة . وقد أتت النهاية قبل ان أستطيع إثبات موهبتى . ومع ذلك كانت الحياة جميلة » [١٠٠] .

وفى شهوره الأخيرة أفرغ عافيته المتداعية فى تأليف « القداس الجنائزى » وراح يعكف عليه أسابيع عديدة عكوفا محموما . فلما حاولت زوجته أن تصرفه عنه إلى شواغل أقل جهامة قال لها « إننى أكتب القداس الجنائزى لنفسى ، وسيصلح صلاة لمأتمى » [١٠١] وألف لحن « يا رب أرحم » Kyrie وأجزاء من « يوم الغضب » والبوق السماوى Tuba Mirum « والملك الموهوب » Rex Tremendae واذكرنى Recordare و « الباكية » Lacrimosa و « أيها الرب » و « المدانون Confutatis » و « القرابين » Hostias . وقد ترك هذه الأجزاء المتناثرة دون مراجعة ، وهى تشى باضطراب عقل يواجه الانهيار . وقد أكمل فرانتز زافير زوسماير « القداس الجنائزى » على نحو رائع .

وفى نوفمبر بدأت يدا موتسارت ورجلاه تتورم ورما مؤلما ، وأصابه شلل جزئى . فاضطر إلى لزوم فراشه ، فى تلك الامسيات حين كانت أوبرا « الناى السحرى » تمثل كان يضع ساعته إلى جواره ويتابع كل فصل فى خياله ، مدندنا بالألحان أحيانا . وفى آخر يوم فى حياته طلب نوتة القداس الجنائزى ، ورتل دور الألتو ، ورتلت السيدة شاك السوبرانو ، وفرانتز هوفر التنور ، والهر جيرل الباص . فلما بلغوا « الباكية » بكى موتسارت . وتنبأ بأنه سيموت الليلة . وناوله كاهن الأسرار المقدسة الأخيرة . وقرب المساء فقد الوعى ، ولكنه فتح عينيه بعد منتصف الليل بقليل ثم أدار وجهه إلى الحائط وسرعان ما إنتهت آلامه (٥ ديسمبر ١٧٩١) .

ولم تستطع زوجته ولا أصدقاؤه أن يشيعوه كما ينبغى أن يشيع . صلى على الجثمان فى كنيسة القديس إسطفانوس فى ٦ ديسمبر ، ودفن فى فناء كنيسة القديس مرقص . ولم يشتر له قبر ، بل أدلى الجثمان فى قبوه عام صنع ليتلقى أجساد خمسة عشر أو عشرين من الفقراء المعدمين . ولم تحدد الموضع علامة من صليب أو نص ، فلما ذهبت إليه أرملته بعد أيام لتصلى ، لم يستطع أحد أن يدلها على البقعة التى ضمت رفات موتسارت .

المراجع الافرنجية

CHAPTER IX

1. Vaussard, *La Vie quotidienne en Italie au xviiiᵉ siècle*, 27.
2. *Ibid.*, 107.
3. 105.
4. 125.
5. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 519.
6. Baedeker, *Northern Italy*, 471.
7. James, E. E., *Bologna*, 178-80.
8. Casanova, *Memoirs*, I, 14.
9. Rolland, Romain. *Musical Tour through the Land of the Past*, 167.
10. *Ibid.*
11. *Ibid.*
12. *Réalités*, November, 1954, p. 45.
13. Láng, *Music in Western Civilization*, 354.
14. Grout, D. J., *Short History of Opera*, 196.
15. Kirkpatrick, R., *Domenico Scarlatti*, 94.
16. Einstein, Alfred, *Gluck*, 101.
17. Lee, Vernon, *Studies of the 18th Century in Italy*, 206.
18. Vaussard, 82.
19. De Sanctis, *History of Italian Literature*, II, 825.
20. Vaussard, 83.
21. *Ibid.*, 86.
22. 88.
23. Campbell, T. J., *The Jesuits*, 424.
24. McCabe, Jos., *Candid History of the Jesuits*, 287.
25. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 276.
26. Chesterfield, *Letters*, Feb. 28, 1749.
27. Einstein, *Gluck*, 15.
28. Gatti-Cazazza Collection, Venice.
29. Private collection, Venice.
30. *Ibid.*
31. Museo Civico, Bassano.
32. Voltaire, *Works*, VIIIa, 5.
33. Molmenti, P., *Venice*, Part III: *The Decadence*, I, 37.
34. *Ibid.*, 49.
35. Molmenti, *The Decadence*, II, 17, 146.
36. *Ibid.*, 48.
37. 49.
38. Rousseau, *The Confessions*, I, 301; Molmenti, II, 93.
39. Vaussard, 180.
40. Goldoni, *Memoirs*, 178.
41. Rousseau, *The Confessions*, I, 292.
42. Molmenti, I, 169; Vaussard, 195.
43. *Grove's Dictionary of Music*, III, 314.
44. Pincherle, *Vivaldi*, 16.
45. *Ibid.*, 17.
46. Rolland, *Musical Tour*, 187.
47. Pincherle, 67.
48. E. g., Violin Concerto in E, Concerto Grosso in D Minor.
49. Pincherle, 61.
50. *Ibid.*, 229-32.
51. *Time*, Nov. 29, 1963.
52. Lord Walpole Collection.
53. Brera Gallery, Milan.
54. Boston Museum of Fine Arts; Wallace Collection.
55. National Gallery, London.
56. Wallace Collection.
57. London, Vienna, Geneva.
58. New York.
59. Turin.
60. Louvre.
61. Duke of Devonshire Collection.
62. Levey, *Painting in 18th-Century Venice*, 92.
63. Anon., *Tiepolo*, 34.
64. Ospedaletto, Venice.
65. E.g., Sitwell, S., *Southern Baroque Art*, 35.
66. Molmenti, *Tiepolo*, 19; Venturi, L., *Italian Painting from Caravaggio to Modigliani*, 74.
67. Letter of Mar. 13, 1734, in Rolland, *Musical Tour*, 149.

67a. Goldoni, *Memoirs*, 184.

68. Casanova, *Memoirs*, II, 276.
69. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 29; Vaussard, 193.
70. Goldoni, *Memoirs*, I, 4.
71. *Ibid.*, 179.
72. 183.
73. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 323.
74. Gozzi, Carlo, *Memoirs*, II, 110 f.
75. Molmenti, *Venice: Decadence*, I, 168.
76. Goldoni, *Memoirs*, 346.
77. *Ibid.*, introd., *xi*.
78. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 7.
79. Goldoni, *Memoirs*, *xxi*.
80. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 70.
81. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, VI, 675.
82. Ranke, *History of the Popes*, III, 472.
83. *New Cambridge Modern History*, VII, 284.

84. Funk, F. X., *Manual of Church History*, II, 180.
85. Macaulay, Essays, II, 179.
86. De Brosses in McCabe, Jos., *Crises in the History of the Papacy*, 354.
87. *Correspondance de Benoit XIV*, II, 268, in McCabe, *Crises*, 354.
88. *CMH*, VI, 591.
89. Ford, Miriam de, *Love Children*, 205.
90. Lanfrey, P., *L'Église et les philosophes*, 190.
91. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 60.
92. Sime, James, *Lessing*, I, 92.
93. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, IV, 1393.
94. Gershoy, Leo, *From Despotism to Revolution*, 146.
95. *CMH*, VI, 598.
96. *Ibid.*, 599.
97. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 369.
98. Vico, Giambattista, *Autobiography*, 111.
99. Croce, B., *Philosophy of Giambattista Vico*, 252.
100. Vico, *The New Science*, No. 31.
101. *Ibid.*, Nos. 916–18; we have ventured to improve the translation.
102. Nos. 922–24.
103. 925–27.
104. Vico, *Autobiography*, 171.
105. *The New Science*, No. 1104.
106. 1105.
107. 417–24.
108. 873–80.
109. 361.
110. *Autobiography*, 173.
111. *The New Science*, No. 1110.
112. Croce, *Philosophy of Vico*, 269.
113. *Ibid.*, 274.
114. Croce, *Filosofia di G. B. Vico* (1911).
115. Grout, *Opera*, 200.
116. *Ibid.*, 208.
117. *Oxford History of Music*, IV, 185.
118. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 917.
119. *Grove's Dictionary*, II, 785.
120. *Ibid.*
121. *Ibid.*
122. Beckford, Wm., *Travel Diaries*, II, 167.
123. Lee, Vernon, *Studies*, 194.
124. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 21.
125. *Ibid.*, 32.
126. 33.
127. Introd. to the Victor Album of Scarlatti's Sonatas.
128. Kirkpatrick, 58.
129. *Ibid.*, 103.
130. Especially delightful: Nos. 13, 23, 25, 104, and 338, in the Longo numbering.
131. Coxe, Wm., *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 231.

CHAPTER X

1. Beckford, *Travel Diaries*, II, 171.
2. Cheke, Marcus, *Dictator of Portugal*, 4.
3. Day, Clive, *History of Commerce*, 186; *History Today*, November, 1955, p. 730.
4. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 28; Stirling-Maxwell, IV, 1385.
5. *New CMH*, VII, 289.
6. Stephens, H. M., *Story of Portugal*, 354.
7. *Enc. Brit.*, XX, 681b.
8. *History Today*, November, 1955, p. 731.
9. Campbell, *The Jesuits*, 431.
10. Cheke, 50.
11. *Ibid.*, 111.
12. *History Today*, November, 1955, p. 733.
13. See *The Age of Reason Begins*, 249–51.
14. Cheke, 106.
15. McCabe, *The Jesuits*, 262.
16. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 258; Cheke, 114.
17. Our account follows Cheke, 118 f.
18. Lanfrey, 259.
19. Cheke, 132.
20. Lanfrey, 260.
21. McCabe, *Jesuits*, 263.
22. Campbell, *Jesuits*, 462.
23. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 152; Cheke, 140.
24. Voltaire, *Works*, XVIa, 243.
25. Cheke, 155.
26. *Ibid.*, 157.
27. Voltaire, XVIa, 243.
28. Gershoy, 153; Cheke, 204.
29. Gershoy, 154.
30. Stephens, *Portugal*, 367.
31. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 310n.
32. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 277.
33. Cheke, 251.
34. *Ibid.*, 268.
35. *Ibid.*

CHAPTER XI

1. Altamira, R., *History of Spain*, 482, 466; Ogg, D., *Europe in the 17th Century*, 22; *New CMH*, VII, 271.
2. Herr, Richard, *The Eighteenth-Century Revolution in Spain*, 106; see also Altamira, 467–68.
3. Herr, 96.
4. Altamira, 460; Stokes, Hugh, *Francisco Goya*, 187.
5. Klingender, F. D., *Goya in the Democratic Tradition*, 4n.
6. *Ibid.*, 4–5; Campbell, *Jesuits*, 424.
7. Kany, C. E., *Life and Manners in Madrid, 1750–1800*, 375.
8. Vallentin, A., *This I Saw*, 26.
9. Lea, *Inquisition in Spain*, III, 308–10; IV, 523.

10. Martin, H., *France*, XV, 114-15.
11. Ticknor, Geo., *History of Spanish Literature*, III, 244.
12. Lea, IV, 530.
13. Buckle, H. T., *Introd. to the History of Civilization in England*, IIa, 61.
14. *CMH*, VI, 124.
15. Voltaire, XIXa, 214.
16. Burney, Charles, *History of Music*, II, 815-16.
17. Kany, 392.
18. Coxe, *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 141-43.
19. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 268.
20. Herr, 75.
21. Letter of d'Alembert to Voltaire, May 13, 1773, in Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 372.
22. Herr, 63.
23. *Ibid.*, 77.
24. Ségur, *Lespinasse*, 254.
25. Altamira, 508.
26. Lea, *Inquisition*, IV, 307.
27. Herr, 210.
28. Michelet, *Histoire de France*, V, 439.
29. Stokes, *Goya*, 147.
30. Coxe, *Kings of Spain*, IV, 235.
31. Letters of an English officer, 1788, in Buckle, IIa, 92.
32. Coxe, IV, 236.
33. Hume, Martin, *Spain: Its Greatness and Decay*, 397.
34. Coxe, IV, 408.
35. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 163.
36. Coxe, IV, 341.
37. *Ibid.*, 361.
38. Campbell, *Jesuits*, 511-12.
39. *Ibid.*; Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 280.
40. Coxe, IV, 362.
41. *Ibid.*, 363.
42. Lanfrey, 282.
43. Campbell, 517-18.
44. *Ibid.*, 519; Lanfrey, 281.
45. Coxe, IV, 368.
46. Herr, 23.
47. *Ibid.*
48. 205.
49. 29.
50. 208.
51. Kany, 356-57.
52. Buckle, IIa, 86; Robertson, *Freethought*, II, 372.
53. Herr, 210; Robertson, 373.
54. Herr, 35; Trevor-Roper, 264.
55. Coxe, IV, 412-16; Casanova, *Memoirs*, II, 344.
56. Altamira, 438.
57. Fitzmaurice-Kelly, *History of Spanish Literature*, 357.
58. Rev. Geo. Edmundsen, in *CMH*, VI, 384.
59. Vallentin, 5.
60. Herr, 54.
61. *Ibid.*, 57.
62. Buckle, IIa, 98.
63. *Ibid.*, 94.
64. Herr, 128.
65. *CMH*, VI, 383.
66. Herr, 148.
67. *Ibid.*, 141-42.
68. 150.
69. Kany, 24; Vallentin, 26.
70. Kany, 38.
71. *Ibid.*, 18.
72. Hume, Martin, *Spain*, 411.
73. Stokes. 188; Kany, 214.
74. Laborde, *Spain*, in Buckle, IIa, 114.
75. Kany, 24.
76. *Ibid.*, 280.
77. Casanova, II, 348.
78. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 132.
79. Altamira, *History of Spanish Civilization*, 183.
80. Trevor-Roper, 264.
81. Kany, 345; Buckle, IIa, 95.
82. Ticknor, III, 256; Herr, 165.
83. Ticknor, III, 262.
84. *Ibid.*, 273.
85. Vallentin, 144.
86. Calvert, A. F., *Royal Palaces of Spain*, 97.
87. Cathedral of Salamanca.
88. Prado.
89. Private collection, Zurich.
90. Prado.
91. Poore, Charles, *Goya*, 156.
92. Calvert, *Goya*, 55.
93. Poore, 48.
94. One in Frick Collection, New York.
95. Prado.
96. Prado.
97. Vallentin, 93.
98. Trevor-Roper, 266.
99. Vallentin, 111.
100. *Ibid.*, 112.
101. E.g., Malraux in Goya, *Drawings from the Prado*, xiv.
102. Lassaigne, J., *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 89.
103. Vallentin, 112.
104. *Ibid.*, 119.
105. Duke of Alba Collection.
106. Goya, *Drawings*, Plate 4.
107. Collection of the Hispanic Society, New York.
108. Vallentin, 195.
109. *Ibid.*, 203.
110. Prado.
111. Vallentin, 183.
112. Academy of San Fernando, Madrid.
113. National Gallery, Washington.
114. Academy of San Fernando, Madrid.
115. Klingender. *Goya*, 92.
116. Goya, *Drawings*, 123.

117. *Ibid.*, 130.
118. 170.
119. Academy of San Fernando.
120. Goya, *Drawings*, 112.
121. *Ibid.*, 89-117.
122. 118.
123. Vallentin, 223.
124. Both in the Prado.
125. Metropolitan Museum of Art, New York.
126. In Goya, *The Disasters of War*, No. 23.
127. *Ibid.*, No. 12.
128. No. 44.
129. No. 47.
130. No. 18.
131. These pictures from the Quinta del Sordo are in the Prado.
132. Lassaigne, *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 106.

CHAPTER XII

1. Goethe, *Letters from Italy*, Sept. 16, 1786.
2. *Ibid.*, Sept. 12 and 13, 1786.
3. Gozzi, Carlo, *Memoirs*, II, 7.
4. *Ibid.*, 100-03.
5. Hazlitt, W. C., *The Venetian Republic*, II, 323.
6. Casanova, *Memoirs*, II, 110.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 275.
8. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 171.
9. Goethe, *Letters from Italy*, Oct. 25, 1786.
10. *CMH*, VI, 601.
11. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 48.
12. Goethe, *Letters from Italy*, Mar. 17, 1787.
13. Vaussard, 74.
14. Friedländer, Ludwig, *Life and Manners under the Early Empire*, II, 78.
15. Goethe, Oct. 27, 1786.
16. Vaussard, 84.
17. *Ibid.*, 89.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 122.
19. McCabe, *The Jesuits*, 346.
20. E.g., Lanfrey, *Histoire politique des papes*, 384; *id.*, *L'Église et les philosophes*, 105.
21. Campbell, *Jesuits*, 536.
22. McCabe, *Jesuits*, 346.
23. Ranke, *History of the Popes*, II, 449-50.
24. Campbell, 538.
25. *Ibid.*, 541.
26. McCabe, 355.
27. Campbell, 563.
28. Mozart, letter of Aug. 4, 1770, in Anderson, Emily, *Letters of Mozart*, I, 227.
29. Jahn, *Life of Mozart*, I, 151.
30. Blom, Eric, *Mozart*, 57.
31. Goethe, *Letters from Italy*, Nov. 24, 1786.
32. Vaussard, 141-43.
33. Beccaria, *Dei delitti e delle pene* (1766 ed.), p. 11.
34. Carlyle, "Count Cagliostro," in *Essays* (*Works*, III), 187-92.
35. Goethe, *Letters*, Apr. 13 and 14, 1787.
36. Casanova, I, 13.
37. *Ibid.*, 14.
38. 123.
39. Introd. *xx*.
40. 210.
41. 211.
42. 219.
43. 287.
44. 330.
45. 406-7.
46. II, 370, 393.
47. *Ibid.*, 340.
48. Gilbert, O. P., *The Prince de Ligne*, 157.
49. Winckelmann, I, 3.
50. *Ibid.*, 9.
51. 18.
52. 21.
53. Pater, Walter, *The Renaissance*, 155.
54. In Brandes, *Goethe*, II, 244.
55. Winckelmann, I, 31.
56. In Muther, *History of Modern Painting*, I, 81.
57. Pater, *Renaissance*, 148.
58. Winckelmann, I, 46.
59. *Ibid.*, 60.
60. II, 319.
61. I, 64.
62. *Ibid.*
63. *Ibid.*
64. *Ibid.*
65. I, 70.
66. 287.
67. 77.
68. 76, 84.
69. 86.
70. In Pater, 147.
71. Both in Museo Correr, Venice.
72. Good examples in Morgan Library, New York, and Metropolitan Museum of Art.
73. Levey, *Painting in Venice*, 103.
74. Poldi-Pezzoli Museum, Milan.
75. Louvre.
76. Altere Pinakothek, Munich.
77. Muther, I, 86.
78. Winckelmann, I, 407.
79. Prado.
80. Jahn, *Mozart*, III, 1, 15.
81. Burney, Fanny, *Diary*, 72-73.
82. Burney, Charles, *History of Music*, II, 886-91.
83. Einstein, Albert, *Gluck*, 151.
84. *Grove's Dictionary*, IV, 174.
85. *Ibid.*, 509.
86. Einstein, *Gluck*, 149.
87. *Grove's*, I, 650.
88. Translation by Richard Garnett (*History of Italian Literature*, 300).

89. In De Sanctis, II, 831.
90. Alfieri, Vittorio, *Autobiography*, Epoch I, Ch. i.
91. *Ibid.*, Epoch II, Ch. iv.
92. III, iii.
93. III, xii.
94. Alfieri, *Of Tyranny*, 102.
95. *Ibid.*, Book I, Section 1.
96. II, vii.
97. II, viii.
98. I, ix.
99. I, viii.
100. "Forethought" to *Of Tyranny*.
101. *Autobiography*, Epoch IV, Ch. viii.
102. Epoch I, Ch. viii.
103. IV, v.
104. IV, xx.
105. IV, xvi.

CHAPTER XIII

1. Gilbert, *Prince de Ligne*, 29, 57.
2. *Ibid.*, 135.
3. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 96.
4. Frederick the Great, *Guerre de Sept Ans*, 386.
5. Gooch, G. P., *Maria Theresa*, 3.
6. Jahn, *Mozart*, I, 65.
7. Voltaire, *Works*, XVIa, 167.
8. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 89.
9. Campbell, *Jesuits*, 433.
10. Paulsen, F., *German Education*, 147-49.
11. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 297.
12. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 100.
13. Casanova, *Memoirs*, I, 147.
14. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
15. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 305.
16. Padover, 20.
17. Stryienski, *Eighteenth Century*, 64.
18. *Ibid.*
19. *Jahn*, I, 67.
20. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
21. Casanova, I, 148.
22. *Enc. Brit.*, XIII, 151b.
23. Padover, 34.
24. *Enc. Brit.*, 1. c.
25. Padover, 34.
26. *Ibid.*, 37.
27. 41.
28. Gooch, *Maria Theresa*, 14.
29. Padover, 47.
30. Mann, Thos., *Three Essays*, 165.
31. Gooch, 21-29; Padover, 67.
32. Gooch, 29.
33. Padover, 134.
34. *Ibid.*, 134, 30.
35. 136.
36. 84; Gooch, 29.
37. Padover, 89.
38. Gooch, 65.
39. *Ibid.*, 66.
40. Padover, 77.
41. Gooch, 41.
42. Padover, 90-93.
43. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 202.
44. Gershoy, 89.
45. Riedl, Frederick, *History of Hungarian Literature*, 77-81.
46. Hazard, *European Thought*, 109.
47. Padover, 73.
48. *Ibid.*, 74.
49. 81.
50. Gooch, 70.
51. Martin, *France*, XVI, 392.
52. *Ibid.*, 391.
53. Padover, 94; *CMH*, VI, 628.
54. Parton, James, *Daughters of Genius*, 402.
55. *Cf.* Coxe, *History of the House of Austria*, III, 485-86.
56. Richard, Ernst, *History of German Civilization*, 380.
57. Padover, 181.
58. *Ibid.*, 178.
59. 279.
60. 281.
61. 285; Gershoy, 100.
62. Gershoy, 101.
63. Padover, 286.
64. Coxe, *House of Austria*, III, 491n.
65. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 356.
66. Padover, 212.
67. Jahn, *Mozart*, II, 401.
68. Padover, 214-15.
69. *Ibid.*
70. *History Today*, September, 1955, p. 615.
71. Padover, 246.
72. Coxe, III, 493.
73. Padover, 243.
74. Vambéry, *The Story of Hungary*, 385.
75. Padover, 299.
76. *Ibid.*, 311.
77. Coxe, III, 526.
78. Padover, 329.
79. *Ibid.*, 345.
80. 373.
81. 360.
82. 364.
83. 383.
84. *History Today*, September, 1955, p. 620.
85. Gilbert, O. P., *Prince de Ligne*, 193.
86. Coxe, III, 541.
87. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, VII, 492.
88. Padover, 287.

CHAPTER XIV

1. Jahn, *Mozart*, II, 202.
2. Weinstock, Herbert, *Handel*, 268.

3. Rolland, *Musical Tour*, 208.
4. Rolland, *Essays in Music*, 176.
5. Einstein, *Gluck*, 59.
6. In Brockway and Weinstock, *The Opera*, 66.
7. Einstein, *Gluck; Grove's Dictionary of Music*, II, 401.
8. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 659.
9. Faguet, E., *Rousseau artiste*, 191; Einstein, *Gluck*, 137.
10. Brockway and Weinstock, *Opera*, 97.
11. Einstein, 138.
12. Faguet, *Rousseau artiste*, 191.
13. *Grove's*, II, 400.
14. Rolland, *Essays*, 197-98.
15. *Kobbé's Complete Opera Book*, 42.
16. Rolland, *Essays*, 179.
17. Einstein, 146.
18. Burney, C., *History of Music*, II, 973.
19. Einstein, 151.
20. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 70.
21. *Kobbé's*, 52.
22. *Grove's*, IV, 174.
23. Einstein, 182.
24. Pratt, W. S., *History of Music*, 362.
25. Clark, Robert, *Herder*, 108, 429.
26. *Grove's*, II, 566.
27. Geiringer, Karl, *Haydn*, 44.
28. *Grove's*, II, 568.
29. Geiringer, 52-54.
30. *Ibid.*, 55.
31. *Grove's*, II, 570.
32. Jahn, II, 349.
33. Geiringer, 77.
34. *Ibid.*, 89.
35. 99.
36. *Grove's*, II, 574.
37. Geiringer, 108.
38. *Ibid.*, 110.
39. 121.
40. Jacob, H. E., *Joseph Haydn*, 212.
41. *Ibid.*, 267.
42. Geiringer, 168.
43. *Ibid.*, 167.
44. McKinney and Anderson, *Music in History*, 465.
45. *Grove's*, II, 582.

CHAPTER XV

1. Jahn, *Mozart*, II, 437.
2. *Ibid.*, I, 21n.
3. I, 28.
4. 33.
5. Blom, *Mozart*, 26.
6. Biancolli, *Mozart Handbook*, 129.
7. Jahn, I, 39.
8. *Ibid.*, 107.
9. 119.
10. 129.
11. 132.
12. 137.
13. *Ibid.*
14. Wyzewa and Saint-Foix, *W. A. Mozart*, I, 470.
15. *Ibid.*, 474.
16. Jahn, I, 149.
17. *Ibid.*, 344.
18. Anderson, E., *Letters of Mozart*, I, 403.
19. *Ibid.*, 395.
20. Einstein, *Mozart*, 41.
21. Anderson, II, 686-88.
22. *Ibid.*, 695.
23. 681-83.
24. 700-09.
25. Einstein, *Mozart*, 30-31.
26. Anderson, II, 925.
27. Blom, 88; Jahn, II, 65-66.
28. Letter of May 6, 1781, in Einstein, 54.
29. Jahn, II, 171.
30. *Ibid.*, 176.
31. 179.
32. 184.
33. Anderson, II, 1100.
34. Letter of July 25, 1781, in Anderson, II, 1121.
35. Anderson, III, 1166-69.
36. Einstein, 458.
37. Jahn, II, 413.
38. *Ibid.*, 419.
39. 420.
40. 439.
41. 337, 421.
42. Einstein, 238.
43. Letter of Leopold Mozart, Feb. 14, 1785, in Anderson, III, 1321.
44. Anderson, 1329.
45. Letter of Apr. 10, 1784, in Einstein, 265.
46. *Grove's*, III, 563.
47. Einstein, 223.
48. Biancolli, 345.
49. Einstein, 214.
50. Biancolli, 355.
51. *Ibid.*, 374.
52. 367-69; Blom, 183.
53. Einstein, 280.
54. Goethe, *Poetical Works*, 120. In *Works*.
55. "His Master's Voice" Record C 2736.
56. Jahn, II, 440; Nettle, Paul, *Mozart and Masonry*, 112.
57. Biancolli, 132.
58. Rolland, *Essays*, 246.
59. *Ibid.*
60. E.g., in the letter of Nov. 5, 1777: "I wish you good night, but first shit into your bed." And on Nov. 13: "I've been shitting, so 'tis said, nigh twenty-two years through the same old hole, which is not yet frayed one bit." (Anderson, II, 525, 546).
61. Letter of Jan. 31, 1778.
62. Letter of Sept. 26, 1777.
63. Nettle, 122.

64. Jahn, II, 269-71.
65. *Ibid.*
66. E.g., letters of Apr. 13, 1789, and Sept. 30, 1790.
67. Letter of June 7, 1783.
68. Letter of Feb. 20, 1784.
69. Letter of July 31, 1782.
70. Anderson, II, 826.
71. Nettle, 115; Ghéon, *In Search of Mozart*, 216.
72. Anderson, III, 1450.
73. Jahn, II, 304; Nettle, 120.
74. Einstein, 57.
75. Jahn, II, 295.
76. *Ibid.*
77. 298.
78. Einstein, 57.
79. Anderson, III, 1253.
80. *Ibid.*, 1296.
81. In Biancolli, 138.
82. Jahn, II, 412.
83. Einstein, 442.
84. Jahn, III, 134.
85. *Ibid.*, 140.
86. Goethe to Schiller, Dec. 30, 1797.
87. Anderson, III, 1360.
88. Blom, 138.
89. *Ibid.*
90. Letters of Dec. 14, 1789, in Anderson, III, 1383-85.
91. Brockway and Weinstock, *Opera*, 91.
92. Anderson, III, 1398-99.
93. Jahn, II, 278-80.
94. Nettle, 116.
95. Biancolli, 421.
96. Jahn, III, 285.
97. Einstein, 363.
98. Grout, *Short History of Opera*, 294.
99. Biancolli, 554.
100. Nettle, 117.
101. Stendhal in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, [illegible]



الكتاب الثالث

الفصل الحادي عشر :

الفصل الثانى عشر :

الصفحة

الفصل الثالث عشر :

الفصل الرابع عشر :

الفصل الخامس عشر :

